الكنيسة

والمجتمع القبطى

فى العصر الوسيط

إعداد / هنرى ناجى

الكنيسة والمجتمع القبطى فى العصر الوسيط

دراسة أولية مبسطة لأحوال الكنيسة والمجتمع القبطى من القرن السابع الميلادى وحتى القرن التاسع عشر الميلادى

بحث وتحقيق / هنرى ناجى فوذى

ديسمبر 2019م

مقدمة عامة

بدأت فكرة هذا البحث عندما قرأت كتاب المسيحية والحضارة العربية للكردينال جورج شحاتة قنواتى وزادت الرغبة في هذا البحث بعدما أطلعت على كتب العالم الجليل لويس شيخو التي كتبها عن العلماء والوزراء والشعراء النصارى

لقد راعيت أن أنقل النصوص كما هي للأمانة العلمية ولكن فقط قمت بخذف عبارات الشتائم التي كان يدسها المؤرخون في وسط كتاباتهم وقد تجاهلت أيضاً النصوص التى لا تتوافق مع العقيدة المسيحية، وبالرغم من التجاهل الشديد للمؤرخين العرب للأقباط إلا أنه قد أستعطت أن أكون مادة لفترة تاريخية تفتقر كتب التاريخ القبطية لتفاصيل كثيرة عنها، هذا البحث ينتظر يوماً ما مجموعة أخرى من الباحثين لتكملته ليخرج بصورة أكبر لتكمل جوانب النقص التي فيه، وفى ذات الوقت أشكر المؤرخين العرب الذين بقدر تجاهلهم لنا فى تاريخهم وإن كان منهم قد كتب عن تاريخ الأقباط فقد كتبه على مضض فبالرغم من هذا قد أستطعنا أن نكون مادة علمية من القليل الذى ذكر عنا

ونجد كثيرين قد أسلموا كرهاً بعد أن أجبروا على ترك دينهم ومن أمثالهم الوزير موفّق الدين أبو الفرج الأسلمى الذى توفى سنة 796 هـ تحت العقوبة فى يوم الاثنين عشرين شهر ربيع الآخر، وكان أسوأ الوزراء سيرة، لأنه كان أكره على الإسلام حتى قال: كلمة الإيمان غصبا ولبس العمامة البيضاء وهو باق على دين النّصرانية، فكان على الناس بذنوبهم، ولما كان على دين النصرانية وهو يباشر الحوائج خاناه كان مشكور السيرة، حتى أكره على الإسلام، فبلغ من المسلمين مبلغا عظيما من الظلم والجور، وولى فى بعض الأحيان نظر الجيش بديار مصر أيضاُ[1].

1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة يوسف بن تغري ج 12 ص 139

كذلك شرف الدين عبد الوهاب النشو القبطي الذى أسلم ولكن يذكر عنه ابن قايماز الذهبى سنة أربعين وسبعمائة هـ وفيه قبض على الصاحب شرف الدين عبد الوهاب النشو القبطي في صفر وصودر، واستصفيت حواصله بمباشرة الأمير سيف الدين شنكر الناصري. ومن جملة ما وجد له، صندوقٌ ضمنه تسعة عشر ألف دينار، وأربعمائة مثقال لؤلؤ كبار، وصليب مجوهر، ووجد بداره كنيسة مرخمة مصورة بمحاريبها الشرقية ومذابحها وآلاتها. واستمر الملعون في العقوبة حتى هلك في ربيع الآخر[1].

وكثير ممن وصلوا لأعلى المناصب بسبب أمانتهم وعلمهم وعملهم وكمثال منهم ابن مماتى لصق بهم بعض المؤرخون أنهم اعتنقوا الإسلام ولكن في بحثنا هذا نتحدث فقط عن الشخصيات المسيحية ونتجنب من غير دينه ومعتقده من أجل محبة العالم حتى ولو كان ذو شأن عظيم وهو لا يزال معتنقاً المسيحية

ويذكر ابن عبد الحكم القرشى ما يدل على عنف عمرو بن العاص ضد الأقباط: حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن وهب، قال: سمعت حيوة بن شريح، قال: سمعت الحسن بن ثوبان الهمدانى، يقول: حدثنى هشام بن أبى رقية اللخمى، أن عمرو ابن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر: إن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته، وإن نبطيا من أهل الصعيد، يقال له بطرس، ذكر لعمرو أن عنده كنزا، فأرسل إليه فسأله، فأنكر وجحد، فحبسه فى السجن، وعمرو يسأل عنه: هل يسمعونه يسأل عن أحد؟ فقالوا: لا، إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور، فأرسل عمرو إلى بطرس، فنزع خاتمه من يده، ثم كتب إلى ذلك الراهب، أن ابعث إلى بما عندك، وختمه بخاتمه، فجاءه رسوله بقلة شأمية مختومة بالرصاص، ففتحها عمرو، فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها: ما لكم تحت الفسقية الكبيرة؛ فأرسل عمرو إلى الفسقية، فحبس عنها الماء، ثم قلع البلاط الذي تحتها، فوجد فيها اثنين وخمسين إردبا ذهبا مضروبة، فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد. فذكر ابن أبى رقية أن القبط أخرجوا كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم فيقتل، كما قتل بطرس، حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، أن عمرو بن العاص استحل مال قبطى من قبط مصر، لأنه استقر عنده

1) العبر فى خبر من غبر لابن قايماز الذهبى ج 4 ص 118

أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، ويكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعة وخمسين إردبا دنانير[1].

ومن الأمثلة أيضاً للتعصب الذى واجه الأقباط: فعندما بويع هارون بن محمد الرشيد، فأقر علي بن سليمان عليها، وأظهر علي بن سليمان في ولايته عليها: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والخمور، وهدم الكنائس المحدثة بمصر، فهدم كنيسة مريم الملاصقة لأبي شنودة، وهدم كنائس محرس قسطنطين، وبذل له خمسون ألف دينار في تركها فأمتنع[2]
ومن الأمثلة على الصعاب التى واجهت الأقباط بمصر ففى أيام الحاكم بأمر الله ما جاء على لسان ابن أيبك الدواداري : وأما ما يذكر من محاسن سيرته فى ابتداء أمره فأنه أقام شعائر الإسلام ورفع منار الدين وأمر أن يبنى على كل كنيسة من الكنائس مسجداً طويل البناء يعلو تلك الكنيسة وكذلك سائر الديرة فى أعمال مصر ففعل وهو إلى الآن باقٍ[3].

ومن الأمثلة فى العصر الحديث أيام الحملة الفرسية على مصر ذكر نقولا التركي: وكان قد هاج أكثر العلماء والأعيان وقالوا :لا بدَّ نقتل بالسيف جميع النصارى قبل أن نخرج لا حرب الكفار، وقال الوزير وشيخ البلد إبراهيم بيك :غير ممكن أن نسلم إلى هذا الغرم والرأي؛ لأن هؤلاء رعية مولانا السلطان صاحب النصر والشان، وأما النصارى فوقع عليهم وهمٌ عظيمٌ وخوف جسيم، وبدوا الإسلام يتهدَّدوهم بالقتل والسلب، ويقولوا لهم :اليوم يومكم قد حلَّ قتلكم ونهبكم وسلبكم، وكانت مدة مهولة مرعبة ونار ثايرة ملهبة، ولكن بالمراحم المولى — عزَّ شانه — إذ إنه قد عطف وحنَّن عليهم قلب الوزير وشيخ البلد، وكانوا في كل يوم يرسلوا إليهم سليم أغا أغة الإنكشارية حالًا؛ يطمِّنوهم على أرواحهم وأموالهم، ويطلق المناداة في كل البلد على حفظ الرعايا وعدم المعارضة لهم[4].

1) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم القرشى ص 111

2) الولاة والقضاة للكندى ص 100

3) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدواداري ج6 ص259

4) ذكر تملك جمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية للمعلم نقولا تركي ص21

هذا وتلك الهجمة متَّصلة على تلك الصلدات من جميع الجهات وعلى حارة الأقباط التي بها يعقوب الصعيدي، وقد كافح هذا الرجل كفاحًا عظيمًا وعارك عراكًا جسيمًا، وفي سادس يوم من تلك الأسباب والأمور الصعاب هجمت الإسلام على حارة الأقباط ونهبوا البيوت وأيقنوا النصارى في الهلاك والارتباط، فهذا ما كان من أحوال مصروذلك الاتفاق. وأما ما كان من مدينة بولاق فإنهم حينما بلغهم دخول ناصيف باشا والغزِّ إلى مصر بالعزِّ والنصر فظنُّوا أن عسكر الإسلام انتصر وجيش الفرنساوية انكسر، فقاموا على النصارى الرعية فنهبوا أموالهم وسبوا أعيالهم[1]

وحتى بعد أن خرج الفرنسيس من مصر كانوا فى ضرر فيذكر نقولا التركي: وكان يومًا عظيمًا، وخرجت لمقابلتهم علماء مصروأعيانها وكافة أعوامها وسكانها وانتشرت الأعلام وانسرَّت الأنام، وفرحت الإسلام بخروج الإفرنج اللبام، وصاحت المسلمون: ما هذا إلا نصرًا من لله وفتحًا، وهاجوا هياجًا عظيمًا على النصارى، وقدموا عروضات إلى الوزير في قتلهم ونهبهم وسلبهم، فلم يصغ ذلك العادل لبغيهم ووشيهم،

ولم يلتفت لفسادهم ومكرهم، وأصدر فرمان خطابًا لساير الحكام والقضاة بأن لا يقبلوا دواعي التي حدثت بأيام الفرنساوية في الإيالة المصرية جزئية كانت أم كلية، ولم يرتض هذا الصدر النبيل أن يلتفت إلى هذا القال والقيل[2].

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر يصف أنتونى برتلمى (كلوت بك) مقدار المعاناة التى واجهها الأقباط خلال تاريخهم فيقول: تراهم فى وجوم دائم وإكتئاب ملازم، كأن الحزن لا ينفك عنهم، وسبب ظهورهم فى هذا المظهر الشدة المرعية فى تربيتهم والطرائق والأساليب المتبعة فى قيامهم بفروض دينهم[3].

وفى العهد الإسلامى الأول يمكن أن، أقول أنه فى بعض الفترات تمتعت الكنيسة ببعض الإمتيازات، فتذكر الدكتورة زبيدة محمد عطا: أنه بالنسبة لأرض الكنائس فد تمتعت الكنائس بأراضى زراعية ممتدة المساحة وكانت الكنائس تدفع الضارئب للدولة كما ثبت من برديات كوم

1) ذكر تملك جمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية للمعلم نقولا تركي ص107

2) ذكر تملك جمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية للمعلم نقولا تركي ص132

3) لمحة عامة إلى مصر أ. ب. كلوت بك، ص 435

أشقوه، ففى مجموعة البرديات القبطية إشارة غلى إيصالات ضرائب دفعت بواسطة دير ابوتوماس أصدرها أبوللوس وباخوم إلى أبى جورج رئيس الدير السابق وكان ذلك فى القرن الثامن، وهناك إيصالات أخرى لدير من أجل ضريبة النقود ومن الدير البحرى ذكرت فى الاستراواكا اسم رهبان دير فى جيما ودير القديس فيبيون حيث وجد أرشيف كامل خاص بالدير ذكر فيه أنه دفع شعير وكتان، ودفع القس كرياكوس ميزاناً من الشعير، وفى بردية أخرى يبدو فيها قس متولياً لوظيفة كاتب العدل ويشرف على الجبايات حيث أرسل أحد الأشخاص إلى الشماس يطلب منه تحريره من أعباء الأرض فى قريته ورفع جزء من الحقول المفروضة عليه لعدم استطاعته دفع الضريبة، وفى خطاب آخر قس ينصح أحد الأفراد بدفع ما عليه من الضرائب، وجميع هذه الوثائق مؤرخة من القرن الثامن، ولكن لم نتمكن من التأكد هلى هذه الوثائق صدرت بعد قرار عبد العزيز بن مروان بفرض الجزية على الرهبان أم قبلها؟[1].

وفى بردية تعود إلى سنة 697م/ 76هـ، من دير أبوبولص فى بلدة جيما بالأقصر، طلب رؤساء الدير مسؤول افقليم الذى يخاطبونه بالأمير السماح لثلاثة رهبان من الدير بالسفر من الفيوم إلى الفسطاط لبيع أثواب من انتاجهم ويطلبون التصريح لهم بثلاثة شهور ويذكرون بأنهم قاموا بما عليهم من أعباء الضرائب، وهناك عدد من ايصالات الخراج والجزية دفعها رهبان، فجورج الراهب دفع صولداً لمد2فوعات القسم الثانى من العام الأول فى شهر برمودة[2].

على الجانب الآخر نرى إجحاف الولاة فى فرض الجزية، فقد فرضوها على الموتى، فقد أمر عمر بن عبد العزيز عامل الخراج حيان ابن سريج سنة 99-105هـ أن يحمل جزية موتى القبط على أحيائهم، حتى إذا مات فرد من أهل القرية كانت تلك الجزية ثابتة عليهم[3].

الدكتور على إبراهيم حسن يشهد للإجحاف الشديد الذى واجهه الأقباط خلال فترة الحكم المملوكى فيقول: قاسى الأقباط كثيراً تحت حكم المماليك، وإن لم يتعرض المماليك لآرائهم الدينية، ولم تكن سياسة المماليك فى معاملتهم واحدة، والحق أن الأقباط كانوا ذوى نشاط ظاهر فى دواوين الحكومة المملوكية، وكانوا لازمين لحسن سير الأمور المالية فى البلاد، ومع ذلك

1) الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى، د زبيدة محمد عطا، ص 83-84

2) الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى، د زبيدة محمد عطا، ص 84-85

3) الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى، د زبيدة محمد عطا، ص 89

كانت الحكومة تقصيهم عن الوظائف بين حين وآخر، تحبباً إلى الشعب وإرضاء لروح التعصب، غير أن هذا الإقصاء كان قصير الأمد، لأن وجودهم فى تلك الوظائف كان ضرورياً، فقد كان حكام مصر من المماليك يشعرون بخلل الأداة الحكومية بعد ترك الأقباط لها، وكان شعور المماليك يثور على رعاياهم من الأقباط بسبب استمرار ذلك العداء الذى قام بين المماليك والصليبيين[1].

أما جان جاك لوتى فيذكر عن الأقباط فى فترة القرن الثامن عشر: أن عدد الأقباط يبلغ 200 ألف نسمة ويعيش الأقباط أساساً فى الصعيد لكن يوجد عدد منهم فى الدلتا والمدن الكبرى، وهم احتفظوا بسمات أساسية نتيجة لتمسكهم الشديد بعدم الزواج من غيرهم، فلون بشرتهم زيتونى وعيونهم جاحظة قليلاً وشفاههم غليظة والشعر أسود اللون وأجسامهم مستديرة قليلاً، والأقباط يتصفون بالتزمت والحرص ومع ذلك فهم يتميزون بالكياسة والأدب والمهارة، والأقباط مستبعدون من الخدمة فى الحكومة بسبب دينهم، لكن الأتراك والمماليك يستخدمونهم فى وظائف الكتبة والسكرتارية وجباية الضرائب وذلك بفضل معرفتهم بالحساب وبالكتابة العربية وبحروف لغتهم القبطية القديمة التى يستخدمونها لكتابة اللغة العربية (خط القرمة) وهكذا استطاع الكتبة الأقباط أن يجعلوا من موضوع مساحة الأرض الزراعية المغلوطة وتصنيفها حب الأهواء فناً غامضاً كانوا وحدهم الذين يعرفون سره، وهم لا يعطون معلوماتهم بسهولة للغير ولا يقبضون راتباً محدداً بل يأخذون نسبة مئوية من حصيلة الضرائب التى قاموا بجبايتها، وكَوَّنّ الكثيرون منهم الثروات بهذه الطريقة.
ويحظى هؤلاء الموظفون الأقباط بإحتقار الأتراك وكراهية الفلاحين الذين يعصرهم هؤلاء الموظفون بإسم السادة الذين يستخدمونهم، وأستفاد الباب العالى كمن العداوة المتبادلة بين المسلمين والأقباط، ووجد أنها أفضل وسيلة لملء خزانته بأموال الضرائب، فهو يجعل الأقباط يدفعون "فردة الرأس" بصفتهم غير مسلمين بالإضافة إلى الأعباء العادية التى يتحملها الجميع، وبإستطاعتنا تخمين مدى الإبتزاز الذى يمارسه أصحاب السلطة وممثلوهم، خصوصاً عندما نعرف أن الضرائب كانت تجبى بنظام الإلتزام.

1) مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى - د.علي إبراهيم حسن ص 480-481

ويُكَوِّن الأقباط فى الإدارة المصرية نوعاً من الإدارة الموازية يرأسها سكرتير باشا مصر، وهذا الموظف الكبير يتحكم فى التعيين فى الوظائف ولا يمنح الوظيفة إلا لمن يدفع له أكثر، لقد كان بيع الوظائف وشراؤها هو القاعدة فى ذلك الوقت[1].

وهناك إشارة توضح أنه كان للأقباط مدارسهم الخاصة فى العصور الوسطى لتعليم أولادهم، فيذكر علي بن أحمد السخاوي فى كتابة تحفة الأحباب وبغية الطلاب والذى قد انتهى من كتابته عام أربعة وثمانمئة 804 للهجرة: وبجوار المدرسة القبطية مدرسة الزمامية أنشأها الأمير مقبل الرومى الطواشى زمام الآدر كان الظاهرى برقوق فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة و جعل بها دروشا و صوفية و منبرا يخطب عليه، هذه المدرسة كان مكانها بعض دار الوزير يعقوب ابن كلس[2].

أما عن حال المسيحيين فى القرن الرابع عشر الميلادى، يذكر كل من ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى فى تقرير رحلتهم إلى الأراضى المقدسة عن مدينة القاهرة: هناك 25 ألف مسيحى معتنق الإسلام، وعدد مسيحيي المذاهب المقيمة أكثر، وهناك مذاهب كثيرة من المسيحيين، مسيحيون لاتين وهم قلة، وإغريق ونوبيون وأردنيون وأثيوبيون وأرمن، ومسيحيو الحزام الذين يعمدون أنفسهم بالنار فيشعلون رأسهم وصدغهم، ومنهم من يشعل الرأس أو الصدغ، وهم أتباع القديس توما وبطرس، وإسمهم كذلك لأن السيدة العذراء قبل إنتقالها إلى السماء أعطت حزامها للقديس توما[3].

والرحالة العثمانى أوليا جلبى، الذى زار مصر فى رحلته فى أواخر القرن السابع يذكر ما شاهده عن أعداد المسيحيين فى القاهرة: القبط فلهم 20 حارة و 600 منزل وعددهم 9000 قبطى

---

1) نظرة عامة على مصر فى زمن بونابرت، جان جاك لوتى ص 83-84

2) تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، أبى الحسن السخاوى، ص 67-68

3) رحلات إلى الأراضى المقدسة، ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى، ص 80-81

يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين، وهناك أربع حارات للأروام وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن 3000 نسمة يدفعون الخراج[1].
ويذكر أيضاً أوليا جلبي أنه كان للنصارى النصيب الأكبر فى مهنة السقايين فيذكر: وعلاوة على الأسبلة الأربعة آلاف فى القاهرة يجلب الماء من النيل عدة مئات الآلاف من الحمر والخيول والجمال إلى الشوارع الرئيسية ، وتغص الشوارع بهؤلاء السقائين وهم يرددون «ظهرك ، جنبك ، هشك» بحيث يتعذر المرور فى هذه الشوارع. ومع ذلك فكل هذه المياه لا تكفى أهل القاهرة وهم فى كثرة مياه البحر. وطبق ما جاء فى سجلات رئيس السقائين أن عدد السقائين النصارى 26000 سقاء وكل صاحب قصر له سقاء يجلب له الماء على ظهر الجمل والجواد[2].
كذلك يذكر أنه طائفة كاتبى «العرضحال» : 45 دكانا يعمل بها كذلك 45 ، منهم نصارى سريعو الكتابة[3].
كذلك يذكر فى مشاهداته أنه لازالت هناك مدن بأكملها يسكنها القبط: وخرجنا من منوف مع عشرين خيالا من العزب وسرنا فى اتجاه الشمال خمس ساعات حتى وصلنا بلدة طوخ النصارى وكل سكانها من القبط ، وقد كانت مدينة عظيمة قديما ولا تزال آثارها ظاهرة للعيان ، ولم يتبقى من منازلها إلا 800 ثمانمائة منزل فقط وثلاث أديرة ، ولهذه البلدة مكانة عند كل القبط[4].

خلال فترة الحكم العثمانى إنتشرت ظاهرة إحتكام الأقباط للقضاء الإسلامى فى قضايا الأحوال الشخصية ومن الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر:
فى الوثيقة رقم 487 سجل مصر القديمة رقم 92 الموجودة فى دفتر خانة الشهر العقارى والتوثيق بالقاهرة: تقدم شخص يدعى شنودة بن يوحنا بن سليمان النصرانى اليعقوبى، بصفته الزوج، ضد: عبد السيد بن يونان بن جرجس النصراني اليعقوبى، المدعى عليه، فى أن

1) الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، الرحالة العثمانى أوليا جلبى، الجزء الأول ص 255
2) الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، الرحالة العثمانى أوليا جلبى، الجزء الأول ص 360-361
3) الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، الرحالة العثمانى أوليا جلبى، الجزء الأول ص 491
4) الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، الرحالة العثمانى أوليا جلبى، الجزء الثانى ص 173

المدعى عليه قد حضر منزل الزوج وأخذ زوجته سعدات إبنة المدعى عليه، دون إذنه وتوجه بها إلى منزل أمها، فحكم القاضى فى 14 صفر 974 هـ بتوجه الزوجة إلى محل الطاعة بمنزل زوجها[1]. كذلك فى الوثيقة رقم 590 سجل مصر القديمة رقم 92 الموجودة فى دفتر خانة الشهر العقارى والتوثيق بالقاهرة: طلق ميخائيل بن يوسف بن جرجس النصرانى اليعقوبى، زوجته مريم النصرانية، طلقة بائنة مسبوقة بأولى، والصداق كان أربعة دنانير، بواسطة القاضى الحنبلى بمحكمة مصر القديمة فى 29 صفر سنة 974هـ[2].

كان إمتلاك الأقباط للجوارى مسموحاً به فى أوقات كثيرة، وغير مسموح به فى أوقات أخرى، فمن وثائق المحكمة الشرعية فى عام 937 للهجرة 1531م أعتق يوحنا بن منصور، ننلكوه أنطون الفرنجى من الرق واالعبودية، والمعلم ميخائيل بن أبشاى مباشر رضوان بيك كان لديه أربعة جوارى، والمعلم أبشاى ولد يوحنا ولد قزمان المباشر كان لديه خمسة جوارى، وفى حجة مخلفات المعلم ميخائيل بن أبشاى الذى كان لديه أربعة جوارى ذكروا بالتفصيل هكذا، جارية سوداء تسمى خصرة، جارية تسمى مباركة، جارية سوداء تسمى منصورة، جارية تسمى مباركة، وهذا يدل على إقتناء الأقباط الجوارى البيض والسود.[3]

كان دخول الأقباط لميدان الالتزام يرجع لثراء بعضهم؛ إذ عمل الأقباط كصيارفة وكتبة في دولة المماليك الجراكسة، ولثقة العثمانيين في الأقباط، وأيضـ ا لإبعاد العنصر الجركسي عن الإدارة، ولذلك كله أسهم الأقباط بنصيب كبير في هذا المجال منذ السنوات الأولى للحكم العثماني لمصر، ولقد ذهب أحمد أمين في قاموس العادات والتعابير المصرية إلى دخول الأقباط نظام الالتزام، وكان أول من التزم من الأقباط هو المعلم روفائيل بن ارميا بن غبريال النصراني اليعقوبي الذي التزم من ديوان الذخيرة الشريفة بأراضي منفلوط وشرق الخصوص ،كما التزم المعلم جرجس بن يوسف بن جرجس النصراني اليعقوبي لأراضي ولاية الفيوم لسنة ٩٣١ هـ/ ١٥٢٥ م، ما عثر عليه هو أربعة من الملتزمين الأقباط، وكان أبرزهم هو المعلم جرجس بن داود

1) وثائق أهل الذمة فى العصر العثمانى، د سلوى على ميلاد، ص 73

2) وثائق أهل الذمة فى العصر العثمانى، د سلوى على ميلاد، ص 74

3) الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى، د محمد عفيفى، ص 57-58

بن برسوم النصراني اليعقوبي الملتزم بناحية القنيات، والمعتمدية بالجيزة . وثاني هؤلاء هو نصرالله بن جرجس بن سلامة النصراني اليعقوبي الملتزم بوادي العباسية بالشرقية لسنة ٩٥٨ هـ/ ١٥٥٢ م، وثالثهم هو المعلم إبراهيم بن يعقوب بن إبراهيم بن جرجس النصراني اليعقوبي الذي التزم بنواحي صنافير وقرنفيل ودندنا وشبرا هاوس والكوم الأحمر وطحا نوبب القليوبية لسنة ٩٥٨ هـ/١٥٥٢ م، ثم استمر المعلم إبراهيم إلى سنة ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٤ م، في سنة ١٠٦١ هـ/ ١٦٤٩ م ؛ وهي الإشارة الرابعة التي عثر على ملتزمين المقدمة إلى القاضي الشرعي وكانا طرفي النزاع فيها اثنين من الملتزمين الأقباط وهم أقباط وهم عبد السيد بن برسوم النصراني اليعقوبي المباشر والمعلم يوسف بن فضل الله النصراني الملتزمان بناحية قمبرة والمحاطب بالغربية بسبب اشتراكهما في التزام واحد[1].

---

1) AnIsl 38 (2004), 30-32

جوانب
من الحياة للأقباط

أخبرونا المؤرخين العرب فى رواياتهم عن كثير من عادات الأقباط منها ما قد بطل وأنتهى ومنها مالازال مستمراً للآن، فيخبرنا ابن قتيبة الدينورى أن شخص أخبره: زيد الحميرى قال: قلت لثوبان الراهب أخبرنى عن لبس النصارى هذا السواد ما المعنى فيه؟ قال: هو أشبه بلباس أهل المصائب، فقلت: وكلكم معشر الرهبان قد أصيب بمصيبة؟ فقال: يرحمك الله! وأى مصيبة أعظم من مصائب الذنوب على أهلها[1]، وفى النجور الزاهرة تذكر: النصارى يمتازون بالزنار في أواسطهم[2].

وعن ارتباط النيل بأعياد الأقباط ومناسباتهم يذكر ابن إياس الجركسى عند حديثه عن زيادة النيل: ونبتدى الزيادة من خامس بؤونة فإذا كانت ليلة ثانى عشر بؤونة يكون عيد ميكائيل عند القبط وتنزل في تلك الليلة النقطة ويزيد النيل حينئذ ويوخذ قاع النيل لأجل أخذ القاعة وينادى عليه بما زاد من الأصايع في سابع عشر بؤونة[3] .

ويذكر بن أبي بكر الزهري ممن ما شاهده بالأسكندرية بالمقابر فيخبرنا عن بعض العادات فى الدفن: وقد يوجد كثير من النواويس والتوابيت بعضها من ذهب وبعضها من فضة ونحاس وحديد ورخام وهي قبور في كل قبر منها شخص ميت وقد يوجد على هؤلاء الموتى قلائد الذهب والدر والياقوت ووشائح الذهب والفضة كل واحد منهم على قدر مرتبته فى الدنيا ويوجد أكثرهم بصلبان فى أعناقهم مما يدل على أنهم متشرعون بدين النصرانية وقد يوجد فى أكثر تلك النواويس ألواح من الذهب والرخام مكتوب بقلم الإغريق وهو قلم الروم القديم هذا هو الملك فلان عاش من عمره كذا وكذا وهذا هو البطريق فلان عاش من عمره كذا وكذا وهذا هو الأسقف فلان كل واحد على قدر مرتبته وما كان فى حياته[4].

كذلك فى جنازة زوجة أبى نصر بن إسرائيل النصرانى فى سنة 403 هـ والتى كانت سبباً فى إشتعال الفتنة وحدوث الإظطراب، إذ خرج النعش فى رابعة النهار وأمامه الصلبان والمشاعل والقسوس والرهبان يصلون، والنساء يبكين وينتحبن، مما أزعج له خاطر أحد المسلمين

1) عيون للأخبار لابن قتيبة الدينورى ج2 ص297

2) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة القسم الخاص بالقاهرة ص28

3) نشق الأزهار في عجائب الأقطار لابن إياس الحنفى الجركسى ص42

4) كتاب الجغرافيا لابن أبي بكر الزهري ص47

فتناول حجراً وقذف به النعش على الرغم من إحاطة غلمان الأمير به وقيامهم على حراسته، فما من أحدهم إلا أن همز المسلم بحد سيفه، فإضطرب الناس وهاجوا وكثر القتل فى المسلمين والنصارى على السواء[1].

سنة ثلاث عشر وثلاثمائة هـ وفيها أمر الوزير عبدالله بن محمد أن يؤخذ من الرهبان والأساقفة والبطارقة والضعفاء وأصحاب الديورة الجزية بمصر فخرج قوم من الرهبان إلى المقتدر وشكوه فأمر أن يعفو عن ذلك[2]، عيد الزيتونة وبسمونه بعيد الشعانين وطريقتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة[3]

يذكر أبى عبيد البكرى أن الواحات كان بها مدينة تسمى البهنسا وهى غير بهنسا الصعيد وذكر أنه محمد بن سعيد الأزدى دخلها ورأى فيها يوم عيد النصارى وأهلها عرب مسلمون وقبط نصارى تابوتاً به رجل ميت يجعلونه على عجلة يسمونه ابن فرمى ويزعمون أنه من الحواريين يتطوبون به في سكك البلد ويتبركون بذلك ويتقربون إلى الله تجرر تلك العجلة البقر فإن نعرت من موضع ولم تسر به علموا أن ذلك الموضع نجاسة[4]

لما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان. وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه مروان، وهو أول من سمي بعبد الملك في الإسلام، وأوّل من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الإسلام. وكان على الدنانير نقش بالرومية، وعلى الدراهم نقش بالفارسية. قلت: ولهذا سبب وهو أني رأيت في كتاب المحاسن والمساوي، للإمام أبراهيم بن محمد البيهقي ما نصه قال الكسائي: دخلت على الرشيد ذات يوم، وهو في ديوانه، وبين يديه مال كثير، قد شق عنه البدر شقا. وأمر بتفريقه في خدمه الخاصة، وبيده درهم تلوح كتابته، وهو يتأمله وكان كثيرا ما يحدثني، فقال: هل علمت أول من سن هذه الكتابة في الذهب والفضة؟ قلت: يا سيدي هو عبد الملك بن مروان. قال: فما كان السبب في ذلك؟ قلت: لا علم لي، غير أنه أوّل من أحدث هذه الكتابة. فقال: سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانيا على دين ملك الروم، وكانت

---

1) أهل الذمة فى الإسلام، أ.س. ترتون ص 119-120

2) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ص241

3) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للأنصارى الصوفى الدمشقى ص 280

4) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى ص 15

تطرز بالرومية، وكان طرازها أبا وابنا وروحا، فلم يزل ذلك كذلك صدر الإسلام كله، يمضي على ما كان عليه، إلى ن ملك عبد الملك بن مروان فتنبه له، وكان فطنا فبينما هو ذات يوم، إذ مر به قرطاس، فنظر إلى طرازه، فأمر أن يترجم بالعربية، ففعل ذلك فأنكره، وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام، أن يكون طراز القراطيس، وهي تحمل في الأواني والثياب، وهما يعملان بمصر وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد، على سعته وكثرة ماله، والبلد يخرج منه هذه القراطيس تدور في الآفاق والبلاد، وقد طرزت بسطر مثبت عليها، فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز ابن مروان، وكان عامله بمصر، بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأمر صناع القراطيس، أن يطرزوها بصورة التوحيد: شهد الله أن لا إله إلا هو، وهذا طراز القراطيس خاصة، إلى هذا الوقت، لم ينقص ولم يزد ولم يتغير، وكتب إلى عمال الآفاق جميعا بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم، ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع، والحبس الطويل. فلما ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد، وحمل إلى بلاد الروم منها انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم وترجم له ذلك الطراز، فأنكره وغلظ عليه واستشاط غيظا، فكتب إلى عبد الملك:

أن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم، ولم يزل يطرز بطراز الروم، إلى أن أبطلته فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطؤا، فاختر من هاتين الحالتين أيهما شئت وأحببت، وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك، وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه، في جميع ما كان يطرز من أصناف الأعلاق، حاجة أشكرك عليها، وتأمر بقبض الهدية، وكانت عظيمة القدر[1].

1) حياة الحيوان الكبرى لأبو البقاء ج 1 ص 95-96

عادات كنيسة الأسكندرية التى ذكرها البطريرك ديونيسيوس التلمحرى

ذكر البطريرك الأنطاكى ديونيسيوس التلمحرى خلال زيارته الثانية إلى مصر سنة 1142هـ 831م، عادات كنيسة الأسكندرية فقال: لقد وجدنا البار البابا ماريوسف وأساقفته شعباً عفيفاً ومتواضعاً وغنياً بمحبة الله، ولكننا لاحظنا فيهم عادات لا تناسب فضيلة كيرلس وديوسقورس وطيمثاوس الذين تسير الكنيسة حسب القوانين التى سنوها.

لقد ألغيت عندهم قراءة الكتب المقدسة، ورهبانهم بنوع خاص خالون من هذه النعمة، فإن الرصينين فيهم يعكفون على العمل اليدويوعلاوة على التلاوة المستمرة للمزامير خلال أعمالهم، أما الآخرون، الذين يأملون فى الرئاسة، فإنهم لا يهتمون بالمعرفة والحكمة، بل فى تحضير الذهب، كمادة تدفع عن الموهبة التى هم مزمعون أن ينالوها، وكأن المرء لا يستطيع أن يبلغ رئاسة الكهنوت بدون مائتين أو ثلاثمائة دينار احمر، ولا يمكن لمن ينقصه المال أن يدنو من هذه الدرجة مهما كان سامياً.

ولما عاتبناهم، كان جواب البابا إلينا بأننا اضطررنا إلى هذا التصرف لأن كنيسة الأسكندرية غارقة فى الديون، ولما أجبناه بأن هذا الأمر يستحق الحرم، أجاب: ولو أن اقتضاء شيء من الرئاسة ذميم، ولكننا نقول أولاً لمن يقدم على الرسامة بأن يفتدى شيئاً من أمور الكنيسية المرهونة، وبعدئذ يقترب من الرسامة، فضحكت عوضاً عن البكاء، وقلت لسذاجتهم ما قاله المسيح لتلاميذه عندما قالوا يوجد عندنا سيفان، أجاب: انهما يكفيان. ومن عاداتهم عدم تعميد الذكر قبل إكماله أربعين يوماً، والأنثى ثلاثين[1].

1) رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحرى فى عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، ص 85-86

النصارى في مدينتي تنيس ودمياط

ومن مدن مصر تنيس ودمياط وهما مدينتان قد غلب على أكثر أرضهما ماء البحر فمدينة تنيس مدينة كبيرة أزلية فيها آثار كثيرة للأول وأهلها ذو يسار وثروة وأكثرهم حاكة وبها تحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ويصنع فيها قميص لصاحب مصر قميص لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين وينسج من الذهب 400 دينار قد احكمه صانعه حتى لم يحوج إلى تفصيل ولا خياطة غير الجيب والبنائق والذى تبلغ القيمة فيه 1000 دينار وقد أحكمه صانعه حتى لم يحتاج إلى تفصيل ولا خياطة غير ما قلنا وكذلك على الآن يصنع لكل ملك من ملوك مصر هذا الثوب في كل عام ويسمى هذا القميص البدنة وليس في جميع الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو سادج دون ذهب 100 دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله[1]، ويذكر أبى عبيد البكرى: وبجزيرة تنيس أزيد من عشرة آلاف من النصارى ولهم على شاطئ البحر كنائس كثيرة[2]

1) الاستبصار في عجائب الأمصار ص 87-88

2) المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى ص 623

عيد الشـــهيد

من المعتبر في ذلك الذى جريته الناس أول يوم من مسرى كم مبلغ النيل فزد عليه ثمانية أذرع فما بلغ فهو زيادة النيل في تلك السنة وما يزعم نصارى الوجه القبلى أنه مجرب في أمر النيل أنه يؤخذ قبيل عيد ميكائيل بيوم في وقت الظهر من الطين الذى مرّ عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهماً سواء وترفع في إناء مغطى إلى بكرة يوم عيد ميكائيل وتوزن فما زاد عليه وأنها من الخراريب لكل خروبة ذراع ومع ذلك فلابد أخذ شيء من دقيق القمح وأعجنه بماء النيل في إناء فخار قد عمل من طين مرّ عليه ماء النيل واتركه مغطى طول ليلة عيد ميكائيل فإذا وجدته يوم العيد قد اختمر بنفسه كان النيل في تلك السنة ويعتبر مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل إلى الهواء فإن مرّ طياباً فهو نيل جيد وإن هب غير طياب فهو نيل مقصر لاسيما إن هب مر يسبا فأنه يكون غير كاف ويعتبر أيضاً أنه إذا مطر مطر في شهر بابة ولو مطر قليل فأنه ينظر أي يوم من الشهر القبطى في العدد فأنه يبلغ الويبة القمح في نلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة وقد جرب ذلك في بعض السنين عند وقوع المطر في بابة يوم الخمس عشر منها فأبيعت الويبة القمح في تلك السنة بخمسة عشر درهماً، وكان من أنزه فرج مصر وهو اليوم الثامن من شهر بشنس أحد شهور القبط ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من أصابع من قد هلك من أسلافهم الموتى ويكون كذلك اليوم عيداً ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها وتخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل في الجزائر ولا يبقى مغن ومغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا ماجن ولا متفرج إلا يخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يخصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ويتجاهروا هناك بما لا يبتغى شرحه من المعاصى وتثور فتن وتقتل اناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة الاف دينار ذهباً وباع نصرانى في يوم واحد بمائتى ألف درهم فضة من الخمر خاصة، وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرا من ضواحي القاهرة وكان اعتماد فلاحى شبرا دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد، ولم يزل ذلك الحال على ما ذكر من الاجتماع إلى أن كانت سنة اثنين وسبعمائة هـ

والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيز وهو يومئذ أستا دار العالية بمصر والأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر فقام بيبرس المذكور في إبطال ذلك قياماً عظيماً وكان إليه أمور ديار مصر مفوضة هو والأمير سلار والناصر تحت حجرهما لا يقدر شبع بطنه إلا من تحت أيديهما فتقدم الأمير بيبرس ألا يرمى الأصبع في النيل ولا يعمل له عيد وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عاداتهم وخرج البريديونى إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه في الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد، فشق ذلك على أقباط مصر كلها ممن أظهر منهم الإيمان وهو باق على نصرانيته ومشى بعضهم إلى بعض وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة وهو يومئذ في خدة الأمير بيبرس وقد احتوى على عقله واستولى على جميع أموره فمازال الأقباط بالتاج إلى أن تحدث مع مخدومه الأمير بيبرس في ذلك وخيله من اتلاف مال الخراج إذا ابطل هذا العيد فإن أكثر خراج شبرا إنما يحصل من ذلك وقال له: متى لم يعمل العيد لا يطلع النيل في تلك السنة ويخرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل وهذه قاعدة مصر على ذلك فثبت الله الأمير بيبرس وقواه حتى اعترض عن جميع ما ذكره من زخرف القول واستمر على منع عمل العيد وقال للتاج: إن كان النيل لا يطلع إلا بهذا الأصبع فلا يطلع وإن كان الله تعالى هو الذى يطلعه فنكذب النصارى، فبطل العيد في تلك السنة ولم يزل منقطعاً إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة هـ وعمر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ليرى قوة التيار عن القاهرة فطلب الأمير يبلغا اليحياوى والأمير الطنبغا الماردينى من السلطان أن يخرجا إلى الصيد ويغيبا مدة فلم يرضى السلطان بذلك وأراد صرفهما عن السفر وقال لهما: نحن نعمل عيد الشهيد حتى تفرجكما عليه خير من خروجكما إلى الصيد وكان قد قرب أوان عيد الشهيد فرضيا بذلك وأشيع في الإقليم إعادة عيد الشهيد، فلما كان اليوم الذى يعمل فيه ركب الأمراء في النيل في الشخانير واجتمع الناس من كل جهة على عادتهم كما كانوا يفعلون في المحرمات وأنواع المنكرات واتسع الأمر توسعاً خرجوا فيه عن الحد في كثرة المبالغة من التجاهر والتهتكات فوق ما كان يعمل واستمروا على ذلك ثلاثة أيام، وكانت مدة انقطاع عمل عيد الشهيد من أبطله الأمير بيبرس إلى أن أعاده الملك الناصر ست

وثلاثين سنة واستمر بعمله في كل سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبعمائة هـ ترك المسلمون على النصارى وعملت أوراق بما قد وقف من أراضى مصر على كنائس النصارى ودورهم وحملت الأوراق إلى ديوان الأحباس فلما تحررت تلك الأوراق اشتملت على خمسة ألف فدان كلها على الكنائس والديارات وعرضت على أمراء الدولة في أيام الملك الصالح بن محمد قلاوون وهم الأمير شيخو العمرى والأمير صرغتمش والأمير طاز فتقرر الحال على أن ينعم بذلك على الأمراء زيادة على أقطاعهم وألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار وهدمت لهم عدة كنائس، فلما كان العشر الأخير من شهر رجب من السنة المذكورة خرج الحاجب والأمير علاء الدين بن الكورانى والى القاهرة إلى ناحية شبرا ومنع من نصب الخيام على العادة وهدت كنيسة النصارى التي كان فيها أصبع الشهيد في صندوق وأحضروه إلى عند الملك الصالح فحرقه بين يديه في الميدان وذر رماده في البحر وبطل عيد الشهيد من يومه إلى هذا العهد[1]

[1]) نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس ص 112-115

أعياد النصارى القبط بديار مصر

أعلم أن نصارى مصر من القبط الآن التي هي مشهورة بديار مصر أعيادهم أربعة عشر عيداً في كل سنة منها سبعة أعياد يسمونها أعياداً كبار وسبعة يسمونها أعياد صغار فالأعياد الكبار وهم عيد البشارة وعيد الزيتونة وعيد الفصح وعيد الأربعين وعيد الخميس وعيد الميلاد وعيد الغطاس، والأعياد الصغار وهم عيد الختان وعيد الأربعين الصغير وعيد خميس العهد وسبت النور وحد الحدود وعيد الصليب والتجلى ولهم موسم آخر ليس هو عندهم من الأعياد الشرعية لكنه من المواسم المعتادة وهو يوم النوروز، وأما عيد البشارة هذا العيد عند النصارى أصله بشارة جبريل عليه السلام لمريم بميلاد المسيح عليه السلام وهم يسمون جبريل غبريال ويقولون على المسيح يسوع وهذا العيد يعمله النصارى في مصر في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات، وعيد الزيتونة ويعرف عندهم بعيد الشعانين ومعناه التسبيح ويكون في سابع حد في صومهم وسنتهم في عيد الشعانين أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح الحمار في بيت المقدس ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون

وعيد الميلاد اليوم الذى ولد فيه المسيح وهو يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد وسنتهم في ذلك الكنائس وتزيينها ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك ولم يزل ذلك بديار مصر من المواسم المشهورة وكانوا يفرقون فيه في أيام الدولة الفاطمية أرباب الرسوم من المباشرين وسائر الناس من الكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية والمتارد التي فيها السميد وقرابات الجلاب وطياقير لزينة والبورى ومن عادات النصارى في الميلاد يلعبوا بالنار وقد كان فى الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر إقليم مصر يعمل موسماً جليلاً يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصابع المليحة والتماثيل البديعة بأموال لا تنحصر فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشترى من ذلك الشمع وكانوا يسمونها الفوانيس ويتباهون فى أثمانها حتى قيل أن شمعة عملت لبعض القبط بمصر فكان مصروفها ما ينوف على سبعين ديناراً فلما أجبلت أمور مصر فكانت من جملة ما بطل عمل الفوانيس فى الميلاد

وعيد الختان ويعمل في سادس شهر بؤونة وكانوا يختنون به أولادهم تبركاً وعيد الأربعون وهو عندهم دخول المسيح الهيكل وهو في ثامن شهر أمشير وخميس العهد وهو يعمل قبل الفصح بثلاثة أيام وقد صار أعوام أهل مصر يسمونه خميس العدس لكون أن النصارى يطبخون فيه العدس المصفى وكان في الدولة الفاطمية يضرب في خميس العدس خمسمائة دينار

وتعمل ضراريب ويفرق في أهل الدولة برسم التيرك وكان خميس العدس من جملة المراسم العظيمة بمصر يباع فيه أسواق القاهرة وأعمالها من البيض المصبوغ عدة ألوان وكانت النصارى يهدون فيه إلى المسلمين أنواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض المصبوغ بأنواع الأوان الفاخرة وقد قل عمل ذلك في هذه الأيام[1]

1) نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس ص 237-239

خميس العهد

يعمل قبل الفصح بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أن يملئوا إناء من ماء، ويزمزمون عليه، ثم يغسل للتبرّك به أرجل سائر النصارى، ويزعمون أنّ المسيح فعل هذا بتلامذته في مثل هذا اليوم كي يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض، وعوامّ أهل مصر في وقتنا يقولون: خميس العدس من أجل أنّ النصارى تطبخ فيه العدس المصفى، وكان في الدولة الفاطمية تضرب في خميس العدس هذا خمسمائة دينار، فتعمل خراريب تفرّق في أهل الدولة برسوم مفردة كما ذكر في أخبار القصر من القاهرة عند ذكر دار الضرب من هذا الكتاب، وأدركنا خميس العدس هذا في القاهرة ومصر، وأعمالها من جملة المواسم العظيمة، فيباع في أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدّة ألوان ما يتجاوز حدّ الكثرة، فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء، وينتدب لذلك من جهة المحتسب من يردعهم في بعض الأحيان، ويهادي النصارى بعضهم بعضا، ويهدون إلى المسلمين أنواع السمك المنوّع مع العدس المصفى، والبيض، وقد بطل ذلك لما حلّ بالناس وبقيت منه بقية.[1]

ويذكر ابن اياس فى بدائع الزهور: وكانت الوزراء فى يوم خميس العدس يضربون خراريب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك بها وكان يضرب منها نحو خمسمائة مثقال فبطل ذلك فى دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب[2].

---

1) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 30-31

2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 1-1 ص 213

عيد الميلاد

الميلاد وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح والنصارى تتخذ ليلة عيد الميلاد عيداً وتعمله قبط مصر في التاسع والعشرين من كيهك وما برح لأهل مصر به إعتناء وكانت من رسوم الدولة الفاطمية بعيد الميلاد تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمتارد التي فيها السمك وقرابات الجُلَّاب وطيافير الزلابية والبورى فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام[1]، ويذكر المقريزى عيد الميلاد يزعمون أنه اليوم الذي ولد فيه المسيح، وهو يوم الاثنين فيحيون عشية ليلة الميلاد، وسنتهم فيه كثرة الوقود بالكنائس، وتزيينها، ويعملونه بمصر في التاسع والعشرين من كيهك ولم يزل بديار مصر من المواسم المشهورة، فكان يفرّق فيه أيام الدولة الفاطمية على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين، والأمراء المطوّقين، وسائر الموالي من الكتاب وغيرهم، الجامات من الحلاوة القاهرية، والمثارد التي فيها السميذ، وقربات الجلاب، وطمافير الزلابية، والسمك المعروف بالبوريّ، ومن رسم النصارى في الميلاد اللعب بالنار. ومن أحسن ما قيل: ما اللعب بالنار في الميلاد من سفه ... وإنما فيه للإسلام مقصود ففيه بهت النصارى أنّ ربهم ... عيسى ابن مريم مخلوق ومولود وأدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر موسما جليلا يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة، والتماثيل البديعة بأموال لا تنحصر، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشتري من ذلك لأولاده وأهله، وكانوا يسمونها: الفوانيس، واحدها فانوس، ويعلقون منها في الأسواق بالحوانيت شيئا يخرج عن الحدّ في الكثرة والملاحة، ويتنافس الناس في المغالات في أثمانها حتى لقد أدركت شمعة عملت فبلغ مصروفها: ألف درهم وخمسمائة درهم فضة عنها يومئذ ما ينيف على سبعين مثقالا من الذهب واعرف السؤال في الطرقات أيام هذه المواسم، وهم يسألون الله أن يتصدّق عليهم بفانوس، فيشتري لهم من صغار الفوانيس، ما يبلغ ثمنه الدرهم، وما حوله ثم لما اختلت أمور مصر، كان من جملة ما بطل من عوايد الترف، عمل الفوانيس في الميلاد إلّا قليلا[2].

ويذكر القلقشندى جملة أعياد الأقباط، عيد سيغورس، وعيد متّى الإنجيلي، وهما في الثاني من توت. عيد سمعان الحبيس، وهو في الرابع من توت. عيد ماما؛ وهو في الخامس من توت. عيد شعيا؛ وهو في السادس من توت. عيد ساويرس؛ وهو في السابع من توت. عيد موسى

1) نصوص من أخبار مصر لابن المأمون ص 104

2) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 28-29

النبيّ عليه السلام؛ وهو في الثامن من توت. عيد توما التلميذ؛ وهو في التاسع من توت. وخروج نوح عليه السلام من السفينة، ومولد مريم عليها السلام، وهما في العاشر من توت. عيد باسيليوس، وهو في الحادي عشر من توت. عيد ميخائيل، وصوم جدليا، وهما في الثالث عشر من توت. عيد سمعان الحبيس، وعيد تادرس الشهيد؛ وهما في الرابع عشر من توت. عيد اسفانوس؛ وهو في السادس عشر من توت، وصوم كبور؛ وهو في العشرين من توت. ونياحة أبي جرج؛ وهي في الثاني والعشرين من توت. عيد أولاد الفرس؛ وهو في الثالث والعشرين من توت. عيد أليصابات، وهو في السادس والعشرين من توت. عيد اسطاتوا، وانتقال يوحنا؛ وهما في السابع والعشرين من توت. عيد اجرويفون؛ وهو في أول بابه. عيد سوسنان، وهو في الثاني من بابه. عيد يعقوب بن حلفا؛ وهو في الخامس من بابه. عيد أبو بولا؛ وهو في السابع من بابه. عيد توما؛ وهو في الثامن من بابه. عيد أبي مسرجة؛ وهو في العاشر من بابه. عيد يعقوب؛ وهو في الحادي عشر من بابه. وشهادة متّى؛ وهي في الثاني عشر من بابه. عيد الفرات، وهو في الثالث عشر من بابه. وشهادة يوحنّا؛ وهي في العشرين من بابه. وتذكار السيدة؛ وهو في الحادي والعشرين من بابه. عيد لوقا؛ وهو في الثاني والعشرين من بابه. عيد أبي جرج؛ وهو في الثالث والعشرين من بابه. ودخول السيدة الهيكل، وهو في الحادي والعشرين من بابه. عيد يعقوب ويوسف؛ وهو في السادس والعشرين من بابه. عيد أبي مقار، وهو في السابع والعشرين من بابه. عيد مرقص؛ وهو في آخر يوم من بابه. عيد بطرس البطرك؛ وهو في أوّل يوم من هاتور. عيد زكريّا؛ وهو في الرابع من هاتور. واجتماع التلاميذ؛ وهو في السادس من هاتور. وتكريز أبي جرج؛ وهو في السابع من هاتور. وعيد الأربع حيوانات، وهو في الثامن من هاتور. وتذكار الثلاثمائة وثمانية عشر، وهو في التاسع من هاتور. ونياحة إسحاق؛ وهو في العاشر من هاتور. عيد ميكائيل؛ وهو في الثاني عشر من هاتور. وشهادة أبي مينا؛ وهو في الخامس عشر من هاتور. عيد فيلبس الرسول؛ وهو في التاسع عشر من هاتور. عيد أساسياس؛ وهو في العشرين من هاتور. عيد شمعون؛ وهو في الحادي والعشرين من هاتور. تذكار الشهداء، وهو في الثاني والعشرين من هاتور. عيد مركوريوس؛ وهو في الرابع والعشرين من هاتور. عيد أبي مقورة؛ وهو في الخامس والعشرين من هاتور. عيد ادفيانيوس، وهو في السادس والعشرين من هاتور. عيد يعقوب المقطّع؛ وهو في السابع والعشرين من هاتور. عيد ياهور؛ وهو في الثاني من كيهك. عيد اندراس؛ وهو في الرابع من كيهك. عيد سيورس؛ وهو في الخامس من كيهك. عيد بزبارة، وهو في السابع من

كيهك. عيد أيامين؛ وهو في الثامن من كيهك. عيد ماري نقولا؛ وهو في العاشر من كيهك. عيد سمعان؛ وهو في الرابع عشر من كيهك. ونياحة يوحنا، وهي في السادس عشر من كيهك؛ وصوم الميلاد؛ وهو في الثالث والعشرين من كيهك. وقتل الأطفال؛ وهو في الثالث من طوبه. عيد يوحنّا الإنجيلي، وهو في الرابع من طوبه. وعيد توما؛ وهو في السابع من طوبه. عيد الختان؛ وهو في الثامن من طوبه. وعيد إبراهيم، وهو في التاسع من طوبه. وصوم الغطاس؛ وأوّله العاشر من طوبه. وصوم العذارى؛ وهو في الثالث عشر من طوبه. عيد ملسوس؛ وهو في الرابع عشر من طوبه. عيد غاريوس، وهو في الخامس عشر من طوبه. عيد قيلانوس؛ وهو في السادس عشر من طوبه. عيد يوحنس؛ وهو في التاسع عشر من طوبه. ونزول الإنجيل، وتذكار السيدة؛ وهما في العشرين من طوبه. وصوم نينوى، وهو في الحادي والعشرين من طوبه.

ومقتل يحيى؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه. عيد أبي بشارة؛ وهو في الخامس والعشرين من طوبه. عيد الشهداء؛ وهو في السادس والعشرين من طوبه. عيد طيمارس الرسول؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه؛ وآخر نياحة نقولا؛ وهو في اليوم الآخر من طوبه. عيد العذارى، وعيد يهوذا؛ وهما في الأوّل من أمشير. عيد مقار، وهو في الثاني من أمشير. ونياحة تيادرس؛ وهو في السادس من أمشير. ونياحة برصوما، وهو في التاسع من أمشير. عيد بيطن، وشهادة يعقوب، وهما في العاشر من أمشير. عيد أبي مسرجة؛ وهو في الرابع عشر من أمشير. عيد قلانوس؛ وهو في السادس عشر من أمشير. عيد يعقوب الرسول؛ وهو في السابع عشر من أمشير. عيد بطرس الشهيد؛ وهو في التاسع عشر من أمشير. ونزول السيدة من الجبل؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير. وشهادة سدرس؛ وهو في السادس والعشرين من أمشير. ووجود رأس يوحنا؛ وهو في اليوم الآخر من أمشير. عيد الجلبانة؛ وهو في الثالث من شهر برمهات. عيد أرمانوس، وهو في السابع من برمهات. عيد المعمودة، وهو في التاسع من برمهات. وظهور الصليب؛ وهو في العاشر من برمهات. عيد أبي مينا؛ وهو في الحادي عشر من برمهات. عيد ميلاخي، وهو في الثاني عشر من برمهات. عيد إلياس الشهيد؛ وهو في السابع عشر من برمهات. ونياحة بولص؛ وهي في الثاني والعشرين من برمهات. عيد العازر؛ وهو في الثالث والعشرين من برمهات. عيد الشعانين؛ وهو في الرابع والعشرين من برمهات. عيد المرسونة، وهو في الخامس والعشرين من برمهات. وغسل الأرجل؛ وهو في الثامن والعشرين من برمهات. وجمعة الصلبوت؛ وهو في التاسع والعشرين من برمهات. عيد مرقص الإنجيلي؛

وهو في اليوم الآخر من برمهات. عيد توما البطرك؛ وهو في الثاني من برموده. عيد حزقيال النجيب؛ وهو في الخامس من برموده. عيد مرقص؛ وهو في السابع من برموده.

والأخذ بالجديد؛ وهو في الثامن من برموده. عيد يوحنا الأسقفّ؛ وهو في الحادي عشر من برموده. عيد جرجس؛ وهو في الثالث عشر من برموده. عيد أبي متّى؛ وهو في السادس عشر من برموده. عيد يعقوب، عيد سنوطه، وهما في التاسع عشر من برموده. وذكران الشهداء؛ وهو في الحادي والعشرين من برموده. عيد ساويرس؛ وهو في السادس والعشرين من برموده. عيد أبي نيطس؛ وهو في السابع والعشرين من برموده. عيد أصحاب الكهف، وهو في التاسع والعشرين من برموده. عيد مرقص الإنجيلي، وهو في اليوم الآخر من برموده. عيد تيادرس؛ وهو في الثاني من بشنس. عيد شمعون؛ وهو في الثالث من بشنس. عيد الحندس؛ وهو في الرابع من بشنس. ونياحة يعقوب، وهو في السابع من بشنس. عيد دفرى سوه؛ وهو في السادس من بشنس. عيد أساسياس؛ وهو في السابع من بشنس.

وصعود المسيح عندهم في الثامن من بشنس. عيد دير القصير؛ وهو في الحادي والعشرين من بشنس. ونزول السيد إلى مصر؛ وهو في الرابع والعشرين من بشنس. عيد سوس، وهو في الخامس والعشرين من بشنس. عيد توما التلميذ؛ وهو في السادس والعشرين من بشنس. عيد سمعون العجاس؛ وهو في السابع والعشرين من بشنس. عيد طيمارس؛ وهو في التاسع والعشرين من بشنس. عيد أبي مقار؛ وهو في الثاني من بؤنه. ووجود عظام لوقا؛ وهو في الثالث من بؤنه. وعيد توما، وعيد مامور؛ وهما في الرابع من بؤنه. عيد يوحنا، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما في التاسع من بؤنه. عيد أبي مينا؛ وهو في الخامس عشر من بؤنه. عيد أبي مقار، وهو في السادس عشر من بؤنه. عيد السيدة؛ وهو في الحادي والعشرين من بؤنه. عيد اتريب وهو في الثالث والعشرين من بؤنه. عيد أبي مينا، وهو في العشرين من بؤنه. وتذكار تيادرس؛ وهو في أوّل أبيب. ونياحة بولص، وهو في الثاني من أبيب والثالث منه أيضا. وعيد المعينة، وعيد القيصرية؛ وهما في الخامس من أبيب. وعيد أبي سنوبة، وهو في السابع من أبيب. وعيد اسنباط؛ وهو في الثامن من أبيب. وشهادة هارون، وعيد سمعان، وهما في التاسع من أبيب.

وعيد تادرس نطيره؛ وهو في العاشر من أبيب. وعيد أبي هور؛ وهو في الثاني عشر من أبيب. وعيد أبي مقار؛ وهو في الرابع عشر من أبيب. وعيد اقدام السرياني، وهو في الخامس عشر من أبيب. عيد يوحنا وذكريا، وهو في السادس عشر من أبيب. وعيد يعقوب التلميذ، وهو في

السابع عشر من أبيب. وعيد بولاق، وهو في التاسع من أبيب. وعيد تادرس الشهيد، وهو في العشرين من أبيب. وعيد السيدة، وعيد ميخائيل؛ وهما في الحادي والعشرين من أبيب. وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده؛ وهما في الثالث والعشرين من أبيب. وعيد سمنود؛ وهو في الرابع والعشرين من أبيب. وعيد مرقوريوص، وهو في الخامس والعشرين من أبيب. وعيد حزقيل النبيّ عليه السلام؛ وهو في السابع والعشرين من أبيب. ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم؛ وهما في الثامن والعشرين من أبيب. وحرم السيد، وهو في اليوم الآخر من أبيب. وعيد الخندق، وهو في اليوم الأوّل من مسرى. وعيد أبي مينا، وهو في اليوم الثاني من مسرى. وعيد سمعان المعموديّ؛ وهو في الثالث من مسرى. ودخول نوح السفينة؛ وهو في الثامن من مسرى.

وعيد طور سينا، وعيد السيدة، وهما في التاسع من مسرى. وعيد اللباس؛ وهو في العاشر من مسرى. وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو في الخامس عشر من مسرى. وعيد يعقوب الشهيد، وهو في السابع عشر من مسرى. وعيد أبي مقار؛ وهو في الثامن عشر من مسرى. وعيد اليسع؛ وهو في التاسع عشر من مسرى. وعيد أصحاب الكهف، وهو في العشرين من مسرى. وصوم الأربعين؛ وهو في الحادي والعشرين من مسرى. وعيد الحوزة بدمشق؛ وهو في الثالث والعشرين من مسرى. وعيد صوفيل؛ وهو في السادس والعشرين من مسرى. وعيد إبراهيم وإسحاق، وهو في الثامن والعشرين من مسرى. وعيد موسى الشهيد، وشهادة يوحنا، وهو في اليوم الآخر من مسرى[1].

ثم يذكر القلقشندى بعضاً من طقوس الكنيسة القبطية وإن كان هناك فيها بعض الأخطاء منه لكن أردنا أن نذكرها كما هي للأمانة العلمية: ويعظّمون البطاركة لأنهم خلفاء الدّين عندهم، ويرون لهم من الحرمة ما لدين النّصرانية عندهم من الحرمة، بل يجعلون أمر التّحليل والتّحريم منوطا بهم، حتّى لو حرّم البطرك على أحدهم زوجته لم يقربها حتّى يحلّها له. وكذلك يعظّمون أرباب الوظائف الدّينية عندهم: من البطريق، والأسقفّ، والمطران، والقسّيس، والشّمّاس، والراهب؛ وقد تقدّم تفسيرهم فيما مرّ. ويعظّمون مريم المجدلانيّة المقدّم ذكرها، ويزعمون أنها أخرج منها سبعة شياطين، وأنها أوّل من رأى المسيح حين قام من قبره. ومن عادتهم أنه إذا مات منهم أحد ممن يعتقدون صلاحه صوّروا صورته في حيطان كنائسهم ودياراتهم يتبركون بها. ويعظّمون قسطنطين بن قسطنطين ملك الرّوم، وذلك أنّه

1) صبح الأعشى للقلقشندى ج2 ص 458-463

أوّل من أخذ بدين النصرانية من الملوك وحمل على الأخذ به. وقد اختلف في سبب ذلك فقيل: إنه كان يحارب أمّة البرجان بجواره وقد أعجزه أمرهم، فرأى في المنام كأنّ ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فعمل أعلاما على مثالها وحاربهم بها فظهر عليهم. وقيل: بل رأى صورة صليب في السماء. وقيل: بل حملته أمّه هيلاني على ذلك. ويعظمون هيلاني أم قسطنطين المقدّم ذكره، ويقولون: إنها رحلت من قسطنطينيّة إلى القدس، وأتت إلى محلّ الصّلب بزعمهم، فوقفت وبكت، ثم سألت عن خشبة الصّلب، فأخبرت أن اليهود دفنوها وجعلوا فوقها القمامات والنّجاسات، فاستعظمت ذلك، واستخرجتها وغسلتها وطيّبتها وغشّتها بالذّهب، وألبستها الحرير، وحملتها معها إلى القسطنطينيّة للتّبرّك، وبنت مكانها كنيسة، وهي المسمّاة الآن بالقمامة، أخذا من اسم القمامة التي كانت موضوعة هناك. ويعظّمون من الأمكنة بيت لحم حيث مولد المسيح عليه السّلام، وكنيسة قمامة حيث قبره، وموضع خشبة الصّلب التي استخرجتها هيلاني أم قسطنطين بزعمهم. وكذلك يعظّمون سائر الكنائس: وهي أمكنة عباداتهم وكذلك يعظّمون الدّيارات: وهي أمكنة التّخلّي والاعتزال ويعظّمون المذبح: وهو مكان يكون في الكنيسة يقرّبون عنده القرابين ويذبحون الذّبائح، ويعتقدون أنّ كلّ ما ذبح عليه من القربان صار لحمه ودمه هو لحم المسيح ودمه حقيقة. ويعظمون من الأزمنة أعيادهم الاتي ذكرها عند ذكر أعياد الأمم: كعيد لغطاس من أعيادهم الكبار، وموقعه في الحادي عشر من طوبه من شهور القبط، وعيد السّيدة من أعيادهم الصّغار، وموقعه في الحادي والعشرين من بؤونه منها، وعيد الصّليب، وموقعه عندهم في السابع عشر من توت، إلى غير ذلك من الأعياد وأما الأشياء التي يتعبّدون بها، فإنهم يصلّون سبع صلوات في اليوم واللّيلة؛ وهي: الفجر، والضّحى، والظّهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ونصف اللّيل؛ ويقرأون في صلاتهم بمزامير داود عليه السّلام كما تفعل اليهود. والسّجود في صلاتهم غير محدود العدد، بل قد يسجدون في الرّكعة الواحدة خمسين سجدة. وهم يتوضؤون للصلاة، ولا يغتسلون من الجنابة، وينكرون الطّهر للصّلاة على المسلمين وعلى اليهود، ويقولون: الأصل طهارة القلب. وإذا أرادوا الصّلاة ضربوا بالنّاقوس، وهو خشبة مستطيلة نحو الذراع يضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون. وهم يستقبلون في صلاتهم المشرق، وكذلك يوجّهون إليه موتاهم. قال الزّمخشريّ: ولعلّ ذهابهم إلى ذلك لأخذ مريم عليها السلام عنهم مكانا شرقيّا كما أخبر تعالى بقوله: إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا ولهم صيامات في أوقات متفرّقة. منها: صومهم الكبير: وهو ستّون يوما أوّلها يوم الاثنين. وموقع

أوّله في بحسب ما يقتضيه حسابهم، يفطرون في خلالها يوم الأحد، تبقى مدّة صيامهم منها تسعة وأربعون يوما. ومنها: صومهم الصّغير : وهو ستّة وأربعون يوما يصومونها بعد الفصح الكبير بخمسين يوما، أوّلها يوم الاثنين أيضا؛ وعندهم فيه خلاف (يقع القلقشندى لبس من فيقصد هنا الرسل) . ومنها: صوم العذارى: وهو ثلاثة أيام، أوّلها يوم الاثنين الكائن بعد كانون الثاني (يقع القلقشندى لبس من فيقصد هنا يونان) ، في صيامات أخرى يطول ذكرها، ولكثرة صيامهم قيل: إذا حدّثت أن نصرانيّا مات من الجوع فصدّق1.

1) صبح الأعشى للقلقشندى ج 13 ص 285-288

عيد الغطاس

وعيد الغطاس يعمل فى الحادى عشر من طوبة وصار النصارى يينغمسون فى الماء هم وأولادهم فى هذا اليوم وينزلون فيه بأجمعهم ولا ييكون ذلك إلا فى شدة البرد يسمونه عيد الغطاس وكان له بمصر عيد عظيم للغاية فقال المسعودى وكان لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند القبط وهى ليلة الحادى عشر من طوبة ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر فى أيام الأخشيد محمد بن طغج أمير مصر فى داره المعروف بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل والنيل يطوف بها وقد أمرت أن يسرج جانب من الجزيرة جانب الفسطاط فأسرج ألف مشعل غيرها أسرجوه أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل فى تلك الليلة ما بين مسلمين ونصارى فى الزواريق مالا يحصى عددهم ولا يحضر غير الذى فى الدور على النيل والذى على الشطوط لا يتناكرون فى كل ما يمكنهم أظهاره من المأكل المشارب والملابس من الذهب والجوهر وغير ذلك واظهار الملاهى والخمور والقصف واللهو وهى أحسن ليلة تكون بمصر وكان أكثر الناس يغطسوا فى النيل ويزعمون أن من فعل ذلك فى تلك الليلة يأمن من المرض فى تلك السنة

وقال المسبحى فى تاريخه ولما كانت سنة سبع وستين وثلاثمائة منعوا النصارى من اظهار ما كانوا يفعلوا فى ليلة الغطاس من الاجتماع وكثرة الملاهى واظهار المحرمات ونودى أن من فعل شيئاً من ذلك شنق فلم يغطس فى تلك الليلة أحد منهم فى البحر وبطل هذا الأمر إلى سنة ثمان وثمانين وثلامائة ثم تجدد أمر الغطاس على ما كان فى الأول وضربت الخيام فى عدة مواضع على شاطئ النيل ونصبت أسرة للرؤساء من القبط وحضر فهد بن إبراهيم النصرانى كاتب برجوان وأوقدت له الشموع والمشاعل وحضر معه جماعة من القبط كلهم وغطسوا وفى حوادث سنة خمسة عشر وأربعمائة كان الغطاس بمصر ونزل أمير المؤمنين الظاهر لدين الله إلى قصر جده العزيز على شاطئ النيل لينظر ليلة الغطاس ومعه الحريم ونودى ألا تختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم فى البحر وقت الغطاس وضربت الخيام متولى الشطين وجلس فيها أمير المؤمنين وأوقدت في تلك الليلة من الشموع والمشاعل شيء كثير وكانت من أعجب الليالى في مصر وحضر سائر الناس من المسلمين والنصارى والرهبان وغيرهم وغطسوا جميعاً وكان يفرق في تلك اليوم مما جرت به العادة من القبط الأترج والنارنج والليمون المراكبى وأطناب القصب والبورى والحلوى القاهرية والفواكه الشامية وغير ذلك

وفى سنة 415 هـ في أيام الظاهر في عيد الغطاس جرى ما هو صحيح كالعادة من شراء الفواكه والحملان وغير ذلك ونزل الظاهر إلى قصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس مع حرمه بعد ما نزل القائد عدة الدولة رفق بأصناف الفرش لبسطه ونقل جميع المجاورين له ممن يسكن على النيل بالقرب منه وأزال المراكب المرساة هناك وضرب بدر الدولة نافذ الخادم الأسود متولى الشرطتين خيمة عند رأس الجسر وجلس على مرتبة مثقلة ومرتبة ديباج ووقف ابن كافى متولى الشرطة السفلى بين يديه ونودى في الناس ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في البحر بالليل وأمر الظاهر القائد نافذاً أن يزيد في وقيد النار والمشاعل بالليل ففعل وكان وقيداً طويلاً وحضر القسيسون والشمامسة بالصلبان والنيران وانصرفوا حيث يغطسون[1].

فقد ذكر الأمير المختار المعروف بالمسبحى: فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة للهجرة كان غطاس النصارى، فضربت الخيام والمضارب والأشرعة فى عدة مواضع على شاطئ النيل، فنصبت أَسِرّة للرئيس فهد ابن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان، وأوقدت الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والملهون، وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس، فغطس وأنصرف[2].

وفى مروج الذهب يذكر أن ليلة الغطاس شأنها عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة احدى عشرة تمضى من طوبة ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة هـ ليلة الغطاس بمصر والاخشيد بن محمد طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل في تلك الليلة مائة ألاف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء[3]

---

1) اتعاظ الحنفا ج2 ص 162-163

2) نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى ص 18-19

3) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج1 ص 258

وفى بدائع الزهور لابن اياس يذكر: أنه فى خلافة الظاهر لدين الله على ابن منصور بن نزار بن المعز وهو الخليفة الرابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى بمصر فى سنة خمسة عشر وأربعمائة هـ أذن للنصارى فى إعادة ما كان يعمل فى ليلة عيد الغطاس وكان جده المعز قد أبطل ذلك فى أيامه وكان من أجلّ المواسم بمصر وكان يعمل فى ليلة الحادى عشر من طوبة وكان فى تلك الليلة تجتتمع المسلمون والنصارى عند شاطئ النيل قبالة المقياس فتنصب هناك الخيام من جانبى النيل وتوضع فيها الأسرة لأعيان الأقباط وكان البحر يمتلئ بالمراكب من سائر المسلمين والنصارى فلما يدخل الليل تزين المراكب بالقناديل وتشعل فيها الشموع وتشعل المشاعل على الشطوط فكان يوقد فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعل وألف فانوس وكان ينفق فى تلك الليلة ما لا يحصى من الأموال فى مأكل ومشرب وتنزل أعيان الأقباط فى المراكب وتتجاهر الناس بشرب الخمور وتجتمع أرباب المغانى والآلات وأرباب الملاعب من كل فن ويخرجون الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والقصف ولا يغلق فيها دكان ولا درب ولا أسواق وكانوا يتهادون رؤساء الأقباط فى تلك الليلة بأطياب القصب والبورى والحلوى القاهرية والكمثرى والتفاح الفتحى والسفرجل والأترج والنارنج والليمون وباقات النرجس وغير ذلك من الأنواع اللطيفة وكانوا يغطسون بعد العشاء قبالة المقياس ويزعمون بأن من يغطس فى تلك الليلة لا يضعف فى تلك السنة، فلما كان وقت الغطاس نادى الخليفة الظاهر بأن لا يختلط النصارى مع المسلمين عند الغطاس وكان الخليفة الظاهر فى تلك الليلة فى قصر جده المعز الذى يشرف على البحر يتفرج على المهرجان الذى يحصل فى تلك الليلة وكان المعز قد أبطل ذلك من سنة اثنتين وستين وثلثمائة هـ[1]

وليلة الغطاس بمصر أعجب شيء وهي لعشر يمضين من كانون الآخر، وهو شهر ينير، وحينئذ ينتهي مد النيل ويأخذ في الانحطاط. وأصفى ما يكون ماء النيل في ذلك الوقت، ولهذه الليلة بمصر شأن عظيم، يخرج الناس أجمعون بتلك الليلة لمشاهدة، ويعدون ما قدروا عليه من الأطعمة والأشربة، ويلبسون أحسن ملابسهم، ويظهرون ما أمكنهم من الجواهر وأواني الذهب والفضة، وأحضروا جميع الملاهي، ويدخل الناس في الزواريق وبعضهم في الدور المشرفة على النيل، يستعملون المشاعل والشمع الكثير، فيحرق بمصر تلك الليلة من الشمع ما لا يحصى، والناس على شطوط النيل في الزواريق وفي الدور المشرفة على النيل بالطبول

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 1-1 ص 212-213

والأبواق وجميع الملاهي، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأكملها سروراً، ويغطس أكثر الناس في النيل، ومن

وهناك رحالة مراكشى من القرن الثانى عشر الميلادى وصف مظاهر الاحتفالات في عيد الغطاس: ليلة الغطاس بمصر من أعجب شيء وتسمى في هذا الزمان كسر الخليج وهى لعشر تمضى من كانون الآخر وذلك الوقت يستوى مدّ النيل ويأخذ في الانحطاط وأصفى ما يكون ماء النيل في ذلك الوقت ولهذه الليلة بمصر شأن عظيم وذلك أنه يخرج تلك الليلة جميع البشر ممن يقدر على الخروج تلك الليلة وقد أعدوا ما أمكنهم من الأطعمة والأشربة ولبسوا أحسن ما عندهم من الملابس وأظهروا ما أمكنهم من الجواهر وأوانى الذهب والفضة وأحضروا جميع الملاهى ويدخل الناس في الزوارق ومنهم من يدخل في الدور المشرفة على النيل ويشعلون المشاعل والشمع الكثير ويشعل صاحب مصر الشمع على جانب النيل فيحرق في تلك اللليلة بمصر من الشمع مالا يحصى عدده فترى الناس على شطوط النيل في الزوارق ومنهم في الدور المشرفة على النيل بالطبول والأبواق وجميع الملاهى وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأكملها سروراً ويغطس أكثر الناس في النيل ومن لم يغطس يرش عليه بالماء[1]

وكاتب آخر يصف ليلة عيد الغطاس في القرن العاشر الميلادى: ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة احدى عشر تمضى من طوبة ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طفح في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فاسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل في تلك الليلة مائة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل[2]

وأيضاً عن مظاهر الاحتفال بعيد الغطاس يذكر أوتيخا ، كان رسم النصارى قد جرى في ليلة الحميم أن يركب متولى الشرطة السفلانية في أول الليل في موكب كبير بزيّ مُجمّل و يوقد بين يديه الشموع الموكبيّ والمشاعل ويطوف الشوارع وينادى في الناس أن لا يختلطوا المسلمين

1) الاستبصار في عجائب الأمصار ص 49

2) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج1 ص 258

مع النصارى في تلك الليلة ولا ينكدون عليهم عيدهم وذلك أن النصارى كانوا سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل و يغطس كثير منهم فيه و كان رسم الملكية خاصة فى تلك الليلة يخرجون من الكنيسة القاثوليكى التي بقصر الشمع المعروفة باسم كنيسة ميكائيل في جمع متوافر بالقراءة الملحنة والنغمات المعلنة والصلبان المشهورة ووقيد الشمع إلى شاطئ النيل بباعوث ويصلون معلناً كل طريقهم ويخطب الأسقف المرأس عليهم على الشاطئ بالعربى ويدعون للسلطان ولمن شاؤوا من خواصه ويرجعون إلى بيعتهم ويتممون بها صلواتهم وحضرهم الحاكم في كثير من الأعوام متنكراً وشاهدهم وكان لأهل مصر ولأهل الملك والمذاهب في مصر في هذا العيد من الطيبة والفرح مالا يكون لهم في غيره من أيام السنة وأعيادها و منع الحاكم الكل سنة أربعمائة هجرية من جميع ذلك وألا يتعرض أحد من سائر الناس كافة إلى فعل شيء من ذلك في تلك الليلة وأن يعرض عنه ويصرف عن ذكره ويجرى مجرى سائر الأيام ولا يستعد له ولا يحفل به[1]، ومن الهبات التي كانت تصرف لكل مملوك يذكر ابن المأمون: وبرسم الغطاس خمسمائة حبة ترنج ونارنج وليمون مركب وخمسة عشر طن قصب وعشر حبات بورى[2].

وابن مماتى يذكر عن الغطاس: التراع المطاطية ذكر أن رسمها تسد على استقبال عشرة أيام من هتور إلى سلخه وتفتح على استقبال كيهك عشرين يوماً وتسد لعشرٍ بقين منه إلى الغطاس وتفتح يوم الغطاس إلى سلخ طوبة وتسد لاستقبال أمشير عشرين يوماً ثم تفتح لعشر بقين منه إلى عشرين يوماً من برمهات وتفتح عشرة أيام تخلو من برمودة[3]

[1]) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 281-282

2) نصوص من أخبار مصر لابن المأمون ص68

3) قوانين الدواوين لابن مماتى ص237-238

عيد النيروز

قال ابن زولاق سنة ثلاث وستين وثلاثمائة 363 هـ منع المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز في السكك ومن صب الماء يوم النوروز وقال في سنة أربع وستين وثلاثمائة وفى يوم النورورز زاد اللعب بالماء ووقود النيران وطاف أهل الأسواق وعملوا فيلة وخرجوا إلى القاهر بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام وأظهروا السماجات والحلى في الأسواق ثم أمر المعز بالنداء بالكف وألا توقد نار ولا يصب ماء وأخذ قوما فحبسوا وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال، وقال ابن ميسر في حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة 516 هـ فيها أراد الآمر بأحكام الله أن يحضر إلى دار الملك في النوروز الكائن في جمادة الآخرة في المراكب على ما كان عليه الأفضل بن أمير الجيوش فأعاد المأمون عليه أن لا يمكن فإن الأفضل لا يجرى مجراه مجرى الخليفة وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات ما له قيمة جليلة، وقال ابن المأمون وحل النوروز في التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ووصلت الكسوة المختصة به من الطراز وثغر الأسكندرية مع ما يبتاع من المذاب المذهبة والحريرى والسوادج وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأسماء أربابها وأصناف النوروز البطيخ والرمان وعراجين الموز وأفراد البسر وأقفاص التمر القوصى وأقفاص السفرجل وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر من كل لون بكلة مع خبز مارق، قال وأحضر كاتب الدفتر الاثباتات بما جرت العادة به من اطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها في يوم النوروز وغير ذلك من جميع الأصناف وهو أربع الاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة والكسوات عدة كثيرة من شقق ديبقى مذهبات وحريرات ومعاجر وعصائب مشاومات ملونات وشقق لاذ مذهب وحريرى مشفع وفوط ديبقى حريرى فأما العين والورق والكسوات فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور ودار الوزراة والشيوخ والأصحاب والحواشى والمستخدمون ورؤساء العشاريات وبحارتها ولم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم من ذلك نصيب، وأما الأصناف من البطيخ والرمان والبسر والتمر والسفرجل والعناب والهرائس على اختلاف اشكالها فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ويشركهم في ذلك جميع الأمراء أرباب الأطواق والأقصاب وسائر الأمائل فوقع الوزير المأمون على كل ذلك بالإنفاق

وقال القاضي الفاضل في تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى وهو مستهل توت وتوت أول سنتهم[1]

نوروز الأقباط ويتخذونه في رؤوس سنينهم ويظرون فيه الفرح والسرور وفى هذا اليوم تجتمع فيه الناس بمصر وبلاد الصعيد وبأيديهم جلود أنطاع وخروف يمرعونها في الأطيان والأوساخ يضربون بها من أمكنهم من الناس ومن سنة أهل الصعيد المسلمين والنصارى أن يطبخون في هذا اليوم الهريسة تبييتاً في التنانير أو غيرها من التباييت ولا يكاد يخلو بيت من تبييتة ويكسرون البطيخ الأخضر فمن طلع بزر رأسه أحمر سرّ بذلك ومن طلع بذر رأسه أسود اغتم بذلك فلا يكاد يخلو بيت منها ذلك اليوم[2]، ويذكر ابن ظهيرة: كسر قناطر سد أبو المنجا في يوم النيروز تم كسر قناطر شبين القصر في عيد الصليب وهما من ضواحي القاهرة يخرج للفرجة عليها خلائق عظيمة ولهم شرح مطول وشيء لا يكاد يوصف من المسرة والفرح وغير ذلك[3]

قال ابن المأمون في تاريخه: وحل موسم النوروز في اليوم التاسع عشر من رجب سنة سبعة عشرة وخمسمائة ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز وثغر الأسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريرى والسوارج وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأسماء أربابها وأصناف النوروز: البطيخ والرمان وعناقيد الموز وأفراد البسر وأقفاص التمر القوصى وأقفاص السفرجل وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ومن لحم الضأن ومن لحم البقر من كل لون بكلة مع خبز بر مارق، قال: وأحضر كاتب الدفتر الحسابات بما جرت به العادة من إطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها في يوم النوروز وغير ذلك من جميع الأصناف وهو أربعة آلاف دينار ذهباً وخمسة عشر ألف درهم فضة والكسوات عدة كثيرة من شقق دبيقية مذهبات وحريريات ومعاجر وعصائب نسائيات ملونات وشقق لاذ مذهب وحريرى ومشفع وفوط دبيقية حريرية، فأما العين والورق والكسوات فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والأصحاب والحواشى والمستخدمون ورؤساء العشاريات وبحاريها ولم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم في

---

[1]) الخطط المقريزية ج2 ص 356-357

2) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للأنصارى الصوفى الدمشقى ص 279-280

3) الفضائل البهرة في محاسن مصر والقاهرة لابن ظهيرة ص 201

ذلك نصيب، وأما الأصناف من البطيخ والرمان والبسر والموز والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم ويشركهم فيه جميع الأمراء أرباب الأطواق والأنصاف وغيرهم من الأماثل والأعيان ممن له جاه ورسم في الدولة[1]، وكل مملوك ولخاصه في النوروز ثلاثون ديناراً وشقة دبيقى حريرى وشقة لاذ ومعجر حريرى ومنديل كم حريرى وفوطة ومائة بطيخة وسبعمائة حبة رمان وأربعة عناقيد موز وفرد بسر وثلاثة أقفاص تمر قوصى وقفصان سفرجل وثلاث بكالى هريسة واحدة بدجاج وأخرى بلحم ضأن والثاالثة بلحم بقرى وأربعون رطلاً خبز بر ماذق ولولده خمسة دنانير وحوائج النوروز بما تقدم ذكره[2]

قال ابن زولاق: وفي هذه السنة، يعني سنة ثلاث وستين وثلثمائة، منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز في السكك، ومن صبّ الماء يوم النوروز. وقال: في سنة أربع وستين، وفي يوم النوروز زاد اللعب بالماء، ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق، وعملوا فيه وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السماجات والحلي في الأسواق، ثم أمر المعز بالنداء بالكف، وأن لا توقد نار، ولا يصب ماء، وأخذ قوم فحبسوا، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال. وقال ابن المأمون في تاريخه:

وحلّ موسم النوروز في اليوم التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة، ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز، وثغر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة، والحريري والسوادج، وأطلق جميع ما هو مستقرّ من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق، وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها، وأسماء أربابها، وأصناف النوروز البطيخ والرمان، وعناقيد الموز، وأفراد البسر، وأقفاص التمر القوصي، وأقفاص السفرجل، وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج، ومن لحم الضأن، ومن لحم البقر من كل لون بكلة مع حبرير مارق، قال: وأحضر كاتب الدفتر الحسابات بما جرت به العادة من إطلاق العين والورق، والكسوات على اختلافها في يوم النوروز، وغير ذلك من جميع الأصناف، وهو أربعة آلاف دينار ذهبا وخمسة عشر ألف درهم فضة، والكسوات عدّة كثيرة من شقق ديبقية مذهبات وحريريات، ومعاجر وعصائب نسائيات ملوّنات وسقولاد مذهب وحريري، ومسفع، وفوط ديبقية حريرية، فأما العين والورق والكسوات، فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور، ودار الوزارة والشيوخ والأصحاب، والحواشي والمستخدمين ورؤساء

---

1) نصوص من أخبار مصر لابن المأمون ص65

2) نصوص من أخبار مصر لابن المأمون ص67

العشاريات، وبحاريها، ولم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم في ذلك نصيب. وأما الأصناف من البطيخ والرّمان والبسر والموز والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها، فيشمل ذلك جميع من تقدّم ذكرهم، ويشركهم فيه جميع الأمراء أرباب الأطواق والإنصاف وغيرهم من الأماثل، والأعيان من له جاه، ورسم في الدولة.

وقال القاضي الفاضل في متجدّدات سنة أربع وثمانين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطيّ، وهو مستهلّ توت، وتوت أوّل سنتهم، وقد كان بمصر في الأيام الماضية والدولة الخالية من مواسم بطالاتهم، ومواقيت ضلالاتهم، فكانت المنكرات ظاهرة فيه، والفواحش صريحة فيه، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز، ومه جمع كثير، ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبه، ويرسم على دور الأكابر بالجمل الكبار، ويكتب مناشير، ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج الطير، ويقنع بالميسور من الهبات، ويجتمع المغنون، والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة، وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، ويشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم، وفي الطرقات، ويتراش الناس بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجا بالأقذار، وإن غلط مستور، وخرج من بيته لقيه من يرشه، ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإمّا أن يفدي نفسه، وإمّا أن يفضح، ولم يجر الحال على هذا، ولكن قد رش الماء في الحارات، وقد أحيى المنكرات في الدور أرباب الخسارات. وقال في متجدّدات سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة: وجرى الأمر في النوروز على العادة من رش الماء، واستجدّ فيه هذا العام التراجم بالبيض، والتصافع بالأنطاع، وانقطع الناس عن التصرّف، ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة، وخرق به، وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء، والتصافع بالجلود، وغيرها إلى أن كانت أعوام بضع وثمانين وسبعمائة، وأمر الدولة بديار مصر، وتدبيرها إلى الأمير الكبير برقوق قبل أن يجلس على سرير الملك، ويتسمى بالسلطان، فمنع من لعب النوروز، وهدّد من لعبه بالعقوبة، فانكف الناس عن اللعب في القاهرة، وصاروا يعملون شيئا من ذلك في الخلجان، والبرك، ونحوها من مواضع التنزه، بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل في يوم النوروز زمن البيع والشراء، ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون عن حدّ الحياء والحشمة إلى الغاية من الفجور والعهور، وقلما انقضى يوم نوروز إلّا وقتل فيه قتيل أو أكثر، ولم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضي ذلك، ولا من الرفه والبطر ما يوجب لهم عمله[1]

1) المواعظ والاعتبار ج2 ص 35-37

أحد الشعانين

وعن مظاهر الاحتفال بأحد الشعانين يذكر تاريخ أوتيخا ، كان الرسم بمصر و سائر البلاد أن تزين الكنائس في هذا العيد بأغصان الزيتون و قلوب النخل و يفرق منها على الناس على سبيل التبرك[1]، والأنصارى في نخبة الدهر يقول: عيد الزيتونة وبسمونه بعيد الشعانين وطريقتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة[2]، وفى اتعاظ الحنفا يذكر أنه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة هـ فلما كان ليلة عيد الشعانين منع النصارى من تزيين كنائسهم على ما هي عادتهم، وقبض على جماعة منهم في رجب، وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس وإثباته في دواوين السلطان؛ وكتب إلى سائر الأعمال بذلك. وأحرق صلبان كثيرة على باب الجامع وفي الشرطة[3].

عيد الصليب

يذكر المقدسى البشارى أن نهر النيل زيادته من شهر بؤونة إلى شهر توت وقت عيد الصليب ولهم سدان أخدهما بعين شمس ترعة تسد بالحلفاء والتراب قبل زيادته فإذا أقبل الماء رده السد وعلا الماء على الجرف أعلى القصبة فيسقى تلك الضياع مثل بهنيت والمنيتين وشبرو ودمنهور وهو سد خليج أمير المؤمنين فإذا كان يوم عيد الصليب وقت انتهاء حلاوة العنب خرج السلطان إلى عين شمس فأمر بفتح هذه الترعة وقد سد أهل الجرف أفواه أنهارهم حتى لا يخرج الماء منها وجعلوا عليها الحراس فينحدر الماء إلى ضياع الريف كلها والترعة الأخرى أسفل من هذه وأعظم غير أن السلطان لا يحضرها[4]، وابن مماتى يذكر: بجر بو المنجا وجرت العادة بأن يسد ويفتح ثالث عشرين توت يقطع عند الصليب عادته[5] وليانة شطنوف تفتح قبل عيد الصليب وتسقى أيضاً المنوفية والصاوية والطندتاوية وبرماويه[6] وفى السابع عشر

---

1) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 276

2) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للأنصارى الصوفى الدمشقى ص 280

3) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج 2 ص 71

4) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسى البشارى ص206

5) قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى ص206

6) قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى ص217

من توت عيد الصليب فيه يشرط البلسم ويستخرج دهنه وفيه تسجل الأراضى وتصرف التقاوى وترفع السجلات[1]

ويذكر المقريزى كان لعيد الصليب بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه إلى بني وائل بظاهر فسطاط مصر، ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من أنواع المحرّمات، ويمرّ لهم فيه ما يتجاوز الحدّ، فلما قدمت الدولة الفاطمية إلى ديار مصر، وبنوا القاهرة، واستوطنوها، وكانت خلافة أمير المؤمنين العزيز بالله أمر في رابع شهر رجب في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، وهو يوم الصليب، فمنع الناس من الخروج إلى بني وائل وضبط الطرق والدروب، ثم لما كان عيد الصليب في اليوم الرابع عشر من شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة خرج الناس فيه إلى بني وائل، وجروا على عادتهم في الاجتماع واللهو، وفي صفر سنة اثنتين وأربعمائة قرىء في سابعه سجل بالجامع العتيق وفي الطرقات كتب عن الحاكم بأمر الله يشتمل على منع النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب، وأن لا يظهروا بزينتهم فيه، ولا يقربوا كنائسهم، وأن يمنعوا منها ثم بطل ذلك، حتى لم يكد يعرف اليوم بديار مصر البتة[2].

عيد القيامة والخماسين المقدسة

كذلك كان للأقباط مظاهر احتفالات خاصة بهم فى عيد القيامة ومما هو جدير بالذكر: يقول ابن إياس في حوادث ذي الحجة سنة ٩١٥: وفيه كان موكب العيد حافلًا، وأوكب السلطان على العادة، فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان في اليوم الثاني من العيد، وتوجه إلى قبة الأمير يشبك الدوادار التي بالمطرية، وأقام هناك إلى بعد العصر، ووافق ذلك اليوم عيد النصارى وأول الخماسين، فانشرح هناك، ومد أسمطة حافلة، وحضر عنده جماعة من المغاني وأرباب الآلات، ورسم لبعض الأمراء العشرات بأن يرقص؛ فقام ورقص بين يدي السلطان فرسم له بمائة دينار[3].

---

1) قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى ص237

2) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 33

3) مجالس السلطان الغوري ص 17

حال الأقباط فى القرن السابع عشر الميلادى[1]

يذكر جوفنى ميكيله فنسلبيو فى تقريره خلال رحلته إلى مصر عام 1671م :

إن سلطة البطريرك كما كانت دائماً هى إلى الآن واسعة جداً، وهذا يمكن معرفته من رسالة له زودنى بها لذلك الأمير الذى بسببه قمت بهذه الرحلة، أمير الحبشة، وبداية هذه الرسالة مترجمة كما يلى:

"متاؤوس الخادم غير المستحق ليسوع المسيح، والمدعو بنعمة الله، والمقام بإرادته لخدمته على كرسى القديس مرقس الإنجيلي، فى مدينة الأسكندرية وأورشليم، ومصر العليا والسفلى والنوبة والحبشة ..."

إن مقره الآن ليس بعد فى الأسكندرية كما فى الماضى بسبب قلة الأقباط هناك وسائر مساكنهم مدمرة تقريباً، ولكن فى القاهرة الكبرى فى الشارع المدعو حارة زويلة بقرب كنيسته البطريركية المدعوة كنيسة العذراء، ولكنه مع ذلك يحتفظ باللقب القديم وهو يقيم أحياناً فى مصر القديمة فى الشارع المدعو بسبب سكنه حارة البطرك، حيث لديه كذلك كنيسة كتدرائية مدعوة كنيسة الطوباوى مرقوريوس، ويسكن حسب الفصول أو المهمات التى تتطلب وجوده فأحيانا فى دير القديس جرجس الكائن فى حى آخر فى مصر القديمة، وأحياناً فى الجيزة وهى أرض فى مواجهة مصر القديمة عبر النيل.

ويجرى اختياره لهذه الكرامة من دير القديس أنطونيوس، أما ذلك البطريرك الذى كان آنذاك عندما كنت هناك أى فى سنة 1664م فكان من دير القديس مكاريوس، وهو من الرهبنة نفسها.

شروطه: أن يعرف القراءة والكتابة، وأن يعي جيداً حالة كنيسته، وأن يكون عميقاً فى الديانة المسيحية خبيراً فى الكتاب المقدس وفى المجامع والآباء القديسين، لا تطلب منه أية درجة رفيعة أخرى فى العلم، حيث أن جميع رجال الكنيسة أولئك سواء كانوا كهنة أو رهباناً هم بسطاء جداً وفوق ذلك هم جهلة فى كل نوع من العلوم، والمفروض عليه أن يرتل القداس أحياناً ويعقد الزواجات وأن يذهب لزيارة الكنائس وأديرة مصر وأن يحافظ على حالة حسن نظام كنيسته. وطريقة الحياة التى يعيشها فى بيته هى كما يلى: يجلس عادة طوال النهار فى بيته فى حجرة الاستقبال فى الصدارة فى وسطها يجلس القرفصاء على جلد نعجة بصوفها مبسوط على سجادة تغطى نصف تلك الحجرة.

---

1) تم الإقتباس من، تقرير الحالة الحاضرة لمصر، جوفنى ميكيله فنسلبيو، ترجمة: وديع عوض، ص 121-166

عندما يذهب جميع المسيحيين لمقابلته يخلعون الحذاء عند الدخول إلى تلك الحجرة ويضعونه فى مكان قريب من الباب، وعندما يصلون إلى عند البطريرك يركعون أمامه بكلتا الركبتين ويأخذون يده ويقبلونها ويقربونها من الجبهة بعدما يضع هو يده على الرأس ويباركهم، ينسحبون بضع خطوات إلى الوراء ويجلسون فى الصفمع الآخرين ويجلسون هم كذلك على القرفصاء حوله من هنا ومن هناك فى الحجرة على السجادة، وغلى أن ينتهى الآخرون من أمورهم يتناولون القهوة وبعض المأكولات للإفطار كالخبز المحمص أو البلح المجفف، وفى اللحظة االتى يشير فيها إليهم البطريرك يتقدم الذى أُشير إليه ويعرض ما يرغب ويقوم عند الإنصراف بإمارات الإحترام نفسها.

تتكون مائدته من أنواع قيلة من الطعام كطبق سمك أو عنب أو جبنة بيضاء يدعوها العرب جبن حلوم وفجل وبصل وشرابه ماء النيل حيث أنه لا يستعمل النبيذ فى بيته، يدور أحياناً كأس من العرقي، يأكل كفاكهة البلح أو التين، جلساؤه هم كاتبه وهو كاهن وكل من هو من الكهنة أو الرهبان أو من يأتى لمقابلته.

طريقة لباسه محترمة ولكن غير فاخرة قميصه من القماش الأبيض وفوق هذا يرتدى ثوباً من قماش سماوى اللون أو ثوباً قصيراً يرتدى فوقه رداء من قماش أسود وهو يغير ملابسه حسب الفصول، يحمل دائماً عكازاً بدلاً من العصا كما يفعل كذلك جميع الرهبان الآخرين، وهم عندما يتعبون من الصلاة يستخدمونها كسند لأنهم يصلون دائماً وهم وقوف، يحمل البطريرك فوق العمة شريطاً طويلاً لونه فى الغالب رمادى ينزل على الجبهتين ويضم جانبيه، ولا يرتدى أبداً جوارب، وعندملا يخرج يركب حماراً ويتبعه الكاتب وراهبان كل واحد يحمل عكازه فى يده وهم أيضاً يركبون الحمير.

يصل دخل كما بلغنى، إلى عشرين ألف أبوكلب فى السنة، ولكن التركى الجشع الذى لا يحتمل رخاء غيره يثقل على من ليس من ديانته كما حدث للبطريرك المسكين قبل سفرى من القاهرة بثمانية أيام عندما إختبأ فى إصطبل فى مصر القديمة، حيث إنى واجهت صعوبة فى العثور عليه لكى أستأذن من بالإنصراف، وقد طالبه الباشا بستة أكياس من المال لا سبب آخر إلا لأنه رسم كاهنين الواحد منهما رغم أنفه وكان قد ذهب إلى تركى صاحب نفوذ يعرفه لكى يشكوه وهو الذى أثار الباشا ضده.

يجب عليه أيضاً أن يهتم بالأمور الضرورية لكنيسته حيث يقيم وبالإكليروس وبالفقراء فلا يبقى له إلا القليل، أما من حيث عمره فله أربعة وستون سنة لونه زيتونى ضخم الجثة أصلع

تماماً رجل طيب ومُكرم ومتواضع ومحبوب جداً من رعيته كما يستحق، وعندما كنت أنا فى القاهرة كان قد مرّ على انتخابه ست سنوات وأطلب له من السماء كل خير.
الأساقفة التابعون لبطرك الأقباط سواء فى مصر أو فى الخارج عشرة، الأول أسقف أورشليم، والثانى أسقف البهنسا، والثالث أسقف أطفيح، والرابع أسقف الفيوم، والخامس أسقف المحرق، والسادس أسقف منفلوط، والسابع أسقف أسيوط، والثامن أسقف أبوتيج، والتاسع أسقف جرجا، والعاشر أسقف نقادة، ويصل عددهم أحد عشر إذا أحصينا مطران الحبشة لأنه هو أيضاً يتبع البطريرك نفسه. وهناك عدد كبير من القمامصة والقسوس والشمامسة، كل هؤلاء الأشخاص الكنسيون هم رجال بؤساء فقراء بسطاء يشعرون بالرضى إذا قدم لهم طبيخ أى طبق خشب مملوء بالعدس أو الحمص أو نوع آخر من البقول بخبز مفتوت فيه وجبن أبيض حلوم ببصل وفجل وبلح، يتجولان بملابس حقيرة وبثياب متسخة وممزقة، ويمشى القسم الأكبر منهم حفاة، يسرون بأى أجر زهيد حتى لا يكادون يستطيعون الاحتفاظ بحمار فى الإصطبل ويركبونه فى كثير من الأحيان بدون بردعة وبدون لجام، تمر أحياناً أسابيع لا يلمسون فيها نقوداً ويبقون على قيد الحياة بقليل من الصدقة يتكرم بها عليهم أشخاص أتقياء، أو يكسبون خبزهم بفلاحة الأرض أو ببعض الحرف التى تعلموها لكى ينفقوا على أنفسهم وعائلاتهم، هناك البعض منهم يعرفون القراءة بمشقة، من حيث أصلهم هم على الأكثر فلاحون ولا يعرفون الحديث عن شيء إلا عن البقول والبصل والثوم والكتان واللبن والسمن وأشياء مشابهة خاصة بالفلاحين، إنهم محسنون غيورون فى الصيام ولا يهينون أبداً شخص ما إلا بسبب السذاجة المحضة، يحفظون قلبهم دائماً مرتفعاً إلى الله ويحتملون كل إهانة من الأتراك بصبر كبير جداً حباً فى المسيح.
مساء يوم السبت فى الساعة الثانية عشرة ليلاً يتوجه الكاهن مع خدامه إلى الكنيسة ويرتلون صلاة الغروب!؟ التى تستغرق نحو الساعة ولكن يشارك فيها قليل من الناس بسبب تأخر الوقت وعند نهاية صلاة الغروب ينامون فى الكنيسة ومن لا يريد النوم يدخن التبغ أو يشرب القهوة أو يتجاذب أطراف الحديث مع رفقائه.
بعد صلاة منتصف الليل بساعتين يستيقظون لصلاة باكر ولترتيل القداس ويشارك الشعب بأعداد كبيرة فى هذا القداس.
شعائرهم الرئيسية التى يحافظون عليها عند دخول الكنيسة هى: كل واحد سواء كاهن أو علمانياً عند دخوله الكنيسة يخلع حذاؤه ويقبل الأرض أمام باب الهيكل ثم يقبل عتبة باب

الهيكل بعد ذلك يقترب من رئيس الكهنة ويقبل يده ويحنى رأسه لكى يضع هو يده عليه ويباركه ويصنع هكذا مع سائر الكهنة الآخرين والرهبان القائمين هناك، والذين يبقون فى الخورس حول الهيكل مستندين على عكاز، بعد ذلك يتوجه المصلى لإكرام جميع رفات القديسين أو الشهداء المحفوظة فى تلك الكنيسة، وهى عادة موضوعة فى صناديق فوق مائدة من الخشب موضوعة فى الحائط مرتفعة عن الأرض بدرجة تسمح بالوصول إليها باليد وتوقد أمها مصابيح وشموع يحملها بإستمرار المسيحيون لكى يشعلوها أمام هذه الرفات، ويلمس المصلى كل واحد من هذه الصناديق ويقبل اليد التى لمستها بعد زيارة هذه الرفات كلها، يعطى له هو أيضاً عكازاً ويقف على جانب لإتمام صلاته، ولا يجلسون أبداً أثناء الصلاة، ولكن يجلسون على الأرض وقت العظة.

عند ترتيل "قدوس" قبل الإنجيل يضربون بقطع صغيرة من الخشب على بعض الآلات من الأبنوس ويسمونها ناقوس ويحتفظون بكميات كبيرة منها فى كنائسهم والأصوات التى تحدثها تشبه إلى حد ما نغمة موسيقية.

ليس لديهم وعاظ وليس أولئك الكهنة الطيبون بمؤهلين لذلك، وبدلاً من العظة تقرأ بعد الإنجيل عظة من كتاب يسمونه تفاسير أى الشرح، وهى مقتبسة من الآباء القديسين كالقديس باسيليوس والقديس يوحنا ذهبى الفم والقديس كيرلس والقديس ثاؤفيلس والأنبا بولس البوشى وآخرين مشابهين، ومنذ بعض الوقت إلى الآن بدأ الوعظ بالعربية الآباء الكبوتشيون فى كنائس الأقباط لذلك ذهب كثير من الأقباط إلى الإيمان الكاثوليكى.

والشعب أثناء العبادة الإلهية يحدث اضطراب كبير لا يتوقف أبداً فهناك من يدخل ومن يخرج ومن يشرب ومن يثرثر وكان هذا يزعجنى كثيراً، لا سيما لأن ذلك يمنع النساء من سماع الطقوس الإلهية كاللاتى يكون مكانهن بعيداً عن الخورس.

وفى عمادهم يعمدون بعد منتصف الليل وفى نهايته يجرى الاحتفال بقداس مصحوب بصلوات كثيرة البعض منها يقرأ والبعض يرتل باللغة القبطية والعربية وبعد أن يرتلوا لبعض الوقت، يحمل الدياكونيون الأطفال إلى الهيكل حيث يجرى دهنهم للمرة الأولى بالميرون، وبعد القيام بذلك يرتلون من جديد ثم يشرعون فى مسح الجسد كله بستة وثلاثين صليباً ثم يتابعون الترتيل، وكل مرة تجرى فيها هذه الطقوس تصرخ النساء الحاضرات بالزغاريد كعلامة فرح حسب عادة البلد. وفى أثناء ذلك يضع خادم الكنيسة الماء فى المعمودية وهى عميقة نحو ذراع، وإليها يقترب الكهنة بعد نهاية طقوسهم فى الخورس، يبارك المُعَمَّد الماء

بسكب زيت التثبيت ويخلطه على شكل صليب ثم يتناول الغلام من ذراعه اليمنى ورجله اليسرى بيد ومن رجله اليمنى وذراعه اليسرى باليد الأخرى مكوناً بهذا الشكل صليباً بهذه الأعضاء الصغيرة ثم يغطسه مرتين حتى الرقبة والثالثة كله تماماً، حينئذ يكسون الخليقة الجديدة بثوب صغير أبيض، ويتابع الكهنة الترتيل والنساء الزغاريد وفى نهاية الأمر ينفخ الكاهن فى وجه الغلام ثلاث مرات لكى يقبل الروح القدس.

بعد العماد يناولن المخلوق الجديد وبعد نهاية القداس يشعلون شمعاً كثيراً ويقومون بدورة فى الكنيسة وهم يرتلون ويحمل الدياكونيون الأطفال على أذرعتهم ويسبقهم الكهنة ويلحق بهم باقى الناس سواء الرجال أو النساء الحاضرون وقتئذ ولا تتوقف النساء عن الزغاريد، بعد نهاية الدورة يتناول الأهل إفطاراً من المربى فى الكنيسة وفى المساء السابق يقدمون عشاء لجميع الحاضرين بخلاف التبغ والقهوة اللذين يقدمونهما.

ويتزوج الناس عادة وهم صغار السن وقد حضرت فى القاهرة زواجاً وكان للذكر اثنتا عشر سنة والأنثى تسع سنوات، وقد سألت والد العريس لماذا زوج ابنه فى وقت مبكر؟ أجابنى: أن هذه كانت رغبة الابن، ولما سألت إن كان يستطيع القيام بواجبه كزوج نحو الزوجة، رد أنه لا يشك فى ذلك، وأنه يقوم بما قام به الأزواج الآخرون، ثم غادروا الخورس وذهبوا لكى يجلسوا فى مكان النساء ثم جاءت امرأة ووضعت قطعة صغيرة من السكر فى يد الزوجة ورشت عليها ماء الورد وكررت ذلك ثلاث مرات، وبالمثل قامت الزوجة بتقديم قطعة سكر للزوج الذى قام بتناولها بفمه من يد الزوجة، وقام هو بالمثل مع الزوجة، وكل مرة كان كل واحد منهما يأخذ السكر كانت النسوة يهللن بالزغاريد، وقاموا بتوزيع السكر على الحاضرين ورشوا ماء الورد على وجوههم.

وللأقباط عادة أخرى غريبة أخرى فى أعراسهم وقد حُكيت لى كشيء أكيد: أى بعد أن يوحدهم الكاهن بالزواج يقضون الليلة الأولى بدون دخول، وفى الليلة التالية يتم الإتحاد ويقف شخصان بالعصا فى أيديهما أمام باب الغرفة وبعد أن ينتظرا قليلاً يسألان الزوجين ثلاث مرات، بينهما فترة قصيرة، إن كانا قد تعارفا جسدياً، وإذا لم ترد الزوجة فى المرة الثالثة بالإيجاب، يقوم الإثنان بفتح الباب، وإن كان مقفولاً يفتحانه عنوة ويضربان الزوج بقسوة.

يقوم الأب البطريرك فى تكريس الكهنة ورسامتهم باحتفال كبير، ولكن بما هؤلاء ليس لهم دخل أو دخل قليل لا يصل أحيانا إلى أربع قطع من الثمانية ريالات فى السنة ويواجهون أعباءاً كثيرة، لأنه يتعين القيام فى الكنيسة ليلاً ونهاراً ولا يستطيعون الإهتمام بأعمالهم ولذا لا

يتقدم أحدهم لنوال الكهنوت ولكن البطريرك يجبرهم على ذلك وأحياناً بالتهديد، ففى سنة 1664م، قام البطريررك قام برسامة أحد الأشخاص كاهن بالعنوة فوضع القميص عليه بالقوة وقاوم هذا الشخص بكل قدرته، ولكنه لم يستطيع التملص لأن الكهنة الآخرين عانوا البابا البطريرك، فإنزوى هذا الشخص والقميص عليه فى جانب من الكنيسة وبكى بحرارة ولم يرد بأة طريقة أن يضع يده على أى أحد، لكى يقوم بدرجته المقدسة ولم يرد كذلك قبول التهانى من الشعب الذى كان سعيداً برسامته.

وحدث بعد ذلك أن هذا الكاهن الى أجبر على الكهنوت عنوة، ذهب فى ذلك المساء إلى تركى صاحب نفوذ من معارفه، وشكا البطريرك الذى استعمل معه القوة، وحصل هذا على أمر من الباشا بمعاقبة البطريرك وتغريمه ستة أكياس من الدنانير، وإلا دمر الكنيسة حيث جرت الرسامة، فإختفى البطريرك فى بيت مهجور وأقتضى الأمر أن يفعى هذا الكاهن.

ولا يحتفظون بصور فى كنائسهم بل برسومات فقط كصور السيد المسيح والسيدة العذراء والقديس جرجس والملائكة القديسين ميخائيل وروفائيل وغبريال وآخرين ويظهرون إكراماً كبيراً لها ويقبلونها ويشعلون أمامها الشموع والقناديل، ويؤمنون إيماناً شديداً أن الله يمنح نعماً غزيرة بواسطة هذه الصورة ولذلك فى ضيقاتهم يلجأون إليها، وهناك فى مصر القديمة فى دير القديس جرجس صورة لهذا القديس وقد رأيتها بنفسى وقد أحضروا أمامها مجنوناً، وللحال عاد إليه عقله، وهناك إعتقاد عام فى معجزات كثيرة جرت حتى أنه مثلاً يجرى فى مصر بأسرها ويقول: إذا كنت مجنوناً يجب إحضارك إلى القديس جرجس.

وحيث أن إكرام هؤلاء الناس خاص جداً نحو السيدة العذراءء القديسة وملكة جميع القديسين، كذلك هناك إكرام خاص لصورها المقدسة التى يشعلون أمامها عدداً كبيراً من القناديل ويزينوها بالأزهار والستور وينحنون أمامها ويقدمون النذور، وفى أمراضهم يدهنون أجسادهم بزيت القناديل المشتعلة أمامها وينالون النعم من صور السيد العذراء هذه، هناك عدد كبير فى وقد رأيتها.

ويتبعون فى دفن موتاهم الشعائر التالية: إذا كان الشخص الميت رفيعاً يعرضونه وسط الكنيسة ويحيطونه بعدد كبير من المشاعل، ويتلو الكهنة صلاة الموتى طبقاً لطقسهم، وعند وضع الميت فى القبر ترقص حوله امرأة وتغنى وتعدد طبقاً لما لاحظت، وتصرخ باقى النسوة حسب طريقتهم والبعض منهن يلطخن أيديهن.

وبعد نهاية الجناز الذى رأيته جرت بعده مباشرة على سطح الكنيسة دعوة للذين حضروا، وكان الطعام يتكون من طبق من البازلاء مع قليل من اللحم داخله، وأما الخبز فحسب ما يريدون، رغم أنه كان قد حضر أكثر من مائتي رجل وامرأة، أما البطريركوبعض الكهنة وأعيان الأقباط فقد دعوا إلى حجرة خاصة وخدموا أكثر من الآخرين، ودُعيت أنا معهم وكنت بجانب البطريرك.

ومن عاداتهم إقامة الدعوات بعد العمادات والجنازات وقبل قبول المناولة المقدسة، وإنما هذا طقس قديم أدخلته الكنيسة ولا سيما قبل المناولة إقتداء بعشاء سيدنا الأخير، وكانت هذه العادة جارية زمن الرسل، كان الآباء القديسون يسمون هذه الدعوات أغابى أى مسرة أو محبة لأنها كانت رموز أخوة ووحدة نفوس. بعد إقامة الجناز بشهر يصلون قداساً كبيراً على الميت ويتلون كذلك فرض الموتى علانية فى الكنيسة.

وبالنسبة للرهبان سأحاول أن أقدم وصفاً حياً بقدر الإمكان لحياة الرهبان القاطنين فى الأديرة، من المعروف أن سائر قوانين الرهبانيات تكمن عادة أساساً فى المحافظة على النذور الثلاثة الرئيسية، وهى نذر العفة والفقر والطاعة، ورغم أن هؤلاء الرهبان يحافظون على الطاعة والفقر بالطريقة التى سأبينها ويحيون فى العزوبية فإنى رأيت فى دير المحرق وفى دير الأحباش غير البعيد منه كثيراً من الإناث المسنات والشابات يسكن هناك، ويتعاطين مع أولئك الرهبان فى كل ساعة وكل لحظة وبالتالى فبوسع كل إنسان أن يرى بنفسه أى نوع من العفة كان يحافظ عليها الراهب المُعَرض لفقدها هكذا سريعاً.

يحافظون على نذر الفقر محافظة جيدة ولكن للحاجة أكثر منه بسبب النذر كما أعتقد، لأنهم الفقر ذاته، إنهم بؤساء رثو الثياب وقذرون حتى أننى كنت أشعر بالضيق بقيامهم حولى، عندما وصلت إلى الديرين المذكورين كان الواحد يسألنى عن حذاء والآخر كان يريد رباطاً حول القبعة، وآخر كان يريد شيئاً آخر، كان واحد منهم عرياناً تماماً، يمكن الإستنتاج من هذا نوع عفة الرهبان، نظراً لهذا العرى الفاضح، كان البعض الآخر يرتدى القليل من الثياب التى تكاد لا تخفى عورة الجسم، ومع ذلك يحيون بإستمرار مع الإناث.

لكى أصف كذلك مساكنهم وقلاليهم ولكى نتعرف على حالتهم الفقيرة والمزرية يكفينى أن أقول أنها مبنية من الطوب اللبن، ولها فى العادة أبواب منخفضة وصغيرة، حتى أنه لا يمكن دخولها إلا بمشقة والمرء منحن، وهى بلا نوافذ والبعض منها مفتوح نحو السماء والبعض متهد الأسوار وكلها مملوءة بالحشرات والقاذورات، فى دير الأحباش عندما فتحت القلاية التى

خصصها لى رئيس الدير كسكن وكانت واحدة من أفضلها هاجمنى جيش من الوطاويط أصابنى منظرها بالرعب والخوف حتى إنى كنت على وشك العودة إلى منفلوط التى كنت قد جئت منها.

أما بالنسبة لنذر الطاعة الذى يعتبره الرهبان من أهم النذور ويتضمن باقيها، أعتقد أنهم يحافظون عليه، ولكنى أستطيع أن أقول إننى لم أجد أي أثر له عندهم لأننى لاحظت دائماً أن كل واحد منهم كان يعمل ما يريد بدون إعتبار للرئيس أو لأى قانون.

فى دير القديس أنطونيوس يعيش الرهبان إلى اليوم بمحافظة شديدة على القوانين ينهجون حياة جماعية ويحافظون على الصمت، وتبعد الإناث عن الدير، ولا يأكلون أبداً اللحم بل سمكاً وبيضاً فقط أو بالأكثر أعشاباً وعسلاً وبقولاً وفاكهة مجففة، يتلون بإستمرار فرض النهار فى الساعات الواجبة، وهم متحضرون أيضاً قليلاً وليسوا جهلاء كما فى الأديرة الأخرى. لا نجد خارجاً عن ذلك فى جميع الأديرة الأخرى إلا جهلاً كبيراً وتوحشاً، ويعيش الرهبان فيها حياة أقرب إلى حياة الحيوانات منها إلى حياة البشر.

الرداء الذى يميز الرهبان عن الكهنة العلمانيين هو غطاء الرأس، وهو من قماش أسود على مقاس رأس الراهب، ويحملونه تحت العمة كأنه قبعة ويدعونه كلسوة، خلف غطاء الرأس هناك شيء مخيط كأنه درع من القماش ذاته عرضه شبر ويصل إلى الركبتين، إلا أنه تحت الثوب فلا يرى من الخارج، يحملون كذلك دائماً فى أيديهم عكازاً يستندون عليه وقت الصلاة أو عندما يحضرون الفروض الإلهية.

فى الحقيقة يمنح الأتراك حرية الضمير لكل واحد وهذا لا فى مصر وحدها بل وفى سائر بلادهم الأخرى، بشرط عدم المساس بديانتهم، ومع ذلك كثيراً ما يحرمون المسيحيين من أفضل كنائسهم وأديرتهم، كما حدث منذ بضع سنوات للدير المدعو دير الغراب فى منفلوط الذى حولوه إلى جامع.

وبالمثل صنع كذلك الباشا السابق إبراهيم منذ ثلاث سنوات، فى قرية المطرية على بعد خمسة أميال خارج القاهرة، عندما بنى جامعاً فى ذلك المكان، حيث كان للأقباط كنيسة صغيرة وكانوا يُظهُرون للغرباء قطعة رخام كان من عادة السيدة العذراء الكلية القداسة أن تنشر عليها ملابس طفلها يسوع لكى تجف بعد غسلها، وهناك بالقرب من من نبع الماء الذى أظهرته بطريقة عجائبية قوة يسوع العظيمة عندما وصل إلى مصر وأشتد عليه العطـ، وتفيض من هذا النبع حتى يومنا هذا مياه حلوة تفوق حلاوتها سائر المياه الأخرى التى تفيض من ينابيع

القاهرة والنيل نفسه، البشوات أنفسهم رغم بعد قصرهم ورغم عداوتهم الشديدة للمسيحيين وما يخصهم يستخدمون الماء المذكور على موائدهم، وعند المرور على الكنيسة الصغيرة المذكورة يحل المرء فى بستان حيث شجرة التين (الجميز) وبداخلها وفقاً لتقليد قديم جداً احتمى السيد المسيح عندما كان يطارده هيرودس، انفتح جزع التينة من تلقاء ذاته وساج عنكبوت خيوطه، وكانت هذه سميكة وقديمة المظهر، حتى أن الأعداء عندما مروا لم يروا ولم يبحثوا فى الداخل عن السيد المسيح، إلا أنه اليوم غير مسموح لأى فرنجى أن يزور الأماكن المذكورة بسبب بنيان الجامع هناك.

كذلك قام الأتراك بنزع كنيسة القديس أثناسيوس فى الأسكندرية من أيدى المسيحيين وحولوها إلى جامع، ولا يسمحون للمسيحيين بإمكانية ترميم كنائسهم المتهدمة، والعقوبات قاسية، بل إن المسيحيين لا يجرؤون حتى على إزالة خيوط العنكبوت، خوفاً من أن تبدو جميلة فى عيون الأتراك فيقومون بنزعها.

فوق ذلك يثقل الأتراك كنائس المسيحيين وأديرتهم بالضرائب والمغارم، مثل هذا حدث منذ أربعة عشر سنة للأحباش فى القاهرة، عندما قام الباشا ضدهم وهددهم بنزع الكنيسة إن لم يدفعوا مبلغاً كبيراً من المال فأضطروا لبيع ما فى كنيستهم، وكتبهم المخطوطة، لكى يدفعوا المبلغ المفروض، وكان عدد هذه الكتب يصل إلى نحو الأربعين، وقد أرسلها االأب الزِئار الكبوتشيني إلى مستشار فرنسا الأعظم السيد بيير سجيه، وقد رايتها فى بيته، وهذا هو السبب الذى من أجله لم أجد أى كتاب حبشى فى القاهرة إلا أربعة كتب كانت عند الأب المذكور، وقد نسختها، تثقل هذه الضرائب مع الوقت كاهل المسيحيين حتى أنهم لا يستطيعون الإحتمال بعد، وبما أن عدد كنائس الأقباط فى تناقص دائم أشك أنه مع الوقت سيسيطر الأتراك على الباقى، غير أن حالة الفرنج أفضل كثيراً من حالة هؤلاء، لأن الأتراك لا يتركونهم يباشرون خدمة الله، بلا مضايقة فحسب بل أكثر من ذلك يكنون إحتراماً كبيراً للآباء المرسلين الكبوتشيين والفرنسيسكان الحفاة، الذين سواء فى القاهرة او فى الأسكندرية لديهم كنائسهم الصغيرة فى مساكنهم ويخرجون جهراً مرتدياً كل منهم الملابس الخاصة برهبنته.

حال الأقباط فى القرن الثامن عشر الميلادي

يذكر جان جاك لوتى عن إحتفالات الأقباط خلال فترة الحملة الفرنسية 1798-1801م: يحتفل الأقباط بشفعائهم من القديسين وهم ينظمون الموالد لهم، وذكر ج. فيو (G. Viaud) أن موالد الأقباط تبلغ 60 مولداً يحتفلون بها كلها حول الكنائس والأديرة، ويستمر بعضها لعدة أيام، والبعض الآخر يستمر لمدة يوم واحد فقط وهو يوم ذكرى القديس، ومن هذه الموالد:

مولد ميت دمسيس فى الدقهلية من يوم 22 إلى 29 أغسطس، ويحتفلوان به فى ذكرى مارجرجس، ويشارك المرضى والمجاذيب، والمسيحيون والمسلمون، فى هذا المولد، فيحضرون بأعداد كبيرة ويصلى الرهبان من أجلهم، وإذا ظهر لهم مارجرجس فى فإنهم يشفون من أمراضهم.

وهناك أيضاً مولد القديسة دميانة ورفيقاتهم الأربعين بالقرب من بلقاس، وهى شهيدة من القرن الثالث الميلادى، ويحتفلون به فى يوم 20 مايو، أم مولد السيدة العذراء فى دقادوس بالقرب من ميت غمر فيحتفلون به من 20 إلى 22 أغسطس، وهو إحياء لذكرى مرور العائلة المقدسة بدقادوس وهى فى طريقها إلى سمنود فى الدلتا، ويوجد مولد مارجرجس فى طوخ النصارى من يوم 27 إبريل حتى يوم 4 مايو، وتوجد موالد أخرى كثيرة فى الصعيد.

وفى هذه الموالد يختلط دائماً التدين الصادق بالروح الدنيوية، فطوال النهار وخصوصاً فى الليل تتزاحم الحشود على المقاهى والمطاعم الصغيرة التى تحيط بالأديرة والكنائس، وجميع أنواع التجارة موجودة فى هذه الموالد، ففيها البقالون والعطارون وباعة الصور والأيقونات والأحجبة وراسمو الوشم وباعة الحلوى واللحوم المشوية والفسيخ .. إلخ[1].

ثم يذكر جان جاك لوتى: تعيش الأديرة على مواردها الضئيلة المتحصلة عن الأوقاف الخاصة بها، والأديرة الأكثر فقراً تعيش على التبرعات التى تتلقاها من الأديرة الأغنى، ويقضى الرهبان أغلب وقتهم صائمين ويمارسون عيشة الزهد والحرمان فى أديرتهم، فهم لا يتناولون سوى وجبة واحدة فى اليوم مكونة من الخبز والخضروات والأسماك، ويتناولون اللحم مرة واحدة فى الأسبوع، ولا يرتدون أية ملابس خاصة تميزهم عن غيرهم، ولا يملكون سوى جلباب واحد من الصوف مثل عامة الفلاحين، وتعيش الراهبات نفس عيشة الرهبان ولا يتمتعن بأية

1) نظرة عامة على مصر فى زمن بونابرت، جان جاك لوتى ص 259-260

إمتيازات خاصة بهن، ويقدم الرهبان والراهبات لزوار الأديرة أرغفة خبز صغيرة ومستديرة عليها علامة الصليب، ورموز دينية أخرى تذكاراً لهذه الزيارة.

وبطريرك الأقباط الأرثوذكس هو الرئيس الدينى للطائفة، وله سلطة مطلقة على أفرادها، وهو الذى يتدخل لحل جميع المشاكل التى تنشأ بين أفراد طائفته عدا جرائم القتل، ويجرى العرف على إنتخابه من رهبان دير القديس أنطونيوس، ويتم انتخابه بواسطة مجلس إنتخابى مكون من: الأساقفة والرهبان وكبار الأعيان، ويتم تعيين المرشح الحاصل على أعلى الأصوات فى منصب البابوية، ولا يحصل الحبر على دخل كنسى، وفى المقابل فإنه يتسلم إدارة المنشآت الدينية.

ويعاون البابا 12 أسقف لا يحصلون على أى دخل سوى صدقات أسقفياتهم، ويتصف الرهبان بالفقر والجهل لكنهم يحظون بالإحترام، والقليل منهم يستطيع قراءة اللغة القبطية مع أنها لغة الطقوس الدينية، وتحتفظ النساء القبطيات بنقابهن أمام الرهبان إلا إذا سمح لهن أزواجهن بكشف وجوههن أمامهم.

والكنائس القبطية لا توجد بها مقاعد، فيظل الرجال واقفين طوال فترة أداء الطقوس الدينية وسندون ذقونهم أحياناً على عكاز على شكل حرف (T) يسمونه "تأو"، وتبقى النساء خلف حاجز خشبى لكى لا يراهن أحد من الرجال[1].

1) نظرة عامة على مصر فى زمن بونابرت، جان جاك لوتى ص 189-190

المجتمع القبطى

موقف عمرو بن العاص تجاه الأقباط

قال هشام بن أبى رقية أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر: أن من كتمنى كنزاً عنده قتلته وأن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس قيل لعمرو بن العاص أن عنده كنزاً فأرسل إليه وقال له: بلغنى أن عندك كنزاً، فأنكره وجحده، فحبسه في السجن وقال للموكلين به: هل تسمعونه يسأل عن أحد من أصحابه، فقالوا له: لا إنما سمعناه يسأل عن راهب في الطور، فأرسل عمرو بن العاص إلى بطرس وأمره أن ينزع خاتمه من أصبعه فنزعه وأرسله له عمرو بن العاص إلى ذلك الراهب الذى بالطور عن لسان بطرس وهو يقول له: الوديعة التي عندك أحضرها فأرسل ذلك الراهب حقه مختوم عليها بالرصاص ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها أموالكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو إلى الفسقية الكبيرة فحبس عنها الماء ثثم قلع عنها البلاط التي تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردباً ذهباً مصرياً، فأرسل عمرو وأحضر بطرس وضرب عنقه عند باب المسجد فخاف جميع القبط على أنفسهم وصار كل من كان عنده كنز أظهره عليه وإلا صار مثل بطرس[1].

يخبرنا الكندي عن القرون الأولى للعرب فى مصر ومواقفهم تجاه الأقباط: فى سنة ماية هـ وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز كان على أهل مصر أبُو عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، ونزعت مواريث القِبْط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم، ومنع النساء الحمامات[2]، وفى سنة خمس وماية هـ تولى على مصر الحُرّ بن يوسف من قِبل هشام بن عبد الملك على صلاتها، دخلها لثلاث خلونَ من ذي الحجَّة سنة خمس ومائة، فأَقر حَفْص بن الوليد على شُرطه، وفي إمرة الحُرّ كتب عبيد اللّه بن الحبحاب صاحب خَراجها إلى هِشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد عَلَى كلّ دينار قيراطًا، فانتقضت كُورة تنو، وتُمَيّ، وقُرْبَيْط، وطُرابِيَة، وعامَّة الحَوْف الشرقيّ، فبعث إليهم الحُرّ بأهل الديوان، فحاربوهم، فقُتل منهم بَشَر كثير، وذلك أوَّل انتقاض القِبط بِمصر، كان انتقاضهم فِي سنة سبع ومائة، ورابط الحُرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهُر من سنة سبع ومائة واستخلف عليها حَفْص بن الوَليد[3]، ثم ولِيَها بن

---

1) نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس ص 129-130

2) الولاة والقضاة للكندي ج 1 ص 53

3) الولاة والقضاة للكندي ج 1 ص 56-57

صَفْوَان وِلايته الثانية على صلاتها، فقدِمها يوم الخميس لخمس ليال خلونَ من المحرَّم سنة تسع عشرة ومائة، فجعل على شُرَطه عِياض بن حُربية بن سعِيد بن الأصبع الكَلْبيّ، ثم انتقض أهل الصعيد، وحارب القِبْط عُمّالهم فِي سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث حَنْظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القِبط ناسًا كثيرًا وظفِر بهم[1]، وفى أيام عبد الملك بن مروان سنة اثنتين وثلاثين ومائة هـ خرج رجل من القبط، يقال له: يحنس بسمنود، فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فقتل يحنس في كثير من أصحابه، وخالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان أمير المؤمنين، وتابعه على ذلك الدماحس بن عبد العزيز الكناني في جمع من قيس، فنزلوا الحوف الشرقي وأظهروا الفساد، فبدر عبد الملك بن مروان أهل الديوان إليهم وجعل على جماعتهم موسى بن المهند بن داود بن نصير، فساروا في سبعة آلاف إلى بليس، فلما التقوا دعوا إلى الصلح على أنهم يخرجون عمرو بن سهيل، والدماحس إلى أي أرض شاء، فأجابهم موسى بن المهند إلى الصلح وانصرفوا، ثم ظفر بعد ذلك بعمرو بن سهيل فحبس بالفسطاط. وبعد قدوم مروان بن محمد مصر سنة اثنتين وثلاثين ومائة هـ فخالفت القِبْط بِرَشيد، فبعث إليهم عثمان بْن أَبِي نِسْعَة فِي المعصه فهزمهم[2]، وعندما استخلف على مصر أبو عون بن عبد الملك بن يزيد واستخلف عكرمة على الفسطاط، وخرج أبو عون إلى دمياط في شوال سنة خمس وثلاثين ومائة هـ، واستخلف عليها عكرمة بن قحزم وعلى الخراج عطاء بن شرحبيل مولى مراد وخرج أبو مينا القبطي بسمنود، فبعث إليه بعبد الرحمن بن عتبة، فقتل أبو مينا[3]. وعندما ضم يزيد بن حاتم برقة إلى عمل مصر وهو أول من ضمها إليه، وأمر عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة السيباني وذلك في سنة ثمان وأربعين ومائة. وخرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا ونابذوا، وخرج العمال وكان أميرها عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي وذلك في سنة خمسين ومائة. وصاروا إلى شبراسنباط فقاتلوا ابن عبد الرحمن وانضم إليهم أهل البشرود، والأوسية، والبجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه أهل مصر، فخرجوا إليهم فبيتهم القبط، فطعن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج حتى سقط وطعن نصر بن حبيب

1) الولاة والقضاة للكندى ج 1 ص 61-62

2) الولاة والقضاة للكندى ج 1 ص 70-72

3) الولاة والقضاة للكندى ج 1 ص 77

طعنتين، وقتل عبد الجبار بن عبد الرحمن وألقى توبة الخولاني النار في عسكر القبط وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين[1]. ثم وليها موسى بن علي بن رباح باستخلاف محمد بن حديج له، فأقره أبو جعفر على صلاتها فجعل على شرطه أبا الصهباء محمد بن حسان الكلبي، وفي ولايته خرج القبط ببلهيب في سنة ست وخمسين، فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي . . . حليف بني عامر بن عدي بن تجيب، فخرج في الجند إلى بلهيب، فهزم القبط[2]. ثم وليها عيسى بن منصور من قبل أبي إسحاق، وليها مستهل سنة ست عشرة ومائتين على صلاتها فجعل على شرطه أبا مغيث موسى بن إبراهيم بن عمه، ثم انتقضت أسل الأرض كلها عربها وقبطها في جمادى الأولى سنة ست عشرة، وأخرجوا العمال، وخالفوا الطاعة، وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم، ثم قدم الأفشين من برقة للنصف من جمادى الآخرة سنة ست عشرة، فأقام بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم، ثم خرج الأفشين، وعيسى بن منصور جميعا، فعسكروا بأشليم، وعقدوا عليهم لابن عبيدس الفهري من ولد عقبة بن نافع، فواقعهم الأفشين بأشليم، فهزمهم وأسر منهم كثيرا، فقتلهم، ورجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط، ومضى الأفشين إلى الحوف ففل جماعتهم. وبعث الأفشين عبيد الله بن يزيد إلى الإسكندرية واستجاشت عليه بنو مدلج، فحصروه في حص الإسكندرية وذلك في شوال سنة ست عشرة، ومضى الأفشين إلى شرقيون، فلقي من هناك بمحلة أبي الهيثم، فاقتتلوا، فظفر بهم الأفشين، وقتل صاحبهم أبا ثور اللخمي، ومضى الأفشين أيضا إلى دميرة، فحاربهم في ذي القعدة سن ست عشرة، فظفر بهم، وخرج عيسى بن منصور من الفسطاط إلى تمي، فقاتل أهلها، فانهزم أهل تمي وأقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية، فلقيه طائفة من بني مدلج بخربتا، فهزمهم، وأتوه أيضا بمحلة الخلفاء، فهزمهم وأسر أكثرهم، فنزل بهم قرطسا، فضرب أعناقهم بها وأتى الإسكندرية، فدخلها، وهرب منه رؤساؤهم، وهم: بحر بن علي اللخمي، وابن عقاب اللخمي، وكان رئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، وكان دخول الأفشين الإسكندرية لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، ومضى الأفشين بعد فتح الإسكندرية إلى أهل البشرود، فكان

1) الولاة والقضاة للكندى ج 1 ص 87-88

2) الولاة والقضاة للكندى ج 1 ص 90

مواقفا لهم، وقد امتنعوا حتى قدم المأمون. سنة سبع عشرة ومائتين، فسخط على عيسى بن منصور، وأمر بحل لوائه، وأمره بلباس البياض، وقال: لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمر، واضطربت البلد وضم أصحابه إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم، وولى المأمون على شرط الفسطاط أحمد بن بسطام الأزدي من أهل بخارا، وركب أمير المؤمنين، فنظر إلى المقياس وأمر بإقامة جسر آخر فعمل له هذا الجسر القائم بالفسطاط اليوم، وترك القديم، وعقد لأبي مغيث موسى بن إبراهيم على جيش بعثه إلى الصعيد في طلب ابن عبيدس الفهري ومعه رشيد التركي، فظفروا بالفهري بطحا، وارتحل المأمون إلى سخا سلخ المحرم سنة سبع عشرة، ثم صار إلى البشرود والأفشين قد أوقع القبط بها، فنزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال، وبيع النساء والأطفال فبيعوا، وسبي أكثرهم، وأتى بالفهري إلى سخا، فقتله، وتتبع كل من يومى إليه بخلاف، فقتله، فقتل ناسا كثيراً[1].

يذكر الإدريسى بالقرن السادس الهجرى أن أكثر رساتيق مصر وقراها في الجوف والريف هو ما كان من النيل جنوباً وأكثر أهل هذه القرى قبط نصارى يعقوبية ولهم الكنائس الكثيرة وفيهم قلة شر وهم أهل يسار وأن المرأة العظيمة من نساء القبط ربما ولدت الثلاثة والاثنين في بطن واحد وبحمل واحد[2]

وعن إرتباط الشهور القبطية بالحياة اليومية يذكر النويرى: وعن كلام المصريين في شهور القبط وما في كل شهر منها: كل رطب توت ورمان بابة وخروف هاتور وجدى كيهك وأشرب ماء طوبة وأقعد في شمس أمشير وكل لبن برمهات وعسل برمودة وتفاح بشنس وتين بؤونة وأبيب وعنب مسرى[3]

يحكى أن عجوزة نصرانية كسيحة غنية تعرف ببنت القسيس جرجس بن فضايل تسكن داراً حسنة البنيان عالية الأركان مجاورة لكنيسة موضع يعرف بالأسكندرية بقلزى فكسرت الأفرنج حين ظفرهم بها بابها ودخل لها عشرون علجاً على كواهلم القسى الموتورة وبأيديهم

1) الولاة والقضاة للكندى ج 1 ص 142-144

2) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ج 2 ص 343-344

3) الإلمام بالإعلام في وقعة الأسكندرية للنويرى ج4 ص6

السيوف المشهورة فلما رأتهم جوار النصرانية ووصفانها فروا هرباً منها إلى سطوح الدار ولتلك الدار أبواب مجالسها منقوشة وأصحنها بأنواع الرخام مفروشة فرأوا العجوز جالسة مستقبلة الشرق فقالوا لها: من تكونى؟ قالت: عجوز نصرانية ذمية مقعدة ثم أنها صلبت على وجهها بأصبعها فعلموا أنها صادقة فيما قالت ثم قالوا لها: أين الذهب والفضة؟ فقالت: في هذا الصندوق الذى ترونه ورمت لهم مفتاحه قالت: فوضعوا قسيهم إلى جانب حائط المجلس وفتحوا الصندوق وأخذوا ما فيه من ذهب وفضة وقماش ثم قالوا: وأين بقية المال أيضاً؟ فقالت: ليس عندى سوى ما أخذتموه وصرت لأخذكم له فقيرة من فقراء النصارى فقالوا: ومثل هذه الدار لك وتكونى فقيرة؟ قالت: هي حبس على هذه الكنيسة المجاورة لها ولا يحل لى أن أرجع فيما حبسته ولا أبيعها بسبب فقرى خوفاً من غضب المسيح علىّ فحينئذ نظر بعضهم لبعض وتركوها وخرجوا من الدار بما أخذوه ولم يأسروا أحداً ممن عاينوه من جواريها ووصفانها الذين صعدوا هرباً منهم[1]

ويذكر المسعودى الغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وما يليها من أرض النوبة والأحابش رأى اليعقوبية وبها منهم ما لا يحيط به الإحصاء كثرة ومقام بطركتهم بدير يعرف بأبي مقار بناحية الاسكندرية والملكية والنسطورية بمصر قليلون جداً[2] وعن النوبة يذكر ابن الفقيه المتوفى سنة 951م أنها كانت ولا زالت مسيحية: والنوبة يعقوبية وللصقالبة صلبان والقبط والشام كلها نصارى يعقوبى وملكى والنوبة أصحاب ختان وهم نصارى يعقوبية يهذون بالإنجيل ودمقلة مدينة النوبة وبها منزل الملك وهى على ساحل البحر ولها سبع حيطان وأسفلها بالحجارة وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة ومن دمقلة إلى أسوان أول مصر مسيرة أربعين ليلة ومن أسوان إلى أدنى بلاد النوبة خمس ليال[3]

1) الإلمام بالإعلام في وقعة الأسكندرية للنويرى ج4 ص284-286

2) التنبيه والإشراف للمسعودى ص 130

3) البلدان لابن الفقيه ص130

يذكر ابن حوقل: معظم رساتيق مصر وقراها بالحوف والريف وهم قبط نصارى لهم البيع الكثيرة وهم أهل يسار وفيهم قلة شر وكثرة خيرية[1]، ويذكر غرس الدين الظاهرى: أن بالصعيد من الكنايس والديورة وغالب أهله نصارى[2]

سنة اثنتين وثلاثين ومائة فى جمادى الآخرة، دخل مروان الى مصر وعبر النيل وطلب الصعيد وكان قد عزم على الدخول الى الحبشة وبلاد السودان فوجه عبد الله بن على أخاه صالح بن على فى طلب مروان وعلى طلائعه عمرو بن اسمعيل فساق عمرو فى أثر مروان فلحقه بقرية بوصير من أرض مصر فبيته فقتله* قال ابن السندى قتل مروان وهو ابن اثنتين وستين سنة* وقال الذهبى عاش بضعا وخمسين سنة وكانت خلافته خمس سنين وشهرا وعشرة أيام كذا فى سيرة مغلطاى وكان قتله فى ذى الحجة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ببوصير من أرض مصر* ويروى ان مروان فى هربه مرّ على راهب فقال يا راهب هل تبلغ الدنيا من الانسان ان تجعله مملوكا قال نعم قال كيف قال بحبها قال فكيف السبيل الى العتق قال ببغضها والتخلى عنها قال هذا مما لا يكون قال سيكون فبادر بالهروب منها قبل ان تبادرك قال هل تعرفنى قال نعم مروان ملك العرب تقتل فى بلاد السودان وتدفن بلا أكفان ولولا ان الموت فى طلبك لدللتك على موضع هربك* وأخبار مروان طويلة ووقائعه كثيرة وهو آخر خلفاء بنى أمية بدمشق وبلاد الشرق وبموته انقرضت دولة بنى أمية الى يومنا هذا سوى عبد الرحمن الداخل من بنى امية الى الغرب وتخلف هو وجماعة من ذريته هناك* وفى حياة الحيوان وفى أيام مروان ظهر أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة وظهر السفاح بالكوفة فبويع بالخلافة وجهز عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان برأس الموصل فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم مروان وقتل من عسكره وغرق ما لا يحصى فتبعه عبد الله الى أن وصل نهر أردن فلقى جماعة من بنى امية وكانوا نيفا وثمانين رجلا فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبد الله فسحبوا وبسط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون انينهم من تحتهم فقال عبد الله يوم كيوم الحسين ولا سواء ثم جهز السفاح عمه صالح بن على على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نازل دمشق

1) المسالك والممالك لابن حوقل ص 109

2) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك غرس الدين الظاهرى ص 33

ففتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله سور دمشق حجرا حجرا وهرب مروان الى بوصير قرية من قرى الصعيد عند الفيوم فقال ما اسم هذه القرية قيل بوصير قال الى الله المصير ثم دخل كنيسة فبلغه أن خادما نمّ عليه فقطع رأسه وسل لسانه وألقاه على الارض فجاءت هرّة فاكلته ثم بعد أيام هجم عليه الكنيسة التى كان نازلا بها عمرو بن اسماعيل فخرج مروان من الكنيسة وفى يده سيف وقد أحاط به الجنود وعكفت عليه وصفقت حوله الطيور فتمثل ببيت الحجاج بن الحكم السلمى يقول

متقلدين صفائحا هندية ... يتركن من ضربوا كأن لم يولد

ثم قاتل حتى قتل فقال حين قتل انقرضت دولتنا فأمر به عمرو فقطع رأسه وسل لسانه وألقى على الارض فجاءت تلك الهرّة بعينها فحطفته وأكلته فقال عمرو لو لم يكن فى الدنيا عجب الا هذا لكان كافيا لسان مروان فى فم هرة* ودخل عمرو بعد قتله الكنيسة وقعد على فرش مروان وكان مروان يتعشى فلما سمع الوجبة وثب عن عشائه فأكل عمرو ذلك الطعام ودعا بابنة لمروان وكانت أسنّ بناته فقالت يا عمرو انّ دهرا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليها حتى تعشيت بعشائه واستصبحت بمصباحه ونادمت ابنته لقد أبلغ فى موعظتك وأجمل فى ايقاظك فاستحيى عمرو وصرفها[1].

1) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج 2 ص 322

الأحداث التى جرت أيام خلافة هشام بن عبد الملك

بعد سبع سنين من خلافة هشام صار قزما بطريرك ملكانى على الأسكندرية وأقام ثمان وعشرين سنة، وكان النصارى الملكية بالأسكندرية يصلون فى كنيسة مار سابا لأن اليعقوبية كانوا قد غلبوا على الكنائس كلها، ولكا صار قزما بطريركاً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وكانت صناعته عمل الإبر فخرج إلى دمشق إلى هشام ابن عبد الملك فدفع إليه الكنائس التى أخذتها اليعقوبية بمعونة قوم من الكتاب، فكتب هشام إلى عامله فى مصر وهو عبدالله ابن الجيجان السكرى بأن يتسلم الكنائس التى فى يد اليعقوبية ويسلمها إلى قزما البطريرك، فأخذ قزما الكنائس من اليعقوبية وأخذ منهم كنيسة القيسارية، وكانت الأسكندرية خالية من وجود بطرك ملكانى منذ الوقت الذى هرب فيه جرجس البطرك الملكانى فى السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب إلى القسطنطينية إلى أن صار قزما بعد سبع سنين من خلافة هشام، فقد كانت الأسكندرية خالية من بطرك ملكانى مدة سبع وتسعين سنة، وقد صارت مصر كلها يعقوبية ما عدا كنيسة ميكائيل التى فى قصر الشمع فإن الملكية أمسكوها وكانوا يصلون فيها، وكانوا إذا مات أسقفهم بعثوا إلى مطران صور فكان يصلح لهم أسقف[1].

الأحداث التى حصلت فى عهد خلافة هارون الرشيد

كان لهارون الرشيد جارية من أسف الأرض بمصر وكان يحبها حباً شديداً، وقد مرضت مرضت مرض شديد ولم يستطع الأطباء مداواتها، فيعث هارون إلى عبدالله ابن المهدى عامله بمصر بأن يوجه إليه أحد الأطباء بمصر لعلاج هذه الجارية، فدعا عبدالله بلطيان بطرك الأسكندرية الملكانى وكان حاذقاً بالطب وأعلمه بخبر الجارية وأرسله إلى الرشيد، وحمل بلطيان معه من كعك مصر الخشن والصير، ولما دخل إلى الجارية أطعمها من ذلك الكعك الريفى والصير، فزال عنها الوجع، ووهب الرشيد لبلطيان مالاً جزيلاً وكتب له منشوراً بكل كنيسة فى بلد اليعقوبية، فرجع بلطيان إلى مصر وأستولى على الكنائس اليعقوبية، ثم مات بعد ذلك ثم صير بعده اسطات الملكانى وذلك فى السنة السادسة عشر من خلافة الرشيد، وكان اسطات صاحب كتان وجد فى البيت الذى يدق فيه الكتان كنزاً فترهب فى دير القصير،

1) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد ابن بطريق، جـ 2 ص 45-46

فصير رئيس الدير، وبنى فى دير القصير كنيسة الابوسطلين، وبنى أيضاً قلاية للأسقفية، ثم صير بعد ذلك بطرك ملكانى على الأسكندرية[1].

فى سنة 825 ميلادية، حضر من نصينين البطريرك ديونيسيوس التلمحرى، فقد جاءوا بالبحر بالسفينة إلى ميناء تنيس حيث أستقبله ثلاث ربوات من سكانها، وهى شبه جزيرة يحيط بها سواحل نهر النيل وبحر ادرياس، كما أنها محاطة بالماء ببدلاً من السور.
ثم يذكر البطريرك ديونيسوس: وصل أهل تنيس إلينا على الزوارق وأندفعوا لنيل البركة، ومنذ الصباح حتى المساء بالكاد أستطعنا الموصول إلى حدود المدينة من شدة الزحام، حتى جاء جند من المدينة وفرقوا الشعب بالعصيّ وأخذونا إلى الكنيسة، فزارنا يعقوب بابا الأسكندرية وأساقفته ورحبوا بنا معبرين عن سرورهم بوصول بطريرك آخر إلى الأسكندرية بعد مار سويورس. فتحدثنا الاتحاد الذى حققه مار أثناسيوس الجمال بطريرك الكنيسة السريانية (512-538م) مع البابا أنسطاس بعد الانشقاق الذى حدث بين البطريرك أثناسيوس الجمال وبين البابا دميان، فبدا لنا عدم اكتراثهم بالتاريخ حيث أنهم تعثروا بالكلام، لكن يعقوب ولئن كان ضعيفاً فى المعرفة والإدارة إلا أنه كان فاضلاً تقياً.
لقد تأخرنا كثيراً فى المدن لأن الشعب لم يكن ليسمح لنا بمغادرتنا المدينة إلا بعد إقامة الذبيحة ومناولتهم، ذلك أن المصريون يعتزون كثيراً بتناولهم من يد البطريرك، لذا سبقنا ثاودوسيوس وأخبر الأمير عما صادفنا فى البحر.
ولما دخلنا إلى الأمير فى معسكر الفرس، عاتبنى لسلوكى طريق البحر، ونظراً إلى احترامه لى قال: ما الذى دعاك أن تأتى إلى مصر وأنت شيخ ولك مثل هذه الرئاسة، فإن رسالة منك كانت تفى بالغرض، فتضمنها ما تريده ولا سيما أن أخاك هو صاحب الأمر. فأجبت: يا صاحب العظمة إن المطران يسعى لشخصه بسبب ما ألرها أما أنا فأكثر تألماً لهدم كنائسنا وإبطال شعائرنا.
وكانت مقابلتنا له ليلاً لانشغاله نهاراً بالحرب، وكان حديثنا مفيداً، وسلمت إليه رسائل أهل الجزيرة والغرب وشكواهم من عماله، ورويت له مأساة مدينة تنيس المصرية المؤلمة، التى ولئن كانت تعج بالسكان والكنائس إلا أننا لم نجد فقراً أشد من فقر سكانها، فقد سألناهم كيف

1) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد ابن بطريق، جـ 2 ص 51-52

تردت أحوالهم إلى هذا الحد، فأجابونا قائلين: إن المياه تحيط بمدينتنا من كل حدب وصوب وليس لنا زرع أو غلة أو فلاحة، ولا يمكننا إقتناء الأموال، والمياه التى نشربها تأتينا من بعيد ونشتريها بجهد جهيد كل أربع جرار بدرهم.

أما شغلنا فهو الكتان تغزله النساء بالمغازل ونحن ننسجه بالنول بأجرة قدرها نصف درهم نتقاضاها يومياً من التجار أصحاب الأدوات، ولا يكاد شغلنا يكفى قوت يومنا. وحينما يحين موعد الضريبة ، يفرضون على كل بيت خمسة دنانير، فنعانى من ذلك ونلقى فى السجون، وفى غمرة ضيقنا نرهن لهم أحباءنا، أجل إننا نرهن لم أبنائنا وبناتنا ليعملوا كعبيد عندهم، وقد يحدث أن إمرأة أحدنا أو بنته تلد عندهم، فيحذروننا من رفع الشكوى ضدهم، والأنكى هو أنه قبل بلوغ الآوان لفدية المرأة أو البنت تأتى ضريبة السنة التالية فيطالبونا بالإضافة إلى الرهائن بدفع مبلغ آخر، وهكذا يظل أولادنا وبنتنا عبيداً للمسلمين طيلة حياتهم، لذا طلبوا منى أن أطلعك أيها الأمير على مأساتهم لكى ترأف بهم. فأمر أن يدفعوا الجزية أسوة بأهل الجزيرة أى 48 قرشاً للكبار و 24 قرشاً للوسط و 12 قرشاً للفقراء، وذلك بحسب إحصاء النفوس[1].

1) رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحرى فى عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، ص 62-64

أحداث سنة 831م وثورة الأقباط

فى سنة 831م، توفى يعقوب بابا الأسكندرية وخلفه مار سمعان ولكنه توفى أيضاً بعد ستة أشهر فقط وخلفه يوسف، وفى السنة عينها تحرك المأمون من دمشق تجاه قلعة كيسوم وهناك لقيناه (المتحده هو البطريرك ديونيسيوس التلمحرى)، ولما علم المأمون أن المصريين تمردوا عاد إلى دمشق، وقد أرسل المأمون يقول لنا: ابق فى مدشق لأننا نريد أن ترافقنا إلى مصر لكى تذهب سفيراً إلى البيامين فى مصر السفلى وتوصيهم بالعدول عن التمرد الذى بدا منهم.

وكان المأمون قد أرسل الأفشين إليهم لإحلال السلام، ولكن الأفشين ألزم جنوده بأن يجمعوا أرزاق الجيش من قراهم، وصادف أن رأى بعض الجنود إمرأة فحاولوا اغتصابها فصرخت، وسمع الذين فى الجزيرة (وهى البيامين) صراخها، فأندفعوا نحوها وقاتلوا فقتل منهم وقتلوا، فتعكر بذلك صفو الأمن ثم تلاشى كلياً.

ولما رحلنا من دمشق وبلغنا المدينة المصرية الأولى التى تدعى الفرما فى شهر شباط، استدعانى الخليفة المأمون بواسطة الفضل المشرف على شؤون المملكة، ولما دخلت إليه صافحنى كالعادة، وقال: لقد سمعت أيها البطريرك بتمرد المسيحيين الأقباط المعروفين بإسم البيامين الذين لم يتعظوا بما جرى لهم فى الحرب الأولى، ولولا أنى رحيم ولا رغبة لى فى القتل، لما أرسلتك إليهم، لكن اصطحب الأساقفة الذين معك وجماعة من المصريين، وسافر إلى المتمردين وأعطهم تعهداً بالأمان، وليحضروا مع قواتهم إلى المكان الذين اختاروه لإقامتهم، وإن لم يذعنوا أهلكتهم بحد السيف، فأستعطفته أن يبقيهم فى منطقتهم فرفض مصمماً على أحد الأمرين، إما ترك بلدهم أو القتل، وأمر أن يرافقنى بطريرك مصر، فسافرنا بطريق النهر، وبعد ثمانية أيام إلتحق بنا البطريرك يوسف.

فنزلنا إلى إقليم البشروط حيث يقيمون فوجدناهم مجتمعين فى إحدى الجزر المحاطة بالقصب والبردى، فجاء إلينا رؤسائهم فلمناهم على تمردهم وعلى ما أرتكبوه من أعمال القتل، فأشتكوا من الحاكم.

ولما أطلعناهم على قرار مغادرتهم بلدهم أغتاظوا وطلبوا إلينا أن نستأذن الخليفة ليقابلهم فيطلعوه على ما يحتملونه من حاكمهم أبى الوزير الذى ضاعف عليهم الجزية، وكان يسجنهم

فى الليل فتأتى نساؤهم لهم بالطعام، فيهجم عليهن الجند وينجسونهن، كما كان يفكر بقتل الكثيرين منهم حتى إبادتهم جميعاً لئلا يشكوه لدى الخليفة.

ولما أخبرنا القائد الأفشين برفض المتمردين الإستسلام، استطرد قائلاً: إذن فالسلام غير وارد، فأذهبا وقولا للخليفة أن لا مكان للسلام. وباشر يحاربهم، فأضرم النار فى القرى والكروم والبساتين والكنائس فى أرجاء الإقليم كلها. أما البيامون فكانوا يطعنون الفرس ويرمونهم بالسهام والحراب من بين القصب، وأستقدموا جيرانهم وحرضوهم ضدهم فقَتلوا وقُتلوا.

ولدى مقابلتنا للخليفة المأمون أطلعته على كل الأمور، بما فى ذلك الظلم الذى ألحقه أبو الوزير، بالأقباط، والذى سبب عدم تحقيق السلام، وكيف أن أبناء المنطقة يشتكون منه ومن اثنين آخرين، وكان يصغى لى بإرتياح. وقال: إن هؤلاء العمال لا يتصرفون بحسب إرادتى، وأنا لا أحبذ أن أثقل على الناس، وفى اليوم التالى دعانى كاتبه، وهو الذى حقق فى موضوع المظلومين، لكى أقص عليه ظلم عمال مصر لينقل الخبر مجدداً للخليفة وأبى إسحاق (المعتصم) المسؤول عن هؤلاء العمال. وبعد ذلك أذن لى الخليفة بالذهاب إلى دمشق، وبعد رحيلنا أستدعى المأمون زعماء المتمردين وأمرهم بمغادرة تلك المنطقة، فأطلعوه على سوء المعاملة التى لاقوها، ويخشون إذا غادروا أن لا يجدوا مورداً لمعيشتهم لأنهم يعتمدون على القصب وصيد الأسماك، غير أنهم أذعنوا له أخيراً وغادروا بالسفن إلى أنطاكية ومنها إلى بغداد، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف وقد مات منهم كثيرين فى الطريق، واستعبد الأسرى منهم، وعددهم نحو خمسمائة نفس الذين أخذوا إلى دمشق وباعوهم هناكن الأمر الذى يجر من قبل فى بلاد المسلمين، أى بيع من يخضع للجزية[1].

وفى سنة 867م، كانت رحلة برنار الحكيم إلى مصر، والذى يذكر: فى المدينة الفسطاط يقيم بطريرك اسمه ميخائيل، يحكم الأساقفة والرهبان وسائر المسيحيين فى جميع أنحاءمصر ... وبعده أبحرنا إلى مدينة تنيس حيث المسيحيون هناك أتقياء جداً ومضيافون للغاية، ولا يوجد فى هذه المدينة أية أراضى إلا تلك الموقوفة للكنائس، وهناك رأينا ميدان تانيس، حيث

1) رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحرى فى عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، ص 65

جثث الذين لقوا حتفهم فى زمن موسى. ومن تنيس ذهبنا إلى مدينةالفرما، حيث كنيسة القديسة مريم، وهنا فى هذا المكان هرب القديس يوسف النجار مع الطفل يسوع وأمه مريم بتحذير من الملاك[1].

فى سنة سبعة عشر ومائتين للهجرة يوم الجمعة التاسع من المحرم، وخرج فى أول يوم من صفر إلى البيما (البشموريين) وانصرف عنهم ودخل إلى مصر والفسطاط يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من صفر، وشخص المأمون من مصر فى شهر ربيع الأول من هذه السنة، ولما دخل المأمون مصر بنا له قبة على جبل المقطم فنزل فيها وكانت تسمى قبة الهوى، وكان مع المأمون فراشين نصارى فبعدت عليهم الكنائس التى فى القصر، فأستأذنوا المأمون فى بناء كنيسة يصلون فيها تكون بالقرب من قبة الهوى، فأذن لهم بذلك، فبنوا كنيسة يصلون فيها وتسمى كنيسة القديسة مريم التى فى القنطرة المعروفة اليوم بكنيسة الروم، وكانت قبل ذلك تسمى كنيسة الفراشين، ويقال أنهم بنوها من فضلات بنيان قبة الهوى[2].

سنة ثلاثمائة وإحدى عشر للهجرة وفيه: أمر الوزير عبدالله بن محمد بمصر أن يؤخذ من الرهبان والأساقفة والبطراقة والضعفاء وأصحاب الديورة، بالجزية بمصر، فخرج قوم من الرهبان وشكوه، فأمر أن يُعفوا عن ذلك[3].

سنة ثلاثمائة للهجرة يوم الاثنين الثالث من شوال، احترقت بالأسكندرية الكنيسة الكبيرة التى كانت تسمى بالقيسارية، وهو الهيكل الذى بنته كليوباترة الملكة على اسم زحل[4].

فى سنة اثنتى عشر وثلاثمائة للهجرة فى النصف من رجب، كان على بن عيسى فى مكة فكتب إليه ابورير عبدالله، أن يصير إلى مصر يكشف أحوالها، فدخل على بن عيسى مصر مستهل شهر رجب، فأخذ الرهبان والأساقفة وطلب منهم الجزية من جميع الرهبان والضعفاء والمساكين ومن جميع الديارات (الأديرة) التى بأسفل أرض الصعيد ومن الرهبان والأساقفة

---

1) رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحرى فى عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، ص 144-146

2) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد ابن بطريق، جـ 2 ص 57-58

3) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان. تأليف القاضي الأجل عماد الدين الأصفهانى، ص 218

4) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد ابن بطريق، جـ 2 ص 79

فى دير مينا، فخرج من الرهبان أناس إلى العراق، واستغاثوا إلى المقتدر، فكتب لهم لا يؤخذ منهم جزية وأن تجرى أمورهم على ما كانت عليه قديماً[1].

فى سنة ثمان وعشرون وثلاثمائة للهجرة: اعتلّ بمصر سعيد بن بطريق، وهو أفتيشيوس بطريرك الإسكندرية الملكانى، وكان متمهّرا بصناعة الطبّ، فحدس أنها علّة موته، فصار إلى كرسيّه إلى الإسكندريّة، وأقام بها أيام عدّة عليلا، ومات يوم الاثنين سلخ رجب سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وله في الرئاسة سبع سنين وستة أشهر، وكان في أيامه انشقاق عظيم وشرّ متّصل بينه وبين شعبه، وذلك أنّ جماعة من أطبّاء فسطاط مصر وشيوخهم كانوا كارهين لرئاسته، وكان على تنّيس، إذ ذاك أسقف يسمّى ميخائيل ويعرف بابن النخيلي، وكان أيضا كارها له فوثب عليه جماعة من الملكيّة، واستنفر سائر من كان منهم بمصر وأوحشهم منه، فقطع اسمه في عدّة كنائس وكراسي منها تنّيس والفرما. وكان أيضا بالفرما أسقف يعرف بابن بليحا شرّير وعلى طريق غير محمودة ولا مأثورة، فعاضد ميخائيل بن النخيلي أسقف تنّيس على مقاومة البطريرك أفتيشيوس، فجهد البطريرك في استصلاحهما وأن يرجعا عمّا هما عليه من مقاومته ومنازعته، فلم يتّفق ذلك. وكان أسقف الفرما هذا أخذ برطيل منه، وغرض أسقف تنّيس إزالته عن الرئاسة. ومات ميخائيل أسقف تنّيس في صفر سنة اثنين وعشرين وثلثمائة، وحمل إلى تنّيس وقبر بها في كنيسة أبي جلبة، وكفى البطريرك أمره، وتمكّن من تنّيس. وانقسم أهل مصر قسمين، وكذلك أهل تنّيس، وتحزّبوا حزبين، فصار حزب من الكهنة والعلمانيّين مع البطريرك، وحزب منهم عليه. وكان كل فريق منهم يصلّي في كنيسة مفردة. ثم أصلح البطريرك على تنّيس عوضا من ابن النخيلي أسقفا من أهلها يسمّى ثاوفيلس ويعرف بابن الشقيّ واجتمع إليه بنوه وإخوته وجماعة من أهل البلد، وقصد استصلاح من كان نافرا، وجعل يقصد منازلهم راجلا، وخفض جناحه لهم، ولاطفهم، فلم يغنه ذلك شيئا، وقام لكلّ حزب من الحزبين غرض في نصرة هواه، حتى كان الأب لا يكلّم ابنه، ولا المرأة تخاطب بعلها، وانتشت الحرومات بينهم، وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتكسر على المذابح، ويستعين كلّ فريق منهم على الآخر بالسلطان. وخرج جماعة من النافرين عنه من أهل تنّيس من النّصارى إلى الإخشيد محمد بن طغج بمصر ساعيين به

1) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد ابن بطريق، جـ 2 ص 83

رافعين عليه، وكان رجلا ظالما يصغي كثيرا إلى سماع السعايات وقبولها، ويهلك المسعيّ به ويأتي عليه، فوجّه معهم قائدا يكنّى بأبي الحسين ويعرف [بصاحب علي بن] الأحول وضمّ إليه جماعة من الرّجّالة، فأنزلوه بكنيسة أبي جبلة، وهي كنيسة أهل الملّة الجامعة التي الأسقف نازل بها، فختمها ومنع الصّلوات فيها، وقبض على تاوفيلس أسقف تنّيس وعلى أفتيشيوس البطريرك، وكانا جميعا يومئذ بتنّيس، ووكّل بهما، وأحضر جماعة من مشايخ الإسلام وشيوخ النصارى، وفتح خزائن الكنيسة وأخرج سائر آلاتها وجميع صياغاتها [ونحاسها] وستورها عن آخرها، وكانت كثيرة متوفّرة حتى أنّ ذهبها وفضّتها لكثرتها وزنا في القرسطقون أي القبّان، وعظم تعجّب من حضر من الأمم [من المخالفين في الديانة] من كثرة ما شاهدوا ورأوا منها وعبّى القائد الذي حضر من مصر جميع المأخوذ في أقفاص، وكتب إلى الإخشيد مطالعة بما وجد ويستأذنه بحمله إلى مصر، فأذن له بحمل الجميع إليه، والاستقصاء والبحث عمّا عسى أن يكون قد خفي، فأحضر البطرك والأسقف جميعا، وطالبهما بإخراج ما بقي للكنيسة من الآلات، فأعلماه أنّهما لا يعرفا أنه بقي لها شيء، فلم يقنع منهما بذلك، وضرب [الأسقف] ثاوفيلس ثمانية عشرة درّة، وقدّم البطريرك ليضرب أيضا، فبكى الناس الحاضرون وكثر ضجيجهم، فعفي عن الضرب، وحمل جميع متاع الكنيسة بأسره إلى مصر، [وخرج الأسقف والبطريرك إلى مصر] وقصد الأسقف وجماعة من الكتّاب النّصارى، وسألهم [السفارة] في توسّط حالهم مع الإخشيد (بعد ما خرج الأسقف والبطريرك معا إلى مصر) فسعوا في ذلك، وتوسّطوا أمر البطريرك والأسقف، على أن يفوا له بخمسة آلاف دينار، وأعاد المأخوذ، وانحدر الأسقف ثاوفيلس ووضع يده في بيع العقار و [الأوقاف التي] للكنائس، فباع منه ما يساوي ألوفا كثيرة بخمسة آلاف دينار، وطمع كلّ واحد في البطريرك والأسقف، وامتدّت العين إليهما، واضطرّ إلى استكفاء شرّ كلّ أحد [منهم وإرضائه]، فلم يبق من الوقف والرّحل إلاّ ما لا قدر له. ثم استرمّت كنيسة أبو مينا التي في تنّيس هدمها الأسقف ثاوفيلس، وأقام عمدها وأساطينها وزاد في سمكها وبنا جملها، وباع لأجل عمارتها من الآلات [الكنيسة] وأوقافها شيء كثير فانتهى ذلك إلى الإخشيد، وعرف أنه كان يبيع ما يساوي مائة دينار مثلا بخمسين دينارا، فصيّر إلى تنّيس صاحبا له من الكتّاب يعرب بابن الفهمي، وتقدّم إليه ببيع ما بقي منها، وأن يستظهر على مشتريين أوقاف الكنائس

يأخذ النصف من الثمن، فمن كان ابتاع شيئا بمائة دينار قبض منه للسلطان خمسين دينارا، فأخذ من الناس مالا واسعا [وجعل من ذلك جملة كثيرة]، وهرب جماعة من منازلهم خوفا من الغرم والمصادرة. ولمّا شاهد النّصارى تفاقم الحال والهلاك الواقع بوقف تنّيس عدل بعضهم بعضا، واتّفقت كلمتهم، ورجعوا إلى كنيسة واحدة، إلاّ أنّ نفوس أكثر أهل تنّيس لم تزل مستوحشة من الأسقف ثاوفيلس بن الشقيّ[1].

سنة خمسون وثلاثمائة للهجرة، ورد الخبر بذلك إلى مصر يوم الجمعة ليلة سبت [الثمان خلون من صفر من السنة وهو يوم عيد] العازر [الذي قبل الشعانين]، بيومين، فتجمّع في الحال خلق من رعاع أهل مصر وعوامّها، وقصدوا أيضا كنيسة ميخائيل التي للملكيّة (بقصر الشمع) فشعّثوها وأخربوها خرابا عظيما [ونهبوا جميع ما فيها]، ونهبوا كنيستي النسطوريّة، وكنيسة مار تادرس، وكنيسة السيّدة [مرت مريم] المعروفة بكنيسة البطريرك، وشعّثوها أيضا، وكانت يومئذ في يد اليعقوبية وهي اليوم للروم (وذلك أنّ أرسانيوس البطريرك الإسكندريّ الملكانى أخذها من اليعقوبية في أيام العزيز بالله، وهو يومئذ مطران القاهرة). ولمّا تزايدت عليه الدرب الذي يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال، فلم يقبل منهم ولجّ، فأصيب المسلمون بأرواحهم وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه». ما بين الحاصرتين من «ونازلها في النصف من جمادى الأول سنة تسع وأربعين وثلثمائة». «وفتحها يوم الخميس نصف محرم سنة خمسين وثلثمائة». الفتنة في ذلك اليوم ركب أحد القوّاد الإخشيدية في جماعة من الغلمان وفرّق الجموع وسكّن الفتنة. (فأمّا كنيسة ميخائيل فبقيت مغلقة خرابا مدّة طويلة، وكانت صلوات النصارى الملكيّة في كنيسة إيسيدرس التي عند مسجد القبّة في قصر الشمع، ولم تزل كنيسة ميخائيل مغلقة وأبوابها مطمورة بالتراب إلى أن صيّر إيليّا بطريركا ملكانى على الإسكندرية، فإنّه لم يزل يتلطّف ويجتهد إلى أن فتحها، لأنّ المسلمين كانوا قد منعوا من فتحها، وقلع الرّدم وعمّر ما أمكنه منها، ورجع الملكيّة يصلّون فيها)[2].

1) تاريخ الأنطاكى ص 22-27

2) تاريخ الأنطاكى ص 94-95

الأحداث التى جرت سنة ثلاث وتسعون وثلاثمائة للهجرة: وقتل الحاكم فهد بن إبراهيم الرئيس [يوم الأربعاء لسبع خلون من جمادى الأولى سنة 393] وأقرّ حسين بن جوهر على النظر في الأمور، وقبض الحاكم على كتّاب الدواوين من النصارى واعتقلوا [يوم الاثنين لأربع عشر ليلة خلت من جمادى الآخر من السنة]، ثم أطلقوا بعد أسبوع بمسألة أبي الفتح سهل بن مقشر النّصرانيّ طبيبه، وكان له من الحاكم خاصّيّة بل ومن العزيز محلّ لطيف وموضع مكين [وتقدّم في الدولة وجلالة] وردّ كلّ واحد منهم إلى ما كان ينظر فيه]. وكان النّصارى اليعقوبية قد شرعوا في تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر مصر في الموضع المعروف براشدة فثار قوم من المسلمين فهدموا ما بني، وأنشأ الحاكم مكانها مسجدا عظيما جامعا، وهدموا أيضا كنيستين، كانتا في جواره، إحداهما لليعقوبية والأخرى للنّسطورية (1)، وبناهما مسجدين آخرين، وكان للملكيّة الروم حارة بالقاهرة يسكنون بها، فأخرجوا منها، وهدم ما كان لهم فيها من المنازل، مع كنيستين كانتا بها، وعملت جميع الحارة مسجدا واحدا، وسمّاه الأزهر، وحوّل الروم إلى الموضع المعروف بالحمراء، وعملوا لهم بها حارة، وأنشأوا بها ثلاث كنائس عوضا من الكنائس التي هدمت لهم في تلك الحارة[1].

سنة أربع وتسعين وثلاثمائة هـ وفيها أمر الخليفة القادر بالله بهدم كنيسة مرقص التى كانت بجوار جامع راشدة فهدمت وبنيت مسجداً[2].

وفي سنة سبع وتسعين وثلاثمائة للهجرة، الموافقة لسنة ألف وثلاثمائة وثمانية عشرة للإسكندر كان بين سائر النصارى خلف [عظيم وشك كثير] في سائر الأقاليم في حساب الفصح، وذلك أنّ بعضهم رأى أنّ فصح النّصارى في السنة المذكورة في ستّة أيام تخلوا من نيسان [من شهور الروم] وهو الخامس عشر من [هلال] رجب، ورأى بعضهم أنّ الفصح فيها يوم الأحد الذي يليه، وهو الثالث عشر من نيسان، وهو الثامن والعشرين من [هلال] رجب. وكان سبب هذا الشكّ حساب فصح اليهود، إذ من المتعارف أنّ حساب فصح النّصارى مستخرج من حساب فصح اليهود، وأنّه أيّ يوم اتّفق فيه فصح اليهود من أيام الجمعة كان (يوم الأحد) الذي يليه فصح النّصارى، مثل أن يكون فصح اليهود يوم السبت، فيكون فصح

1) تاريخ الأنطاكى ص 251-252

2) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادار ج6 ص270

النّصارى يوم الأحد غده، أو يكون فصح اليهود يوم الأحد، فيكون ذلك الأحد هو الشعانين، والأحد الذي يليه فصح لنّصارى لأنهما لا يفصحان يوما واحدا أبدا. وكان بعض حسباناتهم التي يعوّلون على استخراج ذلك منها يوجب أن يكون فصح اليهود يوم السبت في خمسة أيام تخلوا من نيسان، الموافق لليوم الرابع عشر من هلال رجب. وكان فصح النّصارى على هذا يوجب أن يكون في الأحد [الذي] غده (وكانت بعض الحسبانات أيضا يوجب) أن يكون فصح اليهود يوم الأحد في ستّة [أيام] من نيسان، الموافق للخامس عشر من رجب. فأوجب الحساب على هذا الرأي [أيضا] أن يكون فصح النصارى في الأحد الذي يليه [وكان بعض الجداول المسيّر فيها حساب الفصح يوجب قول الفريق الأول. وبعضها يحقّ قول الفريق الثاني. وتطاول مدّة الخلف بينهم.

ووردت كتب ساير الأمكنة بعضهم لبعض يتعرّفون منهم صحيح ما وقفوا عليه من ذلك، فكانت كتب هؤلاء نافذة إلى هؤلاء، وكتب هؤلاء صادرة إلى هؤلاء، يستعملون ما وقف اتفاقهم عليه، وذلك في السنة السابعة من رياسته. ولم يكن على بيت المقدس يومئذ بطريرك، وذلك منذ موت أورسطس بطريرك بيت المقدس بالقسطنطينية صار أرسانيوس بطريرك الإسكندرية الملكانى مدبّر لكرسي بيت المقدس.

وكان يصلح المطارنة والأساقفة لهذا الكرسي بيت المقدس. وكان يصلح الرؤساء للكرسي. فكتب أيضا رؤساء اليعقوبية والنسطورية إلى أصحابهم المقيمين في الشام وغيره يعرّفونهم ما اتفق عليه أهل مصر، وأنه الصواب. فوصلت الكتب وقبلها كل أحد إلاّ أهل بيت المقدس، فلم يوافقوهم على رأيهم، ورأوا أن الرأي الذي اعتمدوا عليه هو الصحيح.

واتصل ذلك بأرسانيوس البطريرك الملكانى على الإسكندرية، فكتب إليهم يفنّد رأيهم ويعرّفهم أنّهم على غلط فيما اجتمعوا عليه، وأن الصحيح ما اتفق عليه أهل مصر، فوصلت كتبه إليهم عشيّة يوم الخميس من الجمعة التي تهجر الملكية فيها أكل اللحوم المنسوب صوما إلى هرقل الملك. وكان أهل بيت المقدس قد افترضوا تلك الأيام الأربعة وأكلوا اللحم فيها قبل أن تصل إليهم كتب البطريرك وعوّلوا على أن يكون صومهم وفصحهم على ما اتفق عليه].

حينئذ اتّفق جميع النصارى الذين بمصر من الملكية والنّسطورية واليعقوبيّة على أنّ فصح اليهود يوم السبت في خمسة أيام نيسان، وهو الرابع عشر من رجب، وفصح النّصارى يوم

الأحد غده. ورأى أهل بيت المقدس الرأي الثاني، واعتمدوا عليه، ووصلت كتبهم وكتب أهل الشام إلى مصر يتعارفون منهم ما اتّفقوا عليه. وكتب أرسانيوس بطريرك الإسكندريّة الملكانى إلى أهل بيت المقدس بما صحّ عنده فيما اتّفق عليه رأي أهل مصر، وأنه الصواب الذي يجب أن يعوّل عليه، فلمّا وصلت إليهم كتبه قبلوها [ورجعوا عن ذلك وصاموا يوم الجمعة غد ذلك اليوم ورفعوا اللحم عنه تلك الليلة]، واتّفق أهل أنطاكية على ما اتّفق عليه أهل مصر. وعيّد اليهود المقيمون بالشام وبمصر يوم السبت الخامس من نيسان، وهو الرابع من رجب. وكان فصح جميع النصارى في ساير الأمكنة] في يوم الأحد وهو السادس من نيسان والخامس عشر من رجب، إلاّ قوم من اليعاقبة من أهل صعيد مصر، فإنّهم فصحوا في الأحد الذي يليه[1].

فى سنة ثمانية وتسعون وثلاثمائة للهجرة، ان الرسم بمصر وسائر البلاد أيضا أن تزيّن الكنائس في أحد الشعانين بأغصان الزيتون وقلوب النخل، ويفرّق منها على الناس على سبيل التبرّك بها، فمنع الحاكم بأمر الله في هذه السنة أهل بيت المقدس من رسمهم ذلك، وأمر أن لا يعمل ذلك في شيء من أعمال مملكته في ذلك اليوم، ولا يحمل ورقة من ورق الزّيتون ولا من سعف النّخل في كنيسة من [سائر] الكنائس، ولا يلحظ شيء منها في يد مسلم ولا نصرانيّ [ولا غيرهما من جميع الناس] (وحظّر عليهم أشدّ تحظير). ووضع اليد في يوم السبت العاشر من هذه السنة على أوقاف الكنائس والديارات الحديثة والعتيقة بمصر خاصّة دون غيرها من البلدان، وجعلها باسمه [وذلك يوم السبت لعشر خلون من رجب سنة 398][2].

في سنة 399 هـ الموافقة 1008 م أمر الحاكم أن يتميز النصارى في الحمامات من المسلمين بصليب يعلقون في رقابهم وأن يتميزوا اليهود بجلجل مكان الصليب ولبثوا على ذلك مدة ثم زال· أيضاً هدم كنيسة مريم القنطرة بمصر التي للملكانية يوم الأحد في ذي الحجة سنة 399 هـ و نهب ما كان فيها من الرحالات و كان بها مقابر كثيرة و مدافن للنصارى ففتح السودان و

---

1) تاريخ الأنطاكى ص 270-274

2) تاريخ الأنطاكى ص 275

العبيد و الرعاع جميعها و نبشوا الموتى المدفونين فيها و طرحت عظامهم فأكلت الكلاب لحم من كان قريب العهد منهم و كان بجوار هذه الكنيسة بيعة لليعقوبية على اسم مار قزما فأمتدت إليها اليد و نقضت[1]، وفى نفس السنة تسع وتسعين وثلاثمائة هـ أمر الخليفة القادر بالله بهدم الكنيستين اللتين كانتا بالحمراء[2].

ورسم أيضا في يوم الثلاثاء في ثامن شهر رمضان سنة أربعمائة بهدم دير القصير وهو دير للملكيّة في الجبل المقطّم مبنيّ على قبر القدّيس أرسانيوس، ولينهب جميع ما فيه، وكان أرسانيوس بطريرك الإسكندرية يومئذ مقيما فيه متعبّدا، وأخرج عنه مع كلّ من كان يسكنه من الرهبان. وكان أرسانيوس البطريرك قد أحاط على الدّير سورا منيعا وعمّره وجدّده، وأنشأ فيه أبنية كثيرة، فهدم جميعها وخرّب الدير. وكان للنّصارى الملكيّة في لنصارى البلد الملكية، فنبشوا، وأخربت البيعة خرابا عظيما وأزيلت آثارها جملة، ووضعت اليد على آلاتها وسائر أوقافها[3].

وأمر في المحرّم سنة إحدى وأربعمائة أن تؤخذ الذمّة من النّصارى واليهود بتغيير الزنانير الملوّنة التي يلبسونها، والاقتصار على لبس الزنانير السّود فقط دون غيرها من الألوان والعمائم السّود وجدّد التحذير والمنع من عمل النبيذ ومن شربه سرّا وجهرا في شهر رمضان سنة إحدى وأربعمائة، وتقدّم بكسر ما عند الناس (منه) من الجرار والظروف والقراع والدّنان وسائر الملاهي (وآلات الموسيقى) وحذّر من استبقاء شيء من جميع ذلك والتعرّض لعمله والعمل به، وتوّعد فيه بشديد العقاب، وكسر في الطرقات شيء كثير من النبيذ، وأحرقت آلات الملاهي، وامتثل ذلك في سائر مملكته. وحظّر على النّصارى تقديمه في سائر مملكته، ومنع من التقريب به في قرابينهم . وصاروا النصارى يقرّبون عوضا من الخمر ماء قد نقع فيه زبيب أو عود الكرم[4].

---

1) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 279

2) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادار ج6 ص276

3) تاريخ الأنطاكى ص 281-282)

4) تاريخ الأنطاكى ص 287-289

وفى سنة 403 هجرية من شهر ربيع الآخر سنة 1012 م أمر الحاكم بأمر الله أن تلبس النصارى واليهود طيالسة سوداء حالكة وعمائم سود ويعلقون في أعناقهم صلبان خشب مضافاً إلى الزنار وألا يركبوا الخيل ويركبوا بركب خشب وسروج ولجم من سيور سود لا يرى شيء عليها من الحلية وأثر فضة ولا يستخدموا مسلماً فأخذوا بذلك في أعمام مملكته ولبسوا صلباناً وتقدم بإثبات أسماء المسلمين المتعطلين والمنصرفين من الكتاب الذين يصلحون للخدمة في دواوينه وأعماله ليتخذ منهم من يستبدل به عوض النصارى وكان سائر كُتّابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى إلا نفر يسير من الكتاب وكثرت الشائعات الشيئة فيهم والأراجيف المفزعة فأجتمع من بسائر مصر من النصارى الكُتّاب والعمال والأطباء وغيرهم مع أساقفتهم وكهنتهم وتوجهوا إلى قصره في يوم الخميس التنى عشر من ربيع الآخر الموافق 30 أكتوبر وكشفوا عن رؤوسهم من باب القاهرة ومشوا حفاة باكين مستغيثين إليه يسألونه العفو والصفح ولم يزالوا في طريقهم يقبلون التراب إلى أن وصلوا إلى قصره وهم على تلك الحالة فأنفذ إليهم أحد أصحابه وأخذ منهم ورقة كانوا قد كتبوها إليه يلتمسون فيها عفوه عنهم وإزالة سخطه فأعاد إليهم الرسول وردّ عليهم رداً جميلاً وخاطب الحسين بن ظاهر الوزان شيوخهم في هذا المعنى بخطاب لطيف ووعدهم بما وثقت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم فاستشعروا صلاح حالهم وحسن النية فيهم وأخذوا يعللون نفوسهم بمنشور يقرأ لهم بأمنهم وطمأنينتهم فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر الموافق 2 نوفمبر أمروا أيضاً بتعظيم الصلبان التي في أعناقهم وأن يجعل طولها ذراع ملكى في عرض مثله وأن يكون سمكها أصبع وقصد بذلك إضجارهم لا سيما خواصه من كتاب دواوينه ومن المتصرفين في خدمته الذين لم يكن يجد منهم بدلاً، ومن العجب العجيب أنه قد أمر في صفر سنة 402 هـ الموافقة سبتمبر 1011 م ألا يظهر الصليب ولا يقع عليه عين ولا يضرب بناقوس فنزعت الصلبان من الكنائس وطمست أثارها من ظاهر البيع والكنائس والهياكل ثم أمر في هذا الوقت بإظهار الصليب هذا الظهور، ولم يكن اليهود لبسوا مع الغبار السود شيئاً من الخشب فنودى فيهم في الحال أن يعلقوا في رقابهم أيضاً أُكر خشب من خمسة أرطال إشارة إلى رأس العجل الذين عبدوه سالفاً وتهدد النصارى وفزعهم وكثرت الشائعات فيهم فأسلم كثير من

الشيوخ الكُتاب والمتصرفين وغيرهم من النصارى وتبعهم خلق كثير من عوامهم وأسلم أيضاً جماعة من اليهود وتزايدت الشائعات فيمن من بقى من النصارى لم يسلم ونودى عليهم أن تقطع أعضاؤه ويباح للعبيد والأولياء ماله وعياله واستتر من الكُتاب والمتصرفين جماعة ونهبت ديار من المحتجبين منهم وقبضت أملاكهم وأسلم أكثرهم واقتدى بعضهم ببعض وتلاحقوا فلم يبقى منهم إلا نفر معدودين ولم تزل الطرقات أياماً لم يرى فيها نصرانى وتمسك النصارى في الذين في بقية البلاد بدينهم ولم يسلم في بقية أعمال المملكة إلا نفر يسير إلا أهل مصر خاصة وكان حالهم على ما ذكرنا لمشاهدة الحال وقربهم منها وتحقق أيضاً سوء النية فيهم وأنه في عرض ما جرى لهم في تلك الأيام أقطع سائر الكنائس والديارات العتيقة والحديثة بمصر وسائر أعمال مملكته للعسكرية ووهبها لهم فكانت ألوفاً كثيرة بجميع آلاتها وصياغاتها ورحالاتها ليهدموها ويأخذوا أنقاضها فهدم جميعها وعمل اليسير منها مساجد وسجّل إلى سائر أعماله بأن تمحى معالم الكنائس من على وجه الأرض وتزال أثارها ففعل ذلك وقلعت أساساتها من الأرض وأخرج عظام الموتى من الكنائس فى عدة بلدان ووقد بها الناس في مواقد الحمامات وأحرقت المصاحف والكتب الموجودة في الكنائس واستخرج من المتولين أمرها من النصارى في كل بلدة ما دفع إلى الفعلة والنقاضين الذين أخربوا الكنائس وأتى على جميع ما في أعمال مملكته منها إلا الدير المشهور قديماً بالاسقيط الذى في مريوط من أعمال الأسكندرية المعروف بدير أبى مقارة والديورة المجاورة له وأنه بلغه بأن القبيلتين من العرب المعروفتين ببنى قرة وبنى كلاب يدفعون عنه ولا يمكنون أحداً منه لمنافع لهم فيه فأمسك عنه على كره منه وأقطع كنائس القلزم ودير رابة ودير طور سيناء لإنسان من العرب يعرف بابن غياث وأوعز إليه بهدم دير طور سيناء وبنائه مسجداً وهدم بعض كنائس القلزم وحاز آلات جميعها وهدم إحدى كنيستى دير رابة وسار إلى دير طور سيناء ليمتثل فيه ما رسم له وكان في طور سيناء يومئذ رجل كاتب ترهب فيه وسكنه عن قريب يسمى سلمون بن إبراهيم من وجوه أهل مصر ذو شيخوخة وحكمة وعقل وسياسة فخرج إليه وأحسن لقائه وأعلمه أنه أسقفه ورهبانه مساعدوه على ما يلتمسه وغير مانعين له منه وسلم إليه جميع الآلات التي برسم الدير وصياغاته من ذهب وفضة ولطف في مخاطبته وأبان له أن هدمه يصعب عليه وعلى غيره لحصانته ووثيقة بنائه وأنه يحتاج في ذلك إلى إنفاق جملة كثيرة من

المال تفوق ما يحصل له منه فالتمس عن الاندفاع عنه وترك التعرض له جملة مال وتقرر الحال معه على ما رضى به وقام له بذلك وانصرف عنه من غير أن يتعرض له[1].

وفى سنة 411 هـ الموافقة 1021 م قابل أنبا سلمون رئيس دير طور سيناء الحاكم بأمر الله وشكى إلية سوء حالة رهبان طور سيناء وما هم عليه من الضر والفاقة وتوسل إليه في إطلاق الأوقاف المقبوضة برسم هذا الدير ليستعينوا بها على ما هم بسبيله ويغتنم دعاهم له ما عاشوا فأجابه الحاكم بأمر الله إلى ذلك وأعاد جميع أوقافهم إليه[2]، ثم عاد أنبا سلمون رئيس دير طور سيناء والتقى بالحاكم بأمر الله وشكى له بتمادى خراب الكنائس وأن الأوقاف التي كانت برسمها قبض عليها وقد خربت واختلت وعرض بالمسألة في الإذن بتجديد عمارة دير القصير وأن يرى رأيه بالمسامحة به وعودة الرهبان إلى سكناه واجتماع النصارى فيه للصلاة ولإطلاق ما برسمه من الأوقاف فسعفه بطلبته وأمر بالمسامحة بما يجب لبيت المال على الأوقاف المخصوصة من خراج وكتب له بذلك سجلاً هذا نسخته: " هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى عليّ الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لسليمان بن إبراهيم الراهب بما رآه من إنعامه عليه واسعافه بما رغب إليه من الإذن له في إعادة إعمار الدير المعروف بالقصير بطرا من جبل فسطاط مصر إلى ما كان عليه قبل هدمه وتمكين الرهبان سكناه والمقام فيه على عادتهم والجري على ما سلف من عبادتهم وصلواتهم وإقامة سُنَّة ديانتهم والفسح في اجتماع من يطرقه من أهل ملتهم وإزالة الاعتراضات عنهم ومنع الأذى والتسلط عليهم وكف التبسط والخيف لهم ورد الأوقاف والأملاك التي كانت محبسة عليه ومنسوبة إليه من ضيعة ومزرعة ومينا وأرض وحصة ودار وقيسارية وحمام وحانوت وفاخورة ونخيل وبستان وشجرة مثمرة وجنان بمصر وأعمالها من جميع بلاد المملكة واقطارها وأطرافها وتسليم ذلك إلى هذا الراهب ليتولى جداه ويحوز نفعه وجناه ويصرفه في مصالح هذا الدير والمقيمين فيه والقاصدين إليه ويبسط يده في تدبيره ومن يسببه في جميعه وصيانة حقوق بيت مال المسلمين منه ويطهره من درنه والوزر عنه والمسامحة بما يجب على ذلك من خراج

[1]) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 295-299

[2]) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 353

وعشر وغرم ورسم في سائر دواوين الحضرة المحلولة والمحبسة وإزالة التأول عنه والاضرار بسببه والتتبيع له في هذا الوقت وما يأتي بعده من الأوقات على استقبال تاريخ هذا السجل وفاء بالذمة وجزاء على مناصحتهم ومضامنتهم الملة لا يغيره كَرّ حين ولا يُحيله مَرّ الأحقاب والسنين فمن قرأه أو قرئ من الأولياء والولاة ومتولى الدواوين والضمناء والمتصرفين في الأعمال والأحوال فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبحسبه. كتب في شهر ربيع الآخر سنة 411 هـ الموافق أغسطس 1020م وليقرأ هذه المنشور في يد متخذه حجة له بمضمونه ويثبت بحيث مثله إن شاء الله ووقع الحاكم في أعلاه عليه بخطه[1].

وتواصلت مسألة أنبا صلمون وغيره من النصارى إليه في ردّ كنيسة كنيسة من كنائسهم وعمارتها وردّ أوقافها وكتب أنبا صلمون رقاعاً عن أهل البلدان البعيدة عن مثل ذلك فأجاب كل منهم إلى ملتمسه وأطلق عمارة جميع الكنائس والديارات التي يستدعى الإذن منه فيها وفى عمارتها بمصر وفى سائر بلاد مملكته وكتب لكل منهم سجلاً بذلك، سجلاً في معنى سجل دير القصير وإعادة أوقافها إليها إلا ما كان من الأوقاف والكنائس قد بيع في وقت القبض عليها في دمشق وفى جميع بلاد الساحل وأصرف ثمنه في النفقات السلطانية لضيق الأموال وقلتها أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين، ولما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس وتجديدها وردّ أوقافها لقيه جماعة من النصارى الذين كانوا أسلموا في وقت الاضطهاد وطرحوا أنفسهم عليه بين يديه وهم مسترسلون للموت وقالوا له: إن الذى دخلنا فيه من التظاهر بدين الإسلام لم يكن باختيارنا ولا برغبة منا فنحن نسأل أن تأمرنا بالعودة إلى ديننا إن رأيت ذلك أو تأمر بقتلنا، فأمرهم للوقت بلبس الزنانير ولباس السواد وحمل الصلبان وكان كل منهم قد أعدّ عدّة غيار ثيابه وتقدم إلى أصحاب الشرطة بحفظهم وكفٍّ كل أحد عن التعرض لهم فكثر الراغبون إليه في ذلك حتى صاروا يلقونه أفواجاً أفواجاً وكان يطلق لهم ذلك فعاد منهم عدد كثير وتوقفت الرؤساء والصدور منهم عن الرجوع إلى ديانتهم حذراً على نفوسهم من أن يكون إجابة الحاكم لمن فسح له في ذلك على سبيل الحيلة عليهم والخديعة لهم لاستكشافه ما في ضمائرهم وظناً منهم أنه يتتبعهم فيما بعد ويأتي عليهم فعاجلته المنية وكفى الذين رجعوا منهم إلى النصرانية ما كان أولئك يحاذرونه وبقى كل

[1]) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 354-355

الفريقين على حاله، وكان ما أتاه الحاكم في هذا المعنى من تسامحه بعمارة الكنائس وتجديدها وإعادة أوقافها إليها بعد ما تقدم من مغالاته في هدمها وتأكيده في قلع أساساتها ومحو آثارها ومن الترخيص للنصارى الذين تظاهروا بالإسلام مع حظر ذلك في ديانة المسلمين وفى ناموسهم القتل على فاعله من آيات الله المعجزة وعجائبه الدالة على عنايته بشعبه وقد أخبر أنبا صلمون رئيس دير طور سيناء ما يقلق الناس فكتب لهم سجلاً يؤمنهم به هذه نسخته:

"هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبى علىّ الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم والجزع الذى هالهم فأقلقهم بظل الدولة وتحرّمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليهم بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه من تصيرهم تحت كنفه بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة واجابتهم إلى ما سألوا فيه من كُتب أمان لهم يُخلد حكمه على الأحقاب ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عزّ وجل وأمان نبيه وأمان أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم أماناً صريحاً ثابتاً وعقداً صحيحاً باقياً فثقوا به واسكنوا إليه وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته وعُصرته تحميكم وعصمته تقيكم لا يُقدم عليكم بسوء أحدٌ ولا تتطاول إليكم بمضرةٍ يدٌ إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مُقصَّرةً من باعه وعِظم إنكاره مضيّقاً فيه من ذراعه والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم وعهده الذى يشرفه طرفكم وكفى بالله شهيداً وليقرّر في أيديهم حجة بما أُسبغ بالنعم عليهم إن شاء الله تعالى" كتب شعبان 411هـ الموافق نوفمبر 1020م، ومال الحاكم إلى أنبا صلمون منذ أول مشاهدته إياه ولقياه له وشفَّعه بما كان يلتمسه منه مما يعود بصلاح أمور النصارى وأن يلقاه في كل يوم في طريقه إلى الصحراء ليسأله عما يحتاج إليه فأمتثل أمره وكثر أُنسه به حتى شنّع عليه كثير من عوام المسلمين لما عرفوه من مَيْله إليه وتشفيعه إيّاه في ملتمساته ومشاركته رهبان النصارى في لباس الصوف أنه قد تتلمذ لأنبا صلمون وكان في كثير من الأيام في نفوذه إلى البرية يقصد

دير القصير ويشاهد عمارته ويستحث الصناع على الفراغ منه وأطلق له دنانير تصرف في النفقة عليه ودفع أيضاً إلى الرهبان المقيمين فيه دنانير ورسم لهم مساعدة البنائين لتروج عمارته وكان يعدل أيضاً إلى ديارات جددها اليعاقبة في ناحية القرافة وإذا أراد الدخول إلى الجبل والطلوع إلى دير القصير أو غيره من الديارات تتأخر الركابية عنه في الموضع المعروف بالقرافة وإلى الساقية ويمضى وحده وفى بعض الأيام جرى ذلك على سالف عادته وتبعه صبى ركابى كان اصطنعه يُعرف بالقرافيّ وأبعدا جميعاً في الجبل فلقيه سبع نفرٍ من البادية والتمسوا منه صلة بجفاء في القول غلظ في اللفظ وفرية وشتيمة فقال لهم: ما معى في هذا الموضع ما أدفعه لكم لكننى أنفذكم إلى متولى بيت المال العميد المحسن ابن بدواس ليدفع لكم خمسة آلاف درهم، فقالوا له: ما نمضى إليه لأنه لا يدفع لنا شيئاً وتردد الخطاب بينه وبينهم فالتمسوا منه أن يرسل معهم القرافيّ الركابى لينجز لهم المطلق وسار مع القرافيّ أربعة نفر منهم وتخلف الثلاثة الباقون في الطريق وقبض أولئك الأربعة الجملة التي رسم دفعها لهم وعاد القرافيّ يلتمس الحاكم فأبطأ عليه عودته فلما طال انتظاره له في الموضع الذى جرت عادته بموافاته إليه ساء ظنه ودار الجبل يطلبه فألى سائحاً وسأله عنه وذكر له صفته وصفة الحمار الذى هو راكبه فأعلمه أن شاهد في طريقه حماراً معرقباً وساقه إلى الموضع حتى شاهد الحمار الذى كان معرقباً كما ذكر له، وتقدمت السيدة أخت الحاكم إلى جميع الأمراء وغيرهم من الناس بالركوب إلى الصحراء واستكشاف خبره وطلعوا إلى دير القصير وفتشوا لئلا يكون مستتراً فيه وفتشوا أيضاً سائر المواضع التي كان يذهب إليها فلم يقوا له على خبر ووجدوا بعد ذلك ثيابه الصوف التي كان لابسها فى ناحية الجبل وهى مهراة من ضربات السكاكين وآثار الجراحات مخضبة بالدم ولم توجد جثته فأستدل الأكثرون أن أولئك الثلاثة البوادى المتأخرين عن اللحاق بفاقهم وبالقرافيّ الركابى عادوا إليه وقتلوه وأخفوا أثر قبره وكان فقد الحاكم يوم الإثنين أول الصوم المقدس في شوال 411هـ الموافق 13 فبراير 1021م[1].

[1]) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 357-363

وبعد موت الحاكم بأمر الله وتولى الظاهر مكانه عاد النصارى إلى التظاهر بأعيادهم وخروج البواعيث إلى كنائسهم التي في ظاهر المدينة والتظاهر بذلك والظاهر يحضر لمشاهدة اجتماعاتهم ويتقدم بصيانتهم وخففوا الغيار الذى عليهم واقتصر الأكثرون منهم على لباس زنار وعمامة سوداء وأطلق لهم عمارة الكنائس وردّ أوقاف لم تكن استطلقت من الحاكم بأمر الله ووثب جماعة من المسلمين بمصر على رجل يعقوبى يعرف بأبى زكريا ابن أبى غالب ممن كان تظاهر بدين الإسلام في أيام الحاكم وأذن له بالعودة إلى النصرانية وصاحوا عليه في الأسواق وضربوا يدهم إليه واحتجوا على أنه في أيام إسلامه ملازماً للجامع متقدماً في الصلوات ونسخ بخطه ودرسه وكتب الحديث والفقه وأن غيره من النصارى الذين عادوا ما عملوا كعمله والتمسوا منه أن يعيد إليهم ما كتبه واقتناه من علومهم فأمر الظاهر بحسه في الشرطة السفلى ولبث في الاعتقال مدة عشرة أيام وفى كل يوم منها يجادل في العودة إلى دين الإسلام ويُهَدد ويُفزَّع ولا هو يذعن ولا يجيب ولما أيسوا من رجوعه طولع الظاهر بأمره فأمر بقتله لكثرة الكلام عليه وسيق إلى الموضع المعروف بالتبانين ليقتل هناك وهو فرح مسرور ضاحك إلى أن قتل[1]

قبل عيد الشعانين بيومين، سنة خمسين وثلاثمائة، وثب الخرافيش والرمادية والفواغ إلى كنيسة ميكائيل التي بقصر الشمع، فهدموا منها، ونهبوا ما كان فيها، ونهبوا أيضا كنيسة ماري تاودورس، وكنيستي النّسطوريّة، وكنيسة القبط التي تعرف بكنيسة البطرك، وكان على النصارى حزن عظيم[2].

كان حصول الكنيسة المعروفة بكنيسة البطريرك داخل قصر الشمع لأرسانيوس الراهب الرومي أخو زوجة أمير المؤمنين بو منصور نزار العزيز بالله، وهي كنيسة مرتمريم يوم الجمعة مستهلّ جمادى الأول سنة سبعين وثلثمائة، وقدّست النصارى الملكيّة، فاغتسل مذبحها ومسحت بالميرن يوم الجمعة لثمان خلون منه[3].

1) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 374-376

2) تاريخ الأنطاكى ص 443

3) تاريخ الأنطاكى ص 462-463

ما ذكره المقريزي في خططه عن تاريخ الكنيسة

ولما ولي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان اشتدّ على النصارى، واقتدى به قرّة بن شريك أيضا في ولايته على مصر، وأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها، وكان عبد الله بن الحبحاب متولي الخراج قد زاد على القبط قيراطا في كلّ دينار، فانتقض عليه عامّة الحوف الشرقيّ من القبط، فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم عدّة وافرة في سنة سبع ومائة، واشتدّ أيضا أسامة بن زيد التنوخيّ متولي الخراج على النصارى، وأوقع بهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه، فكل من وجده بغير وسم قطع يده، وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير، ثم كبس الديارات وقبض على عدّة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب، ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومحيت التماثيل وكسرت الأصنام بأجمعها، وكانت كثيرة في سنة أربع ومائة، والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك، فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة، كتب إلى مصر بأن يجري النصارى على عوايدهم وما بأيديهم من العهد، فقدم حنظلة بن صفوان أميرا على مصر في ولايته الثانية، فتشدّد على النصارى وزاد في الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كلّ نصرانيّ وسما صورة أسد، وتتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده، ثم أقام اليعاقبة بعد موت الإسكندروس بطركا اسمه قسيما، فأقام خمسة عشر شهرا ومات، فقدّموا بعده تادرس في سنة تسع ومائة بعد إحدى عشرة سنة. وفي أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمراء ظاهر مدينة مصر، في سنة سبع عشرة ومائة، فقام جماعة من المسلمين على الوليد بن رفاعة أمير مصر بسببها. وفي سنة عشرين ومائة قدّم اليعاقبة ميخائيل بطركا، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ومات.

وفي أيامه انتقض القبط بالصعيد وحاربوا العمال في سنة إحدى وعشرين، فحوربوا وقتل كثير منهم، ثم خرج بجنس بسمنود وحارب وقتل في الحرب، وقتل معه قبط كثير في سنة اثنتين وثلاثين ومات، ثم خالفت القبط برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد لما قدم مصر وهزمهم وقبض عبد الملك بن موسى بن نصير أمير مصر على البطرك ميخائيل، فاعتقله

وألزمه بمال، فسار بأساقفته في أعمال مصر يسأل أهلها، فوجدهم في شدائد، فعاد إلى الفسطاط ودفع إلى عبد الملك ما حصل له، فأفرج عنه، فنزل به بلاء كبير من مروان، وبطش به وبالنصارى، وأحرق مصر وغلاتها وأسر عدّة من النساء المترهبات ببعض الديارات، وراود واحدة منهنّ عن نفسها، فاحتالت عليه ودفعته عنها بأن رغبته في دهن معها إذا ادّهن به الإنسان لا يعمل فيه السلاح، وأوثقته بأن مكنته من التجربة في نفسها، فتمت حيلتها عليه، وأخرجت زيتا ادّهنت به، ثم مدّت عنقها فضربها بسيفه أطار رأسها، فعلم أنها اختارت الموت على الزنا، وما زال البطرك والنصارى في الحديد مع مروان إلى أن قتل ببوصير، فأفرج عنهم.
وأما الملكية فإن ملك الروم لاون أقام قسيما بطرك الملكية بالإسكندرية في سنة سبع ومائة، فمضى ومعه هدية إلى هشام بن عبد الملك، فكتب له بردّ كنائس الملكية إليهم، فأخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة، وكان الملكية أقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك في مصر، من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى خلافة هشام بن عبد الملك، فغلب اليعاقبة في هذه المدّة على جميع كنائس مصر وأقاموا بها منهم أساقفة، وبعث إليهم أهل بلاد النوبة في طلب أساقفة، فبعثوا إليهم من أساقفة اليعاقبة، فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة.
ثم لما مات ميخائيل قدّم اليعاقبة في سنة ست وأربعين ومائة انبامسنا، فأقام سبع سنين ومات. وفي أيامه خرج القبط بناحية سخا وأخرجوا العمال في سنة خمسين ومائة وصاروا في جمع، فبعث إليهم يزيد بن حاتم بن قبيصة أمير مصر عسكرا، فأتاهم القبط ليلا وقتلوا عدّة من المسلمين وهزموا باقيهم، فاشتدّ البلاء على النصارى واحتاجوا إلى أكل الجيف، وهدمت الكنائس المحدثة بمصر، فهدمت كنيسة مريم المجاورة لأبي شنودة بمصر، وهدمت كنائس محارس قسطنطين، فبذل النصارى لسليمان بن عليّ أمير مصر في تركها خمسين ألف دينار، فأبى، فلما ولي بعده موسى بن عيسى أذن لهم في بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة قاضي مصر، واحتجا بأنّ بناءها من عمارة البلاد، وبأن الكنائس التي بمصر لم تبن إلّا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين، فلما مات انبامسنا قدّم اليعاقبة بعده يوحنا، فأقام ثلاثا وعشرين سنة ومات. وفي أيامه خرج القبط ببلهيت سنة ست وخمسين فبعث إليهم موسى بن عليّ أمير مصر وهزمهم، وقدّم بعده اليعاقبة مرقص الجديد، فأقام عشرين سنة وسبعين يوما ومات. وفي أيامه كانت الفتنة بين الأمين

والمأمون، فانتهبت النصارى بالإسكندرية وأحرقت لهم مواضع عديدة، وأحرقت ديارات وادي هبيب ونهبت، فلم يبق بها من رهبانها إلّا نفر قليل. وفي أيامه مضى بطرك الملكية إلى بغداد وعالج بعض خطايا أهل الخليفة، فإنه كان حاذقا بالطب، فلما عوفيت كتب له بردّ كنائس الملكية التي تغلب عليها اليعاقبة بمصر، فاستردّها منهم، وأقام في بطركية الملكية أربعين سنة ومات، ثم قدّم اليعاقبة بعد مرقص يعقوب في سنة إحدى عشرة ومائتين، فأقام عشر سنين وثمانية أشهر ومات. وفي أيامه عمرت الديارات وعاد الرهبان إليها، وعمرت كنيسة بالقدس لمن يرد من نصارى مصر، وقدم عليه ديونوسيس بطرك أنطاكية، فأكرمه حتى عاد إلى كرسيه، وفي أيامه انتقض القبط في سنة ست عشرة ومائتين، فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون، فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا، وسبى أكثرهم، ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامّة القرى، فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين، وعملوا كتاب الخراج، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

ثم قدّم اليعاقبة سيماون بطركا في سنة اثنتين وعشرين ومائتين، فأقام سنة ومات، وقيل بل أقام سبعة أشهر وستة عشر يوما، فخلا كرسيّ البطاركة بعده سنة وسبعة وعشرين يوما، وقدّم اليعاقبة يوساب في دير بومقار بوادي هبيب في سنة سبع وعشرين ومائتين، فأقام ثماني عشرة سنة ومات. وفي أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة وقد نفته زوجة ملكهم. وأقامت عوضه أسقفا، فبعث ملك الحبشة يطلب إعادته من البطرك، فبعث به إليه وبعث أيضا عدّة أساقفة إلى إفريقية. وفي أيامه مات بطرك أنطاكية الوارد إلى مصر في السنة الخامسة عشرة من بطركيته. وفي أيامه أمر المتوكل على الله في سنة خمس وثلاثين ومائتين أهل الذمّة بلبس الطيالسة العسلية وشدّ الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب، وعمل كرتين في مؤخر السرج، وعمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب، قدر كلّ واحدة منهما أربع أصابع، ولون كلّ واحدة منهما غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزارا عسليا، ومنعهم من لباس المناطق، وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب، ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان،

ولا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليبا، وأن لا يشعلوا في الطريق نارا، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض، وكتب بذلك إلى الآفاق، ثم أمر في سنة تسع وثلاثين أهل الذمّة بلبس دراعتين عسليتين على الذراريع والأقبية، وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين. فلما مات يوساب في سنة اثنتين وأربعين ومائتين خلا الكرسيّ بعده ثلاثين يوما، وقدّم اليعاقبة قسيسا بدير بحنس يدعى بميكائيل في البطركية، فأقام سنة وخمسة أشهر ومات، فدفن بدير بومقار، وهو أوّل بطرك دفن فيه، فخلا الكرسيّ بعده أحدا وثمانين يوما، ثم قدّم اليعاقبة في سنة أربع وأربعين ومائتين شماسا بدير بومقار اسمه قسيما، فأقام في البطركية سبع سنين وخمسة أشهر ومات، فخلا الكرسيّ بعده أحدا وخمسين يوما. وفي أيامه أمر نوفيل بن ميخائيل ملك الروم بمحو الصور من الكنائس، وأن لا تبقى صورة في كنيسة، وكان سبب ذلك أنه بلغه عن قيم كنيسة أنه عمل في صورة مريم عليها السلام شبه ثدي يخرج منه لبن ينقط في يوم عيدها، فكشف عن ذلك فإذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال، فضرب عنقه وأبطل الصور من الكنائس، فبعث إليه قسيما بطرك اليعاقبة وناظره حتى سمح بإعادة الصور على ما كانت عليه، ثم قدّم اليعاقبة ساتير بطركا، فأقام تسع عشرة سنة ومات، فأقيم يوسانيوس في أوّل خلافة المعتز، فأقام إحدى عشرة سنة ومات، وعمل في بطركيته مجاري تحت الأرض بالإسكندرية يجري بها الماء من الخليج إلى البيوت.

وفي أيامه قدم أحمد بن طولون مصر أميرا عليها، ثم قدّم اليعاقبة ميخائيل فأقام خمسا وعشرين سنة ومات بعد ما ألزمه أحمد بن طولون بحمل عشرين ألف دينار، باع فيها رباع الكنائس الموقوفة عليها، وأرض الحبش ظاهر فسطاط مصر، وباع الكنيسة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود، وقرّر الديارية على كلّ نصرانيّ قيراطا في السنة، فقام بنصف المقرّر عليه. وفي أيامه قتل الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، فلما مات شغر كرسيّ الإسكندرية بعده من البطاركة أربع عشرة سنة، وفي يوم الاثنين ثالث شوّال سنة ثلاثمائة أحرقت الكنيسة الكبرى المعروفة بالقيامة في الإسكندرية، وهي التي كانت هيكل زحل، وكانت من بناء كلابطرة. وفي سنة إحدى وثلاثمائة قدّم اليعاقبة غبريال بطركا، فأقام إحدى عشرة سنة ومات، وأخذت في أيامه الديارية على الرجال والنساء، وقدّم بعده اليعاقبة في سنة

إحدى عشرة وثلاثمائة قسيما فأقام اثنتي عشرة سنة ومات. وقدّم اليعاقبة في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة تاوفانيوس بطركا، فأقام أربع سنين وستة أشهر ومات، فأقيم بعده مينا، فأقام إحدى عشرة سنة ومات، فخلا الكرسيّ بعده سنة، ثم قدّم اليعاقبة افراهام بعده مينا، فأقام ست وستين وثلاثمائة فأقام ثلاث سنين وستة أشهر ومات مسموما من بعض كتاب النصارى، وسببه أنه منعه من التسرّي، فخلا الكرسي بعده ستة أشهر، وأقيم فيلاياوس في سنة تسع وستين، فأقام أربعا وعشرين سنة ومات، وكان مترفا. وفي أيامه أخذت الملكية كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك، تسلمها منهم بطرك الملكية أرسانيوس في أيام العزيز بالله نزار بن المعز، وفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة قدّم اليعاقبة زخريس بطركا، فأقام ثماني وعشرين سنة، منها في البلايا مع الحاكم بأمر الله أبي عليّ منصور بن العزيز بالله تسع سنين، اعتقله فيها ثلاثة أشهر، وأمر به فألقي للسباع هو وسوسنة النوبيّ، فلم تضرّه، فيما زعم النصارى. ولما مات خلا الكرسيّ بعده أربعة وسبعين يوما، وفي بطركيته نزل النصارى شدائد لم يعهدوا مثلها، وذلك أن كثيرا منهم كان قد تمكن في أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم، فاشتدّ بأسهم وتزايد ضررهم ومكايدتهم للمسلمين، فأغضب الحاكم بأمر الله ذلك، وكان لا يملك نفسه إذا غضب، فقبض على عيسى بن نسطورس النصرانيّ، وهو إذ ذاك في رتبة تضاهي رتب الوزراء وضرب عنقه، ثم قبض على فهد بن إبراهيم النصرانيّ كاتب الأستاذ برجوان وضرب عنقه، وتشدّد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغيار، وشدّ الزنار في أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عادتهم فعله في أعيادهم من الاجتماع واللهو، وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات وأدخله في الديوان، وكتب إلى أعماله كلها بذلك، وأحرق عدّة صلبان كثيرة، ومنع النصارى من شراء العبيد والإماء، وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة مصر، وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة، وأباح ما فيها للناس، فانتهبوا منها ما يجل وصفه، وهدم دير القصير وانهب العامة ما فيه، ومنع النصارى من عمل الغطاس على شاطىء النيل بمصر، وأبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو، وألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب التي زنة كل صليب منها خمسة أرطال في أعناقهم، ومنعهم من ركوب الخيل، وجعل لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بالذهب

والفضة، بل تكون من جلود سود، وضرب بالحرس في القاهرة ومصر أن لا يركب أحد من المكارية ذمّيا، ولا يحمل نوتيّ مسلم أحدا من أهل الذمة، وأن تكون ثياب النصارى وعمائهم شديدة السواد، وركب سروجهم من خشب الجميز، وأن يعلق اليهود في أعناقهم خشبا مدوّرا زنة الخشبة منها خمسة أرطال، وهي ظاهرة فوق ثيابهم، وأخذ في هدم الكنائس كلها وأباح ما فيها، وما هو محبس عليها للناس نهبا وإقطاعا، فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها وأقطع أحباسها، وبني في مواضعها المساجد، وأذن بالصلاة في كنيسة شنودة بمصر، وأحيط بكنيسة المعلقة في قصر الشمع، وأكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر ودياراتها، فلم يردّ قصة منها إلّا وقد وقع عليها بإجابة رافعها لما سأل، فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أواني الذهب والفضة وغير ذلك، وتصرّفوا في أحباسها، ووجد بكنيسة شنودة مال جليل، ووجد في المعلقة من المصاغ وثياب الديباج أمر كثير جدّا إلى الغاية، وكتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات فعمّ الهدم فيها من سنة ثلاث وأربعمائة حتى ذكر من يوثق به في ذلك أن الذي هدم إلى آخر سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التي بناها الروم نيث وثلاثون ألف بيعة، ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة، وقبض على أوقافها، وكانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة، وألزم النصارى أن تكون الصلبان في أعناقهم إذا دخلوا الحمام، وألزم اليهود أن يكون في أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام، ثم ألزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر إلى بلاد الروم، فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفي، وفي هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى.

وقدّم اليعاقبة عليهم سابونين بطركا بالإسكندرية في سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، في يوم الأحد ثالث عشري برمهات، فأقام خمس عشرة سنة ونصفا ومات في طوبه، وكان محبا للمال، وأخذ الشرطونية فخلا الكرسيّ بعده سنة وخمسة أشهر، ثم قدّم اليعاقبة أخر سطوديس بطركا في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، فأقام ثلاثين سنة ومات بالمعلقة من مصر، وهو الذي جعل كنيسة بومرقوره بمصر، وكنيسة السيدة بحارة الروم من القاهرة في أيام بطركيته، فلم يقم بعده بطرك اثنين وسبعين يوما، ثم أقام اليعاقبة كيرلص، فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفا ومات بكنيسة المختار من جزية مصر المعروفة بالروضة، في

سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وعمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق وبلارية ديباج أحمر بتصاوير ذهب، وقطع الشرطونية فلم يول بعده بطرك مدّة مائة وأربعة وعشرين يوما، ثم أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، فأقام تسع وسنين وثمانية أشهر ومات في المعلقة بمصر، وكان المستنصر بالله لما نقص نيل مصر بعثه إلى بلاد الحبشة بهدية سنية، فتلقاه ملكها وسأله عن سبب قدومه، فعرّفه نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك، فأمر بفتح سدّ يجري منه الماء إلى أرض مصر، ففتح وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع، واستمرّت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت، ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر وأحسن إليه.

وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قدّم اليعاقبة مقاري بطركا بدير بومقار، وكمل بالإسكندرية وعاد إلى مصر، ثم مضى إلى دير بومقار فقدّس به ثم جاء إلى مصر فقدّس بالمعلقة، فأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات. فخلت مصر من بطرك اليعاقبة سنتين وشهرين، وفي أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر هدم فيها كنيسة المختار بالروضة، واتهم الأفضل بن أمير الجيوش بهدمها، فإنها كانت في بستانه. وفي أيامه أبطل عوايد كثيرة للنصارى، فبطلت بعده. ثم قدّم اليعاقبة غبريال المكنى بأبي العلا صاعد بن تربك الشماس بكنيسة مرقوريوس في سنة خمس وعشرين وخمسمائة بالمعلقة، وكمل بالإسكندرية وقدّس بالأديرة بوادي هبيب، وأقام أربع عشرة سنة ومات، فخلا بعده كرسيّ اليعاقبة ثلاثة أشهر.

ثم قدّم اليعاقبة ميخائيل بن التقدوسيّ الراهب بقلاية دمشري بطركا، فأقام مدّة سنة وسبعين يوما، ثم أقيم يونس أبو الفتح بطركا بالمعلقة، وكمل بالإسكندرية، فأقام تسع عشرة سنة ومات، في سابع عشري جمادى الآخرة، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، فخلا الكرسيّ بعده ثلاثة وأربعين يوما، وقدم مرقص بن زرعة المكني بأبي الفرج بطرك اليعاقبة بمصر، وكمل بالإسكندرية، فأقام اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما ومات، وفي أيامه انتقل مرقص بن قنبر وجماعة من القنابرة إلى رأي الملكية، ثم عاد إلى اليعقوبية، فقبل. ثم عاد إلى الملكية ورجع فلم يقبل، وكان هذا البطرك له همة ومروءة. وفي أيامه كان

حريق شاور الوزير لمصر، في ثامن عشر هتور، فاحترقت كنيسة بومرقورة، وخلا بعده كرسيّ البطاركة سبعة وعشرين يوما، ثم قدّم اليعاقبة يونس بن أبي غالب بطركا في يوم الأحد عاشر ذي الحجة سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وكمل بالإسكندرية، فأقام ستا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما، ومات يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وستمائة بالمعلقة بمصر، ودفن بالحبش، وكان في ابتداء أمره تاجرا يتردّد إلى اليمن في البحر حتى كثر ماله، وكان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق في بحر الملح، وذهب ماله ونجا بنفسه إلى القاهرة، وقد آيس أولاد الخباب من مالهم، فلما لقيهم أعلمهم أن مالهم قد سلّم، فإنه كان قد عمله في نقائر خشب مسمرة في المركب، فصار لهم به عناية، فلما مات مرقص بن زرعة سعى يونس هذا للقس أبي ياسر فقال له أولاد الخباب: خذ أنت البطركية ونحن نزكيك، فوافقهم وأقيم بطركا، فشق ذلك على أبي ياسر وهجره بعد صحبة طويلة، وكان معه لما استقرّ في البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية، أنفقها على الفقراء، وأبطل الديارية ومنع الشرطونية، ولم يأكل لأحد من النصارى خبزا ولا قبل من أحد هدية.

فلما مات قام أبو الفتوح نشو الخليفة بن الميقاط كاتب الجيش مع السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب في ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيوميّ، فإنه كان خصيصا به، فأجابه وكتب توقيعه من غير أن يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان، فشق ذلك على النصارى، وقام منهم الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر ومعه جماعة، وتوجهوا سحرا ومعهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل حيث كان سكن الملك الكامل واستغاثوا به، ووقعوا في القس وقالوا لا يصلح، وفي شريعتنا أنه لا يقدّم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه، فبعث الملك الكامل يطيب خواطرهم، وكان القس قد ركب بكرة ومعه الأساقفة وعالم كثير من النصارى ليقدّموه بالمعلقة بمصر، وذلك يوم الأحد، فركب الملك الكامل بشجو كبير من القلعة إلى أبيه بدار الوزارة من القاهرة حيث سكنه، وأوقف ولاية القس، فبعث السلطان في طلب الأساقفة ليتحقق الأمر منهم، فوافقهم الرسل مع القس في الطريق فأخذوهم، ودخل القس إلى كنيسة بوجرج التي بالحمراء وبطلت بطركيته، وأقامت مصر بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما. ثم قدّم هذا القس بطركا في يوم الأحد تاسع عشري شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، فأقام سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ومات يوم

الثلاثاء سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين وستمائة، ودفن بدير الشمع بالجيزة، وكان عالما بدينه محبا للرياسة، وأخذ الشرطونية في بطركيته، وكانت الديارات بأرض مصر قد خلت من الأساقفة، فقدم جماعة أساقفة كثيرة بمال كثير أخذه منهم وقاسى شدائد، ورافعه الراهب عماد المرشال ووكل عليه وعلى أقاربه وألزامه، وساعده الراهب السني بن الثعبان، وأشاع مثالبه وقال لا يصح له كونية لأنه يقدّم بالرشوة، وأخذ الشرطونية وجمع عليه طائفة كثيرة، وعقد مجلسا عند الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأثبت على البطرك قوادح، فقام الكتاب النصارى في أمره مع الصاحب بمال يحمله إلى السلطان حتى استمر على بطركيته، وخلا كرسيّ البطاركة بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما.

ثم قدّم اليعاقبة ابناسيوس ابن القس أبي المكارم بن كليل بالمعلقة في يوم الأحد رابع شهر رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة، وكمل بالإسكندرية، فأقام إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما، ومات يوم الأحد ثالث المحرّم سنة ستين وستمائة، فخلت مصر من البطركية خمسة وثمانين يوما. وفي أيامه أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي الجوالي من النصارى مضاعفة وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة كانت واقعة النصارى، ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعيّ كانت حرمته وافرة في أيام الملك المنصور قلاون، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصرانيّ يحدّث مسلما وهو راكب، وإذا مشى فبذلة، ولا يقدر أحد منهم يلبس ثوبا مصقولا، فلما مات الملك المنصور وتسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية وقوّوا نفوسهم على المسلمين، وترفعوا في ملابسهم وهيآتهم، وكان منهم كاتب عند خاصكيّ يعرف بعين الغزال، فصدف يوما في طريق مصر سمسار شونة مخدومه، فنزل السمسار عن دابته وقبّل رجل الكاتب، فأخذ يسبه ويهدّده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير، وهو يترفق له ويعتذر، فلا يزيده ذلك عليه إلّا غلظة، وأمر غلامه فنزل وكتف السمسار ومضى به والناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع أحمد بن طولون، ومعه عالم كبير، وما منهم إلّا من يسأله أن يخلي عن السمسار وهو يمتنع عليهم، فتكاثروا عليه وألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار، وكان قد قرب من بيت أستاذه، فبعث غلامه لينجده بمن فيه، فأتاه

بطائفة من غلمان الأمير وأوجاقيته فخلصوه من الناس وشرعوا في القبض عليهم ليفتكوا بهم، فصاحوا عليهم ما يحل ومرّوا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة، واستغاثوا نصر الله السلطان، فأرسل يكشف الخبر فعرّفوه ما كان من استطالة الكاتب النصرانيّ على السمسار، وما جرى لهم، فطلب عين الغزال ورسم للعامّة بإحضار النصارى إليه، وطلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب، والأمير سنجر الشجاعيّ، وتقدّم إليهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم، فما زالا به حتى استقرّ الحال على أن ينادي في القاهرة ومصر، أن لا يخدم أحد من النصارى واليهود عند الأمير، وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن امتنع من الإسلام ضربت عنقه، ومن أسلم استخدموه عندهم، ورسم للنائب بعرض جميع مباشري ديوان السلطان ويفعل فيهم ذلك، فنزل الطلب لهم وقد اختفوا، فصارت العامّة تسبق إلى بيوتهم وتنهبها، حتى عمّ النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم، وأخرجوا نساءهم مسبيات، وقتلوا جماعة بأيديهم، فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان في أمر العامّة، وتلطف به حتى ركب والي القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانيّ شنق، وقبض على طائفة من العامّة وشهرهم بعد ما ضربهم، فانكفوا عن النهب بعد ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا منها جماعة، ثم جمع النائب كثيرا من النصارى كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين يدي السلطان عن بعد منه، فرسم للشجاعيّ وأمير جاندار أن يأخذا عدّة معهما وينزلوا إلى سوق الخيل تحت القلعة، ويحفروا حفيرة كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين، ويضرموا عليهم الحطب نارا، فتقدّم الأمير بيدرا وشفع فيهم فأبى أن يقبل شفاعته وقال: ما أريد في دولتي ديوانا نصرانيا، فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقرّ في خدمته، ومن امتنع ضربت عنقه، فأخرجهم إلى دار النيابة وقال لهم: يا جماعة ما وصلت قدرتي مع السلطان في أمركم إلّا على شرط، وهو أن من اختار دينه قتل، ومن اختار الإسلام خلع عليه وباشر، فابتدره المكين بن السقاعيّ أحد المستوفين وقال: يا خوند وأينا قوّاد يختار القتل على هذا الدين الخراء، والله دين نقتل ونموت عليه يروح، لا كتب الله عليه سلامة، قولوا لنا الذي تختاروه حتى نروح إليه، فغلب بيدرا الضحك وقال له: ويلك، أنحن نختار غير دين الإسلام؟ فقال يا خوند: ما نعرف، قولوا ونحن نتبعكم، فأحضر العدول واستسلمهم، وكتب بذلك شهادات عليهم، ودخل بها على السلطان فألبسهم تشاريف

وخرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس، فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعيّ وناوله ورقة ليكتب عليها وقال: يا مولانا القاضي اكتب على هذه الورقة. فقال: يا بنيّ ما كان لنا هذا القضاء في خلد، فلم يزالوا في مجلس الوزير إلى العصر، فجاءهم الحاجب وأخذهم إلى مجلس النائب وقد جمع به القضاة فجدّدوا إسلامهم بحضرتهم، فصار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزا، يبدي من إذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم ما كان يمنعه نصرانيته من إظهاره، وما هو إلا كما كتب به بعضهم إلى الأمير بيدرا النائب:

أسلم الكافرون بالسيف قهرا ... وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح ... فهم سالمون لا مسلمونا

وفي أخريات شهر رجب سنة سبعمائة قدم وزير متملك المغرب إلى القاهرة حاجا، وصار يركب إلى الموكب السلطانيّ وبيوت الأمراء، فبينما هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة، إذا هو برجل راكب على فرس وعليه عمامة بيضاء وفرجية مصقولة، وجماعة يمشون في ركابه وهم يسألونه ويتضرّعون إليه ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم وينهرهم ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه. فقال له بعضهم يا مولاي الشيخ بحياة ولدك النشو تنظر في حالنا، فلم يزده ذلك إلّا عتوّا وتحامقا، فرقّ المغربيّ لهم وهمّ بمخاطبته في أمرهم، فقيل له وأنه مع ذلك نصرانيّ، فغضب لذلك وكاد أن يبطش به، ثم كف عنه وطلع إلى القلعة وجلس مع الأمير سلار نائب السلطان، والأمير بيبرس الجاشنكير، وأخذ يحادثهم بما رآه وهو يبكي رحمة للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى، ثم وعظ الأمراء وحذرهم نقمة الله، وتسليط عدوّهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل، وتسلطهم على المسلمين وإذلالهم إياهم، وأن الواجب إلزامهم الصغار، وحملهم على العهد الذي كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمالوا إلى قوله وطلبوا بطرك النصارى وكبراءهم وديان اليهود، فجمعت نصارى كنيسة المعلقة ونصارى دير البغل ونحوهم، وحضر كبراء اليهود والنصارى، وقد حضر القضاة الأربعة وناظروا النصارى واليهود، فأذعنوا إلى التزام العهد العمريّ، وألزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق وشدّ الزنار في أوساطهم، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال، والتزام الصغار، وحرّم عليهم مخالفة ذلك أو شيء منه، وأنه بريء من

النصرانية إن خالف. ثم اتبعه ديان اليهود بأن أوقع الكلمة على من خالف من اليهود ما شرط عليه، من لبس العمائم الصفر والتزام العهد العمريّ، وكتب بذلك عدّة نسخ سيرت إلى الأعمال، فقام المغربيّ في هدم الكنائس، فلم يمكنه قاضي القضاة تقي الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك، وكتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلّا ما استجدّ بناؤه، فغلقت عدّة كنائس بالقاهرة ومصر مدّة أيام، فسعى بعض أعيان النصارى في فتح كنيسة حتى فتحها، فثارت العامة ووقفوا للنائب والأمراء واستغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير إذن، وفيهم جماعة تكبروا عن لبس العمائم الزرق، واحتمى كثير منهم بالأمراء، فنودي في القاهرة ومصر أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق، ويلبس اليهود بأسرهم العمائم الصفر، ومن لم يفعل ذلك نهب ماله وحلّ دمه، ومنعوا جميعا من الخدمة في ديوان السلطان ودواوين الأمراء حتى يسلموا، فتسلطت الغوغاء عليهم وتتبعوهم، فمن رأوه بغير الزيّ الذي رسم به ضربوه بالنعال وصفعوا عنقه حتى يكاد يهلك، ومن مرّ بهم وقد ركب ولا يثني رجله ألقوه عن دابته وأوجعوه ضربا، فاختفى كثير منهم، وألجأت الضرورة عدّة من أعيانهم إلى إظهار الإسلام أنفة من لبس الأزرق وركوب الحمير، وقد أكثر شعراء العصر في ذكر تغيير زيّ أهل الذمّة، فقال علاء الدين عليّ بن مظفر الوداعيّ:

لقد ألزم الكفار شاشات ذلة ... تزيدهم من لعنة الله تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما ... ولكنهم قد ألزموكم براطيشا

وقال شمس الدين الطيبي:

تعجبوا للنصارى واليهود معا ... والسامرين لما عمموا الخرقا

كأنما بات بالأصباغ منسهلا ... نسر السماء فأضحى فوقهم زرقا

فبعث ملك برشلونة في سنة ثلاث وسبعمائة هدية جليلة زائدة عن عادته، عمّ بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان، وكتب يسأل في فتح الكنائس، فاتفق الرأي على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبة، وفتح كنيسة البندقانيين من القاهرة، ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، هدمت كنائس أرض مصر في ساعة واحدة، كما ذكر في أخبار كنيسة الزهريّ، وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة، رسم بتحرير ما هو موقوف على الكنائس من أراضي مصر، فأناف على خمسة وعشرين ألف

فدان، وسبب الفحص عن ذلك، كثرة تعاظم النصارى وتعدّيهم في الشرّ والإضرار بالمسلمين، لتمكنهم من أمراء الدولة وتفاخرهم بالملابس الجليلة، والمغالاة في أثمانها، والتبسط في المآكل والمشارب، وخروجهم عن الحدّ في الجراءة والسلاطة، إلى أن اتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة، وهو راكب بخف ومهماز وبقباء إسكندريّ طرح على رأسه، وقدّامه طرّادون يمنعون الناس من مزاحمته، وخلفه عدّة عبيد بثياب سرية على أكاديش فارهة، فشق ذلك على جماعة من المسلمين، وثاروا به وأنزلوه عن فرسه وقصدوا قتله، وقد اجتمع عالم كبير، ثم خلوا عنه، وتحدّد جماعة مع الأمير طاز في أمر النصارى وما هم عليه، فوعدهم بالإنصاف منهم، فرفعوا قصة على لسان المسلمين قرئت على السلطان الملك الصالح صالح بحضرة الأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة، تتضمن الشكوى من النصارى، وأن يعقد لهم مجلس ليلتزموا بما عليهم من الشروط، فرسم بطلب بطرك النصارى وأعيان أهل ملتهم، وبطلب رئيس اليهود وأعيانهم، وحضر القضاة والأمراء بين يدي السلطان، وقرأ القاضي علاء الدين عليّ بن فضل الله كاتب السرّ العهد الذي كتب بين المسلمين وبين أهل الذمّة، وقد أحضروه معهم، حتى فرغ منه، فالتزم من حضر منهم بما فيه وأقرّوا به، فعدّدت لهم أفعالهم التي جاهروا بها وهم عليها، وأنهم لا يرجعون عنها غير قليل، ثم يعودون إليها كما فعلوه غير مرّة فيما سلف، فاستقرّ الحال على أن يمنعوا من المباشرة بشيء من ديوان السلطان ودواوين الأمراء ولو أظهروا الإسلام، وأن لا يكره أحد منهم على إظهار الإسلام، ويكتب بذلك إلى الأعمال. فتسلطت العامّة عليهم وتتبعوا آثارهم وأخذوهم في الطرقات، وقطعوا ما عليهم من الثياب، وأوجعوهم ضربا، ولم يتركوهم حتى يسلموا، وصاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها، فاختفوا في بيوتهم ولم يتجاسروا على المشي بين الناس، فنودي بالمنع من التعرّض لأذاهم، فأخذت العامّة في تتبع عوراتهم وما علوه من دورهم على بناء المسلمين فهدموه، واشتدّ الأمر على النصارى باختفائهم، حتى أنهم فقدوا من الطرقات مدّة، فلم ير منهم ولا من اليهود أحد، فرفع المسلمون قصة قرئت في دار العدل في يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب، تتضمن أن النصارى قد استجدّوا عمارات في كنائسهم ووسعوها، هذا وقد اجتمع بالقلعة عالم عظيم واستغاثوا بالسلطان من النصارى، فرسم بركوب والي القاهرة وكشفه على ذلك، فلم تتمهل العامّة ومرّت بسرعة فخرّبت كنيسة بجوار قناطر السباع،

وكنيسة بطريق مصر للأسرى، وكنيسة الفهادين بالجوّانية من القاهرة، ودير نهيا من الجيزة، وكنيسة بناحية بولاق التكروريّ، ونهبوا حواصل ما خرّبوه من ذلك، وكانت كثيرة، وأخذوا أخشابها ورخامها وهجموا كنائس مصر والقاهرة، ولم يبق إلّا أن يخرّبوا كنيسة البندقانيين بالقاهرة، فركب الوالي ومنعهم منها، واشتدّت العامة وعجز الحكام عن كفهم، وكان قد كتب إلى جميع أعمال مصر وبلاد الشام أن لا يستخدم يهوديّ ولا نصرانيّ ولو أسلم، وأنه من أسلم منهم لا يمكن من العبور إلى بيته ولا من معاشرة أهله إلّا أن يسلموا وأن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد والجوامع لشهود الصلوات الخمس والجمع، وأنّ من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته إن كان له وارث، وإلّا فهي لبيت المال، وكان يلي ذلك البطرك، وكتب بذلك مرسوم قريء على الأمراء، ثم نزل به الحاجب فقرأه في يوم الجمعة سادس عشري جمادى الآخرة بجوامع القاهرة ومصر، فكان يوما مشهودا.

ثم أحضر في أخريات شهر رجب من كنيسة شبرا بعدما هدمت، إصبع الشهيد الذي كان يلقى في النيل حتى يزيد، بزعمهم، وهو في صندوق، فأحرق بين يدي السلطان بالميدان من قلعة الجبل وذرى رماده في البحر خشية من أخذ النصارى له، فقدمت الأخبار بكثرة دخول النصارى من أهل الصعيد والوجه البحريّ في الإسلام. وتعلمهم القرآن، وإن أكثر كنائس الصعيد هدمت وبنيت مساجد، وأنه أسلم بمدينة قليوب في يوم واحد أربعمائة وخمسون نصرانيا، وكذلك بعامة الأرياف، مكرا منهم وخديعة حتى يستخدموا في المباشرات، وينكحوا المسلمات، فتم لهم مرادهم واختلطت بذلك الأنساب حتى صار أكثر الناس من أولادهم، ولا يخفى أمرهم على من نوّر الله قلبه، فإنه يظهر من آثارهم القبيحة إذا تمكنوا من الإسلام وأهل ما يعرف به الفطن سوء أصلهم، وقديم معاداة أسلافهم للدين وحملته[1].

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 408-420

في سنة أربعمائة وخمسة عشر هجرية 415 هـ في التاسع من شهر محرم أخذ رجل يقال له أبو ذكريا كان نصرانياً فأسلم وكتب الحديث وقرأ القرآن وحج ثم ارتد إلى النصرانية وقال: ما عمل في سحر نبيكم، فضرب عنقه بعد ما ثبت عليه هذا[1]

السنة الرابعة والثمانون بعد المئتين: وفيها أُخذ خادمٌ نصرانيٍّ لطبيب نصرانيٍّ اسمه غالب - طبيب السُّلطان- وشهدوا على الخادم أنَّه شتم النبيّ، فحُبس، ثمَّ اجتمع العامَّة وجاؤوا إلى دار القاسم بن عبيد الله الوزير، وطالبوه بإقامة الحدِّ عليه، وأسمعوه ما يكره، فهرب منهم، ومَضَوا إلى قصر الخلافة، وبلغ المعتضد فأدخل إليه منهم جماعةً، وسألهم عن الخَبر، وأرسل معهم رسولًا إلى القاضي، وأمره أن يَنْظُر في القَضيَّة، فجاؤوا إلى القاضي، وكانت البيِّنةُ قد قامت عنده، فوعدهم بإقامة الحدِّ، فشَغَبوا وهجموا عليه، فهرب أعوانُه، وقام فدخل بيته، وأغلق بابه، وأرسل إليه الوزير بدفع القضيَّة، فدفعها، فقال ابن بسَّام:

عنايةُ القاسمِ بالخادم ... دلَّت على دِينِ أبي القاسمِ

لو يَكُنِ المَشْتومُ عيسى لما ... رضي بغير القَتْلِ للشَّاتمِ

أراد بأبي القاسم القاضي[2].

سنة ثلاث وستمائة: وفيها ايتامش مملوك الخليفة الناصر، كان أقطعه الخليفة دجيل وقوفا وبها رجل نصراني من جهة الوزير ابن مهدي يؤذي المسلمين ويركب ويتجبّر على المسلمين، فسقى ايتامش سما فمات، فأمر الخليفة أن يسلّم ابن ساوة النصراني لمماليك ايتامش، فكتب الوزير إلى الخليفة يقول: إن النصارى بذلوا في ابن ساوة مائة ألف دينار على أن لا يقتل، فكتب الخليفة على رأس الورقة: إنّ الأسود أسود الغاب همّتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السّلب، فسلّم إلى المماليك فقتلوه وأحرقوه[3].

---

[1]) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 136

2) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط بن الجوزى جـ 16 ص 211

3) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلى جـ 7 ص 17-18

فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة هـ فى أيام الآمر بأحكام الله ولى عهده أبا الميمون عبد المجيد وتلقب بالحافظ لدين الله وقدم للحجابة شخصاً نصرانياً يعرف بالأسقف فجعل يدعو فى الأسواق لعبادة عبد المجيد فوجهه للصعيد فأراد القيام عليه والإنتصار بالحبشة النصارى فأستعمل شمعاً عدتها اثنى عشرة شمعة فى كل شمعة ألف دينار فنمى الخبر إلى عبد المجيد فخرج إلى نزهة ورجع فى طريقه على الأسقف فوجده فى كنيسته والشمع عنده فسأله عنها وذكر له أن بعض القبط يبعثها إلى الكنيسة العظمى فطلب منه بعضها فحملت بين يديه فأمر بكسرها فوجد فيها المال فاستقره فأقر وطلب منه العفو فلم يعفه وأمر بعذابه إلى أن مات وخرج عبد المجيد لرؤية الخليج فأمر به فصير على لوح وأرسل فى التيار فحمله[1]

وفى خلافة جفر المتوكل وهو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد الذى بويع للخلافة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هـ فى أيامه عُمر المقياس للنيل بمصر وهو الذى يقاس به للآن وكان النصارى يتولونه فعزلهم وولاه أبو الرداد واسمه عبدالله بن عبد السلام المؤذن البصرى[2]، وقد ورد كتاب المتوكل إلى القاضى بكار أن لا يتولى المقياس إلا مسلم يختاره[3]

السنة الحادية وأربع مئة هـ: وقال الخطيب: دخل الرُّخَّجي على عميد الجيوش، ومعه سبعون مجلدةً خَزًّا، ومنديل فيه دراهم كثيرة، وقال: مات عندنا نصرانيٌّ من أهل مصر، وخلَّفَ هذا، وليس له وارث. فقال عميد الجيوش: من حكم الاستظهار أن يُترَكَ هذا بحاله، فإن حضر وارثٌ وإلَّا أُخِذَ. فقال الرُّخَّجي: يُحمل إلى خزانة مولانا إلى أن يتبيَّن الحالُ. قال: لا يجوزُ أن يدخل خزانة السلطان ما لم يصحَّ استحقاقُه، فلمَّا كان بعد مدة قدم أخو النصراني ومعه كتابٌ باستحقاق التركة، فقيل له: عليك بعميد الجيوش. فجاء إلى داره وهو قائم على رَوْشَنِهِ يصلِّي الفجر، فظنَّه نقيبًا، فدفع إليه الكتابَ، وسأله إيصاله إلى صاحب الخبر ليقضيَ له حاجتَه، فقال عميد الجيوش: سمعًا وطاعةً. وبعث إلى صاحب الخبر فدفع إليه التركة، فقال له النصرانيُّ: فبأيِّ شيء أخدُمُ النقيب الَّذي أدخل كتابي إليك؟ فقال: ويحَكَ! هذا عميد

1) نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان لابن القطان المراكشى ص 219-220

2) الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين لابن دقماق ص 117-118

3) الصفوة فى وصف المملكة المصرية لأبي الفتح الصوفي ص66

الجيوش. فقال: الَّذي تهابُه ملوكُ الأطراف؟ قال: نعم. فقال: هذا سيد المرسلين. فدخل صاحب الخبر عليه، وقال: يا مولانا، إنَّ النصرانيَّ يقول كذا وكذا، وقد كثُر الدعاءُ ببغداد لك. فلمَّا كان بعد مدَّةٍ جاءت كتُبُ ابنِ القُمِّي والتُّجار من مصر إلى عميد الجيوش تُخبر أنَّ ذلك النصرانيَّ حضر فِي مجمعٍ من التُّجار، وحكى القصة، فضجَّ الناسُ بالدعاء، وقالوا: يا ليتنا كنَّا فِي جواره وظِلِّه. ففرح عميد الجيوش، وقال: لقد أحسن المكافأة[1].

وورد خبر شهيد فى إتعاظ الحنفا، في سنة أربعمائة وخمسة عشر هجرية 415 هـ في التاسع من شهر محرم أخذ رجل يقال له أبو ذكريا كان نصرانياً فأسلم وكتب الحديث وقرأ القرآن وحج ثم ارتد إلى النصرانية وقال: ما عمل في سحر نبيكم، فضرب عنقه بعد ما ثبت عليه هذا[2]

وفى سنة أربع وستين وخمسمائة هـ كان الحريق بمصر وأحرق الجامع العتيق وكان سببه أن النصارى لما أنكى فيهم الحاكم من منعهم من ركوب الخيل والبغال وتعليق الصلبان الخشب الثقال فى حلوقهم وبناية المساجد والمآذن على كنائسهم وهدم منها عدة فتجمعوا فى الباطن واتفقوا على حريق الجامع والآدر الكبار المتعينة والأرباع فكان حريق عظيم ما شهد مثله وقيل أن سبب تذكر النصارى هذا الأمر بعد طول هذه المدة أنه تولى عندهم فى هذه السنة بطريركاً يعظمونه عندهم فحثهم على ذلك ففعلوه حتى مسك منهم جماعة وقطعت أيديهم وأرجلهم وقصد صلاح الدين استئصال النصارى واليهود جملة كافية فلم يقدر على ذلك كونه فى أول مبتدأ أمره ووزارته[3]

والذي ورد تواريخ النصارى كانت وفاة البطرك أنبا يونس بن أبي غالب بطريرك اليعاقبة على الإسكندرية والديار المصرية والحبشة والنوبة يوم الخميس عيد الغطاس حادي عشر طوبة سنة اثني وثلاثين وتسع مائة للشهداء الموافق لرابع عشر رمضان سنة اثني عشر وستمائة هـ

1) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سبط ابن الجوزى جـ 18 ص 198

2) إتعاظ الحنفا ج2 ص136

3) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدواداري ج7 ص39-40

فكانت مدة بطركيته ستة وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً شمسية وكان أولاً تاجراً يتردد إلى بلاد الهند واليمن وحصلت له أموال كثيرة من متجره وقيل كان معه لأولاد الجباب مال يتجر به واتفق له في آخر سفراته أنه غرق وطلع بنفسه وبلغ ذلك أولاد الجباب فيائسوا من المال فلما وصل إلى مصر واجتمع بهم قالوا له قد بلغنا ما جرى عليك فلا تحمل همّاً لما كان لنا معك فقال إن المال الذي لكم سالم فإني كنت جعلته في نقائر خشب وسمرتها في المركب وأحضر إليهم المال فتميز عندهم بذلك فلما مات البطرك أنبا يونس بن زُرعة سعى أنبا يونس المذكور للقسّ أبي إلياس الذي كان مقيماً بالعدوية في البطركية سعياً كثيراً فقال له أولاد الجباب ما يكون بطرك إلا أنت ونحن نزكيك ونشهد لك فوافق على ذلك فلما قُدِّم بطركاً عزَّ ذلك على القس أبي إلياس وهجره بعد صحبة كبيرة كانت بينهما وقيل إنه قُدِّم بطركاً ومعه سبعة عشر ألف دينار لنفسه وإنه أنفقها جميعها في مدة بطركيته وأكثرها على الفقراء والمساكين وأبطل الديارية ومنع الشرطونية ولم يأكل لأحد في حال بطركيته من النصارى خبزاً لا كبير ولا صغير ولا قبل لأحد منهم هدية وكان القس داؤود بن يوحنا المعروف بابن لقلق من أهل الفيوم ملازماً للشيخ نشوء الخلافة أبي الفتوح بن الميقاط كاتب الجيوش العادلية وسافر معه إلى الشام عدة مرار وكان يصلي به وبجماعة الكتاب وكانوا يميلون إليه لفضيلته وحسن كهنوته وجميل صفاته فلما مات البطرك أنبا يونس طلب الشيخ أبو الفتوح من السلطان الملك العادل البطركية للقسّ داؤود بن لقلق فأجابه الملك العادل وكتب له توقيعاً ولم يستأذن الملك الكامل وهو ولي عهده ونائبه في البلاد وبلغ المصريين ذلك فلم يوافقوا عليه وجمع الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح جماعة كثيرة من النصارى العصّارين بالصفا بمصر وطالعوا في الليلة التي وقع الرأي للشيخ أبي الفتوح على تقدّمة القسّ داؤود في صبيحتها ومعهم الشموع تحت قلعة الجبل واستغاثوا إلى الملك الكامل وقالوا إن هذا الذي يريد أبو الفتوح يقدمه علينا بطركاً بغير أمرك لا يصلح ونحن في شريعتنا لا نقدّم بطركاً إلا باتّفاق الجمهور عليه. فخرج إليهم أمر من الملك الكامل بتطييب قلوبهم وفي باكر النهار ركب القس داؤود ومعه الأساقفة وعالم كبير من النصارى ليقدّموه بطركاً بالمعلّقة بمصر وكان يوم الأحد الزيتونة وركب الملك الكامل باكراً جداً إلى أبيه وعرّفه أن النصارى ما هم متفقون عليه ولا يجوز عندهم تقدمته إلا باتّفاق الجمهور فسيّر الملك العادل وطلب الأساقفة

ليتحقق الأمر منهم فحضرت السعاة خلفهم وقد وصلوا مع القسّ داؤود إلى رأس الزقاق الذي فيه كنيسة أبو جرج الحمراء عند السبع السقايات فأخذت السُعاة الأساقفة ومضوا إلى السلطان الملك العادل ودخل القسّ داؤود إلى كنيسة الحمراء وتفلل الجمع الذي كان اجتمع معه وبطلت بطركيته في ذلك الوقت وخلا الكرسيّ بغير بطرك تسعة عشر سنة ومائة وستون يوماً.[1]

فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: فيها، قتل رجل نصراني كان يسكن في درب الشاكريه، قتله غلام له وأظهر أنه قد سافر، فطال العهد بذلك، والغلام في داره يتصرف فيها على حسب ايثاره، فارتيب به فأخذ وقرر بالضرب فاعترف بأنه قتله والقاه في بئر داره، فوقع الاقتصار على تخليده السجن، لآن الغلام كان مسلما عملا بمذهب - الشافعي وأحمد[2].

وممّا ورد تواريخ النصارى من الوقائع أن في هذه السنة قُدّم أنبا كيرلص داؤود بن لقلق بطركاً لليعاقبة على الإسكندرية وذلك بثغر الإسكندرية المحروس يوم الأحد تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وستمائة الموافق لثالث وعشرين بؤونة سنة تسع مائة أحد وأربعين للشهداء وأقام سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ومات يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان سنة أربعين وستمائة الموافق للرابع عشر من برمهات سنة تسع مائة وخمسين للشهداء في الجمعة الرابعة من الصوم الكبير بدير الجمع بالجيزة ودُفن فيه وكان عالماً فاضلاً محبّاً للرئاسة وجمع المال وأخذ الشرطونيّة وكانت الديار المصرية قد خلت من الأساقفة فقدّم جماعة من الأساقفة أخذ منهم جملة كثيرة وقاسى من الشدائد والاضطهاد كثيراً وكان عماد الراهب المرشار سعى في تقدّمته سعياً كثيراً وقرّر معه أنه لا يكرز أسقفاً إلا برأيه فلما حصلت له البطركية رجع عن هذا ولم يلتفت إليه لا يسمع منه فرافعه ووكل عليه وعلى جماعة من أقاربه وألزامه وكان الشيخ السني الراهب المعروف بابن التعبان يعانده أيضاً ويذكر مثالبه ويقول إن هذا تقدّم بالرشوة وأخذ الشطونية وليس له كهنوت على حكم القوانين واجتمع

1) أخبار الأيوبيين، للمكين جرجس بن العميد ص 6-7

2) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ابن الفوطى ص 20

معه جماعة على هذا القول وعقدوا لهم مجلساً بحضور الصاحب بن الشيخ الوزير في أيام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر وأثبتوا عليه أموراً كثيرة وأرادوا خلعه من البطركية فدخل الكتّاب المستوفيّين في قضيته مع الصاحب معين الدين بن الشيخ الوزير وقرّروا عليه مالاً حمله للسلطان واستمرّ على رئاسته إلى حين وفاته وسيّر البطاركة تشهد بتفاصيل أحواله وخلا الكرسي بعده بغير بطرك سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوماً.[1]

وفى سنة ثلاث وستين وستمائة فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى عندما كثر الحريق بمصر والقاهرة فقال السلطان: هذا الحريق من النصارى، فأمر السلطان بجمع النصارى من مدينتي مصر والقاهرة فلما اجتمعوا أمر بحريقهم فجمعت الأحطاب والحلفاء فشفع فيهم فارس الدين أقطاى أتابك العسكر على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت وأن يحملوا لبيت المال خمسين ألف دينار[2].

ويذكر ابن العسال: أنه فى هذه السنة كان حريق الباطلية المشهور، احترق فيه ثلاث وستون داراً جامعة، ثم أن الحريق استمر بعد ذلك بمصر حتى احترقت من رباعها المشهورة ربع فرح وكان وقفاً على أشراف المدينة ثم احترق ربع العادل وهو الوجه المطل على البحر وكان وقفاً على تربة الشافعى وأنه لم تمكن عمارته فإنه احتاج إلى نيف وعشرة آلاف دينار.

وكان الحريق يجدونه لفائف مشاق محشوة بالكبريت وبالنار ويرمونها إلى أسطح الناس، وعظم هذا الأمر وزاد حتى لكثرة ما اشتغلت الناس به أن صبياً لسعته عقرب فصاح النار .. النار .. فركب الوالى وأتى وهو يظن أنه حريق وقع فى المدينة، فلما علم أنه لسعته عقرب ضربه بالسياط كونه ذكر النار.

ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم السلطان من الشام فأمر بالنصارى واليهود فمسكوا عن بكرة أبيهم وأوقدت لهم النار بالأحطاب فى جورة كانت بالقلعة التى بناها داراً للملك السعيد، واراد

---

1) أخبار الأيوبيين، للمكين جرجس بن العميد ص20

2) الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين لابن دقماق ص 276-277، وأيضاً بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 1-1 ص 324-325

إحراقهم فأشتراهم الراهب الحبيس بخمسمائة ألف دينار، يقومون منها فى كل سنة بخمسين ألف دينار.

وكان هذا الحبيس فى مبدأ أمره كاتباً فى صناعة الإنشاء، ثم ترهب وانقطع فى جبل حلوان، فيقال: أنه وجد فى مغارة مالاً كان للحاكم العبيد-أحد الخلفاء المصريين-فلما حصل له هذا المال رفد به الفقراء والصعاليك من سائر الأديان، فأتصل خبره بالسلطان الملك الظاهر، فأحضره وطلب منه المال، فقال له: إن طلب السلطان منى شيئاً أدفعه من يدى فلا، ولكنه يصل إليك من جهة من تصادره وهو لا يقدر على ما يطلب منه، فإنى أعطيه وأساعده على خلاص نفسه منك، فلا تعجل. فلما كانت هذه الواقعة ضمنهم من السلطان بذلك المال المقرر على النصارى.

وكان يدخل الحبوس، ويطلق منها من كان عليه دين وهو عاجز عن وفائه-ثقيلاً كان أو حفيفاً-وكذلك لما طلب من أهل الصعيد المقرر من أهل الذمة سافر إليهم وأدى عنهم ما طلب منهم، وكذلك سافر إلى الأسكندرية فرأى أهلها منه ما هالهم، فوصلت فتاوى الفقهاء من أهلها بقتله، فطلبه السلطان إليه وطلب منه المال، وأن يعرفه من أى الجهات حصل له، فلم يعرفه وجعل يماطله ويدفع به وهو عنده فى داخل الدور إلى أن يئس منه، فعذبه بأنواع عذابات حتى مات، وأخرج من القلعة ورموه بظاهرها على باب القرافة.

وقيل: أحصى ما وصل إلى بيت المال من جهة الراهب الحبيس على تلك الوجوه-المقدم ذكرها-فى مدة سنتين فكانت ستمائة ألف دينار مصرية، خارجاً عما كان يعطيه من يده سراً للناس، وما خلص به من الحبوس، وكان لا يأكل من المال شيئاً ولا يلبس منه وكان أمره خارقاً والله أعلم[1].

أَنه لما كان فِي النصف من المحرم سنة 714 بلغه أَن النصَارى قد استعاروا من قناديل جامع عمرو بن العاص بمصر شَيئا وعلقوه فِي مجمع كان بالكنيسة المعلقة فَأخذ معه طائفة كبيرة من الناس وهجم الْكنيسة والنصارى فِي المجتمع ونكل بهم وبلغ منهم مبلغا عظِيما وعاد إِلى الجامع وأهان قومته وأكثر من الوقيعة فِي خَطِيبه فبلغ ذلك الفخر ناظر الجيش فاتفق

---

1) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل، جـ1 ص 138-140

دخول البكريّ إِلى أرغون النائِب فشنع القَوْل على كريم الدّين الْغِير نَاظر النظار وَعلي كريم الدّين نَاظر الْخَاص وَإِن ذَلِك جرى بأمرهما فَبلغ السلطَان فَأمر بإحضار القضَاة وفيهم ابن الوَكِيل واحضر البكرِي فتكلم ووعظ وذكر آيَات من القرآن وأحاديث واتفق أنه أغلظ فِي عبارته وواجه السلطان يقول أفضل الجهاد كلمة حق عنه سلطان جائر فقال له السلطان وقد اشتد غضبه أنا جائر قال نعم أنت سلطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم[1]

في سنة ثلاث وستّين وستّمائة احترقت حارة الباطليّة بالقاهرة عندما كثر الحريق في القاهرة ومصر، واتّهم النصارى بفعل ذلك، فجمعهم الملك الظاهر بيبرس، وحملت لهم الأحطاب الكثيرة والحَلْفاء، وقُدِّموا ليحرقوا بالنار، فتشفّع لهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار فتُرِكوا. وجرى في ذلك ما تستحسن حكايته، وهو أنّه قد جمع مع النصارى سائر اليهود، وركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة، وقد اجتمع الناس من كلّ مكان للتشفّي بحريقهم لما نالهم من البلاء فيما دُهوا به من حريق الأماكن لاسيّما الباطليّة، فإنّها أتت النار عليها حتّى حُرقت بأسرها. فلمّا حضر السلطان وقدم اليهود والنصارى ليُحرَقوا برز ابنُ الكازروني اليهوديّ - وكان صيرفياً - وقال للسلطان: سألتك بالله لا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين أعدائنا وأعدائكم، احرقنا ناحية وحدنا؛ فضحك السلطان والأمراء، وحينئذٍ تقرّر الأمر على ما ذكر، فندب لاستخراج المال منهم الأمير سيف الدين بلبان المهراني، فاستخلص بعض ذلك في عدّة سنين، وتطاول الحال، فدخل كتّاب الأمراء مع مخادعيهم وتحيّلوا في إبطال ما بقي، فبطل في أيام السعيد بن الظاهر. وكان سبب فعل النصارى لهذا الحريق حقنهم لمّا أخذ الظاهر من الفرنج أرسوف وقيسارية وطرابلس ويافا وأنطاكية. وما زالت الباطلية خراباً، والناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيراً فيقولون: كأنّ في باطنه حريق الباطليّة[2]

1) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 165

2) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 135

وفى سنة 702هـ الموافقة 1303م أبطل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عيد الشهيد بمصر وذلك أن النصارى كان عندهم تابوت فيه إصبع يزعمون أنه من أصابع بعض شهدائهم وأن النيل لا يزيد مالم يلق فيه هذا التابوت وكان يجتمع النصارى من سائر النواحى إلى شبرا ويقع هناك أمور فظيعة من سكر وغيره فأبطل ذلك إلى يومنا هذا[1].

سنة أربع عشر وسبعمائة للهجرة فى النصف الثانى من محرم، وفيه جَرت محنة، لعلي بن يَعْقُوب بن جِبْرِيل البكري نور الدِّين المصري الشافعي، الذى اشتغل بالفقه والأصول وَقَرَأَ بِنَفسِهِ على سِتّ الوزراء، والمحنة التى جرت له بِسَبَب القبط أَن النَّصَارَى قد استعاروا من قناديل جَامع عَمْرو بن الْعَاصِ بِمصْر شَيْئا وعلقوه بكنيسة فاخذ مَعَه طَائِفَة كَثِيرَة من النَّاس وهجم الْكَنِيسَة وَنكل النَّصَارَى وَبلغ مِنْهُم مبلغاً عَظِيما وَعَاد إِلَى الْجَامِع وأهان من فعل ذَلِك وَكثر من الوقيعة فِي خَطِيبه فَبلغ السُّلْطَان فأمر بإحضار الْقُضَاة وَفِيهِمْ ابْن الْوَكِيل وأحضر صَاحب التَّرْجَمَة فَتكلم وَوعظ وَذكر آيَات من الْقُرْآن وَأَحَادِيث وَاتفقَ أَنه أغْلظ فِي عبارَة السُّلْطَان ثمَّ قَالَ أفضل الْجِهَاد كلمة حق عِنْد سُلْطَان جاير فَاشْتَدَّ غضب السُّلْطَان وَقَالَ لَهُ أَنا جاير قَالَ نعم أَنْت سلطت الأقباط على الْمُسلمين وقوّيت أَمرهم فَلم يَتَمَالَك السُّلْطَان أَن أَخذ السَّيْف وهمّ بِالْقيامِ ليضربه فبادر بعض الْأُمَرَاء وَأمْسك يَده فَالْتَفت إِلَى قاضي الْمَالِكِيَّة وَقَالَ يَا قاضى تجرأ على هَذَا مَا الذي يجب عَلَيْهِ فَقَالَ القاضي لم يقل شَيْئا يُوجب عُقُوبَة فصاح السُّلْطَان علي بن يَعْقُوب بن جِبْرِيل البكري نور الدِّين المصري الشافعي وَقَالَ اخْرُج عَنى فَقَامَ وَخرج فَقَالَ ابْن جمَاعَة قد تجرأ وَمَا بقي إِلا أَن يزاحم السُّلْطَان فانزعج السُّلْطَان وَقَالَ اقْطَعُوا لِسَانه فبادر الْأُمَرَاء ليفعلوا بِهِ ذَلِك وأحضروا صَاحب التَّرْجَمَة فارتعد وَصَاح واستغاث بالأمراء فرقوا لَهُ وألحو على السُّلْطَان فِي الشَّفَاعَة وَدخل ابْن الْوَكِيل وَهُوَ ينتحب ويبكي فَظن السُّلْطَان أَنه أَصَابَهُ شئ فَقَالَ لَهُ خير خير فَقَالَ هَذَا رجل عَالم صَالح لكنه ناشف الدِّمَاغ قَالَ صدقت وَسكن غَضَبه فَانْظُر مَا فعله ابْن جمَاعَة بكلمته الحمقاء وَمَا فعله صدر الدِّين بن الْوَكِيل رَحمَه الله من التَّوَصُّل إِلَى سَلامَة هَذَا الْمِسْكِين وَهَكَذَا ينبغي لمن كَانَ لَهُ قبُول عِنْد السلاطين أَن يتحيل عَلَيْهِم فِي مَنَافِع الْمُسلمين وحقن

1) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج2 ص 299

دِمَائِهِمْ بِمَا أمكنه فإن صَاحب التَّرْجَمَة لم يكن ناشف الدِّمَاغ وَلكنه كَانَ فِي هَذِه الْوَسِيلَة سَلَامَته من تِلْكَ البلية[1].

سنة تسع عشرَة وَسَبْعمائة، فِي شهر ربيع الآخر حفر السُّلْطَان حفيراً قرب بَحر النّيل، وَكَانَ جواره كَنِيسَة فَأَرَادَ هدمها فَلَمَّا شرعوا فِي هدمها قَامَ الصَّوْت فِي الْقَاهِرَة ومصر بهدم الْكَنَائِس فَلم يبْق بِمصْر والقاهرة كَنِيسَة حَتَّى حاصروها، مِنْهَا مَا هدم، وَمِنْهَا مَا نهب وَمِنْهَا مَا لم يصلوا إِلَيْهِ فَغَضب السُّلْطَان، واستفتى الْقُضَاة فأفتوه بتعزيزهم فَأخذ جمَاعَة من الْحَبْس فشنق وَقطع أيديا وخزم حَتَّى سكنوا، واختفى النَّصَارَى أَيَّامًا، وَجرى ذَلِك فِي الفيوم وأحرقوا الْأَمْوَات المدفونين فِي كنائسها[2].

وفى نفس السنة فِي شهر ربيع الآخر، حفر السُّلْطَان حفيراً قرب بَحر النّيل، وَكَانَ جواره كَنِيسَة فَأَرَادَ هدمها فَلَمَّا شرعوا فِي هدمها قَامَ الصَّوْت فِي الْقَاهِرَة ومصر بهدم الْكَنَائِس فَلم يبْق بِمصْر والقاهرة كَنِيسَة حَتَّى حاصروها، مِنْهَا مَا هدم، وَمِنْهَا مَا نهب وَمِنْهَا مَا لم يصلوا إِلَيْهِ فَغَضب السُّلْطَان، واستفتى الْقُضَاة فأفتوه بتعزيزهم فَأخذ جمَاعَة من الْحَبْس فشنق وَقطع أيديا وخزم حَتَّى سكنوا، واختفى النَّصَارَى أَيَّامًا، وَجرى ذَلِك فِي الفيوم وأحرقوا الْأَمْوَات المدفونين فِي كنائسها.

وَفِيه: وَقع بِالْقَاهِرَةِ حريق عَظِيم أتلف أملاكاً وأتعب النَّاس حَتَّى أطفئ ثمَّ فِي الْغَد وَقع حريق أعظم مِنْهُ فِي وضع آخر وَقرب من دَار كريم الدّين فَنزل الْأُمَرَاء والنائب من القلعة خوفًا على دَار كريم الدّين لكَونهَا خزانَة الْمُسلمين وأحرقوا بهَا حَتَّى أطفئت وتوالى الْحَرِيق بِالْقَاهِرَةِ وتحير السُّلْطَان والرعية لَهُ، وتتبع ذَلِك فَقيل: أَنه وجد بعض النَّصَارَى وَمَعَهُ آلَة الْحَرِيق كالنفط وَغَيره، فَأخذُوا وعرضوا على السُّلْطَان فَذكر بَعضهم أَن القسيسين اتَّفقُوا على هَذَا بِسَبَب مَا حصل من التَّعَرُّض إِلَى كنائسهم وَأَنَّهُمْ رتبوا أَرْبَعِينَ نفسا من النَّصَارَى يلقون النَّار فِي بيُوت المسليمن ومساجدهم فَحرق بَعضهم. ثمَّ أَن جمعا قصدُوا كريم الدّين وهجموا عَلَيْهِ بِالْحِجَارَةِ فهرب مِنْهُم فَأمْسك السُّلْطَان جمَاعَة من الْمُسلمين وَقطع أَيدي أَرْبَعَة وَقيد جمَاعَة،

1) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ابن عبدالله الشوكانى، جـ 1 ص 502-503

2) تاريخ ابن الوردى، جـ 2 ص 261

ثمَّ نُودي على النَّصَارَى أَن يخرجُوا بالثياب الزرق والعمائم الزرق وَأَن يَجْعَل الجرس فِي أَعْنَاقهم فِي الْحمام ويركبوا عرضا وَلَا يستخدموا فِي ديوَان، فَعِنْدَ ذَلِك خف الإحراق بعد أَن كَانَ أمرا عَظِيما، وَكم سقط بِهِ دَار وَكم خرج مِنْهُ حَرِيم مكشفات حَتَّى قنت النَّاس لَهُ فِي الصَّلَوَات، وَأَعدُّوا الدنان مملوءة مَاء فِي الْأَسْوَاق فَالله يهْلك أَعدَاء الْإِسْلَام. وَأخْبر ابْن الأيدمري أَن لَهُ ربعا وَقعت فِيهِ النَّار تسعا وَعشْرين مرّة، وَنسب ذَلِك إِلَى النَّصَارَى فَأمْسك مِنْهُم جمَاعَة فأقروا بذلك فَأحرق مِنْهُم خَمْسَة وَضرب عنق سادس وَأسلم مِنْهُم جمَاعَة، وَسَار كل نَصْرَانِيّ يظْهر بِالْقَاهِرَةِ يضْرب وَرُبمَا قتل والحريق لم يَنْقَطِع بِالْكُلِّيَّةِ. وَفِي ثَانِي جُمَادَى الْآخِرَة أمسك نصرانيان من الْغُرَمَاء وصلباً وسمرا وطيف بهما على جملين بِالْقَاهِرَةِ ومصر[1].

سنة احدى وعشرون وسبعمائة للهجرة، وفيها كان الحريق بالديار المصرية، وذهبت فيه أموال جزيلة وأملاك كثيرة، وظهر أن ذلك من كيد النصارى، ووجد مع بعضهم آلة للإحراق نفط وغيره، فأخذوا وضربوا، فأقر بعضهم وقتل منهم ستة، وأسلم عدة على ما عندهم[2].

سنة أربع وعشرون وسبعمائة للهجرة، فِي جُمَادَى الأولى قتل الراهب توماً وَكَانَ أسلم وَصَارَ عِنْده حرص على الدّين وَلكنه ارْتَدَّ إِلَى النَّصْرَانِيَّة[3].

فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة هـ فى هر ربيع الآخر ضربوا رقبة راهب نصراني بالقاهرة بين القصرين بسبب أنه تعرض لنبي الإسلام وشهدوا عليه وثبت ذلك عند القاضى المالكي فحكم بإراقة دمه وإن أسلم وحضر القاضى بنفسه وأمر بقتله[4].

1) تاريخ ابن الوردى، جـ 2 ص 261-262

2) تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، للحسن بن حبيب، جـ 2 ص 121

3) تاريخ ابن الوردى، جـ 2 ص 269

4) تاريخ ابن الجزري ج2 ص62

يذكر ابن قاضى شهبة: فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة هـ جاء مرسوم السلطان بإلزام أهل الذمة بالشروط العُمرية وإلزامهم بالذلة والصغار وأن لا يستخدموا فى شيء من الجهات فأسلم منهم جماعة طوعاً وكرهاً، وهدمت كنيسة بشبرا كان يعظمها النصارى كثيراً ورسم السلطان أن من كان فى بلده رزق لكنيسة أو دير يأخذه، قال بعض المؤرخين المصريين وكان ما أخذ من ذلك ما ينيف عن عشرين ألف فدان وكان ذلك برأي الأمير طاز وضرغمتش[1]

ويذكر المقريزي: في سنة خمس وخمسين وسبعمائة هجرية وفيه رسم بعمل أوراق بالرزق الأحباسيه التي في إقطاعات الأمراء، وفي غير ذلك من أراضي مصر، مما هي موقوفة على الكنائس والديارات، فجاءت خمسة وعشرين ألف فدان. فأنعم على كل أمير بما في إقطاعه من ذلك، ورسم لجماعة من الفقهاء بشىء من هذه الرزق.

وفي هذه السنة: كانت واقعة النصارى، وذلك أنهم كانوا قد تعاظموا، وتباهوا بالملابس الفاخرة، ومن الفرجيات المصقولة والبقيار الذي يبلغ ثمنه ثلاثمائة درهم، والفرط التي تلفها عبيدهم على رؤوسهم. بمبلغ ثمانين درهماً الفوطة. وركبوا الحمير الفره ذات الأثمان الكثيرة، ومن ورائهم عبيدهم على الأكاديش. وبنوا الأملاك الجليلة في مصر والقاهرة ومتنزهاتها، واقتنوا الجواري الجميلة من الأتراك والمولدات، واستولوا على دواوين السلطان والأمراء، وزادوا في الحمق والرقاعة، وتعدوا طورهم في الترفع والتعاظم. وأكثروا من أذي المسلمين وإهانتهم، إلى أن مر بعضهم يوماً على الجامع الأزهر بالقاهرة، وهو راكب بخف ومهماز وبقيار طرح سكندرى على رأسه، وبين يديه طرادون يبعدون الناس عنه، وخلفه عدة عبيد على أكاديش، وهو في تعاظم كبير. فوثب به طائفة من المسلمين، وأنزلوه عن فرسه، وهموا بقتله، فخلصه الناس من أيديهم. وتحركت الناس في أمر النصارى وماجوا، وانتدب عدة من أهل الخير لذلك، وصاروا إلى الأمير طاز الشريف أبى العباس الصفراوي، وبلغوه ما عليه النصارى مما يوجبه نقض عهدهم، وانتدبوه لنصرة الإسلام والمسلمين. فانتفض الأمير طاز لذلك، وحدث الاصرين شيخو وصرغتمش وبقية الأمراء في ذلك بين يدي السلطان، فوافقوه جميعاً، وكان لهم يومئذ بالإسلام وأهله عناية. ورتبوا قصة على لسان المسلمين، قرئت بدار

---

1) تاريخ ابن قاضي شهبة ج3 ص60-61

العدل على السلطان بحضرة الأمراء والقضاة وعامة أهل الدولة. فرسم بعقد مجلس للنظر في هذا الأمر، ليحمل النصارى واليهود على العهد الذي تقرر في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وطلب بطرك النصارى ورئيس اليهود، وحضرت قضاة القضاة وعلماء الشريعة، وأمراء الدولة، وجيء بالبطرك والرئيس، فوقفا على أرجلهما وقرأ العلائى على ابن فضل الله كاتب السر نسخة العهد الذي بيننا وبين أهل الذمة، بعد ما الزموا بإحضاره، وهو الا يحدثوا في البلاد الإسلامية وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة، ولا يجددوا منها ما خرب، ولا يمنعوا من كنائسهم التي عاهدوا عليها أن ينزل بها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه. ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يمنعوهم من الإسلام إن أرادوا، وإن أسلم أحدهم لا يردوه. ولا يتشبهوا بشيء من ملابس المسلمين ويلبس النصراني منهم العمامة الزرقاء عشر أذرع فما دونها، واليهودي العمامة الصفراء كذلك، ويمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين. ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يكتنوا بكناهم، ولا يتلقبوا بالقابهم، ولا يركبوا على سرج، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يركبوا الخيل والبغال، ويركبون الحمير عرضاً بالكف من غير تزيين ولا قيمة عظيمة لها. ولا ينقشوا خواتمهم بالعربية، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم، والمرأة من النصارى تلبس الإزار المصبوغ أزرق، والمرأة من اليهود تلبس الإزار المصبوغ بالأصفر. ولا يدخل أحد منهم الحمام الا بعلامة مميزة عن المسلم في عنقه، من نحاس أو حديد أو رصاص أو غير ذلك، ولا يستخدموا مسلماً في أعمالهم. وتلبس المرأة السائرة خفين أحدهما أسود والآخر أبيض، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يرفعوا بناء قبورهم، ولا يعلوا على المسلمين على المسلمين في بناء، ولا يضربوا بالناقوس الا ضرباً خفيفاً، ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم. ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ولا مسلمة، ولا ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا يمشوا وسط الطريق توسعة للمسلمين، ولا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يدلوا على عورات المسلمين. ومن زنى بمسلمة قتل، ومن خالف ذلك فقد حل منه ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

وكل من مات من اليهود والنصارى والسامرة، ذكراً كان أو أنثى، يحتاط عليه ديوان المواريث الحشرية، بالديار المصرية وأعمالها وسائر الممالك الإسلامية، إلى أن يثبت ورثته ما يستحقونه بمقتضى الشرع الشريف. فإذا استحق يعطونه. بمقتضاه، وتحمل البقية لبيت

مال المسلمين، ومن مات منهم ولا وارث له يحمل موجوده لبيت المال. ويجرى على موتاهم الحوطة من ديوان المواريث ووكلاء بيت المال مجرى من يموت من المسلمين، إلى أن تبين مواريثهم. وكان هذا العهد قد كتب في رجب سنة سبعمائة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون، فلما انتهى العلائى على بن فضل الله كاتب السر من قراءته تقلد بطرك النصارى وديان

اليهود حكم ذلك، والتزما بما فيه، وأجابا بالسمع والطاعة. ثم جال الحديث في أمر اليهود والنصارى وإعادة وقائعهم الماضية، وأنهم بعد التزامهم أحكام العهد يعودون إلى ما نهوا عنه. فاستقر الحال على أنهم يمنعون من الخدم في جميع الأعمال، ولا يستخدم نصراني ولا يهودي في ديوان السلطان، ولا في شيء من دواوين الأمراء، ولو تلفظ بالإسلام، على أن أحداً منهم لا يكره على الإسلام، فإن أسلم برضاه، لا يدخل منزله، ولا يجتمع بأهله، الا إن اتبعوه في الإسلام، ويلزم أحدهم إذا أسلم. بملازمة المساجد والجوامع. وأن تكون عمامة النصراني واليهودي عشر أذرع، ويلزموا بزيادة صبغها، والا يستخدموا مسلماً، وأن يركبوا الحمير بالآكل، وإذا مروا بجماعة من المسلمين نزلوا عن دوابهم، وأن يكون قيمة حمار أحدهم أقل من مائة درهم، وأن يلجأوا إلى أضيق الطرق، ولا يكرموا في مجلس، وأن تلبس نساؤهم ثياباً مغيرة الزي إذا مررن في الطرقات، حتى أخفافهن تكون في لونين، ولا يدخلن حمامات المسلمين مع المسلمات. وكتب بذلك كله مراسيم سلطانية سار بها البريد إلى البلاد الإسلامية، فكان تاريخها ثاني عشري جمادى الآخرة، وقرىء منها مرسوم. بمجلس السلطان في يوم الخميس خامس عشريه. وركب من الغد يوم الجمعة سادس عشريه الأمير سيف الدين قشتمر الحاجب، ومعه الشريف شهاب الدين المنشيء بالمراسيم السلطانية إلى البلاد الإسلامية. وقرىء مرسوم بجامع عمرو من مدينة مصر، وآخر بجامع الأزهر من القاهرة، فكان يوماً عظيماً هاجت فيه حفاظ المسلمين، وتحركت سواكنهم، لما في صدورهم من الحنق على النصارى، ونهضوا من ذلك المجلس بعد صلاة الجمعة، وثاروا باليهود والنصارى، وأمسكوهم من الطرقات، وتتبعوهم في المواضع وتناولوهم بالضرب، ومزقوا ما عليهم من الثياب، وأكرهوهم على الإسلام، فيضطرهم كثرة الضرب والإهانة إلى التلفظ بالشهادتين خوف الهلاك. فإنهم زادوا في الأمر حتى أضرموا النيران، وحملوا اليهود والنصارى، والقوهم

فيها. فاختفوا في بيوتهم، حتى لم يوجد منهم أحد في طريق ولا ممر، وشربوا مياه الآبار لامتناع السقائين من حمل الماء من النيل اليهم. فلما شنع الأمر نودي في القاهرة ومصر الا يعارض أحد من النصارى أو اليهود، فلم يرجعوا عنهم. وحل بهم من ذلك بلاء شديد، كان أعظمه نكاية لهم أنهم منعوا من الخدم بعد إسلامهم، فإنهم كانوا فيما مضى من وقائعهم إذا منعوا من ذلك كادوا المسلمين لإظهار الإسلام، ثم بالغوا في إيصال الأذي لهم بكل طريق، بحيث لم يبق مانع يمنعهم لأنه صار الواحد منهم فيما يظهر مسلماً ويده مبسوطة في الأعمال، وأمره نافذ، وقوله ممتثل. فبطل ما كانوا يعملون، وتعطلوا عن الخدم في الديوان، وامتنع اليهود والنصارى من تعاطى صناعة الطب. وبدل الأقباط جهدهم في إبطال ذلك، فلم يجابوا اليه. ثم لم يكف الناس من النصارى ما مر بهم حتى تسلطوا على كنائسهم ومساكنهم الجليلة التي رفعوها على أبنية المسلمين، فهدموها. فازداد النصارى واليهود خوفاً على خوفهم، وبالغوا في الاختفاء، حتى لم يظهر منهم أحد في سوق ولا في غير. ثم وقعت قصص على لسان المسلمين بدار العدل تتضمن أن النصارى استجدوا في كنائسهم عمال، ووسعوا بناءها، وتجمع من الناس عدد لا ينحصر، واستغاثوا بالسلطان في نصرة الإسلام، وذلك في يوم الاثنين رابع عشر رجب. فرسم لهم أن يهدموا الكنائس المستجدة، فنزلوا

يداً واحدة وهم يضجون. وركب الأمير علاء الدين على بن الكوراني والى القاهرة ليكشف عن صحة ما ذكروه، فلم يتمهلوا بل هجموا على كنيسة بجوار قناطر السباع، وكنيسة للأسرى في طريق مصر، ونهبوهما وأخذوا ما فيهما من الأخشاب والرخام وغير ذلك، ووقع النهب في دير بناحية بولاق التكرور. وهجموا على كنائس مصر والقاهرة، وأخربوا كنيسة بحارة الفهادين من الجوانية بالقاهرة. وتجمعوا لتخريب كنيسة بالبندقانيين من القاهرة، فركب والي القاهرة، فركب والي القاهرة ومازال حتى ردهم عنها، وتمادى هذا الحال حتى عجزت الحكام عن كفهم.

فلما كان في أخريات رجب بلغ الأمير صرغتمش أن بناحية شبرا الخيام كنيسة فيها أصبع الشهيد التي ترمى كل سنة في النيل، فتحدث مع السلطان فيه. فرسم بركوب الحاجب والوالي إلى هذه الكنيسة وهدمها، فهدمت ونهبت حواصلها، وأخد الصندوق الذي فيه أصبع الشهيد، وأحضر إلى السلطان وهو بالميدان الكبير قد أقام به. فأضرمت النار، وأحرق

الصندوق. بما فيه، ثم ذرى رماده في البحر. وكان يوم رمى هذا الأصبع في النيل من الأيام المشهودة، فإن النصارى كانوا يجتمعون من جميع الوجه البحري ومن القاهرة ومصر في ناحية شبرا، وتركب الناس المراكب في النيل، وتنصب الخيم التي يتجاوز عددها الحد في البر، وتنصب الأسواق العظيمة، ويباع من الخمر ما يودون به ما عليهم من الخراج، فيكون من المواسم القبيحة. وكان المظفر بيبرس قد أبطله كما ذكره، فأكذب الله النصارى في قولهم أن النيل لا يزيد ما لم يرم فيه أصبع الشهيد، وزاد تلك السنة حتى بلغ إلى أصبع من ثمانية عشر ذراعاً. ثم سعت الأقباط حتى أعيد رميه في الأيام الناصرية، كما تقدم، فأراح الله منه بإحراقه. وأخذ عباد الصليب في الإرجاف بأن النيل لا يزيد في هذه السنة، فاظهر الله تعالى قدرته، وبين للناس كذبهم، بأن زاد النيل زيادة لم يعهد مثلها كما سيأتي ذكره.

وكثرت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري بدخول النصارى في الإسلام، ومواظبتهم المساجد، وحفظهم للقرآن، حتى أن منهم من ثبتت عدالته وجلس مع الشهود. فإنه لم يبق في جميع أعمال مصر كلها قبلها وبحريها كنيسة حتى هدمت، وبنى مواضع كثير منها مساجد. فلما عظم البلاء على النصارى، وقلت أرزاقهم، رأوا أن يدخلوا في الإسلام. ففشا الإسلام في عامة نصارى أرض مصر، حتى أنه أسلم من مدينة قليوب خاصة في يوم واحد أربعمائة وخمسون نفراً، وممن أسلم في هذه الحادثة الشمس القسى، والخيصم. وحمل كثير من الناس فعلهم هذا على أنه من جملة مكرهم، لكثرة ما شنع العامة في أمرهم، فكانت هذه الواقعة أيضاً من حوادث مصر العظيمة.[1]

في سنة سبعة عشر وثمانمائة هـ وفيه اشتد السلطان في أيام جلوسه للحكم بين الناس على المباشرين من الكتاب الأقباط، وضرب جماعة منهم بالمقارع، ووضع منهم، ولهج بذمهم، فذعروا ذعراً زائداً. وفيه ألزم اليهود بمبلغ ألفي مثقال من الذهب، وألزم النصارى بثمانية عشر ألف مثقال، لتتمة عشرين ألف مثقال، وذلك في نظير تفاوت ما كانوا يقومون به فيما

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 212-215

مضى من الجزية، وتولى استخراج ذلك منهم زين الدين قاسم البشتكي المعروف بسيدي قاسم.[1]

وفي سنة ثلاث وأربعمائة هـ أمر الحاكم بأمر الله النصارى إلا الحبابرة بلبس العمائم السود والطيالسة السود، وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبان الخشب، ويكون ركب سروجهم من خشب، ولا يركب أحد منهم خيلا، وأنهم يركبون البغال والحمير، وألا يركبوا السروج واللجم محلاةً، وأن تكون سروجهم ولجمهم بسيور سود، وأنهم يشدون الزنانير على أوساطهم، ولا يستعملون مسلما، ولا يشترون عبدا ولا أمة؛ وأذن للناس في البحث عنهم وتتبع آثارهم في ذلك؛ فأسلم عدة من النصارى الكتاب وغيرهم. وشدد الأمر عليهم، ومنع المكاريون من تركيبهم، وأخذوا بتسوية السروج والخفاف ومنعوا من ركوب النيل مع نواتية مسلمين وفيه أمر النصارى بعمل ركب السروج من خشب الجميز. وقبض على جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وضربوا وحبسوا. وألزم النصارى أن يكون الصليب الذي في أعناقهم طوله ذراع في مثله، وكثرت إهاناتهم وضيق عليهم؛ وأمروا أن تكون زنة الصليب خمسة أرطال وأن يكون فوق الثياب مكشوفا، ففعلوا ذلك. ولما اشتدت عليهم الأمور تظاهر كثير منهم بالإسلام، فوقع الأمر بهدم الكنائس، وأقطعت بجميع مبانيها وبمالها من رباع وأراض لجماعة، وعملت مساجد وأذن في بعضها وبيعت أوانيها. ووجد في المعلقة بمصر وفي كنيسة بو شنوده مال جزيل من مصاغ وثياب وغيره. وتتابع هدم الكنائس؛ وكتب إلى الأعمال بهدمها فهدمت[2].

وفي سنة عشرين وخمسمائة هـ وفي شوال كان بدء أمر الراهب. وذلك أن راهباً من النصارى، يعرف بأبي نجاح ابن فنا، كتب إلى الآمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وضمن أنه يحقق في جهاتهم ما يملأ بيوت الأموال. فتقدم الخليفة بأن يمكن من الدواوين ويساعد على ما يخرجه من الحسبانات، ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية، وسيد البطريركية،

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 3 ص 169

2) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج 2 ص 93-95

ثالث عشر الحواريين. وكان الآمر لما انفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون وبقي بغير وزير دانت له الدنيا. وكان معظماً كثير الجود إلى الحد الذي لا مزيد عليه؛ فكثر الخير في تلك الأيام، وفرح الناس بالفوائد، وتردد المسافرون والتجار، وجلبت البضائع، وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافاً إلى ما كان فيها، وحسنت السيرة في الرعية؛ وأباح للناس والجنود ما كان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتجمل؛ فما برح الناس في خيرات دارة ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وضمن في جهاتهم الأموال، وحملها أولاً فأولاً؛ وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون ما يزيد عن الوصف. فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ما تحصل منهم ابتدأ يعمل في المسلمين معاملي الديوان من المشارفين والضمناء والعمال[1].

وفى سنة احدى وعشرين وخمسمائة هـ فيها كثرت مصادر الراهب للكتاب والعمال، وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال، وندب معه مقداد والي مصر وسعد الدولة والي القاهرة للشد منه؛ فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق. وأخذ الراهب يحسن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم[2].

وفى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة هـ فيها عم البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الراهب، بحيث لم يبق أحد إلا وناله مه مكروه، إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال. وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص، ويستدعي الناس للمصادرة. فطلب في بعض الأيام رجلا يعرف بابن الفرس من العدول المميزين المبجلين في الناس فأهانه وأخرق به، فخرج إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: يأهل مصر، انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه النصراني من المسلمين. فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة؛ فاتصل ذلك بخواص الخليفة، فأبلغوه إياه وخوفوه عاقبة ذلك، وطالعوه بما حل بالخلق. وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جديحو سبعين ألف دينار بخرج من مائة ألف

1) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج 3 ص 117-118

2) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج 3 ص 119

دينار، فصار يشكو، وكان كثير البضائع والتجارات والمقارضين، فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ من أستاذى القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة، يقال له لامع وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد ما حج غير مرة، وأنشأ جلبة بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج فاتفق جواز الآمر على مكانه فسأل عنه، فقيل له: إنه لا يستطيع النهوض إلى خدمتك. فدخل إليه وسأله عن حاله، فقال: شغلي بسمعة مولانا أشد علي من نفسي. فقال له الآمر: لأي شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تم عليهم من الشدة ما لا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك. وشرح له أمر الراهب ابن أبي نجاح وصاحبي الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي قيراط وأبي يعقوب إبراهيم السامري الكاتب، وما أخذوه من هذا الخادم. فحلف الآمر إنه ما علم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ، وأنه يستدعي صاحبي الديوان في كل وقت ويحلفهما على المصحف وعلى التوراة، وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفياً لما يستخرج من الأموال وليس له معهما حديث ألبتة. فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، إنهم قد اتفقوا على أذى الناس، وقد جعلك الله خليفةً في الأرض واسترعاك على عباده، وكل راع مسئول عن رعيته. فشق على الخليفة، وعمل فيه كلام الأستاذ، وخرج؛ فمات بات حتى صرف صاحبي الديوان واعتقلهما، ليستعيد منهما ما أخذاه للناس ظلماً؛ واستدعى الراهب، وكان بحضرته رجل من الأشراف، فلما حضر الراهب أنشد: إنّ الذي شرّفت من أجله ... يزعم هذا أنّه كاذب فقال الآمر للراهب: يا راهب، ماذا تقول؟ فسكت. فأمر حينئذ والي مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت. فمضى به إلى شرطة مصر، وما زال يضرب بالنعال حتى مات، فجر بكعبه إلى عند كرسي الجسر مسحوباً، وسمر على لوح، وطرح في بحر النيل؛ فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر؛ فلم يزل حتى خرج إلى البحر الملح، واشتهر ذكره، وسارت الركبان بهلاكه. وكان هذا الراهب أولا من أشمون طناح، وترهب على يد أبي إسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولى ديوان أسفل الأرض، ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولي الدولة أبي البركات يحنا بن أبي الليث، كاتب المجلس. فلما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الآمر، وبذل له في مصادرة الكتاب النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم؛ واسترسل أذاه حتى شملت مضرته كل أحد وكان يعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فيلبسها ومن

فوقها غفارة ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك في كل يوم فكانت رائحته تشتم من مسافة بعيدة. وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر. ولما قتل وجد له في مقطع ثلثمائة طراحة سامان محشوة جداً لم تستعمل، قد رصت إلى قرب السقف، وهذا من نوع واحد، فكيف ما عداه! ولما قتل وعرف الآمر ما كان يعمل في الناس من أنواع الأذى خشي من الله واستحيا من الناس؛ وكره مساءلة الفقهاء من الإسماعيلية عن ذلك وعن كفارة هذا الذنب لأنه إمام، وشرط الإمام أن يكون معصوماً. فسير إلى الفقيه سلطان بن رشا شيخ الفقيه مجلى، وكان خليفة الحكم، مع من يثق به يستفتيه في أمر الراهب وما يكفر عنه، فقال: يرد ما صار إليه من الأموال إلى أربابها. فرد عليه: إني والله ما أعرفهم ولا أقدر على ذلك؛ ولكن أعتق الرقاب وأتصدق. فقال الفقيه: الخليفة قادر على أن يعتق ويتصدق ولا يتأثر لذلك، ولكن يصوم فإنه عبادة شاقة على مثله. فقال: أصوم الدهر. فقال: لا؛ ولكن الصوم الذي وصفه رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صوم يوم وفطر يوم. فقال: لا أقدر على ذلك. فقال: يصوم رجب وشعبان ورمضان. ففعل ذلك، وتحرم في صومه وبره هذه الأشهر من كل ما ينكر في الديانة[1].

وفى سنة احدى وتسعين وخمسمائة هـ وفيها جدد العزيز الصلح بينه وبين الفرنج. وفيها ورد كتاب ملك الروم، يتضمن أن كلمة الروم اجتمعت عليه، وأنه أحسن إلى المسلمين وأمرهم بإقامة الجامع، فأقيمت الصلاة فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة، وأنه عمر جانبا منه كان انهدم من ماله، فتمكن من في القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها. والتمس ملك الروم الوصية بالبطرك والنصارى، وأن يمكنوا من إخراج موتاهم بالشمع الموقد، وإظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يفرج عن أسارى الروم بمصر.[2]

وفى جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، شغب العوامّ بمصر على الملك الكامل ورجموه، وسبب ذلك أن أبا شاكر النصرانى الطبيب كان الملك الكامل يميل إليه، وكان إلى جانب

---

1) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج 3 ص 125-127

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 31

الكنيسة المعلّقة بمصر مسجد قد عفى أثره، فقصد العوام تجديده. فامتنع الكامل من إجابتهم إلى ذلك، بسبب أبى شاكر. فثار العوام، وقالوا لا بد من عمارته. فركب الملك الكامل من القلعة، وجاء إلى الكنيسة المعلّقة، وكشف المكان بنفسه. فلما شاهده، قال: ما كان هذا مسجدا قط. فاستغاث العوام، وشغبوا ورموه بالحجارة، فهرب منهم إلى القلعة[1].

سنة اثنتي عشر وستمائة هـ في أيام الملك الكامل وفيها مات ابن سوروس بن أبي غالب بطريق اليعاقبة في يوم الخميس عيد الغطاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة للشهداء " وهو الرابع عشر من رمضان " وله في البطركية مدة ست وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما، وكان أولا يتجر إلى بلاد اليمن، فغرق مرة، وجاء الخبر بأن لم يسلم سوى بحشاشته ، وكان لأولاد الجباب معه مال ، فأيسوا منه فلما اجتمع بهم أعلمهم أن مالهم سلم ، فإنه كان قد عمله في مقابر من خشب، وسمرها في المراكب ، وأحضره إليهم ، فتميز عندهم بذلك ، حتى مات البترك مرقص بن زرعة، فتحدث ابن سوروس في البتركية للقس أبي ياسر، وكان مقيما بالعدوية فحسن له بنو الجباب أن يقوم هو بأمر البتركية، فتحدث في ذلك ، وزكوه فتولى، وكان معه يومئذ سبعة عشر ألف دينار مصرية، فرقها في مدة بطركيته على الفقراء، وأبطل الديارية، ومنع الشرطونية، ولم يأكل في ولايته كلها لأحد من النصارى خبزا، ولا قبل لصغير ولا لكبير منهم هدية، وكان القس داود بن يوحنا " المعروف بابن لقلق، من أهل الفيوم " ملازما للشيخ نشوء الخلافة أبي الفتوح بن الميقاط ، كاتب الجيوش العادلية، وكان يسافر معه ويصلى به ، فلما مات ابن سوروس سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولي القس داود البتركية، فأجابه وكتب له توقيعا بذلك ، من غير أن يعلم الملك الكامل ، فلم يعجب بعض النصارى ولاية داود، وقام منهم رجل يعرف بالأسعد بن صدقة، كاتب دار التفاح بمصر، وجمع كثيرا من النصارى العصارين بمصر، وطلع في الليلة التي وقع الاتفاق على تقدمة القس داود في صبيحتها، ومعه الجمع إلى تحت قلعة الجبل، واستغاثوا بالملك الكامل ، وقالوا : " إن هذا الذي يريد أبو الفتوح يعمله بطركا بغير أمرك ما يصلح ، ونحن في شريعتنا لا يقدم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه " . فخرج إليهم الأمر من عند الكامل بتطييب قلوبهم، وفي

1) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويرى، جـ 29 ص 63

سحر النهار ركب القس داود، ومعه الأساقفة " وعالم كبير من النصارى " ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر، وكان ذلك يوم الأحد عيد الزيتونة. فركب الملك الكامل إلى أبيه، وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود، ولا يجوز عندهم تقدمته إلا باتفاق جمهورهم. فسير الملك العادل إلى الأساقفة ليحضرهم حتى يتحقق الأمر، فوافاهم الرسل مع القس داود، عند زقاق كنيسة الحمراء، فأحضرت الأساقفة إلى الملك العادل، ودخل داود إلى كنيسة الحمراء، وانحل أمره، وخلا الكرسي من بطريق تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما.[1]

وفى مدة مملكة الملك الناصر أيضاً: أن قدم للنصارى اليعاقبة بطرك يسمى يونس ابن ولى الدولة أبى سعيد السكرى، ابن أخت البطرك يونس ابن أبى غالب، وهو السابع والسبعون من البطاركة.

قدم قمصاً بكنيسة المعلقة بمصر ويوم الأحد سادس طوبة سنة تسعمائة ثمان وسبعين لدقلديانوس، يوافقه ثامن صفر سنة ستمائة وستين للهجرة، وكمل بالأسكندرية بأبسوطير يوم الأحد ثالث عشر طوبة وبدير أبى مقار يوم الأحد العشرين منه، ووصل وقدس بالمعلقة بمصر يوم الأحد رابع أمشير منها، وكان قبل تكريز-المذكور-قدم غبريال ابن أخت أسقف طمبدى قمصاً بكنيسة المعلقة بمصر، فأبطله هذا الأب ووزن خمسة آلاف دينار عيناً، فعند ذلك عزل الصاحب بهاء الدين ابن حنا، غبريال، ثم بعد ذلك أحضر الصاحب بهاء الدين-المذكور-غبريال-المذكور-من دير العزبة وأرسله إلى الأسكندرية فقدم بها يوم الأحد ثالث بابة سنة تسعمائة خمس وثمانين لدقلديانوس، الموافق حادى وعشرين المحرم سنة ستمائة سبع وستين للهجرة

وفى أيام أنبا يونس قرر على النصارى خمسمائة ألف دينار عيناً وذلك فى شهر رمضان سنة ستمائة ثلاث وستين للهجرة.

ثم أعيد إلى رياسته، أعاده الصاحب بهاء الدين ابن حنا-المقدم ذكره-فطلع إلى كنيسة الست السيدة بالمعلقة بمصر فى يوم الأحد ثالث عشر هاتور سنة تسعمائة سبع وثمانين للشهداء، وهو ثالث وعشرين ربيع الأول سنة ستمائة تسع وستين للهجرة، وتنيح فى آخر نهار الاثنين

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 50-51

خامس وعشرين برمودة سنة ألف وتسع للشهداء، الموافق ثالث عشر جمادى الأول سنة ستمائة اثنتين وسبعين للهجرة، ودفن بدير النسطور بظاهر مصر.
ثم كرز غبريال الشامى-المعروف بالرشيد فرج الله ابن أخت بطرس أسقف طنبدة-وهو الثامن والسبعون من البطاركة، كان كرز قمصاً بكنيسة المعلقة بمصر يوم الأحد ثانى وعشرين كيهك سنة تسعمائة وثمان وسبعين لدقلديانوس، موافق رابع وعشرين المحرم سنة ستمائة وستين للهجرة، ثم بطل، وقدم أنبا يونس عوضه على ما تقدم شرحه، ثم عزل أنبا يونس وأحضر غبريال-المذكور-من دير أنطونيوس ببرية العربة، وأرسل إلى الأسكندرية، وقدم بها بطريركاً بكنيسة أبسوطير يوم الأحد ثالث بابة سنة تسعمائة وخمس وثمانين، موافق حادى وعشرين المحرم سنة ستمائة سبع وستين للهجرة، وكمل بدير أبى مقار يوم الأحد عاشر بابة، ووصل إلى كنيسة ميكائيل رأس الخليج بمصر وكرز بها يوم السبت ثالث وعشرين بابة وكان يوم رأس سنة، ودخوله ستين سنة شمسية، وكرز بالمعلقة بمصر يوم الأحد رابع وعشرين بابة، ثم عزله الصاحب بهاء الدين ابن حنا ببحكم أنه لم يرض بقاعدة فى المقرر على النصارى، وأعاد يونس، وطلع المعلقة يوم الأحد ثالث عشر هاتور سنة تسعمائة سبع وثانين للشهداء، يوافقه ثالث وعشرين ربيع الأول سنة ستمائة تسع وستين للهجرة، واختفى غبريال بالقاهرة سنة واحدة وربع السنة، ثم خرج بإذن الصاحب بهاء الدين-المذكور-وسكن بكنيسة الأرمن بالزهرى سنتين، وبكنيسة أبى مرقورى بمصر سنة، وتنيح وقت العصر حادى عشر أبيب سنة تسعمائة وتسعين للشهداء، موافق ثامن وعشرين ذى الحجة سنة ستمائة اثنتين وسبعين للهجرة، ودفن بكنيسة أبى مرقورى بمصر[1].

وفى سنة ثلاثة وستين وستمائة هـ وكان قد كثر الحريق بالقاهرة ومصر في مدة سفر السلطان، وأشيع أن ذلك من النصاري. ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة، ووجد في بعض المواضع التي احترقت
نفط وكبريت. فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم. فجمع منهم عالم عظيم في القلعة، وأحضرت الأحطاب والحلفاء،

1) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل، جـ1 ص 235-238

وأمر بإلقائهم في النار، فلاذوا بعفوه وسألوا المن عليهم. وتقدم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العساكر فشفع فيهم، على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار. فأفرج عنهم السلطان، وتولي البطرك توزيع المال، والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات، ولا يخرجوا عما هو مرتب على أهل الذمة، وأطلقوا.[1]

فى سنة تسع وسبعون وستمائة هـ فى شهر ربيع الأول وفيه توجه الأمير ناصر الدين بن المحسني الجزرى والبطريرك أنبا سيوس رسلاً إلى الملك الأشكرى[2]، وفى سنة ثمانين وستمائة هـ نسخة الحلف بين السلطان الملك المنصور والملك الأشكرى صاحب القسطنطينية ولما عربت هذه اليمين كتبت نسخة يمين للسلطان الملك المنصور صورته: أقول أنا فلان وأنا فلان " كر ميخائيل الدوقس الانجالس الكمنينوس البالاولوغس" ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى أكبر ملوك المسيحية -أبقاه الله-أن يكون بين مملكته وبين عز سلطاني محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ولا تزول بزوال السنين والأعوام وأكد ذلك بيمين حلف عليها تاريخها يوم الخميس ثامن شهر آيار ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم بحضور رسول عز سلطاني الأمير ناصر الدين بن الجزرى والبطرك الجليل أنبا سيوس بطرك الأسكندرية وحضر رسولاه فلان وفلان إلى عز سلطاني لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطاني وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والإستمرار[3]

ويذكر أبي الفخر الصقاعي: حكى ابن المجير نائب الحسبة بمصر لأمين الدين بن الرقاقي بدمشق بحضور مسطرها أنه أقام سيف الدين أبو بكر المعروف بابن أسباسلار والي مصر أيام لايدخل عليه من هذا الباب شيء وكان ةعليه نفقة وكلفة، وأتفق أنه أوجب الشنق على قوم بدار العدل فشنقوا فى يوم فأستدعى سيف الدين المذكور بعض الرجال البياتين على المشانيق ليلاً ويعلقه على باب كنيسة المعلقة بمصر الذى بطرك النصارى القبط ساكن بها ويعرفه بما فعله فى الليل، فللوقت حضر إليه وعرفه بتعليق الرجل فى سُلم الكنيسة، قال:

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 178

2) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص73

3) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص207

فركب للوقت، وذلك الرجل معه نفرين ثلاثة وحضر إلى تحت سلم الكنيسة وأرسل إلى البطرك دقو عليه وطلبوه يكلمه وكان قد أقعد، فحملوه غلمانه وأنزلوه إليه وتسالمو فقال: يا بطرك وصل الأمر إلى أنة تشنق المسلمين فى بابك؟ فلم يجاوبه إلى أن عاد إلى مكانه أخذ صُرة فيها ثلثمائة دينار ونزل إليه وتشكر له وقال لذلك الرجل: احمل هذا وأرميه فى البحر، فأعاده إلى مكانه فى الليل، وله وقائع كثيرة مثل هذه وتوفى سيف الدين المذكور فى سنة تسع وسبعين وستمائة هـ بمصر[1]

فى سنة ست وثمانين وستمائة هـ عقد صلح الجنوية طرابلس وهذه نسخة الأسقف الذى حَلَّفَ الرَّسُول: حلف الرسول/ المذكور ألبرط أسبينولا ومن حضر صحبته من القناصلة وتجار الجنوية على نسخة هذه اليمين والصلح والفصول المشروحة فيها بتاريخ رابع عشر آيار سنة ستة آلاف وسبعمائة وثمانية وتسعين بحضورى وأنا الحقير بطرس أسقف مصر والإنجيل المطهر بين يديّ ويد الرسول وهو واقف مكشوف الرأس وكتبت ذلك بخط يدي شهادة عليهم بأنهم حلفوا اليمين العظيمة على الإنجيل والصليب بحضور من يضع خطه من الكهنة والرهبان

حضرت ذلك وشهدت به وكتب الوجيه كان وهو الآن أرساني غيره: حضرت ذلك وشهدت به وكتب أرساني الريس بدير القصير، غيره : حضرت ذلك وشهدت به وكتبه الثرس متى، غيره: حضر ذلك وشهد به ميخائيل الراهب من دير طور سينا، وبعد ذلك بالفر نج خطوط جماعة: بونفاص القنصل الجنوى، أنسكيز صاحب السفينة التاجر، دانيال شعار التاجر، رافو القنصل، المحتشم دنيسر بركة تنكره.

تحررت هذه الفصول المذكورة فى يوم الأحد ثاني جمادى الأول سنة تسع وثمانين وستمائة هـ أحسن الله خاتمهتا وقرأ ما فيها من القلم الفرنجي المنقول إلى العربي شمس الدين عبدالله المنصورى وترجم عليه لتحقيق التعريب والشهادة بصحته سابق الدين الترجمان وعز الدين أيبك الكبكي الترجمان فى التاريخ المذكور.

1) تالي كتاب وفيات الأغيان لابن أبي الفخر الصقاعي ص21-22

نسخة اليمين التى حلف عليها الرسل وكتبوا خطوطهم عليها بالفرنجي بحضور الأسقف/ والله والله وحق المسيح وحق المسيح وحق الصليب وحق الآب والابن والروح القدس وحق الست مارية أم النور وحق الأناجيل الأربعة التى نقلها متى ولوقا ومرقص ويوحنا وحق التلاميذ والحواريين وحق الصوت الذى نزل على نهر الأردن فزجره وحق ديني ومعبودي واعتقادي فى دين النصرانية وحق اللاهوت والناسوت والثالوث وحق السيد يسوع المسيح الرب المعبود إنني لم أخف شيئاً مما وجد لهؤلاء التجار المسلمين من أموالهم ولا بضائعهم ولا أطلعت على أنه بقى أحد منهم فى الأسر ولا على أنه بقى لهم شيء عند أحد من الجنوية وأخفيته وكاسرت عنه وإنني والله وحق المسيح لم أحضر معي ولا مع رفقتي مبلغاً عوض ما عُدم لهم من الكمون ولا من الجنوية أخذته غير ما أحضرته ثمن السكر والكتان والفلفل وثمن المركب وهو ألف وستمائة دينار ولم أحضر زيادة على ذلك وأن هذه الجملة المحضرة هى التى أُبِيعَ بها المركب والسكر والفلفل والمركب وعدتها من غير زيادة على ذلك ولا نقص وإن ظهر بعد هذه اليمين ما يخالف شيئاً منها وظهر أن نحن أخفينا أحداً من هؤلاء المسلمين أو شيئاً من مال هؤلاء التجار أو خبأناه أو تركناه ورائنا ولم نحضره أو أحضرنا صحبتنا مبلغاً عوض ما عدم لهم وشهد علينا بذلك أحد من جنسنا أو ممن يُقبل قوله من غير جنسنا كان علينا غرامته وقيمته قيمة ما يظهر وإنني والله وحق المسيح ما أخفيت شيئاً من ذلك وإن كنت قد أخفيت شيئاً من ذلك من مالهم وبضائعهم أو أعلم من أخفاه فأكون محروماً من ديني معتقداً ما يخالف الرب المسيح ولاهوته وإنني لم أعلم غير ذلك.

نسخة الشهادة عليهم

شهد-وأنا بطرس أسقف مصر الملكي-على جميع ما فى أعلى هذه الورقة على رسول الجنوية وإسمه ألبرت أسبينولا وكتبت خطي نهار الخميس تاسع آيار سنة ست آلاف وسبعمائة وثمانية وتسعين[1].

فى سنة الثانية والتسعين بعد الستمائة: فيها: كانت واقعة أهل الذمة وإسلام كثير منهم، وكانوا في الدولة المنصورية في غاية الذلة والإهانة خصوصا في أيام الشجاعي الذي كان له

1) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص167-169

حرمة عظيمة على العامة والكتاب وأرباب الأقلام حتى أنه كان أكبر من فيهم يكون راكب حمار وزناره في وسطه، ولا يجسر يتحدث مع مسلم وهو راكب، ولا يمكن أن يرى عليه فرجية مصقولة ولا بيضاء إلا القليل منهم مع ذلة ومسكنة، فلما تغيرت الدولة وملك الأشرف وحدثت الأمور وانتشأت الخاصكية وكبرت نفوسهم، كبر قدر النصارى أيضا بسبب بعض الخاصكية الذين يحامونهم، وكان من جملة الخاصكية مملوك يعرف بعين الغزال، وكان صاحب صورة جميلة جدا، وكانت له منزلة ومكانة عند السلطان، واتفق أن بعض النصارى خدم عنده، واتفق أنه لقى يوما عند زين العابدين سمسارا باع قماشا لتاجر، وعلى التاجر دين للديوان، فلما رآه السمسار نزل وباس رجله، وشرع النصراني يسبه ويشتمه، والرجل يعتذر إليه فلا يقبل منه، ثم صاح لغلامه وقال له: انزل وكتف هذا الفاعل الصانع، فنزل إليه وكتفه، فاجتمعت عليه خلق وما وصل إلى الصليبة حتى اجتمع عليه خلق كثير، وهم يسألون النصراني أن يطلقه وهو يأبى عليهم، فقاموا عليه وأرموه من حماره وأطلقوا الرجل، وكان قد قرب إلى اصطبل أستاذه، فجرى غلامه وأتى إلى الاصطبل وأخبر أهلها بما جرى، فخرجت الغلمان والوشاقية وخلصوا النصراني منهم، والناس يصيحون ما يحل ما يحل حتى وصلت صيحتهم وغلبتهم إلى تحت القلعة، وصاحوا نصر الله السلطان، فسمع السلطان بذلك، فأرسل جماعة من الوشاقية ليكشفوا الخبر، فعرفوهم بذلك، فطلب عين الغزال فقال: ويلك تسلط غلمانك على المسلمين لأجل كاتب نصراني، فخشى عين الغزال فقال: يا خوند أنا في خدمة السلطان ها هنا ما أعرف هذه القضية، فغضب السلطان وطلب الوشاقية وقال: انزلوا هاتوا كل من في اصطبل الأمير، وقولوا للعوام: رسم لكم السلطان أن أي نصراني رأيتموه أحضروه إلي، وطلب الشجاعي والنائب، وقال: لا تخلوا نصرانيا حتى تحضرون به إلي، وقرر معهم أن ينادى أن أميرا أو غيره لا يستخدم نصرانيا ولا يهوديا إلا إذا خرج عن دينه وتمسك بالإسلام، وأمر لسائر الأمراء أن كل من عنده كاتب نصراني يعرض عليه الإسلام، فإن أبى يضرب عنقه وإن أسلم يستخدمه، ورسم للنائب أن يعرض سائر المباشرين في ديوان السلطان ويفعل فيهم ما رسم به من الذي ذكرناه، فهربت جماعة كثيرة من الكتاب، وسمعت العوام بذلك، فتتبعوا آثارهم وهجموا عليهم في بيوتهم، وأخرجوا

حريمهم مسبيات، وقتلوا جماعة منهم بأيديهم، وبلغ ذلك إلى السلطان، فأمر الوالي أن ينادى أن أي من نهب بيت نصراني يشنق، ومسكوا جماعة من الحرافيش فأشهروهم.

وكان أعظم ما جرى في مصر بقصر الشمع، والكنيسه المعلقة، وعدمت أموال كثيرة للنصارى ولليهود أيضا، فلما نادى السلطان كفوا عن ذلك، وجمعوا جماعة من الكتاب الذين يكتبون في دواوين الأمراء وديوان السلطان ودخل بهم النائب إلى السلطان، فأوقفهم من بعيد، فرسم للشجاعي وأمير جندار أن ينزلا سوق الخيل ويحفرا حفيرة كبيرة ويرميانهم فيها، ثم يرمون عليهم الحطب والنار، فأخذوهم وخرجوا، وتقدم النائب وقال يا خوند: هؤلاء أصحاب دواوين يحفظون الأموال والخراج، وليس للسلطان غنى عنهم. فقال أنا ما أريد أن يكون في دولتي ديوان نصراني، وما زال بيدرا يسأله إلى أن اتفق الحال على أن من أسلم منهم يستخدم ومن لا يسلم يضرب عنقه، وخرج نائب السلطان فأحضر الجميع بين يديه، وكان فيهم رجل يعرف بالمكين ابن السقاعي، ولما كان بيدرا وزيرا كان يستظرف كلامه ويمزح معه لأنه كان ظريفا صاحب هزل وجواب خاطر في وقته، فأول كلام بيدرا كان معه وقال يا جماعة: وصلت قدرتي مع السلطان في أمركم أن من أسلم خلع عليه ويباشر وظيفته ومن أبى قتل، فابتدره المكين بالجواب وقال يا خوند: أي قواد يختار القتل على هذا الدين الخرعى، والله دين نقتل عليه يروح لا كتب الله عليه سلامه، قولوا لنا الدين الذي تختارونه نروح إليه، فعلته الضحك، وكل من كان حاضرا، فقال بيدرا: ويلك نحن نختار غير دين الإسلام فقال يا خوند ما نعرف. قولوا: نحن نتبعكم، فأحضروا الشهود واستنطقهم بالشهادة، وكتبوا، ودخل بهم إلى السلطان، فألبسهم التشاريف، وجعلوا في مجلس الوزير[1].

كرز لليعاقبة بطرك يسمى تاوداسيوس المعروف بعبد المسيح ابن الفرنجى، وهو تلميذ البطرك أنبا غبريال، وهو التاسع والسبعون من البطاركة، قدم بالمعلقة يوم الأحد عاشر أبيب سنة ألف وعشرة للشهداء، موافق ثامن شعبان سنة ثلاث وتسعين وستمائة للهجرة، وسافر إلى ثغر الأسكندرية عشية يوم الأحد أول مسرى من هذه السنة، وكرز بالثغر يوم

1) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، بدر الدين العينى ص 257-258

الأحد ثامن مسرى، وتوفى يوم الخميس رابع طوبة سنة ألف وست عشرة للشهداء، ودفن بدير النسطور ببظاهر مصر، وخلا الكرسى بعده تسعة وثلاثين يوماً[1].

وفى سنة ثمانية وتسعون وستمائة ى شهر رجب من السنة وصل إلى القاهرة وزير ملك الغرب بسبب الحج، واجتمع بالسلطان وبالأمير سلار نائب السلطنة وبالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فقابلوه بالإكرام وأنعموا عليه واحترموه، فلمّا كان فى بعض الأيام جلس الوزير المغربىّ المذكور بباب القلعة عند بيبرس الجاشنكير وسلّار. فحضر بعض كتّاب النصارى، فقام إليه المغربىّ يتوهّم أنه مسلم ثم ظهر له أنه نصرانىّ فقامت قيامته، وقام من وقته ودخل إلى السلطان بحضرة الأمير سلّار وبيبرس مدبّرى مملكة الناصر محمد، وتحدّث معهم فى أمر النصارى واليهود، وأنهم عندهم فى بلادهم فى غاية الذّل والهوان، وأنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل، ولا من استخدامهم فى الجهات السلطانية والديوانية، وأنكر على نصارى ديار مصر ويهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيل، وأنهم يستخدمونهم فى أجلّ الجهات ويحكّمونهم فى رقاب المسلمين؛ ثم إنه ذكر عهد ذمّتهم قد انقضت من سنة ستمائة من الهجرة النبويّة، وذكر كلاما كثيرا من هذا النوع، فأثّر كلامه عند القلوب النّيّرة من أهل الدولة، وحصل له قبول من الخاصّ والعام بسبب هذا الكلام، وقام بنصرته الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وجماعة كثيرة من الأمراء وافقوه على ذلك، ورأوا أنّ فى هذا الأمر مصلحة كبيرة لاظهار شعائر الاسلام. فلمّا كان يوم الخميس العشرون من شهر رجب جمعوا النصارى واليهود ورسموا لهم ألّا يستخدموا فى الجهات السلطانيّة ولا عند الأمراء، وأن يغيّروا عمائمهم فيلبس النصارى عمائم زرقا وزنانيرهم مشدودة فى أوساطهم؛ وأنّ اليهود يلبسون عمائم صفرا، فسعوا الملّتان عند جميع أمراء الدولة وأعيانها، وساعدهم أعيان القبط وبذلوا الأموال الكثيرة الخارجة عن الحدّ للسلطان والأمراء على أن يعفوا من ذلك، فلم يقبل منهم شيئا. وشدّد عليهم الأمير بيبرس الجاشنكير الأستادار- رحمه الله- غاية التشديد، فإنه هو الذي كان القائم فى هذا الأمر، عفا الله تعالى عنه وأسكنه الجنة بما فعله، فإنه رفع الاسلام بهذه الفعلة وخفض أهل الملّتين بعد أن وعد بأموال جمّة فلم يفعل. قلت:

---

1) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل، جـ1 ص 324-325

رحم الله ذلك الزمان وأهله ما كان أعلى هممهم، وأشبع نفوسهم! وما أحسن قول المتنبىّ: أتى الزمان بنوه فى شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهرم ثم رسم السلطان الملك الناصر محمد بغلق الكنائس بمصر والقاهرة، فضرب على كل باب منها دفوف ومسامير، وأصبح يوم الثانى والعشرين من شهر رجب المبارك من سنة سبعمائة، وقد لبسوا اليهود عمائم صفرا، والنصارى عمائم زرقا، وإذا ركب أحد منهم بهيمة يكفّ إحدى رجليه، وبطلوا من الخدم السلطانية وكذلك من عند الأمراء؛ وأسلم لذلك جماعة كثيرة من النصارى، منهم: أمين الملك مستوفى الصّحبة وغيره. ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك فى جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات. فأمّا أهل الإسكندرية لما وصل إليهم المرسوم سارعوا إلى خراب كنيستين عندهم، وذكروا أنهما مستجدّتان فى عهد الإسلام، ثم داروا إلى دورهم فما وجدوه أعلى على من جاورها من دور المسلمين هدموه، وكلّ من كان جاور مسلما فى حانوت أنزلوا مصطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، وفعلوا أشياء كثيرة[1].

وفى سنة سبعمائة هـ كانت وقعة أهل الذمة: وهى أنهم كانوا قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا في ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلي الفاخرة، ولبسوا الثياب السرية، وولوا الأعمال الجليلة. فاتفق قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج، واجتمع بالسلطان والأمراء، وبينما هو تحت القلعة إذا برجل راكب فرساً وحوله عدة من الناس مشاة في ركابه، يتضرعون له ويسألونه ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم لا يعبأ بهم بل ينهرهم ويصيح في غلمانه بطردهم. فقيل للمغربي أن هذا الراكب نصراني فشق عليه، واجتمع بالأميرين بيبرس وسلار وحدثهما بما رآه، وأنكر ذلك وبكى بكاء كثيراً، وشنع في أمر النصارى وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض، وتذل المسلمين وتشبههم في خدمتكم وأطال القول في الإنكار وما يلزم ولاة الأمور من إهانة أهل الذمة وتغيير زيهم. فأثر كلامه في نفوس الأمراء، فرسم أن يعقد مجلس بحضور الحكام، واستدعيت القضاة والفقهاء، وطلب بطرك النصارى، وبرز مرسوم السلطان بحمل أهل الذمة على ما يقتضيه الشرع المحمدي. فاجتمع القضاة بالمدرسة الصالحية بين القصرين، وندب لذلك من بينهم

1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تغري ج 8 ص 132-134

قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، وطلب بطرك النصارى، وجماعة من أساقفتهم وأكابر قسيسهم وأعيان ملتهم، وديان اليهود وأكابر ملتهم، وسئلوا عما أقروا عليه في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عقد الذمة، فلم يأتوا عن ذلك بجواب. وطال الكلام معهم إلى أن استقر الحال على أن النصارى تتميز بلباس العمائم الزرق، واليهود بلبس العمائم الصفر، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن كل ما منعهم منه الشارع، وألزموا بما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فالتزموا ذلك وأشهد عليه البطرك أنه حرم على جميع النصرانية مخالفة ذلك والعدول عنه، وقال رئيس اليهود ودانهم: أوقعت الكلمة على سائر اليهود في مخالفة ذلك والخروج عنه وانفض المجلس، وطولع السلطان والأمراء. مما وقع، فكتب إلى أعمال مصر والشام به.

ولما كان يوم خميس العهد وهو العشرون من شهر رجب: جمع النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها، ورسم ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء، وألا يركبوا خيلاً وبغالاً، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم. ونودي بذلك في القاهرة ومصر، وهدد من خالفه بسفك دمه. فانحصر النصارى من دلك، وسعوا بالأموال في إبطال ما تقرر، فقام الأمير بيبرس الجاشنكير في إمضاء ما ذكر قياماً محموداً، وصمم تصميماً زائداً. فاضطر الحال بالنصارى إلى الإذعان، وأسلم أمين الملك عبد الله بن العنام مستوفي الصحبة وخلق كثير، حرصاً منهم على بقاء رياستهم، وأنفة من لبس العمائم الزرق وركوب الحمير. وخرج البريد بحمل النصارى اليهود فيما بين دمقلة من النوبة والفرات على ما تقدم ذكره.

وامتدت أيدي العامة إلى كنائس اليهود والنصارى، فهدموها بفتوى الشيخ الفقيه نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة. فطلب الأمراء القضاة والفقهاء للنظر في أمر الكنائس، فصرح ابن الرفعة بوجوب هدمها، وامتنع من ذلك قاضي القضاة تقي الدين محمد بن دقيق العيد، واحتج بأنه إذا قامت البينة بأنها أحدثت في الإسلام تهدم، وإلا فلا يتعرض لها، ووافقه البقية على هذا وانفضوا. وكان أهل الإسكندرية لما ورد عليهم مرسوم السلطان في أمر الذمة ثاروا بالنصارى وهدموا لهم كنيستين، وهدموا دور اليهود والنصارى التي تعلو على دور جيرانهم المسلمين، وحطوا مساطب حوانيتهم حتى صارت أسفل من حوانيت المسلمين. وهدم بالفيوم أيضاً كنيستان. وقدم البريد في أمر الذمة إلى دمشق يوم الإثنين سابع شعبان، فاجتمع

القضاة والأعيان عند الأمير أقش الأفرم وقرئ عليهم مرسوم السلطان بذلك، فنودي في خامس عشريه أن يلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر، وهددوا على المخالفة. فالتزم النصارى واليهود بسائر مملكة مصر والشام ما أمروا به، وصبغوا عمائمهم إلا أهل الكرك، فإن الأمير جمال الدين أقش الأفرم الأشرفي النائب بها رأى إبقاءهم على حالتهم، واعتذر بأن أكثر أهل الكرك نصارى، فلم يغير أهل الكرك والشوبك من النصارى العمائم البيض. وبقيت الكنائس بأرض مصر مدة سنة مغلقة حتى قدمت رسل الأشكري ملك الفرنج تشفع في فتحها، ففتحت كنيسة المعلقة بمدينة مصر، وكنيسة ميكائيل الملكية ثم قدمت رسل ملوك آخر، ففتحت كنيسة حارة وزويلة، وكنيسة نقول[1]. ويذكر بيبرس المنصورى: أنه فى هذه السنة أغلقت الكنائس بالقاهرة ومصر والجيزية، وبقيت كنائس الوجه القبلى والوجه البحرى مفتوحة لم تغلق إلى أن دخلت سنة 701 هـ ومضى منها شهور فأغلقوا بعض كنائس البلاد، أما ديارة الرهبان وصوامعهم فلم يتعرض لها بغلق ولا أذى[2].

واتفق أن بعض النصارى فتح كنيسة، فاجتمع العامة ووقفوا إلى الأمير سلار النائب، وشكوا النصارى أنهم فتحوا كنيسة بغير إذن، وأن فيهم من امتنع من لبس العمامة الزرقاء واحتمى بالأمراء. فنودي بالقاهرة ومصر أن من امتنع من النصارى من لبس العمامة الزرقاء نهب وحل ماله وحريمه، وألا يستخدم نصراني عند أمير ولا في شيء من الأشغال السلطانية ولا فيما فيه نفع. فامتدت أيدي العامة إلى اليهود والنصارى، وكادوا يقتلونهم من كثرة الصفع في رقابهم بالأكف والنعال، فامتنع الكثير منهم من المضي في الأسواق خوفاً على نفسه.[3]

وأيضاً فى سنة سبعمائة هـ وفى العشر الأوسط من شهر رجب رسمت السلطنة بإلزام أهل الذمة من النصارى واليهود بالديار المصرية والبلاد الشامية بتغيير زيهم ومنع إستخدام

---

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 315-316 ؛ تاريخ الأزمنة، البطريرك اسطفان الدويهي ص 282

وعن واقعة إلزام النصارى بلبس الأزرق واليهود بلبس الأصفر، يذكر ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل: أن الشخص الذى كان سبب ذلك هو أمين الملك ابن الغنام وهو كان نصراني مستوفى الصحبة وقد ربه الوزير صاحب الغرب-الذى كان يريد الحج-قد رأى الأمراء تقوم لذلك النصراني فغار لذلك وتحدث مع السلطان. راجع النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل، ص 397-398

2) مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية، بيبرس المنصورى ص 116-117

3) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 316

الدواوين وأرباب الأقلام منهم وأن تصبغ عمائم النصارى زرقاً واليهود صفراً وأن يركبوا الحمير خاصة مُنفَلي الأرجل والتنفيل أن يثني أحدهم رجله قدام على الدابة وأغلقت الكنائس التى لهم بالقاهرة ومصر والجيزية وبقيت كنائس الوجه القبلي والوجه البحري مفتوحة لم تغلق إإلى أن دخلت سنة 701 هـ ومضى منها شهوراً فأغلقوا بعض كنائس البلاد أم ديارة الرهبان وصوامعهم فلم يتعرض إليها بغلق ولا أذى[1].

ويذكر بدر الدين العينى أيضاً أنه فى سنة سبعمائة هـ: فيها: ألزمت السلطنة طائفتي النصارى واليهود بمصر والشام بلبس العمائم الغيار، فألبس النصارى عمائم زرقاء، واليهود عمائم صفراء، والسامرة بالشام عمائم حمراء، وغلقت كنائسها، ثم فتح بعضها أولاً فاولاً، ثم اتفق أن بعض أكابر النصارى سعى في فتح كنيسة وفتحها، واشتهر ذلك بين العامة، فوقفت حرافيش كثيرة للنائب والأمراء بسبب ذلك، وقالوا أيضاً: إن بعض النصارى تكبروا عن لبس الأزرق، وإن بعضهم احتمى ببعض أكابر الأمراء، فاقتضى رأيهم بإشهار النداء، فأمروا والي القاهرة بالمناداة في مصر والقاهرة بأن كل من لا يلبس الزرق من النصارى، أو الصفر من اليهود ينهبه العامة، ويستحل ماله وحريمه، وأن لا يستخدم نصراني عند أمير ولا في شغل من أشغال السلطنة إلا إذا أسلم، فتسلطت عليهم العامة من الحرافيش وغيرهم، فمن رأوا منهم ما عمل بموجب النداء ضربوه إلى أن كاد أن يقتلوه، وكذا إذا رأوا أحداً منهم راكباً على حمار من غير أن يثني رجله عليها، فصار كثير منهم لا يجترئ على الركوب ويمشي في الطريق وهو خائف على نفسه وأسلمت منهم جماعة كثيرة[2].

وفى سنة اثنتين وسبعمائة هـ وفيها قام الأمير بيبرس الجاشنكير في إبطال عيد الشهيد بمصر: وذلك أن النصارى كان عندهم تابوت فيه إصبع يزعمون إنه أصبع بعض شهدائهم، وأن النيل لا يزيد ما لم يرم فيه التابوت، فتجتمع نصارى أرض مصر من سائر الجهات إلى ناحية شبرا، ويخرج أهل القاهرة ومصر، وتركب النصارى الخيول للعب، ويمتلي البر بالخيم، والبحر بالمراكب المشحونة بالناس، ولا يبقى صاحب غناء ولا لهو حتى يحضر، وتتبرج زواني

1) مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية لبيبرس المنصوري ص116-117

2) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، بدر الدين العينى ص 389

سائر البلاد. ويباع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم، حتى إنه في سنة باع رجل نصراني بمائتين وعشرين ألف درهم خمراً، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ممن الخمر، وتثور في هذا اليوم الفتن ويقتل عدة قتلى، فأمر الأمير بيبرس بإبطال ذلك، وألا يرمى التابوت في النيل، وأخرج الحجاب والولي حتى منعوا الناس من الاجتماع، بعد أن كتب إلى جميع الولاة بالنداء إلا يحرج أحد إلى عمل عيد الشهيد. فشق ذلك على النصارى، واجتمعوا مع الأقباط الذين أظهروا الإسلام، وصاروا إلى التاج بن سعيد الدولة لتمكنه من الأمير بيبرس، فصار إليه وخيله من انكسار الخراج بإبطال العيد ومن عدم طلوع النيل، فلم يلتفت إليه وصمم على إبطاله، فبطل1.

ويذكر بدر الدين العينى أن فى السنة ذاتها اثنتين وسبعمائة هـ منها: أن النصارى كانوا يزعمون أن كبراءهم من علمائهم كانوا يزعمون أن إصبعاً من أصابع أحد الحواريين موضوعاً في تابوت، فإذا جاء أوان احتياجهم إلى زيادة النيل يرمون ذلك الإصبع في البحر فيزداد، ومتى لم يرموه لم يزد شيئاً، وكان يجتمع في ذلك اليوم الذي يرمى الإصبع فيه خلق من سائر الأقاليم من أهل الملة النصرانية ويركبون الخيل في ذلك اليوم ويلعبون عليها، وكان أهل مصر والقاهرة يرحلون إليهم في المراكب والخيل، ويضربون الخيام على جانبي البحر وفي وسط الجزائر، ولا يبقى شيء من الملاهي وأرباب الطرب إلاّ ويكون هناك في ذلك اليوم، ويجتمع هناك نساء خواطى، وربما يقتل فيه قتيل، وتقوم فيه فتن، وتباع فيه الخمور، بنحو مائة ألف درهم.

قال صاحب التاريخ: حكى لي بعض النصارى أنه باع في ذلك اليوم خموراً بإثني عشر ألف درهم، ولما جاء أوان عيده سيّر الأمير ركن الدين بيبرس متولي المدينة وجماعة من الحجاب ومنعوهم من ذلك، وكتب للولاة أن ينادوا في النصارى أن لا يخرج أحد في ذلك اليوم، ولما بلغ ذلك النصارى اجتمعوا بالتاج بن سعد الدولة ودخلوا عليه على أن يتحدث مع الأمير بيبرس، لما كانوا يعلمون من منزلته عنده، فشرع في الحديث معه من طريق الأموال، وأن هذا يحصل منه مال عظيم، والعادة جارية به، فلم يلتفت إلى كلامهم وقال: إن كان النيل ما يزيد إلا بهذا

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 327

الإصبع لا يزيد ولا يطلع، وإن كان الله عز وجل يتصرف فيه كيف يشاء فهؤلاء يفشرون، فأبطله[1].

وفى سنة ثلاث وسبعمائة هـ وفيها قدم رسول ملك الفرنج الريدراكون البرشلوني بهدية جليلة القدر للسلطان وللأمراء، وسأل فتح كنائس النصارى فأجيب إلى ذلك، وفتحت كنيسة اليعاقبة بحارة زويلة وكنيسة الملكيين بالبندقانيين. وجهز جوابه مع فخر الدين عثمان أستادار الأمير عز الدين الأفرم، فاقترض نحو الستين ألف درهم، وبالغ في التجمل. فلما كان وقت السفر دفع الرسل ملطفاً من ملكهم إلى السلطان يسأل في فك رجل ممن أسر بجزيرة أرواد، فأفرج عنه وسار معهم إلى الإسكندرية، فبعث بعض الأسرى يعرف السلطان بأن: هذا الذي أفرج عنه ابن ملك كبير، ولو أردتم فيه مركباً ملآن بالذهب لحمله إليكم في فكه، فكتب برده فعاد من الإسكندرية وقيد على ما كان. وركب الرسل البحر، حتى إذا أبعدوا عن الإسكندرية أنزلوا الأمير فخر الدين عثمان في قارب وأمروه بالعود، وأخذوا كل ما معه. فألقاه الريح على ساحل الإسكندرية، وحمل إلى مصر، فشكا إلى الأمراء أن الذي أخذ له دين عليه، فلم يلتفت أحد إليه، وكتب إلى الإسكندرية بإيقاع الحوطة على من يرد من فرنج برشلونة.[2]

وفى سنة سبعمائة وعشرة هـ وفيها وقع الحريق بالقاهرة فابتدأ من يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى وتواتر إلى سلخه، وكان ممّا احترق فيه الرّبع الذي بالشّوّايين من أوقاف البيمارستان المنصوريّ واجتهد الأمراء فى طفيه، فوقع الحريق فى حارة الدّيلم قريبا من دار كريم الدين الكبير، ودخل اللّيل واشتدّ هبوب الرياح فسرت النار فى عدّة أماكن، وبعث كريم الدين ابنه عبد الله للسلطان فعرّفه، فبعث السلطان لإطفائه عدّة كثيرة من الأمراء والمماليك خوفا على الحواصل السلطانية، فتعاظم الأمر وعجز آق سنقر شاد العمائر، والنار تعمل طول نهار الأحد، وخرج النساء مسيّبات وبات الناس على ذلك، وأصبحوا يوم الاثنين والنار تلفّ ما تمرّ به، والهدم واقع فى الدور المجاورة للحريق. وخرج أمر الحريق عن

---

1) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، بدر الدين العيني ص 430-431

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 331

القدرة البشريّة، وخرجت ريح عاصفة ألقت النخيل وغرّقت المراكب ونشرت النار، فما شكّ الناس أنّ القيامة قد قامت، وعظم شرر النّيران وصارت تسقط الأماكن البعيدة، فخرج الناس وتعلّقوا بالموادن واجتمعوا فى الجوامع والزوايا وضجّوا بالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى، وصعد السلطان إلى أعلى القصر فهاله ما شاهده، وأصبح الناس فى يوم الثلاثاء، فى أسوإ حال، فنزل أرغون النائب بسائر الأمراء وجميع من فى القلعة، وجمع أهل القاهرة ونقل الماء على جمال الأمراء، ثم لحقه الأمير بكتمر الساقى بالجمال السلطانية، ومنعت أبواب القاهرة ألّا يخرج منها سقّاء، ونقلت المياه من المدارس والحمّامات والآبار، وجمعت سائر البنّائين والنجّارين فهدمت الدور من أسفلها، والنار تحرق فى سقوفها وعمل الأمراء الألوف، وعدّتهم أربعة وعشرون أميرا بأنفسهم فى طفى الحريق ومعهم مضافوهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات، وتناولوا الماء بالقرب من السّقائين بحيث صار من باب زويلة إلى حارة الروم بحرا، فكان يوما لم ير أشنع منه، بحيث إنه لم يبق أحد إلا وهو فى شغل، ووقف الأمير أرغون النائب وبكتمر الساقى حتى نقلت الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين ناظر الخاص إلى بيت ولده علم الدين عبد الله بدرب الرصاصى، وهدم لأجل نقل الحواصل سبع عشرة دارا، وخمدت النار وعاد الأمراء؛ فوقع الصّياح فى ليلة الأربعاء بحريق آخر وقع بربع الملك الظاهر بيبرس خارج باب زويلة وبقيساريّة الفقراء، وهبّت الرياح مع ذلك فركبت الحجّاب والوالى فعملوا فى طفيها عملا إلى بعد ظهر يوم الأربعاء، وهدموا دورا كثيرة، فما كاد أن تفرغ الأمراء من إطفاء ربع الملك الظاهر، حتى وقعت النار فى بيت الأمير سلّار بخطّ بين القصرين، وإذا بالنار ابتدأت من أصل البادهنج وكان ارتفاعه من الأرض زيادة على مائة ذراع بذراع العمل، ورأوا فيه نفطا قد عمل فيه فتيلة كبيرة، فما زالوا بالنار حتى أطفئت من غير أن يكون لها أثر كبير. فنودى أن يعمل بجانب كلّ حانوت بالقاهرة ومصر زير أودنّ كبير ملأن ماء. ثم فى ليلة الخميس وقع الحريق بحارة الروم وبموضع آخر خارج القاهرة، وتمادّى الحال على ذلك لا يخلو وقوع الحريق بالقاهرة ومصر، فشاع بين الناس أنّ الحريق من جهة النصارى لمّا أبكاهم هدم الكنائس. ثم وقع الحريق فى عدّة مساجد وجوامع ودور، إلى أن كان ليلة الجمعة حادى عشرينه قبض على راهبين خرجا من المدرسة الكهاريّة بالقاهرة وقد أرميا النار بها، فأحضرا إلى الأمير علم الدين سنجر والى القاهرة وشمّ منهما رائحة الكبريت والزّيت، فأحضرهما من

الغد إلى السلطان فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا، فلما نزل بهما وجد العامة قد قبضت على نصرانىّ، وهو خارج والأثر فى يديه من جامع الظاهر بالحسينيّة ومعه كعكة خروق وبها نفط وقطران، وقد وضعها بجانب المنبر، فلما فاح الدّخان أنكروا ووجدوا النّصرانىّ وهو خارج والأثر فى يديه كما ذكر فعوقب قبل صاحبيه، فاعترف أنّ جماعة من النصارى قد اجتمعوا وعملوا النّفط وفرّقوه على جماعة ليدوروا به على المواضع، ثم عاقب الراهبين فاعترفا بأنهما من دير البغل وأنهما اللذان أحرقا سائر الأماكن نكاية للمسلمين بسبب هدم الكنائس، وكان أمرهم أنهم عملوا النّفط وحشوه فى فتائل وعملوها فى سهام ورموا بها، فكانت الفتيلة إذا خرجت من السهم تقع على مسافة مائة ذراع أو أكثر، فأمر السلطان كريم الدين الكبير يطلب البترك فطلبه وبالغ فى إكرامه على عادة القبطية، وأعلمه كريم الدين بما وقع فبكى، وقال: هؤلاء سفهاء، قد عملوا كما فعل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان، والحكم للسلطان، ثم ركب بغلة وتوجّه إلى حال سبيله، فكادت الناس أن تقتله، لولا حماية المماليك له، ثم ركب كريم الدين من الغد إلى القلعة، فصاحت عليه العوامّ وأسمعته ما يكره، فلما طلع كريم الدين عرّف السلطان بمقالة البترك واعتنى به، وكان النصارى أقرّوا على أربعة عشر راهبا بدير البغل، فقبض عليهم وعملت حفيرة كبيرة بشارع الصليبة وأحرق فيها أربعة منهم فى يوم الجمعة، واشتدّت العامّة عند ذلك على النصارى، وأهانوهم وسلبوهم ثيابهم وألقوهم عن الدوابّ إلى الأرض. وركب السلطان إلى الميدان فى يوم السبت وقد اجتمع عالم عظيم، وصاحوا: نصر الله الإسلام فلما استقرّ السلطان بالميدان أحضر والى القاهرة نصرانيين قد قبض عليهما فأحرقا خارج الميدان، وخرج كريم الدين من الميدان وعليه التشريف، فصاحت به العامّة: كم تحامى للنصارى! وسبّوه ورموه بالحجارة، فعاد إلى الميدان، فشقّ ذلك على السلطان، واستشار السلطان الأمراء فى أمر العامّة، فأشار عليه الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك بعزل الكتّاب النصارى، فإنّ الناس قد أبغضوهم، فلم يرضه ذلك، وتقدّم إلى ألماس الحاجب أن يخرج فى أربعة أمراء ويضع السيف فى العامّة حتى ينتهى إلى باب زويلة، ويمرّ كذلك إلى باب النصر ولا يرفع السيف عن أحد، وأمر والى القاهرة أن يتوجه إلى باب اللّوق وباب البحر ويقبض على من وجده من العامّة ويحمله إلى القلعة، وعيّن لذلك أيضا عدّة مماليك فخرجوا من الميدان، فبادر كريم الدين وسأل

السلطان العفو فقبل شفاعته، ورسم بالقبض على العامّة من غير قتلهم، وكان الخبر بلغ العامّة ففرّت العامّة حتى الغلمان وصار الأمير لا يجد من يركّبه، وانتشر ذلك فغلقّت الأسواق بالقاهرة فكانت ساعة لم يمرّ بالناس أبشع منها، وهى من هفوات الملك الناصر. ومرّ الوالى بباب اللّوق وبولاق وباب البحر وقبض على كثير من الكلابزيّة وأراذل العامّة بحيث إنه صار كلّ من رآه أخذه، وجفل الناس من الخوف وعدّوا فى المراكب إلى برّ الجيزة. فلمّا عاد السلطان إلى القلعة لم يجد أحدا فى طريقه، وأحضر إليه الوالى من قبض عليه، وهم نحو المائتين فرسم السلطان بجماعة منهم للصّلب، وأفرد جماعة للشّنق، وجماعة للتوسيط، وجماعة لقطع الأيدى، فصاحوا: ياخوند، ما يحلّ لك، ما نحن الغرماء فرقّ لهم بكتمر الساقى وقام ومعه الأمراء، وما زالوا به حتى أمر بصلب جماعة منهم على الخشب من باب زويلة إلى قلعة الجبل، وأن يعلّقوا بأيديهم، ففعل بهم ذلك وأصبحوا يوم الأحد صفّا واحدا من باب زويلة إلى تحت القلعة، فتوجّع لهم الناس وكان منهم كثير من بياض الناس ولم تفتح القاهرة، وخاف كريم الدين على نفسه ولم يسلك من باب زويلة وطلع القلعة من خارج السّور، وإذا بالسلطان قد قدّم الكلابزية وأخذ فى قطع أيديهم، فكشف كريم الدين رأسه وقبّل الأرض وباس رجل السلطان وسأل السلطان العفو عن هؤلاء، فأجابه بمساعدة الأمير بكتمر، وأمر بهم فقيّدوا وأخرجوا للعمل فى الحفر بالجيزة، ومات ممن قطع رجلان وأمر بحفظ من علّق على الخشب. وفى الحال وقع الصوت بحريق أماكن بجوار جامع أحد ابن طولون وبوقوع الحريق فى القلعة وفى بيت بيبرس الأحمدىّ بحارة بهاء الدين قراقوش وبفندق طرنطاى خارج باب البحر فدهش السلطان، وكان هذا الفندق برسم تجّار الزّيت فعمّت النار كلّ ما فيه، حتى العمد الرّخام وكانت ستة عشر عمودا، طول كلّ عمود ست أذرع بالعمل، ودوره نحو ذراعين فصارت كلّها جيرا، وتلف فيه لتاجر واحد ما قيمته تسعون ألف درهم، وقبض فيه على ثلاثة نصارى ومعهم فتائل النّفط اعترفوا أنهم فعلوا ذلك. فلمّا كان يوم السبت تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور ركب السلطان إلى الميدان فوجد نحو العشرين ألفا من العامّة فى طريقه قد صبغوا خروقا بالأزرق والأصفر وعملوا فى الأزرق صلبانا بيضاء ورفعوها على الجريد وصاحوا عليه صيحة واحدة: لا دين إلّا دين الإسلام، نصر الله دين محمد بن عبد الله، يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام، انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر

النصارى، فخشع السلطان والأمراء وتوجه إلى الميدان وقد اشتغل سرّه، وركبت العامة أسوار الميدان ورفعوا الخروق الزّرق وهم يصيحون لا دين إلا دين الإسلام، فخاف السلطان الفتنة ورجع إلى مداراتهم وتقدّم إلى الحاجب أن يخرج فينادى من وجد نصرانيا فدمه وماله حلال، فلما سمعوا النّداء صرخوا صوتا واحدا: نصرك الله، فارتجّت الأرض. ثم نودى عقيب ذلك من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حلّ دمه، وكتب مرسوم بلبس النصارى العمائم الزّرق، وألّا يركبوا فرسا ولا بغلا ولا يدخلوا الحمّام إلا بجرس فى أعناقهم، ولا يتزيّوا بزىّ المسلمين، هم ونساؤهم وأولادهم، ورسم للأمراء بإخراج النصارى من دواوينهم ودواوين السلطان، وكتب بذلك إلى سائر الأعمال. وغلّقت الكنائس والأديرة وتجرّأت العامّة على النصارى حيث وجدوهم ضربوهم وعرّوهم، فلم يتجاسر نصرانىّ أن يخرج من بيته، فكان النصرانىّ إذا عنّ له أمر يتزيّا بزىّ اليهود فيلبس عمامة صفراء يكتريها من يهودىّ ليخرج فى حاجته. واتفق أنّ بعض كتّاب النصارى حضر إلى يهودىّ له عليه مبلغ كبير ليأخذ منه شيئا، فأمسكه اليهودىّ وصاح: أنا بالله وبالمسلمين، فخاف النصرانى وقال له: أبرأت ذمّتك وكتب له خطه بالبراءة وفرّ. واحتاج عدّة من النصارى إلى إظهارهم الإسلام، فأسلم السّنّى الكاتب وغيره، واعترف بعضهم على راهب دير الخندق أنه كان ينفق المال فى عمل النّفط للحريق ومعه أربعة، فأخذوا وسمّروا وانبسطت عند ذلك ألسنة الأمراء فى كريم الدين أكرم الصغير، وحصلت مفاوضة بين الأمير قطلوبغا الفخرىّ وبين بكتمر الساقى بسبب كريم الدين، لأن بكتمر كان يعتنى به وبالدواوين، وكان الفخرىّ يضع منه. قلت: ولأجل هذا راح كريم الدين من الدنيا على أقبح وجه! وأخرب الله دياره بعد ذلك بقليل. واستمرّ الفخرىّ على رتبته بعد سنين عديدة. قال: وصار مع كلّ من الأميرين جماعة وبلغ السلطان ذلك، وأنّ الأمراء تترقّب وقوع فتنة، وصار السلطان إذا ركب إلى الميدان لا يرى فى طريقه أحدا من العامّة لكثرة خوفهم أن يبطش السلطان بهم فلم يعجبه ذلك، ونادى بحروج الناس للفرجة على الميدان ولهم الأمان والاطمئنان فخرجوا على عادتهم. ثم وقع الحريق بالقاهرة واشتدّ أمره إلى أن طفئ، وسافر كريم الذين الكبير إلى الإسكندرية وشدّد على النصارى فى لبسهم وركوبهم حتى يتقرّب بذلك إلى خواطر العامّة. ثم تنكّرت المماليك السلطانية على كريم الدين الكبير لتأخّر جوامكهم شهرين، وتجمّعوا يوم الخميس ثامن عشرين صفر قبل الظهر ووقفوا بباب القصر، وكان

السلطان فى الحريم، فلمّا بلغه ذلك خشى منهم، وبعث إليهم بكتمر الساقى فلم يلفتوا إليه، فخرج السلطان إليهم وقد صاروا نحو ألف وخمسمائة، فعند ما رآهم السلطان سبّهم وأهانهم وأخذ العصاة من مقدّم المماليك وضرب بها رءوسهم وأكتافهم، وصاح فيهم: اطلعوا مكانكم فعادوا بأجمعهم إلى الطّباق، وعدّت سلامة السلطان فى هذه الواقعة من العجائب، فإنّه خرج إليهم فى جماعة يسيرة من الخدّام، وهم غوغاء لا رأس لهم ولا عقل ومعهم السّلاح[1].

سنة ثلاث عشر وسبعمائة هـ وفيها غلقت كنائس اليهود والنصارى بأجمعها في مصر والقاهرة، في يوم السبت سابع عشرى شوال فلما كان يوم الثلاثاء العشرين من ذي الحجة فتحت الكنيسة المعلقة وخلع على بطرك النصارى.[2]

سنة أربع عشرة وسبعمائة فى شهر المحرم من السنة، أن النصارى بمصر اجتمعوا فى كنيسة من كنائسهم لعيد لهم، وأنهم استعاروا من الجامع العمرى بمصر قناديل وبصّاقات وأطباق وأشعلوها فى الكنيسة، فما صبر على ذلك، وجاء إلى الكنيسة ودخلها بمن معه وأخذ ما استعاروه من قناديل الجامع وما عونه، وأعاد ذلك إلى الجامع، وأحضر مباشر الجامع وأنكر عليه إقدامه على عارية ذلك للنصارى، فاعتذر أن الخطيب هو الذى أمر بذلك، فطلبه الشيخ وأنكر عليه، وكلمّه بكلام غليظ فانضم للخطيب القاضى فخر الدين ناظر الجيش، وأنهى إلى السلطان ما فعل الشيخ بالخطيب، وعرّفه أن الخطيب رجل صالح من بيت كبير، وأن مثله لا يعامل بمثل هذه المعاملة، وأنهى إلى السلطان أن الشيخ نور الدين فيه جرأة عظيمة واطّراح للدولة وغضّ منها، إلى غير ذلك من الإغراء، وطلع الشيخ نور الدين إلى قلعة الجبل فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر محرم[3].

سنة ثمان عشر وسبعمائة للهجرة وفى يوم الاثنين الخامس من شهر ربيع الآخر أمر السلطان بهدم الكنيسة المعروفة بكنيسة بربارة بحارة الروم بالقاهرة، وكان سبب ذلك أن النصارى

---

1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تغري ج 9 ص 63-73

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 393

3) نهاية الألأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين النويرى، جـ 32 ص 211-212

أنهوا أنه قد استهدم بعضها وسألوا تمكينهم من إعادته واعتنى لهم من اعتنى ممن كان منهم فرسم لهم بذلك فلم يقتصروا على إعادة ما رسم لهم بإعادته بل تحيلوا وتمحلوا وعمروها ظاهرا بالأسرى والآلات العظيمة والمشدين من جنس المسلمين تجاهر النصارى بذلك ولا يكتمونه ولا يتحاشون من فعله فانتدب المسلمون لذلك ورفعوا قصصا للسلطان وأنهوا فيها صورة الحال فأمر بهدمها فهدمها العوام فى ساعة واحدة وبنوا بصدرها محرابا وعلقوا فيه قنديلا وأقاموا شعار الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح وقراءة القرآن، ثم رسم بعد ذلك بمنع المسلمين من الصلاة فيها وسد بابها فى بقية الشهر، وجعلت مزبلة ألقى السكان من المسلمين الذين حولها زبائل بيوتهم فيها، فلما كان فى سلخ جمادى الأولى من السنة رسم بإعادة ماهدمه المسلمون فيها بالقصب دون البناء وسد بابها وعطلت[1].

ويذكر ابن أيبك الدوادارى: سنة احدى وعشرين وسبعمائة ه وفيها كان بدو الحريق العظيم بمصر والقاهرة وسببه أن برز المرسوم الشريف بخراب كنيسة الكرج التى كانت تعرف بالحمرا فشرع العامة فى هدم عدةٍ من الكنايس وهم: كنيسة الزهرى كنيسة أبى منى كنيسة السبع سقايات كنيسة الفهادين كنيسة حارة برجوان كنيسة رملة الحسينية كنيسة بالقاهرة الجملة سبع كنايس أخربوها العامة ونهبوا منها أشياء كثيرة فشرعوا النصارى فى الحريق بمصر والقاهرة وفى ساير الأماكن ولقد بلغني أنهم تسموا بالمجاهدين وهم الذين قد تجردوا لهذا الفعل وكانوا يرمون الخرق المحشوة بالزيت والكبريت ويؤرثون فيها بالنار ويقذفونها فى أسطحة البيوت ويدفنونها تحت الأبواب الخشب وعادت أيام شنيعة وكل أحدٍ خايف وجل على نفسه وملكه وماله وأحرقت عدة دورٍ حسنة لها صورة وعادوا المصارى يزعمون أن النار تنزل من السماء ليوهموا أن ذلك لسبب خراب كنايسهم ثم أن النصارى طلبوا فأختفوا ومسك منهم جماعة وعوقبوا فمنهم من أقر ومنهم من أحتمل العقوبة ولم يقر[2]

1) نهاية الألأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين النويرى، جـ 32 ص 286

2) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى ج9 ص306

ويضيف بن يوسف البرزالى: ذكر علم الدين فى جمادى الأولى وقع حريق عظيم فى القاهرة فى الدور الحسنة والأماكن المليحة المرتفعة وبعض المساجد وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك ثم كشفوا عن القضية فإذا هو من قبل النصارى بسبب ما كان من أحرق كنايسهم وهدم فقتل السلطان بعضهم وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كلها وأن يحملوا الأجراس فى الحمامات وأن لا يستخدموا فى شيء من الجهات فسكن الأمر وبطل الحريق[1]

في سنة احدى وعشرين وسبعمائة وفي يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر: ثارت العامة يداً واحدة، وهدموا كنيستين متقابلتين بالزهري، وكنيسة بستان السكري وتعرف بالكنيسة الحمراء، وبعض كنيستين بمصر

وكان ذلك من غرائب الاتفاق ونوادر الحوادث: والخبر عنه أن السلطان لما عزم على إنشاء الزريبة بجوار جامع الطيبرسي على النيل احتاج إلى طين كثير، فنزل بنفسه وعين مكاناً من أرض بستان الزهري قريباً من ميدان المهارة ليأخذ منه الطين، ولينشئ في هذا المكان بركة وعوض مستحقي وقفه بدله، وكتب أوراقاً بأسماء الأمراء، وأفزر لكل منهم قياساً معلوماً، فتولى قياس ذلك عدة من المهندسين مع الأمير بيبرس الحاجب. وابتدأ الأمراء في الحفر يوم الثلاثاء تاسع عشري ربيع الأول، ورفعوا الطين على بغالهم ودوابهم إلى شاطئ النيل حيث عمل الزريبة. فلم يزل الحفر مستمراً إلى أن قرب من كنيسة الزهري، وأحاط بها الحفر من دايرها وصارت في الوسط، بحيث تمنع من اتساع البركة. فعرف الأمير أقسنقر شاد العمائر السلطان بذلك، فأمره أن يبالغ في الحفر حولها حتى تتعلق، وإذا دخل الليل فيدع الأمراء تهدمها، ويشيع أنها سقطت على غفلة منهم، فاعتمد الحفر فيما حولها، وكتم ما يريده، وصارت غلمان الأمراء تصرخ وتريد هد الكنيسة، وآقسنقر يمنعهم من ذلك. فلما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر: بطل العمل وقت الصلاة لاشتغال الأمراء بالصلاة، فاجتمع من الغلمان والعامة طائفة كبيرة، وصرخوا صوتاً واحداً ا لله أكبر، ووقعوا في أركان الكنيسة بالمساحي والفوس حتى صارت كوماً، ووقع من فيها من النصارى، وانتهب العامة ما كان بها.

---

1) المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي الجزء الثاني القسم الثاني ص469

والتفتوا إلى كنيسة الحمراء المجاوره لها، وكانت من أعظم كنائس النصارى، وفيها مال كبير، وعدة من النصارى ما بين رجال ونساء مترهبات فصعدت العامة فوقها، وفتحوا أبوابها ونهبوا أموالها وخمورها. وانتقلوا إلى كنيسة بومنا بجوار السبع سقايات، وكانت معبداً جليلاً من معابد النصارى، فكسروا بابها ونهبوا ما فيها، وقتلوا منها جماعة، وسبوا بنات كانوا بها تزيد عدتهن على ستين بكراً فما انقضت الصلاة حتى ماجت الأرض، فلما خرج الناس من الجامع رأوا غباراً ودخان الحريق قد ارتفعا إلى السماء، وما في العامة إلا من بيده بنت قد سباها أو جرة خمر أو ثوب أو شيء من النهب، فدهشوا وظنوا أنها الساعة قد قامت.
وانتشر الخبر من السبع سقايات إلى تحت القلعة، فأنكر السلطان ارتفاع الأصوات بالضجيج، وأمر الأمير أيدغمش بكشف لخبر. فلما بلغه ما وقع انزعج لذلك انزعاجاً زائداً، وتقدم إلى أيدغمش أمير أخور، فركب بالوشاقية ليقبض على العامة ويشهرهم. فما هو إلا أن ركب أيدغمش إذا بملوك الأمير علم الدين سنجر الخازن متولي القاهرة حضر وأخبر بأن العامة ثارت بالقاهرة، وأخربوا كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة، وأنه ركب خوفاً على القاهرة من النهب. وقدم مملوك والي مصر وأخبر بأن عامتها قد تجمعت لهدم كنيسة المعلقة حيث مسكن البترك وأموال النصارى، ويطلب نجدة. فلشدة ما نزل بالسلطان من الغضب هم أن يركب بنفسه، ثم أردف أيدغمش بأربعة أمراء ساروا إلى مصر، وبعث بيبرس الحاجب، وألماس الحاجب إلى موضع الحفر، وبعث طينال إلى القاهرة، ليضعوا السيف فيمن وجدوه. فقامت القاهرة ومصر على ساق، وفرت النهابة، فلم تدرك الأمراء منهم إلا من غلب على نفسه بالسكر من الخمر. وأدرك الأمير أيدغمش والي مصر وقد هزمته العامة من زقاق المعلقة، وأنكوا مماليكه بالرمي عليهم، ولم يبق إلا أن يحرقوا أبواب الكنيسة، فجرد هو ومن معه السيوف ليفتك بهم، فرأى عالماً عظيماً لا يحصيهم إلا خالقهم، فكف عنهم خوف اتساع الخرق، ونادى من وقف فدمه حلال، فخافت العامة أيضاً وتفرقوا. ووقف أيدغمش يحرس المعلقة إلى أن أذن العصر، فصلي بجامع عمرو، وعين خمسين أوشاقيا للمبيت مع الوالي على باب الكنيسة، وعاد. وكان كأنما نودي في إقليم مصر بهدم الكنائس، وأول ما وقع الصوت بجامع قلعة الجبل: وذلك أنه لما انقضت صلاة الجمعة صرخ رجل موله في وسط الجامع: " اهدموا الكنيسة التي في القلعة "، وخرج في صراخه عن الحد واضطرب. فتعجب السلطان

والأمراء منه، وندب نقيب الجيش والحاجب لتفتيش سائر بيوت القلعة، فوجدوا كنيسة في خرائب التتر قد أخفيت، فهدموها. وما هو إلا أن فرغوا من هدمها والسلطان يتعجب إذ وقع الصراخ تحت القلعة، وبلغه هدم العامة للكنائس كما تقدم، وطلب الرجل الموله فلم يوجد. وعندما خرج الناس من صلاة الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة رأوا العامة في هرج عظيم، ومعهم الأخشاب والصلبان والثياب وغيرها، وهم يقولون: " السلطان نادى بخراب الكنائس "، فظنوا الأمر كذلك. وكان قد خرب من كنائس القاهرة سوى كنيستي حارة الروم وحاره زويلة وكنيسة بالبندقانيين كنائس كثيرة، ثم تبين أن ذلك كان من العامة بغير أمر السلطان. فلما كان يوم الأحد حادي عشره: سقط الطائر من الإسكندرية بأنه لما كان الناس في صلاة الجمعة تجمع العامة وصاحوا هدمت الكنائس، فركب الأمير بدر الدين المحسني متولي الثغر بعد الصلاة ليدرك الكنائس، فإذا بها قد صارت كوماً، وكانت عدتها أربع كنائس. ووقعت بطاقة من والي البحيرة بأن العامة هدمت كنيستين في مدينة دمنهور، والناس في صلاة الجمعة. ثم ورد مملوك والي قوص في يوم الجمعة سابع عشره، وأخبر بأنه لما كان يوم الجمعة هدم العامة ست كنائس بقوص في نحو نصف ساعة. وتواترت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري بهدم الكنائس وقت صلاة الجمعة، فكثر التعجب من وقوع هذا الاتفاق في ساعة واحدة بسائر الأقاليم. وصار السلطان يشتد غضبه من العامة، والأمراء تسكن غضبه وتقول. " يا مولانا هذا إنما هو من فعل الله. وإلا فمن يقدر من الناس على هدم كنائس الإسكندرية ودمياط والقاهرة ومصر وبلاد الصعيد في ساعة واحدة " ، وهو يشتد على العامة ويزيد البطش بهم، فهرب كثير منهم. وكان الذي هدم في هذه الساعة من الكنائس ستون كنيسة: وهي كنيسة بقلعة الجبل، وكنيسة بأرض الزهري موضع البركة الناصرية، وكنيسة بالحمراء، وكنيسة بجوار السبع سقايات، وكنيسة أبي المنا بجوارها، وكنيسة الفهادين بحارة الحكر، وكنيسة بحارة الروم من القاهرة، وكنيسة البندقانيين منها، وكنيسة بحارة زويلة، وكنيسة بخزانة البنود، وكنيسة بالخندق خارج القاهرة، وأربع كنائس بالإسكندرية، وكنيستان بدمنهور الوحش، وأربع كنائس بالغربية، وثلاث كنائس بالشرقية، وست كنائس بالبهنساوية، وبسيوط ومنفلوط ومنية بن خصيب ثماني كنائس، وقوص وأسوان إحدى

عشرة كنيسة، والإطفيحية كنيستان، وبمدينة مصر بخط المصاصة وسوق وردان وقصر الشمع ثماني كنائس، ومن الأديرة شيء كثير.
وكان عقيب هدم الكنائس وقوع الحريق بالقاهرة ومصر، فابتدأ يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى، وتواتر إلى سلخه. وكان من خبره أن الميدان الكبير المطل على النيل لما فرغ العمل فيه ركب السلطان إليه في يوم السبت المذكور، وكان أول لعبه فيه بالأكرة، فبلغه الخبر بعد عوده إلى القلعة بأن الحريق وقع في ربع من أوقاف المارستان المنصوري، بخط الشوايين من القاهرة. واشتد الأمر، والأمراء تطفئه إلى عصر يوم الأحد، فوقع الصوت قبل المغرب بالحريق في حارة الديلم بزقاق العريسة، قريب من دار كريم الدين الكبير. ودخل الليل واشتد هبوب الرياح، فسرت النار في عدة أماكن. وبعث كريم الدين بولده علم الدين عبد الله إلى السلطان يعرفه، فبعث عدة من الأمراء والمماليك لإطفائه خوفاً على الحواصل السلطانية ثم تفاقم الأمر، واحتاج أقسنقر شاد العمائر إلى جمع سائر السائقين والأمراء، ونزلت الحجاب وغيرهم، والنار تعظم طول نهار الأحد، وخرجت النساء مسبيات من دورهن. وباتوا على ذلك، وأصبحوا يوم الإثنين والنار تتلف ما تمر به، والهد واقع في الدور التي تجاور الحريق خشية من تعلق النار فيها وسريانها في جميع دور القاهرة. فلما كانت ليلة الثلاثاء خرج أمر الحريق عن القدرة البشرية، وخرجت ريح عاصفة ألقت النخيل وغرقت المراكب، ونشرت النار، فما شك الناس في أن القيامة قد قامت. وعظم شرر النيران، وصارت تسقط في عدة مواضع بعيدة، فخرج الناس وتعلقوا بالمأذن، واجتمعوا في الجوامع والزوايا، وضجوا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وصعد السلطان إلى أعلا القصر، فهاله ما شاهد.
وأصبح الناس يوم الثلاثاء في أسوأ حال، فنزل النائب بسائر الأمراء وجميع من في القلعة وجميع أهل القاهرة، ونقل الماء على جمال الأمراء، ولحقه الأمير بكتمر الساقي وأخرجت جمال القرى السلطانية، ومنعت أبواب القاهرة أن يخرج منها سقاء، ونقلت المياه من المدارس والحمامات والآبار. وجمعت سائر البنائين والنجارين، فهدت الدور من أسفلها والنار تحرق في سقوفها. وعمل الأمراء الألوف وعدتهم أربعة وعشرون أميراً بأنفسهم في طفي الحريق، ومعهم سائر أمراء الطبلخاناه والعشراوات، وتناولوا الماء بالقرب من السقائين، بحيث صار من باب زويلة إلى حارة الروم بحراً، وحضر كريم الدين أكرم الصغير. بمائتي رجل. فكان يوماً

لم ير أشنع منه، بحيث لم يبق أحد إلا وهو في شغل. ورؤى سائر الأمراء وهي تأخذ القرب من مماليكها، وتطفئ النار بأنفسها، وتدوس الوحل بأخفافها. ووقف الأمير بكتمر الساقي والأمير أرغون النائب حتى نقلت الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده علم الدين عبد الله بدرب الرصاصي، وهدم لأجل نقل الحواصل ستة عشر داراً. وخمدت النار وعاد الأمراء. فوقع الصياح في ليلة الأربعاء بربع الملك الظاهر خارج باب زويلة وبقيسارية الفقراء، وهبت الرياح مع ذلك. فركب الحجاب والوالي وعملوا في طفيها إلى بعد الظهر من يوم الأربعاء وهدموا دوراً كثيرة مما حوله. فما كاد أن يفرغ العمل من إطفاء النار حتى وقعت النار في بيت الأمير سلار بخط القصرين، فأقبلوا إليه وإذا بالنار ابتدأت من أعلا البادهنج وكان ارتفاعه من الأرض زيادة على مائة ذراع بذراع العمل ورأوا فيه نفطاً قد عمل فيه فتيلة كبيرة، فمازالوا بالنار حتى أطفئت، من غير أن يكون لها أثر كبير. ونودي بأن يعمل بجانب كل حانوت بالقاهره ومصر زير ودن ملآن ماء، وكذلك بسائر الحارات والأزقة، فبلغ ثمن كل دن من ثلاثة دراهم إلى خمسة، وكل زير إلى ثمانية دراهم لكثرة طلبها.

فلما كانت ليلة الخميس: وقع الحريق بحارة الروم وبخارج القاهرة، وتمادى الحال كذلك، ولا تخلو ساعة من وقوع الحريق بموضع من القاهرة ومصر، وامتنع والي القاهرة والأمير بيبرس الحاجب من النوم. فشاع بين الناس أن الحريق من جهة النصارى لما أنكاهم هدم الكنائس ونهبها، وصارت النيران توجد تارة في منابر الجوامع وتارة في حيطان المدارس والمساجد. ووجدت النار بالمدرسة المنصورية، فزاد قلق الناس وكثر خوفهم، وزاد استعدادهم بادخار الآلات المملوءة ماء في أسطحة الدور وغيرها. وأكثر ما كانت النار توجد في العلو، فتقع في زروب الأسطحة والبادهنجانات، ويوجد النفط قد لف في الخرق، المبللة بالزيت والقطران.

فلما كانت ليلة الجمعة حادي عشريه: قبض على راهبين خرجا من المدرسة الكهارية بالقاهرة، وقد أرميا النار، وأحضرا إلى الأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة، فشم منهما رائحة الكبريت والزيت، فأحضرهما من الغد إلى السلطان، فأمر بعقوبتهما حتى يعترفا. فلما نزل الأمير علم الدين بهما وجد العامة قد قبضت على نصراني من داخل باب جامع الظاهر بالحسينية، ومعه كعكة خرق بها نفط وقطران، وقد وضعها بجانب المنبر، فلما فاح الدخان وأنكروه وجد النصراني وهو خارج والأثر في يديه، فعوقب قبل صاحبيه. فاعترف

النصراني أن جماعة من النصارى قد اجتمعوا وعملوا النفط، وفرقوه على جماعة ليدوروا به على المواضع. ثم عاقب الأمير علم الدين الراهبين، فأقرا أنهما من دير البغل، وأنهما هما اللذان أحرقا سائر الأماكن التي تقدم ذكرها. وذلك أنه لما مر بالكنائس ما كان، حنق النصارى من ذلك وأقاموا النياحة عليها، واتفقوا على نكاية المسلمين، وعملوا النفط وحشوه بالفتائل وعملوها في سهام ورموا بها، فكانت الفتيلة إذا خرجت من السهم تقع على مسافة مائة ذراع. فلما أنفقوا ذلك فرقوه في جماعة، فصاروا يدورون في القاهرة بالليل، وحيث وجدوا فرصة انتهزوها وألقوا الفتيلة، حتى كان ما كان. فطالع الأمير علم الدين السلطان بذلك.

واتفق وصول كريم الدين الكبير ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى، فقال كريم الدين: " النصارى بطرك يرجعون إليه، وهو الذي يعرف أحوالهم ". فامر السلطان كريم الدين بطلب البطرك إفي بيته واستعلام الخبر منه، فاتاه ليلا في حماية وافي القاهرة خوفا من العامة، مبالغ كريم الدين في إجلاله، وأعلمه. مما ذكر الرهبان وأحضرهم إليه، فذكروا له كما ذكروا للوالي، فبكا وقال: " هؤلاء سفهاء قد فعلوا كما فعلوا سفهاؤكم، والحكم للسلطان. ومن أكل الحامض ضرس، والحمار العثور يلقي الأرض بأسنانه ". وأقام البطرك ساعة، وقام فركب بغلة كان قد رسم له منذ أيام بركوبها، فشق ذلك على الناس، وهموا به لولا الخوف ممن حوله من المماليك.

فلما ركب كريم الدين من الغد صاحت العامة به: " ما يحل لك يا قاضي تحامي للنصاري ، وقد أخربوا بيوت المسلمين، وتركبهم البغال، فانتكى كريم الدين منهم نكاية بالغة، وأخذ يهون من امر النصارى الممسوكين ويذكر أنهم سفهاء، وعرف السلطان ما كان من أمر البطرك، وأنه اعتنى به. فأمر السلطان الوالي بعقوبة النصارى، فأقروا على أربعة عشر راهباً بدير البغل، فقبض عليهم من الدير. وعملت حفيرة كبيرة بشارع الصليبة، وأحرق فيها أربعه منهم في يوم الجمعة، وقد اجتمع من الناس عالم عظيم. فاشتدت العامه عند ذلك على النصارى، وأهانوهم وسلبوهم ثيابهم، وألقوهم من الدواب إلى الأرض وركب السلطان إلى الميدان يوم السبت ثاني عشريه، وقد اجتمع عالم عظيم، وصاحوا: " نصر الله الإسلام، انصر دين محمد بن عبد الله " . فلما استقر السلطان بالميدان حتى أحضر له الخازن والي القاهرة نصرانيين

قد قبض عليهما، فأحرقا خارج الميدان. وخرج كريم الدين الكبير من الميدان وعليه التشريف، فصاحت به العامة: " كم تحامي للنصارى "، وسبوه ورموه بالحجارة، فعاد إلى الميدان. فشق ذلك على السلطان، واستشار الأمراء في أمر العامة، فأشار عليه الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك بعزل الكتاب النصاري، فإن الناس قد أبغضوهم، فلم يرضه ذلك. وتقدم السلطان إلى ألماس الحاجب أن يخرج في أربعة أمراء ويضع السيف في العامة حتى ينتهي إلى باب زويلة، ويمر إلى باب النصر وهو كذلك ولا يرفع السيف عن أحد، وأمر والي القاهرة أن يتوجه إلى باب اللوق والبحر، ويقبض من وجده، ويحملهم إلى القلعة، وعين لذلك مماليك تخرج من الميدان. فبادر كريم الدين وسأل السلطان العفو، فقبل شفاعته، ورسم بالقبض على العامة من غير قتلهم. وكان الخبر قد طار، ففرت العامة حتى الغلمان، وصار الأمير لا يجد من يركبه. وانتشر ذلك، فغلقت جميع أسواق القاهرة، فما وصل الأمر إلى باب زويلة حتى لم يجدوا أحدا، وشقوا القاهرة إلى باب النصر، فكانت ساعة لم يمر بالناس أعظم منها. ومر الوالي إلى باب اللوق وبولاق وباب البحر، وقبض كثيراً من الكلابزة والنواتية وأراذل العامة، بحيث صار كل من رأه أخذه. وجفل الناس من الخوف، وعدوا في المراكب إلى بر الجيزة.

فلما عاد السلطان إلى القلعة لم يجد أحداً في طريقه، وأحضر إليه الوالي بمن قبض عليه وهم نحو المائتين، فرسم أن يصلبوا، وأفرد جماعة للشنق وجماعة للتوسيط وجماعة لقطع الأيدي. فصاحوا: " يا خوند ما يحل لك! فما نحن الغرماء "، وتباكوا فرق لهم بكتمر الساقي، وقام معه الأمراء، ومازالوا بالسلطان حتى رسم بصلب جماعة منهم على الخشب من باب زويلة إلى سوق الخيل، وأن يعلقوا بأيديهم. فأصبحوا يوم الأحد صفاً واحداً من باب زويلة إلى سوق الخيل تحت القلعة، فتوجع لهم الناس، وكان منهم كثير من بياض الناس، ولم تفتح القاهرة. وخاف كريم الدين على نفسه، ولم يسلك من باب زويلة، وصعد القلعة من خارج السور، فإذا السلطان قد قدم الكلابزة وأخذ في قطع أيديهم. فكشف كريم الدين رأسه وقبل الأرض،

وباس رجل السلطان، وسأله العفو. فأجابه السلطان بمساعدة الأمير بكتمر، وأمر بهم فقيدوا وأخرجوا للعمل في الحفير بالجيزة. ومات ممن قطع يده رجلان، وامر بحط من علق

على الخشب. فللحال وقع الصوت بحريق أماكن بجوار جامع ابن طولون، وبوقوع الحريق في القلعة وفي بيت الأحمدي بحارة بهاء الدين من القاهرة، وبفندق طرنطاي خارج باب البحر، فدهش السلطان. وكان هذا الفندق برسم تجار الزيت الوارد من الشام، فعمت النار كل ما فيه حتى العمد الرخام، وكانت ستة عشر عموداً، طول كل منها ستة أذرع باعمل، ودوره نحو ذراعين، فصارت كلها جيراً، وتلف فيه لتاجر واحد ما قيمته تسعون ألف درهم، وقبض فيه على ثلاثة نصارى معهم فتائل النفط، اعترفوا أنهم فعلوا ذلك.

فلما كان يوم السبت تاسع عشريه: ركب السلطان إلى الميدان، فوجد نحو العشرين ألفاً من العامة قد صبغوا خرقاً بالأزرق والأصفر، وعملوا في الأزرق صلباناً بيضاء، ورفعوها على الجريد، وصاحوا عليه صيحة واحدة: " لا دين إلا دين الإسلام! نصر الله دين محمد بن عبد الله! يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام، إنصرنا على أهل الكفر، ولا تنصر النصارى فخشح السلطان والأمراء، ومر إلى الميدان وقد اشتغل سره وركبت العامة أسوار الميدان، ورفعت الخرق وهي تصيح. " لا دين إلا دين الإسلام " . فخاف السلطان الفتنة ورجع إلى مداراتهم، وتقدم إلى الحاجب بأن يخرج وينادي: " من وجد نصرانياً فدمه وماله حلال " . فلما سمعوا النداء صرخوا صوتاً واحداً: " نصرك الله يا ناصر دين الإسلام " ، فارتجت الأرض. ونودي عقيب ذلك بالقاهرة ومصر: " من وجد من النصارى بعمامة بيضاء حل دمه. ومن وجد من النصارى راكباً باستواء حل دمه ". وكتب مرسوم بلبس النصارى العمائم الزرق، وألا يركبوا فرساً ولا بغلاً، وأن يركبوا الحمير عرضاً، ولا يدخلوا الحمام إلا بجرس في أعناقهم، ولا يتزيوا بزي المسلمين هم ونساؤهم وأولادهم. ورسم للأمراء بإخراج النصارى من دواوينهم ومن دواوين السلطان، وكتب بذلك إلى سائر الأعمال، وغلقت الكنائس والأديرة، وطلب السني ابن ست بهجة، والشمس بن كثير فلم يوجدا.

وتجرأت العامة على النصارى، بحيث إذا وجدوهم ضربوهم وعروهم ثيابهم، فلم يتجاسر نصراني أن يخرج من بيته. و لم يتحدث في أمر اليهود، فكان النصراني إذا طرأ له أمر يتزيا بزي اليهود، ويلبس عمامه صفراء يكتريها من يهودي ليخرج في حاجته. واتفق أن بعض كتاب النصارى حضر إلى يهودي له عليه مبلغ ألف درهم ليأخذ منه شيئاً، فأمسكه اليهودي وصاح: " أنا با للة وبالمسلمين، فخاف النصراني، وقال له: أبرأت ذمتك، وكتب له خطه بالبراءة وفر.

واحتاج عدة من النصارى إلى إظهارهم الإسلام، فأسلم السني ابن ست بهجة في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة، وخلع عليه، وأسلم كثير منهم، واعترف بعضهم على راهب بدير الخندق أنه كان ينفق المال في عمل النفط للحريق ومعه أربعة، فأخذوا وسمروا.

وانبسطت ألسنة الأمراء بسب كريم الدين أكرم الصغير، وحصلت مفاوضة بين الأمير قطلوبغا الفخري والأمير بكتمر الساقي بسبب كريم الدين الكبير، فإن بكتمر كان يعتني به وبالدواوين، والفخري يضع منه ومنهم، وصار مع كل من الأميرين جماعة، وبلغ السلطان ذلك، وأن الأمراء تترقب وقوع الفتنة. وصار السلطان إذا ركب إلى الميدان لا يري أحداً في طريقه من العامة لكثرة خوفهم من أن يبطش بهم، فلم يعجبه ذلك، ونودي بخروج الناس للفرجة على الميدان، فخرجوا على عادتهم. فلما كانت ليلة الأحد ثاني عشريه وقع الحريق بالقلعة، وعظم أمره حتى اشتد القلق إلى أن طفي.

وفي رابع عشريه: توجه كريم الدين الكبير إلى الإسكندرية، ونادى فيها بلبس النصارى العمائم الزرق، ومنعهم من المباشرة في الديوان. فوردت مراكب تحصل منها للديوان نحو الخمسين ألف دينار، فسر كريم الدين بذلك. وعاد كريم الدين إلى القاهرة، فشفع في إطلاق المقيدين الذين قبض عليهم فأطلقوا، وأعطى كل واحد منهم عشرة دراهم فضة وعشرة فلوساً وقميصاً، وفرق ألف قميص، ثم استدعى المسجونين على الديوان، وصالح غرماءهم عنهم، وخلى سبيلهم بحيث لم يبق أحد بسجن القضاة وأغلق.[1]

وفى سنة أربع وعشرين وسبعمائة هـ وصل الأمير سيف الدين طشتمر حمص أخضر الساقي من الحجاز، وصحبته جماعة وكان قد سافر بعد الإفراج عنه، وأنعم عليه بألفي دينار وغلال كثيرة، وعمل له السلطان عند قدومه اثنتي عشرة بدلة وثلاثة حوائض وطرز زركش، وأنعم عليه بمال جزيل، وتتابع قدوم الحاج حتى قدم المحمل في خامس عشريه وفيه توجه الأمير أرغون النائب إلى منية بني خصيب، فشكا أهلها من مباشريهم، فلم يسمع لهم وأمر بضربهم، فرجموه بالحجارة وأنكوا في مماليكه وغلمانه. فركب عليهم أرغون ليفتك بهم، ففروا من عند الوطاق خارج البلد إلى داخل البلد، فأخذ مماليكه من عمائم الهاربين نيفاً على ثلاثمائة

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 425-430

وستين عمامة زرقاء من عمائم النصارى، فلما استكثر ذلك قيل له إن بها كثيراً من النصارى، ولهم خمس كنائس، فهدمها في ساعة واحدة، ورسم ألا يستخدم نصراني في ديوانه، وكان النصارى قد جددوا عمارة ما خرب من الكنائس بالصعيد، فهدمت أيضاً[1].

وفى سنة ثلاثين وسبعمائة هـ في شهر رجب أحرقت كنيسه الممكية بمصر، حتى صارت عمدها الرخام جيراً، وكان بجانبها مسجد لم تصبه النار، فرسم للنصارى بإعادتها، فأعيدت[2].

وفى سنة أربع وخمسين وسبعمائة في شهر ربيع الآخر أعلن بعض النصارى الواردين من الطور بالقدح في الملة الإسلامية، فأحضر إلى القاضي تاج الدين المناوي، وسأله المناوي عن سبب قدومه، فقال: " جئت

أعرفكم أنكم لستم على شيء، ولا دين الا دين النصرانية، وما قلت هذا إلا لكي أموت شهيداً " فضربه المناوي بالمقارع ضرباً مبرحاً مدة أسبوع، وهو يقول: " عجل على القتل حتى ألحق بالشهداء "، فيقول له: " ما أعجل عليك غير العقوبة ثم ضربت عنقه، وأحرقت جثته[3].

وفى سنة أربع وخمسين وسبعمائة هـ اتفق لناحية النحريرية أنه شهد على بعض نصاراها أن جده كان مسلما، فحكم قاضيها بإسلامه، وحبسه حتى يسلم. فاجتمع النصارى إلى الوالي، وأخرجوا الحبيس ليلا، فتصايحت العامة من الغض بالقاضي فغضب الوالي من ذلك، وطلب القاضي لينكر عليه ما فعله فقامت العامة مع القاضى، وأغلقوا الحوانيت، واجتمعوا ليرجموا الوالي. فجمع لهم الوالي أيضاً ليوقع بهم، فحملوا عليه وهزموه حتى خرج من البلد، وهدموا كنيسة كانت بها حتى لم يبق بها جدار قائم، وأحرقوا ما بها من الصلبان والتماثيل، وعمروها مسجداً ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا رممهم، وهموا يأخذون النصارى، فهربوا منهم، وكان يوماً مهولا. فكتب الوالي إلى الأمراء والوزير بالشكاية من القاضي، وأنه ضيع مال السلطان، وهو خمسمائة ألف درهم، بتعرضه للنصراني حتى ثارت بسببه الفتنة. وكتب النصارى أيضا إلى الحسام أستادار العلائي - وقد ترقى حتى صار أمير طبلخاناه، فقام مع النصارى، وحدث الأمير شيخو، وشنع على القاضي، وسعى في إلزامه لإعادة الكنيسة من

---

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 440

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 464، وأيضاً تاريخ ابن الجزري ج2 ص392

3) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 201

ماله. فطلب القاضي والوالي فحضرا، وعقد مجلس حضره القضاة الأربعة بجامع القلعة، ومعهم الوزير وغيره من أهل الدولة، فانتصب الحسام لمخاصمة قاضي النحريرية، ومازالوا حتى انفضوا على غير رضى فأغرى الأمير شيخو بقيام القضاة مع قاضي النحريرية، وهول الأمر، فانعقد المجلس بين يديه، وقد امتلأ غضبا على القاضي. فعندما استقر بهم المجلس أغلظ شيخو على القاضي، وأخذ الحسام ينهره ويخزيه بالقول، وساعده على هذا الأمير عز الدين أزدمر كاشف الوجه البحري حتى يتبين الغرض. فامتعض لذلك الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود بن أحمد شيخ الجامع الشيخوني يومئذ، وله اختصاص زائد بالأمير شيخو، وأخذ يتكلم معه بالتركية في إنكار ما قام فيه الحسام من إعادة الكنيسة، وتعصبه على القاضي للنصارى، وخوف الأمير عاقبة ذلك. فشاركه الحسام في الكلام مع الأمير، وجرى على عادته في إعادة الكنيسة، فصدعه الأكمل بالإنكار، وزجره ومنعه من الكلام في هذا، وقال له: " ما يحل السلام عليك، فإنك فد خرجت من الإسلام بتعصبك للنصارى ". ومازال الشيخ أكمل الدين يلح في الكلام حتى رسم الأمير شيخو بالكشف عن الواقعة، لينظر من تعدى من الرجلين - القاضي أو الوالي، ووكل بهما من يحفظهما حتى يحضر الكشف عن أمرهما. فلما حضر الكشف من والي المحلة، وكان قد حسن أمرهما بأن ذكر أن كلا منهما أساء التدبير، رسم بعزل الوالى والقاضي[1].

فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة للهجرة جمادى الأول، وفيه جاء مرسوم السلطان بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية وإلزامهم بالذلة والصَّغار، وأن لا يُستَخدموا فى شيء من الجهات، فأسلم منهم جماعة طوعاً وكرهاً. وممن أسلم من المعروفين: علم الدين داود الإسرائيلى، والرشيد بن حباشة الكركى المستوفى، والعلم رزق الله صاحب الديوان، وفعلوا بمصر أعظم مما فُعِلَ بالشام، وهدمت كنيسة بشبرا وكان يعظهما النصارى كثيراً، ورسم السلطان أن من كان فى بلده رزقٌ لكنيسة أو دير يأخذه، قال بعض المؤرخين المصريين: وكان ما أخذ من ذلك ما ينيف عن عشرين ألف فدان، وكان ذلك برأى الأمير طاز وصرغتمش[2].

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 204

2) تاريخ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي ج 2، ص 61-62

وفى سنة ست وثلاثين وسبعمائة هـ كان النشو قد علم أن ساير الأمراء قد كرهته وهم عمالين مع السلطان على تلافه فرمى نفسه إلى التهلك ولم يهاب أحد منهم وصار يقصد إيحاش كل أحد منهم عند السلطان ويثلم عرضه فإذا رأى السلطان قد تغير وصفى لقوله فيه أخذ فى العمل عليه وطلب ضامن دار الفاكهة ورتب معه أن يكتب قصة ويسأل فيها أن يسامح بالذى تأخر عليه فى الجهة أو ينصفه فإن دار الفاكهة وقف حاله فيها بسبب أن شبرا أخذت ساير أعناب (عنب) مرصفا وغيرها فى شبرا وعملوه خمراً ولم يعطوا الذى جرت به العادة، ولما وصلت القصة للسلطان طلب لولو والنشو وسألهم: عرفوه السبب لحضور الضامن ، وقال السلطان: وشبرا لمن هى من الأمراء؟ قال النشو: يا خوند هى للأمير سيف الدين بشتك؛ والأمير سيف الدين ليس عنده من هذا خبر، وأراد بذلك ديوانه جمال الكفاة فطلب السلطان لولو ووالي المدينة وقال: اركبوا إلى شبرا وأى من وجدتم عنده في بيته نبيذ أمسكوه وأحضروه لي، وحذرهم من إهمال ذلك والكشف عليه فسيّر لولو ابن صابر خلف أستادار بشتك أحضره وهدده وسفّه عليه وقال: السلطان يقول أننك أنت وديوانك تعملوا الخمر وتبيعوه وأكسرتوا معاملة السلطان، وتفاوضوا بالكلام وقام أستادار دخل إلى أستاذه وعرفه الذى اتفق له مع لولو ودخل بشتك للسلطان وعرفه: إيش السبب للولو يقول لأستاداري كيت وكيت؟ قال السلطان: ديوانك وأستادارك يعملوا هكذا ويتجوهوا بك؟ سير إلى بلدك حتى أعرف إن كان الذى نقولوه كذب جازيتهم وإن كان صحيح عرفت إيش أعمل، ورسم أن يركب أستاداره صحبتهم وركب والى المدينة ولولو إلى شبرا وكبسوا بيوت النصارى الذى فيها وكان عدة الخمر الذى وجدوه اثنتين وعشرين ألف جرة ووجدوا بعضها مختوم بإسم المُخْلِص أخو النشو فتسلط أستادار بشتك ذلك الوقت عليهم وأمسك النصراني وضربه وكبسوا بيته فوجدوا عنده بقية قند من قند الخاص وستماية جرة عتيقة وألف وخمسماية جديدة، ورأى لولو وابن المرواني الأمر قد عظم بسببب ما وجدوه وقد تسلط أستادار بشتك عليهم بسبب ذلك فرأوا التغاضي فى ذلك الوقت أنسب فعرفوا أستادار بشتك أن الأمر يمشى على خير والباب يستد ولا تجعل النشو عدوك واتفقوا معه أنهم يسدوا الباب فى أمر ذلك

عند السلطان ووافقهم عليه وعند وصولهم عرفوا النشو ما رأوه وأن الكلام فى ذلك ما يؤثر خير فسكت.

ولما دخل لولو والوالي عرفوا السلطان أنهم كبسوا البلد ووجدوا فيها تقدير ألفيّ جرة وهى بسبب النصارى المقيمين فى الكنايس يعملوها كل سنة ويزنوا (يدفعوا) الحق الذى على العنب وأنهم لم يجدوا شيء غير ذلك[1]

وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة هـ في شهر رجب وفيه قدم عدة من النصارى بالغربية، ووقفوا بدار العدل من القلعة للسلطان، وسالوا إعادة كنيسة النحريرية التي هدمها العامة وعملوها مسجداً. فلم يجابوا لذلك، وطردوا بعد ضربهم، وكتب إلى متولى الناحية أن يعمل لهذا المسجد مناراً يؤذن فيه للصلوات الخمس، وتجدد عمارة المسجد، فامتثل ذلك[2].

وفى سنة تسع وخمسين وسبعمائة هـ فى سلطنة الناصر حسن من الحوادث فى هذه السنة كثرة الأوقاف الأحباسية على الديورة والكنائس حتى بلغ قدر ذلك فى ديوان الأحباس من الرزق خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى فلما بلغ ذلك إلى الأمير صرغمتش طلع إلى القلعة وتكلم مع السلطان فى أمر ذلك فرسم له السلطان بأن يكشف عن أمر ذلك ويراجعه فلما نزل الأمير صرغمتش من عنده كشف من ديوان الأحباس عن ذلك فظهر الكشف بصحة ذلك فطلع إلى السلطان وعرض عليه صحة هذا الكشف فرسم له بإخراج تلك الرزق جميعها وفرقها على الأمراء بمربعات زيادة على إقطاعاتهم وأبطل الأوقاف التى كانت على الديورة والكنائس بيد النصارى ثم أن السلطان رسم للأمير صرغمتش بأن يهدم الديورة والكنائس الكبار وكان يومئذ بشبرا بالقاهرة كنيسة كبيرة على شاطئ النيل وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من الحديد وفيه عُقدة من أصبع يسمونه الشهيد وكان للنصارى فيه إعتقاد عظيم وكان هذا الصندوق مقيماً دائماً بهذه الكنيسة يتوارثونه رهبان النصارى واحداً بعد واحد من تقادم السنين فإذا كان يوم الثامن من بشنس

---

1) نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر لليوسفي ص 311-313

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 211

من الشهور القبطية تجتمع الرهبان فى تلك الكنيسة ويخرجوا ذلك الأصبع من الصندوق الخشب ثم يغسلونه فى بحر النيل فى مكان معلوم فى شبرا ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ويسمون ذلك اليوم عيد الشهيد فيجتمع بشبرا سائر من بمصر من الأقباط وتخرج أهل القاهرة قاطبة من أمير ومباشر وغير ذلك وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل وفى الجزائر ولا يبق مغن ولا مغنية ولا رَبّ ملعوب ولا ماجن حتى يجتمع بشبرا وتنفق من الأموال هناك مالا يحصى وتتجاهر الناس بالمعاصى والفسوق حتى يخرجوا فى ذلك اليوم عن الحد وربما كان يقتل فى ذلك اليوم من العوام أو غيرها الواحد أو الاثنين أو أكثر من ذلك من كثر ما يقع هناك من المفاسد ولا يجدون مانعاً من الحكام ولا الولاة والحجاب حتى قيل كان يباع فى شبرا فى يوم عيد الشهيد خمر بثلاثة آلاف دينار فى ثلاثة أيام حتى قيل شبرا كلها كانت تزرع كروماً فتعصر خمراً حتى تباع فى يوم عيد الشهيد فكان خراج شبرا لا يغلق إلا من بيع الخمر فى يوم عيد الشهيد وكان أعيان الأقباط من المباشرين ينزلون فى المراكب وقت إلقاء ذلك الأصبع فى البحر وكانت الشموع تقاد فى المراكب مع القناديل حتى يضيء منها البرّ وتغلق الأشاير فى البرّ فوق الخيام حتى يضيء منها البرّ وتحرق النفوط فى تلك الليالي حتى تدهش العقول من رؤية ذلك، فقام الأمير صرغمتش فى إبطال ذلك الأصبع وإلقائه فى النيل فطلع إلى السلطان وقال له: إن الناس يعتقدون أن النيل لا يزيد إلا بإلقاء ذلك الأصبع فى النيل، ثم أن الأمير صرغمتش شكى إلى السلطان ما يعمل فى يوم عيد الشهيد من المفاسد بشبرا فرسم السلطان لوالى القاهرة علاء الدين بن الكوراني وسائر الحجاب بأن يتوجهوا إلى شبرا ويمنعوا الناس من نصب الخيام على شطوط البحر وأشهروا بالنداء هناك بمنع ذلك ومن نزول المراكب بالليل وأن من فعل ذلك شنق بغير معاودة فرجع الناس عن ذلك من يومئذ وكان يوم الشهيد من أجلّ ما يكون من المتفرجات بالقاهرة وتخرج فيه الناس عن الحد فى القصف والفرجة مما كان يعمل من الأشياء الغريبة من كثرة الخيام والمراكب والوقيد واجتماع الناس هناك وما كان ينفق فى هذه الثلاثة أيام من الأموال الجزيلة التى لا تحصى فى مأكل ومشرب وغير ذلك ثم أن السلطان رسم للأمير لصرغمتش بأن يتوجه إلى شبرا ويهدم تلك الكنيسة التى فيها الأصبع فتوجه الأمير صرغمتش إلى شبرا وهدم الكنيسة وأحضر الصندوق الذى كان فيه الأصبع فلما أحضروه بين يديّ السلطان طلب القضاة

الأربعة وجلس بالميدان الذى تحت القلعة وأمر بحرق ذلك الأصبع بحضرة القضاة ثم رسم بأن يرمى رماده فى البحر وكان حرق ذلك الأصبع يوم الاثنين خامس عشر بيع الأول من تلك السنة[1]

وفى ربيع الآخر سنة سبع وستين وسبعمائة هـ وفيه رسم السلطان لبطرك النصارى بأن يتوجه إلى قبرص بسب الأسراء الذين أسرهم ملك قبرص فتوجه البطرك إلى قبرص بسبب ذلك ورسم السلطان بالقبض على جميع الفرنج الذين كانوا بمصر وبالشام وبحلب وسائر الأعمال قاطبة ولما قبض عليهم أودعهم فى الحبوس حتى يرى ما يكون من أمر من أُسِر من المسلمين[2]

وفي سنة احدى وثمانين وسبعمائة هـ شهر ذي الحجة وفيه حضر إلى القاهرة طائفة ما بين رجال ونساء، ذْكروا أنهم ارتدوا عن الإسلام وقد كانوا قبل ذلك على النصرانية، يريدون بارتدادهم التقرب إلى المسيح بسفك دمائهم، فعرض عليهم الإسلام مرارا فلم يقبلوا، وقالوا: " إنما جئنا لنتطهر ونتقرب بنفوسنا إلى السيد المسيح " فقدم الرجال تحت شباك المدرسة الصالحية بين القصرين، وضُربت أعناقهم، وعرض الإسلام على النساء، فأبين أن يسلمن، فأخذهن القاضي المالكي إلى تحت القلعة، وضرب أعناقهن، فشنّع الفقهاء على القاضي المالكي ضرب أعناق النساء، وأنكروا عليه ذلك. وفيه قدم أيضا بعض رهبان النصارى وقدح في الإسلام، وأصر على قبيحه، فضربت عنقه، وكان هناك ثلاث نسوة، فرفعن أصواتهن بلقلقة ألسنتهن، كما تفعل النساء عند فرحهن، واستبشارا بقتل الراهب، وأظهرن شغفا به، وهياما لما جرى له، وصنعن كصنيعه، من القدح في الإسلام، وأردن تطهيرهن بالسيف أيضا. ثم ضربت رقبة رفيق الراهب في يوم الجمعة ثاني عشرينه تحت شباك الصالحية، وضربت رقاب النسوة الثلاث من الغد، يوم السبت ثالث عشرينه تحت القلعة بيد الأمير سودن الشيخوني الحاجب، وأحرقت جثثهن بحكم أنهن ارتددن عن الإسلام، وأظهرن أنهن فعلن

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 1-1 ص 564-567

2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 1-2 ص 25

هذا لعشقهن في الراهب المذكور. وكان يعرف بأبي نفيفة. و لم نسمع في أخبار العشاق خبرًا أغرب من هذا، ثم جاء بعد ذلك رجل من الأجناد على فرس، وقال للقاضي: " طهرني بالسيف، فإني مرتد عن الإسلام فضرب وسجن[1].

وفى جمادى الأولى سنة خمس وثمانون وسبعمائة هـ من الحوادث فى هذا الشهر بناحية برما من الغربية أن طائفة من النصارى صنعوا عرساً وجمعوا فيه من أرباب الملاهي فلما صعد المؤذن ليسبح على المئذنة فى الليل على العادة فسبوه النصارى ورجموه ثم صعدوا إليه وأنزلوه من على المئذنة وضربوه فجاء خطيب الجامع ليخلصه من أيديهم فأوسعوه سباً ولعناً وقد هموا بقتله فحضر المؤذن والخطيب إلى القاهرة وشكوا أمرهم إلى الأمير سودون النائب فبعث بهم إلى الأمير جركس الخليلى من أجل أن ناحية برما كانت من جملة إقطاعه ولم يأخذ بأيديهم الأمير جركس الخليلى فتوجهوا إلى عند شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى وشكوا له من الأمير جركس الخليلى ثم أن الشيخ ناصر الدين محمد بن الميلق الواعظ تتوجه إلى بيت الأمير جركس الخليلى وأغلظ عليه فى القول بسبب ذلك، ثم أن أهل برما حضروا أجمعين وطلعوا إلى السلطان وأستغاثوا به فتغير خاطر االسلطان على الأمير جركس الخليلى كونه سجن المؤذن والخطيب بغير وجه حق ثم أن السلطان بعث الأمير أيدكار الحاجب إلى برما للكشف عن حقيقة ذلك وما جرى فى برما فتبين له أن النصارى هم الظالمون فقبض على النصارى وحملهم إلى عند السلطان فأمر السلطان بأن يتوجهوا أجمعين إلى بيت قاضى القضاة المالكى فأدعى على النصارى بقوادح فعلوها وأقيمت عليهم البينات بذلك وأمر قاضى القضاة بسجنهم حتى ما يرى السلطان فى أمرهم[2]

وفى سنة احدى تسعين وسبعمائة هـ وفى الثالث من شهر ذى الحجة طلب متى بطريك النصارى فقبض عليه وألزم بحمل مال إلى الأمير منطاش وطلب رئيس اليهود وأخذ منه خمسون ألف درهم فضة[3]

---

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 329-330، وأيضا بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 1-2 ص 250

2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 1-2 ص 330-331

3) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان للصيرفى ج 1 ص 267

وفى سنة احدى وثمانمائة هـ شهر محرم أحضر بعض مسالمة النصارى، من الكتاب الأقباط، إلى باب القلعة من قلعة الجبل، وقد ارتد عن الإسلام، وعرف في إسلامه ببرهان الدين إبراهيم بن بُرَيْنِيَّة مستوفي المارستان المنصوري، فعرض عليه الإسلام مراراً، ورغب في العود إليه، فلم يقبل، وأصر على ردته إلى النصرانية، فسأل عن سبب ردته، فلم يبد شيئاً، فلما أيس منه ضربت رقبته بحضرة الأمير الطواشي شاهين الحسني، أحد خاصكية السلطان[1].

وفى سنة ثلاث وثمانمائة نودي في القاهرة ومصر أن الأمير يلبغا السالمي أمر أن نساء النصارى يلبسن أزراراً زرقاً. ونساء اليهود يلبسن أزراراً صفراً. وأن النصارى واليهود لا يدخلون الحمامات إلا وفي أعناقهم أجراس وكتب على بترك النصارى بذلك إشهاداً، بعد أن جرت بينه وبينه عدة محاورات، حتى أشهد عليه بالتزام ذلك، إلزامه سائر النصارى بديار مصر، وألزم سائر مدولبي الحمامات ألا يكونوا يهودياً ولا نصرانياً من الدخول بغير جرس في عنقه، فقام الأمير تمراز في معارضته. وفي يوم السبت: هذا نزل تمرلنك إلى قطا فملأت جيوشه الأرض، وركب طائفة منهم إلى العسكر وقاتلوهم، فخرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء ثامن عشره إلى يلبغا، فكانت وقعة انكسرت ميسرة العسكر، وانهزم أولاد الغزاوي وغيرهم إلى ناحية حوران، وجرح جماعة، وحمل تمر حملة منكرة، ليأخذ بها دمشق، فدفعته عساكر السلطان وفي عشرينه: نادي الأمير تمراز بالقاهرة من كانت له ظلامة فعلية ببيت الأمير وأن اليهود والنصارى على حالهم، كما كانوا في أيام الملك الظاهر. فبطل ما أمر به السالمي[2].

وفى الرابع والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانمائة هـ خرج الأمير يلبغا السالمى إلى شبرا الخيام من ضواحى القاهرة وكسر بها من جرار الخمر أربعة وأربعين ألف جرة وأراق ما فيها وخرب بها كنيسة للنصارى وعاد فى آخره ومعه عدة أحمال من جرار الخمر فكسرها عند باب زويلة وتحت القلعة ومن حينئذ تلاشى حال أهل شبرا ومنية السيرج فأن معظم أموالهم كانت من

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 490، وأيضاً بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 1-2 ص 510-511

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 3 ص 27

عصير الخمر وبيعه وكان الخمر لا يعمل إلا بشبرا بحيث أن خراج شبرا كان لا يغلق إلا من بيع الخمر[1]

وفى جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانمئة هـ وفيه قبض الأمير يلبغا السالمى على متى بطرك النصارى اليعاقبة وألزمه بمال ليأخذ عنه بضائع فحلف له أن ليس عنده مال وأن سائر ما يرد إليه من المال يصرفه على فقراء المسلمين وفقراء النصارى فوكّل به[2]

وفى يوم السبت خامس عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانمئة هـ نودى فى القاهرة ومصر أن الأمير يلبغا السالمى أمر أن نساء النصارى يلبسن أزاراً زرقاء ونساء اليهود يلبسن أزاراً صفراء وأن النصارى واليهود لا يدخلن الحمامات إلا وفى أعناقهم أجراس وكتب على بطرك النصارى بذلك إشهاداً بعد أن جرت بينه وبينه عدة محاورات حتى أشهد عليه الإلتزام بذلك وإلزامه سائر النصارى بديار مصر وألزم سائر مُدَوْلى الحمامات أن لا يمكنوا نصرانياً ولا يهودياً من الدخول بغير جرس فى عنقه، فقام الأمير تمراز نائب الغيبة فى معارضته، وفى عشرينه من نفس الشهر نادى الأمير تمراز بالقاهرة: من كانت له ظلامة فعليه ببيت الأمير تمراز نائب الغيبة وأن النصارى واليهود على حالهم كما كانوا فى أيام الملك الظاهر فبطل ما أمر به السالمى[3]

وفى شوال سنة سبعة عشر وثمانمائة هـ اشتد المؤيد في جلوسه للحكم على طائفة القبط وأسمعهم ما يكرهون. وضرب جماعة منهم بالمقارع وحط من قدرهم، وأوقع التوكيل بود والنصارى حتى ألزموا بحمل عشرين ألف دينار مصالحة عما مضى لهم من الجزية، واستقر زين الدين قاسم البشتكي في تحصيل ذلك منهم وفي نظر الجوالي[4].

---

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس الحنفى جـ 1-2 ص 594-595 ؛ وأيضاً تاريخ ابن قاضي شهبة جـ 4 ص 149-150

2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 1-2 ص 605

3) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 1-2 ص 605-606

4) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 38-39

وفى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ذلك أنه كان بالجيزة بالجانب الغربي من النيل كنيسة للنصارى فقيل إنهم جددوا فيها شيئاً كثيراً، فتوجه الشيخ سليم من جامع الأزهر ومعه جماعة فهدموها، فاستعان النصارى بأهل الديوان من القبط فسعوا عند السلطان بأن هذا الشيخ افتات على المملكة وفعل ما أراد بيده بغير حكم حاكم، فاستدعى بالمذكور فأهين، فاشتد ألم المسلمين لذلك، ثم توصل النصارى ببعض قضاة السوء إلى أن أذن لهم في إعادة ما تهدم فجر ذلك لهم أن شيدوا ما شاؤا بعلة إعادة المنهدم الأول فلله الأمر[1].

وفى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة في شهر جادى الأول أحضر بطرك النصارى في الإصطبل بعد أن جمع القضاة والمشايخ فسأله عما يقع في الحبشة من إهانة المسلمين فأنكر ذلك، ثم انتدب له المحتسب فأنكر عليه تهاون النصارى بما يؤمرون به من الصغار والذل، وطال الخطاب في معنى ذلك واستقر الحال بأن لا يباشر أحد من النصارى في دواوين السلطان ولا الأمراء ولا غيرهم. ثم أغرى شهاب الدين الإمام ابن أخي قاضي أذرعات السلطان بالأكرم فضائل النصراني كاتب الوزير، فاستدعى به وضربه بالمقارع بحضرته وشهره بالقاهرة عرياناً وسجنه، ثم آل أمره إلى أن أمر السلطان بأن يقتل فقتل، فصغر النصارى العمائم ولزموا بيوتهم وضيقوا أكمامهم ومنعوا من ركوب الحمر بالقاهرة وإذا خرجوا في ظاهرها ركبوها عرضاً، فأنف جماعة من النصارى من الهوان فأظهروا الإسلام فانتقلوا من ركوب الحمر إلى ركوب الخيل المسومة وباشروا فيما كانوا فيه وأزيد منه. وألزم النصارى ألا يدخلوا الحمامات إلا وفي أعناقهم الجلاجل وأن يلبس نساؤهم المصبغات ولا يمكنوا من الأزر البيض، فاشتد الأمر عليهم جداً وسعوا جهدهم في ترك ذلك فلم يعفوا لتصميم السلطان على ذلك[2].

وفى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة هـ وفيه جمع السلطان قضاة القضاة ومشايخ العلم عنده، وأحضر بطرك النصارى اليعاقبة، وأوقف على قدميه ووبخ وقرع، وخوفه السلطان وهدده، وأنكر عليه ما فيه المسلمين من الذل ببلاد الحبشة تحت حكم الحطي متملكها، ثم

---

1) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 73-74

2) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 194-195

انتدب له المحتسب وأسمعه المكروه من أجل تهادن النصارى فيما أمروا به من التزام الذلة والصغار في هياتهم وملابسهم، وطال الكلام في معنى ذلك إلى أن تطور الحال بمنع النصارى من المباشرة مطلقا، وأن يلتزموا ما أمروا به. ثم طلب السلطان بالأكرم فضايل النصراني كاتب الوزير، وكان قد سجن منذ أيام لأمور نسبت إليه، منها المباشرة في ديوان السلطان بعد المنع. وكان الناس قد قاموا عليه. وكاد السلطان أن يميل معه، فكلم إنسان الشهاب الأذرعي أمام السلطان في شأنه، فاتفق أن صلى بالسلطان يوما المغرب، فقرأ فيه بسورة العلق، فلما وصل إلى قوله تعالى: {اقرأ وربك الأكرم أخذ يكررها ويظهر البكاء والخشوع بحيث انفعل السلطان بخشوعه، فلما قضى الصلاة سأله عن سبب خشوعه فقال له إنني أجلت هذا الاسم العظيم، يعني: «الأكرم»، أن يسمى به هذا اللعين اللئيم، يعني «فضايل» النصراني، فكان ذلك أكثر الأسباب في إهانة السلطان للأكرم بعد ذلك، وعد ذلك من حسن ماجريات الأذرعي. ولما وقع هذا انكف الكثير من النصارى عن المباشرة وغير ذلك ولزموا الذل، وأنف جماعة منهم فبادروا إلى إظهار الإسلام، وما بروا، وأخذوا في الانتقام والحقد على من توسموا فيه شيئا مما جرى عليهم. ولله الأمر[1].

وفى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة أنه طلب بطرك اليعاقبة فراجعه في شئ خاطبه به فأغضبه، فأمر بضربه فضرب على رجليه نحو أربعمائة عصى، فاغتاظ القبط لذلك وبالغوا في التأليب على ابن حجى[2]، وفى هذه السنة أيضاً وفيه سرق الإفرنج رأس مرقص أحد من كتب الأناجيل الأربعة من الإسكندرية وكانت موضوعة في مكان، ومن شأن اليعاقبة من النصارى أن لا يولوا بطركا حتى يمضي إلى الإسكندرية ويوضع هذه الرأس في حجره ثم يرجع، ولا تتم هذه البطركية إلا بذلك، فتحيل بعض الفرنج حتى سرقها من الإسكندرية، فاستعظم

1) نيل الأمل فى ذيل دول للقفطى ص 38-39

2) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 344

النصارى اليعاقبة ذلك ووقفوا للسلطان بسبب ذلك[1]، ويؤيد السخاوي فيما يخص رأس القديس مرقص ولكنه يذكر أن حادثة سرقة الرأس تمت سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة[2].

وفى شوال سنة احدى وأربعين وثمانمئة هـ وفيه طلع شخص من الأسافل إلى السلطان وقال: اجعلني فى التحدث فى مواريث النصارى واليهود وأني أحمل من المال للخزائن الشريفة ما هو كيت وكيت فى كل شهر، فأجابه السلطان إلى ذلك ورفع يد بطرك النصارى واليهود من التحدث فى ذلك وأبطل العادة القديمة[3]

وفى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة هـ وفيه ادعى على بطرك النصارى بأنه يتناول مال الموتى الحشرية من النصارى، فادعى أن معه مرسوماً من السلطان، فاستفتى السلطان القضاة، فاتفقوا على أنه من أموال بيت المال، فخلع على فتح الدين المحرقي بنظر سعيد السعداء والنظر على الترك الحشرية من أهل الذمة وشرع في استخلاص ذلك وبطلب ما سبق لاستعادته ممن تناوله ولحق النصارى من ذلك شدة شديدة[4].

فى سنة ست وأربعين وثمانمائة حصل على النصارى مايفوق الوصف لأجل ما وجد داخل كنيسة الملكيين منهم كما تقدم من الأعمدة والأكتاف الجدد المبني كل ذلك بالحجارة المنحوتة حيث ختم عليها وعلى غيرها من الكنائس بمصر والقاهرة لوجود التجديد فى جميعها وحيل بينهم وبين الدخول إليها بقيام الأميني الأقصراي جوزي خبراً إلى أن يظهروا ما أزعموه من المستندات الشاهدة لهم بذلك فما كان بأسرع من اظهارهم المحضر المشار إليه فيما تقدم وتاريخه سنة أربع وثلاثين وسسبعمائة هـ وهذا بعد أن ثبت فى هذا الوقت أنها من الحجارة الجديدة وكونها محدثة مع أنه ليس لهم الإعادة الا بالنقض أو دونه فلما ظهر المحضر وقع

1) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 200

2) البلدانيات للسخاوى ص 77، ويذكر أيضاً ابن إياس فى بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 2 ص 49 أن سرقة رأس القديس مرقص تمت أيضاً فى سنة اتنتين وعشرون وثمانمئة هـ

3) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج2 ص 183

4) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 99

بين القضاة وغيرهم فى ذلك نزاع كثير وانفصل الحال على أن كل ما حكم فيه نائب الشافعى يكمله على مقتضى مذهبه ما عدا ذلك يتولى القاضى المالكي الحكم فيه بنفسه[1]

وفى سنة احدى وخمسين وثمانمائة هـ فى يوم السبت العشرين من جادى الآخرة أمر السلطان بهدم كنيسة للنصارى الملكيين التى بقصر الشمع والسبب فى ذلك أن السيد شهاب الدين أحمد النعماني المصرى بلغه أن النصارى قد أعادوا بدل كل العُمُدْ الحجر المزالة منها سنة ست وأربعين وثمانمائة هـ كما تقدم عُمداً من جبس وآجر بإذن بعض النواب الشافعية فيما بين هاتين المدتين فأجتمع السيد بالقاضى وليّ الدين السفطى وكان ممن يعظم السيد ويجله وذكر ذلك له فوعد بإيصال علمه إلى السلطان وأبطأ عليه برد الجواب فقام السيد وأمر بعض أتباعه بالتوجه معه إلى ضريح الأستاذ أبى الخير الأقطع ثم توجها وذلك فى يوم السبت قبل طلوع الشمس وكشفا عن رؤوسهما وحفيا أقدامهما وقام السيد مستقبل القبلة فقرأ ودعا وسأل الله فى هدم هذه الكنيسة ثم انصرفا إلى الأمير الأقصرائي فوجداه بالرميلة فبدأ بقوله للسيد: كنا عند السلطان فذكر كنيسة الملكيين وأمر بكشفها فى غد، فبكى السيد وحمد الله لسرعة إجابته ولما كان صبيحة اليوم المشار إليه حضر القاضى الشافعى وليّ الدين السفطى وبقية القضاة الأربعة ومن شاء الله من الأعيان إلى الكنيسة المذكورة فوجدت العمد المشار إليها مبنية بالجبس والآجر فادعى حينئذ على طاناس بطريك النصارى الملكيين عن قاضى المالكية لكونه هو المعين من السلطان بسماع الدعوى أن الكنيسة الكائنة بمصر داخل درب يعرف بميكائيل عمداً مبنية بالطوب والجبس عدتها أحدى وعشرون عموداً وعتبة مرسينى كلها محدثة لكونها كانت قبل تاريخه مبنية بالحجر النحيت وحكم بهدمها ثم طلب المدعة إزالة ذلك لكونه حادثاً وقد عوهدوا على عدم الإحداث والترميم فسأل القاضى المدعى عليه عن ذلك بعد مشاهدته البناء المستجد بالطوب والجبس فأجاب بأنه لم يعمر شيئاً من ذلك وإنما عُمِرَ فى زمن البطريك الذى كان قبله المسمى فيلتاوس فسئل المدعى البينة فأحضر .. شهد بأن هذه العمد والأكتاف كانت قبل تاريخه بالجبس الفص ثم هدمت بالشرع وقد أعيدت بعد ذلك بالطوب والجبس المشاهد وأنه استفيض على ألسنة الثقات وغيرهم

1) التبر المسبوك فى ذيل الملوك للسخاوي ص 36

أن هذه الكنيسة حرقت جميعها قبل تاريخه بمدة إلا بعض الجدر ثم أُعيد بعد ذلك ولا يعلم من أعاده وصدر ذلك بحضرة القاضى جلال الدين البكرى فسئل هل صدر منه إذن فى البناء المحدث ا, حكم فيه؟ فأجاب: أنه لم يتقدم له فى ذلك ولا حكم لكونه معصية ولا يسوغ للحاكم الإدن فيه ولا الحكم به، ولم تم هذا كله طولع به السلطان فأقتضى رأيه الإذن فى الحكم بهدم جميع هذه الكنيسة فحينئذ استوفى القاضى الشروط وحكم بهدمها على مقتضى مذهبه وكان حكمه هذا بحضرة السلطان وأركان الدولة بدهليز القاعة التى بداخل الدهيشة وندب السلطان لهدمها وكيل بيت المال أبا الخير النحاس وناظر الأوقاف البرهان بن ظهير ومعلم المعلمين ناصر الدين محمد بن البدرى حسين بن الطولونى وأمر ببيع أنقاضها وأن يعمر من ثمنها المسجد القديم الذى كان بجانبها الغربى ويعرف قديماً بمسجد الطليحى وكانت منارته قد مالت فهدم بأجمعه وعمر جامعاً وجعل كرسى البطريك الذى كان يجلس عليه يوم العيد منبراً بعدما أختصر منه بعضه لمزيد علوه وأخذ فى بناءه من أخشاب الكنيسة بل ومما تأخر بها من العمد الرخام أشياء وكذا أخذت جميع عددها من زجاج ونحاس وجعلت فى الجامع ولم يأخذ من أرض الكنيسة فى الجامع شيء[1]

والأحداث وقعت فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هـ وفي جماد الآخر كانت كائنة اليهود والنصارى وثوران المسلمين بهم في يوم جمعة حتى قرئت المراسيم السلطانية مما كتب لهم بالعهود. وكان من خبر ذلك أن النصارى واليهود كانوا قد خرجوا عن الحد في التعاظم، وركوب الحمير الفره، ولبس الثياب الحسنة الفاخرة، وتكبير العمائم، وكثرة العبيد في خدمتهم ركوبا معهم، واتخاذ الأبنية العالية، واقتناء الجواري الجميلة من ترك وغيرهن، والاستيلاء مع ذلك كله على الكثير من دواوين السلطان والأمراء، وزادوا في الحماقة وقلة اللباقة، وتعدوا الطور في الرقاعة والتعاظم، حتى أن واحدا منهم اجتاز بالجامع الأزهر فتعاظم عليهم، فثار به أهل الجامع، وساعد السيد الشريف نقيب الأشراف، وجرت أمور يطول الشرح في ذكرها آلت إلى قيام شيخو وصرغتمش وبقية الأمراء، وبلغوا السلطان ذلك. ثم عقد مجلس حافل بالقضاة والعلماء، وألزم فيه النصارى واليهود بجريانهم على ما كانوا عليه قديما. وأخرجت لم عدة

---

1) التبر السبوك فى ذيل الملوك للسخاوى ج2 ص 25-27

عهود مكتتبة من القديم، ثم كتبت مراسيم سلطانية، وسار بها البريد إلى جهات بلاد الإسلام بما تقرر في ذلك. واتفق أن قرىء بعضا منها بالجامع الأزهر في يوم جمعة على رؤوس الأشهاد، وكذا بجامع عمرو بن العاص، فلما سمعه السواد الأعظم في خامس عشرين هذا الشهر وقصدوا اليهود والنصارى، وفعلوا بهم أفعالا عجيبة غريبة، ونهبوا ديارهم وكنائسهم، وأوقدوا حفرا بالنيران وصاروا يحملونهم فيلقونهم فيها، فلما شنع الحال في ذلك نودي من قبل السلطان بالمنع من ذلك، فما عف عنهم. وكانت كاينتهم من أعظم الكواين وجرياتها تطول. لما جرت هذه الكاينة ترادفت الأخبار من الوجه القبلي والبحري بأن كثيرا من النصارى أظهروا الإسلام وواظبوا المساجد والعبادات، وقرأوا القرآن، حتى بلغ الأمر في ذلك إلى أن أثبت بعضا منهم عدالته، وجلس مع الشهود. وفشا الإسلام في عامة نصارى مصر بعد ذلك، حتى قيل إنه أسلم من قليوب خاصة في يوم واحد نحوا من خمسماية نفر، وممن أسلم في هذه الحادثة الشمس المقسي، جد بني المقسي الذي منهم التاج ناظر الخواص، والهيصم جد بني الهيصم الوزراء، وغيرهم. وأشيع على ألسنة الناس، لا سيما العامة، أن هذه الأفعال منهم مكر، في رجب استغاث الناس إلى السلطان في قوة الإسلام يتمم الأمر في قضية اليهود والنصارى، ووقعت عدة قصص على لسان المسلمين بدار العدل تتضمن أن النصارى استجدوا في كنائسهم عمائر ووسعوا بناءها، إلى غير ذلك من أشياء ذكروها، فبرز أمر السلطان بأن تهدم الكنائس المستجدة، فلم يسمع العوام إلا ذلك حتى ثاروا يدا واحدة وهم يضجون. وركب والي القاهرة ليكشف عن صحة ما ذكروه، فما أمهلوه، وأخذوا في هدم الكنائس وتشمروا لذلك، وفعلوا أفعالا غريبة أيضا عجيبة بعد ذلك الأفعال كلها، وتمادى الحال بالعوام على ذلك حتى عجز الحكام عن ردهم[1].

وفى سنة ست وخمسين وثمانمائة هـ في يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر توفي بطريق النصارى أبو الفرج النصراني اليعقوبي ودفن من الغد[2] وفى بوم الأربعاء الثانى عشر من شهر

1) نيل الأمل في ذيل الدول لابن شاهين الملطي ص 266-268

2) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور لابن تغرى ج 2 ص 361

جمادى الآخر استقر النصراني سليمان اليعقوبي بطريق النصارى عوضا عن أبي الفرج النصراني الهالك قبل تاريخه بعد شغورها أشهرا حتى قدم هذا من بلاد الصعيد[1].

فى سنة تسعة وتسعين وثمانمائة وفي مستهلها خلع بنيابة القلعة للأمير برد بك أحد مماليك السلطان، فدخل القلعة متضعفاً على نية أن يلبس تشريفه إذ طاب بعد أيام، فقضى نحبه عشية الاثنين ثالث هذا الشهر المحرم. وفي يوم الاثنين عاشوراء، أمر النائب بتوسيط نصراني اسمه إسحاق اللحام، لأجل أنه قتل زوجته التي كانت ترضع ولده منها، لكونها فرضت عليه فرضاً دراهم؛ فوسط على باب بيتها بحارة النصارى[2].

أيضاً فى سنة 856 ست وخمسين وثمانمئة للهجرة فى ربيع الأول: كلم القاضى الشافعى السلطان فى أن عند أهل الذمة رقيقاً كثيراً، وأن ذلك لا يحل، لكونهم مسلمين لتبعهم للسابى، وأن سباتهم مسلمون، فأخذ منهم نحو مائة رأس، وجمع العلماء من المذاهب لذلك، فقال الشيخ أمين الدين يحيى بن الأقصرئى: الأمر أعظم من ذلك فإن أولاد مسلمة القبط فيما تواتر لنا نصارى، فعزم على تفتيش بيوت القبط ثم كتب على النصارى قسوسهم بمنعهم من شراء الرقيق، ومتى إشترى أحد منهم شيئاً من ذلك انتفض عهدهم، وكان السلطان بالخيار فى دمائهم، وإسترقاقهم وأسرهم[3].

وفى رمضان سنة ثمان عشر وتسعمائة هـ أن شخصاً من النصارى يقال له عبد الصليب وهو من نواحى دلجة من الجهات القبلية فقيل عنه أنه وقع فى حق النبى بكلمات فاحشة فشهدوا عليه جماعة بذلك وكتبوا به محضراً وثبت على قاضى الناحية فلما أحضروا النصراني بين يدي السلطان فأعترف بما قاله فى حق النبى فأعرضوا عليه الإسلام فأبى فبعثه السلطان إلى بيت الأمير طومان باى الدوادار فعقد له مجلس فأعترف بين يدي القضاة بما قاله وصمم على ذلك وقد بايع نفسه على عدم تغيير دينه فحكموا القضاة بسفك دمه وثبت ذلك على

1) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور لابن تغرى ج 2 ص 367

2) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، شمس الدين بن خمارويه بن طولون جـ 1 ص 126

3) إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تاريخ البقاعى، الجزء الأول ص 200

بعض نواب المالكية فأركبوه على جمل وهو مُسَمَّر وأشهروه فى القاهرة وأتوا به إلى عند المدرسة الصالحية فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة ثم أن العوام أحضروا له النار والحطب وأحرقوا جثته فى وسط السوق فلما دخل الليل أكلوا الكلاب عظامه[1].

وفى يوم الاثنين من عشرينه من محرم سنة تسعة عشر وتسعمائة هـ كان أول يوم فى الخماسين وهو عيد النصارى فكانت النصارى فى هذا العيد فى غاية النكد بسببب ما قرر عليهم السلطان من المال وهو نحو من عشرين ألف دينار وذلك بسبب أنهم يُشتَرى لهم جوار للخدمة فتغير خاطر السلطان عليهم ومنعهم من ذلك وقد ترافعوا فى بعضهم فخنق السلطان منهم وصادرهم وضيق عليهم فكانوا فى هذا العيد فى غاية الضرر[2].

كانت نتيجة شكوى أعيان الوجه البحرى إلى والي مصر، أنه قرر عزل البطريرك وتعيين بطريرك آخر يسمى يوأنس، واسمه العلمانى: جرجس بن بطرس، وفور تعيينه، أخذ هذا البطريرك الجديد يستبعد معاوني البطريرك المعزول (البابا مرقس الخامس) ويعين بدلا منهم معاونين جدداً، خاصة من يتعلق بإدارة الأوقاف[3].
ويظهر جانب من هذا الصراع في منطقة قصر الشمع بمصر القديمة، ولابد أن نوضح خصوصية سكان منطقة قصر الشمع بمصر القديمة، حيث جميع سكانها من القبط، ومعظمهم يستأجرون مساكنهم من أوقاف الكنائس؛ إذ أن معظم المنازل والمرافق في هذه المنطقة جارية في أوقاف كنائس مصر القديمة، لذلك سيكون تأثر هذه المنطقة بالتغييرات في المناصب الكنسية يحمل بعدين: الأول هو كونهم قبطا يدينون بالولاء للرئاسة الكنسية، ولهم مواقفهم مثلهم مثل باقي القبط. الثاني، هو علاقتهم المباشرة بإدارة أوقاف الكنيسة، حيث أنهم يدخلون في علاقات قانونية من خلا إيجارهم لمساكن، والتي تتطلب موافقة ناظر الوقف على استمرار عقود إيجارها، وبالتالى فتغيير نظار الوقف قد يضر أو يفيد مصالحهم

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 4 ص 286
2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 4 ص 297
3) سجلات محكمة مصر القديمة، س 98 / م 444 ، ص 127 ، 22 القعدة 1018 هـ (16 فبراير 1610 م)؛ م 1095 ، ص 309 ، 18 الحجة 1019 هـ (3 مارس 1611 م). ؛ الروزمانة العدد السادس 2008، ص 115

الاقتصادية، وبالتالى قد يؤثر في مواقفهم تجاه الأحداث الجارية على مستوى الرئاسة الدينية. بدأت المشاكل مع أسرة البطريرك المعزول، البابا مرقس الخامس، حيث رفع البطريرك الدخيل شكوى ضد أخي البابا مرقس الخامس (البطريرك المعزول) وأبيه، يتهمهما فيها بوضع أيديهما على ممتلكات تابعة لوقف البطريركية، فأحالها الوالي إلى قاضى مصر القديمة للنظر فيها، وفعلا تم القبض على أخي البطريرك وأبيه، وتلقب الوثيقة البابا مرقس "بطرك النصارى سابقاً"[1].

وأخذ وكيل البطريرك الدخيل يتشدد في ملاحقة الموالين للبابا مرقس الخامس في منطقة قصر الشمع، ويبدو أن القبط في هذه المنطقة انقسموا إلى حزبين: أحدهما موال للبطريرك الأصلي المخلوع، والآخر ضده ومع البطريرك الدخيل. وتعددت القضايا المنظورة بين الموالين للبطريرك السابق ووكيل البطريرك الدخيل في محكمة مصر القديمة، ومعظم هذه القضايا انتهت لصالح وكيل البطريرك الدخيل، وقبول سكان مصر القديمة بالأمر الواقع وإجبارهم على قبول تصرفات المعلم ميخائيل كوكيل عن البطريرك الدخيل[2]. الجانب الآخر من هذا الصراع كان بين هذين الحزبين، حتى أن بعض السكان استطاعوا الحصول على أحكام من المحكمة بطرد نصارى آخرين من منطقة قصر الشمع، بدعوى ضررهم لسكان المنطقة[3].

عاد البطريرك المعزول، مرقس الخامس، مرة أخرى إلى منصبه في عام 1611 م فأخذ يصحح الأوضاع التي نتجت عن التغيرات التي أدخلها، ودار صراع مرير بين الموالين للبطريرك الدخيل وبين أعوان البطريرك الأصلى، وبعد عودة البطريرك توجه عدد كبير من نصارى قصر الشمع مؤيدين لقرار البابا مرقس الخامس بعزل الوكيل الذى عينه البطريرك الدخيل وتعيين آخر بدلا منه[4]. وحدث ذلك مع معظم نُظار كنائس مصر القديمة. ولكن وقف وكيل

---

1) سجلات محكمة مصر القديمة، س 98 / م 444 ، ص 127 ، 22 القعدة 1018 هـ (16 فبراير 1610 م). ؛ الروزمانة العدد السادس 2008، ص 115-116

2) سجلات محكمة مصر القديمة، س 98 / م 1328 ، 1329 / ص 368 ، 369 ، جمادى الأولى 1020 هـ (يوليو 1611م). ؛ الروزمانة العدد السادس 2008، ص 116

3) سجلات محكمة مصر القديمة، س 98 / م 701 ، 702 ، 817 (28 ربيع ثان - 21 جمادى الثانية 1019 هـ (20 يوليو - 10 سبتمبر 1610 م).

4) سجلات محكمة مصر القديمة، س 100 / م 2205 ، ص 577 . 20 شعبان 1021 هـ (16 أكتوبر 1612 م). ؛ الروزمانة العدد السادس 2008، ص 116-117

البطريرك السابق بقوة ضد هذه التصرفات محتجاً بأن بيده مستندات رسمية من بطريرك رسمى (يقصد البطريرك الدخيل(تحفظ حقوقه القانونية كناظر للأوقاف. ولكن الحسم في هذه القضايا يستند على جمع أكبر عدد من القبط الساكنين بمنطقة قصر الشمع للمطالبة بعزل الناظر القديم وتعيين بديلا عنه يرشحه البطريرك[1].

وفى ولاية راغب محمد باشا الذى مدة ولايته 1159-1163هـ/1746-1748م كانت واقعة النصارى: أراد البترك أن يزور القمامة القدسية ويحضر سبت النور هناك ويزور بيت لحم فأرسلت المباشرين إلى العرب طيبوا خواطرهم على تودية البترك إلى القدس، وإذا بنسوان المباشرين قالوا: ونحن نروح نزور صحبة أبونا من البر، وإذا بهم اشتروا جمال وأرحال وعملوا أحمال خشب نفطي وزوقوا الأرحال وجهزوا الأحمال وأرسلوهم إلى العادلية مع الخام والخيام والعازق وطلعت الغلمان ترود بالجمال والبترك راكب بغلة والمباشرين عبد الملاك كاتب الشون وخلافهم والنساء مغطيين رؤوسهم بالشيلان الكشميري وقدامهم الحنك وخلفهم النوبي التركي والغلمان بالمشاعل ملفوفة بالفوط الزردخان وطلعوا من حارة الروم على العقادين على الغورية بهذه الطلعة شافتهم سادتنا العلما قالوا: كيف يتمثلوا بالمسلمين، فأرسلوا أخذوا فرمان من قايمقام خطابا إلى أغاة الإنكشارية أن ينزل يمنعهم من سفر البر وأن ينهب كامل ما معهم وإذا به أعطاهم الفرمان ونزل أغاة الإنكشارية والوالي إلى العادلية وكان عثمان بيك أبو سيف قاعد على غفر سبيل علام فراحت النصارى وقعت ف عرضه شال كامل حوايجهم فنزل الوالي والأغا العادلية فما وجدوا أحداً من النصارى فنادوا أن لا أحداً من النصارى يسافر فى البر وكل من خالف يستاهل ما يجرى عليه ركبوا أتوا إلى مصر كانت سنة مشومة على قبط النصارى[2].

وفى سنة ست وستين ومائة وألف للهجرة ١٧٥٢م، حدث فيها أن نصارى الأقباط قصدوا الحج إلى بيت المقدس، وكان كبيرهم إذ ذاك نوروز كاتب رضوان كتخدا، فكلم الشيخ عبد

---

1) سجلات محكمة مصر القديمة، س 100 / م 431 ، ص 45 15 جمادى الآخر 1026 هـ (20 يوليو 1617 م).

2) الدرة المصانة للأمير أحمد الدمرداشي كتخدا عزبان ص247

الله الشبراوي في ذلك وقدم له هدية وألف دينار، فكتب له فتوى وجوابًا ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم، فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا في قضاء اشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا في هيئة وأبهة وأحمال ومواهي، وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا عند قبة العزب، وأحضروا العربان ليسيروا في خفارتهم وأعطوهم أموالا وخلعا وكساوى وإنعامات، وشاع أمر هذه القضية في البلد واستنكرها الناس، فحضر الشيخ عبد الله الشبراوي إلى بيت الشيخ البكري كعادته، وكان علي أفندي أخو سيدي بكري متمرضًا، فدخل إليه يعوده فقال له: «أي شيء هذا الحال يا شيخ الإسلام؟» على سبيل التبكيت «كيف ترضى وتفتي النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال لكونهم أرشوك وهادوك؟» فقال: «لم يكن ذلك» قال: «بل أرشوك بألف دينار وهدية، وعلى هذا تصير لهم سُنة، ويخرجون في العام القابل بأزيد من ذلك، ويصنعون لهم محملًا ويقال: حج النصارى وحج المسلمين وتصير سُنة عليك وزرها إلى يوم القيامة»، فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظًا وأذن للعامة في الخروج عليهم ونهب ما معهم، وخرج كذلك معهم طايفة من مجاوري الأزهر، فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصي والمسارق، ونهبوا ما معهم وجرسوهم ونهبوا أيضًا الكنيسة القريبة من دمرداش، وانعكس النصارى في هذه الحادثة عكسة بليغة، وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه في الهباء[1].

فى سنة أربع وثمانين وماية وألف هجرية 1769م: حصلت للتاجر الخير الصدوق الصالح الحاج عمر بن عبد الوهاب الطرابلسي الأصل الدمياطي، سكن دمياط مدة وهو يتجر، حصلت له قضية مع بعض أهل الذمة التجار بالثغر، فتطاول عليه الذمي وسبه فحضر إلى مصر وأخبر الشيخ الحفني، فكتبوا له سؤالًا في فتوى وكتب عليه الشيخ جوابًا وأرسله إلى الشيخ الوالد فكتب علي جوابًا وأطنب فيه ونقل من الفتاوى الخيرية جوابًا عن سؤال رفع للشيخ خير الدين الرملي في مثل هذه الحادثة بحرق الذمي ونحو ذلك، وحضر ذلك النصراني في إثر حضور الحاج عمر خوفًا على نفسه، وكان إذ ذاك شوكة الإسلام قوية فاشتغل مع جماعة الشيخ بمعونة كبار النصارى بمصر بعد أن تحققوا حصول الانتقام وفتنوهم بالمال

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 2 ص 10-11

فأدخلوا على الشيخ شكوكًا وسبكوا الدعوى في قالب آخر، وذلك أنه لم يسبه بالألفاظ التي ادعاها الحاج عمر وأنه بعد التسابب صالحه وسامحه وغيروا صورة السؤال الأول بذلك، وأحضروه إلى الوالد فامتنع عن الكتابة عليه؛ فعاد به الشيخ حسن الكفراوي فحلف لا يكتب عليه ثانيًا أبدًا وتغير خاطر الحاج عمر من طرف الشيخ واختل اعتقاده فيه، وسافر إلى دمياط ولم يبلغ قصده من النصراني، ومات الشيخ بعد هذه الحادثة بقليل[1]، وبعد أن انتهت رياسة مصر إلى علي بك وارتفع شأن النصارى في أيامه بكاتبه المعلم رزق والمعلم إبراهيم الجوهري، فعملوا على نفي المترجم من دمياط فأرسلوا له من قبض عليه في شهر رمضان ونهبوا أمواله من حواصله وداره ووضعوا في رقبته ورجليه القيد، وأنزلوه مهانًا عريانًا مع نسائه وأولاده في مركب وأرسلوه إلى طرابلس الشام، فاستمر بها إلى أن زالت دولة علي بك واستقل بإمارة مصر محمد بك وأظهر الميل إلى نصرة الإسلام[2].

وفى نفس سنة أربع وثمانين وماية وألف هجرية 1770م: فى سابع عشر من شهر القعدة، طلب علي بك حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجي وباش قلفة وإسماعيل أغا الزعيم وآخرين، وصادرهم في نحو أربعماية كيس بعد ما عوقوهم أيامًا. وفي أواخره عمل علي بك دراهم على القرى وقرر على كل بلد ماية ريال وثلاثة ريال حق طريق؛ فضجت الناس من ذلك، وطلب من النصارى والقبط ماية ألف ريال، ومن اليهود أربعين ألفًا وقبضت جميعها في أسرع وقت[3].

وفى سنة ست وثمانين وماية وألف هـ١٧٧٢م، نادى محمد بك أبو الدهب بإبطال المعاملة التي ضربها على بك الكبير بيد رزق النصراني، وهي قروش مفرد ومجوز، وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف قرش، وكان أكثر ما نحاسا وعليها علامة علي بك[4]، ويذكر الجبرتى عن محمد بك أبو الدهب: كان يحب أهل العلم ويكره النصارى كراهة شديدة وتصدى لأذيتهم أيام كتخدائيته لمحمد بك، وكتب في حقهم فتاوي بنقضهم العهد وخروجهم عن طرايقهم التي

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 108-109

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 110

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 2 ص 252-253

4) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 2 ص 285-286

أخذ عليهم بها من أيام سيدنا عمر رضي الله عنه، ونادى عليهم ومنعهم من ركوب الحمير، ولبسهم الملابس الفاخر وشراهم الجواري والعبيد واستخدامهم المسلمين وتقنع نسايهم بالبراقع البيض ونحو ذلك، وكذلك فعل معهم مثل ذلك عندما تلبس بالصنجقة، وكان له اعتقاد عظيم في الشيخ محمد الجوهري، ويسعى بكليته في قضاء أشغاله وحوايجه، وكان لا بأس به[1].

فى سنة مايتين وألف هـ (١٧٨٥م) فى شوال: فيه أيضًا نودي على طايفة النصارى بأن لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد ومن كان عنده شي من ذلك باعه أو أعتقه، وأن يلزموا زيهم الأصلي من الزنار والزنوط.

وفيه أرسل حسن باشا إلى القاضي وأمر بالكشف عن جميع ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهري على الديور والكنايس من أطيان ورزق وأملاك، والمقصود من ذلك كله استجلاب الدراهم والمصالح، وفي يوم الخميس نودي على طايفة النصارى بالأمان وعدم التعرض لهم بالإيذاء، وسببه تسلط العامة والصغار عليهم[2].

وفى يوم الأربع الثامن والعشرون من شوال: نودي على النصارى واليهود بأن يغيروا أسماهم التي على أسما الأنبيا كإبراهيم وموسى وعيسى ويوسف وإسحق، وأن يحضروا جميع ما عندهم من الجواري والعبيد، وإن لم يفعلوا وقع التفتيش على ذلك في دورهم وأماكنهم، فصالحوا على ذلك بمال فحصل العفو وأذنوا لهم في أن يبيعوا ما عندهم من الجواري والعبيد ويقبضوا أثمانهم لأنفسهم ولا يستخدموا المسلمين، فأخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه وأودعوه عند معارفهم من المسلمين[3].

وفى يوم الأحد الثانى من ذى القعدة: فيه نودي على النصارى بإحضار ما عندهم من الجواري والعبيد ساعة تاريخه، ثم نزلت العساكر وهجمت على بيوت النصارى واستخرجوا ما فيها فكان شيًّا كثيرًا وأحضروهم إلى القبطان فأخرجوهم إلى المزاد وباعوهم واشترى غالبهم

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 2 ص 379

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 147

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 152

العسكر، وصاروا يبيعونهم على الناس بالمرابحة فإذا أراد إنسان أن يشتري جارية ذهب إلى بيت الباشا وطلب مطلوبه فيعرض عليه الجواري من مكان عند باب الحريم، فإذا أعجبته جارية أو أكثر حضر صاحبها الذي اشتراها فيخبره برأس ماله ويقول له: وأنا آخذ مكسبي كذا فلا يزيد ولا ينقص، فإن أعجبه الثمن دفعه وإلا تركها وذهب، ثم وقع التشديد على ذلك وأحضروا الدلالين والنخاسين القدم والجدد واستدلوا منهم على المبيوعات، وفيه جمع القبطان المهندسين ليستخير منهم عن الخبايا والدفاين التي صنعوها في البيوت وغيرها، وفي يوم الاثنين أمر القبطان الأمرا والصناجق والوجاقلية أن يذهبوا للسلام على عابدي باشا ودرويش باشا، فذهب الصناجق أولًا بساير أتباعهم وطوايفهم وتلاهم الوجاقلية فسلموا ورجعوا من البساتين وكلاهما في جمع كثير، وفي يوم الثلاثا رابعه حضر عابدي باشا عند القبطان وسلم عليه ثم طلع إلى القلعة وسلم على محمد باشا المتولي ثم نزل، وخرج إلى مخيمه بالبساتين، وفيه قرر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمرا المصرية مبلغ دراهم مجموع متفرقها خمسة وسبعون ألف ريال، وفيه أمر أيضًا بإحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو في ملكهم وأن يكتب جميع ذلك في قوايم ويقرر عليها أجرة مثلها في العام، وأن يكشف في السجل على ما هو جار في أملاكهم، ثم قرر عليهم أيضًا خمسماية كيس وزعوها على أفرادهم فحصل لفقرايهم الضرر الزايد، وقيل: إنهم حسبوا لهم الجواري المأخوذة منهم من أصل ذلك على كل رأس أربعون ريالًا، وقرر أيضًا على كل شخص دينارًا جزية، العال كالدون، وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة[1].

وفى يوم الخميس سادس ذى القعدة: فيه قبض القبطان على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقًا من ودايع النصارى[2].

فى سنة اثنتين ومايتين وألف هـ (١٧٨٧م) فى الخامس من شهر رجب، وفيه قتل حمزة كاشف المعروف بالدويدار، رجلًا نصرانيًّا روميًّا صايغًا، اتهمه مع حريمه فقبض عليه وعذبه أيامًا وقلع عينيه وأسنانه وقطع أنفه وشفتيه وأطرافه حتى مات، بعد أن استأذن فيه حسن بك

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 153

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 154

الجداوي، وعندما قبض عليه أرسل حسن بك ونهب باقي حانوته، من جوهر ومصاغ، ومتاع الناس، وغير ذلك، وطلق الزوجة بعد أن أراد قتلها، فهربت عند الست نفيسة زوجة مراد بك[1].

وفى يوم الثلاثاء سادس ربيع الأول: حضر عابدي باشا وإسماعيل بك إلى بيت الشيخ البكري باستدعاء بسبب المولد النبوي، فلما استقر بهم الجلوس التفت الباشا إلى جهة حارة النصارى وسأل عنها، فقيل له: إنها بيوت النصارى فأمر بهدمها وبالمناداة عليهم من ركوب الحمير فسعوا في المصالحة، وتمت على خمسة وثلاثين ألف ريال منها على الشوام سبعة عشر ألفًا وباقيها على الكتبة[2].

وفى شهر رجب في يوم الأحد عشرينه: كان عيد النصارى وفيه تقررت الفردة المذكورة، وسافر لقبضها سليم بك أمير الحج ولم يفد من قيام الوجاقلية وسعيهم في إبطالها شيء، فإنهم لما عارضوا في ذلك فتح عليهم طلب المساعدة، وليس بأيدي الملتزمين شيء يدفعونه، فقال: إذا كان كذلك فإننا نقبضها من البلاد. فلم يسعهم إلا الإجابة[3].

فى سنة ثلاث عشر مائتين وألف هجرية يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة 1798م، وفيه قلدوا برطلمين النصراني الرومي، وهو الذي تسميه العامة فرط الرمان كتخدا مستحفظان، وركب بموكب من بيت صاري عسكر، وأمامه عدة من طوايف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة بزٍّ عادة، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة، ورتب له بيوك باشي، وقلقات عينوا لهم مراكز بأخطاط البلد يجلسون بها، وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارٍ، وغير ذلك، والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر، وكان من الطبجية عند محمد بك الألفي، وله حانوت بخط الموسكي يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة[4].

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 330

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 206

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 213

4) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 20

وفى يوم السبت ثامن عشر ربيع الثانى: وفيه وقعت حادثة جزئية من جملة الجزئيات، وهي أن رجلًا صيرفيًّا بجوار حارة الجوانية وقع من لفظه أنه قال: السيد أحمد البدوي بالشرق، والسيد إبراهيم الدسوقي بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى، وكان هذا الكلام بمحضر من النصارى الشوام، فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول، ووقع بينهما التشاجر، فقام النصراني وذهب إلى دبوي، وأخبره بالقصة فأرسل وقبض على ذلك الصيرفي وحبسه وسمر حانوته، وختم على داره، وتشفع فيه المشايخ عدة مرار، فأطلقوه بعد يومين وأرسلوه إلى بيت الشيخ البكري ليؤدب هناك بالضرب، أو يدفع خمسماية ريال فرانسة، فضرب ماية سوط وأطلق إلى سبيله، وكذلك أفرجوا عن بقية المسجونين[1].

وفى يوم الاثنين حادى عشرين شعبان: وضع القبض بالقلعة على رجل نصراني مكاس؛ لأنه بلغه أنه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ومراده رفع الظلم عن كاهل الخلق، ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس؛ لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأفخم، وتحفظ البضايع من اللصوص وقطاع الطريق، وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم، واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم، وعليكم بالرضا بقضا الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة[2].

وفى يوم الثلاثاء سابع رمضان: إن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة في لبس العمايم السود والزرق، وتركوا لبس العمايم البيض والشيلان الكشميري الملونة والمشجرات، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك، نهوا أيضًا بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولًا، ولا يتجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيًّا من ذلك بمرأى منهم، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية، حتى إن بعض الرعية من الفقها مر على بعض النصارى وهو يشرب الدخان فانتهزه فرد عليه ردًّا شنيعًا، فنزل ذلك المتعمم وضرب النصراني، واجتمع عليه الناس وحضر حاكم الخطة فرفعهما إلى قايمقام،

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 34

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 63

فسأل من النصارى الحاضرين عن عادتهم في ذلك، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون في الأسواق ولا بمرأى من المسلمين أبدًا، فضرب النصراني وترك المتعمم لسبيله[1].

وفى يوم الأربع سابع ذى الحجة: في ذلك اليوم أيضًا مر نصراني من الشوام على المشهد الحسيني وهو راكب على حمار فرآه ترجمان ضابط الخطة ويسمى السيد عبد الله، فأمره بالنزول إجلالًا للمشهد على العادة، فامتنع فانتهره وضربه وألقاه على الأرض، فذهب ذلك النصراني إلى الفرنسيس، وشكا إليهم السيد عبد الله المذكور فأحضروه وحبسوه فشفع فيه مخدومه فلم يطلقوه، وادعى النصراني أنه كان بعيدًا عن المشهد، وأحضر من شهد له بذلك وأن السيد عبد الله متهور في فعله، وادعى أنه ضاع له وقت ضربه دراهم كانت في جيبه، واستمر الترجمان محبوسًا عدة أيام حتى دفع تلك الدراهم وهي ستة آلاف درهم[2].

فى سنة أربعة عشر مائتين وألف هجرية يوم سادس عشر صفر: اتفق أنه تشاجر بعض المسلمين بحارة البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة مع بعض نصارى الشوام، فقال المسلم للنصراني: إن شا الله تعالى بعد أربعة أيام نشتفي منكم، وكلامًا من هذا المعنى، فذهب ذلك النصراني إلى الفرنسيس مع عصبة من جنسه، وأخبروهم بالقصة وزادوا وحرفوا وعرفوهم أن قصد المسلمين إثارة فتنة، فأرسل قايمقام إلى الشيخ المهدي وتكلم في شأن ذلك، وحاججه وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان فقام المهدي خطيبًا وتكلم كثيرًا، ونفى الريبة وكذَّب أقوال الأخصام وشدد في تبرية المسلمين عما نسب إليهم، وبالغ في الحطيطة والانتقاص من جانب النصارى، وهذا المقام من مقاماته المحمودة، ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم[3].

وفى عشرين شوال: كان الفرنساوية عندما تراسلوا وتفرسوا في عرضي العثمانيين وعساكرهم وأوضاعهم، وتحققوا حالهم وعلموا ضعفهم عن مقاومتهم، فلما حصر ما ذكر تأهبوا للمقاومة والمحاربة وردوا آلاتهم إلى القلاع، فلما تمموا أمر ذلك وحصنوا الجهات وأبقوا من

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 67

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 87

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 113-114

أبقوه وقيدوه بها من عساكرهم واستوثقوا من ذلك، خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر، وانتشروا في تلك النواحي، ولم يبقَ بداخل المدينة منهم إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الألفي بالأزبكية وبعض بيوت الأزبكية، وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل. طلبوا مصطفى باشا وحسن أغا نزله أمين، فلما حضرا إليهم أرسلوهما للجيزة، فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شوال ركب ساري عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره، وصحبتهم المدافع وآلات الحرب، وقسَّم عساكره طوابير، فمنهم من توجه إلى عرضي الوزير، ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم، فلم يسعهم إلا الجلا والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم، وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر، فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين من إخوانهم إلى جهة العرضي بالخانكاه، بعد أن نهبوا ما في عرضي ناصف باشا من المتاع والأغنام، وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا إلى جهة العرضي، فلما قاربوه أرسلوا إلى الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات، فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية في أثره وغالب عساكره مفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال ومقررات الفرض وظلم الفقرا.

أما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال، ولم يدركوا حقيقة الحال، فهاجوا ورمحوا إلى أطارف البلد، وقتلوا أشخاصًا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم، وذهبت شرذمة من عامة أهل مصر فانتهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضي الفرنساوية.

وخرج السيد عمر أفندي نقيب الأشراف والسيد المحروقي وانضم إليهما أتراك خان الخليلي والمغاربة الذين بمصر، وكذلك حسين أغا شنن أخو أيوب بك الصغير، وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر بأيدي الكثير منهم النبابيت والعصي والقليل معه السلاح، وكذلك تحزب كثير من طوايف العامة والأوباش والحشرات، وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق، وخرج الكثير منهم إلى خارج البلدة على تلك الصورة، فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح، وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشي لجهلهم أيضًا حقيقة الحال.

ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر، فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم، وخلفهم عثمان كتخدا الدولة، ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقي وحسن بك الجداوي وعثمان بك المرادي وعثمان بك الأشقر وعثمان بك الشرقاوي وعثمان أغا الخازندار وإبراهيم كتخدا مراد بك المعروف بالسناري، وصحبتهم مماليكهم وأتباعهم، فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذي الفقار، فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة: اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم، فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم، ومروا مسرعين يقتلون من يصادفون من نصارى القبط والشوام وغيرهم، فذهب طايفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي، فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان، ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم، فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العساكر الفرنساوي والأروام، وقد كانوا قبل ذلك محترسين، وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر، فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمي البندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر ويحامون عن أنفسهم، والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور، ويتسورون عليها، وبات نصوح باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوايف من العساكر بخط الجمالية بوكالة ذي الفقار.

فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية، وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفانية فعالجوها حتى فتحوها، وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه، وشد وسطه ومشى وصحبته الأمرا المصرية على أقدامهم، وجرُّوا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت الألفي، وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية، فضربوهم أيضًا بالمدافع والبنادق[1].

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، ج 4 ص 136-138

فى شهر ربيع الثانى سنة خمسة عشر مائتين وألف هجرية سنة 1800م: فيه اشتد أمر المطالبة بالمال وعُيِّنَ لذلك رجل نصراني قبطي يسمى شكر الله، فنزل بالناس منه ما لا يوصف، فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب المال وصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة، وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك، وخصوصًا ما فعله ببولاق، فإنه كان يحبس الرجال مع النسا ويدخن عليهم بالقطن والمشاق وينوع عليهم العذاب، ثم رجع إلى مصر يفعل كذلك، وفيه أغلقوا جميع الوكايل والخانات على حين غفلة في يوم واحد وختموا على جميعها، ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضايع والأقمشة والعطر والدخان خانًا بعد خان، فإذا فتحوا حاصلًا من الحواصل قوَّموا ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان وحسبوا غرامته، فإن بقي لهم شي أخذوه من حاصل جاره، وإن زاد له شي أحالوه على جاره الآخر كذلك وهكذا، ونقلوا البضايع على الجمال والحمير والبغال وأصحابها تنظر وقلوبهم تتقطع حسرة على مالهم، وإذا فتحوا مخزنًا دخله أمناهم ووكلاهم فيأخذون ما يجدونه من الودايع الخفيفة أو الدراهم، وصاحب المحل لا يقدر على التكلم، بل ربما هرب أو كان غايبًا[1].

وفى نفس السنة: اتفق أنه وقعت مشاجرة في بعض الأيام بين بعض نصارى الأروام القليونجية، وبعض السوقة بمصر القديمة فتعصب النصارى على أهل البلد وحاربوهم وقتلوا منهم نيفًا وعشرين رجلًا، وانتهت الشكوى إلى الأمير فطلب كبيرَهم فعصى عليه وامتنع من مقابلته، وعمَّر مدافع المراكب ووجهها جهة قصره، فلم يسعه إلا التغافل وراحت على من راح[2].

وفى يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول سنة ستة عشر ومائتين وألف هجرية: أشيع بأنه كتب فرمان على النصارى أنهم لا يلبسون الملونات، ويقتصرون على لبس الأزرق والأسود فقط، فبمجرد الإشاعة وسماع ذلك ترصد جماعة القلقات لمن يمر عليهم من النصارى، ومن لم يجدوه بثياب ملونة يأخذوا طربوشه ومداسه الأحمر، ويتركوا له الطاقية والشد الأزرق،

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 205

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 249

وليس القصد من أوليك القلقات الانتصار للدين، بل استغنام السلب وأخذ الثياب، ثم إن النصارى صرخوا إلى عظماهم فأنهوا شكواهم، فنودي بعدم التعرض لهم وأن كل فريق يمشي على طريقته المعتادة[1].

سنة سبعة عشر مائتين وألف هجرية في في يوم الاثنين ثالث عشر من شهر صفر: قتل محمد على باشا ثلاثة أشخاصٍ من النصارى المشاهير؛ وهم: ألْطون أبو طاقية، وإبراهيم زيدان، وبركات معلم الديوان سابقًا. قتلوهم في طريق الأزبكية ولم يعلم سبب ذلك، وفي الحال أرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم، وشرعوا في نقل ذلك إلى بيت الدفتردار على الجمال ليباع في المزاد، فبدوا بإحضار تركة ألطون أبي طاقية فوُجد له موجود كثير من ثياب وأمتعة ومصاغ وجواهر وغيرها، وجوارٍ سود وحبوش وساعات، واستمر سوق المزاد في ذلك عدة أيام[2].

وفي رابع عشرين ذى الحجة بنفس السنة في يوم الأحد كان عيد النصارى الكبير في ليلتها، وهي ليلة الاتنين، وقع الحريق في الكنيسة التي بحارة الروم وفي صبحها شاع ذلك، فركب إليها أغات الإنكشارية والوالي، وأحضروا السقايين والفعلة الذين يعملون في عمارة الباشا، حتى أخذوا الناس المجتمعة بسوق المؤيد بالأنماطيين، وحضر الباشا أيضًا في التبديل، واجتهدوا في إطفاها بالماء والهدم حتى طفيت في تاني يوم، واحترق بها أشياء كثيرة وذخاير وأمتعة، ونهبت أشيا كثيرة[3].

فى ربيع الأول سنة تسعة عشر ومائتين وألف هجرية: في ذلك الوقت أحضروا المعلم جرجس وكبار الكتبة، وعدتهم اثنان وعشرون قبطيًا، ولم تجر عادة بإحضارهم فخلع عليهم أيضًا، ثم نزلوا إلى بيت المحروقي فتغدوا عنده ثم عوقهم إلى العصر، ثم طلبهم الباشا إلى القلعة فحبسهم تلك الليلة، واستمروا في الترسيم وطلب منهم ألف كيس[4].

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 283

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 10

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 31

4) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 127

سنة خمس وعشرين ومايتين وألف هجرية (١٨١٠م)، فى شهر محرم وفي يوم الأحد رابع عشره أمر الباشا بالاحتياط على بيوت عظما الأقباط كالمعلم غالي والمعلم جرجس الطويل وأخيه فلتيوس وفرانسيكو وعدتهم سبعة، فأحضروهم في صورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم، فلما حضروا بين يديه قال لهم: أريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه وأمر بحبسهم، فطلبوا منه الأمان وأن يأذن لهم في خطابه فأذن لهم فخاطبه المعلم غالي، وخرجوا من بين يديه إلى الحبس، ثم قرر عليهم بواسطة حسين أفندي الروزنامجي سبعة آلاف كيس، بعد أن كان طلب منهم تلاتين ألف كيس[1]. وفى شهر صفر فيه طلب الباشا تلاتة أشخاص من كتبة الأقباط الذين كانوا متقيدين بقياس الأراضي بالمنوفية، وضربهم وحبسهم لكونه بلغه عنهم أنهم أخذوا البراطيل والرشوات على قياس طين أراضي بعض البلاد، وأنقصوا من القياس فيما ارتوى من الطين، وهي البدعة التي حدثت على الطين الري وسموها القياسة، وقد تقدم ذكرها غير مرة[2].

وفى ثالث شهر شعبان: وفي هذه الأيام توقفت زيادة النيل فكان يزيد من بعد الوفا قليلًا، ثم ينقص قليلًا، ثم يرجع النقص وهكذا، فأشار بالاجتماع للاستسقا بالأزهر، فتجمع القليل ثم تفرقوا، وذلك يوم التلات رابعه، وخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضًا، واجتمعوا بالروضة وصحبتهم القساوسة والرهبان وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير في تجمل زايد، وصحبتهم طايفة من أتباع الباشا بالعصي المفضضة. وعملوا في ذلك اليوم سيبانة وحانات وقهوات وأسمطة وسكردانات عند جميز العبد. ويقولون: إن النيل لما توقفت زيادته في العام الذي قبل العام الماضي، وخرج الناس يستسقون بجامع عمرو وخرج النصارى في تاني يوم، فزاد النيل تلك الليلة، وذلك لا أصل له على أنه لا استغراب للزيادة في أوانها، وهذه الأيام أيضًا أواخر مسرى وأيام النسيء، وفيها قوة الزيادة وأيام النوروز. وفي يوم السبت خرج المشايخ والناس إلى جامع عمرو بمصر القديمة، وأرسلوا تلك الليلة فجمعوا الأطفال من مصر وبولاق، فحضر الكثير وخطبوا وصلوا، وأضر بالمجتمعين الجوع في ذلك اليوم ولم يجدوا ما يأكلونه. وفي تاني يوم نقص النيل واستمر ينقص في كل يوم[3].

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 362

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 363

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 381

في سابع عشر شهر رمضان: قبض الباشا على المعلم غالي كبير المباشرين الأقباط والمعلم فلتيوس والمعلم جرجس الطويل والمعلم فرنسيس أخي المعلم غالي وباقي أعيان المباشرين، فأما غالي وفلتيوس فنزلوا بهما تلك الليلة إلى بولاق، وأنزلوهما في مركب ليسافرا إلى دمياط، وحبسوا الباقين بالقلعة وختموا على دورهم، ووجدوا عند المعلم غالي نيفًا وستين جارية بيضا وسودا وحبشية. ثم قلدوا المباشرة إلى المعلم منصور ضريمون الذي كان معلم ديوان الجمرك ببولاق سابقًا، والمعلم بشارة ورزق الله الصباغ مشاركان معه، ثم أنزلوا النصارى المعتقلين من القلعة إلى بيت إبراهيم بك الدفتردار بالأزبكية، وفيهم جرجس الطويل وأخوه حنا وجريس وفرنسيس أخو غالي ويعقوب كاتبه وغيرهم، وأشاعوا عمل حسابهم، ثم دار الشغل، وسعت الساعون في المصالحة على غالي ورفقاه إلى أن تم الأمر على أربعة وعشرين ألف كيس، ونزل له فرمان الرِّضَى والخلع والبشاير، وذلك في آخر رمضان[1].

فى سنة ثلاث وثلاثون ومائتين وألف هجرية، فى شهر جمادى الأول: فيه نودي على طايفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود، ولا يلبسون العمايم البيض؛ لأنهم خرجوا عن الحد في كل شي، ويتعممون بالشيلان الكشميري الملونة والغالية في الثمن، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول، وأمامهم وخلفهم الخدم بأيديهم العصي يطردون الناس عن طريقهم، ولا يظن الرائي لهم إلا أنهم من أعيان الدولة، ويلبسون الأسلحة وتخرج الطايفة منهم إلى الخلا ويعملون لهم نشانًا يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك، فما أحسن هذا النَّهْي لو دام[2].

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 382

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 621

أعلام

المجتمع القبطى

أبى العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى

عندما ردّ الحاكم بأمر الله النظر فى الأمور إلى برجوان الخادم عند إحتجاب إبن عمار و عوّل برجوان كاتبه أبى العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى فى النيابة عنه و لقب بالرئيس فقام بتدبير الأمور و استولى عليها و نفذ أمره فى جميع أعمال المملكة و ردّ أرزاق جماعة من الكُتَّاب و غيرهم كان إبن عمار قطعها[1]، ويذكر فى اتعاظ الحنفا وجعل برجوان أبا العلا، فهد بن إبراهيم النصراني؛ كاتبه، يوقع عنه، فنظر في قصص الرافعين وظلاماتهم، وطالعه بما يحتاج إليه، فرتب الغلمان في القصر وأكد عليهم في ملازمة الخدمة، وتفقد أحوالهم. وأزاح علل أولياء الدولة، وتفقد أمور الناس وأزال ضروراتهم، ومنع من الترجل له. وكان الناس يلقونه في داره، فإذا تكاملوا ركب وهم بين يديه إلى القصر. ولقب كاتبه فهد بن إبراهيم بالرئيس، فكان يخاطب بذلك ويكاتب به، ويركب أكثر الناس إلى داره حتى يخرج برجوان إلى القصر فيجلس فيه في آخر دهاليزه، ويجلس فهد في الدهليز الأول يوقع وينظر ويطالع برجوان بما يحتاج له، فيخرج الأمر بما يكون. فلم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت مدتهم[2]، و قد قتل الحاكم بأمر الله فهد بن إبراهيم الرئيس يوم الأربعاء لسبع خلون من جمادى الأول سنة 393 هـ و قبض الحاكم على كتاب الدواوين من النصارى و أعتقلوا يوم الإثنين لأربع عشر ليلة من جمادى الآخر من السنة ثم أطلقوا بعد أسبوع بمسألة أبى الفتح سهل بن مقشر النصرانى طبيب الحاكم بأمر الله و كان له من الحاكم خاصية بل و من العزيز محلّ لطيف و موضع مكين و ردّ كل واحدٌ منهم إلى ما كان ينظر فيه[3]، وكان للنصارى اليعقوبية قد شرعوا فى تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر مصر فى الموضع المعروف براشدة فثار قوم من المسلمون فهدموا ما بُنِيّ و أنشأ الحاكم مكانها مسجداً عظيماً جامعاً و هدموا أيضاً كنيستين كانت فى جواره أحدهما لليعقوبية و الأخرى للنسطورية و بناهما مسجدين آخرين ، و كان للملكية الروم حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها و هدم ما كان لهم فيها من المنازل مع كنيستين كانتا بها و عملت جميع الحارة مسجداً واحداً و سماه الأزهر و حول الروم إلى الموضع المعروف بالحمراء و عملوا لهم بها حارة و أنشأوا بها ثلاث

1) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 240

2) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين ج 2 ص 14

3) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 252

كنائس عوض الكنائس التى هدمت لهم فى تلك الحارة[1]، وكان الحاكم بأمر الله بعد أن توفى طبيبه أبو الفتح بن منصور بن سهلان قد استطبّ أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس الطبيب القبطى و قد أشار على الحاكم بشرب النبيذ و ذكر له ما فيه من المنافع فجنح إلى مشورته و أغضى عما كان عليه من النهى عنه و لما مات يعقوب بن اسحاق رجع الحاكم عن شرب النبيذ مرة أخرى و منع شربه و بيعه و منع بيع الزبيب و العسل و من حملها و أحرق منهما و غرق فى النيل شيئاً كثيراً للتجار بمال عظيم و كسرت الأوانى التى يخزن بها النبيذ و منع من عملها[2]، ويذكر ابن الصيرفى المصرى عن الأستاذ برجوان كان كاتبه أبو العلا فهد بن إبراهيم النصرانى يُوقّع بين يديه وينظر في أمور الناس ولقب فهد هذا بالرئيس في جمادى الأول من سنة ثمان وثمانين وثلثماية هـ ولم يزل على ذلك إلى أن زال أمره في شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثلثماية قتل في القصر[3]

---

[1]) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 252-253

2) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 268-270

3) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى المصرى ص27

منصور بن مقشر الطبيب المصري أبو الفتح النصراني

كَانَ ابن مقشر هَذَا من الأطباء المتقدمين فِي الدولة القصرية بالديار المصرية وَلَهُ منزلة سامية من أصحاب القصر ولا سيما فِي أيام العزيز منهم واعتل منصور بن مقشر هَذَا فِي أيام العزيز فِي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وتأخر عن الركوب وَكَانَ العزيز وجع الرجل فلما تماثل أَيْنَ مقشر كتاب إِلَيْهِ العزيز بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم طبيبنا سلمه الله الطبيب وأتم النعمة عَلَيْهِ وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا مَا رزقنا نحن من الصحة فِي جسمنا فتمم الله عَلَيْكَ النعمة وكمل لنا صحتك وعجل بِهَا ولا أشمت بناقيك عدواً ولا حاسداً ورد كيد من يريد الكيد فِي نحره وابتلاه بما لا طاقة لَهُ بعد الكفاية فيك وإقالتك العثرة ورجوعك إِلَى أفضل مَا عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته والسلام عَلَيْكَ[1]

أبو المنصور بن حورس النصراني

تولى ديوان الإنشاء أيام العزيز بن المعز ثم كتب للحاكم ومات فى أيامه[2]

---

1) أخبار العلماء بأخيار الحكماء للقفطى ج 1 ص 249-250

2) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى ج2 ص 208

تاج الدولة بهرام

سنة ثلاثين وخمسمائة هـ وفيها استولى تاج الدولة بهرام على ديار مصر وعزت طائفة الأرمن وطمع أقاربه وأرادوا أن يغيروا الملة فخرج رضوان بن ولخشى من المحلة وحشد لواته وبنى خُرج المُقطَّعين بالريف وهم خلق عظيم وعمل المصاحف على الرماح ووصل إلى القاهرة وخرج بهرام في عشرة آلاف فارس وراجل وطلب الصعيد ثم أتى إلى أسوان ووزر رضوان بن ولخشى[1]

ويذكر كتاب المقفى الكبير: بهرام بن أسيد الوزير سيف الإسلام تاج الملوك الأرمنى كان يزعم أنه من سلالة نسل داود وكان من جملة الأرمن الواصلين إلى ديار مصر من قلعة الروم وسكن مع الأرمن ناحية تل باشر مدة فلما مات كبير الأرمن كان بهرام أحق بمكانه فتعصب عليه جماعة من الأرمن وأقاموا غيره فغضب وخرج من تل باشر وقدم القاهرة وقتل يازمان القائم بأمر الأرمن في قلعة الروم وكان بهرام أحقهم بموضعه فمنع وقام غيره بتغصب وقع فترك البلاد وخرج منها مغاضباً إلى القاهرة وصار من الجند وكان ذا عقل متوفر ورأى صائب وإقدامه في الحروب فزيد في إكرامه لأجل ذلك وترقى في الخدم ولقب بتاج الدولة وخرج مع المؤتمن أبى تراب حيدرة أخى الوزير المأمون البطائحى مقدماً على طائفة الأرمن حين توجه لغزو لوانة في سنة سبع عشرة وخمسمائة وشهد حروبه ثم عاد إلى القاهرة ومازال بها إلى أن كانت فتنة الحسن ابن الخليفة الحافظ لدين الله ففر منه إلى الغربية وجمع مقطعيها والعربان والأرمن وسار يريد القاهرة وقد عثت حشوده في القرى والضياع ونهبوها وكثرت الفتن بالقاهرة بين الأجناد والسودان حتى أخرج السودان بعد قتل حسن الطائفة الجيوشية والفرجية والاسكندرانية من القاهرة وقتلوا كثيراً منهم ونهبوا ما قدروا عليه فلما قدم بهرام بحشوده تعلق الأجناد به وأدخلوه على الخليفة وألزموه أن يوليه الوزارة فلم يجد بداً من إجابتهم وخاف أن تثور الفتنة مرة أخرى فخلع عليه يوم الجمعة

1) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ص350

سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وهو باق على دين النصرانية ولقب بسيف الإسلام تاج الخلافة فأشتد ذلك على الخليفة وأقتضى الحال توليته فقيل له: يا أمير المؤمنين أنه نصرانى لا يرضاه المسلمون ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزررة الحاجزة بينه وبين الناس والق4ضاة نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة، فقال: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا؟ وهو وزير السيف وأما صعود المنبر فيستنيب عنه قاضى القضاة وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك ويفعل ما يفعل قبله أمير الجيوش، فكثر الإنكار من الناس لوزارة بهرام إلا أنه لم يدخل في شيء مشكل وساس الأمور بعقل جيد وتدبير حسن وأنفق في الجند جملة من الأموال فأستقامت أحواله وراسله الملوك وزالت الفتن من البلاد في أيامه فلم ينكر عليه شيء سوى أنه نصرانى وكان يقعد في يوم الجمعة عن الصلاة ويعدل إلى مكان بمفرده إلى أن تنقضى الصلاة وسأل الخليفة في أن يسمح له في إحضار أهله فأذن له في ذلك فأخضرهم من تل باشر ومن بلاد الأرمن حتى صار منهم بمصر قدر الثلاثين ألف إنسان فأستطالوا على المسلمين وكثر جورهم وبنوا عدة كنائس وأديرة حتى كان كل رئيس منهم يبنى له كنيسة فخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية وكثرت الشكايات فيه وفى أخيه الباساك وكان قد ولاه قوص فعظم ذلك على الأمراء وتفاقم أمر النصارى ووصل إليه ابن أخيه المعروف بالسبع الأحمر فأطلق الأسرى من الفرنج وشنعت القالة وكاتب أهل الدولة الأمير رضوان بن الولخشى والى الغربية فحشد لقتال بهرام وخرج من سخا في ثلاثين ألف حتى نزل دجوة وبهرام لا ينزعج فلما قرب من القاهرة جمع بهرام الأرمن وقال لهم: قد علمتم أننا غرباء ولم نزل نخدم هذه الدولة والآن فقد كثر بغضهم لأيامنا وما كنت بالذى أكون وأخدمهم وأخدمهم من حال الصبا فلما بلغت الكبر أقاتلهم؟ والله لا ضربت في وجوههم بسيف أبداً سيروا بنا، ثم اجتمع بالخليفة وفاوضه في أمره فقال له: يغلبنى عليك الإسلام، فأيس حينئذ وسار بالأرمن وقيل: بل ركب في عساكر مصر وخرج ومعه الأرمن يريد محاربة رضوان فلما إلتقى الجمعان خامر عليه الأمراء ولحقوا برضوان فأنهزم بالأرمن وأخذ ما خف من المال وخرج من باب البرقية في حادى عشر جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وسار يريد قوص وبها أخوه الباساك وأوثق مراكب كثيرة وسيرها في النيل بما يحتاج إليه فعندما خرج من القاهرة تكاثرت الغوغاء على دار الوزارة ونهبوها وهتكوا حرمتها وخرجوا إلى دور الأرمن بالحسينية خارج باب الفتوح

فنهبوها كلها ونهبوا كنيسة الزهرى ونهبوا قبر البطريك أخى بهرام ومثلوا برمته وطار خبر هزيمة بهرام في سائر إقليم مصر حتى وصل الخبر إلى قوص قبل وصوله إليها فثار المسلمون بالباساك وقتلوه فقدم بهرام بعد قتله بيومين إلى قوص ومعه من الأرمن نحو الألفين فرأى أخاه الباساك على مزبلة وقد ربط معه كلب فحنق ووضع السيف في أهل قوص فقتل منهم خلقاً كثيراً ونهب البلد وخرج إلى أسوان ونزل بالأديرة البيض وهى أماكن حصينة عدتها ثلاثة ديارات في غربى مدينة أخميم وتقدم إليه بأن يسرح من معه من الأرمن إلى بلادهم ومن رضى منهم أن يقيم بمصر فلاحاً فليفعل فأقام بأهله وولده وخرج جماعة ممن معه إلى أرض الشام وبقيت منهم بقية كثيرة وتمنوا أن يكونوا فلاحين فردت لهم جهات منها سملوط وأبوان والبرجين في صعيد مصر وضيعة أخرى بالمحلة فسار إليه الأوحد ناصر الدين إبراهيم أخوا الوزير الأفضل رضوان بالعساكر شرقاً وغرباً وقد تبعه الأسطول في النيل ومعه أمان لبهرام ليعود مكرماً وطائفته على إقطاعاتهم فلم يزل على الأديرة البيض فتقرر الحال مع بهرام على إقامته بها من غير أن تكون حرب فلم يزل هناك إلى أن استدعاه الخليفة الحافظ في شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وأنزله معه في القصر وأكرمه إلى أن هلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الاخر سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فحزن عليه الحافظ حزناً كثيراً لأنه كان يشاوره في تدبير الدولة والأمور فيعجبه رأيه ويفتن بحزمه وعقله وصار يوم موته على القصر غمة وأمر بغلق الدواوين واستحضر بطرك الملكية ليجهزه فقام بأمره وأخرج وقت الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان وخرج الخليفة راكباً بغلته خلف التابوت بعمامة خضراء وثوب أخضر من غير طيلسان وسار والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل والخليفة على حاله إلى دير الخندق خارج القاهرة وقيل بل في الكنيسة المستجدة ببنيان الزهرى فنزل الخليفة عن بغلته ونزل على شفير القبر وبكى بكاءً كثيراً حتى دفن ثم عاد وكان بهرام عاقلاً حسن السياسة جيد التدبير مقداماً في الحرب[1]

ويذكر ابن الطويز: كان الأمير حسن بن الحافظ العبيدى قد أرسل بهرام الأرمنى النصرانى ليحشد له طائفة الأرمن من الصعيد وكانوا يزيدون على ألفى فارس كلهم يقولون بهرام وكان علامه بيديه أهل بيته في الأرمن أنه متى وقف الرجل منهم وأرخى يديه غطتا ركبتيه فلما سار

---

1) المقفى الكبير للمقريزى ج2 ص512-516

بهرام من القاهرة وقُتل الأمير حسن بن الحافظ جرت فتنة بين الأجناد والسودان عندما قُتل حسن بن الحافظ بالسم فقوى فيها السودان على الأجناد فأخرجوهم من القاهرة وكان السودان مع حسن دون الأجناد لأنهم الذين حملوا إياه على قتله فلما جاء بهرام من الصعيد بالحشد وجد الأمر قد فات في الأمير حسن المسموم وقبض الأجناد على بهرام بظاهر القاهرة وأدخلوه وزيراً للحافظ وقبل منهم ذلك وأخلع عليه بهيئة الوزارة في هذه السنة على كراهية منه وقيل لما تعين بهرام المذكور للوزارة استشار الحافظ أهله وكبراء دولته في أمره فكل منهم أشار أن لا يفعل فخالف جميعهم وقيل له أنه نصرانى لا يرضاه المسلمون[1]، ثم يذكر ولما قرب الأمير رضوان إلى القاهرة لمحاربة بهرام فخرج الزير بهرام المصريون لقتاله رأى جند المسلمين المصاحف على الرماح فالتجأوا جميعهم إلى الأمير رضوان فلما رأى الوزير بهرام ذلك سير من أبلغ الخافظ فخاف الحافظ عاقبة ذلك من الأمراء وغيرهم فأشار عليه أن يتوجه إلى قوص فإن بها أخالك الباساك والى قوص تقيم عنده إلى حيث يدبر أمرنا فإن ةالإسلام يغلبنى عليك فعاد الوزير بهرام إلى القاهرة وأخذ ما خف حمله ومضى طالباً قوص إلى عند أخيه الياساك والى قوص [2]

1) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين لابن الطويز ص43-44

2) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين لابن الطويز ص44-45

صنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم بديوان النظر

كان أيام الخليفة الحافظ الفاطمى وجد نصرانياً قد توصل إلى ديوان النظر يقال له الأخرم في أيام الوزير بهرام الأرمنى وبذل في كل يوم ألف دينار خارجاً عن المؤمن والغرامات وهو أول من فتح هذا الباب فآذى المسلمين وتسلط عليهم فشق ذلك على الوزير رضوان فأراد هلاكه ففهم النصرانى عنه فتلافا نفسه بالاستقالة فاستخدم عوضاً عنه بلا ضمان رجلاً يقال له المرتضى المحنك فقام بالأمر[1]، وفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة لم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحداً؛ وأعاد النصراني المعروف بالأخرم إلى ضمان الدولة، على ما تقدم، ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله، وطلب منه المال فلم يسمح بشيء. فركب الحافظ يوماً ووقف على باب السجن الذي هو فيه من القصر، وأمر به، فأحضر إليه. وقال له: كم تتجالد؟ أريد منك مالي على لسان صاحب الستر. فبينا الخليفة يخاطبه إذ أخذ كفاً من تراب وجعله في فيه؛ فقال له الحافظ: ما هذا؟ مالا ينبغي نقله إلى مولانا، صلوات الله عليه. فغضب عليه، وأمر بإحضار أبيه وأخيه، وكانا معتقلين، فأخرجا؛ وقتل الأخرم وأخاه، وأبوهما ينظر قتلهما، ثم قتل الأب. وأحاط بأموالهم فحصل منهم ما يزيد على عشرين ألف دينار عينا[2].

الشيخ صنيعة الخلافة أبوزكرى ابن يحيى بن بولس

---

1) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين لابن الطويز ص49

2) اتعاظ الحنفا ج 3 ص 184-185

لما جلس الأفضل رضوان الوزير لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بيد النصارى فصرف أبا زكرى المنعوت بصنيعة الخلافة عن ديوان التحقيق وهذا الديوان أجل الدواوين وهو يقابل على سائر دواوين المملكة وكان مع أبى منصور محمد الأنصارى في ديوان المجلس[1]

كاتب نصرانى للأميرنجم الدين

في سنة سبع وستين وخمسمائة ه إجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة وقد قعدا أعلى طراحة واحدة وعند من الفرح والسرور أن تقدم كاتب نصرانى كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت إلى نجم الدين فقال له يا مولاى هذا تأويل مقالتى لك بالأمس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم أخذ في حمدالله والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء وقال لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة وذلكك أننى رزقت هذا الولد يعنى السلطان الملك الناصر أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخى أسد الدين شيركوه وقتله النصرانى صاحب القلعة وكنت قد ألف القلعة وقد صارت لى كالوطن فثقل علىّ الخروج منها والتحول عنها إلى غيرها واغتممت لذلك وفى ذلك الوقت جانى البشير بولادته فتشاءمت به ولم أفرح ولم أستبشر وخرجنا من القلعة لا أكاد أذكره ولا أسميه وكان هذا النصرانى معى كاتباً فلما رأى ما نزل بى من كراهية الطفل استدعى منى أن آذن له بالكلام فأذنت له فقال لى يا ملاى قد رأيت ما حدث عندك بهذا الصبى وأى شيء له من الذنب وما استحق منك ذلك وهذا الذى جرى عليك من قضاء الله وثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت جليل المقدار وها هو قد أوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق[2]

أبو إسحاق يعقوب بن حنين الطبيب

1) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين لابن الطوير ص50

2) الروضتين في أخبار الدولتين ج1 ص211

سنة تسع وتسعين وثلاثمائة توفى أبو إسحاق يعقوب بن حنين الطبيب ورجم المسلمون جنازته والنصارى لما فسر للمسلمين[1]

موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة القبطى

وقد ولاه الوزارة الملك الكامل في سنة 753هـ الموافقة 1352م وظل بالوزارة إلى أن مات في ربيع الآخر سنة 755هـ الموافق مايو 1354م وقد شغرت الوزارة من بعده إلى سنة 758هـ[2]، ويذكر الدليل الشافى: هبة الله بن سعيد الدولة إبراهيم الوزير الصاحب موفق الدين أبو الفضل المصرى القبطي ولى الخاص والوزر حتى توفيّ وكان مشكور السيرة وعنده كرم وحشمة[3]، ويذكر ابن قاضشهبة الأسدى: أنه قد تولى الوزارة بعد ابن زنبور فى ذى القعدة، وأنه قد توفى بالقاهرة وقد قارب السبعين من عمره ودفن بتربته بالقرافة الصغرى[4].

علم الدين إبراهيم القبطى بن كاتب سيدى

تولى الوزارة في عهد الملك الكامل سنة 789هـ الموافقة 1387م وظل لمدة سنة واحدة فقط وعزل في رمضان سنة 790هـ[5].

قبطى عالم من أهل الصعيد

هو أعالي بلاد مصر وكأنه الصاعد منها، ومنها الرجل الذي كان في الأقباط بأرض الصعيد الذي أرسل إليه أحمد بن طولون صاحب مصر في سنة نيف وستين ومائتين، وكان مولعاً بمعرفة الآثار القديمة، فذكر له أن رجلاً من الأقباط بأرض الصعيد له نحو مائة وثلاثين سنة، وهو ممن عني من لدن حداثته بالعلم والإشراف على الملل والآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرها وأنه علامة بالممالك والملوك، ذو معرفة بهيئة الأفلاك والنجوم، وكان نصرانياً على مذهب اليعقوبية، فبعث ابن طولون إليه قائداً من قواده فحمله إليه في النيل مكرماً، وكان الشيخ قد انفرد عن الناس في مكان اتخذه وسكن في أعلاه، وقد رأى الرابع

---

1) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ص289

2) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج2 ص 224

3) الدليل الشافى على المنهل الصافى ص 765

4) تاريخ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، جـ 2 ص 75

5) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ج2 ص 225

عشر من ولد ولده، فلما وصل إلى أحمد بن طولون أكرمه وبره وأسكنه بعض مقاصيره ومهد له موضع جلوسه، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب، فأبى الشيخ أن يغتذي إلا مما حمل مع نفسه من كعك وسويق وغيرهما، وقال: هذه بنية ما ترون من الغذاء فإن سمتموني النقلة عن العادة كان ذلك سبب انحلال البنية ويفوتكم مني ما تطلبونه، فتركه ابن طولون وما يريده، ثم أحضره مجلسه مع أهل الدراية من أصحابه وخواص مجلسه، وصرف إليه همته، فمما سأله عنه بحيرة تنيس ودمياط، فقال: كان موضع البحيرة أرضاً لم يكن بديار مصر مثلها لطيب التربة وزكاء الريع، وكانت جناناً متصلة، ولم تكن بمصر كورة يقال إنها تشبه الفيوم إلا هي وحدها، وكانت أكثر فاكهة منها، وكان الماء ينحدر إلى قرى موضع البحيرة صيفاً وشتاء يسقون منه متى شاءوا، وفضلة الماء تصب في البحيرة، وكان بين العريش وقبرس طريق مسلوكة في تنيس، وبينهما اليوم سير طويل في البحر، فلما كان قبل استفتاح المسلمين بلاد مصر بمائة سنة طمى ماء البحر وزاد فأغرق القرى التي كانت في موضع البحيرة، وما كان منها في البقاع المرتفعة فهي باقية إلى الآن قد أحاط الماء. قال: وعند هذه الزيادة التي زادها البحر طمى الماء على القنطرة التي كانت بين بلاد الأندلس وبين ساحل طنجة من أرض المغرب، وكانت قنطرة عظيمة لا يعلم في معمور الأرض مثلها مبنية بالحجارة تمر عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب إلى الأندلس، وكان طولها اثني عشر ميلاً في عرض واسع وسمو كثير، وربما بدت هذه القنطرة لأهل المراكب تحت الماء فعرفوها. وسئل عن ممالك الأحابيش التي على النيل فقال: لقيت منهم ستين ملكاً كل ملك منهم ينازع من يليه، قال: وبسبب استحكام النارية في بلادهم تكون معادن الذهب كثيرة، فإن حرارة الشمس ويبسها يغير الفضة ذهباً، فإذا أطبخ ذلك الذهب بالملح والزاج والطوب خرج ما فيه من الفضة. وسئل عن منتهى النيل في أعلاه فقال: أصله من البحيرة التي لا يدرك طولها ولا عرضها، وهي تحت خط الاستواء تحت قطر الفلك المستقيم، وهو الموضع الذي الليل والنهار فيه متساويان الدهر كله. وسئل عن الأهرام فقال: إنها قبور الملوك، كان الملك إذا مات وضع في حوض من رخام ثم أطبق عليه وبني له هرم، ويصنع باب الهرم تحت الحوض ثم يحفر له طريق في الأرض ويعقدونه آزاجاً. فقيل له: فكيف هذه الأهرام المملسة وكيف كانوا يصعدون لبنيانها؟ فقال: كانوا يبنون الهرم مدرجاً ذا مراقي يصعد فيها فإذا فرغوا من عمله نحتوه، قيل له: وكيف كانوا يصنعون بهذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر مائة رجل أن يزحزح منها حجراً واحداً؟ قال: كانت لهم قراقل قد دبروها بأخلاط من المعادن وأنواع

الحكمة فكانوا يضربون به الحجر الكبير فينقسم لهم على القدر الذي يريدونه ويتأتى لهم النحت، ومع هذا فانهم كان لهم صبر وجلد على أعمالهم ليس لمن بعدهم[1]

جرجيس الفيلسوف الأنطاكى

الفيلسوف الأنطاكى نزيل مصر يزعم أنه قرأ علماء بلده واستوطن مصر وطبّ بها وأدركه أبو الصلت أمية المغربى بمصر وذكره على ما نحو ما قيل في الغراب أبى البيضاء وفى اللدغ السليم وقد تفرغ للتولع بأبى الخير سلامة بن رحمون اليهودى الطبيب المصرى والإزراء عليه وكان يزور فصولاً طبية وفلسفية يبرزها في معارض ألفاظ القوم وهى مُحال لا معنى لها وفارغة لا فائدة فيها ثم ينفذها إلى من سأله عن معانيها ويستوضحه اغراضها فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه بدون تيقظ ولا تحفظ باسترسال واستعجال وقلة اكتراث وإهمال يوجد فيها عنه ما يضحك منه[2]

كيسان الطبيب

ابن عثمان بن كيسان أبو سهل الطبيب النصرانى المصرى هذا طبيب كان بمصر في الأيام المعزية والأيام العزيزية وكان مشهور الذكر معروف الصنعة والمعالجة خدم الدولة وتقدم فيها وتوفى في السادس من شعبان الموافق سنة ثمان وسبعين وثلمائة هجرية ساكن القصر في أيام العزيز[3]

منصوربن مفشر

الطبيب المصرى أبو الفتح النصرانى كان ابن مفشر هذا من الأطباء المتقدمين في الدولة القصرية بالديار المصرية وله منزلة سامية من أصحاب القصر ولا سيما في أيام العزيز منهم واعتل منصور بن مفشر هذا في أيام العزيز في سنة خمس وثمانين وثلاثمائة هجرية وتأخر عن الركوب وكان العزيز وَجعّ الرِجلّ فلما تماثل ابن مفشر كتب إليه العزيز بخطه بسم الله الرحمن الرحيم طبيبنا سلم الله الطبيب وأتم النعمة عليه وصلت إلينا البشارة بما وهبنا

[1]) الروض المعطار في خبر الأقطار للحميرى ص 361، وأيضاً مآثر الأنافة فى معالم الخلافة للقلقشندي ج1 ص257-258

[2]) تاريخ الحكماء لابن القفطى ص 157

[3]) تاريخ الحكماء لابن القفطى ص 317-318

الله من عافية الطبيب وبرءه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا قسم الله عليك النعمة وكمل لنا صحتك وعجل بها ولا أشمت بنا فيك عدواً ولا حاسداً ورد كيد من يريد الكيد في نحره وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك وإقالتك العثرة ورجوعك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته والسلام عليك[1]

بليطيان

كان طبيبا مشْهورا بديار مصر نصرانيّا عالما بشريعة النصارى الملكية، قال سعيد بن البطريق فِي كتاب نظم الجوهر لما كان فِي السنة الرابعة من خلافة المنصور من الخلفاء العباسيين صيربيلطيان بطريركا على الإسكندرية وكان طبيبا أقام سِتا وأربعين سنة ومَات، قال ولما كان فِي أيام الرشيد هرون وَولى الرشيد عبيد الله بن المهدي مصر أهْدى عبيد الله إلى الرشيد جارية من أهل البيما من أسْفل الأرض وكانت حسنة جميلَة وَكَانَ الرشيد يُحِبهَا حبا شَدِيدا فاعتلت عِلّة عَظِيمَة فعالجها الْأَطِبَّاء فَلم تنْتَفع بِشَيْء فَقَالُوا لَهُ ابْعَثْ إِلَى عبيد الله عاملك بِمصْر ليوجه إليك وَاحِدًا من أطباء مصر فإنهم أبْصر بعلاج هَذِه الجارِيَة من أطباء الْعرَا فَبعث الرشيد إِلَى عبيد الله بن الْمهْدي يخْتَار لَهُ من أحذق أطباء مصر من يعالج الْجَارِيَة فَدَعَا عبيد الله بليطيان بطريرك الإسكندرية وَكَانَ حاذقا بالطب فَأعلمهُ بحب الرشيد الْجَارِيَة وعلتها وَحمله إِلَى الرشيد وَحمل بليطيان مَعَه من كعك مصر الخشن والصير فَلَمَّا دخل إِلَى بغدَاد وَدخل إِلَى الجاريَة أطعمها الكعك والصير فَرَجَعت إِلَى طبعها وزالت عَنْهَا العلة فصارَ من ذلِك الوقت يحمل من مصر إِلَى خزانَة السلطان الكعك الخشن والصير ووهب الرشيد لبليطيان البطريرك مَالا كثيرا وَكتب لَهُ منشورا فِي كل كَنِيسَة فِي يَد اليعقوبية مِمَّا أخذوها وتغلبوا عليها أَن ترد إِلَيْهِ فَرجع بليطيان إِلَى مصر واسترد من اليعقوبية كنائس كثيرة وتوفِّي بليطيان فِي سنة سِتة وثمانين ومائة للهجرة[2]

نسطاس الطبيب

---

[1]) تاريخ الحكماء لابن القفطي ص 334-335

2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ج 1 ص 540

كان طبيباً مصرياً نصرانياً وكان في دولة الإخشيد محمد بن جف ولهه رسالة إلى زيد بن رومان الأندلسى النصرانى في البول وله كناش في الطب وكان عالماً بهذا الشأن1، و قد توفى نسطاس سنة 397 هـ سكران في بركة ماء فحمل إلى الكنيسة في تابوت وشُق به البلد ثم أعيد إلى داره فدفن بها وسار أهل الدولة في جنازته ومعه شموع كثيرة تتقد ومداخن عدة فيها بخور وكان طبيب وقته عارفاً بالطب آية في الحفظ ما يُغَنّى له قط صوت إلا وحفظه ولو غناه مائة مُغَن في مجلس واحد لحفظ سائر ما غنوه به وتكلم على ألحانها وأشعارها وكانت له يد في الموسيقى وانفرد بخدمة الحاكم في الطب فأثرى وترك زيادة على عشرين ألف دينار عيناً سوى الثياب وغيرها2، ويضيف ابن جلجل: أن له رسائل إلى يزيد رومان النصرانى الأندلسى في البول وله كناش في الطب حسن وكان عالماً تحريراً3، وَكَانَ من خواص قائد القواد الحسين بن جوهر، أخبره أن القاضي زار الحسين بن جوهر القائد فِي داره يوم أحد فِي صيام النصارى، وَكَانَ عنده أبو الحسن الرَّسي والمسبحي ومن يخدمهم. فدخل الغلام، فقال: أبو يعقوب بن نسطاس الطبيب بالباب، فأذن لَهُ، فدخل وهم على المائدة، فأظهر السرور بِهِ وأحضر لَهُ عدة ألوان. ثُمَّ رفعت المائدة وقدم الشراب وَمَا يلائمه من الفاكهة والمشروب. فأقبلوا عَلَى عملهم إِلَى أن سكروا. فأما القاضي فانصرف، ونام القائد والرسي. واستمر أبو يعقوب الطبيب بالطارمة الَّتِي كَانَ بناها فِي ذَلِكَ المكان - وهي تطل عَلَى نهر كبير - يشرب ويطرب، إِلَى أن غلب عَلَيْهِ السكر. فخرج وطلب بغلته، فقدمت له بغلة الرَّسي فامتنع من ركوبها، فسأله الخدم أن يعود إِلَى مكانه إِلَى أن تحضر بغلته، فرجع إلى المكان الَّذِي فِيهِ الرسي فنام إِلَى جانبه فقام أحد الفراشين فرفع الستارة يتفقدها فرأى الرسي وَلَمْ ير أبا يعقوب، فدخل وطلبه، فلمح طرف ثوبه فِي الماء فاستدعى فراشاً يعرف السباحة فنزل إِلَى النهر فوجده قَدْ التَّفت ثيابه عَلَى وجهه فغطس فِي الماء، فأعلم الخدم القائد فاستدعى القاضي، وانتبه الرَّسي وشق عليهم ذَلِكَ، لعلمهم بمنزلته من الحاكم. فسألوني أن أَعلم الحاكم بذلك فدخلت إِلَيْهِ فذكرت لَهُ: أن أبا يعقوب قام من الليل وهو دهش فسقط فِي النهر، فإلى أن يصل إِلَيْهِ الفراش وجده قَدْ التف فِي ثيابه فغطس. فشق عَلَيْهِ وأظهر الأسف، وبحث عن الأمر، فعرفوه بصورة الحال، فهز رأسه ونكس، فإذا

---

[1]) تاريخ الحكماء لابن القفطى ص 337

2) اتعاظ الحنفا ج2 ص 70

3) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص82

بالقاضي والقائد والرسي قَدْ وصلوا إِلَى القصر مشاة بعمائم لطاف. فاستدعاهم فحلفوا وأكدوا لَهُ الأيمان إن كَانَ لَهُم فِي شأنه شيء، واستشهد القائد والقاضي بالرسي فشهد لهما بالبراءة من ذَلِكَ، فأمر بتكفينه ودفنه. وَكَانَ ذَلِكَ فِي أواخر سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.[1]

عيسى بن نسطورس

بعد أن مات يعقوب بن كلس الوزير اليهودى في أيام العزيز في ذي الحجة سنة 380 هـ استوزر مكانه أبا عبدالله الموصلى مدة يسيرة ثم بعدها بعد انقضاء شهر رمضان وصلى العزيز صلاة عيد الفطر ثم سلم عيسى بن نسطورس الوزير القبطى سائر الدواوين ونظر في جميعها وأمر ونهى وخاطب سائر الكتاب عن العزيز وخاطبه سائر الأولياء وكافة الناس في مهماتهم وتوقيعاتهم[2] وفى ربيع سنة 386 هـ نزل العزيز إلى بلبيس ونودى في البلد لا يتأخر أحد عن المسير فى الأسطول فوقعت في الأسطول نار فأحترق وقت صلاة الجمعة فأتت على

1) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلاني ص 248-249

2) اتعاظ الحنفا ج1 ص 283

مافيه من عدة وسلاح حتى لم يبق منه سوى ست مراكب فأتهم بذلك الروم الأسارى وكانوا في دار ببجوار دار الصناعة بالمقس فنهبتهم العامة وقتلوا منهم مائة وسبعة أنفس وحضر عيسى بن نسطورس وبائس الصقلبى متولى الشرطة إلى الروم فأعترفوا بأنهم أحرقوا الأسطول فكان ما ذهب في النهب نحو تسعين ألف دينار وشرع عيسى بن نسطورس في بناء أسطول جديد[1] وبعد أن مات العزيز وملك مكانه الحاكم بأمر الله في رمضان سنة 386 هـ وخرج من قصره راكباً فوقف الناس بصحن الإيوان وقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير وجلس من له عادة الجلوس فسلم عليه الجماعة وكان جماعة من شيوخ كتامة تخلفوا عن الحضور وتجمعوا نحو المصلى فخرج إليهم محمد بن الحسن بن عمار في طائفة من شيوخهم وما زالوا بهم حتى أحضروهم بعد امتناعهم عن الحضور وشكوا من عيسى بن نسطورس وسألوا صرفه وأن تكون الوساطة لرجل منهم[2] وفى محرم سنة 387 هـ ضربت رقبة عيسى بن نسطورس في أيام الحاكم بأمر الله[3]، وقبض حسن بن عمار على عيسى بن نسطورس فقتله بالليل ورمى عليه حائطاً وعذب أصحابه وقتلهم[4]

وذكر القلانسى: بعد موت الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس سنة 380 هـ فأمر العزيز أن يدفن في داره بالقاهرة في قبة كان بناها لنفسه وحضر جنازته وصلى عليه والحده بيده في قبره وانصرف عنه حزينا بفقده وأغلق الدواوين وعطل العمال أياما واستوزر أبا عبد الله الموصلي بعده مديدة ثم صرفه وقلد عيسى بن نسطورس وكان نصرانيا من أقباط مصر وفيه جلادة وكفاية فضبط الأمور وجمع الأموال ووفر كثيرا من الخراج ومال إلى لنصارى فقلدهم الأعمال والدواوين واطرح الكتاب المتصرفين من المسلمين واستناب في الشام رجلا يهوديا يعرف بمنشا بن ابرهيم بن الفرار فسلك مسلكه في التوفر على اليهود وعيسى مع النصارى مثله واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة. فكتب رجل من أجلاد المسلمين رقعة وسلمها إلى امرأة وبذل لها بذلا على اعتراض العزيز ورفع الظلامة إليه وتسليمها إلى يده وكان مضمون الرقعة: يا أمير المؤمنين يا الذي عز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا بن الفرار وأذل المسلمين بك ألا نظرت في أمري وكان العزيز على بغلة سريعة في المشي وإذا ركبها تدفقت كالموج ولم تلحق فوقفت له المرأة في ضيق فلما

1) اتعاظ الحنفا ج1 ص 290

2) اتعاظ الحنفا ج2 ص 4

3) اتعاظ الحنفا ج2 ص 8

4) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص55

قاربها رمتها إليه فسارع الركابي إلى أخذ الرقعة على العادة وغاصت المرأة في الناس ووقف العزيز عليها وأمر بطلب المرأة فلم توجد وعاد إلى قصره منعم الفكر في أمره فاستدعى قاضي قضاته أبا عبد الله محمد بن النعمان وكان متقدما عنده في خواصه وأهل أنسه فأعطاه الرقعة وقال له: قف عليها. فلما قرأها قال له: ما عندك في هذا الأمر. قال: مولانا أعرف بوجه الرأي والتدبير. فقال: صدقت كاتبتها تهيبا على ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه. وتقدم في الحال بالقبض على عيسى بن نسطورس وسائر الكتاب النصارى وإنشاء الكتب إلى الشام بالقبض على منشا بن الفرار والمتصرفين من اليهود وأن ترد الأعمال في الدواوين إلى الكتاب المسلمين ويعول في الأشراف عليهم على القضاة في البلاد. ثم أن عيسى طرح نفسه على ست الملك بنت العزيز وكان يحبها حبا شديدا ولا يرد لها قولا واستشفع بها في الصفح عنه وتجديد الاصطناع له وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار وكتب إلى العزيز رقعة يذكر فيها بخدمته وحرمته ورضي عنه وأعاده إلى ما كان عليه وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعمالهلدهم الأعمال والدواوين واطرح الكتاب المتصرفين من المسلمين واستناب في الشام رجلا يهوديا يعرف بمنشا بن ابرهيم بن الفرار فسلك مسلكه في التوفر على اليهود وعيسى مع النصارى مثله واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة. فكتب رجل من أجلاد المسلمين رقعة وسلمها إلى امرأة وبذل لها بذلا على اعتراض العزيز ورفع الظلامة إليه وتسليمها إلى يده وكان مضمون الرقعة: يا أمير المؤمنين يا الذي عز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا بن الفرار وأذل المسلمين بك ألا نظرت في أمري وكان العزيز على بغلة سريعة في المشي وإذا ركبها تدفقت كالموج ولم تلحق فوقفت له المرأة في ضيق فلما قاربها رمتها إليه فسارع الركابي إلى أخذ الرقعة على العادة وغاصت المرأة في الناس ووقف العزيز عليها وأمر بطلب المرأة فلم توجد وعاد إلى قصره منعم الفكر في أمره فاستدعى قاضي قضاته أبا عبد الله محمد بن النعمان وكان متقدما عنده في خواصه وأهل أنسه فأعطاه الرقعة وقال له: قف عليها. فلما قرأها قال له: ما عندك في هذا الأمر. قال: مولانا أعرف بوجه الرأي والتدبير. فقال: صدقت كاتبتها تهيبا على ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه. وتقدم في الحال بالقبض على عيسى بن نسطورس وسائر الكتاب النصارى وإنشاء الكتب إلى الشام بالقبض على منشا بن الفرار والمتصرفين من اليهود وأن ترد الأعمال في الدواوين إلى الكتاب المسلمين ويعول في الأشراف عليهم على القضاة في البلاد. ثم أن عيسى طرح نفسه على ست الملك بنت العزيز وكان يحبها حبا شديدا ولا يرد لها قولا

واستشفع بها في الصفح عنه وتجديد الاصطناع له وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار وكتب إلى العزيز رقعة يذكر فيها بخدمته وحرمته ورضي عنه وأعاده إلى ما كان عليه وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله كان بكجور قد خاف من عيسى بن نسطورس الوزير المقدم ذكره أن يعمل عليه لأسباب تقدمت بينه وبينه أوجبت ذاك فكتب إلى العزيز يذكر له جلالة حلب وكثرة ارتفاعها وأنها دهليز العراق وإذا حصلت له كان ما بعدها في يده وإن العسكر الذي بها قد كاتبه وبذل الطاعة له والمساعدة ويستدعي منه الانجاز والمعونة فأجابه بكل ما أراد وكتب إلى نزال والي طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير استئذان ولا معاودة استيمار وكان نزال هذا من وجوه قواده وصنائع عيسى الوزير وخواصه فكتب إليه عيسى سرا بأن يتقاعد ببكجور وتظهر له المساعدة والمسارعة ويستعمل معه التعليل والمدافعة فإذا تورط مع مولاه وقاربه تأخر عنه وأسلمه فلم يشك بكجور في مسير نزال إليه وسار عن الرقة وكتب إلى نزال بأن يسير من طرابلس ليكون وصولهما إلى ظاهر حلب في وقت واحد فأجابه نزال ووعده. ونزل بكجور على بالس وفيها غلمان سعد الدولة أبي المعالي صاحب حلب وعدة من الديلم فقاتلهم وقاتلوه ورحل بكجور وتباطأ نزال في مسيره وواصل مكاتبة بكجور في منزل بعد منزل وقرب الأمر عليه في وصوله إليه وأقام بكجور على بالس خمسة أيام فلما لم يجد فيها مغمزا فارقها وطلب حلب. وكان أبو المعالي كاتب بسيل عظيم الروم وأعلمه عصيان بكجور عليه[1]

ويذكر ابن يعقوب مسكويه: لما توفي الوزير يعقوب بن كلس فأمر صاحب مصر بأن يدفن فى قصره فى قبّة كان بناها لنفسه وحضر جنازته فصلّى عليه وألحده بيده فى قبره، وانصرف من مدفنه حزينا لفقده وأغلق الدواوين أيّاما من بعده. واستخدم أبا عبد الله الموصلي مدّة ثم صرفه وقلّد عيسى بن نسطورس وكان نصرانيا. فضبط الأمور وجمع الأموال ومال إلى النصارى وولّاهم الأعمال وعدل عن الكتّاب والمتصرّفين من المسلمين، واستناب بالشام يهوديا يعرف بمنشا بن ابراهيم بن الفرار، فسلك منشا مع اليهود سبيل عيسى مع النصارى، واستولى أهل هاتين الملّتين على جميع الأعمال.

ذكر حيلة لطيفة عادت بكشف هذه الغمّة، كتب رجل من المسلمين قصّة وسلّمها إلى امرأة وبذل لها بذلا على اعتراض صاحب مصر بالظلامة وتسليمها إلى يده وكان مضمونها: يا

---

1) تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 155-158، وأيضاً مآثر الأنافة فى معالم الخلافة للقلقشندي ص315-316، وأيضاً مرآة الزمان فى تأريخ الأعيان لابن الجوزي ص241

مولانا، بالذي أعزّ النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا بن الفرار وأذلّ المسلمين بك إلّا نظرت فى أمرى. وكانت لصاحب مصر بغلة معروفة إذا ركبها مرّت فى سيرها كالريح ولم تلحق. فوقفت له المرأة فى مضيق، فلمّا قاربها رمت بالقصة إليه ودخلت فى الناس. فلمّا وقف عليها أمر بطلبها فلم توجد وعاد إلى قصره متقسم الفكر فى أمره واستدعى قاضيه أبا عبد الله محمد بن النعمان وكان من خاصّته وأهل أنسه فشاوره فى ذلك فقال ابن النعمان: أنت أعرف بوجه الرأى. فقال: لقد صدقت المرأة فى القصّة ونبّهت من الغفلة. وتقدّم فى الحال بالقبض على عيسى بن نسطورس وسائر الكتّاب من النصارى وكتب إلى الشام بالقبض على منشا بن الفرار وجماعة المتصرفين من اليهود، وأمر بردّ الدواوين والأعمال إلى الكتّاب المسلمين والتعويل فى الإشراف عليهم فى البلاد.

ذكر تدبير توصّل به عيسى بن نسطورس إلى الخلاص والعود إلى النظر، كانت بنت المتقلّب بالعزيز المعروفة بستّ الملك كريمة عليه حبيبة إليه لا يردّ لها قولا. فاستشفع عيسى بها فى الصفح عنه وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار. وكتب إليه يذكره بخدمته وحرمته فرضي عنه وأعاده إلى ما كان ناظرا فيه وشرط عليه استخدام المسلمين فى دواوينه وأعماله[1].

أبى غالب الصيفى النصرانى

في أيام الظاهر في شوال سنة 415 هـ صرف نجيب الدولة مجلى بن نسطورس عن ديوان الأحباس بأبى غالب الصيفى النصرانى كاتب ديوان الخراج[2]

1) تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن يعقوب مسكويه ج 7 ص 222-223

2) اتعاظ الحنفا ج2 ص 161

أبا اليسر اصطخر بن مينا الأسيوطى

في الرابع والعشرين من صفر سنة 415 هـ في أيام الظاهر تسلم ديوان الكتاميين من الأمير شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان ورد النظر فيه إلى القائد عز الدولة فأستخدم في تدبير أمواله أبا اليسر اصطخر بن مينا الأسيوطى شركة بينه وبين صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الوافد[1]

صاعد بن عيسى بن نسطورس

في سنة 409 هـ في آخر شوال في أيام الظاهر ركب الوزير على بن جعفر بن فلاح إلى البرك التي قبل الخليج خارج القاهرة فثار عليه فارسان فأخذه أخدهما فألقاه وفرّا فلم يعرف خبرهما وحمل إلى داره فمات من الأخذ، وولى الوزارة بعد الظهير صاعد بن عيسى بن نسطورس فأقام إلى رابع ذي الحجة وقيل تولى بعده شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان[2]، اصطنعه الإمام الحاكم بأمر الله وأناف به على رتبة أخيه الشافى فخلع عليه في رجب سنة تسع واربعمائة هـ وقلد سيفاً مرصع الجمائل وتضمن سجله أنه جعله قسيم الخلافة وزال أمره في ذي الحجة منها قتل في الشهر المذكور[3]

الحسن هبة الله بن صاعد المعروف بأمين الدولة

فى سنة ستين وخمسمائة هـ توفّي الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بأمين الدولة وكان نصرانياً قد ناهز المائة عام وكان له فضلة زائدة فى النسب والأدب وكان قسيس النصارى وشيخهم وكان فضلاء عصره يتعجبون منه وكان له رفيق يهودي عالي الهمة وهو الحكيم المشهور بابن ملكان واسمه هبة الله وكان رفيعاً متكبراً يكنى بأبي البركات ففأنشد أمين الدولة النصراني:

لنا صديق يهودي حماقته ... إذا تلكم يبدو فيه من فيه

يتيه والكلب أعلى منه منزلة ... كأنه بعد لم يخرج من التيه

---

1) إتغاظ الحنفا ج 2 ص 141

2) إتعاظ الخنفا ج 2 ص 114

3) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص33

وله تصانيف خمسة منها كتاب أقرانا دين وهو معتمد عليه عند الأطباء[1]

أبو نصر بن عبدون الكاتب النصراني

وفى سنة 392 هـ في شهر رمضان قدم من جهة الحاكم داعٍ يقال له خنكين الملقب بالضيف إلى دمشق وأراد الضيف أن ينقض الجند من أرزاقهم فشغبوا وصاروا يريدون ابن عبدون النصرانى وكان على تدبير المال وعطاء الأرزاق فمنعهم الضيف وأغلظ فى القول لهم وكان قليل المداراة فرجعوا إليه وقتلوه وانتهبوا دور الكتاب والكنائس[2]، وفى سنة 399 هـ في ثالث محرم نظر أبو نصر بن عبدون الكاتب النصرانى في ديوان الخراج بانفراده من غير شريك[3]، وفى سنة 400 هـ في الحادى عشر من شهر صفر صُرِفَ أبو الفضل صالح بن على الروزبارى ثقة ثقات السيف والقلم وقُرّر مكانه أبو نصر بن عبدون الكاتب النصرانى فوقع من الحاكم فييما كان يوقّع فيه صالح ونظر فيما كان ينظر فيه وأذن لصالح في الركوب إلى القصر وسار ابن عبدون في الموكب مع الشيوخ في المنتهى وقال: مِثلى لا يساير أمير المؤمنين بأعلى من ذلك[4]، وفى سنة 401 هـ في الرابع من محرم صُرِفَ ابن عبدون النصرانى وخلع على أحمد بن محمد القشورى الكاتب وقرئ سجله في القصر بأنه تقلد الوساطة والسفارة بين أولياء أمير المؤمنين الحاكم وبينه وأمر الرعايا وفوضت له الأمور وعول عليه فيها، وكان سبب صرف ابن عبدون عن الوساطة والسفارة أن كُتُب الحاكم تكررت إلى قائد القوات حسين بن جوهر وإلى صهره عبد العزيز بن النعمان بأمانهم وعودهم فأبى ابن جوهر أن يدخل وابن عبدون واسطة وقال: أنا أحسنت إليه أيام نظرى فسعى فيّ إلى أمير المؤمنين ونال منى كل منال لا أعود أبداً وهو وزير فصرف لذلك، وكتب لابن عبدون أمان خطه الحاكم بيده وكان يقول عنه: ما خدمنى أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبدون ولقد جمع لى من الأموال ما هو خارج في أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار، ثم بعد ذلك اعتقل ابن عبدون وأمر بعمل حسابه ثم ضرب عنقه وقبض ماله[5]، ثم تغير الحاكم لمنصور بن

---

1) روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر لابن الشحنة ص216

[2]) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 46

[3]) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 76

[4]) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 81

[5]) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 84-85

عبدون فنكبه وقتله وقلد مكانه زرعة بن نسطورس الوزير ولقبه بالشافي وذلك في سنة 397 هـ[1]

أبو الخير بن زرعة بن عيسى بن نسطورس

ثم بعدما خلع أبو نصر بن عبدون وبعد أن أقام ابن القشورى على رسمه ينظر عشرة أيام إلى ثالث عشره فبينما هو يوقع إذ قبض عليه وضربت رقبته من أجل أنه بلغ الحاكم عنه أنه يبالغ في تعظيم حسين بن جوهر وأكثر من السؤال في حوائجه، وفى يومه أجلس أبو الخير بن زرعه بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى في مكان ابن القشورى وأمر أن يوقع عن الحاكم في أوامره فجلس ونظر في الوساطة والسفارة ببغير خلع ومنع من الركوب في المراكب بالخليج وسدت أبواب القاهرة التي مما يلى الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه، وفى سابع ربيع الآخر خلع على زرعة بن عيسى بن نسطورس وحمل وقرئ له سجل في القصر لُقب فيه بالشافى[2]، و في سنة 403 هـ في الثانى عشر من ربيع الأول هلك زرعة بن عيسى بن نسطورس من علته فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهراً فتأسف الحاكم على رحيله من غير قتل وقال: ما أسفت على شيء قط أسفى على خلاص بن نسطورس من سيفى وكنت أود ضرب عنقه لأنه أفسد دولتى وخاننى ونافق علىّ وكتب إلى حسان بن الجراح في المداجاة علىّ وأنه يبعث من يهرب به إليه، ثم خلع على أخوته الثلاثة وأقروا على ما بأيديهم من الدواوين[3]، ويذكر ابن الصيرفى: أنه رد النظر إليه والسفارة في محرم سنة احدى واربعمائة ولقب الشافى في ربيع الآخر منها ولم يزل على ذلك إلى أن توفى بمصر في صفر سنة ثلاث واربعمائة وكانت علته شقفة ظهرت في ظهره وكان اشتغاله بتثمير المال وتدبير الأعمال[4]

نجيب الدولة مجلى بن نسطورس

---

1) تاريخ دمشق لابن القلانسى ص 104

2) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 85-86

3) إتعاظ الحنفا ج2 ص 93

4) الإشارة إلى من نال الوزارة ابن الصيرفى ص 28

في شوال سنة 415 هـ في أيام الظاهر صرف نجيب الدولة مجلى بن نسطورس عن ديوان الأحباس بأبى غالب الصيفى النصرانى كاتب ديوان الخراج[1]

موسى بن ألعازر

كان طبيب المعز ففي سنة 365 هـ الثامن من ربيع الأول اعتل المعز و أقام ثمانية وثلاثين يوماً ووصف له البطيخ البرلسى بأخذ ماؤه فطلب بمصر فلم يوجد سوى واحدة اشتريت بخمسة دنانير ثم وجد منها ثماني عشر بطيخة اشتريت بثمانية عشر ديناراً وكان الناس يغدون إلى القصر ويروحون والذى يمرضه طبيبه موسى بن ألعازر وعبده جوهر[2]

[1]) إتعاظ الحنفا ج 2 ص 161

[2]) إتعاظ الخنفا ج 1 ص 228

أبى نجاح بن فنا الراهب

في شوال سنة 520 هـ كان بدء أمر الراهب وذلك أن راهباً من النصارى يعرف بأبى نجاح بن فنا كتب إلى الآمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها وضمن أنه يحقق في جهاتهم ما يملأ بيوت الأموال فتقدم الخليفة بأن يُمكن من الدواوين ويُساعد على ما يخرجه من الحسابات ولقب بالأب القديس الروحانى النفيس أبى الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية ثالث عشر الحواريين وكان الآمر لما إنفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون وبقى بغير وزير دانت له الدنيا وكان معظماً كثير الجود إلى الحد الذى لا مزيد عليه فكثر الخير في تلك الأيام وفرح الناس بالفوائد وتردد المسافرون والتجار وجلبت البضائع وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافاً إلى ما كان فيها وحسنت السيرة في الرعية وأباح للناس والجنود ما كان الأفضل حظره عليهم من الملبوس والتجمل فما برح الناس في خيرات داره ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وضمن في جهاتهم الأموال وحملها أولاً فأول وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون ما يزيد عن الوصف فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ما تحصل منهم ابتدأ يعمل في المسلمين معاملى الديوان من المشارفين والضمناء والعمال، وفى سنة 521 هـ فيها كثرت مصادرة الراهب للكتاب والعمال وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال وندب معه مقداد والى مصر وسعد الدولة والى القاهرة للشد منه فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق وأخذ الراهب يحسن للآمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم[1]، وفى سنة 523 هـ عم البلاد بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من الراهب بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه إما من ضرب أو نهب أو أخذ مال وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص

---

[1] إتعاظ الحنفا ج 3 ص 117-119

ويستدعى الناس للمصادرة فطلب في بعض الأيام رجلاً يعرف بابن الفرس من العُدول المميزين المبجلين في الناس فأهانه وأخرق به فخرج إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: يا أهل مصر انظروا عدل مولانا الآمر في تمكينه النصرانى من المسلمين، فأرتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة فأتصل ذلك لخواص الخليفة فأبلغوه إياه وخوفوه عاقبة ذلك وطالعوه بما حل بالخلق وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جديحو سبعيين ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار فصار يشكو وكان كثير البضائع والتجارات والمقارضين فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ من أستاذى القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة يقال له لامع وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد ما حج غير مرة وأنشأ جلبة بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج فأتفق جواز الآمر على مكانه فسأل عنه فقيل له أنه لا يستطيع النهوض إلى خدمتك فدخل إليه وسأله عن حاله فقال: يا أمير المؤمنين إن الناس قد تم عليهم من الشدة ما لا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك وشرح له أمر الراهب ابن أبى نجاح وصاحبى الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبى قيراط وأبى يعقوب إبراهيم السامرى الكاتب وما أخذوه من هذا الخادم فحلف الآمر أنه ما علم أنهم بلغوا بالناس هذا المبلغ وأنه يستدعى صاحبى الديوان في كل وقت ويحلفهما وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفياً لما يستخرج من الأموال وليس له معهما حديث البتة، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين أنهم قد اتفقوا على أذى الناس وقد جعلك الله خليفة في الأرض واسترعاك على عباده، فشق على الخليفة وعمل فيه كلام الأستاذ وخرج فما بات حتى صرف صاحبى الديوان واعتقلهما لتستعيد منهما ما أخذاه للناس ظلماً، واستدعى الراهب ثم أمر والى مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت فمضى به إلى شرطة مصر ومازال يضرب النعال حتى مات فجرّ إلى عند كرسى الجسر مسحوباً وسمر على لوح وطرح في بحر النيل فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر فلم حتى خرج إلى البحر الملح واشتهر ذكره وسارت الركبان بهلاكه وكان هذا الراهب أولاً من أشمون طناح وترهب على يد أبى إسحاق بن أبى اليمن وزير ابن عبد المسيح متولى ديوان أسفل الأرض ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولى الدولة أبى البركات يوحنا بن أبى الليث كاتب المجلس فلما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الآمر وبذل له في مصادرة الكتاب النصارى

مائة ألف دينار فأطلق يده فيهم واسترسل أذاه حتى شملت مضرته كل أحد وكان يُعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج ويتطيب بعدة مثاقيل مسك كل يوم وكانت رائحته تشتم من مسافة بعيدة وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ولما قتل وجد له في مقطع ثلثمائة طراحة سامان محشوة جداً لم تستعمل وقد رصت إلى قرب السقف[1].

ويضيف ابن ميسر: فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة هـ فيها قتل أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب قتله الأمير مقداد والى مصر وصلبه عند الجسر ثم أمر به فأنزل وربط على خشبة ورُمِىَ به فى النيل وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية بأن ينظروه كلما أوقفه التيار فى مكان يحدرونه عنه فلم يزل كذلك حتى خرج إلى البحر المالح[2]

ويذكر نهاية الأرب: كان هذا الرّاهب من أهل أشموم طنّاح وكان قد خدم ولىّ الدّولة يحنّا بن أبى الليث، ثم اتّصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون. وبذل فى مصادرة قوم من النّصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم. وتسلسل الأمر إلى أن عمّ البلاء منه جميع رؤساء الدّيار المصريّة وقضاتها وكتّابها وغيرهم. ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضّرب والنهب وأخذ المال. وارتفع شأنه عند الآمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتنّيس من الصّوف الأبيض المنسوج بالذّهب، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الدّيباج. وكان يتطيب فى كلّ يوم بعدة مثاقيل من المسك. وكان يركب الحمير بالسّروج المحلّاة بالذهب والفضة، ويجلس فى قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعى النّاس للمصادرة. فاستدعى فى بعض الأيام رجلا يعرف بابن الفرس، وكان من أكابر العدول ذوى الهيئات والدّيانة، والناس يعظمونه ويبجّلونه- وأوقع به الإهانة والإخراق؛ فخرج من عنده ووقف فى الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظر واعدل مولانا الآمر فى تمكينه هذا النّصرانى من المسلمين! فارتجّ الناس لكلامه وكادت تكون فتنة؛ فدخل جماعة على الآمر وخوّفوه العاقبة، وعرّفوه ما حلّ بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان فى المجلس رجل من الأشراف، فأنشد الآمر أبياتا منها:

---

[1]) إتعاظ الحنفا ج 3 ص 125-127

2) أخبار مصر لابن ميسر ص107-109

إن الّذى شرّفت من أجله ... يزعم هذا أنّه كاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فمسكت. فأمر به فقتل. وكان الّذى تولّى قتله الأمير مقداد والى مصر، وصلبه على الجسر. ثم أنزل وربط على خشبة ورمى فى بحر النيل وخرجت الكتب إلى الأعمال البحريّة أنّه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتّى ينتهى إلى البحر المالح. ولما قتل هذا الرّاهب وجدوا له مقطعا فيه ثلاثمائة طرّاحة سامان محشوة، جددا، لم تستعمل. هذا من هذا النّوع، خلا ما وجد من الذّهب والفضة والأقمشة والديباج[1]

أبو البركات يوحنا بن أبي الليث النصرانى

في سنة 501 هـ فيها فتح ديوان سمى بديوان التحقيق تولاه أبو البركات يوحنا بن أبى الليث النصرانى وكان يتولى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف وكان قد كبر وضعف فتحد ابن أبى الليث مع القائد أبى عبدالله في الدواوين والأموال والمصالح وفاوض في ذلك الأفضل واتفق موت ابن الأسقف فتسلم ابن أبى الليث الدواوين واستمر فيها حتى قتل في سنة 518هـ وفيها تحدث ابن أبى الليث في نقل السنة الشمسية إلى العربية وكان قد حصل بينهما تفاوت أربعة سنين فأجاب الأفضل إليه[2]، ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبى الليث صاحب الديوان وحدث أن تبجح على الأفضل بخدمته وكان سبعمائة ألف دينار خارجاً عما أنفق في الرجال فجعل في صناديق مجلس الجلوس فلما شاهد الأفضل المال قال: يا شيخ تفرحنى بالمال وتريد أمير الجيوش أن يلقى بئراً معطلة أو أرضاً بائرة أو بلداً خراباً لأضربن رقبتك، فقال: وحق نعمتك لقد حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة، فتوسط القائد له بخلع فقال: لا والله حتى أكشف عما ذكر[3]، وفى سنة 527 هـ فيها سلم الحافظ أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غسان وصرف يوحنا بن أبى الليث لأشياء نقمها عليه وسعوا فيه عنده بأنه كان سبباً فيما عمله أبو على أحمد بن الأفضل من تفريق ما فرقه من الأموال لأهله وأقاربه[4]

علم الدين بن تاج الدين الشهيربابن زُنْبور

---

1) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين النويري ج 28 ص 292-294

[2]) إتعاظ الحنفا ج3 ص 39-40، وأيضاً أخبار مصر لابن ميسر ص77

[3]) إتعاظ الحنفا ج 3 ص 43

[4]) إتعاظ الحنفا ج3 ص 148

القبطى المصرى كان وزيراً بالديار المصرية ثم ولى نظر جيشها أيضاً ونظر الخاص اجتمعت له هذه الوظائف الثلاث معاً ولم تجتمع لأحد قبله، قلت: ولمن بعد أعنى بذلك في وقت واحد على أن سعد الدين بن غُراب وليهم غير مرة في أوقات متعددة وكذلك الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله الفُوي وكذلك جمال الدين يوسف البيرى الاستادار ما خلا الجيش انتهى، ولما اجتمعت هذه الوظائف لابن زنبور عظم في الدولة وضخم ونالته السعادة وكان سكنه بالبندقيين داخل القاهرة وهو صاحب السبع قاعات وما بينهم ولا زال في عزه حتى وقع بينه وبين الأمير ضرغتمش الناصرى صاحب المدرسة بالصليبة وجشة ولا زال ضرغمتش به حتى قبض عليه ونكبه وكان القبض عليه يوم الخميس سابع عشر شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هـ، واعتقله ضرغمتش عنده تسعين يوماً وأجرى عليه أنواع العقوبة كالمقارع وغيره ثم نفى إلى قوص بعد أخذ سائر موجودة وذخائره وحواصله وكان شيئاً كثيراً إلى الغاية فمن جملة ما أخذ له إردبان لؤلؤاً وألفا ألف دينار وقس على ذلك من القماش وغيره، وأستقر في وظائفه من بعده جماعة فاخلع على القاضي الموفق كاتب الأردانى بالوزارة وعلى تاج الدين ابن الغنام ناظر الجيوش المنصورة وعلى البدرى كاتب يَلْبُغا اليحياوى نائب الشام ناظر الخواص، واستمر ابن زنبور معتقلاً بقوص إلى أن توفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة هـ وكان ابن زنبور هذا عنده رئاسة وكرم على ذويه وكان جماعاً للأموال والأملاك حتى صار يضرب بسعادته المثل ومع هذا كان عنده تواضع وحشمة وعلم قيل إن العماد قال:

ذا ابن زنبور الصاحب   في الناس يا ما أقوى إسمو

ترى زنبـور إيش كان   زنبــور أبـوه وآلا أمُّو

فبلغ ابن زنبور ذلك فقال: ما قال وحش ثم أنعم عليه فقطع لسانه[1]

ولابن الصيرفى يذكر رواية أخرى عنه: كان أبوه أبو اليمن سورس بن مكراوة ناظر الريف وكان نصرانياً وولده هذا على دينه فلما أفضت الوزارة إليه أسلم وخلع عليه وقلد مصحفاً والنصارى ينكرون اسلامه وأقام في الوزارة أياماً قلائل فطالبه الجند بأرزاقهم فوعدهم وطمنهم وهرب مع اللواتيين فبطل أمره[2]

1) أنباء الأمراء بأنباء الوزراء ص 70-72

2) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص 52

تاج الملك إسحاق بن أبى الثناء المعروف بان كاتب قيصر

من أعيان النصارى المصريين الساكنين بالقاهرة المتصرفين في عصرنا في الأعمال السلطانية[1]، وهو كان في أيام الملك الناصر

ويذكر ابن أيبك الصفدى: ابن كاتب قيصر النصراني إبراهيم بن أبي الثناء علم الملك عرف بابن كاتب قيصر، كان من أعيان النصارى الفضلاء هو وأخوه تاج الملك إسحاق، نقلت من خط نور الدين ابن سعيد المغربي ما نسبه للمذكور في الياسمين المحشو بالأحمر:

أرى ياسمينا محشى غدا   إلى الند في نشره ينتمي

كمثل قصاصة تصفية   تلوث أطرافها بالدم[2]

علم الملك إبراهيم بن أبى الثناء

هو أخو تاج الملك بن أبى الثناء المعروف بابن كاتب قيصر لقيته بالقاهرة وهو مشتغل بشغل سلطانى فشاهدت منه نصرانياً لطيف المحاضرة ظريف المحاورة جيد الفكر والبديهة[3]

عائلة مماتى القبطية

سنتناول الأشخاص الذين تم التعرف عليهم من هذه العائلة وهي إحدى العائلات القبطية التي كان لها دور بارز في الدولة الأيوبية وعند قراءتنا الكتب التاريخ يلاحظ أن المؤرخين يحاولون أن يجعلوا أفراد هذه العائلة أنهم اعتنقوا الإسلام بروايات غير مؤكدة ولا عجب في ذلك أن يحدث مع كل قبطى بارز فهم لهم يذكروا أحداث مؤكدة تثبت إسلامهم لكن أقوالهم قيل عن فلان ولكن لم يذكر واقعة مؤكدة أن فلان ذهب إلى الأمير فلان مثلاً وأعلن إسلامه كما ذكر عن شخصيات أخرى كثيرة ولذلك لم تذكر في هذا البحث ليس نوع من التعصب ولكن لأن هذا البحث معنى فقط بالمسيحيين الأقباط

الخطير مهذب بن ذكريا المعروف بابن مماتى

1) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص301

2) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي جـ 5

3) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص301

بنو مماتى كانوا نصارى متعلقين بالعمل وكتابة الخراج وقد ذكر صاحب الخريدة أن الخطير وجماعة النصارى أسلموا في ابتداء الملك الصلاحى وحصلوا على الجاه والحرمة الوافرة والعيش الرخى وذكر العماد أنه لقيه بالقاهرة وهو متولى ديوان الجيش للملك الناصر[1]

الأسعد أبو المكارم أسعد

هو ابن الخطير بن ذكريا بن مهذب المعروف بابن مماتى ومن كتاب الخريدة أنه أخد الكتاب بالديوان الفاضلى[2]، وفى كتاب المقفى الكبير: أسعد بن مهذب بن مينا بن أبى المليح زكريا بن قدامة بن أبى مليح مينا القاضي الأسعد شرف الدين أبو المكارم ابن الخطير أبى سعيد المعروف بابن مماتى ولى ديوان الجيش بعد أبيه الخطير فلما استبد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطة مصر استقر في نظر الدواوين من سنة ست وثمانين وخمسمائة وأختص بالقاضى الفاضل وحظى عنده وكان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه وله عدة مصنفات منها كتاب تلقين القين وكتاب حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم وهو كبير وكان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه وكتاب وجوه الخطب وصدور الكتب وكتاب أخابر الذخائر وكناب ترجمان الجمان وكتاب درة التاج وكناب باعث الجلد عند حادث الولد وكتاب أعلام النصر وكتاب أعلام الوزر وكتاب طور الأعلام وكتاب تحسين الأفعال وكتاب أدعية الصدور وكتاب الطيب من شعر أبى الطيب وكتاب النتف الأدبية والمآخذ الشعرية وكتاب دقائق الاحتيال في طرائق الاغتيال وكتاب ميسور النقد وكتاب سلاسل الأدب وكتاب ذم البخل وكتاب الحض على الرضى بالحظ

1) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص268-269

2) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص269

وكتاب سر الشعر وكتاب قرص العتاب وكتاب لطائف الأدب وطرائف الكتب وكتب زواهر السدف وجواهر الصدف وكتاب لمع الأخبار وملح الذخائر وكتاب مجازاة السديد وكتاب ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار وكتاب إيثار الطالب بإيثار المطالب وكتاب شعر العصرين من المصريين وكتاب شعر أشعر اللمع وقال عنه القاضي الفاضل: وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدته فما رأيت والله كتاباً يكون قباله ثان منه وأنه من أهم ما طالعه الملوك وله أيضاً كتاب قوانين الدواوين صنعه للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ذكر فيه ما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء ضخمة والذى يقع في أيدى الناس الآن جزء واحد اختصره منه غير المصنف فإن ابن مماتى ضمنه ذكر أربعة آلاف قرية من أعمال مصر ومساحة كل قرية وقانون ريها ومتحصلها من عين وغلة ولما قدمه للعزيز أنعم عليه بخمسمائة دينار حملت إليه وله أيضاً كتاب سيرة صلاح الدين نظماً وكتاب نظم كليلة ودمنة وله عدة رسائل وديوان شعر ولم يزل بديار مصر إلى أن ولى الوزارة الصاحب تقى الدين عبد الله بن على بن شكر الدميرى للملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب فخافه لما كان في حقه قبل ذلك من الإهانة وأخذ الوزير في العمل عليه ورتب مؤامرات أحال بها الأجناد عليه ثم قبضه في جمادى الآخرة سنة اثنتين وستمائة وعلق برجليه ففر من القاهرة وسار إلى حلب فأكرمه الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين فأستخدمه وأستقر بحلب إلى أن مات بها يوم الأحد سلخ جمادى الأول سنة ست وستمائة عن اثنتين وستين سنة[1]

ويذكر وفيات الأعيان أنه توفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة هـ عن سبب التسمية بمماتى وهو لقب أبي مليح المذكور وكان نصرانياً، وإنما قيل له مماتي لأنه وقع في مصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام، وخصوصاً لصغار المسلمين، فكانوا إذا رأوه ناداه كل واحد منهم مماتي، فاشتهر به، هكذا اخبرني الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري، نفع الله به، ثم انشدني عقيب هذا القول مرثية فيه وقال: أظن هذين البيتين لأبي طاهر لان مكنسة المغربي وهما:

طويت سماء المكرمات... وكورت شمس المديح

من ذا أؤمل أو أرجي ... بعد موت أبي المليح ثم كشفت عنهما فوجدتهما له، فيه مدائح أيضاً [وكان أبو الطاهر ابن مكنسة خصيصاً بأبي مليح مماتي جد الأسعد المذكور؛ وكان في

1) المقفى الكبير للمقريزى ج2 ص83-87

بستانه المعروف بظاهر مصر، مجاور جامع راشدة الحاكمي، منظرته المعروفة بالنزهة ولها البئر الموصوف ماؤها بشدة البرد والحلاوة في الصيف حتى إن صاحب قصر الحكمة كان ينفذ من يأخذ من مائها لشربه، وفيها يقول ابن مكنسة من جملة قصيدة يمدحه بها ويصف المنظرة:

ومن عجائبها البئر التي انفردت ... بالقر في الحر والأمواه تضطرم

كأنما ماؤها في كل هاجرة ... ريق الحبيب عقيب الهجر وهي فم[1]

ويذكر ابن الساعى، أسعد بن المهذب بن أبى المليح مماتى أحد الرؤساء الأعيان الجلة والكتاب الكبراء المنزلة ومن تصرف وولى الديوان وله أدب بارع وخاطر وقاد مسارع وقد صنف فى الأدب وعرف ومات بمدينة حلب فى ثامن عشرى جمادى الأولى سنة 606 هـ واصله من نصارى أسيوط بليدة بصعيد مصر قدموا مصر وخدموا وتقدموا وولوا الولايات وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق وهو كالمستولى على الديار المصرية ليس على يده يد والمسمون بالخلافة محجوبون ليس لهم غير السكة واالخطبة وكان إلى مماتى الكثير من أعماله[2]

ويضيف ابن الساعي: أحد الرؤساء الأجلة الأعيان ولى الدواوين بمصر وجده أبو المليح مماتى من نصارى أسيوط بصعيد مصر وكان كاتباً لبدر الحمامى وهو من أهل بيت فى الكتابة عريق معروف بالجود والإفضال وكانت وفاته بمدينة حلب فى ثامن جمادى الأولى من سنة ست وستين وستمائة[3]

ويذكر ياقوت الحموى عن ابن مماتى، أحد الرؤساء الأعيان الجلة، والكتّاب الكبراء المنزلة، ومن تصرف بالأعمال وولي رياسة الديوان وله أدب بارع وخاطر وقاد مسارع وقد صنف في الأدب وعرف ومات بمدينة حلب في الثامن عشر من جمادى الأولى، سنة ست وستمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وأصله من نصارى أسيوط بليدة بصعيد مصر قدموا مصر وخدموا وتقدموا وولوا الولايات وهو مع ذلك من أهل بيت في الكتابة عريق المستولي وهو كالمستولي على الديار المصرية ليس على يده يد والمسمون بالخلافة محجوبون ليس لهم غير السكة والخطبة وكان إلى مماتي كثير من الأعمال فحدثني الصاحب الكبير الوزير الجليل

---

1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان البرمكى ج 1 ص 213

2) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير لابن الساعى الخادم ص 301-302

3) الدر الثمين فى أسماء المصنفين ص 302-303

جمال الدين الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي حرس الله علاه بمدينة حلب قال: بلغني أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر قد تنوق فيها وأجيدت وطيبت ورصعت بالجواهر فعرضها على بدر الجمالي ليبيعها منه فسامها من صاحبها فقال لا أنقصها عن ألف دينار شيئا فأعيدت إليه فخرج بها من دار بدر فقال له أبو المليح أرني هذه السمكة فأراه إياها فقال له كم سمت فيها فقال لا أنقصها عن ألف دينار درهما واحدا فأخذ بيده وقبض ألف دينار من ماله وتركها عنده مدة فاتفق أن شرب أبو مليح يوما وسكر وقال لندمائه قد اشتهيت سمكا هاتم المقلى والنار حتى نقليه بحضرتنا فجاءوه بمقلى حديد وفحم وتركوه على النار وجاء بتلك السمكة العنبر فتركها في المقلى فجعلت تتقلى وتفوح روائحها حتى لم يبق بمصر دار إلا ودخلتها تلك الرائحة وكان بدر الجمالي جالسا فشم تلك الرائحة وتزايدت فاستدعى الخزان وأمرهم بفتح خزائنه وتفتيشها خوفا من حريق قد يكون وقع فيها فوجدوا خزائنه سالمة فقال ويحكم انظروا ما هذا ففتشوا حتى وقعوا على حقيقة الخبر فاستعظم الأمر وقال هذا النصراني الفاعل الصانع قد أكل أموالي واستبد بالدنيا دوني حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا. وتركه إلى الغداة فلما دخل إليه وهو مغضب قال له ويحك أستعظم أنا وأنا ملك مصر شرى سمكة من العنبر فأتركها استكثارا لثمنها فتشتريها أنت ثم لا يقنعك حتى تقليها وتذهب في ساعة ألف دينار مصرية ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالي إليك وفعلت. فقال له: والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك ومحبة لك فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك ويخبره بأنك استعظمها ولم تشترها فأردت أن أعكس الأمر وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقارا لها وأنها لم يكن لها عندك مقدار وأن كاتبا نصرانيا من كتابك اشتراها وأحرقها فيشيع بذلك ذكرك ويعظم عند الملوك قدرك. فاستحسن بدر ذلك منه وأمر له بضعفي ثمنها وزاد في رزقه. وكان مماتي مع ذلك كريما ممدحا قد مدحه الشعراء فذكر أبو الصلت في كتاب الرسالة المصرية له أن أبا طاهر إسماعيل بن محمد النشاع المعروف بابن مكنسة كان منقطعا إليه فلما مات مماتي رثاه ابن مكنسة بقصيدة منها:

(ماذا أرجي من حياتي ... بعد موت أبي المليح)

(ما كان بالنكس الدنيـ ... ـي من الرجال ولا الشحيح)

ومن عجيب ما جرى للخطير أنه كان يوما جالسا في ديوانه في حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان بمصر وكانت حجرة حسنة مرخمة منمقة فجاءه قوم وقالوا له قم من ههنا فقال لهم ما الخبر فقالوا قد تقدم الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأخذ رخام هذه الحجرة وأن يعمر به موضعا اخر فخرج منكسرا كاسفا فقيل له في ذلك فقال قد استجيبت فينا دعوة وما أظنني أجلس في ديوان بعدها أما سمعتم إذا بالغوا في الدعاء علينا قالوا خرب الله ديوانه وما بعد الخراب إلا اليباب ثم دخل منزله أو حم فلم يخرج منه إلا ميتا فلما مات خلفه ابنه الأسعد هذا على ديوان الجيش وتصدر فيه مدة طويلة ثم أضيف إليه في الأيام الصلاحية والعزيزية ديوان المال وهو أجل ديوان من دواوين مصر وتصدر فيه واختص بصحبة القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني ونفق عليه وحظي عنده وكرم لديه فقام بأمره وأشاع من ذكره ونبه على فضله وصنف له عدة تصانيف باسمه ولم يزل على ذلك إلى أن ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وكان وزيره والمدبر لدولته الصفي عبيد الله بن علي بن شكر وكان بينه وبين الأسعد ذحل قديم أيام رياسته عليه ووقعت من الأسعد إهانة في حق ابن شكر فحقدها عليه إلى أن تمكن منه فلما ورد مصر أحضر الأسعد إليه وأقبل بكليته عليه وفوض إليه جميع الدواوين التي كانت باسمه قديما وبقي على ذلك سنة كاملة ثم عمل له المؤامرات ووضع عليه المحالات وأكثر فيه التأويلات ولم يلتفت إلى أعذاره ولا أعاره طرفا لاعتذاره فنكبه نكبة قبيحة ووجه عليه أموالا كثيرة وطالبه بها فلم يكن له وجه لأنه كان عفيفا ذا مروءة فأحال عليه الأجناد فقصدوه وطالبوه وأكثروا عليه واذوه واشتكوه إلى ابن شكر فحكمهم فيه .

فحدثني المؤيد إبراهيم بن يوسف الشيباني قال سمعت الأسعد يقول علقت في المطالبة على باب داري بمصر على ظهر الطريق في يوم واحد إحدى عشرة مرة فلما رأوا أنني لا وجه لي قيل لي تحيل ونجم هذا المال عليك في نجوم فقلت أما المال فلا وجه له عندي ولكن إن أطلقت وملكت نفسي استجديت من الناس وسألت من يخافني ويرجوني فلعلي أحصل من هذا الوجه فأما من وجه حاصل فليس لي بعد ما أخذتموه مني درهم واحد فنجم المال علي وأطلقت وبقيت مديدة إلى أن حل بعض نجوم المال علي فاختفيت واستترت وقصدت القرافة وأخفيت نفسي في مقبرة الماذرائيين وأقمت بها مدة عام كامل وضاق الأمر علي فهربت قاصدا للشام على اجتهاد من الأستاذ فلحقني في بعض الطريق فارس مجد فسلم

علي وسلم إلي مكتوبا ففضضته وإذا هو من الصفي بن شكر يذكر فيه لا تحسب أن اختفاءك عني كان بحيث لا أدري أين أنت ولا أين مكانك فاعلم أن أخبارك كانت تأتيني يوما يوما وأنك كنت في قبور الماذرائيين بالقرافة منذ يوم كذا وأنني اجتزت هناك واطلعت فرأيتك بعيني وأنك لما خرجت هاربا عرفت خبرك ولو أردت ردك لفعلت ولو علمت أنك قد بقي لك مال أو حال لما تركتك ولم يكن ذنبك عندي مما يبلغ أن أتلف معه نفسك وإنما كان مقصودي أن أدعك تعيش خائفا فقيرا غريبا ممججا في البلاد فلا تظن أنك هربت مني بمكيدة صحت لك علي فاذهب إلى غير دعة الله. قال وتركني القاصد وعاد فبقيت مبهوتا إلى أن وصلت إلى حلب.

فحدثني الصاحب جمال الدين الأكرم أدام الله علوه لما ورد إلى حلب نزل في داري فأقام عندي مدة وذلك في سنة أربع وستمائة وعرف الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين بن أيوب رحمه الله خبره فأكرمه وأجرى عليه في كل يوم دينارا صوريا وثلاثة دنانير أخرى أجرة دار فكان يصل إليه في كل ثلاثة أشهر ثلاثون دينارا غير بر وألطاف ما كان يخليه منها وأقام عنده على قدم العطلة إلى سنة ست وستمائة كما ذكرنا ومات فدفن بظاهر حلب بمقام بقرب قبر أبي بكر الهروي. وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأدب وفي معرض وقائع تجري ويعرضها على الأكابر لم تكن مفيدة إفادة علمية إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبي وأضرابه فمن ذلك كتاب تلقين التفنن في الفقه كتاب سر الشعر كتاب علم النثر كتاب الشيء بالشيء يذكر وعرضه على القاضي فسماه سلاسل الذهب لأخذ بعضه بشعب بعض كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف كتاب قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش كتاب لطائف الذخيرة لابن بسام كتاب ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار كتاب سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب كتاب أخاير الذخائر كتاب كرم النجار في حفظ الجار عمله للملك الظاهر لما قدم عليه كتاب ترجمان الجمان كتاب مذاهب المواهب كتاب باعث الجلد عند حادث الولد كتاب الحض على الرضى بالحظ كتاب زواهر السدف وجواهر الصدف كتاب قرص العتاب كتاب درة التاج كتاب ميسور النقد كتاب المنتخل كتاب أعلام النصر كتاب خصائص المعرفة في المعميات. وكان علم الدين بن الحجاج شريكه في ديوان الجيش وكان بينهما ما يكون بين المتماثلين في العمل فعمل فيه الكتاب المتقدم ذكره وهجاه بعدة أشعار منها:

(حكى نهرين ما في الأر ... ض من يحكيهما أبدا)

(ففي أفعاله ثورى ... وفي ألفاظه بَرَدَى)

وكان له نوادر حسنة حادة منها ما حدثني به الصاحب القاضي الأكرم قال ركبنا وخرجنا يوما نسير بظاهر حلب فكان خروجنا من أحد أبوابها ودرنا سور البلد جميعه ثم دخلنا من ذلك الباب فقال اليوم تسييرنا تدليك قلت كيف قال من برا برا.

وكان السديد بن المنذر وهو رجل فقيه اتصل بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعض الاتصال فجعل لنفسه بذلك سوقا واستجلب بما يمت به من ذلك وإن كان باطلا رزقا وكان أعور رديئا قليل الدين بغيضا ولما أحدث الملك الظاهر غازي قناة الماء بحلب وأجراها في شوارعها ودور الناس فوض إلى ابن المنذر النظر في مصالحها ورزق على ذلك رزقا حسنا نحو ثلاثمائة درهم في الشهر فسأل عنه الأمير فارس الدين ميمون القصري والأسعد بن مماتي حاضر فقال له مسرعا هو اليوم مستخدم على قناة. فأعجب بحسن هذه النادرة الحاضرين[1].

المكين ابن العميد

جرجس المكين ابن العميد أبى ياسر ابن أبى المكارم ابن أبى الطيب ابن قروينة بن طيب بن يوسف السريانى النصرانى التكريتى الأصل قدم جده الأعلى طيب بن يوسف إلى القاهرة من تكريت وهو نصرانى في هيئة تاجر فقدم إلى الخليفة الآمر بأحكام الله عدة ثياب ما بين عنابى وأبراد حرير من عمل الهند واليمن فخلع عليه وعوضه عن تقدمته وأحضره بين يديه فأعجبه أدبه فرسم بمسامحته مما على متجره للديوان وأنعم عليه بقرية بالحوف بجوار دماص فلما قتل الآمر تحول إلى سموطية وتزوج بها فولد له قروينة ومات فنشأ قروينة ومهر في الكتابة الديوانية وتصرف في الخدم وولد له ابن سماه أبا الطيب حذق في معرفة الكتابة ودخل القاهرة فأستخدم بديوان الغربية وخرج إليها وأقام بها سبع سنين فكثرت أمواله وأشتهر فصودر على عشرين ألف دينار مصرية وتعطل وكانت له خمسة أولاد أصغرهم أبو

1) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموى ج 2 ص 178-192

المكارم ابن أبى الطيب وأتسعت حاله وتزوج أحت المكين سمعان بن خليل بن مقارة متولى ديوان الجيش ففي الأيام الصلاحية يوسف بن أيوب فولد له ثلاثة أولاد هم النجيب أبو الفضل والعميد أبو ياسر والمخلص أبو الزهر ثم ترهب بعد موت زوجته وصار قمصاً حتى مات سنة ست وستمائة فخدم العميد أبو ياسر بديوان الجيش موضع خاله المكين سمعان وقد ترهب في سنة ثلاث وستمائة وترك الخدمة في الأيام العادلية أبى بكر بن أيوب وحبس نفس بدير أبى يحنس بوادى هبيب ثلاثين سنة وأكثر فتميز العميد عند الملك العادل بالأمانة وملازمته الصوم في أكثر الأيام وصدقته بما يفضل عنده ولا يدخر شيئاً وأقام بديوان الجيش خمس وأربعين سنة ومات في صفر سنة ست وثلاثين وولد المكين جرجس بن العميد صاحب الترجمة في يوم السبت رجب سنة اثنتين وستمائة وخدم بديوان الجيش بالقاهرة ثم بالشام وتقدم في الأيام الناصرية يوسف وبعده إلى أيام الظاهر بيبرس وأختص بالأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب الشام وعظم قدره ثم قبض عليه بعده وحبس بالقاهرة مدة سنين ثم أفرج عنه وأستقر بديوان الجيش بمصر ثم أضيف إليه ديوان جيش الشام ثم قبض عليه وأعتقل ثم أفرج عنه فمضى من القاهرة إلى دمشق بطالاً وأقام بها حتى مات سنة اثنتين وسبعين وستمائة عن سبعين سنة بدمشق[1]، ويذكر الوافى بالوفيات ابْن العميد عبد الله بن أبي الياسر المكين الْمَعْرُوف بِابْن العميد الْكَاتِب النَّصْرَانِي كَانَ جده من تكريت وَكَانَ يحضر إِلَى مصر بمتجرٍ فِي أَيَّام الإِمَام الْآمِر بِأَمْر الله الفاطمي فَقدم للخليفة الْمَذْكُور من متجره طُرفاً فَأحْسن إِلَيْهِ وقربه فَأَقَامَ بالديار المصرية وجاءه بهَا الْأَوْلَاد وَكَانَ فيهم من تعلم الْكِتَابَة وَتصرف وَتقدم وَعرف أَبُو الياسر بالعميد وخدم بديوان الْجَيْش بِمصْر وَالشَّام وَتقدم فِي الدولة الناصرية يُوسُف وَبعده إِلَى الدولة الظَّاهِرِيَّة والنائب يومئذٍ عَلَاء الدّين طيبرس الوزيري فَتقدم عِنْده وَصَارَت لَهُ كلمة نَافِذَة وَلما تغير خاطر الظَّاهِر على النَّائِب الْمَذْكُور أرسل يطْلب ديوَان الْجَيْش إِلَى مصر فَلم يرسلم واعتقلهم صُورَة فَلَمَّا قبض السُّلْطَان عَلَيْهِ طلب المكين إِلَى مصر وأعتقله مُدَّة ثمَّ أفرج عَنهُ ولاه جَيش مصر وأضاف إِلَيْهِ جَيش الشَّام فحسده بعض نواب ديوَان الْجَيْش وزور كتابا إِلَيْهِ وألقاه فِي حرمدانه ووشى بِهِ لينقم عَلَيْهِ ويتولى مَكَانَهُ فاعتقل المكين وَنقل عَن الَّذِي وشى بِهِ كَلَام أوجب الْقَبْض عَلَيْهِ والعقوبة فاعتقل بعد الْعَذَاب مُدَّة خمس عشرَة سنة وَأفْرج عَن المكين هَذَا وَترك التَّصَرُّف وَحضر إِلَى دمشق وَتُوفِّي بهَا سنة اثْنَتَيْنِ وَسبعين

---

1) المقفى الكبير للمقريزى ج3 ص16-18

وسِتمِائَة وَكَانَ مولده سنة اثْنَتَيْنِ وسِتمِائَة وَجمع تَارِيخا فِي مجلدين من ابْتِدَاء الْعَالم إِلَى أول الدولة الظَّاهِرِيَّة وَعمل الْملَّة الإسلامية فِي مُجَلد مِنْهُمَا وَكَانَ لَهُ بر وَفِيه مكارمٌ وَعِنْده مُرُوءَة[1]

وفلى تاريخ المسلمين للشيخ المكين يذكر: وفى أيام الآمر بالله قدم من تكريت رجل نصرانى سريانى تاجر اسمه طيب بن يوسف ومعه أحمال كثيرة من الثبات العتالى والأبراد الحرير عمل الهند واليمن وأصناف كثيرة فقد للخليفة من أجودها ما يصلح لمثله فخلع عليه وأحسن إليه وعوضه عن تقدمته واستحضره فأعجبه كلامه وأدبه فأمره بالمقام بمصرورسم بأن يسامح بها على متاجره من الحقوق وأنعم عليه بقرية من أعمال الحوف اسمها بهيدة مجاورة لدماص فأقام الشيخ طيب بالقاهرة المحروسة إلى أن مات الخليفة الآمر بالله فأنتقل وسكن سنموطية وتزوج من أهلها ورزق ولداً وأسماه قروينة ومات الشيخ طيب ودفن بكنيسة سنموطية وأشتغل ولده قروينة بصناعة الكتابة وتصرف في الخدم الديوانية ورزق ولداً أسماه أبو الطيب باسم جده وكان كاتباً حاذقاً لبيباً ورحل إلى القاهرة واجتمع بالأكابر وخدمهم وتردد إليهم إلى أن راق عقله وحسن تصرف استخدموه صاحب ديوان العربية فخرج إليها وأقام بها سبع سنين وأشهر ورغب في الزراعات وكثرة المواشى وظهر حاله واشتهر أمره وماله عشرين ألف دينار فأباع جميع ما يملكه من المواشى والأملاك وحمل المبلغ وألزم أنه لا يتصرف في الخدم الديوانية ولا يعلم أولاده صناعة الكتابة وكان له خمسة أولاد فصار منهم أربعة أساقفة وأصغرهم أبو المكارم كاتب له مواشى وزراعات وخلايا نحل تزيد على ألف خلية وتزوج أخت المكبن سمعان بن كليل ابن مقارة من أهل ميكاييل بشو لان اسم القرية قديم بشو وكانت يها كنيسة على اسم الملاك ميكاييل وكانت جماعة النصارى المجاورين المترددين إليها يقولون نروح إلى ميكاييل بشو فأشتهرت القرية بهذا الاسم وكان سمعان كاتباً حاذقاً فخدم بديوان الجيش في أيام الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة تسع وستين وخمسمائة وتميز عنده وأعطاه أقطاعاً في حجروان واستمر بديوان الجيش سنة ثلاث وترك الخدمة في الدولة العادلية وترهب بدير أبو يحنس القصير ببرية الأسقيط بوادى هبيب وحبس نفسه بموضع بناه بوسط الدير مدة تزيد عن ثلاثين سنة وكاتب سيرته فاضلة وأمره مشهور وأولد أبو المكارم المذكور بن بو طيب ثلاث أولاد النجيب أبو الفضل والعميد بو الياسر والد المؤرخ والمخلص أبو الزهر وتوفيت زوجته فترهب وتوفى سنة ست وستمائة واستخدم العميد بو الياسر في ديوان

1) الوافى بالوفيات للصفدى ج 17 ص 355-356

الجيش موضع خاله المكين سمعان وكاتب سيرته بين العالم مثل سيرة الرهبان القديسين الذى في البرارى وكان أكثر أيامه صايماً وصلواته لا يقطعها في أوقاتها وهو مباشر شغله في الديوان وكان يتصدق بها ويفضل من ضروراته ولا يدخر شيئاً وتميز عند الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بالأمانة وأقام بديوان الجيش خمسة وأربعين سنة ومات في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة[1]

كيسان بن عثمان بن كيسان

كيسان بن عثمان بن كيسان أبو سهل الطبيب النصراني المصري هَذَا طبيب كَانَ بمصر فِي الأيام المعزية والأيام العزيزية وَكَانَ مشهور الذكر معروف الصنعة والمعالجة خدم الدولة القصرية وتقدم فِيهَا توفي فِي السادس من شعبان سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة هـ ساكن القصر فِي أيام العزيز[2].

1) تاريخ المسلمين للشيخ المكين جرجس بن العميد ص 299-300

2) أخبار العلماء بأخيار الحكماء ج 1 ص 202

حبيش النصرانى

في جمادى الآخرة لسنة خمسة عشر وأربعمائة هـ توفى حبيش النصرانى الكاتب كان برسم ريحان القصير وكانت حاله حسنت فيما تقدم وكسب مالاً كثيراً ولما جرى على النصارى في أيام الإمام الحاكم ما جرى من لبس العيار والزنار والتشهير به أحب هذا حسن المقام على دينه والمجاهرة به فسكن على الساحل بمصر واجتمع مع الخياسين الذين يحملون الجبن الخيسى إلى مصر وهم نصارى فوافقهم على إيصاله إلى بلد الروم فأجابوه إلى ذلك وركب معهم ووصل إلى أنطاكية سالماً بماله ومن معه من أهل وعبيد وأظهر حسن حاله هناك فطُمع فيه وتخطف ولما مات الحاكم بأمر الله عاد إلى مصر بأسوأ حال وهو صهر لبنى كبسان ولم يلتفت إليه واجتهد في التصرف فتعذر عليه وساءت حاله ثم اعتل وتوفى ولم يوجد له كفن إلى أن احتال بنو كبسان له بكفن ودفنوه بالقصير[1]

الشيخ أبو غالب الضبى

في الثامن من شوال لسنة خمسة عشر وأربعمائة صرف الشيخ نجيب الدولة على بن نسطورس عن ديوان الأحباس وغيرها الذى كان ينظر فيه من قبله وأستخدم أبا غالب الضبى النصرانى الكاتب كان في ديوان الخراج[2]

ابن أبي الفرج المتطبب

في يوم الأحد لثمان خلون من ذي القعدة لسنة خمسة عشر وأربعمائة هـ توفى صبى نصرانى ولد لابن أبى الفرج المتطبب عمره أربعة عشر سنة وكان قد برع في التعليم فنزل لجنازته ابن شباع وجماعة من المسلمين والنصارى والخدم والأساقفة والرهبان وحُفر له بالقصر ودفن هناك غد ذلك اليوم[3]

عيسى بن نسطور

1) أخبار مصر في سنتين للمسبحى ص218-219

2) أخبار مصر في سنتين للمسبحى ص186

3) أخبار مصر في سنتين للمسبحى ص230

في سنة 990م احتل سوريا بأجمعها العزيز خليفة مصر واستعمل عليها رجلاً نصرانياً مصرياً يقال له عيسى بن نسطور وكان عيسى متضلعاً من الفقه وملأ الخزائن الملكية أموالاً وافرة وأقام العزيز كذلك في سورية كاتباً يهودياً اسمه منسى بن القزاز وهذان الكاتبان استغنيا عن فقهاء العرب ونصبا بدلاً منهم كتاباً نصارى على أن فقيهاً عربياً أسنى مبلغاً معتبراً لامرأة مسكينة ودفع إليها قرطاساً كتب فيه ما كتب وأشار إليها أن تقف حيثما يمر الخليفة وتنادى بأنها مظلومة وتدفع له القرطاس كان فحواه: أستحلفك بالله يا من عززت النصارى بعيسى بن نسطور واليهود بمنسى بن القزاز وذللت العرب أن ترفق بى، قرأ العزيز تلك الكلمات وتبصر في معناها وأرسل بطلب المرأة فلم يعثر عليها أحد فسخط وحبس عيسى ومنسى كليهما وكان أهل البلاط يحبون عيسى فسألت ابنة الملك العزيز اطلاق سبيله فدفع عيسى ثلاثمائة ألف دينار وعاد إلى منصبه[1] ثم قتل عيسى بن فهد سنة 996م وتولى مكانه أبو العلا فهد بن إبراهيم اليعقوبى القبطى وكان كاتباً لبرجوان الحاجب الأبيض قائد العسكر وهو الذى نصبه رئيساً على الكتاب وكان المسيحيون يومئذ متولين شؤون الوزارة في الدولة العربية المصرية دون أن يضطرهم أحد إلى جحود دينهم[2] وفى سنة 998م سخط الخليفة بمصر على برجوان الحاجب وقتله ولما ثار المصريين هدأ الخليفة روعهم ولاطفهم ثم استدعى الخليفة فهد النصرانى الكاتب ووشحه مجلة ملكية ترطيباً لقلوب الأهالي وقال له كن مطمئناً وتول توزيع أرزاق الدولة[3]

وفى سنة ثمان مائة وتسعة عشر للشهداء الأحد ثالث عشر هاتور الموافقة لسنة أربعمائة وستة وتسعين للهجرة قدم بطريركاً أسمه مقار وفى تلك السنة هدم الأفضل أمير الجيوش كنيسة بالجزيرة وأدعى أن الزلزلة هدمتها، وكان البطريرك مقار قد أبطل عوائد كثيرة منها البخور وجعله في الكنيسة ساعة الأهليل وكان يقال التهليل في القداس بعد قراءة الأبركسيس فإذا حضر الشماس صاحب القداس قبل ذلك ترك الشماس المقدس وكمل صاحب القداس قداسه فجعل التهليل قبل قراءة الكتب ويكون الشماس المبتدى بالقداس مستمر إلى كماله وكان الابرسفارين لا يطوى فأمر أن يطوى[4]

---

1) تاريخ الزمان لابن العبرى ص 70

2) تاريخ الزمان لابن العبرى ص 73

3) تاريخ الزمان لابن العبرى ص 74

4) تاريخ المسلمين للشيخ المكين جرجس بن العميد ص 298-299

الوزير الصّاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيرىّ

توفّى الوزير الصّاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة المعروف بابن البشيرىّ بالقاهرة فى يوم الأربعاء رابع عشر صفر، ومولده فى ليلة السبت سابع ذى القعدة سنة ستّ وستين وسبعمائة بالقاهرة، وكان معدودا من رؤساء الأقباط، تنقّل فى عدّة وظائف إلى أن ولى الوزارة غير مرة، ونظر الخاص[1] سنة 818 هـ السنة الرابعة من سلطنة الملك المؤيد شيخ على مصر وهى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة هجرية[2]

الوزير الصاحب تاج الدين عبد الله

توفّى الوزير الصاحب تاج الدين عبد الله ابن الوزير الصاحب سعد الدين ابن البقريّ القبطى المصرى تحت العقوبة، فى ليلة الاثنين ثامن عشرين ذى القعدة[3] السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الثانية على مصر وهي سنة ثمان وثمانمائة هجرية[4]

شمس الدين بن سعد الدين بن قطارة القبطى

عين السلطان الملك الأشرف برسباي سنة 838 هـ، شمس الدين بن سعد الدين بن قطارة القبطى لنظر الدولة، وألزمه بتكفية يومه[5]

عبد الله بن ريشة، أمين الدين القبطي

عبد الله بن ريشة، أمين الدين القبطي الأسلمي، ناظر الدولة، كان المذكور من أعيان الكتبة الأقباط، وباشر في عدة خدم بالطالع والنازل حتى ولي نظر الدولة، واستمر إلى أن توفي ليلة الأربعاء سادس جمادى الأولى سنة تسعين وسبعمائة[6]

عبد الرزاق بن إبراهيم، الصاحب تاج الدين، المعروف بابن الهيصم

1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 14 ص137

2) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 14 ص135

3) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 13 ص158

4) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 13 ص154

[5]) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 15 ص51

6) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تفرى ج 7 ص 133

عبد الرزاق بن إبراهيم، الصاحب تاج الدين، المعروف بابن الهيصم، القبطي المصري. عبد الرزاق بن إبراهيم، الصاحب تاج الدين، المعروف بابن الهيصم، القبطي المصري. يقال: إنه من ذرية المقوقس، مولده بالقاهرة، ونشأ بها، وتعانى قلم الديونة على عادة الكتاب، تنقل في عدة خدم حتى ولي كتابة المماليك السلطانية في الدولة الناصرية فرج، وهو ممن كان سبباً في نكبة جال الدين يوسف الإستادار، وتولي الإستادرية من بعده في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، ثم ولي بعد ذلك الوزر، ووقع له أمور فيهما وحوادث، ونكب غير مرة إلى أن عزله الملك المؤيد شيخ، ولزم داره مدة سنين إلى أن ولاه الملك الأشرف برسباي نظر ديوان المفرد، مع الزيني عبد القادر بن عبد الغني بن أبي الفرج الإستادار، فلم ينتج أمره، وعزل، وتعطل إلى أن مات يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثمانمائة. وكان شيخاً، للطول أقرب، وبإحدى عينيه خلل وعنده إقدام وجرأة، مع ظلم وعسف، لم تشكر سيرته في ولاياته، وهو جد الصاحب جمال الدين[1].

شَاكر بن ريشة القبطي الْوَزير

شَاكر بن ريشة القبطي الْوَزير تَاج الدّين ولي نظر الْخَاص بعد مقتل صرغتمش وَولي الوزارة بعد ابْن خصيب وَكَانَ يتعانى الْآدَاب وينظم الشّعْر مَاتَ سنة 760 ه[2].

عبد الله بن سعيد الدولة القبطي الْوَزير

عبد الله بن سعيد الدولة القبطي الْوَزير موفق الدّين وَكَانَ يُسمى هبة الله ولي نظر الدَّوَاوِين فِي أَوَاخِر دولة النَّاصِر ثمَّ نظر الدولة ثمَّ نظر الْخَاص بعد جمال الكفاة ثمَّ ولي الوزارة بعد ابْن زنبور وأقيم مَعَه نَاصِر الدّين ابْن المحسني مُشِيرا وَكَانَ موفق الدّين يحب الْفُضَلَاء ويؤثر الْفُقَرَاء مَعَ الْأَخْلَاق الرضية والخط الْفَائِق وَتزَوج حظية للصالح إِسْمَاعِيل اسْمهَا اتِّفَاق سَوْدَاء فَكَانَ أَصْحَابه يقضون الْعجب من محبته لَهَا وَمَات فِي ربيع الآخر سنة 755ه[3].

1) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تفرى ج 7 ص 254

2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج 2 ص 238

3) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 36

ماجد بن قروينة فخر الدين الوزير القبطى

ماجد بن قروينة فَخر الدّين الْوَزير القبطى ولي وزارة الشَّام أَولا ثمَّ نقل إِلَى مصر وأضيف إِلَيْهِ الْخَاص وَكَانَ كَاتبا مجيدا عَارِفًا لكنه كَانَ ظَالِما جماعا لِلْمَالِ كثير الأنفة مستطيلا على الأكابر بجاه يلبغا وَقد خلف لما مَاتَ بيُوت الْأَمْوَال عامرة بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّة والاهراء بالغلال حَتَّى قيل إِنَّه ترك تكفية ثَلَاث سِنِين ثمَّ سلم بعد يلبغا لشاد الدَّوَاوِين فأذاقه أَنْوَاع الْعَذَاب حَتَّى لف مشاق الْكَتَّان على أَصَابِعه وغمرت بالزيت وَأوقدت فِي النَّار إِلَى غير ذَلِك إِلَى أَن هلك فِي 18 جُمَادَى الْآخِرَة سنة 768 ه[1]

ماجد بن تاج الدين موسى بن أبي شاكر القبطي

ماجد بن تَاج الدّين مُوسَى بن أبي شَاكر القبطي الْمصْرِيّ فَخر الدّين صَاحب ديوَان يلبغا وَولى الوزارة فِي دولة الْأَشْرَف وَنظر الْخَاص وَمَات فِي سنة ه776 وَأَبوهُ حَيّ[2]

ابن قرفة النصرانى الطبيب

كان طبيباً في أيام الخليفة الحافظ وقد حقد الحافظ عليه وقتله بخزانة البنود[3]

أبو نصر ابن عبدون النصراني الملقب بالكافي

عندما فرّ القائد حسين قائد القوات من وجه الحاكم بأمر الله بأولاده وصهره وميع أموالهم وسلاحهم، فسير الحاكم الخيل في طلبهم نحو دجوة فلم يدركهم وأوقع الحوطة على سائر دورهم، وجعلت للديوان المفرد، وهو ديوان أحدثه الحاكم يتعلّق بما يقبض من أموال من يسخط عليه، وحمل سائر ما وجد لهم بعدما ضبط، وخرجت العساكر في طلب حسين ومن معه، وأشيع أنّه قد صار إلى بني قرّة بالبحيرة، فأنفدت إليه الكتب بتأمينه واستدعائه إلى الحضور، فأعاد الجواب بأنه لا يخل ما دام أبو نصر ابن عبدون النصرانيّ الملقّب بالكافي ينظر في الوساطة ويوقّع عن الخليفة[4]

---

1) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 320

2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 321

3) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 151

4) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 144

أبا منصور بشر بن عبيد الله بن سورين الكاتب النصراني

ذكر المقريزى عن حارة الطوارق أن هذه الحارة تعرف بدرب ملوخيا، وكانت أوّلاً تعرف بحارة قائد القوّاد لأن حسين بن جوهر الملقّب قائد القوّاد كان يسكن بها فعرفت به. وهو حسين بن القائد جوهر أبو عبد الله الملقّب بقائد القوّاد. لما مات أبوه جوهر القائد خلع العزيز بالله عليه وجعله في رتبة أبيه ولقّبه بالقائد بن القائد، ولم يتعرّض لشيء مما تركه جوهر، فلمّا مات العزيز وقام من بعده ابنه الحاكم استدناه ثم إنه قلّده البريد والإنشاء في شوّال سنة ستّ وثمانين وثلثمائة، وخلع عليه وحمله على فرس بموكب، وقاد بين يديه عدّة أفراس، وحمل معه ثياباً كثيرة. فاستخلف أبا منصور بشر بن عبيد الله بن سورين الكاتب النصرانيّ على كتابة الإنشاء، واستخلف على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم أمير الدولة الموصلي. ولما تقلّد برجوان النظر في تدبير الأمور وجلس للوساطة بعد ابن عمّار. كان الكافة يلقونه في داره ويركبون جميعاً بين يديه مندارهإلى القصر ا خلا القائد الحسين ومحمدبن النعمان القاضي، فإنهما كانا يسلّمان عليه بالقصر فقط. فلما قتلَ الحاكمُ الأستاذَ برجوان كما تقدم خلع على القائد حسين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الولى سنة تسعين وثلثمائة ثوباً أ؛مر وعمامة زرقاء مذهّبة، وقلّده سيفاً محلّى بذهب، وحمله على فرس بسرج ولجام من ذهب، وقاد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها، وحمل معه خمسين ثوباً صحاحاً من كلّ نوع، وردّ إليه التوقيعات والنظر في أمرو النار وتدبير المملكة كما كان برجوان، ولم يطلق عليه اسم وزير، فكان يبكّر إلى القصر ومعه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن إبراهيم النصراني - كاتب برجوان - فينظران في الأمور ثمّ يدخلان وينهيان الحال إلى الخليفة، فيكون القائد جالساً وفهد في خلفه قائماً. ومنع القائد الناس أن يلقوه في الطريف أويركبوا إليه في داره وأنّ من كان له حاجة فليبلغه إياها بالقصر،ومنع الناسمن مخاطبته في الرقاع بسيدنا، وأمر أن لا يخاطب ولا يكاتب إلا بالقائد فقط، وتشدّد في ذلك لخوفه من غيرة الحاكم، حتّى أنّه رأى جماعة من القوّاد الأتراك قياماً على الطريق ينتظرونه، فأمسك عنان فرسه ووقف وقال لهم: كلّنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه، ولست والله أبرح من موضعي أو تنصرفوا عنّي ولا يلقاني أحد إلا في القصر، فانصرفوا وأقام بعد ذلك خادماً من الصقالبة الطرّادين على الطريق بالنوبة لمنع الناس المجيء إلى داره ومن

لقائه إلا في القصر، وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبي صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم وأن لا يمنع أحداً عنه[1].

ابن عيسى بقطر بن شغا الكاتب القبطيّ

ذكر من له معرفة بالخراج، وأمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شغا الكاتب القبطيّ المعروف: بالبولس متولي خراج مصر للدولة الإخشيدية[2].

1) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 145

2) المواعظ والاعتبار ج 1 ص 139

أبا العلاء فهد بن إبراهيم النصراني

جعله الحاكم بأمر الله كان كاتباً لبرجوان يوقّع عنه وينظر في قصص الرافعين وظلاماتهم، فجلس لذلك في القصر وصار يطالعه بجميع ما يحتاج إليه، ورتّب الغلمان في القصر وأمرهم بملازمة الخدمة وتفقّد أحوالهم، وأزال علل أولياء الدولة، وتفقّد أمور الناس وأزال ضروراتهم، ومنع الناس كافة من الترجّل له؛ فكان الناس يلقونه في داره، فإذا تكامل لقاؤهم ركبوا بين يديه إلى القصر ما عدا الحسين بن جوهر والقاضي ابن النعمان فقط، فإنهما كانا يتقدّمانه من دورهما إلى القصر حتّى أنّه لقّب كاتبه فهداً بالرئيس، فصار يخاطب بذلك ويكاتب به. وكان برجوان يجلس في دهاليز القصر، ويجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقّع وينظر ويطالع برجوان ما يحتاج إليه ممّا يطالع به الحاكم، فيخرج الأمر بما يكون العمل به[1]، ولما قتل برجوان وخلع على القائد حسين بن زكريا قائد القوات ولم يطلق عليه اسم وزير، فكان يبكّر إلى القصر ومعه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن إبراهيم النصراني فينظران في الأمور ثمّ يدخلان وينهيان الحال إلى الخليفة، فيكون القائد جالساً وفهد في خلفه قائماً[2]

ويذكر القلانسى: كان في سنة 393 هـ قد اجتمع في مصر أبو ظاهر محمود بن محمد النحوي وكان من أهل بغداد وطرا إلى مصر وإليه ديوان الحجاز والمعروف بابن العداس المصري وإليه ديوان الخراج على الرفع على أبي العلاء فهد بن إبراهيم الوزير والسعاية به إلى الحاكم وعملا عملا بما اقتطعه وارتفق به واشتمل ذلك على حملة كبيرة من المال ولقيا الحاكم بالعمل ووقفاه عليه وبذلا له القيام بالأمر وتوفير ستة ألف دينار في كل سنة فكان فهد يأخذها لنفسه فقال لهما: أنا أقبض عليه وأقلدكما النظر فيما كان ينظر فيه. فقالا: لا يتم أمر ولا يمشي لنا عمل وفهد حي مأمول لخروج من محبسه والعود إلى أمره سيما وكل من بمصر والشام من الولاة والعمال صنائع برجوان وقد جرى اصطناعه إياهم على يده. فامتنع عليهما من قبله وكره قتله وقال لهما: ما له إلي ذنب فاقتله به! وراجعاه القول وألحا عليه فيه فقال: إذا فعلت ما أردتماه فما التوثقة فيما بذلتماه؟ قالا: ان نكتب خطنا لك بأننا نكفيك أمورك ونقوم بتمشيتها على مرادك ونقيم لك وجه المال الذي ضمنا استخراجه لك وتوفيره من الأعمال. قال: فأيكما يخرج إلى الشام؟ قالا: عبدك ابن النحوي ويقيم ابن

1) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 128

2) المواعظ والاعتبار ج 2 ص 145

العداس بحضرتك. فقرر ذلك معهما وأخذ به خطهما. وكان من عادة الحاكم أن يطوف ليلا بمصر والقاهرة وقد منع التجار وأرباب الدكاكين أن يغلقوا دكاكينهم أو ينصرفوا عنها إلى منازلهم حتى صار الليل نهارا في معاملاتهم ومن إشعال السرج والشمع وإضاءة المحال والأسواق تقربا إليه ويطلق لهم المعونة الكثيرة على ذلك ويقف على دكاكينهم ويجتاز بينهم ولا يقدر أحد أن يقوم له أو يقبل الأرض بين يديه فلما عاد في تلك الليلة سحرا من طوفه أمر مسعودا السيفي بأن يمضي إلى فهد بن إبراهيم الوزير يستدعيه فإذا دخل بحجره ضرب عنقه وأحضر رأسه وأن يقبض على أبي غالب أخيه وكان شريرا مبغضا وإليه ديوان النفقات فمضى ووجد فهدا في الحمام فانتظره حتى خرج ثم استركبه وأشعره إنه يراد بخير وانزعج أولاده وأهله وساءت ظنونهم فيه ووصل مسعود إلى باب الرهومة وهو باب من أبواب القصر فعدل به إلى محجبة العطب فلما رأى فهد ذلك أحس بالهلاك فصاح واستغاث وبكى ولاذ بالعفو وبكى الناس لما شاهدوه من حاله وعرفوه من الأمر الذي يراد به وأدخله مسعود إلى الحجرة فأقسم عليه فهد أن يراجع الحاكم في بابه وبذل له ألف دينار وتوفير مثلها فقال له مسعود: لا سبيل إلى المراجعة بعد ما أمرت به. وضرب عنقه وأخذ رأسه وحمله إلى حضرة الحاكم فلما شاهده أمره أن يخرج رأس كل من يقتله من وجوه الدولة إلى قائد القواد فلما رآه أسقط مغشيا عليه وعاد مسعود ليقبض على أبي غالب أخيه فوجده قد هرب فأعلم الحاكم ذلك فأمر بطلبه حتى ظفر به بعد شهر وغير حليته وحلق لحيته فألحقه بأخيه. وأحضر أولاد فهد فخلع عليهم وكتب لهم سجلا بصيانتهم وحماية دورهم وإزالة الاعتراض عنهم وعن أسبابهم. ونظر ابن العداس في الأعمال وشرع في تهذيب الأمور وتوفير الأموال وتوجه ابن النحوي إلى الشام على القاعدة المقررة مع الحاكم وكان قد عد ما يحتاج إليه من آلة السفر والتجمل واستكثر من ذلك وتناهى فيه وهابه الناس وتجنبوه ووصل أولا إلى الرملة فقبض على العمال والمتصرفين فيها وعسفهم وألزمهم بمائتي ألف دينار ووضع السوط والعصا في المطالبة وبث أصحابه ونوابه إلى دمشق وطبرية والسواحل بعد أن واقفهم على أخذ العمال والمتصرفين في الأعمال ومصادرتهم وخبط الشام وعسف من فيه بطلب المال، وكان في جملة العمال رجل نصراني يتعلق بخدمة ست الملك أخت الحاكم وله منها رعاية مؤكدة فكتب إليها يستصرخ بها ويشكو ما نزل بالناس من البلاء إليها وما شمل الشام وأهله من ابن النحوي وما بسط فيه من الظلم والعسف والجور مما لم يجر بمثله عادة في قديم الأزمان ولا حديثها فلما وصل الكتاب إليها ووقفت

عليه دخلت على الحاكم وكان يشاورها في الأمور ويعمل برأيها ولا يخالف مشورة لها فعرضت عليه ما تضمنه الكتاب من الشكوى وقالت: يا أمير المؤمنين قد ظهر كذب ابن النحوي وابن العداس وأعمالهما الحيلة على فهد وقتله مساعدة للحسين بن جوهر وقد أفسد البلاد عليك وأوحش الناس منك فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد أخذ أموال عبيدك فكل يبذلها لك طوعا ويحملها إلى خزانتك تبرعا بعد أن يكونوا تحت ظل الصيانة وفي كنف الحياطة هذا ولم تجر عادات أبائك اطلاق المصادرات[1].

كان يكتب لبرجوان فهد بن إبراهيم النصراني فلما صار الأمر إليه استوزره وكان أبناء القبط بريف مصر[2]، فلما كان في بعض أيام شهور سنة 389 هـ أشار زيدان الصقلبي خادم الحاكم على الحاكم بأن ينفذ إلى برجوان في وقت الظهر بعد انصرافه إلى داره وتفرق الناس عنه للركوب إلى الصيد وأن يقف له في البستان الذي داخل القصر فإذا حضر أمر بقتله فأرسل إليه بالركوب وقال: أريد أن ترتب الخدم في جانبي البستان فإني أقف على بابه وأنت بين يدي فإذا حضر برجوان دخلت البستان وتبعني وكنت في أثره فإذا نظرت إليك فأضره بالسكين في ظهره وواقف الخدم أن يضعوا عليه. فبينما هما في الحديث إذ دخل برجوان فقال للحاكم: يا أمير المؤمنين الحر شديد والبزاة في مثله لا تصيد. فقال: صدقت ولكنا ندخل البستان ونطوف فيه ساعة ونخرج. وأنفذ برجوان إلى شكر وكان قد ركب بأن يسير مع الموكب إلى المقس والمقس ظاهرة القاهرة ويقف عند القنطرة فإن مولانا يخرج من البستان ويتبعك ففعل ودخل الحاكم البستان وبرجوان خلفه وزيدان بعده وكان برجوان خادما أبيض اللون تام الخلقة فبدره زيدان فضربه بين أكتافه بسكين اطلعها من صدره فقال: يا مولانا غدرت. فصاح الحاكم: يا عبيد خذوا رأسه. وتكاثر الخدم عليه فقتلوه وخرج الخدم الكبار مسرعين على ظهور الخيل إلى الجانب وبغال الموكب والجوارح فردوا جميعها فقال لهم شكر: ما السبب في ذلك! فلم يجيبوه فجاء الناس من هذا الحادث ما لم يكن في الحساب وعاد شكر بالموكب وشهر الجند سيوفهم وهم لا يعلمون ما الخبر غير إنهم خائفون على الحاكم من حيلة تتم عليه من الحسن بن عمار ورجع أكثرهم إلى دورهم فلبسوا سلاحهم ووافوا إلى باب القصر وتميز المغاربة والمشارقة وأحدق شكر ومن معه من الأتراك والمشارقة القصر وعلا على شرف القصر الخدم في أيديهم السيوف والتراس وعظم

1) تاريخ دمشق لابن القلانسى ص 95-98

2) تاريخ دمشق لابن القلانسى ص 82

الأمر واجتمع القواد وشيوخ الدولة وأبو لعلاء الوزير على باب القصر الزمرد. فلما رأى الحاكم زيادة الاختلاط ظهر من منظرة على الباب وسلم على الناس فترجلوا عن دوابهم إلى الأرض وقتلوها بين يديه وضربت البوقات والطبول وفتح باب القصر واستدعى أصحاب الرسايل وسلمت إليهم رقعة قد كتبها الحاكم بيده إلى شكر وأكابر القواد يقول فيها: إنني أنكرت على برجوان أمورا أوجبت قتله فقتلته فألزموا الطاعة وحافظوا على ما فيها في رقابكم من البيعة المأخوذة. فلما قرئت عليهم قبلوا الأرض وقالوا: الأمر لمولانا. واستدعى الحسين بن جوهر وكان من شيوخ الدولة فأمره بصرف الناس فصرفهم وعاد الحاكم إلى قصره وكل من القواد إلى داره والنفوس خائفة من فتنة تحدث بين المشارقة والمغاربة وشاع قتل برجوان وركب مسعود الحاكمي إلى داره فقبض على جميع ما فيها من أمواله. وجلس الحاكم وقت العشاء الأخير واستدعى الحسين بن جوهر وأبا العلاء بن فهد بن إبراهيم الوزير وتقدم إليه بإحضار سائر كتاب الدواوين والأعمال ففعل وحضروا وأوصلهم إليه وقال لهم: إن هذا فهدا كان أمس كاتب برجوان عبدي وهو اليوم وزيري فاسمعوا له وأطيعوا ووفوه شروطه في التقدم عليكم وتوفروا على مراعاة الأعمال وحراسة الأموال. وقبل فهد الأرض وقبلوها وقالوا: السمع والطاعة لمولانا. وقال لفهد: أنا حامد لك وراض عنك وهؤلاء الكتاب خدمي فأعرف حقوقهم وأجمل معاملتهم وأحفظ حرمتهم وزد في واجب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانته. وتقدم بأن يكتب إلى سائر ولاة البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان. فكتب بما نسخته بعد التصدير وما جرت العادة بمثله في الخطاب[1].

ويذكر عنه أيضاً المقريزى: أن رجلاً يعرف بحسن القصير لعن من يلعن أبا بكر وعمر رضيَ الله عنهما فأمر به فأُحضر إلى الجامع وأخبره بما شهدوا به عليه فقال: ما لعنت أحداً وما أنا من أهل اللعن، واستخصم من شهد عليه فقال له القاضى: فألعن فلاناً وفلاناً، فأبى أن يلعنهما فقال له: الآن صدقوا فيما نقلوا عنك، وأمر به فضرب ضرباً وجيعاً ثم استدعى صاحب الشرطة فضربه على باب الجامع وطوّفه فأنكر الناس ذلك وشدد برجوان على القاضى حتى قال له أبو العلاء فهد بن إبراهيم النصراني كاتب برجوان: وحقّ أمير المؤمنين لو قال لى هذا-يعني برجوان-: ألعن أصحاب المسيح ما خدمته أبداً ولو قُتلت وأنت تُكره الناس على اللعن، فمن أمرك بهذا؟[2]

1) تاريخ دمشق لابن القلانسى ص 90

2) المقفى الكبير للمقريزى ج 3 ص 630

الأسعد إبراهيم النصرانى

في سنة ثمان وسبعين وستمائة هـ صرف النصارى من ديوان الجيوش، وأقيم بدلهم كتاب مسلمون، فاستقر أمين الدين شاهد صندوق النفقات في كتابة الجيش، عوضاً عن الأسعد إبراهيم النصراني.[1]

الوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم المعروف بكاتب أرلان

سنة تسع وثمانين وسبعمائة هـ ومات في هذه السنة الوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم المعروف بكاتب أرلان، ليلة الثلاثاء سادس عشرين شعبان. وأصله من نصارى مصر، وأظهر الإسلام. وخدم في دواوين الأمراء، حتى تعلق بخدمة الملك الظاهر - وهو أمير - فولاه نظر ديوانه. ثم فوض إليه الوزارة لما صارت إليه سلطنة مصر، فنفذ الأمور، ومشى الأحوال أحسن تمشية، مع الغاية في وفور الحرمة، ونفوذ الكلمة، والتقلل في ملبسه ومركبه وسائر أسبابه، بحيث كان كهيئة أوساط الكتاب. ودخل في الوزارة، وأحوال الوزارة غير مستقيمة، وليس للدولة حاصل من عين ولا غلة، وقد استأجر الأمراء النواحي بأجر قليلة عجلوها، فكف أيدي الأمراء عن النواحي، وضبط المتحصل، ومشى على القواعد القديمة، والقوانين المعروفة،

فهابه الخاص والعام. وجدد مطابخ السكر، ودواليب النقود ومات والحاصل ألف ألف درهم فضة وثلاثمائة ألف وستون ألف أردب غلة، وستة وثلاثون ألف رأس من الغنم، ومائة ألف طائر من الأوز والدجاج، وألف قنطار من الزيت، وأربعمائة قنطار ماء ورد، قيمة ذلك كله خمسمائة ألف دينار.[2]

هبة الله الملقب بالسديد النصراني القبطي

---

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 223

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 388

هبة الله الملقب بالسديد النصراني القبطي المنيوز بالماعز. مستوفى الديار المصرية وقوانينها وأحوال المملكية، لا يشاركه في ذلك مشارك، وكان مدار الوزارة عليه، والوزير يستضئ به في سائر الأحوال، وكان رجلاً جيداً، كبير المروءة، والخدمة للمسلمين، والتودد إليهم، والترصد لقضاء حوائجهم، وعنده رياسة وبراهة وعفة، وستر على عورات الكتاب، وعدم مؤاخذة لمن يقصده بضرر، متمسكاً بدينه وشريعته، كثير الصدقة على فقراء النصارى، ويتصدق على فقراء المسلمين أيضاً، ولم يكن في أهل ملته من يضاهيه في وقته، وكانت وفاته بالقاهرة يوم الاثنين عاشر المحرم سنة احدى وثمانون وستمائة هـ وهو في عشر السبعين، ورتب ولد الأسعد جرجس مكانه، وتضاعفت منزلته، وفعله للخير، ومنافسته في المعروف، وفعل الجميل مع المسلمين بحيث أطلقت الألسن بشكره[1]

كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله القبطي السلماني

في سنة أربع وعشرين وسبعمائة هـ وفيها مات مخنوقاً، الصاحب الكبير، كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله القبطي السلماني بأسوان، وكان قد نفي إلى الشويك، ثم إلى القدس، ثم إلى الأسوان، ثم سبق سراً، وكان هو الكل وإليه الحل والعقد بلغ. من الرتبة ما لا مزيد عليه، وجمع أموالاً عظيمة، فأعاد أكثرها إلى السلطان. وكان عاقلاً ذا هيبة وسماحة، فمرض مرة، فزينت مصر لعافيته، وكان يعظم الدينين، ولم يرو ايثاره[2]

الحنش النصراني الكاتب

في سنة ست وستين وستمائة هـ وفيها توفي الحنش النصراني الكاتب، ثم الراهب أقام بمفازة الإسكندرية بجبل حلوان بقرب القاهرة، فقيل: إنه وقع بكنز للحاكم صاحب مصر، فواسى منه الفقراء والمستورين من كل ملة، واشتهر أمره، وشاع ذكره، وأنفق في ثلاث سنين أموالاً عظيمة، فأحضره السلطان، وتلطف به، فأبى عليه أن يعرفه حقيقة أمره، وأخذ يراوغه ويغالطه، فلما أعياه سلط عليه العذاب، فمات وقيل: إن مبلغ ما وصل إلى بيت المال من جهته في المصادرة في مدة سنتين ست مائة ألف دينار ضبط ذلك بقلم الصيارفة الدين كان

1) ذيل مرآة الزمان ج 4 ص 178-179

2) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج4 ص 204

يصبغ عندهم الذهب، وقد أفتى غير واحد بقتله خوفاً على ضعفاء الإيمان من المسلمين أن يضلهم ويغويهم[1].

بولص الحبيس الراهب

بولص الراهب المعروف بالحبيس؛ كان كاتباً أولاً، ثم ترهب وانقطع في جبل حلوان بالديار المصرية؛ يقال إنه ظفر بمال دفين في مغارة، فواسى به الفقراء من كل ملة، وقام عن المصادرين بجملة وافرة. وكان أول ظهور أمره أنه وقعت نار بحارة الباطلية سنة ثلاث وستين وستمائة فأحرقت ثلاثاً وستين دار جامعة، ثم كثر الحريق بعد ذلك حتى أحرقت ربع فرج، وكان وقفاً على أشراف المدينة، والوجه المطل على النيل من ربع العادل، واتهم بذلك النصارى، فعزم الملك الظاهر على استئصال النصارى واليهود، وأمر بوضع الحلفا والأحطاب في حظيرة كانت في القلعة وأن تضرم النار فيها ويلقى فيها اليهود والنصارى، فجمعوا حتى لم يبق منهم إلا من هرب، وكتفوا ليرموا فيها، فشفع فيهم الأمرا، فأمر أن يشتروا أنفسهم، فقرر عليهم في كل سنة خمسمائة ألف دينار، وضمنهم الحبيس المذكور، وحضر موضع الجباية منهم، فكان كل من عجز عما قرر عليه وزن الحبيس عنه، سواء إن كان يهودياً أو نصرانياً، وكان يدخل الحبوس ومن كان عليه ديناً وزنه عنه، وسافر إلى الصعيد وإلى الاسكندرية ووزن عن النصارى ما قرر عليهم وكان للناس به رفق وكان الناس قد عرفوه، فكان بعض الناس يتحيل عليه، فإذا رآه قد دخل المدينة أخذ معه اثنين صورة أنهما من رسل القاضي أو المتولي، وأخذا يضربانه ويجذبانه، فيستغيث به: يا أبونا يا أبونا، فيقول: ما باله ؟ فيقولان: عليه دين واشتكت عليه زوجته، فيقول: على كم ؟ فيقال: على ألفين، أو أقل أو أكثر، فيكتب له على شقفة أو غيرها إلى بعض الصيارف بذلك المبلغ، فيقبضه منه. وقيل إن مبلغ ما وصل إلى السلطان وما واسى به الناس في مدة سنتين ستمائة ألف دينار مضبوطة بقلم الصيارف الذي كان يجعل عندهم المال، وذلك خارجة عن ما كان يعطي من يده. وكان لا يأكل من هذا المال ولا يشرب، بل النصارى يتصدقون عليه بمؤنته، فلما كان سنة ست وستين وستمائة أحضره الملك الظاهر بيبرس، وطلب منه المال أن يحضره أو يعرفه من أين وصل إليه، فجعل يغالطه ويدافعه ولا يفصح له عن شي، فعذبه حتى مات ولم يقر بشي، وأخرج من قلعة الجبل ورمي ظاهرها على باب القرافة،

1) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج4 ص 125

وكانت قد وصلت إلى الظاهر فتاوى فقهاء إسكندرية بقتله، وعللوا ذلك بخوف الفتنة من ضعفاء النفوس من المسلمين[1]، ويضيف جلال الدين السيوطى: وفي سنة ستّ وستين كانت كائنة الحبيس النصرانيّ ، كان كاهنا ثمّ ترهّب وأقام بمفازة بجبل حلوان[2]

ويذكر عنه ابن أبي الفخر الصقاعي: الراهب بولص المصرى القبطي المعروف بالحبيس هذا حضر من مصر إلى الشام ف الأيام الصالحية النجمية وعاد إلى مصر فى الأيام المعزية التركماني وأقام فى حبس بالجبل الأحمر وظهر منه ما أشتهر من القيام للخزانة عن أقوام من القطيعة المقررة على النصارى ف الدولة الظاهرية والجوالي وجهات شتى وكان مقدر ما حمل من جهته عن الناس إلى الجزانة ستمائة ألف دينار وكان يؤثر من قصده منة العالم من العشرة دراهم إلى الألف درهم ولا يمسك بيده درهم ولادينار ولا يأكل من هذا المال الذى يفرق منه ولا يلبس واختلف العالم فى أمره فقوم يقولوا أنه وجد كنز بالجبل الأحمر وقوم أنه من عمل الكيميا وتتبعوه وبحثوا فلم يعلموا شيء من أمره، ومما حكى لى شمس الدين بن أخو الصاحب جمال الدين بن مطروح قال: قصدت الحجاز فى سنة ثلاث وستين وستمائه هـ فأخذت والركب من العرب وحضرت إلى مصر فقير لا أملك شيء وكان لي بكاتب الغتمى معرفة ولمخدومه صورة فى الدولة فزرته لأعرفه ما آل حالي إليه وإذا بالحبيس بولص قد حضر راكب حمار والخلق قد شحتوه فدخل إلى ذلك البيت ونظر إليَّ وأنا مفكر فصأل عني فعرفه صاحب المنزل بنسبي وخبري مع العرب وكان بجانبي دواة وقطعة ورقة فطلب مني الدواة وأخذ قطعة من تلك الورقة قدر نصف الكف وكتب فيها شيء لم أعرفه وطواها وناولني اياها وقال: يا سيدنا إذا خرجت إلى برا إقرأها وقام وخرج بعد أن أكل مما أحضر له من مواكيل الرهبان ففتحت الورقة ووجدت فيها مكتوب: اسم الله تعالى، الحقير بولص، ألف درهم

فسألت من يعرف أحواله فقال: أعطيها لمن أخترت من الصيارف وخذ ما فيها، قال: فحضرت إلى الصرف وقعدت قبالة شخص لم يكن عنده أحد ورميت الورقة ومنديلي ففقرأها وباسها ووزن ألف درهم وحطها فى المنديل فأخذتها وكأنها ألف دينار، وفى سنة ثلاث وستين المذكورة استدعاه الملك الظاهر داخل داره وسأله عن أمره وأقام يومين ثلاثة يعبر

---

1) فوات الوفيات لابن أحمد الكتبى ج 1 ص 58-59

2) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى ج2 ص 253

الخدام له بمأكول الرهبان ثم قتله ولم يعلم أحد قبل قتله وبعده صورة حاله وقتلته فى سنة ثلاث وستين وستمائة هـ المذكورة[1]

الأكرم فضائل النصرانى كاتب الوزير

فى يوم الأحد ثانى جمادى الأولى سنة 822 هـ المذكور ولد للسلطان الملك المؤيد ولده الملك المظفّر أحمد من زوجته خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش، ثم فى سابع جمادى الأولى استدعى السلطان بطرك النصارى وقد اجتمع القضاة ومشايخ العلم عند السلطان، فأوقف البطرك على قدميه ووبّخ وقرّع، وأنكر عليه السلطان ما بالمسلمين من الذّلّ فى بلاد الحبشة تحت حكم الحطّى متملكها، وهدّد بالقتل، فانتدب له الشيخ صدر الدين أحمد بن العجمى محتسب القاهرة فأسمعه المكروه من أجل تهاون النّصارى فيما أمروا به فى ملبسهم وهيئاتهم، وطال كلام العلماء مع السلطان فى ذلك إلى أن استقرّ الحال بأن لا يباشر أحد منهم فى ديوان السلطان ولا عند أحد من الأمراء، ولا يخرج أحد منهم عما ألزموا به من الصّغار، ثم طلب السلطان الأكرم فضائل النّصرانىّ كاتب الوزير- وكان قد سجن من أيام- فضربه السلطان بالمقارع وشهّره بالقاهرة عريانا بين يدى المحتسب وهو ينادى عليه: هذا جزاء من يباشر من النصارى فى ديوان السلطان، ثم سجن أيضا بعد إشهاره، وصمّم السلطان فى ذلك حتى انكفّ النصارى عن المباشرة فى سائر دواوين الدّيار المصرية، ولزموا بيوتهم، وصغّروا عمائمهم وضيّقوا أكمامهم، والتزم اليهود مثل ذلك، وامتنعوا جميعهم من ركوب الحمير، بحيث إنّ العامة صارت إذا رأوا نصرانيا على حمار ضربوه وأخذوا حماره وما عليه، فصاروا لا يركبون الحمار إلا بخارج القاهرة، وبذل النصارى جهدهم فى السّعى إلى عودهم إلى المباشرة وأوعدوا بمال كبير، وساعدتهم كتّاب الأقباط،

1) تالي كتاب وفيات الأعيان لابن أبي الفخر الصقاعي ص58-61

فلم يلتفت السلطان إلى قولهم، وأبى إلا ما رسم به من المنع. قلت: ولعلّ الله أن يسامح الملك المؤيّد بهذه الفعلة عن جميع ذنوبه، فإنها من أعظم الأمور فى نصرة الإسلام، ومباشرة هؤلاء النصارى فى دواوين الديار المصرية من أعظم المساوئ الذي نوّل منه التعظيم إلى دين النصرانية؛ لأن غالب الناس من المسلمين يحتاج إلى التّردّد إلى أبواب أرباب الدّولة لقضاء حوائجهم، فمهما كان لهم من الحوائج المتعلقه بديوان ذلك الرئيس فقد احتاجوا إلى التواضع والترقق إلى من بيده أمر الديوان المذكور، نصرانيا كان أو يهوديا أو سامريا، وقد قيل فى الأمثال «صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها» فمنهم من يقوم بين يدى ذلك النّصرانى على قدميه والنصرانى جالس ساعات كثيرة حتى يقضى حاجته بعد أن يدعو له ويتأدب معه تأدبا لا يفعله مع مشايخ العلم، ومنهم من يقبّل كتفه ويمشى فى ركابه إلى بيته إلى أن تقضى حاجته، وأما فلاحو القرى فإنه ربما النّصرانىّ المباشر يضرب الرجل منهم ويهينه ويجعله فى الزّنجير ، ويزعم بذلك خلاص مال أستاذه، وليس الأمر كذلك وإنما يقصد التحكّم فى المسلمين لا غير، فهذا هو الذي يقع للأسير من المسلمين فى بلاد الفرنج بعينه لا زيادة على ذلك غير أنه يملك رقّه.

وقد حدثنى بعض الثقات من أهل صعيد مصر قال: كان غالب مزارعى بلدنا أشرافا علويّة، والعامل بالبلد نصرانيا، فإذا قدم العامل إلى البلد خرجت الفلاحون لتلقيّه، فمنهم من يسلّم عليه السّلام المعتاد، ومنهم من يفشى السلام عليه ويمعن فى ذلك، ومنهم من يمشى فى ركابه إلى حيث ينزل من البلد، ومنهم من يقبّل يده- وهو الفقير المحتاج أو الخائف من صاحب البلد- ويسأله إصلاح شأنه فيما هو مقرّر عليه من وزن الخراج حتى يسمح له بذلك، فلما منع الملك المؤيد هؤلاء النّصارى عن المباشرة بطل ذلك كلّه؛ فيكون الملك المؤيد على هذا الحكم فتح مصر فتحا ثانيا، وأعلى كلمة الإسلام وأخذل كلمة الكفر، ولا شىء عند الله أفضل من ذلك. ولما لم يجب النصارى إلى عودهم إلى ما كانوا عليه من المباشرات بالديار المصرية وأعياهم أمر السلطان وثباته، وانقطع عنهم ما ألفوه من التحكّم فى المسلمين- ويقال: إنّ العادة طبع خامس- شقّ عليهم ذلك، فتتابع عدّة منهم فى إظهار دين الإسلام وتلفظوا بالشهادتين فى الظاهر والله سبحانه وتعالى متولى السرائر.

قلت: ويمكن إصلاح هذا الشّأن الثانى أيضا- إن صلح الراعى ونظر فى أحوال الرّعيّة وانتصر لدينه- بسهولة، هو أنه يكفّ من كان قريب عهد منهم من دين النصرانيّة عن المباشرة ثم قدم الخبر على السّلطان بتوجه ابن السلطان من مدينة قيساريّة إلى مدينة قونيّة فى

خامس عشر شهر ربيع الآخر بعد ما مهّد أمور قيسارية ونقش اسم السلطان على بابها، وأن الأمير تنبك ميق نائب الشّام لمّا وصل إلى العمق حضر إليه الأمير حمزة بن رمضان بجماعة من التّركمان وتوجّه معه هو وابن أوزر إلى قريب مصيصه وأخذ أدنة وطرسوس فسرّ السلطان بذلك سرورا عظيما. ثم نادى محتسب القاهرة على النّصارى واليهود بتشديد ما أمرهم به من الملبس والعمائم وشدّد عليهم فى ذلك، فلما اشتدّ الأمر عليهم سعوا فى إبطال ذلك سعيا كبيرا فلم ينالوا غرضا[1].

هبة الله بن أبي سعيد بن أبي الكرم بن أبي سعيد بن أبي الخير بن أبي اليمن, أبو البركات النصراني

هبة الله بن أبي سعيد بن أبي الكرم بن أبي سعيد بن أبي الخير بن أبي اليمن, أبو البركات النصراني، المعروف بابن ستّوتة. من أهل مصر.

كان ذا نظم ونثر وخطّ مليح حسن, ومعرفة جيدة بالحساب, ولديه فضل وأدب يتصرف في الأعمال الديوانية, وأقام بحلب مدة, واتصل بخدمة الأمير مبارز الدين يوسف بن ختلخ الحلبي. ثم انتقل عنه وخدم لعض الولاة في مفر طاب, ومات في عاشر رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة.

أنشدني الأجل نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد المنعم ابن المولى الكاتب المنشيء بديوان حلب بها -أسعده الله تعالى- لفظا, قال: أنشدني أبو البركات بن ابي سعيد بن ابي الكرم المصري لنفسه ما كتبه إلى الوزير أبي الحسن علي بن يوسف القفطي يستعفي من عمل التصرف: [من الخفيف]

أنا أشكو إلى معاليك حالي ... ووقوعي ما بين شيب وشين

ليس لي قدرة على أن ألاقي ... روعات الحساب في الدّرين[2]

---

1) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج 14 ص 81-84

2) قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، جـ 7 ص 143

سعيد بن توفيل

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا متميزا فِي صناعَة الطِّبّ وَكَانَ فِي خدمَة أَحْمد بن طولون من أطباء الْخَاص يَصْحَبهُ فِي السّفر والحضر وَتغير عَلَيْهِ قبل مَوته وَسَببه أَن أَحْمد بن طولون كَمَا تقدم ذكره كَانَ قد خرج إِلَى الشَّام وَقصد الثغور لإصلاحها وَعَاد إِلَى أنطاكية فَأَدْرَكته هيضة من ألبان الجواميس لِأَنَّهُ أسْرع فِيهَا واستكثر مِنْهَا فالتمس طبيبه سعيدا فَوَجَدَهُ قد خرج إِلَى بيعَة بأنطاكية فَتمكن غيظه عَلَيْهِ فَلَمَّا حضر اغلظ لَهُ فِي التَّأَخُّر عَنهُ وأنف أَن يشكو إِلَيْهِ مَا وجده، ثمَّ زَاد الْأَمر عَلَيْهِ فِي اللَّيْلَة الثَّانِيَة فطَلَبه فجَاء متنبذا فَقَالَ لَهُ لي من يَوْمَيْنِ عليل وَأَنت شَارِب نَبِيذ فَقَالَ يَا سَيِّدي طلبتني أمس وَأَنا فِي بيعتي على مَا جرت عادتي وَحَضَرت فَلم تُخبرنِي بِشَيْء قَالَ فَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَن تسْأَل عَن حَالي قَالَ ظَنَنْت يَا مولَايَ سيئ وَلست أسأَل أحدا من حاشيتك عَن شَيْء من أمرك

قَالَ فَمَا الصَّوَاب السَّاعَة قَالَ لَا تقرب شَيْئا من الْغذَاء وَلَو قرمت إِلَيْهِ اللَّيْلَة وَغدا

قَالَ أَنا وَالله جَائِع وَمَا أَصْبِر

قَالَ هَذَا جوع كَاذِب لبرد الْمعدة

فَلَمَّا كَانَ فِي نصف اللَّيْل استدعى شَيْئا يَأْكُلهُ فجيء بفراريج كردباج حارة وبزماورد من دَجَاج وجداء بَارِدَة فَأكل مِنْهَا فَانْقَطع الإسهال عَنهُ فَخرج نسيم الْخَادِم وَسَعِيد فِي الدَّار قَالَ لَهُ أكل الْأَمِير خروف كردباج فخف عَنهُ الْقيام

قَالَ سعيد الله الْمُسْتَعَان ضعفت قوته الدافعة بقهر الْغذَاء لَهَا وستتحرك حَرَكَة مُنكرَة فوَاللَّه مَا وافى السحر حَتَّى قَامَ أَكثر من عشرَة مجَالِس وَخرج من أنطاكية وعلته تتزايد إِلَّا أَن فِي قوته احْتِمَالا لَهَا

وَطلب مصر وَثقل عَلَيْهِ ركُوب الدَّوَابّ فَعمِلت لَهُ عجلة كَانَت تجر بِالرِّجَالِ وطِئت لَهُ فَمَا وصل الفرما حَتَّى شكا إزعاجها فَركب المَاء إِلَى الْفسْطَاط وَضرب لَهُ بالميدان قبَّة نزل فِيهَا، وَلما حل ابْن طولون بِمصْر ظَهرت مِنْهُ نبوة فِي حق سعيد الطَّبِيب هَذَا وشكاه إِلَى إِسْحَق بن إِبْرَاهِيم كَاتبه وَصَاحبه فَقَالَ إِسْحَق بن إِبْرَاهِيم لسَعِيد يعاتبه وَيحك أَنْت حاذق فِي صناعتك وَلَيْسَ لَك عيب إِلَّا أَنَّك مدل بهَا غير خاضع أَن تخدمه فِيهَا

والأمير وَإِن كَانَ فصيح اللِّسَان فَهُوَ أعجمي الطَّبْع وَلَيْسَ يعرف أوضاع الطِّبّ فيدبر نَفسه بهَا وينقاد لَك

وَقد أفْسدهُ عَلَيْك الإقبال فتلطف لَهُ وأرفق بِهِ وواظب عَلَيْهِ وراع حَاله

فَقَالَ سعيد وَالله مَا خدمتي لَهُ إِلَّا خدمَة الفار للسنور والسخلة للذئب وَأَن قَتْلِي لأحب إِلَيّ من صحبته

وَمَات أَحْمد بن طولون فِي علته هَذِه

وَقَالَ نسيم خَادِم أَحْمد بن طولون أَن سعيد بن توفيل المتطبب كَانَ فِي خدمَة الْأَمِير أَحْمد بن طولون فَطَلَبه يَوْمًا فَقيل لَهُ مضى يستعرض ضَيْعَة يَشْتَرِيهَا فامسك حَتَّى حضر

ثمَّ قَالَ لَهُ يَا سعيد اجْعَل ضيعتك الَّتِي تشتريها فتستغلها صحبتي وَلَا تغفلها وَاعْلَم أَنَّك تسبقني إِلَى الْمَوْت إِن كَانَ موتي على فِرَاشِي فَإِنِّي لَا أمكنك بالاستمتاع بِشَيْء بعدِي

قَالَ نسيم وَكَانَ سعيد بن توفيل آيسا من الْحَيَاة لِأَن أَحْمد بن طولون امْتنع من مشاورته وَلم يكن يحضر إِلَّا وَمَعَهُ من يستظهر عَلَيْهِ بِرَأْيِهِ ويعتقد فِيهِ أَنه فرط فِي أول أمره وَابْتِدَاء الْعلَّة بِهِ حَتَّى فَاتَ أمره

وَفِي التَّارِيخ أَن سعيد بن توفيل كَانَ لَهُ فِي أول مَا صحب أَحْمد شاكري قَبِيح الصُّورَة كَانَ ينفض الْكَتَّان مَعَ أَب لَهُ واسْمه هَاشم وَكَانَ يخْدم بغلة سعيد ويمسكها لَهُ إِذا دخل دَار أَحْمد ابْن طولون

وَكَانَ سعيد يَسْتَعْمِلهُ فِي بعض الْأَوْقَات فِي سحق الْأَدْوِيَة بداره إِذا رَجَعَ مَعَه وينفخ النَّار على المطبوخات

وَكَانَ لسَعِيد بن توفيل ابْن حسن الصُّورَة ذكي الرّوح حسن الْمعرفَة بالطب فَتقدم أَحْمد بن طولون إِلَى سعيد أول مَا صَحبه أَن يرتاد متطببا يكون لحرمه وَيكون مُقيما بالحضرة فِي غيبته فَقَالَ لَهُ سعيد لي ولد قد عَلمته وخرجته

قَالَ أرنيه فَأَحْضرهُ فَرَأى شَابًّا رائقا حسن الْأَسْبَاب كلهَا

فَقَالَ لَهُ أَحْمد بن طولون لَيْسَ يصلح هَذَا لخدمة الْحرم احْتَاجَ لَهُنَّ حسن الْمعرفَة قَبِيح الصُّورَة فأشفق سعيد أَن ينصب لَهُم غَرِيبا فينبو عَنهُ وَيُخَالف عَلَيْهِ فَأخذ هاشما وَألبسهُ دراعة وخفين ونصبه للحرم

فَذكر جريج ابْن الطباخ المتطبب قَالَ لقِيت سعيد بن توفيل وَمَعَهُ عمر بن صَخْر

فَقَالَ لَهُ عمر مَا الَّذِي نصبت هاشما لَهُ قَالَ خدمَة الْحرم لِأَن الْأَمِير طلب قَبِيح الْخلقَة

فَقَالَ لَهُ عمر قد كَانَ فِي أَبنَاء الْأَطِبَّاء قَبِيح قد حسنت تَرْبِيَته وطاب مغرسه يصلح لهَذَا وَلَكِنَّك استرخصت الصَّنْعَة، وَالله يَا أَبَا عُثْمَان إِن قويت يَده ليرجعن إِلَى دناءة منصبه وخساسة محتده فتضاحك سعيد بغرته من هَذَا الْكَلَام وَتمكن هَاشم من الْحرم بإصلاحه

لَهُم مَا يوافقهم من عمل أدوية الشَّحْم وَالْحَبل وَمَا يحسن اللَّوْن ويغزر الشّعْر حَتَّى قدمه النِّسَاء على سعيد، فَلَمَّا جمع الْأَطِبَّاء على الغدو إِلَى أَحْمد بن طولون فِي كل يَوْم عِنْد اشتداد علته قَالَت مائَة ألف أم أبي المشائر قد احضر جمَاعَة من الْأَطِبَّاء وَلم يحضر هَاشم وَالله يَا سَيِّدي مَا فيهم مثله فَقَالَ لَهَا أحضرينيه سرا حَتَّى أشافهه واسمع كَلَامه فأدخلته إِلَيْهِ سرا وشجعته على كَلَامه، فَلَمَّا مثل بَين يَدَيْهِ نظر وَجهه وَقَالَ أغفل الْأَمِير حَتَّى بلغ إِلَى هَذِه الْحَالة لَا أحسن الله جَزَاء من كَانَ يتَوَلَّى أمره

قَالَ لَهُ أَحْمد بن طولون فَمَا الصَّوَاب يَا مبارك قَالَ تتَنَاوَل قميحة فِيهَا كَذَا وَكَذَا وَعدد قَرِيبا من مائَة عقار وَهَذِه القمائح تمسك وَقت أَخذهَا وتعود بِضَرَر بعد ذَلِك لِأَنَّهَا تتعب القوى فَتَنَاولهَا أَحْمد وَأمْسك عَن تنَاول مَا عمله سعيد والأطباء

وَلما أَمْسَكت حسن موقع ذَلِك عِنْد أَحْمد وَظن أَن الْبُرْء قد تمّ لَهُ

ثمَّ قَالَ أَحْمد لهاشم إِن سعيدا قد حماني من شهر عَن لقْمَة عصيدة وَأَنا أشتهيها قَالَ يَا سَيِّدي أَخطَأ سعيد وَهِي مغذية وَلها أثر حميد فِيك

فَتقدم أَحْمد بن طولون بإصلاحها فجيء مِنْهَا بجام وَاسع فَأكل أَكْثَره وطاب نفسا ببلوغ شَهْوَته ونام ولحجت العصيدة فَتوهم أَن حَاله زَادَت صلاحا، وكل هَذَا يطوى عَن سعيد بن توفيل، وَلما حضر سعيد قَالَ لَهُ مَا تَقول فِي العصيدة قَالَ هِيَ ثَقيلَة على الْأَعْضَاء وتحتاج أَعْضَاء الْأَمِير إِلَى تَخْفيف عَنْهَا

قَالَ لَهُ أَحْمد دَعْنِي من هَذِه المخرقة قد أكلتها ونفعتني وَالْحَمْد لله، وَجِيء بفاكهة من الشَّام فَسَأَلَ أَحْمد بن طولون سعيد بن توفيل عَن السفرجل فَقَالَ تمص مِنْهُ على خلو الْمعدة والأحشاء فَإِنَّهُ نَافِعفَلَمَّا خرج سعيد من عِنْده أكل أَحْمد بن طولون سفرجلا فَوجدَ السفرجل العصيدة فعصرها فتدافع الإسهال فَدَعَا سعيدا فَقَالَ يَا ابْن الفاعلة ذكرت أَن السفرجل نَافِع لي وَقد عَاد إِلَيّ الإسهال فَقَامَ فَنظر الْمَادَّة وَرجع إِلَيْهِ فَقَالَ هَذِه العصيدة الَّتِي حمدتها وَذكرت أَنِّي غلطت فِي منعهَا فَإِنَّهَا لم تزل مُقِيمَة فِي الأحشاء لَا تطِيق تغييرها وَلَا هضمها لضعف قواها حَتَّى عصرها السفرجل وَلم أكن أطلقت لَك أكله وَإِنَّمَا أَشرت بمصه، ثمَّ سَأَلَهُ عَن مِقْدَار مَا أكل مِنْهُ فَقَالَ سفرجلتين، فَقَالَ سعيد أكلت السفرجل للشبع وَلم تَأْكُله للعلاج

فَقَالَ يَا ابْن الفاعلة جَلَست تنادرني وَأَنت صَحِيح سوي وَأَنا عليل مدنف، ثمَّ دَعَا بالسياط فَضَربهُ مِائَتي سَوط وَطَاف بِهِ على جمل وَنُودِيَ عَلَيْهِ هَذَا جَزَاء من ائْتمن فخان وَنهب

الْأَوْلِيَاء منزله وَمَات بعد يَوْمَيْنِ وَذَلِكَ فِي سنة تسع وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ بِمصْر، وَقيل فِي سنة تسع وَسبعين وَمِائَتَيْنِ وَهِي السّنة الَّتِي مَاتَ ابْن طولون فِي ذِي قعدتها وَالله أعلم[1]

نسطاس بن جريج

كَانَ نَصْرَانِيّا عَالما بصناعة الطِّبّ وَكَانَ فِي دولة الأخشيد بن طغج

ولنسطاس بن جريج من الْكتب كناش رِسَالَة إِلَى يزِيد بن رُومَان النَّصْرَانِي الأندلسي فِي الْبَوْل وابنه إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس، هُوَ أَبُو يَعْقُوب إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس بن جريج نَصْرَانِيّ فَاضل فِي صناعَة الطِّبّ وَكَانَ فِي خدمَة الْحَاكِم بِأَمْر الله ويعتمد عَلَيْهِ فِي الطِّبّ وَتُوفِّي إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس بِالْقَاهِرَةِ فِي أَيَّام الْحَاكِم واستطب بعده أَبَا الْحسن عَليّ بن رضوَان وَاسْتمرّ فِي خدمته وَجعله رَئِيسا على سَائِر الْأَطِبَّاء[2]

سعيد بن البطريق

من أهل فسطاط مصر وَكَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا مَشْهُورا عَارِفًا بِعلم صناعَة الطِّبّ وعملها مُتَقَدما فِي زَمَانه وَكَانَت لَهُ دراية بعلوم النَّصَارَى ومذاهبهم ومولده فِي يَوْم الْأَحَد لثلاث بَقينَ

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 541-544

2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 544

من ذِي الْحجَّة سنة ثَلَاث وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ لِلْهِجْرَةِ وَلما كَانَ فِي أول سنة من خلَافَة القاهر بِاللَّه مُحَمَّد بن أَحْمد المعتضد بِاللَّه صير سعيد بن البطريق بطريركا على الْإِسْكَنْدَرِيَّة وَسمي أوثوشيوس وَذَلِكَ لثمان خلون من شهر صفر سنة إِحْدَى وَعشْرين وثلاثمائة ولسعيد بن البطريق من الْعُمر نَحْو سِتِّينَ سنة وَبَقِي فِي الْكُرْسِيّ والرئاسة سبع سِنِين وَسِتَّة أشهر وَكَانَ فِي أَيَّامه شقَاق عَظِيم وَشر مُتَّصِل بَينه وَبَين شعبه واعتل سعيد بن البطريق بِمصْر بالإسهال وَكَانَ متميزا فِي صناعَة الطِّبّ فحدس أَنَّهَا عِلّة مَوته فَصَارَ إِلَى كرسيه بالإسكندرية وَأقَام بِهِ أَيَّامًا عدَّة عليلا وَمَات يَوْم الِاثْنَيْنِ سلخ رَجَب من سنة ثَمَان وَعشْرين وثلاثمائة ولسعيد بن البطريق من الْكتب كتاب فِي الطِّبّ علم وَعمل كناش وكتاب الجدل بَين الْمُخَالف وَالنَّصْرَانِيّ وكتاب نظم الْجَوْهَر ثَلَاث مقالات كتبه إِلَى أَخِيه عِيسَى بن البطريق المتطبب فِي معرفَة صَوْم النَّصَارَى وفطرهم وتواريخهم وأعيادهم وتواريخ الْخُلَفَاء والملوك الْمُتَقَدِّمين وَذكر البطاركة وأحوالهم وَمُدَّة حياتهم ومواضعهم وَمَا جرى لَهُم فِي ولايتهم وَقد ذيل هَذَا الْكتاب نسيب لسَعِيد بن البطريق يُقَال لَهُ يحيى بن سعيد بن يحيى وسمى كِتَابه كتاب تَارِيخ الذيل[1].

ويذكر بن أيبك بن عبدالله الصفدى: النصراني الطبيب سعيد بن البطريق، من أهل مصر، كان طبيبا نصرانيا مشهورا عارفا بالعلم والعمل متقدما في زمانه، وكانت له دراية بمذهب الأنصاري، ولد سنة ثلاث وستين ومائتين، ولما كان أول سنة من خلافة القاهر جعل سعيد بطريركا على الإسكندرية سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة، وبقي في الكرسي والرياسة سبع سنين وستة أشهر، وكان في أيامه شقاق عظيم وشرور متصلة بينه وبين شعبه، واعتل بمصر بالإسهال فحدس أنها علة موته، فصار إلى كرسيه بالإسكندرية وأقام بها أياما عدة ومات سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة. له كتاب في "طب علم وعمل"، و"كناش كتاب الجدل بين المخالف والنصراني"، وكتاب "نظم الجوهر" ثلاث مقالات كتبه إلى أخيه عيسى بن البطريق في معرفة صوم النصارى وأعيادهم وتواريخهم، وذيل هذا الكتاب نسيب لسعيد بن البطريق يقال له يحى بن سعيد، وسماه "ذيل كتاب التأريخ أو تأريخ الذيل"[2].

عيسى بن البطريق

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 545-546

2) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي جـ 15

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا عَالما بصناعة الطِّبّ علمهَا وعملها متميزا فِي جزئيات المداواة والعلاج مشكورا فِيهَا وَكَانَ مقَامه بِمَدِينَة مصر الْقَدِيمَة وَكَانَ هَذَا عِيسَى بن البطريق أَخا سعيد بن البطريق الْمُقدم ذكره وَلم يزل عِيسَى بِمَدِينَة مصر طَبِيبا إِلَى أَن توفّي بهَا[1]

أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا مَشْهُورا وَله دراية وخبرة بصناعة الطِّبّ وَكَانَ طَبِيب الْحَاكِم بِأَمْر الله وَمن الْخَواص عِنْده وَكَانَ الْعَزِيز أَيْضا يستطبه وَيرى لَهُ ويحترمه وَكَانَ مُتَقَدما فِي الدولة وَتُوفِّي فِي أَيَّام الْحَاكِم واستطب الْحَاكِم بعده إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس وَمَات إِسْحَاق بن نسطاس أَيْضا فِي أَيَّام الْحَاكِم بعد ذَلِك[2]

أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانة

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا بِمصْر فِي زمن الْخُلَفَاء وَكَانَ حظيا عِنْدهم فَاضلا فِي الصِّنَاعَة الطبية خَبِيرا بعلمها وعملها متميزا فِي الْعُلُوم وَكَانَ من أهل الْقُدس ثمَّ انْتقل إِلَى الديار المصرية وَكَانَت لَهُ معرفَة بَالِغَة بِأَحْكَام النُّجُوم

حَدثنِي الْحَكِيم رشيد الدّين أَبُو حليقة بن الْفَارِس بن أبي سُلَيْمَان الْمَذْكُور قَالَ سَمِعت الْأَمِير مجد الدّين أَخا الْفَقِيه عِيسَى وَهُوَ يحدث السُّلْطَان الْملك الْكَامِل بشر مساح عِنْد حُضُوره إِلَيْهِ بعد وَفَاة الْملك الْعَادِل ونزول الفرنج على ثغر دمياط من أَحْوَال جدي أبي سُلَيْمَان دَاوُد مَا هَذَا نَصه قَالَ: كَانَ الْحَكِيم أَبُو سُلَيْمَان فِي زمن الْخُلَفَاء وَكَانَ لَهُ خَمْسَة أَوْلَاد فَلَمَّا وصل الْملك مارى إِلَى الديار المصرية أعجبه طبه فَطَلَبه من الْخَلِيفَة بهَا وَنَقله هُوَ وَأَوْلَاده الْخَمْسَة إِلَى الْبَيْت الْمُقَدّس وَنَشَأ للْملك مارى ولد مجذم فَركب لَهُ الترياق الفاروقي

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 546

2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 549

بِالْبَيْتِ الْمُقَدّس وترهب وَترك وَلَده الْأَكْبَر وَهُوَ الْحَكِيم الْمُهَذّب أَبُو سعيد خَلِيفَته على منزله وَإِخْوَته

وَاتفقَ أَن ملك الفرنج الْمَذْكُور بِالْبَيْتِ الْمُقَدّس أسر الْفَقِيه عِيسَى وَمرض فسيره الْملك لمداواته فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ وجده فِي الْجب مُثقلًا بالحديد فَرجع إِلَى الْملك وَقَالَ لَهُ إِن هَذَا الرجل ذُو نعْمَة وَلَو سقيته مَاء الْحَيَاة وَهُوَ على هَذَا الْحَال لم ينْتَفع بِهِ

قَالَ الْملك فَمَا أفعل فِي أمره قَالَ يُطلقهُ الْملك من الْجب ويفك عَنهُ حديده ويكرمه فَمَا يحْتَاج إِلَى مداواة أَكثر من هَذَا

فَقَالَ الْملك تخَاف أَن يهرب وقطيعته كَثِيرَة

قَالَ للْملك سلمه إِلَيّ وضمانه عَليّ

فَقَالَ لَهُ تسلمه وَإِذا جَاءَت قطيعته كَانَ لَك مِنْهَا ألف دِينَار

فَمضى وشاله من الْجب وَفك حديده وأخلى لَهُ موضعا فِي دَاره أَقَامَ فِيهِ سِتَّة أشهر يَخْدمه فِيهَا أتم خدمَة فَلَمَّا جَاءَت قطيعته طلب الْملك الْحَكِيم أَبَا سعيد ليحضر لَهُ الْفَقِيه الْمَذْكُور فَحَضَرَ وَهُوَ صحبته وَوجد قطيعته فِي أكياس بَين يَدَيْهِ فَأَعْطَاهُ مِنْهَا الْكيس الَّذِي وعده بِهِ فَلَمَّا أَخذه قَالَ لَهُ يَا مَوْلَانَا هَذِه الْألف دِينَار قد صَارَت لي أتصرف فِيهَا تصرف الْملاك فِي أملاكهم فَقَالَ لَهُ نعم، فَأَعْطَاهَا للفقيه فِي الْمجْلس وَقَالَ لَهُ أَنا أعرف أَن هَذِه القطيعة مَا جَاءَت إِلَّا وَقد تركت خَلفك شَيْئا وَرُبمَا قد تدني لَك شَيْئا آخر فَتقبل مني هَذِه الْألف دِينَار إِعَانَة نَفَقَة الطَّرِيق، فقبلها الْفَقِيه مِنْهُ وسافر إِلَى الْملك النَّاصِر

وَاتفقَ أَن الْحَكِيم أَبَا سُلَيْمَان دَاوُد الْمَذْكُور ظهر لَهُ فِي أَحْكَام النُّجُوم إِن الْملك النَّاصِر يفتح الْبَيْت الْمُقَدّس فِي الْيَوْم الْفُلَانِيّ من الشَّهْر الْفُلَانِيّ من السّنة الْفُلَانِيَّة وَأَنه يدْخل إِلَيْهَا من بَاب الرَّحْمَة فَقَالَ لأحد أَوْلَاده الْخَمْسَة وَهُوَ الْفَارِس أَبُو الْخَيْر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد الْمَذْكُور وَكَانَ هَذَا الْوَلَد قد تربى مَعَ الْوَلَد المجذم ملك الْبَيْت الْمُقَدّس وَعلمه الفروسية فَلَمَّا توج الْملك فرسه وَخرج الْمَذْكُور من بَين اخوته الْأَرْبَعَة الْأَطِبَّاء جنديا

وَكَانَ قَول الْحَكِيم أبي سُلَيْمَان لوَلَده هَذَا بِأَن يمْضِي رَسُولا عَنهُ إِلَى الْملك النَّاصِر ويبشره بِملك الْبَيْت الْمُقَدّس فِي الْوَقْت الْمَذْكُور

فامتثل مرسومه وَمضى إِلَى الْملك النَّاصِر فاتفق وُصُوله إِلَيْهِ فِي غرَّة سنة ثَمَانِينَ وَخَمْسمِائة وَالنَّاس يهنؤنه بهَا وهم على فاميه فَمضى إِلَى الْفَقِيه الْمَذْكُور ففرح بِهِ غَايَة الْفَرح وَدخل بِهِ

إِلَى الْملك النَّاصِر وأوصل إِلَيْهِ الرسَالَة عَن أَبِيه ففرح بذلك فَرحا شَدِيدا وأنعم عَلَيْهِ بجائزة سنية وَأَعْطَاهُ علما أصفر ونشابة من رنكة

وَقَالَ لَهُ مَتى يسر الله مَا ذكرت اجعلوا هَذَا الْعلم الْأَصْفَر والنشابة فَوق داركم فالحارة الَّتِي أَنْتُم فِيهَا تسلم جَمِيعهَا فِي خفارة داركم

فَلَمَّا حضر الْوَقْت صَحَّ جَمِيع مَا قَالَه الْحَكِيم الْمَذْكُور فَدخل الْفَقِيه عِيسَى إِلَى الدَّار الَّتِي كَانَ مُقيما بهَا ليحفظها وَلم يسلم من الْبَيْت الْمُقَدّس من الْأسر وَالْقَتْل وَوزن القطيعة سوى بَيت هَذَا الْحَكِيم الْمَذْكُور

وضاعف لأولاده مَا كَانَ لَهُم عِنْد الفرنج وَكتب لَهُ كتابا إِلَى سَائِر ممالكه برا وبحرا بمسامحتهم بِجَمِيعِ الْحُقُوق اللَّازِمَة لِلنَّصَارَى فأعفوا مِنْهَا إِلَى الْآن

وَتُوفِّي الْحَكِيم أَبُو سُلَيْمَان الْمَذْكُور بعد أَن استدعاه الْملك النَّاصِر إِلَيْهِ وَقَامَ لَهُ قَائِما وَقَالَ لَهُ أَنْت شيخ مبارك قد وصل إِلَيْنَا بِشَرَاك وَتمّ جَمِيع مَا ذكرته فتمن عَليّ

فَقَالَ لَهُ أَتَمَنَّى عَلَيْك حفظ أَوْلَادِي

فَأخذ الْملك النَّاصِر أَوْلَاده وأعتنى بهم وَأَعْطَاهُمْ للْملك الْعَادِل ووصاه بِأَن يكرمهم ويكونوا من الْخَواص عِنْده وَعند أَوْلَاده وَكَانَ كَذَلِك أَقُول وَكَانَ فتح السُّلْطَان الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف ابْن أَيُّوب للقدس فِي سَابِع وَعشْرين رَجَب سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ وَخَمْسمِائَة[1].

ويذكر بن أيبك بن عبدالله الصفدى: الطبيب النصراني داود بن أبي المنى، أبو سليمان، كان نصرانيا بمصر زمن الخلفاء، طبيبا حظيا عندهم، وأصله من القدس. وكانت له معرفة بالنجوم، وكان له خمسة أولاد. فلما وصل الملك ماري إلى الديار المصرية، طلبه من الخليفة ونقله هو وأولاده إلى القدس. ونشأ للملك ماري ولد مجذوم، فركب له الترياق الفاروق، وترهب وترك ولده الأكبر -وهو المهذب أبو سعيد- خليفته على منزله وإخوته. فاتفق أن ملك الفرنج أسر الفقيه عيسى، ومرض فأرسله الملك إليه، فلما رآه في الجب مثقلا بالحديد، رجع إلى الملك وقال: هذا ذو نعمة، ولو سقيته ماء الحياة وهو على هذه الحال ما انتفع به. قال الملك: فما نفعل؟ قال: أطلقه من الجب وفك عنه حديده وأكرمه، فما يحتاج إلى مداواة أكثر من هذا. فقال الملك: نخاف أن يهرب وقطيعته كثيرة، فقال: سلمه إلي وضمانه علي، فقال: تسلمه، وإذا أتى بقطيعته، لك منها ألف دينار. فتوجه إليه وتسلمه من الجب، وأقام عنده في داره يخدمه. فلما حضرت قطيعته، أمر الملك للمهذب أبي سعيد بألف

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 587-589

دينار، فوهب الألف دينار للفقيه عيسى. فأخذها الفقيه عيسى وتوجه إلى الملك الناصر. فاتفق أن الحكيم سليمان ظهر له من النجامة أن صلاح الدين يملك القدس في اليوم الفلاني من السنة الفلانية، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة، فقال لولده الفارس أبي الخير ابن سليمان: امض إلى صلاح الدين وبشره بذلك. وكان أبو الخير قد تربى مع ابن الملك المجذوم، وزيه زي الأجناد. فمضى إلى الناصر، فاتفق وصوله والناس يهنونه بسنة ثمانين وخمس مائة، فمضى إلى الفقيه عيسى، ففرح وتوجه به إلى السلطان وبلغه بشارة أبيه. ففرح بذلك وأنعم عليه بجائزة سنية وقال له: منى يسر الله ما ذكرت، اجعلوا هذا العلم الأصفر والنشابة فوق داركم، فالحارة التي أنتم فيها تسلم جميعها في خفارة داركم.

فلما حضر الوقت، صح جميع ما قاله. ودخل الفقيه عيسى إلى الدار التي للحكيم، وأقام بها حفظا لها وللحارة. ولم يسلم من القدس من القتل والأسر والقطيعة سوى بيت الحكيم المذكور، وضاعف لأولاده ما كان لهم على الفرنج وكتب كتبا إلى سائر ممالكه برا وبحرا بمسامحتهم بجميع الحقوق اللازمة للنصارى وأعفوا منها. واستدعى السلطان الحكيم أبا سليمان، وقام له قائما وقال له: أنت شيخ مبارك، وصلتنا بشراك وتم لنا جميع ما قلت فتمن علي، فقال: حفظ أولادي. فأخذ أولاده واعتنى بهم وسلمهم إلى العادل وأوصاه بإكرامهم[1].

أبو سعيد بن أبي سليمان

هُوَ الْحَكِيم مهذب الدّين أَبُو سعيد بن أبي سُلَيْمَان بن أبي المنى بن أبي فانة، كَانَ فَاضلا فِي صناعَة الطِّبّ كَانَ عَالما بهَا متميزا فِي أعمالهَا مُتَقَدما فِي الدولة وَقَرَأَ علم الطِّبّ على أَبِيه وعَلى غَيره وَكَانَ السُّلْطَان الْملك الْعَادِل أَبُو بكر بن أَيُّوب قد جعله فِي خدمَة وَلَده الْملك الْمُعظم وأكرمه غَايَة الْإِكْرَام وَأمر أَن لَا يدْخل قلعة من قلاعه إِلَّا رَاكِبًا مَعَ صِحَة جِسْمه، فَكَانَ يدْخل فِي قلاعه الْأَرْبَعَة كَذَلِك وَهِي قلعة الكرك وقلعة جعبر وقلعة الرها وقلعة دمشق

1) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي جـ13

وخدم أَبُو سعيد بن أبي سُلَيْمَان الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين وَالْملك الْعَادِل أَيْضا بالطب وانتقل إِلَى الديار المصرية وأقم بهَا إِلَى حِين وَفَاته، وَتُوفِّي فِي سنة ثَلَاث عشرَة وسِتمِائَة وَدفن بدير الخَنْدَق عِنْد الْقَاهِرَة[1]

أبو شاكر بن أبي سليمان

هُوَ الْحَكِيم موفق الدّين أَبُو شَاكر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد وَكَانَ متقنا لصناعة الطِّبّ متميزا فِي علمهَا وعملها جيد العلاج مكينا فِي الدولة وَقَرَأَ صناعَة الطِّبّ على أَخِيه أبي سعيد بن أبي سُلَيْمَان وتميز بعد ذَلِك واشتهر ذكره، وَكَانَ السُّلْطَان الْملك الْعَادِل قد جعله فِي خدمَة وَلَده الْملك الْكَامِل فَبَقيَ فِي خدمته وحظي عِنْده الحظوة الْعَظِيمَة وَتمكن عِنْده التَّمَكُّن الْكثير ونال فِي دولته حظا عَظِيما وَكَانَت لَهُ مِنْهُ إقطاعات ضيَاع وَغَيرهَا وَلم يزل أبدا يفتقده بالهبات الوافرة والصلات المتواترة وَكَانَ أَيْضا الْملك الْعَادِل يعْتَمد عَلَيْهِ فِي المداواة ويصفه بِحسن العلاج وَكَانَ يدْخل أَيْضا فِي جَمِيع قلاعه وَهُوَ رَاكب مثل قلعة الكرك وقلعة جعبر وقلعة الرها وقلعة دمشق ثمَّ قلعة الْقَاهِرَة مَعَ صِحَة جِسْمه وَلَقَد بلغ من أمره عِنْد سكن الْملك الْكَامِل بقصر الْقَاهِرَة المحروسة أَن أسْكنهُ عِنْده فِيهِ، وَكَانَ الْملك الْعَادِل سَاكِنا بدار الوزارة وَأَنه ركب ذَات يَوْم على بغلة النّوبَة الَّتِي لَهُ وَخرج إِلَى بَين القصرين فَركب فرسا آخر وسير بغلته الَّتِي كَانَ رَاكِبًا عَلَيْهَا إِلَى دَار الْحَكِيم الْمَذْكُور بِالْقصرِ وَأمر بركوبه عَلَيْهَا وَخُرُوجه من الْقصر رَاكِبًا وَلم يزل رَاكِبًا بَين القصرين إِلَى أَن وصل إِلَيْهِ فَأخذ بِيَدِهِ وسايره يتحدث مَعَه إِلَى دَار الوزارة وَسَائِر الْأُمَرَاء يَمْشُونَ بَين يَدي الْملك الْكَامِل

وللعضد ابْن منقذ فِي أبي شَاكر (هَذَا الْحَكِيم أَبُو شَاكر ... كثير المحبين والشاكر)

(خَليفَة بقراط فِي عصرنا ... وثانيه فِي علمه الباهر) المتقارب

وَتُوفِّي أَبُو شَاكر بن أبي سُلَيْمَان فِي سنة ثَلَاث عشرَة وسِتمِائَة وَدفن بدير الخَنْدَق عِنْد الْقَاهِرَة[2]

فى جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، شغب العوامّ بمصر على الملك الكامل ورجموه، وسبب ذلك أن أبا شاكر النصرانى الطبيب كان الملك الكامل يميل إليه، وكان إلى جانب الكنيسة المعلّقة بمصر مسجد قد عفى أثره، فقصد العوام تجديده. فامتنع الكامل من

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 589

2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 589-590

إجابتهم إلى ذلك، بسبب أبى شاكر. فثار العوام، وقالوا لا بد من عمارته. فركب الملك الكامل من القلعة، وجاء إلى الكنيسة المعلّقة، وكشف المكان بنفسه. فلما شاهده، قال: ما كان هذا مسجدا قط. فاستغاث العوام، وشغبوا ورموه بالحجارة، فهرب منهم إلى القلعة. وفيها توجه الملك الظافر الخضر، بن السلطان الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب، من حلب لقصد الحج. فنزل بالقابون فى يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القدم فى خامس الشهر. وكان الملك المعظم بحوران، فوصل إلى دمشق، وأدخله إليها وعمل له ضيافة. ثم توجه إلى الحجاز، صحبة الركب الشامى، فلما وصل إلى المدينة زار رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحرم بالحج من ذى الحليفة، فلما انتهى إلى بدر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه من مصر إلى بدر، خوفا منه أن يتوجه إلى اليمن. فقالوا له: ترجع. فعلم مرادهم. فقال إنه قد بقى بينى وبين مكة مسافة يسيرة، وانى قد أحرمت. وو الله ما قصدى اليمن ولا أقصد غير الحج، فقيدونى، واحتاطوا بى، حتى أقضى المناسك وأعود. فلم يوافقوه على ذلك، وأعادوه إلى الشام فصنع كما صنع النبى صلى الله عليه وسلم حين صده المشركون عن البيت: قصّر وذبح ما تيسر، وعاد إلى الشام[1].

رشيد الدين أبو حليقة

أبو الوحش بن القدسي أبي الخير بن أبي سليمان داود بن أبي المثنى بن أبي فانة المنعوت بالرشيد، المعروف بابن أبي حليقة النصراني والد علم الدين ابن رئيس الأطباء بالديار المصرية. كان الرشيد له التقدم والشهرة في معرفة صناعة الطب بالديار المصرية، وتوفي ليلة الاثنين سابع ربيع الأول بالقاهرة، ودفن يوم الاثنين بمقابر باب الخندق، وله من

1) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين النويري ج 29 ص 63-64

العمر خمس وثمانين سنة. وكان ولده علم الدين أسلم في حياته، ومن بعده إلى الملك الظاهر ركن الدين، وسبب الحلقة التي وضعت في أذنه أن والده لم يعش له ولد ذكر، فوصف له ووالدته حامل أن تهيأ حلقة فضة قد تصدق بفضتها، وفي الساعة التي يوضع فيها من بطن أمه يثقب أذنه، ويوضع الحلقة فيها، ففعل ذلك فعاش وعاهدته والدته أن لا يقلعها، وجاءه أولاد فماتوا، فعمل حلقة حلقة على الصورة لولده المهذب في سعد. وسبب اشتهاره بأبي حليقة أن الملك الكامل بن العادل قال لبعض الخدام: اطلب الرشيد الطبيب من الباب، وجماعة الأطباء بالباب، فقال الخادم: من هو منهم؟ قال: أبو حليقة، فطلب واشتهر بذلك[1].

الطّبيب المصريّ المشهور بالرّشيد النّصرانيّ. واسمه أبو الوحش ابن الفارس أبي الخير ابن الطّبيب داود بن أبي المنا كان أستاذ هذه الصّناعة في عصره، وفيه لُطْفٌ وتودُّد ورأفة بالمرضى. اشتغل على عمّه المهذَّب أبي سعيد بدمشق، ثمّ اشتغل بمصر. وقرأ أيضا على المهذّب الدّخْوار وُلِد بجَعْبَر سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ونشأ بالرُّها، وبعثه أبوه قبل السّتّمائة إلى دمشق فتعلَّم عند عمّه قليلا. ودخل القاهرة وسكنها، وخدم الملك الكامل وكان له إقطاع وافر. ثمّ خدم الصّالح نجم الدّين ابن الكامل وغيره. وخدم الملك الظّاهر رُكن الدّين. وطال عُمُرُه واشتهر ذِكره. وله نوادر في أعمال الطّبّ تميّز بها. وكان في شبيبته يُعرف بابن الفارس، فطلبه الكامل يوما وقال: اطلبوا لنا أبو حُلَيقة[2].

هُوَ الْحَكِيم الْأَجَل الْعَالم رشيد الدّين أَبُو الْوَحْش بن الْفَارِس أبي الْخَيْر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد بن أبي المنى بن أبي فانة وَيعرف بِأبي حليقة كَانَ أوحد زَمَانه فِي صناعَة الطِّبّ والعلوم الْحكمِيَّة متفننا فِي الْعُلُوم والآداب حسن المعالجة لطيف المداواة رؤوفا بالمرضى محبا لفعل الْخَيْر مواظبا للأمور الشَّرْعِيَّة الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا كثير الْعِبَادَة وَلَقَد اجْتمعت بِهِ مَرَّات وَرَأَيْت من حسن معالجته وعشرته وَكَمَال مروءته مَا يفوق الْوَصْف

واشتغل بصناعة الطِّبّ فِي أول أمره على عَمه مهذب الدّين أبي سعيد بِدِمَشْق واشتغل بعد ذَلِك بالديار المصرية وَقَرَأَ أَيْضا على شَيخنَا مهذب الدّين عبد الرَّحِيم ابْن عَليّ رَحمَه الله وَلم يزل دَائِم الِاشْتِغَال ملازما للْقِرَاءَة ومولده بقلعة جعبر وَذَلِكَ فِي سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَخَمْسمِائة وَخرج مِنْهَا إِلَى الرها وربي بهَا مُدَّة سبع أَو ثَمَان سِنِين، وَكَانَ وَالِده يلْبسهُ لِبَاس

1) ذيل مرآة الزمان لابن اليونيني ج 3 ص 292

2) تاريخ الاسلام لابن قاينماز ج 49 ص 322-323

الجندي مثل لِبَاسه وَكَانَ سَاكِنا بدار يُقَال لَهَا دَار ابْن الزَّعْفَرَانِي عِنْد بَاب شاع بالرها وَكَانَت هَذِه الدَّار ملاصقة لدار السُّلْطَان فاتفق أَن الْملك الْكَامِل دخل فِيهَا الْحمام فَأعْطَاهُ وَالِده الْفَارِس الْمَذْكُور فَاكِهَة وَمَاء ورد وَأمره بِحملِهِ إِلَى السُّلْطَان فَحَمله إِلَيْهِ فَلَمَّا خرج من الْحمام وَقدمه إِلَيْهِ أَخذه وَدخل بِهِ إِلَى الخزانة وَفرغ تِلْكَ الأطباق الْفَاكِهَة وملأها لَهُ شقاقا سنية وسيرها مَعَ غُلَامه لوالده وَأخذ الْملك الْكَامِل بِيَدِهِ وَكَانَ عمره يَوْمئِذٍ نَحْو ثَمَان سِنِين وَدخل إِلَى الْملك الْعَادِل، وعندما أبصره الْملك الْعَادِل وَلم يكن رَآهُ قبلهَا قطّ قَالَ للْملك الْكَامِل يَا مُحَمَّد هَذَا ابْن الْفَارِس لِأَنَّهُ أَخذه بالشبة فَقَالَ نعم

قَالَ: هاته إِلَيّ

فَحَمله الْملك الْكَامِل وَوَضعه بَين يَدَيْهِ فمسك بِيَدِهِ وتحدث مَعَ مَعَه حدليناطوبيلا، ثمَّ الْتفت إِلَى وَالِده وَقد كَانَ قَائِما فِي خدمته مَعَ جملَة الْقيام وَقَالَ لَهُ ولدك هَذَا ولد ذكي لَا تعلمه الجندية فالأجناد عندنَا كَثِيرُونَ وَأَنْتُم بَيت مبارك وَقد استبركنا بطبكم تسيره إِلَى الْحَكِيم أبي سعيد إِلَى دمشق ليقرئه الطِّبّ، فامتثل وَالِده الْأَمر وجهزه وسيره إِلَى دمشق أَقَامَ فِيهَا مُدَّة سنة كَامِلَة حفظ فِيهَا كتاب الْفُصُول لأبقراط وتقدمة الْمعرفَة

ثمَّ وصل إِلَى الْقَاهِرَة فِي سنة تسع وَخَمْسمِائة وَلم يزل مُقيما بهَا، وخدم بصناعة الطِّبّ الْملك الْكَامِل وَكَانَ كثير الاحترام لَهُ حظيا عِنْده وَله مِنْهُ الْإِحْسَان الْكثير والإنعام الْمُتَّصِل وَله خبز بالديار المصرية، وَهُوَ الَّذِي كَانَ مقطعا باسم عَمه موفق الدّين أبي شَاكر فَإِنَّهُ لما توفّي أَبُو شَاكر جعل الْملك الْكَامِل هَذَا الْخبز باسم رشيد الدّين الْمَذْكُور وَهُوَ نصف بلد يعرف بالعزيزية والخربة من أَعمال الشرقية، وَلم يزل فِي خدمَة الْملك الْكَامِل إِلَى أَن توفّي رَحمَه الله، ثمَّ خدم بعده وَلَده الْملك الصَّالح نجم الدّين أَيُّوب إِلَى أَن توفّي الْملك الصَّالح رَحمَه الله وخدم أَيْضا ولد الْملك الصَّالح بعد ذَلِك وَهُوَ الْملك الْمُعظم ترنشاه، وَلما قتل رَحمَه الله وَذَلِكَ فِي يَوْم الِاثْنَيْنِ سَابِع وَعشْرين الْمحرم سنة ثَمَان وَأَرْبَعين وسِتمِائَة وَجَاءَت دولة التّرْك واستولوا على الْبِلَاد واحتووا على الممالك صَار فِي خدمتهم وأجروه على مَا كَانَ باسمه، ثمَّ خدم مِنْهُم الْملك الظَّاهِر ركن الدّين بيبرس الْملك الصَّالح وَبَقِي فِي خدمته على عَادَته المستمرة وقاعدته المستقرة وَله مِنْهُ الاحترام التَّام وجزيل الإنعام وَالْإِكْرَام، وللحكيم رشيد الدّين أبي حليقة نَوَادِر فِي أَعمال صناعَة الطِّبّ وحكايات كَثِيرَة تميز بهَا على غَيره من جمَاعَة الْأَطِبَّاء من ذَلِك أَنه مَرضت دَار من بعض الآدر السُّلْطَانِيَّة بالعباسية وَكَانَ من سيرته مَعَه أَن لَا يُشْرك مَعَه طَبِيبا فِي مداواته وَفِي مداواة من يعز عَلَيْهِ من دوره وَأَوْلَاده فباشر مداواة

الْمَرِيضَة الْمَذْكُورَة أَيَّامًا قَلَائِل ثمَّ حصل لَهُ شغل ضَرُورِيّ أَلْجَأَهُ إِلَى ترك الْمَرِيضَة وَدخل الْقَاهِرَة وَأقَام بهَا ثَمَانِيَة عشر يَوْمًا، ثمَّ خرج إِلَى العباسية فَوجدَ الْمَرِيضَة قد تولى مداواتها الْأَطِبَّاء الَّذين فِي الْخدمَة، فَلَمَّا حضر وباشر مَعَهم قَالُوا لَهُ هَذِه الْمَرِيضَة تَمُوت والمصلحة أَن نعلم السُّلْطَان بذلك قبل أَن يفاجئه أمرهَا بَغْتَة

فَقَالَ لَهُم إِن هَذِه الْمَرِيضَة عِنْدِي مَا هِيَ فِي مرضة الْمَوْت وَأَنَّهَا تعافى بِمَشِيئَة الله تَعَالَى من هَذِه المرضة

فَقَالَ لَهُ أحدهم وَهُوَ أكبرهم سنا وَكَانَ الْحَكِيم الْمَذْكُور شَابًّا إِنَّنِي أكبر مِنْك وَقد باشرت من المرضى أَكثر مِنْك فتوافقني على كِتَابَة هَذِه الرقعة فَلم يُوَافقهُ

فَقَالَت جمَاعَة الْحُكَمَاء لَا بُد لنا من المطالعة فَقَالَ لَهُم إِن كَانَ لَا بُد لكم من هَذِه المطالعة فَيكون بأسمائكم من دوني

فَكتب إِلَيْهِ الْأَطِبَّاء بموتها فسير إِلَيْهِم رَسُولا وَمَعَهُ نجار ليعْمَل لَهَا تابوتا تحمل فِيهِ

وَلما وصل الرَّسُول والنجار مَعَه إِلَى الْبَاب والأطباء جُلُوس قَالَ لَهُ الْحَكِيم الْمَذْكُور مَا هَذَا النجار قَالَ يعْمل تابوتا لمريضتكم

فَقَالَ لَهُ تضعونها فِيهِ وَهِي فِي الْحَيَاة فَقَالَ الرَّسُول لَا لَكِن بعد مَوتهَا

قَالَ لَهُ ترجع بِهَذَا النجار وَتقول للسُّلْطَان عني خَاصَّة أَنَّهَا فِي هَذِه المرضة لَا تَمُوت

فَرجع وَأخْبرهُ بذلك

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْل استدعاه السُّلْطَان بخادم وشمعة وورقة بِخَطِّهِ يَقُول فِيهَا ولد الْفَارِس يحضر إِلَيْنَا لِأَنَّهُ لم يكن بعد سمي أَبَا حليقة وَإِنَّمَا سَمَّاهُ بذلك فِيمَا بعد السُّلْطَان الْملك الْكَامِل، فَإِنَّهُ كَانَ فِي بعض الْأَيَّام جَالِسا مَعَ الْأَطِبَّاء على الْبَاب فَقَالَ السُّلْطَان للخادم فِي أول مرّة اطلب الْحَكِيم فَقَالَ لَهُ يَا خوند أَي الْحُكَمَاء هُوَ فَقَالَ لَهُ أَبُو حليقة، فاشتهر بَين النَّاس بِهَذَا الِاسْم من ذَلِك الْيَوْم إِلَى حَيْثُ غطى نَعته ونعت عَمه الَّذِي كَانُوا يعْرفُونَ بِهِ ببني شَاكر، فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ قَالَ أَنْت منعت عمل التابوت فَقَالَ نعم

قَالَ بِأَيّ دَلِيل ظهر لَك هَذَا من دون الْأَطِبَّاء كلهم قَالَ لَهُ يَا مَوْلَانَا لمعرفتي مزاجها وبأوقات مَرضهَا على التَّحْرِير من دونهم وَلَيْسَ عَلَيْهَا بَأْس فِي هَذِه المرضة

فَقَالَ لَهُ امْضِ وطبها وَاجعَل بالك لَهَا

فطب الْمَذْكُورَة وعوفيت

ثمَّ أخرجهَا السُّلْطَان وَزوجهَا وَولدت من زَوجهَا أَوْلَادًا كثيرين، وَمن جملَة مَا تمّ أَيْضا لَهُ أَنه حكم معرفَة نبض الْملك الْكَامِل حَتَّى أَنه فِي بعض الْأَيَّام خرج إِلَيْهِ من خلف الستارة مَعَ الآدر المرضى فَرَأى نبض الْجَمِيع وَوصف لَهُم، فَلَمَّا انْتهى إِلَى نبضه عرفه فَقَالَ هَذَا نبض مَوْلَانَا السُّلْطَان وَهُوَ صَحِيح بِحَمْد الله فتعجب مِنْهُ غَايَة الْعجب وَزَاد تمكنه عِنْده، وَمن حكاياته مَعَه أَنه أمره بِعَمَل الترياق الْفَارُوق فاشتغل بِعَمَلِهِ مُدَّة طَوِيلَة ساهرا عَلَيْهِ اللَّيْل حَتَّى حقق كل وَاحِد من مفرداته اسْما على مُسَمّى بِشَهَادَة أَئِمَّة الصِّنَاعَة أبقراط وجالينوس وَفِي غُضُون ذَلِك حصل للسُّلْطَان نزلة على أَسْنَانه فأفصد بِسَبَبِهَا وَهُوَ ببركة الْفِيل يتفرج بهَا فطلع إِلَى القلعة وَتَوَلَّى مداواته الأسعد الطَّبِيب بن أبي الْحسن بِسَبَب شغل الْمَذْكُور بِعَمَل الترياق، فعالجه الأسعد مُدَّة وَالْحَال كلما مر اشْتَدَّ فَشَكا ذَلِك للأسعد فَقَالَ لَهُ مَا بَقِي قدامي إِلَّا الفصد

فَقَالَ لَهُ أفصد مرّة أُخْرَى ولي عَن الفصد ثَلَاثَة أَيَّام اطْلُبُوا لي أَبَا حليقة

فَحَضَرَ إِلَيْهِ وشكا لَهُ حَاله وأعلمه أَن ذَلِك الطَّبِيب قد أَشَارَ عَلَيْهِ بالفصد واستشاره فِيهِ أَو فِي شرب دَوَاء فَقَالَ يَا مَوْلَانَا بدنك بِحَمْد الله نقي وَالْأَمر أيسر من هَذَا كُله

فَقَالَ لَهُ السُّلْطَان إيش تَقول لي أيسر وَأَنا فِي شدَّة عَظِيمَة من هَذَا الْأَلَم لَا أَنَام اللَّيْل وَلَا أقرّ النَّهَار

فَقَالَ لَهُ يتَسَوَّك مَوْلَانَا من الترياق الَّذِي حمله الْمَمْلُوك فِي البرنية الْفضة الصَّغِيرَة وَترى بِإِذن الله الْعجب

وَخرج إِلَى الْبَاب وَلم يشْعر إِلَّا بورقة بِخَط السُّلْطَان قد خرجت إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُول فِيهَا يَا حَكِيم اسْتعْملت مَا ذكرته فَزَالَ جَمِيع مَا بِي لوقته وَكَانَ ذَلِك بِحُضُور الأسعد الطَّبِيب الَّذِي كَانَ يعالجه أَولا

فَقَالَ لَهُ وَنحن مَا نصلح لمداواة الْمُلُوك وَلَا يصلح لمداواتهم إِلَّا أَنْتُم

ثمَّ دخل الْملك الْكَامِل إِلَى خزانته وَبعث إِلَيْهِ مِنْهَا خلعا سنية وذهبا متوفرا، وَمن حكاياته إِنَّه لما طَال عَلَيْهِ عمل الترياق الْفَارُوق لتعذر حُضُور أدويته الصَّحِيحَة من الْآفَاق عمل ترياقا مُخْتَصرا تُوجد أدويته فِي كل مَكَان، وَنوى أَنه لَا يقْصد بِهِ قربا من ملك وَلَا طلب مَال وَلَا جاها فِي الدُّنْيَا وَلَا يقْصد بِهِ إِلَّا التَّقَرُّب إِلَى الله بنفع خلقه أَجْمَعِينَ والشفقة على سَائِر الْعَالمين وبذله للمرضى فَكَانَ يخلص بِهِ المفلوجين وَيقوم بِهِ الْأَيْدِي المتقوسة لوقته وساعته بِحَيْثُ كَانَ ينشيء فِي العصب زِيَادَة فِي الْحَرَارَة الغريزية وتقوية وإذابة البلغم الَّذِي فِيهِ

فيجد الْمَرِيض الرَّاحَة بِهِ لوقته ويسكن وجع القولنج من بعد الاستفراغ لوقته، وَأَنه مر على بواب الْبَاب الَّذِي بَين السورين بِالْقَاهِرَةِ المحروسة وَهُوَ رجل يعرف بعلي وَهُوَ ملقى على ظَهره لَا يقدر أَن ينْتَصب من جنب إِلَى جنب فَشَكا إِلَيْهِ حَاله فَأعْطَاهُ مِنْهُ شربة وطلع القلعة وباشر المرضى وَعَاد فِي السَّاعَة الثَّالِثَة من النَّهَار فَقَامَ المفلوج يعدو فِي ركابه يَدْعُو لَهُ فَقَالَ لَهُ اقعد فَقَالَ يَا مَوْلَانَا قد شبعت قعُودا خليني أتملى بنفسي

وَمن حكاياته أَن الْملك الْكَامِل كَانَ عِنْده مُؤذن يعرف بأمين الدّين جَعْفَر حصل لَهُ حَصَاة سدت مجْرى الْبَوْل وقاسى من ذَلِك شدَّة أشرف فِيهَا على الْمَوْت، فَكتب إِلَى الْملك الْكَامِل وأعلمه بِحَالِهِ وَطلب مِنْهُ دستورا يمشي إِلَى بَيته يتداوى فَلَمَّا حضر إِلَى بَيته أحضر أطباء الْعَصْر فوصف كل مِنْهُم لَهُ مَا وصف فَلم ينجع، فاستدعى الْحَكِيم أَبَا حليقة الْمَذْكُور فَأعْطَاهُ شربة من ذَلِك الترياق، فبمقدار مَا وصلت إِلَى معدته نفذت قوتها إِلَى مَوضِع الْحَصَاة ففتتها وَخرجت من الأراقة وَهِي مصبوغة بالدواء وخلص لوقته وَخرج لخدمة سُلْطَانه وأذن أَذَان الظّهْر، وَكَانَ السُّلْطَان يَوْمئِذٍ مخيما على جيزة الْقَاهِرَة فَلَمَّا سمع صَوته أَمر بإحضاره إِلَيْهِ فَلَمَّا حضر قَالَ لَهُ مَا ورقتك بالْأَمْس وصلتنا وَأَنت تَقول أَنَّك كنت على الْمَوْت فَأَخْبرنِي أَمرك

فَقَالَ يَا مَوْلَانَا الْأَمر كَانَ كَذَلِك لَوْلَا لَحِقَنِي مَمْلُوك مَوْلَانَا الْحَكِيم أَبُو حليقة فَأَعْطَانِي ترياقا خلصت بِهِ للْوَقْت وَالْحَال

وَاتفقَ أَن فِي ذَلِك الْيَوْم جلس إِنْسَان ليريق مَاء فنهشته أَفْعَى فِي ذكره فَقتلته فَلَمَّا سمع السُّلْطَان بِخَبَرِهِ رق عَلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ رؤوفا بالخلق، ثمَّ دخل إِلَى قلعة الْقَاهِرَة بَات بهَا وَأصْبح من باكر والحكيم الْمَذْكُور قَاعد فِي الْخدمَة عِنْد زِمَام الدَّار على الْبَاب، وَالسُّلْطَان قد خرج فَوقف واستدعاه إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ يَا حَكِيم أيش هَذَا الترياق الَّذِي عملته واشتهر نَفعه للنَّاس هَذِه الشُّهْرَة الْعَظِيمَة وَلم تعلمني بِهِ قطّ فَقَالَ يامولانا الْمَمْلُوك لَا يعْمل شَيْئا إِلَّا لمولانا وَمَا سَبَب تَأْخِير إعْلَامه إِلَّا ليجربه الْمَمْلُوك لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أنشأه فَإِذا صحت لَهُ تجربته ذكره لمولانا على ثِقَة مِنْهُ وَإِذ قد صَحَّ هَذَا لمولانا فقد حصل الْمَقْصُود

فَقَالَ لَهُ تمْضِي وتحضر لي كلما عنْدك مِنْهُ

وَترك خَادِمًا قَاعِدا على الْبَاب فِي انْتِظَاره وَرجع إِلَى دَاره كَأَنَّهُ لم يطلع القلعة فِي تِلْكَ اللَّيْلَة وَلَا خرج من الدَّار فِي تِلْكَ السَّاعَة إِلَّا لهَذَا المهم خَاصَّة، فَمضى الْحَكِيم الْمَذْكُور إِلَى دَاره فَوجدَ عِنْده من ذَلِك الترياق شَيْئا يَسِيرا لِأَن الْخلق كَانَت تغنيه مِمَّا تطلبه مِنْهُ فَمضى إِلَى أَصْدِقَائه

الَّذين كَانَ أهْدى لَهُم مِنْهُ شَيْئا وَجمع مِنْهُ مِقْدَار أحد عشر درهما وَوَعدهمْ بِأَنَّهُ يعطيهم عوضا عَنهُ أضعافه فَجعله فِي برنية فضَّة صَغِيرَة وَكتب عَلَيْهِ مَنَافِعه وَمِقْدَار الشربة مِنْهُ وَحملهَا إِلَى الْخَادِم الْمَذْكُور الْقَاعِد فِي انْتِظَاره فحملها إِلَى السُّلْطَان وَلم يزل حَافِظًا لَهَا فَلَمَّا آلمته أَسْنَانه دلكه عَلَيْهَا فَحصل لَهُ مِنْهُ من الرَّاحَة مَا ذكر، وَمن حكاياته مَعَه أَنه كَانَ قد عرض لبَعض جهاته مرض عجز عَن مداواته فسيرت تِلْكَ الْجِهَة تَقول لَهُ أَنا أعرف أَن السُّلْطَان لَو عرف أَن فِي الديار المصرية طَبِيبا خيرا مِنْك لما سلم نَفسه وَأَوْلَاده إِلَيْك من دون كَافَّة الْأَطِبَّاء فَأَنت مَا تُؤْتى فِي مداواتي من قلَّة معرفَة بل من التهاون بأَمْري بِدَلِيل أَنَّك تمرض فتداوي نَفسك فِي أَيَّام يسيرَة وَكَذَلِكَ يمرض أحد أولادك فتداويه فِي أَيَّام يسيرَة أَيْضا وَكَذَلِكَ بَقِيَّة الْجِهَات الَّتِي عندنَا مَا مِنْهُم إِلَّا من تداويه وتنجع مداواتك بأيسر سعي

فَقَالَ لَهَا مَا كل الْأَمْرَاض تقبل المداواة وَلَو قبلت الْأَمْرَاض كلهَا المداواة لما مَاتَ أحد

فَلم تسمع ذَلِك مِنْهُ وَقَالَت أَنا أعرف أَن مَا بَقِي فِي الديار المصرية طَبِيب وَأَنا أُشير إِلَى السُّلْطَان يستخدم لي أطباء من دمشق فاستخدم لَهَا طبيبين نَصْرَانِيين فَلَمَّا حضرا لمداواتها من دمشق اتّفق سفر السُّلْطَان إِلَى دمياط فاستؤذن من يمْضِي مَعَه من الْأَطِبَّاء وَمن يتْرك فَقَالَ الْأَطِبَّاء كلهم يبقون فِي خدمَة تِلْكَ الْجِهَة والحكيم فلَان وَحده يكون معي، فَأَما أُولَئِكَ الْأَطِبَّاء فأنهم عالجوها بِكُل مَا يقدرُونَ عَلَيْهِ وتعبوا فِي مداواتها فَلم ينجع فانبسط فِي ذَلِك عذر الْمَذْكُور وَأورد مَا ذكر أبقراط فِي تقدمة الْمعرفَة، ثمَّ أَنه لما سَافر مَعَ السُّلْطَان بَقِي فِي خدمته مُدَّة شهر لم يتَّفق لَهُ أَن يستدعيه وَبعد ذَلِك بدمياط استدعاه لَيْلًا فَحَضَرَ بَين يَدَيْهِ فَوَجَدَهُ محموما وَوجد بِهِ أعراضا مُخْتَلفَة يباين بَعْضهَا بَعْضًا فَركب لَهُ مشروبا يُوَافق تِلْكَ الْأَعْرَاض الْمُخْتَلفَة وَحمله إِلَيْهِ فِي السحر فَلم تغب الشَّمْس إِلَّا وَقد زَالَ جَمِيع مَا كَانَ يشكوه فَحسن ذَلِك عِنْده جدا، وَلم يزل ملازما لاستعمال ذَلِك التَّدْبِير إِلَى أَن وصل إِلَى الْإسْكَنْدَرِيَّة وَاتفقَ أول يَوْم من صِيَام شهر رَمَضَان أَن الْحَكِيم الْمَذْكُور مرض بهَا فَحَضَرَ إِلَيْهِ الْأَطِبَّاء الَّذين فِي الْخدمَة واستشاروه فِيمَا يحملون إِلَى السُّلْطَان يفْطر عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُم عِنْده مشروب قد جربه وَهُوَ يثني عَلَيْهِ ويطلبه دَائِما فَمَا دَامَ لَا يشكو لكم شَيْئا متجددا يمْنَع من اسْتِعْمَاله فاحملوه إِلَيْهِ وَإِن تجدّد لكم شَيْء فاستعملوا مَا تَقْتَضِيه الْمصلحَة الْحَاضِرَة، فَمَضَوْا وَلم يقبلُوا مِنْهُ قصدا مِنْهُم أَن يجددوا تدبيرا من جهتهم فَلَمَّا جددوا ذَلِك التَّدْبِير تغير عَلَيْهِ مزاجه فاستدعاهم واستدعى نُسْخَة الْحَكِيم الْمَذْكُور وَأخذ يحاققهم عَلَيْهَا فَكَانَ من جملَة مَا فِيهَا بزر هندبا وَقد حذفوه فَقَالَ لَهُم لماذا حذفتم هَذَا

البزر وَهُوَ مقو للكبد منق للعروق قَاطع للعطش فَقَالَ أحد الْأَطِبَّاء الَّذين حَضَرُوا وَالله مَا للمماليك فِي حذفه ذَنْب إِلَّا أَن الأسعد بن أبي الْحسن نقل فِي بزر الهندبا نقلا شاذا بِأَنَّهُ يضر بالطحال الْمَمْلُوك وَالله مَا يعرفهُ وَزعم أَن بمولانا طحالا فوافقه المماليك على ذَلِك

فَقَالَ وَالله يكذب أَنا مَا بِي وجع طحال

وَأمر بِإِعَادَة بزر الهندبا إِلَى مَكَانَهُ ثمَّ حاققهم على مَنْفَعَة دَوَاء من مُفْرَدَات ذَلِك المشروب الَّتِي حذفوها إِلَى أَن أعادوهما وَأعَاد اسْتِعْمَاله دَائِما وَلم يزل مُنْتَفعا بِهِ شاكرا لَهُ، وَمن حكاياته أَنه طلب مِنْهُ يَوْمًا أَن يركب لَهُ صلصا يَأْكُل بِهِ اليخني فِي الْأَسْفَار واقترح عَلَيْهِ أَن يكون مقويا للمعدة منبها للشهوة وَهُوَ مَعَ ذَلِك ملين للطبخ فَركب لَهُ صلصا هَذِه صفته يُؤْخَذ من المقدونس جُزْء وَمن الريحان الترنجاني وَقُلُوب الأترج الغضة المحلاة بِالْمَاءِ وَالْملح أَيَّامًا ثمَّ بِالْمَاءِ الحلو أخيرا من كل وَاحِد نصف جُزْء يدق فِي جرن الفقاعي كل مِنْهُم بمفرده حَتَّى يصير مثل المرهم، ثمَّ يخلط الْجَمِيع فِي الجرن الْمَذْكُور ويعصر عَلَيْهِ الليمون الْأَخْضَر الْمُنْتَقى ويذر عَلَيْهِ من الْملح الأندراني مِقْدَار مَا يطيبه، ثمَّ يرفع فِي مسللات صغَار تسع كل وَاحِدَة مِنْهَا مِقْدَار مَا يقدم على الْمَائِدَة لِأَنَّهَا إِذا نقصت تكرجت وتختم تِلْكَ الْأَوَانِي بالزيت الطّيب وترفع فَلَمَّا اسْتَعْملهُ السُّلْطَان حصلت لَهُ مِنْهُ الْمَقَاصِد الْمَطْلُوبَة، وَأثْنى عَلَيْهِ ثَنَاء كثيرا، وَكَانَ مُسَافِرًا إِلَى بِلَاد الرّوم فَقَالَ للحكيم الْمَذْكُور هَذَا الصلص يَدُوم مُدَّة طَوِيلَة فَقَالَ لَهُ لَا

فَقَالَ مَا يُقيم شهرا فَقَالَ لَهُ نعم إِذا عمل على هَذِه الصُّورَة الَّتِي ذكرتها

فَقَالَ تعْمل لي مِنْهُ راتبا فِي كل شهر مَا يَكْفِينِي فِي مُدَّة ذَلِك الشَّهْر وتسيره لي فِي رَأس كل هِلَال فَلم يزل الْحَكِيم الْمَذْكُور يجدد ذَلِك الصلص فِي كل شهر ويسيره لَهُ إِلَى دربندات الرّوم وَهُوَ يلازم اسْتِعْمَاله فِي الطَّرِيق ويثني عَلَيْهِ ثَنَاء كثيرا

وَمن نوادره أَنه جَاءَت إِلَيْهِ امْرَأَة من الرّيف وَمَعَهَا وَلَدهَا وَهُوَ شَاب قد غلب عَلَيْهِ النحول وَالْمَرَض فشكت إِلَيْهِ حَال وَلَدهَا وَأَنَّهَا قد أعيت فِيهِ من المداواة وَهُوَ لَا يزْدَاد إِلَّا سقاما ونحولا، وَكَانَت قد جَاءَت إِلَيْهِ بِالْغَدَاةِ قبل ركُوبه وَكَانَ الْوَقْت بَارِدًا فَنظر إِلَيْهِ واستقرأ حَاله وجس نبضه، فَبَيْنَمَا هُوَ يجس نبضه قَالَ لغلامه ادخل ناولني الفرجية حَتَّى أجعلها عَليّ فتغير نبض ذَلِك الشَّاب عِنْد قَوْله تغيرا كثيرا وَاخْتلف وَزنه وَتغَير لَونه أَيْضا فحدس أَن يكون عَاشِقًا ثمَّ جس نبضه بعد ذَلِك فتساكن وعندما خرج الْغُلَام إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ هَذِه الفرجية جس نبضه فَوَجَدَهُ أَيْضا قد تغير فَقَالَ لوالدته إِن ابْنك هَذَا عاشق وَالَّتِي يهواها

اسْمهَا فرجية فَقَالَت أَي وَالله يَا مولَايَ هُوَ يحب وَاحِدَة اسْمهَا فرجية وَقد عجزت مِمَّا أعذله فِيهَا، وتعجبت من قَوْله لَهَا غَايَة التَّعَجُّب وَمن اطِّلَاعه على اسْم الْمَرْأَة من غير معرفَة مُتَقَدّمَة لَهُ لذَلِك أَقُول وَمثل هَذِه الْحِكَايَة كَانَت قد عرضت لِجَالِينُوسَ لما عرف الْمَرْأَة العاشقة وَذَلِكَ أَنه كَانَ قد استدعي إِلَى امْرَأَة جليلة الْقدر وَكَانَ الْمَرَض قد طَال بهَا وحدس أَنَّهَا عاشقة فتردد إِلَيْهَا، وَلما كَانَ يَوْمًا وَهُوَ يجس نبضها وَكَانَت الأجناد قد ركبُوا فِي الميدان وهم يَلْعَبُونَ فَحكى بعض الْحَاضِرين مَا كَانُوا فِيهِ وَأَن فلَانا تبينت لَهُ فروسية وَلعب جيد وعندما سَمِعت باسم ذَلِك الرجل تغير نبضها وَاخْتلف جسه بعد ذَلِك فَوَجَدَهُ قد تساكن إِلَى أَن عَاد إِلَى حَاله الأولى، ثمَّ إِن جالينوس أَشَارَ لذَلِك الحاكي سرا أَن يُعِيد قَوْله فَلَمَّا أَعَادَهُ وجس نبضها وجده أَيْضا قد تغير فتحقق من حَالهَا أَنَّهَا تعشق ذَلِك الرجل، وَهَذَا يدل على وفور الْعلم وَحسن النّظر فِي تقدمة الْمعرفَة أَقُول وَجَمَاعَة أهل الْحَكِيم رشيد الدّين أبي حليقة أَكثر شهرتهم فِي الديار المصرية وَالشَّام ببني شَاكر لشهرة الْحَكِيم أبي شَاكر وسمعته الذائعة فَصَارَ كل من لَهُ نسب إِلَيْهِ يعْرفُونَ ببني شَاكر وَإِن لم يَكُونُوا من أَوْلَاده، وَلما اجْتمعت بالحكيم رشيد الدّين أبي حليقة وَكَانَ قد بلغه أنني ذكرت الْأَطِبَّاء الْمَشْهُورين من أَهله ووصفت فَضلهمْ وعلمهم فتشكر مني وتفضل فَأَنْشَدته بديها

(وَكَيف لَا أشكر من فَضلهمْ ... قد سَار فِي الْمشرق وَالْمغْرب)

(تشرق مِنْهُم فِي سَمَاء الْعلَا ... نُجُوم سعد قطّ لم تغرب)

(قوم ترى أقدارهم فِي الورى ... بِالْعلمِ تسمو رُتْبَة الْكَوْكَب)

(كم صنفوا فِي الطِّبّ كتبا أَتَت ... بِكُل معنى مبدع مغرب)

(وَإِن شكري فِي بني شَاكر ... مَا زَالَ فِي الْأَبْعَد وَالْأَقْرَب)

(خلدت مجدا دَائِما فيهم ... بِحسن وصف وثنا طيب) السَّرِيع

وَأما سَبَب الْحلقَة الَّتِي وضعت فِي أذن الرشيد واشتهر بهَا اسْمه فَإِن وَالِده لم يَعش لَهُ ولد ذكر غَيره فوصف لَهُ ووالدته حَامِل بِهِ أَن يهيء لَهُ حَلقَة فضَّة قد تصدق بفضتها وَفِي السَّاعَة الَّتِي يخرج فِيهَا إِلَى الْعَالم يكون صائغ مجهزا يثقب أُذُنه وَيَضَع الْحلقَة فِيهَا فَفعل ذَلِك وَأَعْطَاهُ الله الْحَيَاة فعاهدته والدته أَن لَا يقلعها فَبَقيت، ثمَّ تزوج هُوَ وجاءه أَوْلَاد ذُكُور عدَّة ويموتون كَمَا جرى الْحَال فِي أمره فتبه إِلَى عمل الْحلقَة الْمَذْكُورَة فعملها لوَلَده الْكَبِير الْمَعْرُوف بمهذب الدّين أبي سعيد لِأَنَّهُ سَمَّاهُ باسم عَم الْمَذْكُور

وَمن شعر الْحَكِيم رشيد الدّين أبي حليقة وَهُوَ مِمَّا أَنْشدني لنَفسِهِ فَمن ذَلِك قَالَ بِحَضْرَة سيف الْإِسْلَام

(سمح الحبيب بوصله فِي لَيْلَة ... غفل الرَّقِيب ونام عَن جنباتها)

(فِي رَوْضَة لَوْلَا الزَّوَال لشابهت ... جنَّات عدن فِي جَمِيع صفاتها)

(فالطير يطرب فِي الغصون بِصَوْتِهِ ... والراح تجلى فِي كؤوس سقاتها)

(ومجالس الْقَمَر الْمُنِير تنزهت ... فِيهِ الْحَواس باسمها وكناتها) الْكَامِل

وَقَالَ أَيْضا

(أحن إِلَى ذكر التواصل يَا سعد ... حنين النياق العيس عَن لَهَا الْورْد)

(فسعدى على قلبِي ألذ من المنى ... وقربي لَهَا عِنْد اللِّقَاء هُوَ الْقَصْد)

(حوت مبسما كالدر أضحى منظما ... وثغرا كَمثل الأقحوان بِهِ شهد)

(وفرعا كَمثل اللَّيْل أَو حَظّ عاشق ... ووجها كضوء الصُّبْح هَذَا لذا ضد)

(أَقُول لَهَا عِنْد الْوَدَاع وبيننا ... حَدِيث كنشر الْمسك خالطه ند)

(ترى نَلْتَقِي بعد الْفِرَاق بمنزل ... ويظفر مشتاق أضرّ بِهِ الْبعد)

(تمر اللَّيَالِي لَيْلَة بعد لَيْلَة ... وذكركم بَاقٍ يجدده الْعَهْد)

(وَلَكِن خوف الصب إِن طَال هجركم ... فَيَقْضِي وَلَا يمْضِي لَهُ مِنْكُم وعد)

(عشقت سيوف الْهِنْد من أجل أَنَّهَا ... تشابهها فِي فعل ألحاظها الْهِنْد)

(ولي فِي الرماح السمر سمر لِأَنَّهَا ... تشابهها قدا فيا حبذا الْقد)

(وَفِي الْورْد معنى شَاهد فَوق خدها ... نشاهده فِيهَا إِذا عدم الْورْد)

(وَبِي من هَواهَا مَا جحدت وعبرت ... بِهِ عبرتي يَوْمًا وَمَا نفع الْجحْد) الطَّوِيل

وَقَالَ أَيْضا

(خليلي أَنِّي قد بقيت مسهدا ... من الْحبّ مأسور الْفُؤَاد مُقَيّدا)

(بحب فتاة يخجل الْبَدْر وَجههَا ... وَلَا سِيمَا فِي ليل شعر إِذا بدا)

(ضللت بهَا وَهِي الْهلَال ملاحة ... فوا عجبا مِنْهُ أضلّ وَمَا هدى)

(لَهَا مبسم كالدر أضحى منظما ... ونطق كَمثل الدّرّ أَمْسَى مبددا) الطَّوِيل

وَقَالَ أَيْضا لما كَانَ بدمياط وَمرض وَالِده فِي الْقَاهِرَة فَجَاءَهُ كِتَابه بعافيته

(مطرَت على سحائب النعماء ... مذ زَالَ مَا تَشْكُو من البلواء)

(ولبست مذ أَبْصرت خطك نعْمَة ... فِيهَا أقوم لشكرها بوفاء) الْكَامِل

ولرشيد الدّين أبي حليقة من الْكتب مقَالَة فِي حفظ الصِّحَّة، مقَالَة فِي أَن الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية إِذْ الروحانية كمالات وَإِدْرَاك الكمالات والجسمانية إِنَّمَا هِيَ دفع آلام خَاصَّة وَإِن زَادَت أوقعت فِي آلام أخر، كتاب فِي الْأَدْوِيَة المفردة سَمَّاهُ الْمُخْتَار فِي الْألف عقار، كتاب فِي الْأَمْرَاض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة الَّتِي قد أظهرت التجربة نجحها وَلم يداو بهَا مَرضا يُؤَدِّي إِلَى السَّلامَة إِلَّا ونجحت التقطها من الْكتب المصنفة فِي صناعَة الطِّبّ من آدم وَإِلَى وقتنا هَذَا ونظم متشتتها ومتفرقها، مقَالَة فِي ضَرُورَة الْمَوْت وَلما ذكر من التَّحْلِيل فِي هَذِه الْمقَالة إِن الْإِنْسَان لم يزل يتَحَلَّل من بدنه بالحرارة الَّتِي فِي دَاخله وبحرارة الْهَوَاء الَّذِي من خَارج كَانَت نهايته إِلَى الفناء بِهَذَيْنِ السببين، وتمثل بعد ذكرهمَا بِهَذَا الْبَيْت[1]

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 590-597

بو الفرج النصراني

أنه كَانَ فِي خدمَة صَلَاح الدّين طَبِيب يُقَال لَهُ أَبُو الْفرج النَّصْرَانِي وَبَقِي فِي خدمته مُدَّة وَله تردد إِلَى دوره فَقَالَ يَوْمًا للسُّلْطَان أَن عِنْده بَنَات وَهُوَ يحْتَاج إِلَى تجهيزهن وَطلب مِنْهُ أَن يُطلق لَهُ مَا يَسْتَعِين بِهِ من ذَلِك فَقَالَ لَهُ صَلَاح الدّين اكْتُبْ فِي ورقة جَمِيع مَا تحْتَاج إِلَيْهِ فِي تجهيزهن وجيب الورقة فَمضى أَبُو الْفرج وَكتب فِي ورقة من المصاغ والقماش والآلات وَغير ذَلِك مَا يكون بِنَحْوِ ثَلَاثِينَ ألف دِرْهَم، وَلما قَرَأَ صَلَاح الدّين الورقة أَمر الخزندار بِأَن يَشْتَرِي لأبي الْفرج جَمِيع مَا تضمنته وَلَا يخل بِشَيْء مِنْهُ، وَلما بلغ ذَلِك ابْن المطران قصر فِي ملازمته الْخدمَة وَتبين لصلاح الدّين مِنْهُ تغير فِي وَجهه فَعرف السَّبَب، ثمَّ أَمر الخزندار بِأَن يحضر جَمِيع مَا وصل إِلَى أبي الْفرج الطَّبِيب مِمَّا اشْتَرَاهُ لَهُ ويحسب جملَة ثمنه وَمهما بلغ من المَال يدْفع إِلَى ابْن المطران مثله سَوَاء فَفعل ذَلِك[1]، وخدم أَيْضا الْملك الْأَفْضَل نور الدّين عَليّ بن صَلَاح الدّين وَأقَام عِنْده بسميساط وَكَذَلِكَ أَيْضا أَوْلَاد أبي الْفرج اشتغلوا بصناعة الطِّبّ وَأَقَامُوا بسميساط فِي خدمَة أَوْلَاد الْأَفْضَل[2]

أبو منصور النصراني

كَانَ طَبِيبا مَشْهُورا عَالما حسن المعالجة والمداواة وخدم بصناعة الطِّبّ الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين ابْن أَيُّوب وَبَقِي سِنِين فِي خدمته[3]

أبو النجم النصراني

---

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 562

[2]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 661

[3]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 661

هُوَ أَبُو النَّجْم بن أبي غَالب بن فَهد بن مَنْصُور بن وهب بن قيس بن مَالك، كَانَ طَبِيبا مَشْهُورا فِي زَمَانه جيد الْمعرفَة بصناعة الطِّبّ مَحْمُود الطَّرِيقَة فِيهَا مشكور المعالجة حسن الْعشْرَة محبا للخير، وَكَانَ يقْرَأ عَلَيْهِ علم الطِّبّ ويعد من جملَة الْفُضَلَاء المتميزين فِي وقته، وحَدثنِي أَبُو الْفَتْح بن مهنا النَّصْرَانِي أَن أَبَا النَّجْم كَانَ أَبوهُ فلاحا فِي قَرْيَة شفا من أَرض حوران وَكَانَ يعرف بالعيار، وَكَانَ ابْنه أَبُو النَّجْم هَذَا صَبيا فَأَخذه بعض الْأَطِبَّاء بِدِمَشْق عِنْده وَلما كبر علمه صناعَة الطِّبّ وعرفه أَعمالهَا، وخدم أَبُو النَّجْم بصناعة الطِّبّ الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف بن أَيُّوب وحظي عِنْده وَكَانَ مكينا فِي الدولة وَبَقِي فِي خدمته مُدَّة، وَكَانَ يتَرَدَّد إِلَى دوره ويعالجهم مَعَ جملَة الْأَطِبَّاء، وَتُوفِّي أَبُو النَّجْم النَّصْرَانِي بِدِمَشْق فِي سنة تسع وَتِسْعين وَخَمْسمِائة، وَله ولد طَبِيب وَهُوَ أَمِين الدولة أَبُو الْفَتْح ابْن أبي النَّجْم، وَله من الْكتب كتاب الموجز فِي الطِّبّ وَهُوَ يشْتَمل على علم وَعمل[1]

هبة الله بن صاعد

فى سنة ثمان وأربعين وستمائة ه بعد أن أتفق الأمراء الصالحية على تولية الملك الأشرف مظفر الدين بن موسى بن الملك الناصر صلاح الدين المنعوت باقسيس ابن السلطان الملك الكامل ابن العادل وأجلسوه على كرسى المملكة يوم الخميس تاسع جمادي الآخرة، فأستوزر شرف الدين هبة الله ابن صاعد المعروف بالأسعد الفائزي[2]

ابن كبر النصراني

كان كاتباً لبيبرس الأمير ركن الدين الدوادار المنصوري الخطائي وقد ساعده ابن كبر في عمل تاريخاً كبيراً مكوناً من خمسة وعشرون مجلداً[3]، وأنه ألف تاريخاً أسماه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة يدخل فى أحد عشر سفراً وأنه أستعان فى تأليفه بكاتبه أبي البركات ابن كبر النصراني[4]

ابن كاتب قيصر النصراني

---

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 661

2) نزهة الآنام فى تاريخ الإسلام لابن دقماق ص197

3) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدى ج 2 ص 80

4) المقفى الكبير للمقريزى ج 2 ص 533

إبراهيم بن أبي الثناء علم الملك عرف بِابن كَاتب قَيْصر كَانَ من أَعيَان النصَارى الفضَلَاء هو وأخوه تَاج الْملك إِسحاق نقلت من خطّ نور الدّين ابْن سعيد المغربي مَا نسبه للمذكور فِي الياسمين المحشو بالأحمر أرى ياسميناً محشى غَدا ... إِلَى الند فِي نشرة ينتمي، كَمثل قصاصة تصفية ... تلوث أطرافها بِالدمِ[1]

بولص الحبيس الراهب

بولص الراهب الْمَعْرُوف بالحبيس قيل اسْمه ميخائيل كَانَ كَاتبا أَولا ثمَّ ترهب وَانْقطع فِي جبل حلوان بالديار المصرية يُقَال إِنَّه ظفر بِمَال دَفِين فِي مغارة فواسى بِهِ الْفُقَرَاء من كل مِلَّة وَقَامَ عَن المصادرين بجمل وافرة وَكَانَ أول ظُهُور أمره أَنه وَقعت نَار بحارة الباطلية سنة ثَلَاث وَسِتّينَ وسِتمِائَة فأحرقت ثَلَاثًا وَسِتّينَ دَارا جَامِعَة ثمَّ كثر الْحَرِيق بعد ذَلِك حَتَّى احْتَرَقَ ربع فَرح وَكَانَ وَقفا على أَشْرَاف الْمَدِينَة وَالْوَجْه المطل على النّيل من ربع الْعَادِل واتهم بذلك النَّصَارَى فعزم الظَّاهِر على استئصال النَّصَارَى وَالْيَهُود وَأمر بِوَضْع الحلفا والأحطاب فِي حفيرة كَانَت فِي القلعة وَأَن تضرم النَّار فِيهَا ويلقى فِيهَا الْيَهُود وَالنَّصَارَى فَجمعُوا حَتَّى لم يبْق مِنْهُم إِلَّا من هرب وكتفوا ليرموا فِيهَا فشفع فيهم الْأُمَرَاء وَأمر أَن يشتروا أنفسهم فقرر عَلَيْهِم فِي كل سنة خمس مائَة ألف دِينَار وضمنهم الحبيس الْمَذْكُور فَحَضَرَ مَوضِع الجباية مِنْهُم فَكَانَ أَي من عجز عَمَّا قرر عَلَيْهِ وزن الحبيس عَنهُ سَوَاء كَانَ يَهُودِيّا أَو نَصْرَانِيّا وَكَانَ يدْخل الحبوس وَمن كَانَ عَلَيْهِ دين وَزنه عَنهُ وسافر إِلَى الصَّعِيد وَإِلَى الإسْكَنْدَرِيَّة ووزن عَن النَّصَارَى مَا قرر عَلَيْهِم وَكَانَ النَّاس قد عرفوه فَكَانَ بعض النَّاس يتخيل عَلَيْهِ فَإِذا رَآهُ قد دخل الْمَدِينَة أَخذ مَعَه اثْنَيْنِ بعصى صُورَة أَنَّهُمَا من رسل القَاضِي أَو الْمُتَوَلِي وأخذا يَضْرِبَانِهِ ويجذبانه فيستغيث بِهِ يَا أَبونَا يَا أَبونَا فَيَقُول مَا باله فَيَقُولَانِ عَلَيْهِ دين أَو اشتكت عَلَيْهِ زَوجته فَيَقُول على كم فَيُقَال لَهُ على أَلفَيْنِ أَو أقل أَو أَكثر فَيكْتب لَهُ على شقفة أَو غَيرهَا إِلَى بعض الصيارف بذلك الْمبلغ فيقبضه مِنْهُ وَقيل إِن مبلغ مَا وصل إِلَى السُّلْطَان وَمَا واسى بِهِ النَّاس فِي مُدَّة سنتَيْن سِتّمائَة ألف دِينَار مضبوطة بقلم الصيارف الَّذين كَانَ يَجْعَل عِنْدهم

[1]) الوافي بالوفيات للصفدي ج 5 ص 223-224

الْمَال وَذَلِكَ خَارِجا عَمَّا كَانَ يُعْطي من يَده وَكَانَ لَا يَأْكُل من هَذَا الْمَال وَلَا يشرب بل النَّصَارَى يتصدقون عَلَيْهِ بِمَا يمونه فَلَمَّا كَانَ سنة سِتّ وَسِتِّينَ وست مائَة أحضرهُ الْملك الظَّاهِر بيبرس وَطلب مِنْهُ الْمَال انم يحضرهُ أَو يعرفهُ من أَيْن وصل إِلَيْهِ فَجعل يغالطه ويدافعه وَلَا يفصح لَهُ بِشَيْء وَهُوَ عِنْده دَاخل الدّور فَعَذَّبَهُ حَتَّى مَاتَ وَلم يقر بِشَيْء فَأخْرج من قلعة الْجَبَل وَرمي ظَاهرهَا على بَاب القرافة وَكَانَت قد وصلت إِلَى الظَّاهِر فَتَاوَى فُقَهَاء إسكندرية بقتْله وعللوا ذَلِك بخوف الْفِتْنَة من ضعفاء نفوس الْمُسلمين[1]

وفى نهاية الأرب يذكر عنه: هذا الحبيس من نصارى مصر، وكان فى ابتداء أمره من كتاب صناعة الإنشاء، ثم ترهب وانقطع فى جبل حلوان. فيقال إنه وجد فى مغارة منه مالا للحاكم العبيدى كان قد وضعه هناك، فتصدق هذا الحبيس على الفقراء من سائر الملل. واتصل بالسلطان خبزه فطلبه، وطلب منه المال، فقال: «أما أنى أعطيك من يدى إلى يدك فلا يتصور، ولكنه يصل إليك من جهة من تصادره ولا يقدر على ما تطلبه منه، فأساعده بمال يحمله إليك» وشفع فيه، فأطلقه السلطان. ولما كانت واقعة النصارى المتقدمة، كان يحضر عند مشد المستخرج، ومن عجز عن أداء ما قرر عليه ساعده به وأداه عنه، نصرانيا كان أو يهوديا. وكان يدخل إلى الحبوس ويطلق منها من عليه دين ويقوم بما عليه. وكان يعطى ما ينافر العقول. وتوجه إلى الصعيد، ودفع عن أهل الذمة أكثر ما قرر عليهم، وتوجه إلى الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم من بذل الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاء إلى السلطان بقتله، وعللوا ذلك: «خوف الفتنة». فوافق ذلك رأى السلطان فأحضره فى سنة ست وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن يعرفه من أبن أصله، وكيف حصل له، فلم يعرفه وجعل يغالطه ويدافعه، إلى أن أيس السلطان منه فعذبه حتى مات. وأخرج من القلعة ورمى بظاهرها على باب القرافة. وذكر أن مبلغ ما وصل إلى بيت المال وما واسى به من مدة سنين: ستمائة ألف دينار عينا، مما أحصى بقلم الصيارفة الذين كان يجعل الأموال عندهم ويكتب إليهم أوراقه بما يعطيه. وذلك غير ما كان يعطيه سرا من يده[2]، وفى الدليل

[1]) الوافى بالوفيات للصفدى ج 10 ص 203-204

2) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين النويري ج 30 ص 151-152

الشافي يذكر: كان له حكايات غريبة فى كثرة المال وكان معاصراً للظاهر بيبرس ومات قتيلاً تحت العقوبة سنة ست وستين وستمائة هـ ولم يعترف بما له من أين ظفر به[1]

السديد الماعز النصراني

هبة الله الْمَعْرُوف بالسديد الماعز القبطي النَّصْرَانِي مُسْتَوْفِي المملكة كَانَ ماهرا فِي الْحساب مقما على أَبنَاء جنسه مَعْرُوفا بالأمانة وَله مكانةٌ وافرة عِنْد الْملك الْمَنْصُور قلاوون والوزير يستضيءُ بِرَأْيِهِ وَلم يكن لأحد مَعَه كلامٌ وَكَانَ فِيهِ خدمَة وتودّد ومدُاراة وإقالةٌ للعثرات متمسِّكاً بملته كثير الْإِحْسَان وَالصَّدقَات على النَّصَارَى توفّي سنة إِحْدَى وَثَمَانِينَ وسِتمِائَة ورتب السُّلْطَان بعده ولدَه الأسعَد جُرجس مكانَه فتضاعفت مَنْزِلَته وشُكِرت سيرته والسديد هُوَ خَال الصاحب أَمِين الدّين أَمِين الْملك[2].

ويذكر ابن أيبك الصفدى: السديد الماعز النصراني هبة الله المعروف بالسديد الماعز القبطي النصراني مستوفي المملكة، كان ماهرا في الحساب مقما على أبناء جنسه معروفا بالأمانة، وله مكانة وافرة عند الملك المنصور قلاوون، والوزير يستضيء برأيه، ولم يكن لأحد معه كلام، وكان فيه خدمة وتودد ومداراة وإقالة للعثرات، متمسكا بملته، كثير الإحسان والصدقات على النصارى، توفي سنة إحدى وثمانين وستمائة، ورتب السلطان بعده ولده الأسعد جرجس مكانه، فتضاعفت منزلته وشكرت سيرته، والسديد هو خال الصاحب أمين الدين أمين الملك[3].

الرضى كاتب شهاب الدين قلاوون

لما ملك مصر شهَاب الدين، أحمد ابن الملك النَّاصِر محمد بن قلاوون أمسك جماعة من الأُمراء، وظلم وعسف. ثم بدا له أن يترك مصر ويتوجه إلى الكرك؛ ففعل ذلك وسَار إلى الكرك ومعه الأَموال والذخائر، وترك الأمراء والعساكر بالقاهرة وأقام بالكرك؛ فاضطربت

1) الدليل الصافى على المنهل الصافى ص 203

2) الوافى بالوفيات للصفدى ج 27 ص 194

3) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي جـ 27

أحوال الديار المصرية، وكاتبوه الأمراء فِي الحضور إِلَى مصر مراراً عديدة، وهو يسوف بهم من وقت إلى وقت وترد مكاتباته إلى مصر بِخَط نصراني كان مقربا عِنْده يعرف بالرضى[1].

هبة الله المعروف بالسديد الماعز القبطى

هبة الله المعروف بالسديد الماعز القبطى النَّصرانيّ، مستوفي المملكة. كَانَ ماهرا فِي الحساب، مُقَدمًا عَلَى أبناء جنسه، معروفا بالأمانة، وله مكانة وافرة عند الملك المنصور، والوزير يستضيء، برأيه. وما عَلَى يده يد وكان فِيهِ خدمة وتودُّد ومُداراة وإقالة لعَثَرات الكُتّاب، متمسكا بمِلْته، كثير الإحسان والصّدقات على النّصارى. مات فِي عاشر المحرّم، وهو فِي عشْر السّبعين بالقاهرة. ورتّب السّلطان ولده الشّيْخ الأسعد جرجس مكانه، فتضاعفت منزلته، وشُكِرت سيرته[2].

وجاء عنه فى ذيل مرآة الزمان: هبة الله الملقب بالسديد النصراني القبطي المنيوز بالماعز. مستوفى الديار المصرية وقوانينها وأحوال المملكية، لا يشاركه في ذلك مشارك، وكان مدار الوزارة عليه، والوزير يستضئ به في سائر الأحوال، وكان رجلاً جيداً، كبير المروءة، والخدمة للمسلمين، والتودد إليهم، والترصد لقضاء حوائجهم، وعنده رياسة وبراهة وعفة، وستر على عورات الكتاب، وعدم مؤاخذة لمن يقصده بضرر، متمسكاً بدينه وشريعته، كثير الصدقة على فقراء النصارى، ويتصدق على فقراء المسلمين أيضاً، ولم يكن في أهل ملته من يضاهيه في وقته، وكانت وفاته بالقاهرة يوم الاثنين عاشر المحرم وهو في عشر السبعين، ورتب ولد الأسعد جرجس مكانه، وتضاعفت منزلته، وفعله للخير، ومنافسته في المعروف، وفعل الجميل مع المسلمين بحيث أطلقت الألسن بشكره، والثناء عليه، ثم أسلم فيما بعد[3].

ابن النحال كاتب الملك العادل

كان قد اتصل الصاحب صفى الدين الخدمة العادلية فى أواخر الأيام الناصرية. فلما مات ابن النّحّال النصرانى كاتب الملك العادل تقدم صفى الدين، فرآه شهما مقداما فقدمه،

1) مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة لابن تغرى ج 2 ص 74-75

2) تاريخ الاسلام لابن قايناز ج 51 ص 92-93

3) ذيل مرآة الزمان لليونيني ج 4 ص 178-179

وتمكن من دولته. فلما كانت حادثة الأفضل، ورجوعه عن دمشق بعد حصارها، وخرج العادل فى طلبه اجتاز بالبيت المقدس، ومعه صفى الدين، فتحلف معه أنه إن قدّر الله تعالى له بملك الديار المصرية، يمكنه من المصريين، وحلفه على ذلك فحلف له[1]

المهذب كاتب القاضى كريم الدين الكبير

فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة هـ وفيها مسك ابن هلال الدولة، وعبد الله بن كريم الدين الكبير، وولدى كريم الدين الناظر، وهما أبو الفرج ورزق الله، وأعيد الطلب على ولدى التاج إسحق، وهما شمس الدين موسى وأخوه علم الدين. وكذلك طلب بالحمل أمين الملك المعروف بقريميط المستوفى، بعد أن كان قد أعفوه هذه المدة من حث الطلب. وسبب ذلك أنه كان كاتب يسمى المهذب أصله نصرانى، رباه شخص يعرف بابن الحايك من أهل الإسكندرية. وخدم هذا المهذب عند كريم الدين الكبير مدة أيامه. وحصل فى تلك الأيام أموالا جمة. فلما مسك كريم الدين فى تأريخ ما تقدم ذكره خدم المهذب المذكور بديوان الأمير المرحوم سيف الدين بكتمر الساقى. وكان هذا الأمير المذكور عبارة عن مولانا السلطان، وله من مولانا السلطان منزلة لم يكن وصلها أحد من قبله ولا وصلها أحد من بعده، حدثنى هذا المهذب ذات يوم وأنا عنده فى بيته لضرورة كانت لى عنده، وأجرينا ذكر التأريخ، وذكرنا من سلف من الناس والأكابر من الأمرا وغيرهم الذين كانوا خصيصين بتلك الملوك المتقدمة. فقال المهذب للمملوك: مولانا ورخ عنى ما أقوله لخدمتك عن المخدوم، يعنى عن الأمير سيف الدين بكتمر: إننى منذ خدمته فى سنة ثلاث وعشرين وسبع ماية وإلى

1) نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين النويري ج 29 ص 55

هذا اليوم مدة عشر سنين، ما خلا حسابى قط يوما واحدا من إنعام يتجدد، من مولانا السلطان للمخدوم من ساير الأنواع المستحسنة من إنعامات الملوك. - ثم رمى إلى حسابه، فتصفحته فإذا هو كما قال، يشهد بإنعام يتجدد للأمير فى كل يوم، تشهد بذلك موايمته: إما ملك، إما عقار، إما ذهب، إما قماش، إما فرس، إما طاير جارح، وما أشبه ذلك. قال: وهذا خارج عن المقرر له فى كل يوم مخفيتين طعام وأتباعها من حلو أو مشروب وفاكهة. وثمنا هذه المخفيتين بألف وأربع ماية درهم، نأخذها من الخزانة مشاهرة. ثم إن مولانا السلطان عز نصره أطلق يد الأمير سيف الدين بكتمر المذكور فى جميع الممالك، لا يرد له مرسوم فى ساير الممالك الإسلامية. فهل عندك فى التأريخ من وصل من ملك من الملوك هذه المنزلة؟ -يقول المهذب هكذا م إن هذا المهذب استسلمه مولانا السلطان من تحت السيف، واستمر فى خدمة الأمير سيف الدين بكتمر الساقى رحمه الله إلى أن توفى فى طريق الحجاز، حسبما تقدم من ذلك. وحصل المهذب فى أيامه وبعد موته من تركته باتفاقه مع ابن هلال الدولة من الأموال والذخاير والأمتعة ما لا يقع عليه قياس. ثم خدم فى ديوان النجل الشريف السلطانى، متعه الله بطول حياة أصله الشريف الطاهر، وجعله فرعا باقيا باسقا مثمرا زاهر. ثم انتقل إلى خدمة ديوان المقر الشريف السيفى بشتاك الناصرى، فاستمر فيه إلى أن هلك فى شهر شعبان من هذه السنة. ونزل إليه القاضى شرف الدين النشو ناظر الخاصات الشريفة السلطانية، والأمير بدر الدين لؤلؤ شاد الدواوين المعمورة، فوجدوه ملقى على حصير ونطع، ولم يجدوا فى بيته شيئا له قيمة. وكان المهذب رجلا مترهبا ليس له زوجة ولا ولد وتسحبوا أهله وغلمانه وعبيده وتركوه على هذه الحالة المذكورة. وأخرج ودفن، واستمر الحال كذلك إلى شهر ذى الحجة من هذه السنة. فوقع أبوه وعمه نصرانيان، فاعترفا بجملة كبيرة من الأموال. وأخرجوا عدة دفاين من عدة أماكن، بها آلاف من ذهب عين مختوم. ومن جملة ما وجدوه له فى كنيسة بحارة الروم بالقاهرة المحروسة ذهب كثير، لم أحرر زينته، وقماش ومتاع بجملة كبيرة. وفى الجملة دواة ومرملة مرصعتان بفصوص عظيمة القدر. ذكر أن صاحب حماة كان أحضرها فى وقت تقدمة لمولانا السلطان. فأنعم بها مولانا السلطان عز نصره على الأمير سيف الدين بكتمر فى يوم من تلك الأيام المذكورة بالإنعامات. فلما توفى الأمير سيف الدين رحمه الله، أخذها المهذب فى جملة ما أخذ من تركته. فلما أحاطت العلوم الشريفة بما وجد لهذا الكاتب من الأموال التى تخامر العقول، تحقق نصره الله أن هذا بعضه ما هو عند ابن هلال الدولة، إذ كان هو

الأصل وهذا المهذب فرع منه، وكذلك بقية الكتبة المذكورين، فطلبوا بذلك والحال مستمر فى حث الطلب عليهم إلى آخر هذا الشهر، وهو شهر ذى الحجة سلخ سنة خمس وثلاثين وسبع ماية، والله تعالى الولى المالك، أعلم بما يتجدد بعد ذلك[1]

حسنون النصراني متولى خراج مصر

فى سنة ست وعشرين وثلاثمائة هـ الخليفة فيهما الراضي بأحكام الله أمير المؤمنين. والأمير طغج مستقلا بمصر. وعاد أمر الخراج إلى حسنون النصراني. ومات أبو زرعة وفوض الحكم وديوانه إلى محمد بن بدر، وكاتب فيه الأمير طغج القاضي ابن أبي الشوارب فاستقر به[2]. وفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة الخليفة الراضي بأحكام الله أمير المؤمنين. وفيها ظهر ابن رائق وطلب الشام، وخرج إليه الأمير محمد بن طغج الإخشيد-لقب بذلك في هذه السنة وجرى بينهما حروب. وعاد ابن رائق ولم يظفر بشيئ وخراج مصر بين الكرجي وحسنون النصراني. وابن بدر ينظر في أمور الناس[3].

رفاييل النصراني كاتب الجيزة

1) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدواداري ج 9 ص 394-397

2) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدواداري ج 5 ص 393

3) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدواداري ج 5 ص 394-395

فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة هـ وفيه قرر رفاييل النصراني كاتب الجيزة في بطركة النصارى اليعاقبة عوضا عن متى بعد موته[1].

مهندس نصراني

فى أيام الملك الأشرف ابي النصر قايتباي أراد بناء المدرسة الأشرفية المنسوبة له بالقدس سنة ست وثمانين وثمانمائة في يوم الخميس رابع عشر المحرم دخل قاضي القضاة محيي الدين أبو الفضل عبد القادر بن جبريل الغزي الشافعي الى القدس الشريف متوليا قضاء الشافعية بالقدس والرملة ونابلس عوضا عن القاضي فتح الدين ابن الاسيل بعد شغوره عنه لغيبته من شهر رمضان سنة اربع وثمانين وكانت ولاية القاضي محيي الدين من اواخر سنة خمس وثمانين وقرئ توقيعه في يوم الجمعة ثاني يوم دخوله وفيها سير السلطان الى القدس الشريف من القاهرة جماعة من المعمارية والمهندسين والحجارين لعمارة مدرسته فحضر معهم شخص نصراني من المهندسين بالقاهرة له حذق في الهندسة فلما رأى المجمع السفلي المبني بالمسجد بلصق الرواق لم يعجبه فقصد هدمه بكماله ثم اقتضى الحال هدم بعضه من القبلة فهدم وهدم ايضا ثلاث قناطر من الرواق مما هو ملاصق للباب المتوصل منه الى المنارة واجتهد المهدسون والصناع من المصرين في العمارة وكان المتولى لذلك القاضي فخر الدين بن نسيبة الخزرجي[2]

ابن قلا النصراني الكاتب

اسحاق بن إبراهيم بن قلا يكنّى بأبي يعقوب النصراني الكاتب، استدعاه أبو على الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بابن زنبور وهو يتقلد خراج مصر أمانة وقال له: إني قد طولبت من الحضرة بالحساب لأربع سنين فكن عند ظني بك وأخرج الحساب وقم بالكلام فيه، فقال: أفعل، وانصرف ليتجه فجاءته رقعة أبي علي ومعها عشرة آلاف دينار ليتحمّل بها وكتب له على دمشق بخمسة آلاف دينار وإلى بغداد بعشرة آلاف دينار فأتى إيه وقال: يا سيدي وما أصنع بهذا كله؟ فقال: إنه عليك فى بغداد مؤونة وإن احتجت إلى شيء آخر فخذ

1) نيل الأمل فى ذيل الدول للقفطى ص 27

2) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لابن العليمي الحنبلى ص 326

من فلان وأكتب له على سفاتج عليّ فسار بالحساب إلى أن دخل على الوزير عليّ بن عيسى الجراح فلما مثل بحضرته قال له: أنت صاحب أبي زنبور؟ فقال: أنا صاحب خادمك الحسين الحسين بن أحمد، قال: لعمري إنه الحسين بن أحمد ولكن أنت صاحب أبي زنبور، فقال أنا صاحب خادمك الحسين بن أحمد، فقال: كم هذا؟ أنت صاحب أبي زنبور! قال: أنا صاحب خادمك أبي عليّ الحسين بن أحمد أيده الله ببقائك! فقال: أنظروا موضعاً من الديوان يكون فيه ووكلوا به من يكون معه، قال إسحق: ما سمعت بهذا! رجل ليس قِبله تبعة وإنما ورد بقراطيس فيها حساب بما ليس فى زمنه والله ما أبالي بطل أو صحّ، فقال الوزير: إنه ثمانية آلاف دينار، فراجعه مراراً إلى أن قال للوزير شاب في مجلسه: عليّ ضمانة أيد الله الوزير، فقال الوزير: يا هذا أنه ثمانية آلاف دينار، فقال: تكون ماذا؟ فقال الوزير: خذوا خطه، فأخذ الشاب الداوة والدرج فقال إسحق لبعض من حضر: من هذا؟ فقال: هذا ابن حواري، فلما كتب وقرأه الوزير قال لإسحق: انصرف حيث شئت، ففخرج إسحق ووقف على باب الوزير إلى أن خرج ابن حوارا فدعا له وشكره وقال له: أعان الله على شكرك ومكافأتك، ومشى معه إلى داره فلما وصلها قال: يا سيدي أين تأمر أن أكون؟ فألتفت إليه وقد حرد وقال: فى لعنة الله أتراني ضمنتك أحفظك؟ حرج عليك ألا ركبت الساعة البرّية أو سفينة ومضيت إلى مصر والله لولا أن تظنّ أنه احتياط عليك لما أنزلتك إلا فى داري ولكن أكتب إلى صاحبك أنّ له بظهر الغيب من يعمل هكذا

فأقام إسحق بالعراق ما شاء وكتب بذلك إلى أبي عليّ وكتب إلى أولاده كتاباً يتشوق فيه إليهم فدخل إبناه إلى أبي عليّ فعندما رآهما قال: جاءكما كتاب أبي يعقوب؟ قلا: نعم وتدمعا، فقال: إيش هذا؟ شوقاً إليه؟ عن قريب يأتي بمشيئة الله تعالى كما نختار ولكن بكّروا لديّ في غد لمهم أذكره لكما، فبكرا إليه فوجدا أربع جمازات نوق واحدة عليها قبة والأخرى جنيبة مجهزة واثنتان محملة بما يحتاج إليه فحُملا فى القبة وأنفذا إلى أبيهما فلم يشعر حتى دخلا عليه في بغداد فقال: إيش هذا؟ فحدثاه الحديث فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله أمِتني فى أيامه، فلم يزالا معه حتى قدم بهما إلى مصر فعمل معه أبو عليّ على أضعاف ما عمل قبل خروجه وكان ذلك بعد سنة ثلاثمائة هـ[1]

ويذكر أيضاً أنه لما وليّ علي بن عيسى الجراح الوزارة فى أيام المقتدر بالله طالب أبا زنبور بحساب مصر لأربع سنين عنها ثمانية عشر ألف دينار فبعث إليه بحسابها مع أبي يعقوب

1) المقفى الكبير للمقريزي ج 2 ص 50-52

إسحاق بن قلا الكاتب فدفع إليه ثلاثة آلاف دينار وكتب له عن دمشق بخمسة آلاف دينار وأحاله على رجل في بغداد بعشرة آلاف دينار فأصلح أمره وعاد فعمل معه أضعاف ذلك[1]

الأسعد غبريال النصراني

لما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد أن سار إلى دمشق سنة اثنتى عشر وسبعمائة هـ، وليّ بدر الدين محمد بن التركماني شدّ الدواوين وكريم الدين أكرم الصغير نظر الدواوين فأتفقا على ابن الغنام نَمَّما عليه عند السلطان أنه أخذ مالاً كثيراً بدمشق من المصادرين ولم يحمل منه إلا ما قلّ وساعدهما كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص فقبض عليه فى يوم الخميس سابع عشر جمادي الأول سنة ثلاث عشرةو وسبعمائة هـ وعلى الأسعد غبريال النصراني كاتب الأمير أرغون النائب لاتفاقه مع ابن الغنام على مرافعة كريم الدين الكبير ابن هبة الله وقبض أيضاً على العلم كبيبة كاتب منكلي بغا بهذا السبب أيضاً وأحضر الثلاثة إلى السلطان فضرب بحضرته إبن الغنام نحو الستين عصا وضرب غبريال بالمقارع وضرب كبيبة بالعصا[2].

ويذكر ابن أيبك الصفدى: إنه كان خصيصا عند الصاحب أمين الدين ابن الغنام وكان كثير الأذى والمرافعة فسلمه الناصر للعلم سنجر الخازن فضربه بالمقارع وصادره ومات بعد أسبوع من العقوبة[3].

الوزير فخر الدين ماجد بن قروينة

فى سنة ثمانية وستون وسبعمائة هـ فى شهر صفر توفى الوزير الصاحب ناظر الخاص فخر الدين ماجد بن قروينة ومات وهو تحت العقوبة وكان من أبناء النصارى وباشر الوزارة والخاص وكان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب وكان مصروف الرواتب فى أيامه فى كل شهر ستين ألف دينار ثم تغير خاطر السلطان عليه فقبض عليه وعذبه عذاباً شنيعاً وضرب بالمقارع ولفّت

---

1) المقفى الكبير للمقريزي ج 3 ص 471

2) المقفى الكبير للمقريزى ج 4 ص 457

3) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي جـ 2

أصابع يده اليمنى بالمشاق وغمست فى الزيت ثم بعد ذلك أشعلت بالنار حتى احترقت يده كلها، وكان عنده رقاعة وشمم وكبرياء وهو صاحب الغيط الذى بجزيرة الفيل[1]

بانوب النصراني

ومن الحوادث فى جمادى الآخرة سنة أربعة عشر وتسعمائة هـ أن عبد العظيم الصيرفى رافع صلاح الدين بن الجيعان وقال: أن أثبت فى جهته أربع مائة ألف دينار أخذها من الخزانة فى أيام الملك الناصر محمد بن قايتباى فمال السلطان إلى هذا الكلام ورسم على صلاح الدين بن الجيعان وعلى علم الدين كاتب الخزانة وبانوب النصراني وقرر عليهم مائة ألف دينار ثم قبض على تاج الدين بن كاتب الدواليب وقرر عليه عشرة آلاف دينار واستمروا على وهم فى الترسيم حتى يكون من أمرهم ما يكون[2].

الشيخ يونس النصرانى

وفى يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشورن وتسعمائة هـ كان عيد الفصح عند النصارى وهو أول يوم من الخماسين وهو أكبر أعياد النصارى فحكى عن الشيخ يونس النصرانى مباشر ملك الأمراء أنه صنع فى هذا العيد خمسين بطة من الدقيق برسم الكعك والشختنانك والقربان واثنى عشر قنطار سيرج وعشرة قناطير سكر وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض التى تفرق على الناس ودخل عليه تقادم من الأعيان أشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك وقدم إليه نحو ألفين وردة[3]

ميخائيل بن إسرائيل النصراني

ميخائيل بن إسرائيل النصراني اليعقوبى المدعو ولى الدولة أخو سعد الدين إبراهيم المدعو فى صغره بهبة الله أسلم أبوهما وإبراهيم صغير فلحقه وخدم الكمال بن البارزى وعظم وثوقه به وحج به ثم خدم غيره من كتاب السر ثم الأتابكية إلى أن أمسكه الأشرف قايتباى بعد هلاك أخيه وأخذ منه ما أفتقر بسببه إلى أن طلبه الولوى الأسيوطي فأستكتبه فى

---

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس الحنفى ج 1-2 ص 64

2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 4 ص 136-137

3) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 5 ص 448

أوقاف الحرمين ثم طلبه أمير سلاح تمراز وألبسه ديوانه عوضاً عن إبراهيم بن كاتب غريب، هلك ميخائيل فى ليلة الجمعة سادس عشر ربيع الثانى سنة ثمان وسبعين وثمانمائة هـ وكان يخدم فى الاسطبلات القلعية ثم أستقر به الجمالى يوسف بن كاتب جكم فى الخدمة فى الخاص بعد هلاك نصراني آخر ملكى يلقب الشيخ السعيد وأختص به فلما ولى نظر الجيش خدم عنده فيه أيضاً بعد موته تكلم فى كثير من جهات الذخيرة وكذا خدم فى الجوالى وغيرها ويذكر بمداراة وإحتمال ومزيد خبرة بالمباشرة وبذل كثير للمسلمين وغيرهم بل ذكر بعض ذوى الوجاهات من نواب القضاة ممن له علقة فيما يباشره أنه أكثر التردد إليه بسببها وهو يسوف به وأنه قال له ما تخاف عاقبة ترددى إليك فقال له: قد استفتيت فلاناً وسماه أهل على مؤاخذة فى تردد الفقهاء ونحوهم إلى فى حوائجهم فقال: لا قال الحاكى، فقلت له: لو علم منك التسويف مع القدرة على مرادهم من أول مرة ما أفتاك بهذا، والأمر وراء هذا وآل أمره إلى أن ضربه الأشرف قايتباى على مال كثير بإغراء عبد الكريم بن جلود ضرباً مؤلماً كان سبب هلاكه واستمر فى جهاته بنصراني آخر ملكى يقال له إبراهيم عرف به[1]

يعقوب المجد بن منقورة

يعقوب المجد بن منقورة كان كاتب بيت المال ثم استقر فى صفر سنة ست وستين وثمانمائة هـ فى نظر الدولة فلم يلبث سوى ثلاثة أيام وضربه السلطان ضرباً مبرحاً كاد يموت منه ووضعه فى الحديد وسلمه للوالى على مال كثير آل أمره فيه إلى ثلاثة آلاف دينار باع فيها تعلقاته وأثاثه وأقترض وصار مثلة[2]

الأسعد إبراهيم النصراني

فى سنة ثمان وسبعون وستمائة هـ فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال حنق الملك المنصور على النصارى خصوصاً كتاب جيوش المنصورة وصرفهم وأمر أن يستخدم كتاب

---

1) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ج10 ص 194

2) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ج10 ص287

مسلمون ورتب القاضى أمين الدين شاهد صندوق النفقات فى كتابة الجيش عوضاً عن الأسعد إبراهيم النصراني[1]

ماجد بن قروينة الصاحب الكبير فخر الدين القبطي

ولى وزارة دمشق أشهراً ثم طلب إلى مصر فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وسبعمائة هـ وولى الوزارة ونظر الخاص عن فخر الدين ماجد بن خصيب، قال بعض المؤرخين: كان وزيراً عارفاً ذا حرمة ونهضة لم يلِ الوزراة أحد فى الدولة التركية من الأقباط مثله لأنه عمر بيوت الأموال بالذهب والفضة وكذلك خزائن الخاص وغيرها وترك فى الأهواء مُغَلَّ ثلاث سنين وبعض الرابعة وكان بيت السلطان وبيت الأمير يلبغا مُكْفَّى ويُعطي بعد ذلك كله للأمير يلبغا فى كل شهر ستين ألف دينار، وقال غيره: كان كثير الظلم غشوماً مظهراً لكراهية أهل العلم مترفعاً عليهم، قبض عليه بعد قتل الأمير يلبغا فى جمادى الأولى وصودر وعوقب بأنواع العقوبات إلى أن هلك فى الشهر الآتي وأراد العوام رجم جنازته ودفن وطمس قبره حتى لا ينبش[2]

المعلم غالى

كان لخلو الخزينة من النقود وعدم وجود موسرين بالبلاد يؤخذ منهم ما يُحتاج إليه على سبيل الإقتراض، وتأخر المعلم غالى باش محاسبجى فى ستة آلاف كيس، أصدر الباشا أمره إلى كيخيا بك بطلب هذا المبلغ أو حبسه حتى يفيه، فطلبه الكيخيا فأعتذر المعلم غالى بأن هذا المبلغ متأخر على الأهالى وأنه ساع فى تحصيله وطلب مهلة قليلة فلم يقبل منه الكيخيا وأمر بحبسه وحبس أخيه فرنسيس وخزنداره المدعو سمعان، ثم وشى به عند الكيخيا

---

1) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص58

2) تاريخ ابن قاضي شهبة ج3 ص301-302

طائفة من الأقباط وعرفوه بأنه إذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس، فأشترط عليهم الكيخيا أنه إن لم يظهر على المعلم غالى هذا المبلغ يكونوا ملزمين بالباقى فقبلوا هذا الشرط وهم المعلم جرجس الطويل ومنقريوس البتانونى وحنا الطويل، ولما أبطأ المغلم غالى فى دفع ما طلب منه أمر الكيخيا بضرب أخيه أمامه وبضربه هو أيضاً وبضرب خازندراه، ثم أفرج عن أخيه وخازنداره ليسعيا فى تحصيل المطلوب.

أما سمعان فمات من أثر الضرب لأنه ضرب ألف كرباج، وأما فرنسيس أخو المعلم غالى فسعى فى أداء المطلوب ببيع ما يملكونه من منقول وعقار، ثم توسط له لدى الباشا المسيو (بوزارى) طبيبه الخاص فقبل منه الباشا ذلك وأمر بإخلاء سبيل المعلم غالى بشرط أن يدفع أربعة عشر ألف كيس، وألزم معارضيه جرجس الطويل ومنقريوس البتانونى بدفع أربعة آلاف كيس[1].

وفى شوال سنة 1225 هـ فيه نزلت طبلخانة الباشا إلى بيت المعلم غالي، واستمروا يضربون النوبة التركية ثلاثة أيام العيد ببيته، وكذلك الطبل الشامي وباقي الملاعيب، وترمى لهم الخلع والبقاشيش. وفي سابعه حضر المعلم غالي وطلع إلى القلعة، وخلع عليه الباشا خلع الرِّضَى وألبسه فروة سمور وأنعم عليه ونزل له عن أربعة آلاف كيس من أصل الأربعة وعشرين ألف كيس المطلوبة في المصالحة، ونزل إلى داره وأمامه الجويشية والأتباع بالعصي المفضضة، وجلس بدكة داره وأقبل عليه الأعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه، والتهنية له بالقدوم المبارك، وأما المعلم منصور ضريمون، فجبروا خاطره بأن قيدوه بخدمة بيت إبراهيم بك ابن الباشا الدفتردار، وقيدوا رفيقيه في خدم أخرى[2].

وفى أواخر شهر صفر سنة 1230 هـ التزم المعلم غالي بمال الجزية التي تُطلب من النصارى على خمسة وثمانين كيسًا؛ وسبب ذلك أن بعض أتباع المقيد لقبض الجوالي قبض على شخص من النصارى، وكان من قسوسهم، وشدد عليه في الطلب وأهانه، فأنهوا الأمر إلى المعلم غالي ففعل ذلك قصدًا لمنع الإيذاء عن أبناء جنسه، ويكون الطلب منه عليهم ومنع المتظاهرين بالإسلام عنهم[3].

---

1) البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية ص 36

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 382

3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 519

وفى شهر جمادى الثانى سنة 1236 هـ فيه عزم إبراهيم باشا على إعادة قياس أراضي قرى مصر، وأحضر من بلاد الصعيد عدة كبيرة من القَيَّاسين نحو الستين شخصًا. وفي يوم السبت خامسه عدى إلى الجيزة تجاه القصور، وجمع القياسين والمهندسين، وكذلك مهندسي الإفرنج، وقاس كل قياسته وكيفية عمله، فعاند المعلم غالي وأحب تأييد أهل حرفته من قياسي القبط، وقال كلٌّ منهم على الصحيح، وعلم إبراهيم باشا أن قياس المهندسين وأرباب المساحة أصح، ولكنْ فيها بطء، فقال: أريد الصحيح ولكن مع السرعة، بعد أن عمل امتحانًا ومثالًا في قطعة من الأرض يظهر بها برهان الصحة والتفاوت، وأمسى الوقت فأمرهم بالذهاب والرجوع يوم الخميس الآتي، فحضروا كذلك واشتغلوا يومهم بالعمل إلى آخر النهار، ثم اختار من مهندسي الأقباط طايفة وطرد الآخرين[1].

ويذكر إبراهيم الوليلى: أن المعلم غالى كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها لذلك أحبه محمد على باشا، وعول عليه فى الأعمال المالية وركن إليه وعمل برأيه، والمعلم غالى هو الذى غير هيئة الدواوين واستبدالها بأنظم منها، فقسم البلاد إلى مديريات وأقسام، والأطيان قسمهما إلى أحواض وقبائل، وبعد أن غاب المعلم غالى نحو سنة فى الصعيد، وهو يشتغل فى ذلك عاد إلى مصر وكان المتولى إمارة الصعيد محمد بك الدفتردار، فزوده بكتاب منه إلى الباشا يمدح فيه نصحه وسعيه فى فتح أبواب تحصيل الأموال للخزينة فأنه إبتكر حسابات يتحصل منها مقادير وافرة من المال، فقابله الباشا بالرضا ثم إتخذه كاتباً لسره، وخصه بمباشرة الأعمال الحسابية التى ابتكرها، فكانت يده فوق يد الجميع من حكام الأقاليم، وأستمر فى هذا المنصب إلى أن قتل سنة 1821م لأسباب لا تعرف حقيقتها، وظلت جثته فى الخلاء ببلد فى مديرية الشرقية لمدة يومين إلى أن استأذن أحد الأقباط فى رفعها وأخذها ودفنها[2].

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 665-666

2) مفاخر الأجيال فى سير أعاظم الرجال، إبراهيم مصطفى الوليلى ص 31-32

يوسف بك وهبة

كان يشغل ناظر إدارة الأقلام العربية وقسم الترجمة بنظارة الحقانية، ولد عام 1852م وأدخله والده مدرسة الأقباط الأرثوذكس وأظهر فيها نبوغه فى اللغتين العربية والفرنسية، وقد عُين سنة 1588 قبطية كاشاً بالنظارة الحقانية براتب وقدره 250 قرش صاغ، وقد لبث عامين فى هذه الوظيفة يقوم بها حق قيام حتى أستحق مكافأة رؤسائه له فزيد راتبه إلى 500 قرش صاغ فى عام 1590 قبطية، وفى سنة 1875م نقل إلى نظارة الحقانية بوظيفة

مترجم وحصل على راتب قدره 800 قرش صاغ، فأحسن القيام بهذه الخدمة مظهراً الإخلاص والاجتهاد، وفى يوليو سنة 1884م تم ترقيته إلى رياسة قلم الترجمة بالنظارة براتب قدره أربعة آلاف قرش صاغ، وفى سبتمبر 1885م عين ناظراً لإدارة الأقلام العربية وقسم الترجمة بالنظارة براتب قدره خمسة آلاف قرش ديوانى.

وقد عين بعد ذلك فى حملة مأموريات وعين كاتب سر لجنة تحقيق مسألة عصيان العرابيين وذلك فى سنة 1883م، ثم عين كاتب سر اللجنة التى شكلت تحت رياسة ناظر الحقانية لتحضير القوانين اللازمة للمحاكم الأهلية وترتيبها وقد أوكل له بترجمتها أيضاً، وفى يونيو سنة 1887م أنعم عليه برتبة المتمايز، وقد ألف كتاباً يدعى شرح قانون التجارة بالاشتراك مع عبد العزيز بك كحيل، ثم شرح القانون المدنى بالاشتراك مع شفيق بك منصور، وفى ديسمبر 1890م رافق ناظر الحقانية والمستر سكوت مستشار الحقانية فى الوجه القبلى لتفقد أحوال محاكمها فأشترك معهم فى تفتيشها وأعطاء الملحوظات على سيرها[1].

قليني بك فهمى

ولد فى المنيا بالوجه القبلى عام 1852م، واسم والده يوسف بك عبد الشهيد وكان من كبار وجهاء رجال الصعيد، وقد دخل المذكور المدرسة الكبرى لطائفة الأقباط الأرثوذكس فأتقن فيها اللغة العربية والفرنساوية وتخرج من المدرسة سنة 1873م وعمل بوظيفة مترجم فى ديوان عموم فبريقات الدائرة السنية بمدينة المنيا، ثم نظراً لكفاءته ترقى إلى وظيفة معاون أول وباش مترجم الديوان فى شهر إبريل عام 1881م، وفى سنة 1882م عين وكيلاً لديوان عموم الجفالك ولما رأى سلطان باشا نبوغه أنعم عليه بالرتبة الثالثة، ثم مرض بعد ذلك فى بألام شديدة فى معدته فذهب إلى أوربا للعلاج ومكث بها ستة أشهر حتى تم شفاؤه ثم عاد مرة أخرى وستلم واستلم وظيفته بكل جد واجتهاد لذلك كافأته الحضرة الخديوية بالرتبة الثانية عام 1883م، وفى سنة 1884م عين عضو بقومسيون تصفية الدائرة براتب قدره 4000 قرش صاغ و 1000 قرش بدلية فأنعكف على العمل بمزيد من الاخلاص، وفى سنة 1885م عين عضواً بكوميته الدائرة المتقدمة وزيد راتبه إلى 5000 قرش وأنعم عليه الجناب العالى فى سنة 1887م برتبة المتمايز، وفى سنة 1888م أنعم عليه الخديوي بالنيشان

1) دليل مصر: تاريخ أشهر رجال العصر بمصر، تأليف يوسف آصاف ص 303-304

المجيدى، وفى سنة 1890م استدعاه رياض باشا رئيس مجلس النظار وقلده وظيفة ناظر إدارة التحريرات العمومية بنظارة المالية وهى وظيفة ذات أهمية كبرى يتعين على من يتقلدها بأن يكون على دراية تامة وذكاء وافر[1].

يوسف باشا سليمان وزير المالية سابقاً

ولد ببلدة سنديس من أعمال مركز قليوب قليوبية فى 11 فبراير 1862م، وقد توفى توفى والده وتركه وهو طفل صغير فعنى بتربيته شقيقه الأكبر المرحوم عطاالله أفندى سليمان فأدخله مدرسة الأقباط الكبرى بشارع كلود بك بمصر حيث تلقى فيها التعليم الابتدائي

1) دليل مصر: تاريخ أشهر رجال العصر بمصر، تأليف يوسف آصاف ص 317-319

والثانوى وأتقن اللغات العربية والفرنساوية والقبطية، وفى عام 1878م التحق بمدرسة الإدارة وهى مدرسة الحقوق وقد درس فى هذه المدرسة اللغة الإيطالية أيضاً ونال منها شهادة ليسانس فى سنة 1881م.

ألتحق بعد ذلك بوظيفة كاتب ظهورات بمحكمة مصر المختلطة بمرتب شهرى 500 قرش ثم عين كاتباً مستديماً فى تلك المحكمة فى يونيو 1882م بمرتب قدره 600 قرش، وفى نوفمبر 1883م نقل إلى المحاكم الأهلية بالوظيفة عينها بمرتب قدره 800 قرش، وفى إبريل 1884م عين مساعداً للنيابة وألحق بنيابة محكمة مصر الإبتدائية الأهلية ثم ترقى إلى درجة وكيل بالنيابة عينها وصار يتدرج فى هذه الوظيفة من الدرجة الثالثة للثانية إلى أن عين وكيلاً بالدرجة الأولى، ثم بعد ذلك تم ترقيته إلى رئيساً لنيابة محكمة مصر فى ديسمبر 1890م، وفى سنة 1902م أنتدب رئيساً بنيابة الاستئناف، ثم نقل قاضياً بمحكمة المنصورة المختلطة فى مارس سنة 1906م، ثم نقل قاضياً فى محكمة مصر المختلطة فى نوفمبر 1909م، ثم ترقى إلى وظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية فى مارس 1916م.

فى مايو سنة 1920م تولى منصب وزير للزراعة فى عهد وزارة محمد توفيق نسيم باشا الأولى، وبعد أن أستقالت هذه الوزارة وبعد تشكيل الوزارة برئاسة محمد توفيق نسيم باشا للمرة الثانية عين صاحب الترجمة وزيراً للمالية فى نوفمبر 1922م إلى أن أستقالت الوزارة فى فبراير 1923م.

يوسف باشا سليمان صاحب الترجمة كان من ضمن الوفد الذى عينه الملك فؤاد الأول لمفاوضة الحكومة الإنجليزية فى سنة 1919م وكان هذا الوفد الى رأسه عدلى باشا يكن يتألف من حسين رشدى باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا واحمد طلعت باشا ويوسف سليمان باشا وغيرهم.

وقد أنتخب يوشسف باشا سليمان عضواً بالمجلس الملى العام للأقباط الأرثوذكس عام 1890م بطريق الإنتخاب والتى انتهت مدة عضوية صاحب الترجمة بهذا المجلس فى سنة 1891م واستعيض عنه باللجنة الملية التى أختير فيها أيضاً صاحب الترجمة لأن يكون عضواً فيها سنة 1892م، ثم أنتخب عضواً بالمجلس الملى العام للمرة الثانية عام 1906م بطريق الانتخاب، وقد أنتخب مرة أخرى فى سنة 1912م كما أنتخب أيضاً سنة 1918م، إلى أن حاز الوزارة عام 1920م فطلب الإقالة من عضوية المجلس الملى العام.

وقد استقبل صاحب الترجمة عقيلة ولى عهد المملكة الحبشية فى سراى معاليه بعد زيارتها للقدس الشريف، وذلك أنه عندما زارت القدس أرسلت كتاباً لغبطة بطريرك الأقباط تظهر فيه رغبتها فى زيارة مصر حال عودتها لتأخذ بركته وأنها سوف تقيم من أسبوع إلى عشرة أيام، وفى نفس الوقت أرسلت لسكرتير غبطته يوسف الحبشى تلغراف تكلفه فيه بأن يحجز لها ولحاشيتها المؤلفة من أميرة من أمراء البيت المالك وهى الأميرة ويزرو كاسلاورك والدجاز ماتوس الجنرال هيلا ثلاثى وبلانا هروى رئيس محكمة الأجانب والأب ولد مريم كاهن الأميرة وغيرهم جناحاً فى منزل شبرد.

ولما اطلع غبطة البطريرك على هذا التلغراف أرسل كتاباً لسموها يرحب بها وأن غبطته يقترح ويرى أنها فى سراى صاحب الترجمة الكائنة بالعباسية، وفى 14 إبريل 1923م استقبل سمو الأميرة فى محطة مصر مندوب من قبل جلالة الملك وهو سعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء ومندوب آخر من قبل اللورد اللنبى وهو السير سكوت وصاحب النيافة الأنبا متاؤس مطران المملكة الحبشية وعدد كبير من أعيان الأقباط، ثم بعد ذلك نزلت فى سراى صاحب الترجمة.

وفى يوم الأحد التالى 22 ابريل عام 1923م حضرت سموها صلاة القداس بالكنيسة المعلقة بمصر وتناولت الأسرار المقدسة من يد الأنبا متاؤس مطران المملكة الحبشية، وفى عصر ذلك اليوم جاءت الأميرة إلى الدار البطريركية لكى تودع قداسة البابا وركعت عند قدميه بكل وقار وخشوع وكذلك فعل كل رجال حاشيتها، وفى مساء ذلك اليوم أمقامت الأميرة مأدبة فى فندق الكونتننتال لعدد من أكابر الأقباط لكى تعرب لهم عن شكرها وكان فى مقدمة الذين حضروا الأنبا متاؤس مطران المملكة الحبشية والأنبا يوساب مطران كرسى الفيوم والقمص بطرس عبد الملك رئيس الكنيسة الكبرى ويوسف سليمان باشا وكامل بك إبراهيم المستشار بمحكمة مصر الأهلية وفوذى باشا المطيعى وزير الزراعة ونجيب غالى باشا وغيرهم.

ووما يذكر أن الملك فؤاد الأول قد شرف سراى صاحب الترجمة بالعباسية وذلك تكريماً له على إخلاصه وكان معه الأمير ولى العهد، وقد نال صاحب الترجمة من الأوسمة والنياشين الكثير منها، إذ قد منح الرتبة الثانية فى 26 سبتمبر 1892م، والنيشان العثمانى من الدرجة الرابعة فى 2 فبراير عام 1896م، ورتبة البكوية من الدرجة الأولى فى 20 مارس 1916م، ورتبة الباشوية فى 31 مارس 1920م، ووشاح النيل الأكبر فى 2 محرم سنة 1339هـ، ورتبة الامتياز

فى 22 ربيع الثانى 1341هـ، ورتبة الوزارة فى 22 مايو 1922م، وقد قام صاحب الترجمة وأفراد عائلته بتشييد كنيسة كبرى ببلدته سندبيس وهى من أعظم الكنائس رونقاً وأحسنها طرازاً وهى على النمط البيزنطى القديم، كما شيد أيضاً وأفراد عائلته فى البلدة عينها مدرسة للبنين وأخرى للبنات ملحقتين بدائرة الكنيسة لتعليم العنصرين[1].

---

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، تأليف ذكى فهمى ص 185-198

مرقص حنا باشا وزير الأشغال العمومية الأسبق

ولد في مدينة القاهرة في 4 سبتمبر عام 1872م، توفى والده القمص يوحنا وكيل شريعة الأقباط بطنطا سابقاً وهو لم يتجاوز السادسة من عمره، فأدخلته والدته وجده جبران أفندى واصف (الذى كان يعمل باشكاتب في مصلحة السكة الحديد ثم نقل إلى المعية السنية ثم مفتشاً بوزارة المالية) مدرسة الأقباط الكبرى ثم انتقل إلى المدرسة التوفيقية ليدرس بها العلوم الثانوية، ثم أرسلته والدته إلى أوربا ليتمم بها دراسته للعلوم فدخل كلية مونبلييه بفرنسا أولاً ثم كلية فرنسا ثانياً ونال شهادة الليسانس في علم الحقوق وشهادة العلوم الدالة على تفوقه في العلوم والمعارف، ثم عاد إلى الوطن في أواخر 1892م وتم تعيينه في وزارة الحقانية في أواسط 1893م مساعداً للنيابة في محكمة أسيوط ثم تم ترقيته إلى وظيفة وكيل نيابة، بعد ذلك استقال سنة 1898م واشتغل في مهنة المحاماه، وقد ألف صاحب الترجمة كتاباً في نظام الحكومة المصرية جعلته مدرسة الحقوق الملكية بين كتب التدريس ، ثم ألف كتاباً آخر سنة 1899م عن التحقيق الجنائي باللغة الفرنسية.

وقد كان لصاحب الترجمة دور كبير في إعادة تشكيل المجلس الملى العام سنة 1905م وأنتخب عضواً به، وفي سبتمبر سنة 1912م كوفئ على اجتهاده بالرتبة الثانية بناء على طلب الأمير أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة المصرية في ذلك الوقت (وهو الملك فؤاد الأول)، وفي سنة 1914م أنتخب وكيلاً لنقابة المحامين وتم تجديد انتخابه أربعة سنوات متتالية، وقد كان صاحب الترجمة عضواً عاملاً في مجلس إدارة الجامعة المصرية وأستاذاً بها ومديراً لها حتى سنة 1921م ثم قدم أستقالته منها عندما رأى أن روح الحزبية بدأت تدب في مجلس إدارتها، وقد منحه مجلس إدارة الجامعة لقب أستاذ شرف وهو لقب دائم.

وقد أعتقل صاحب الترجمة بصفته نقيباً للمحامين في وزارة ثروت باشا مع أضاء الوفد السبعة في 22 فبراير 1922م، وقد كان صاحب الترجمة من أشد أنصار مصطفى باشا كامل وكان يعمل معه إلى يوم وفاته، وقد احتج على محاكمة دنشواى بكتاب شهير ظهر في الجرائد، وقد عُين وكيلاً للجنة الوفد المركزية على أثر اعتقال محمود سليمان باشا رئيسها وابراهيم سعيد باشا وكيلها، وصاحب الترجمة هو الذى وقع بهذه الصفة على منشور مقاطعة لجنة ملنر الإنجليزية، وقد عين عضو في الوفد المصرى على أثر نفى رئيس الوفد ثم أعتقل في يناير 1922م على أثر امضائه مع أعضاء الوفد بيان الوفد المصرى في دعوة الأمة لمقاطعة الإنجليز وعدم معاونتهم.

وقد أنتخب صاحب الترجمة نائباً بالبرلمان المصرى لقسم الأزبكية يوم 17 نوفمبر 1923م، ثم تم تعيينه وزيراً للأشغال العمومية وتم منحه رتبة الباشوية فى الوزارة السعدية، وفى عهده طهر الوزارة من كبار الموظفين الأجانب وأستعاض عنهم بالوطنيين الأكفاء وأمر برفع اللوحات المكتوبة باللغة الإنجليزية على أبواب أقلام الوزارة ووضع مكانها لوحات باللغة العربية، وفى عهده أصدر الأوامر بالمحافظة على آثار توت عنخ آمون التى وجدت بالأقصر ولما بلغه تعنت اللورد كارنارفون الذى كان مباشراً رفع هذه الآثار بعدم سماحه للمصريين بدخول تلك المقبرة لمشاهدتها وتفضيله للإنجليز على المصريين لذلك أصدر صاحب الترجمة أمراً بالكف عن العمل وتسليم مفاتيح المقبرة لمدير مصلحة الآثار المصرية الذى أوفده صاحب الترجمة خصيصاً لهذه المهمة[1].

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، تأليف ذكى فهمى ص 212-220

تاج الدين فضل الله بن الرملي القبطي

يذكر ابن تغرى: أنه فى السنة الثانية من سلطنة الملك الأشرف برسباي على مصر توفى تاج الدين فضل الله بن الرملى القبطى، ناظر الدولة فى يوم حادى عشرين صفر، بعدما باشر وظيفة ناظر الدولة عدة سنين، وسئل بالوزارة غير مرة فأمتنع واستمر على وظيفته، ومات وقد آناف على الثمانين سنة، وقال المقريزى: وكان من ظلمة الأقباط[1].

تاج الدين ابن سعيد الدولة القبطي

تاج الدين ابن سعيد الدولة القبطي تاج الدين ابن سعيد الدولة القبطي كان يقال له أحمد الكاتب وكان مقدما عند المظفر بيبرس وعرض عليه الوزارة فامتنع فجعله مشيرا على الضياء النشائي وكانت فوطة العلامة تعرض عليه فما ارتضاه كتب عليه يحتاج إلى الخط الشريف وما لا فلا وكان مشهورا بالأمانة والعفة والضبط التام مهابا جدا لأنه كان لا يرد أحدا إذا سأله هو في دسته ومن سأله وهو في الطريق مثلا أمر بضربه بالمقارع وكان لا يخالط أحدا ولا يقبل هدية وكانت وفاته في أوائل رجب سنة 709هـ[2].

شرف الدين عبد الوهاب ابن التاج فضل الله المعروف بالنّشو

فى سنة 740هـ توفّى شرف الدين عبد الوهاب ابن التاج فضل الله المعروف بالنّشو ناظر الخاص الشريف تحت العقوبة فى يوم الأربعاء ثان شهر ربيع الآخر، كان هو وأبوه وإخوته يخدمون الأمير بكتمر الحاجب، ثم خدم النّشو هذا عند الأمير أيدغمش أمير آخور. فلما جمع السلطان فى بعض الأيام كتّاب الأمراء رأى النّشو وهو واقف وراء الجماعة وهو شابّ نصرانىّ طويل حلو الوجه، فاستدعاه وقال له: إيش اسمك؟ قال: النّشو. فقال السلطان: أنا أجعلك نشوى، ورتّبه، مستوفيا، وأقبلت سعادته، فأرضاه فيما ندبه إليه وملأ عينه، واستمر على ذلك حتى استسلمه الأمير بكتمر الساقى وسلّم إليه ديوان سيّدى آنوك ابن الملك الناصر إلى أن توفّى القاضى فخر الدين ناظر الجيش، نقل الملك الناصر شمس

---

1) نيل الأمل في ذيل الدول جـ 4 صـ 126 ؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ 14 صـ 293

2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل بن حجر العسقلاني جـ 1

الدين موسى ناظر الخاصّ إلى نظر الجيش عوضه، وولّى النشو هذا نظر الخاصّ على ما بيده من ديوان ابن السلطان. ووقع له ما حكيناه فى ترجمة الملك الناصر كل شىء فى محلّه. قال الصلاح الصّفدىّ: ولمّا كان فى الاستيفاء وهو نصرانىّ كانت أخلاقه حسنة وفيه بشر وطلاقة وجه وتسرّع لقضاء حوائج الناس، وكان الناس يحبّونه. فلمّا تولّى الخاصّ وكثر الطلب عليه وزاد السلطان فى الإنعامات والعمائر وبالغ فى أثمان المماليك وزوّج بناته واحتاج الى الكلف العظيمة، ساءت أخلاق النّشو وأنكر من يعرفه، وفتح أبواب المصادرات[1].

1) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ابن تغرى بردى جـ9 ص 323-324

قليني باشا فهمى

ولد صاحب الترجمة سنة 1860م بقرية منية ابن خصيب المنيا وكانت تعرف قديماً بنزلة الفلاحين، وقد دخل مدرسة الأقباط الكلية فى مصر بالقاهرة وكان عمره الثانية عشر من عمره، فى 18 إبريل 1875م عين صاحب الترجمة سكرتيراً بديوان جفالك الدائرة السنية، وكانت الدائرة السنية تقوم على نظام العمل بالسخرة، لذلك تحدث صاحب الترجمة فى هذا الأمر مع سلطان باشا رئيسه وبين له مضار السخرة وطلب منه السعىّ فى أن يؤدى أعمال الدائرة عمال يتقاضون أجورهم، وقد وافق سلطان باشا على هذا الرأى وكتب خطاب وأرسله مع صاحب الترجمة إلى رئيس الوزارة فقابله نوبار باشا فأستدعى سلطان باشا وأنتهى الأمر بإلغاء السخرة.

فى سنة 1882م تم تعيين قلينى باشا وكيلاً لديوان عموم الجفالك، وقد انتابت البلاد فى ذلك الوقت الثورة العرابية وتم إتهام شاكر باشا مدير المنيا بتهم باطلة كثيرة وبسببها أخذ مغللاً فى القيود، ولما رأى نعمانى باشا مفتش عموم الجفالك ذلك خاف أن يصيبه مثل ما أصاب شاكر باشا فتمارض وأخذ أجازة وغادر ديوان الجفالك ليديره صاحب الترجمة.

ثم جاءت لصاحب الترجمة ثلاث أوامر من مدير المنيا الجديد يقول له فيها: أنه بناء على ما صدر من حامى حمى الديار أفندينا عرابى باشا يلزم تنفيذ الأوامر الآتية فيما لا يتجاوز أربعاً وعشرين ساعة وهى:

أولاً : قطع قضبان السكك الحديدية الزراعية فى أرض التفاتيش جميعها وأرسالها هى والأدوات المتعلقة بها إلى مخازن الحربية وكذا أخشاب ومهمات التلغراف الزراعى

ثانياً : قطع كل أشجار تفاتيش الدائرة وتهيئتها لمطابخ الجيش

ثالثاً : تسليم كل المحصولات الموجودة فى الجفالك والفابريقات

فتلقى صاحب الترجمة ذلك باستغراب فكتب إلى مدير المنيا يقول له: أننى أود تنفيذ الأوامر التى بعثتم بها إلىّ إذا كنت فى مقام المالك لهذه التفاتيش ولكننى موظف بها أتبع فى

مثل هذا الحال أوامر مجلس الإدارة الأعلى فهو الرقيب فى جميع أعمالى ويحاسب على كل كبيرة وصغيرة

وكانت عاقبة هذا أن عدُّ أعتبر المترجم من جملة العصاة وجاء الأمر بإرساله إلى الطوبخانة مكبلاً بالأغلال، وجاء صاحب الترجمة إلى مصر بعد خمود نيران هذه الثورة يوم كان سلطان باشا نائباً عن الحضرة الفخيمة مكلفاً بإدارة شؤون البلاد وقائماً بعمل تحقيق عمومى وقد أفرج عن صاحب الترجمة بعد وقف أمام سلطان باشا وتحدث معه.

وفى أول إبريل سنة 1886م عين قلينى باشا عضواً فى الدائرة السنية، وفى مارس سنة 1887م أنعم عليه الخديوى توفيق باشا برتبة المتمايز الرفيعة الشأن، وفى أول يناير 1888م عين مفتشاً عاماً للدائرة السنية، وفى سنة 1888م أيضاً أنعم عليه بالنشان المجيدى من الدرجة الثالثة، وفى يوليو سنة 1890م وقع إختيار رياض باششا رئيس مجلس الوزراء على صاحب الترجمة وعينه مديراً للإدارة العمومية ومراقباً للأموال الغير مقررة فى وزارة المالية، وفى أكتوبر 1891م منح النيشان العثمانى من الدرجة الثالثة، وفى ديسمبر 1892م حصل على النيشان المجيدى الثانى، وقد أحيلت عليه أعمال الدخوليات بالمملكة المصرية علاوة على ما تقدم، وفى يناير 1893م عين مراقباً عمومياً للأموال الغير مقررة والدخوليات.

وقام من بين الأقباط حزب مناهض للبابا البطريرك وكان غرضهم سلب اختصاصاته وقد استمال هذا الحزب الحكومة وأستصدر أمراً منها بنفيّ البطريرك إلى دير البراموس، وكان صاحب الترجمة يومئذ فى أجازته بأوربا، ولما وصل إلى علمه بهذا الحادث أسرع بالرجوع إلى مصر وعند عودته تقلد رياض باشا رئاسة الوزراء فسعى لديه صاحب الترجمة ولدى الخديوى أيضاً وأظهر لهم فساد زعم الذين أستصدروا ذلك الأمر بنفيّ بالبابا البطريرك.

فى يناير سنة 1901م أنعم الخديوى عباس باشا الثانى على صاحب الترجمة برتبة الميرميران الرفيعة[1].

---

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 301-323

اسكندر بك مسيحة

ولد فى 17 القعدة عام 1280هـ، وفى 21 برمودة عام 591 قبطية انتظم فى سلك الوظائف الحكومية بوزارة المالية ثم عين بدائرة بلدية مصر فى 11 سبتمبر سنة 1875م، ثم أعيد لوزارة المالية للمرة الثانية فى 16 اكتوبر سنة 1881م ومكث بها حتى 3 ديسمبر سنة 1915م حيث قدم استقالته بعد أن اشتغل باستمرار مدة أربعة وثلاثين عاماً فى وظائف عديدة بتلك الوزارة كان ختامها رئيساً لإدارة الخزينة العمومية، وقد أنعم عليه بالرتبة الرابعة فى 23 ذى القعدة سنة 1324هـ وبالرتبة الثالثة فى 4 جمادى الآخر سنة 1328هـ وبنيشان النيل من الطبقة الرابعة فى 29 جمادى الثانى سنة 1334هـ.

وحيث أن الديوان البطريركى قد وصل إلى حالة سيئة من الوجهة المالية والإدارية فى ذلك الحين لذلك وقع اختيار المجلس الملى العام بموافقة غبطة البطريرك المعظم على صاحب الترجمة ليكون مديراً عاماً لإدارة هذا الديوان واصلاح ما أختل من شؤونه وكان القرار بتعيين صاحب الترجمة من جانب المجلس الملى العام فى 2 نوفمبر سنة 1916م، ثم قدم صاحب الترجمة استقالته فى تاريخ 18 نوفمبر عام 1919م.

بعد ذلك تم انتخاب صاحب الترجمة من جانب المؤسسون لشركة مساهمة بنك مصر التى صدر المرسوم السلطانى بتاريخ 3 أبريل عام 1920م بإعتمادها ليكون عضواً فى مجلس إدارة هذا البنك، ثم بعد ذلك رأى البابا البطريرك والمجلس الملى العام أن الحاجة مسيسة لإعادة صاحب الترجمة لأن يكون مدير الأعمال للديوان البطريركى مرة أخرى وقد قرر ذلك فى 20 نوفمبر سنة 1920م، وقد قرر المجلس الملى العام فى 11 أبريل 1921م أن يكون لصاحب الترجمة الحق فى الحضور فى كل جمعية عمومية.

بعد ذلك تجدد إنتخاب صاحب الترجمة عضواً بمجلس إدارة بنك مصر فى الجمعية العمومية التى عقدت فى 29 مارس سنة 1923م، وفى 25 مايو سنة 1923م انتخب عضواً لمجلس الجمعية الخيرية العام للأقباط الأرثوذكس، وفى جلسة أول يناير 1923م رأى المجلس الملى العام أن يخاطب البابا البطريرك ليخابر الحكومة بإلتماس االإنعام على صاحب الترجمة برتبة البكوية من الدرجة الأولى، فطلب غبطة البطريرك فى 7 مارس سنة 1923م ذلك من مجلس الوزراء، وفى 19 يناير 1924م تم العرض للأعتاب الملوكية بمنحه هذه الرتبة، فمنحه الملك فؤاد الأول رتبة البكوية من الدرجة الأولى[1].

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 407-412

الأكرم فضائل النصرانى كاتب الوزير

فى يوم الأحد ثانى جمادى الأولى سنة 822 هـ المذكور ولد للسلطان الملك المؤيد ولده الملك المظفّر أحمد من زوجته خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش، ثم فى سابع جمادى الأولى استدعى السلطان بطرك النصارى وقد اجتمع القضاة ومشايخ العلم عند السلطان، فأوقف البطرك على قدميه ووبّخ وقرّع، وأنكر عليه السلطان ما بالمسلمين من الذّلّ فى بلاد الحبشة تحت حكم الحطّى متملكها، وهدّد بالقتل، فانتدب له الشيخ صدر الدين أحمد بن العجمى محتسب القاهرة فأسمعه المكروه من أجل تهاون النّصارى فيما أمروا به فى ملبسهم وهيئاتهم، وطال كلام العلماء مع السلطان فى ذلك إلى أن استقرّ الحال بأن لا يباشر أحد منهم فى ديوان السلطان ولا عند أحد من الأمراء، ولا يخرج أحد منهم عما ألزموا به من الصّغار، ثم طلب السلطان الأكرم فضائل النّصرانىّ كاتب الوزير- وكان قد سجن من أيام- فضربه السلطان بالمقارع وشهّره بالقاهرة عريانا بين يدى المحتسب وهو ينادى عليه: هذا جزاء من يباشر من النصارى فى ديوان السلطان، ثم سجن أيضا بعد إشهاره، وصمّم السلطان فى ذلك حتى انكفّ النصارى عن المباشرة فى سائر دواوين الدّيار المصرية، ولزموا بيوتهم، وصغّروا عمائمهم وضيّقوا أكمامهم، والتزم اليهود مثل ذلك، وامتنعوا جميعهم من ركوب الحمير، بحيث إنّ العامة صارت إذا رأوا نصرانيا على حمار ضربوه وأخذوا حماره وما عليه، فصاروا لا يركبون الحمار إلا بخارج القاهرة، وبذل النصارى جهدهم فى السّعى إلى عودهم إلى المباشرة وأوعدوا بمال كبير، وساعدتهم كتّاب الأقباط، فلم يلتفت السلطان إلى قولهم، وأبى إلا ما رسم به من المنع. قلت: ولعلّ الله أن يسامح الملك المؤيّد بهذه الفعلة عن جميع ذنوبه، فإنها من أعظم الأمور فى نصرة الإسلام، ومباشرة

هؤلاء النصارى فى دواوين الديار المصرية من أعظم المساوئ الذي نوّل منه التعظيم إلى دين النصرانية؛ لأن غالب الناس من المسلمين يحتاج إلى التّردّد إلى أبواب أرباب الدّولة لقضاء حوائجهم، فمهما كان لهم من الحوائج المتعلقه بديوان ذلك الرئيس فقد احتاجوا إلى التواضع والترقق إلى من بيده أمر الديوان المذكور، نصرانيا كان أو يهوديا أو سامريا، وقد قيل فى الأمثال «صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها» فمنهم من يقوم بين يدى ذلك النّصرانى على قدميه والنصرانى جالس ساعات كثيرة حتى يقضى حاجته بعد أن يدعو له ويتأدب معه تأدبا لا يفعله مع مشايخ العلم، ومنهم من يقبّل كتفه ويمشى فى ركابه إلى بيته إلى أن تقضى حاجته، وأما فلاحو القرى فإنه ربما النّصرانىّ المباشر يضرب الرجل منهم ويهينه ويجعله فى الزّنجير ، ويزعم بذلك خلاص مال أستاذه، وليس الأمر كذلك وإنما يقصد التحكّم فى المسلمين لا غير، فهذا هو الذي يقع للأسير من المسلمين فى بلاد الفرنج بعينه لا زيادة على ذلك غير أنه يملك رقّه.

وقد حدثنى بعض الثقات من أهل صعيد مصر قال: كان غالب مزارعى بلدنا أشرافا علويّة، والعامل بالبلد نصرانيا، فإذا قدم العامل إلى البلد خرجت الفلاحون لتلقيّه، فمنهم من يسلّم عليه السّلام المعتاد، ومنهم من يفشى السلام عليه ويمعن فى ذلك، ومنهم من يمشى فى ركابه إلى حيث ينزل من البلد، ومنهم من يقبّل يده- وهو الفقير المحتاج أو الخائف من صاحب البلد- ويسأله إصلاح شأنه فيما هو مقرّر عليه من وزن الخراج حتى يسمح له بذلك، فلما منع الملك المؤيد هؤلاء النّصارى عن المباشرة بطل ذلك كلّه؛ فيكون الملك المؤيد على هذا الحكم فتح مصر فتحا ثانيا، وأعلى كلمة الإسلام وأخذل كلمة الكفر، ولا شىء عند الله أفضل من ذلك. ولما لم يجب النصارى إلى عودهم إلى ما كانوا عليه من المباشرات بالديار المصرية وأعياهم أمر السلطان وثباته، وانقطع عنهم ما ألفوه من التحكّم فى المسلمين- ويقال: إنّ العادة طبع خامس- شقّ عليهم ذلك، فتتابع عدّة منهم فى إظهار دين الإسلام وتلفظوا بالشهادتين فى الظاهر والله سبحانه وتعالى متولى السرائر.

قلت: ويمكن إصلاح هذا الشّأن الثانى أيضا- إن صلح الراعى ونظر فى أحوال الرّعيّة وانتصر لدينه- بسهولة، هو أنه يكفّ من كان قريب عهد منهم من دين النصرانيّة عن المباشرة ثم قدم الخبر على السّلطان بتوجه ابن السلطان من مدينة قيساريّة إلى مدينة قونيّة فى

خامس عشر شهر ربيع الآخر بعد ما مهّد أمور قيسارية ونقش اسم السلطان على بابها، وأن الأمير تنبك ميق نائب الشّام لمّا وصل إلى العمق حضر إليه الأمير حمزة بن رمضان بجماعة من التّركمان وتوجّه معه هو وابن أوزر إلى قريب مصيصه وأخذ أدنة وطرسوس فسرّ السلطان بذلك سرورا عظيما. ثم نادى محتسب القاهرة على النّصارى واليهود بتشديد ما أمرهم به من الملبس والعمائم وشدّد عليهم فى ذلك، فلما اشتدّ الأمر عليهم سعوا فى إبطال ذلك سعيا كبيرا فلم ينالوا غرضا1.

سعيد بن توفيل

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا متميزا فِي صناعَة الطِّبّ وَكَانَ فِي خدمَة أَحْمد بن طولون من أطباء الْخَاص يَصْحَبهُ فِي السّفر والحضر وَتغَير عَلَيْهِ قبل مَوته وَسَببه أَن أَحْمد بن طولون كَمَا تقدم ذكره كَانَ قد خرج إِلَى الشَّام وَقصد الثغور لإصلاحها وَعَاد إِلَى أنطاكية فَأَدْرَكته هيضة من ألبان الجواميس لِأَنَّهُ أسْرع فِيهَا واستكثر مِنْهَا فالتمس طبيبه سعيدا فَوَجَدَهُ قد خرج إِلَى بيعَة بأنطاكية فَتمكن غيظه عَلَيْهِ فَلَمَّا حضر اغلظ لَهُ فِي التَّأَخُّر عَنهُ وأنف أَن يشكو إِلَيْهِ مَا وجده

ثمَّ زَاد الْأَمر عَلَيْهِ فِي اللَّيْلَة الثَّانِيَة فَطَلَبه فجَاء متنبذا فَقَالَ لَهُ لي من يَوْمَيْنِ عليل وَأَنت شَارِب نَبِيذ فَقَالَ يَا سَيِّدي طلبتني أمس وَأَنا فِي بيعتي على مَا جرت عادتي وَحَضَرت فَلم تُخبرنِي بِشَيْء قَالَ فَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَن تسْأَل عَن حَالي قَالَ ظَنك يَا مولَايَ سيئ وَلست أسأَل أحدا من حاشيتك عَن شَيْء من أَمرك

قَالَ فَمَا الصَّوَاب السَّاعَة قَالَ لَا تقرب شَيْئا من الْغذَاء وَلَو قرمت إِلَيْهِ اللَّيْلَة وغدا

قَالَ أَنا وَالله جَائِع وَمَا أَصْبِر

قَالَ هَذَا جوع كَاذِب لبرد الْمعدة

فَلَمَّا كَانَ فِي نصف اللَّيْل استدعى شَيْئا يَأْكُلهُ فجيء بفراريج كردباج حارة وبزماورد من دَجَاج وجداء بَارِدَة فَأكل مِنْهَا فَانْقَطع الإسهال عَنهُ فَخرج نسيم الْخَادِم وَسَعِيد فِي الدَّار قَالَ لَهُ أكل الْأَمِير خروف كردباج فخف عَنهُ الْقيام

---

1) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج 14 ص 81-84

قَالَ سعيد الله الْمُسْتَعَان ضعفت قوته الدافعة بقهر الْغذَاء لَهَا وستتحرك حَرَكَة مُنكرَة فوَاللَّه مَا وافى السحر حَتَّى قَامَ أَكثر من عشرَة مجَالِس وَخرج من أنطاكية وعلته تتزايد إِلَّا أَن فِي قوته احْتِمَالا لَهَا

وَطلب مصر وَثقل عَلَيْهِ ركُوب الدَّوَابّ فَعمِلت لَهُ عجلة كَانَت تجر بِالرِّجَالِ وطِئت لَهُ فَمَا وصل الفرما حَتَّى شكا إزعاجها فَركب المَاء إِلَى الْفسْطَاط وَضرب لَهُ بالميدان قبَّة نزل فِيهَا

وَلما حل ابْن طولون بِمصْر ظَهرت مِنْهُ نبوة فِي حق سعيد الطَّبِيب هَذَا وشكاه إِلَى إِسْحَق بن إِبْرَاهِيم كَاتبه وَصَاحبه فَقَالَ إِسْحَق بن إِبْرَاهِيم لسَعِيد يعاتبه وَيحك أَنْت حاذق فِي صناعتك وَلَيْسَ لَك عيب إِلَّا أَنَّك مدل بهَا غير خاضع أَن تخدمه فِيهَا

والأمير وَإِن كَانَ فصيح اللِّسَان فَهُوَ أعجمي الطَّبْع وَلَيْسَ يعرف أوضاع الطِّبّ فيدبر نَفسه بهَا وينقاد لَك

وَقد أفْسدهُ عَلَيْك الإقبال فتلطف لَهُ وأرفق بِهِ وواظب عَلَيْهِ وراع حَاله

فَقَالَ سعيد وَالله مَا خدمتي لَهُ إِلَّا خدمَة الفار للسنور والسخلة للذئب وَأَن قَتْلِي لأحب إِلَيّ من صحبته

وَمَات أَحْمد بن طولون فِي علته هَذِه

وَقَالَ نسيم خَادِم أَحْمد بن طولون أَن سعيد بن توفيل المتطبب كَانَ فِي خدمَة الْأَمِير أَحْمد بن طولون فَطَلَبه يَوْمًا فَقيل لَهُ مضى يستعرض ضَيْعَة يَشْتَرِيهَا فامسك حَتَّى حضر

ثمَّ قَالَ لَهُ يَا سعيد اجْعَل ضيعتك الَّتِي تشتريها فتستغلها صحبتي وَلَا تغفلها وَاعْلَم أَنَّك تسبقني إِلَى الْمَوْت إِن كَانَ موتي على فِرَاشِي فَإِنِّي لَا أمكنك بالاستمتاع بِشَيْء بعدِي

قَالَ نسيم وَكَانَ سعيد بن توفيل آيسا من الْحَيَاة لِأَن أَحْمد بن طولون امْتنع من مشاورته وَلم يكن يحضر إِلَّا وَمَعَهُ من يستظهر عَلَيْهِ بِرَأْيِهِ ويعتقد فِيهِ أَنه فرط فِي أول أمره وَابْتِدَاء الْعلَّة بِهِ حَتَّى فَاتَ أمره

وَفِي التَّارِيخ أَن سعيد بن توفيل كَانَ لَهُ فِي أول مَا صحب أَحْمد شاكري قَبِيح الصُّورَة كَانَ ينفض الْكَتَّان مَعَ أَب لَهُ واسْمه هَاشم وَكَانَ يخْدم بغلة سعيد ويمسكها لَهُ إِذا دخل دَار أَحْمد ابْن طولون

وَكَانَ سعيد يَسْتَعْمِلهُ فِي بعض الْأَوْقَات فِي سحق الْأَدْوِيَة بداره إِذا رَجَعَ مَعَه وينفخ النَّار على المطبوخات

وَكَانَ لسَعِيد بن توفيل ابْن حسن الصُّورَة ذكي الرّوح حسن الْمعرفَة بالطب فَتقدم أَحْمد بن طولون إِلَى سعيد أول مَا صَحبه أَن يرتاد متطببا يكون لحرمه وَيكون مُقيما بالحضرة فِي غيبته فَقَالَ لَهُ سعيد لي ولد قد عَلمته وخرجته

قَالَ أرنيه فَأَحْضرهُ فَرَأى شَابًّا رائقا حسن الْأَسْبَاب كلهَا

فَقَالَ لَهُ أَحْمد بن طولون لَيْسَ يصلح هَذَا لخدمة الْحرم احْتَاجَ لَهُنَّ حسن الْمعرفَة قَبِيح الصُّورَة فأشفق سعيد أَن ينصب لَهُم غَرِيبا فينبو عَنهُ وَيُخَالف عَلَيْهِ فَأخذ هاشما وَألبسهُ دراعة وخفين ونصبه للحرم

فَذكر جريج ابْن الطباخ المتطبب قَالَ لقِيت سعيد بن توفيل وَمَعَهُ عمر بن صَخْر

فَقَالَ لَهُ عمر مَا الَّذِي نصبت هاشما لَهُ قَالَ خدمَة الْحرم لِأَن الْأَمِير طلب قَبِيح الْخلقَة

فَقَالَ لَهُ عمر قد كَانَ فِي أَبنَاء الْأَطِبَّاء قَبِيح قد حسنت تَرْبِيَته وطاب مغرسه يصلح لهَذَا وَلَكِنَّك استرخصت الصَّنْعَة

وَالله يَا أَبَا عُثْمَان إِن قويت يَده ليرجعن إِلَى دناءة منصبه وخساسة محتده

فتضاحك سعيد بغرته من هَذَا الْكَلَام

وَتمكن هَاشم من الْحرم بإصلاحه لَهُم مَا يوافقهم من عمل أدوية الشَّحْم وَالْحَبل وَمَا يحسن اللَّوْن ويغزر الشّعْر حَتَّى قدمه النِّسَاء على سعيد

فَلَمَّا جمع الْأَطِبَّاء على الغدو إِلَى أَحْمد بن طولون فِي كل يَوْم عِنْد اشتداد علته قَالَت مائَة ألف أم أبي المشائر قد احضر جمَاعَة من الْأَطِبَّاء وَلم يحضر هَاشم وَالله يَا سَيِّدي مَا فيهم مثله فَقَالَ لَهَا أحضرينيه سرا حَتَّى أشافهه واسمع كَلَامه فأدخلته إِلَيْهِ سرا وشجعته على كَلَامه

فَلَمَّا مثل بَين يَدَيْهِ نظر وَجهه وَقَالَ أغفل الْأَمِير حَتَّى بلغ إِلَى هَذِه الْحَالة لَا أحسن الله جَزَاء من كَانَ يتَوَلَّى أمره

قَالَ لَهُ أَحْمد بن طولون فَمَا الصَّوَاب يَا مبارك قَالَ تتَنَاوَل قميحة فِيهَا كَذَا وَكَذَا وَعدد قَرِيبا من مائَة عقار وَهَذِه القمائح تمسك وَقت أَخذهَا وتعود بِضَرَر بعد ذَلِك لِأَنَّهَا تتعب القوى

فَتَنَاولهَا أَحْمد وَأمْسك عَن تنَاول مَا عمله سعيد والأطباء

وَلما أَمْسَكت حسن موقع ذَلِك عِنْد أَحْمد وَظن أَن الْبُرْء قد تمّ لَهُ

ثمَّ قَالَ أَحْمد لهاشم إِن سعيدا قد حماني من شهر عَن لقْمَة عصيدة وَأَنا أشتهيها قَالَ يَا سَيِّدي أَخطَأ سعيد وَهِي مغذية وَلها أثر حميد فِيك

فَتقدم أَحْمد بن طولون بإصلاحها فجيء مِنْهَا بجام وَاسع فَأكل أَكْثَره وطاب نفسا ببلوغ شَهْوَته ونام ولحجت العصيدة فَتوهم أَن حَاله زَادَت صلاحا

وكل هَذَا يطوى عَن سعيد بن توفيل

وَلما حضر سعيد قَالَ لَهُ مَا تَقول فِي العصيدة قَالَ هِيَ ثَقيلَة على الْأَعْضَاء وتحتاج أَعْضَاء الْأَمِير إِلَى تَخْفيف عَنْهَا

قَالَ لَهُ أَحْمد دَعْنِي من هَذِه المخرقة قد أكلتها ونفعتني وَالْحَمْد لله

وَجِيء بفاكهة من الشَّام فَسَأَلَ أَحْمد بن طولون سعيد بن توفيل عَن السفرجل فَقَالَ تمص مِنْهُ على خلو الْمعدة والأحشاء فَإِنَّهُ نَافِع

فَلَمَّا خرج سعيد من عِنْده أكل أَحْمد بن طولون سفرجلا فوجدَ السفرجل العصيدة فعصرها فتدافع الإسهال فَدَعَا سعيدا فَقَالَ يَا ابْن الفاعلة ذكرت أَن السفرجل نَافِع لي وَقد عَاد إِلَيّ الإسهال فَقَامَ فَنظر الْمَادَّة وَرجع إِلَيْهِ فَقَالَ هَذِه العصيدة الَّتِي حمدتها وَذكرت أَنِّي غَلطت فِي منعهَا فَإِنَّهَا لم تزل مُقِيمَة فِي الأحشاء لَا تطِيق تغييرها وَلَا هضمها لضعف قواها حَتَّى عصرها السفرجل وَلم أكن أطلقت لَك أكله وَإِنَّمَا أَشرت بمصه

ثمَّ سَأَلَهُ عَن مِقْدَار مَا أكل مِنْهُ فَقَالَ سفرجلتين

فَقَالَ سعيد أكلت السفرجل للشبع وَلم تَأْكُله للعلاج

فَقَالَ يَا ابْن الفاعلة جَلَست تنادرني وَأَنت صَحِيح سوي وَأَنا عليل مدنف

ثمَّ دَعَا بالسياط فَضَربهُ مِائَتي سَوط وَطَاف بِهِ على جمل وَنُودِيَ عَلَيْهِ هَذَا جَزَاء من ائْتمن فخان وَنهب الْأَوْلِيَاء منزله وَمَات بعد يَوْمَيْنِ وَذَلِكَ فِي سنة تسع وَسِتّينَ وَمِائَتَيْنِ بِمصْر وَقيل فِي سنة تسع وَسبعين وَمِائَتَيْنِ وَهِي السّنة الَّتِي مَاتَ ابْن طولون فِي ذِي قعدتها وَالله أعلم[1]

---

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 541-544

نسطاس بن جريج

كَانَ نَصْرَانِيّا عَالما بصناعة الطِّبّ وَكَانَ فِي دولة الأخشيد بن طغج

ولنسطاس بن جريج من الْكتب كناش

رِسَالَة إِلَى يزِيد بن رُومَان النَّصْرَانِي الأندلسي فِي الْبَوْل

إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس، هُوَ أَبُو يَعْقُوب إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس بن جريج نَصْرَانِيّ فَاضل فِي صناعَة الطِّبّ

وَكَانَ فِي خدمَة الْحَاكِم بِأَمْر الله ويعتمد عَلَيْهِ فِي الطِّبّ وَتُوفِّي إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس بِالْقَاهِرَةِ فِي أَيَّام الْحَاكِم واستطب بعده أَبَا الْحسن عَليّ بن رضوَان وَاسْتمرّ فِي خدمته وَجعله رَئِيسا على سَائِر الْأَطِبَّاء[1]

سعيد بن البطريق

من أهل فسطاط مصر وَكَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا مَشْهُورا عَارِفًا بِعلم صناعَة الطِّبّ وعملها مُتَقَدما فِي زَمَانه وَكَانَت لَهُ دراية بعلوم النَّصَارَى ومذاهبهم ومولده فِي يَوْم الْأَحَد لثلاث بَقين

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 544

من ذِي الْحجَّة سنة ثَلَاث وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ لِلْهِجْرَةِ وَلما كَانَ فِي أول سنة من خلَافَة القاهر بِاللَّه مُحَمَّد بن أَحْمد المعتضد بِاللَّه صير سعيد بن البطريق بطريركا على الْإِسْكَنْدَرِيَّة وَسمي أوثوشيوس وَذَلِكَ لثمان خلون من شهر صفر سنة إِحْدَى وَعشْرين وثلاثمائة ولسعيد بن البطريق من الْعُمر نَحْو سِتِّينَ سنة وَبَقِي فِي الْكُرْسِيّ والرئاسة سبع سِنِين وَسِتَّة أشهر وَكَانَ فِي أَيَّامه شقَاق عَظِيم وَشر مُتَّصِل بَينه وَبَين شعبه واعتل سعيد بن البطريق بِمصْر بالإسهال وَكَانَ متميزا فِي صناعَة الطِّبّ فحدس أَنَّهَا عِلّة مَوته فَصَارَ إِلَى كرسيه بالإسكندرية وَأقَام بِهِ أَيَّامًا عدَّة عليلا وَمَات يَوْم الِاثْنَيْنِ سلخ رَجَب من سنة ثَمَان وَعشْرين وثلاثمائة ولسعيد بن البطريق من الْكتب كتاب فِي الطِّبّ علم وَعمل

كناش وكتاب الجدل بَين الْمُخَالف وَالنَّصْرَانِيّ وكتاب نظم الْجَوْهَر ثَلَاث مقالات كتبه إِلَى أَخِيه عِيسَى بن البطريق المتطبب فِي معرفَة صَوْم النَّصَارَى وفطرهم وتواريخهم وأعيادهم وتواريخ الْخُلَفَاء والملوك الْمُتَقَدّمين وَذكر البطاركة وأحوالهم وَمُدَّة حياتهم ومواضعهم وَمَا جرى لَهُم فِي ولايتهم وَقد ذيل هَذَا الْكتاب نسيب لسَعِيد بن البطريق يُقَال لَهُ يحيى بن سعيد بن يحيى وسمى كِتَابه كتاب تَارِيخ الذيل[1]

عيسى بن البطريق

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا عَالما بصناعة الطِّبّ علمهَا وعملها متميزا فِي جزئيات المداواة والعلاج مشكورا فِيهَا وَكَانَ مقَامه بِمَدِينَة مصر الْقَدِيمَة وَكَانَ هَذَا عِيسَى بن البطريق أخا سعيد بن البطريق الْمُقدم ذكره وَلم يزل عِيسَى بِمَدِينَة مصر طَبِيبا إِلَى أَن توفّي بهَا[2]

أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا مَشْهُورا وَله دراية وخبرة بصناعة الطِّبّ وَكَانَ طَبِيب الْحَاكِم بِأَمْر الله وَمن الْخَواص عِنْده وَكَانَ الْعَزِيز أَيْضا يستطبه وَيرى لَهُ ويحترمه

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 545-546

2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 546

وَكَانَ مُتَقَدما فِي الدولة وَتُوفِّي فِي أَيَّام الْحَاكِم واستطب الْحَاكِم بعده إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن نسطاس

وَمَات إِسْحَاق بن نسطاس أَيْضا فِي أَيَّام الْحَاكِم بعد ذَلِك[1]

أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانة

كَانَ طَبِيبا نَصْرَانِيّا بِمصْر فِي زمن الْخُلَفَاء وَكَانَ حظيا عِنْدهم فَاضلا فِي الصِّنَاعَة الطبية خَبِيرا بعلمها وعملها متميزا فِي الْعُلُوم

وَكَانَ من أهل الْقُدس ثمَّ انْتقل إِلَى الديار المصرية

وَكَانَت لَهُ معرفَة بَالِغَة بِأَحْكَام النُّجُوم

حَدثنِي الْحَكِيم رشيد الدّين أَبُو حليقة بن الْفَارِس بن أبي سُلَيْمَان الْمَذْكُور قَالَ سَمِعت الْأَمِير مجد الدّين أَخا الْفَقِيه عِيسَى وَهُوَ يحدث السُّلْطَان الْملك الْكَامِل بشر مساح عِنْد حُضُوره إِلَيْهِ بعد وَفَاة الْملك الْعَادِل ونزول الفرنج على ثغر دمياط من أَحْوَال جدي أبي سُلَيْمَان دَاوُد مَا هَذَا نَصه قَالَ

كَانَ الْحَكِيم أَبُو سُلَيْمَان فِي زمن الْخُلَفَاء وَكَانَ لَهُ خَمْسَة أَوْلَاد فَلَمَّا وصل الْملك مارى إِلَى الديار المصرية أعجبه طبه فَطَلَبه من الْخَلِيفَة بهَا وَنَقله هُوَ وَأَوْلَاده الْخَمْسَة إِلَى الْبَيْت الْمُقَدّس وَنَشَأ للْملك مارى ولد مجذم فَركب لَهُ الترياق الفاروقي بِالْبَيْتِ الْمُقَدّس وترهب وَترك وَلَده الْأَكْبَر وَهُوَ الْحَكِيم الْمُهَذّب أَبُو سعيد خَلِيفَته على منزله وَإِخْوَته

وَاتفقَ أَن ملك الفرنج الْمَذْكُور بِالْبَيْتِ الْمُقَدّس أسر الْفَقِيه عِيسَى وَمرض فسيره الْملك لمداواته فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ وجده فِي الْجب مُثقلًا بالحديد فَرجع إِلَى الْملك وَقَالَ لَهُ إِن هَذَا الرجل ذُو نعْمَة وَلَو سقيته مَاء الْحَيَاة وَهُوَ على هَذَا الْحَال لم ينْتَفع بِهِ

قَالَ الْملك فَمَا أفعل فِي أمره قَالَ يُطلقهُ الْملك من الْجب ويفك عَنهُ حديده ويكرمه فَمَا يحْتَاج إِلَى مداواة أَكثر من هَذَا

فَقَالَ الْملك تخَاف أَن يهرب وقطيعته كَثِيرَة

قَالَ للْملك سلمه إِلَيّ وضمانه عَليّ

---

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 549

فَقَالَ لَهُ تسلمه وَإِذا جَاءَت قطيعته كَانَ لَك مِنْهَا ألف دِينَار

فَمضى وشاله من الْجب وَفك حديده وأخلى لَهُ موضعا فِي دَاره أَقَامَ فِيهِ سِتَّة أشهر يَخْدمه فِيهَا أتم خدمَة

فَلَمَّا جَاءَت قطيعته طلب الْملك الْحَكِيم أَبَا سعيد ليحضر لَهُ الْفَقِيه الْمَذْكُور فَحَضَرَ وَهُوَ صحبته وَوجد قطيعته فِي أكياس بَين يَدَيْهِ فَأَعْطَاهُ مِنْهَا الْكيس الَّذِي وعده بِهِ

فَلَمَّا أَخذه قَالَ لَهُ يَا مَوْلَانَا هَذِه الْألف دِينَار قد صَارَت لي أتصرف فِيهَا تصرف الْملاك فِي أملاكهم فَقَالَ لَهُ نعم

فَأَعْطَاهَا للفقيه فِي الْمجْلس وَقَالَ لَهُ أَنا أعرف أَن هَذِه القطيعة مَا جَاءَت إِلَّا وَقد تركت خَلفك شَيْئا وَرُبمَا قد تدني لَك شَيْئا آخر فَتقبل مني هَذِه الْألف دِينَار إِعَانَة نَفَقَة الطَّرِيق فقبلها الْفَقِيه مِنْهُ وسافر إِلَى الْملك النَّاصِر

وَاتفقَ أَن الْحَكِيم أَبَا سُلَيْمَان دَاوُد الْمَذْكُور ظهر لَهُ فِي أَحْكَام النُّجُوم إِن الْملك النَّاصِر يفتح الْبَيْت الْمُقَدّس فِي الْيَوْم الْفُلَانِيّ من الشَّهْر الْفُلَانِيّ من السّنة الْفُلَانِيَّة وَأَنه يدْخل إِلَيْهَا من بَاب الرَّحْمَة فَقَالَ لأحد أَوْلَاده الْخَمْسَة وَهُوَ الْفَارِس أَبُو الْخَيْر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد الْمَذْكُور وَكَانَ هَذَا الْوَلَد قد تربى مَعَ الْوَلَد المجذم ملك الْبَيْت الْمُقَدّس وَعلمه الفروسية فَلَمَّا توج الْملك فرسه وَخرج الْمَذْكُور من بَين اخوته الْأَرْبَعَة الْأَطِبَّاء جنديا

وَكَانَ قَول الْحَكِيم أبي سُلَيْمَان لوَلَده هَذَا بِأَن يمْضِي رَسُولا عَنهُ إِلَى الْملك النَّاصِر ويبشره بِملك الْبَيْت الْمُقَدّس فِي الْوَقْت الْمَذْكُور

فامتثل مرسومه وَمضى إِلَى الْملك النَّاصِر فاتفق وُصُوله إِلَيْهِ فِي غرَّة سنة ثَمَانِينَ وَخَمْسمِائة وَالنَّاس يهنؤنه بهَا وهم على فاميه فَمضى إِلَى الْفَقِيه الْمَذْكُور ففرح بِهِ غَايَة الْفَرح وَدخل بِهِ إِلَى الْملك النَّاصِر وأوصل إِلَيْهِ الرسَالَة عَن أَبِيه ففرح بذلك فَرحا شَدِيدا وأنعم عَلَيْهِ بجائزة سنية وَأَعْطَاهُ علما أصفر ونشابة من رنكة

وَقَالَ لَهُ مَتى يسر الله مَا ذكرت اجعلوا هَذَا الْعلم الْأَصْفَر والنشابة فَوق داركم فالحارة الَّتِي أَنْتُم فِيهَا تسلم جَمِيعهَا فِي خفارة داركم

فَلَمَّا حضر الْوَقْت صَحَّ جَمِيع مَا قَالَه الْحَكِيم الْمَذْكُور فَدخل الْفَقِيه عِيسَى إِلَى الدَّار الَّتِي كَانَ مُقيما بهَا ليحفظها وَلم يسلم من الْبَيْت الْمُقَدّس من الْأسر وَالْقَتْل ووزن القطيعة سوى بَيت هَذَا الْحَكِيم الْمَذْكُور

وضاعف لأولاده مَا كَانَ لَهُم عِنْد الفرنج وَكتب لَهُ كتابا إِلَى سَائِر ممالكه برا وبحرا بمسامحتهم بِجَمِيعِ الْحُقُوق اللَّازِمَة لِلنَّصَارَى فأعفوا مِنْهَا إِلَى الْآن

وَتُوفِّي الْحَكِيم أَبُو سُلَيْمَان الْمَذْكُور بعد أَن استدعاه الْملك النَّاصِر إِلَيْهِ وَقَامَ لَهُ قَائِما وَقَالَ لَهُ أَنْت شيخ مبارك قد وصل إِلَيْنَا بشراك وَتمّ جَمِيع مَا ذكرته فتمن عَليّ

فَقَالَ لَهُ أَتَمَنَّى عَلَيْك حفظ أَوْلَادِي

فَأخذ الْملك النَّاصِر أَوْلَاده وأعتنى بهم وَأَعْطَاهُمْ للْملك الْعَادِل ووصاه بِأَن يكرمهم ويكونوا من الْخَواص عِنْده وَعند أَوْلَاده وَكَانَ كَذَلِك أَقُول وَكَانَ فتح السُّلْطَان الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف ابْن أَيُّوب للقدس فِي سَابِع وَعشْرين رَجَب سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ وَخَمْسمِائة[1]

أبو سعيد بن أبي سليمان

هُوَ الْحَكِيم مهذب الدّين أَبُو سعيد بن أبي سُلَيْمَان بن أبي المنى بن أبي فانة

كَانَ فَاضلا فِي صناعَة الطِّبّ كَانَ عَالما بهَا متميزا فِي أَعمالهَا مُتَقَدما فِي الدولة

وَقَرَأَ علم الطِّبّ على أَبِيه وعَلى غَيره

وَكَانَ السُّلْطَان الْملك الْعَادِل أَبُو بكر بن أَيُّوب قد جعله فِي خدمَة وَلَده الْملك الْمُعظم وأكرمه غَايَة الْإِكْرَام وَأمر أَن لَا يدْخل قلعة من قلاعه إِلَّا رَاكِبًا مَعَ صِحَة جِسْمه

فَكَانَ يدْخل فِي قلاعه الْأَرْبَعَة كَذَلِك وَهِي قلعة الكرك وقلعة جعبر وقلعة الرها وقلعة دمشق وخدم أَبُو سعيد بن أبي سُلَيْمَان الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين وَالْملك الْعَادِل أَيْضا بالطب

وانتقل إِلَى الديار المصرية وأقم بهَا إِلَى حِين وَفَاته

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 587-589

وَتُوفِّي فِي سنة ثَلَاث عشرَة وسِتمِائَة وَدفن بدير الخَنْدَق عِنْد الْقَاهِرَة[1]

أبو شاكر بن أبي سليمان

هُوَ الْحَكِيم موفق الدّين أَبُو شَاكر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد وَكَانَ متقنا لصناعة الطِّبّ متميزا فِي علمهَا وعملها جيد العلاج مكينا فِي الدولة وَقَرَأَ صناعَة الطِّبّ على أَخِيه أبي سعيد بن أبي سُلَيْمَان وتميز بعد ذَلِك واشتهر ذكره

وَكَانَ السُّلْطَان الْملك الْعَادِل قد جعله فِي خدمَة وَلَده الْملك الْكَامِل فَبَقيَ فِي خدمته وحظي عِنْده الحظوة الْعَظِيمَة وَتمكن عِنْده التَّمَكُّن الْكثير ونال فِي دولته حظا عَظِيما وَكَانَت لَهُ مِنْهُ إقطاعات ضيَاع وَغَيرهَا

وَلم يزل أبدا يفتقده بالهبات الوافرة والصلات المتواترة

وَكَانَ أَيْضا الْملك الْعَادِل يعْتَمد عَلَيْهِ فِي المداواة ويصفه بِحسن العلاج

وَكَانَ يدْخل أَيْضا فِي جَمِيع قلاعه وَهُوَ رَاكب مثل قلعة الكرك وقلعة جعبر وقلعة الرها وقلعة دمشق ثمَّ قلعة الْقَاهِرَة مَعَ صِحَة جِسْمه

وَلَقَد بلغ من أمره عِنْد سكن الْملك الْكَامِل بقصر الْقَاهِرَة المحروسة أَن أسْكنهُ عِنْده فِيهِ

وَكَانَ الْملك الْعَادِل سَاكِنا بدار الوزارة وَأَنه ركب ذَات يَوْم على بغلة النّوبَة الَّتِي لَهُ وَخرج إِلَى بَين القصرين فَركب فرسا آخر وسير بغلته الَّتِي كَانَ رَاكِبًا عَلَيْهَا إِلَى دَار الْحَكِيم الْمَذْكُور بِالْقصرِ وَأمر بركوبه عَلَيْهَا وَخُرُوجه من الْقصر رَاكِبًا وَلم يزل رَاكِبًا بَين القصرين إِلَى أَن وصل إِلَيْهِ فَأخذ بِيَدِهِ وسايره يتحدث مَعَه إِلَى دَار الوزارة وَسَائِر الْأُمَرَاء يَمْشُونَ بَين يَدي الْملك الْكَامِل

وللعضد ابْن منقذ فِي أبي شَاكر (هَذَا الْحَكِيم أَبُو شَاكر ... كثير المحبين والشاكر)

(خَليفَة بقراط فِي عصرنا ... وثانيه فِي علمه الباهر) المتقارب

وَتُوفِّي أَبُو شَاكر بن أبي سُلَيْمَان فِي سنة ثَلَاث عشرَة وسِتمِائَة وَدفن بدير الخَنْدَق عِنْد الْقَاهِرَة[2]

---

1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 589

2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 589-590

رشيد الدين أبو حليقة

هُوَ الْحَكِيم الْأَجَل الْعَالم رشيد الدّين أَبُو الْوَحْش بن الْفَارِس أبي الْخَيْر بن أبي سُلَيْمَان دَاوُد بن أبي المنى بن أبي فانة وَيعرف بِأبي حليقة

كَانَ أوحد زَمَانه فِي صناعَة الطِّبّ والعلوم الْحكمِيَّة متفننا فِي الْعُلُوم والآداب حسن المعالجة لطيف المداواة رؤوفا بالمرضى محبا لفعل الْخَيْر مواظبا للأمور الشَّرْعِيَّة الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا كثير الْعِبَادَة

وَلَقَد اجْتمعت بِهِ مَرَّات وَرَأَيْت من حسن معالجته وعشرته وَكَمَال مروءته مَا يفوق الْوَصْف

واشتغل بصناعة الطِّبّ فِي أول أمره على عَمه مهذب الدّين أبي سعيد بِدِمَشْق واشتغل بعد ذَلِك بالديار المصرية وَقَرَأَ أَيْضا على شَيخنَا مهذب الدّين عبد الرَّحِيم ابْن عَليّ رَحمَه الله وَلم يزل دَائِم الِاشْتِغَال ملازما لِلْقِرَاءَة

ومولده بقلعة جعبر وَذَلِكَ فِي سنة إِحْدَى وَتِسْعين وَخَمْسمِائة

وَخرج مِنْهَا إِلَى الرها وربي بهَا مُدَّة سبع أَو ثَمَان سِنِين

وَكَانَ وَالِده يلْبسهُ لِبَاس الجندي مثل لِبَاسه وَكَانَ سَاكِنا بدار يُقَال لَهَا دَار ابْن الزَّعْفَرَانِي عِنْد بَاب شاع بالرها

وَكَانَت هَذِه الدَّار ملاصقة لدار السُّلْطَان فاتفق أَن الْملك الْكَامِل دخل فِيهَا الْحمام فَأعْطَاهُ وَالِده الْفَارِس الْمَذْكُور فَاكِهَة وَمَاء ورد

وَأمره بِحمْلِهِ إِلَى السُّلْطَان فَحَمله إِلَيْهِ فَلَمَّا خرج من الْحمام وَقدمه إِلَيْهِ أَخذه وَدخل بِهِ إِلَى الخزانة وفرغ تِلْكَ الأطباق الْفَاكِهَة وملأها لَهُ شقاقا سنية وسيرها مَعَ غُلَامه لوالده وَأخذ الْملك الْكَامِل بِيَدِهِ وَكَانَ عمره يَوْمئِذٍ نَحْو ثَمَان سِنِين وَدخل إِلَى الْملك الْعَادِل

وعندما أبصره الْملك الْعَادِل وَلم يكن رَآهُ قبلهَا قطّ قَالَ للْملك الْكَامِل يَا مُحَمَّد هَذَا ابْن الْفَارِس لِأَنَّهُ أَخذه بالشبة فَقَالَ نعم

قَالَ هاته إِلَيّ

فَحَمله الْملك الْكَامِل وَوَضعه بَين يَدَيْهِ فمسك بِيَدِهِ وتحدث مَعَ مَعَه حدليناطوبلا

ثمَّ الْتفت إِلَى وَالِده وَقد كَانَ قَائِما فِي خدمته مَعَ جملَة الْقيام وَقَالَ لَهُ ولدك هَذَا ولد ذكي لَا تعلمه الجندية فالأجناد عندنَا كَثِيرُونَ وَأَنْتُم بَيت مبارك وَقد استبركنا بطبكم تسيره إِلَى الْحَكِيم أبي سعيد إِلَى دمشق ليقرئه الطِّبّ

فامتثل وَالِده الْأَمر وجهزه وسيره إِلَى دمشق أَقَامَ فِيهَا مُدَّة سنة كَامِلَة حفظ فِيهَا كتاب الْفُصُول لأبقراط وتقدمة الْمعرفَة

ثمَّ وصل إِلَى الْقَاهِرَة فِي سنة تسع وَخَمْسمِائة وَلم يزل مُقيما بهَا

وخدم بصناعة الطِّبّ الْملك الْكَامِل وَكَانَ كثير الاحترام لَهُ حظيا عِنْده وَله مِنْهُ الْإِحْسَان الْكثير والإنعام الْمُتَّصِل وَله خبز بالديار المصرية

وَهُوَ الَّذِي كَانَ مقطعا باسم عَمه موفق الدّين أبي شَاكر فَإِنَّهُ لما توفّي أَبُو شَاكر جعل الْملك الْكَامِل هَذَا الْخبز باسم رشيد الدّين الْمَذْكُور وَهُوَ نصف بلد يعرف بالعزيزية والخربة من أَعمال الشرقية

وَلم يزل فِي خدمَة الْملك الْكَامِل إِلَى أَن توفّي رَحمَه الله

ثمَّ خدم بعده وَلَده الْملك الصَّالح نجم الدّين أَيُّوب إِلَى أَن توفّي الْملك الصَّالح رَحمَه الله

وخدم أَيْضا ولد الْملك الصَّالح بعد ذَلِك وَهُوَ الْملك الْمُعظم ترنشاه

وَلما قتل رَحمَه الله وَذَلِكَ فِي يَوْم الِاثْنَيْنِ سَابِع وَعشْرين الْمحرم سنة ثَمَان وَأَرْبَعين وسِتمِائَة وَجَاءَت دولة التّرْك واستولوا على الْبِلَاد واحتووا على الممالك صَار فِي خدمتهم وأجروه على مَا كَانَ باسمه

ثمَّ خدم مِنْهُم الْملك الظَّاهِر ركن الدّين بيبرس الْملك الصَّالح وَبَقِي فِي خدمته على عَادَته المستمرة وقاعدته المستقرة وَله مِنْهُ الاحترام التَّام وجزيل الإنعام وَالْإِكْرَام

وللحكيم رشيد الدّين أبي حليقة نَوَادِر فِي أَعمال صناعَة الطِّبّ وحكايات كَثِيرَة تميز بهَا على غَيره من جمَاعَة الْأَطِبَّاء

من ذَلِك أَنه مَرضت دَار من بعض الآدر السُّلْطَانِيَّة بالعباسية وَكَانَ من سيرته مَعَه أَن لَا يُشْرك مَعَه طَبِيبا فِي مداواته وَفِي مداواة من يعز عَلَيْهِ من دوره وَأَوْلَاده فباشر مداواة الْمَرِيضَة الْمَذْكُورَة أَيَّامًا قَلَائِل ثمَّ حصل لَهُ شغل ضَرُورِيّ أَلْجَأَهُ إِلَى ترك الْمَرِيضَة وَدخل الْقَاهِرَة وَأقَام بهَا ثَمَانِيَة عشر يَوْمًا

ثمَّ خرج إِلَى العباسية فَوجدَ الْمَرِيضَة قد تولى مداواتها الْأَطِبَّاء الَّذين فِي الْخدمَة فَلَمَّا حضر وباشر مَعَهم قَالُوا لَهُ هَذِه الْمَرِيضَة تَمُوت والمصلحة أَن نعلم السُّلْطَان بذلك قبل أَن يفاجئه أمرهَا بَغْتَة

فَقَالَ لَهُم إِن هَذِه الْمَرِيضَة عِنْدِي مَا هِيَ فِي مرضة الْمَوْت وَأَنَّهَا تعافى بِمَشِيئَة الله تَعَالَى من هَذِه المرضة

فَقَالَ لَهُ أحدهم وَهُوَ أكبرهم سنا وَكَانَ الْحَكِيم الْمَذْكُور شَابًّا إِنَّنِي أكبر مِنْك وَقد باشرت من المرضى أَكثر مِنْك فتوافقني على كِتَابَة هَذِه الرقعة فَلم يُوَافقهُ

فَقَالَت جمَاعَة الْحُكَمَاء لَا بُد لنا من المطالعة فَقَالَ لَهُم إِن كَانَ لَا بُد لكم من هَذِه المطالعة فَيكون بأسمائكم من دوني

فَكتب إِلَيْهِ الْأَطِبَّاء بموتها فسير إِلَيْهِم رَسُولا وَمَعَهُ نجار ليعْمَل لَهَا تابوتا تحمل فِيهِ

وَلما وصل الرَّسُول والنجار مَعَه إِلَى الْبَاب والأطباء جُلُوس قَالَ لَهُ الْحَكِيم الْمَذْكُور مَا هَذَا النجار قَالَ يعْمل تابوتا لمريضتكم

فَقَالَ لَهُ تضعونها فِيهِ وَهِي فِي الْحَيَاة فَقَالَ الرَّسُول لَا لَكِن بعد مَوتهَا

قَالَ لَهُ ترجع بِهَذَا النجار وَتقول للسُّلْطَان عني خَاصَّة أَنَّهَا فِي هَذِه المرضة لَا تَمُوت

فَرجع وَأخْبرهُ بذلك

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْل استدعاه السُّلْطَان بخادم وشمعة وورقة بِخَطِّهِ يَقُول فِيهَا ولد الْفَارِس يحضر إِلَيْنَا لِأَنَّهُ لم يكن بعد سمي أَبَا حليقة وَإِنَّمَا سَمَّاهُ بذلك فِيمَا بعد السُّلْطَان الْملك الْكَامِل

فَإِنَّهُ كَانَ فِي بعض الْأَيَّام جَالِسا مَعَ الْأَطِبَّاء على الْبَاب فَقَالَ السُّلْطَان للخادم فِي أول مرّة اطلب الْحَكِيم فَقَالَ لَهُ يَا خوند أَي الْحُكَمَاء هُوَ فَقَالَ لَهُ أَبُو حليقة

فاشتهر بَين النَّاس بِهَذَا الِاسْم من ذَلِك الْيَوْم إِلَى حَيْثُ غطى نَعته ونعت عَمه الَّذِي كَانُوا يعْرفُونَ بِهِ ببني شَاكر

فَلَمَّا وصل إِلَيْهِ قَالَ أَنْت منعت عمل التابوت فَقَالَ نعم

قَالَ بِأَيّ دَلِيل ظهر لَك هَذَا من دون الْأَطِبَّاء كلهم قَالَ لَهُ يَا مَوْلَانَا لمعرفتي مزاجها وبأوقات مَرضهَا على التَّحْرِير من دونهم وَلَيْسَ عَلَيْهَا بَأْس فِي هَذِه المرضة

فَقَالَ لَهُ امْضِ وطبها وَاجعَل بالك لَهَا

فطب الْمَذْكُورَة وعوفيت

ثمَّ أخرجهَا السُّلْطَان وَزوجهَا وَولدت من زَوجهَا أَوْلَادًا كثيرين

وَمن جملَة مَا تمّ أَيْضا لَهُ أَنه حكم معرفَة نبض الْملك الْكَامِل حَتَّى أَنه فِي بعض الْأَيَّام خرج إِلَيْهِ من خلف الستارة مَعَ الآدر المرضى فَرَأى نبض الْجَمِيع وَوصف لَهُم

فَلَمَّا انْتهى إِلَى نبضه عرفه فَقَالَ هَذَا نبض مَوْلَانَا السُّلْطَان وَهُوَ صَحِيح بِحَمْد الله فتعجب مِنْهُ غَايَة الْعجب وَزَاد تمكنه عِنْده

وَمن حكاياته مَعَه أَنه أمره بِعَمَل الترياق الْفَارُوق فاشتغل بِعَمَلِهِ مُدَّة طَوِيلَة ساهرا عَلَيْهِ اللَّيْل حَتَّى حقق كل وَاحِد من مفرداته اسْما على مُسَمّى بِشَهَادَة أَئِمَّة الصِّنَاعَة أبقراط وجالينوس

وَفِي غُضُون ذَلِك حصل للسُّلْطَان نزلة على أَسْنَانه فأفصد بِسَبَبِهَا وَهُوَ ببركة الْفِيل يتفرج بهَا فطلع إِلَى القلعة وَتَوَلَّى مداواته الأسعد الطَّبِيب بن أبي الْحسن بِسَبَب شغل الْمَذْكُور بِعَمَل الترياق

فعالجه الأسعد مُدَّة وَالْحَال كلما مر اشْتَدَّ فَشَكا ذَلِك للأسعد فَقَالَ لَهُ مَا بَقِي قدامي إِلَّا الفصد

فَقَالَ لَهُ أفصد مرّة أُخْرَى ولي عَن الفصد ثَلَاثَة أَيَّام اطْلُبُوا لي أَبَا حليقة

فَحَضَرَ إِلَيْهِ وشكا لَهُ حَاله وأعلمه أَن ذَلِك الطَّبِيب قد أَشَارَ عَلَيْهِ بالفصد واستشاره فِيهِ أَو فِي شرب دَوَاء فَقَالَ يَا مَوْلَانَا بدنك بِحَمْد الله نقي وَالْأَمر أيسر من هَذَا كُله

فَقَالَ لَهُ السُّلْطَان إيش تَقول لي أيسر وَأَنا فِي شدَّة عَظِيمَة من هَذَا الْأَلَم لَا أَنَام اللَّيْل وَلَا أقرّ النَّهَار

فَقَالَ لَهُ يتَسَوَّك مَوْلَانَا من الترياق الَّذِي حمله الْمَمْلُوك فِي البرنية الْفضة الصَّغِيرَة وَترى بِإِذن الله الْعجب

وَخرج إِلَى الْبَاب وَلم يشْعر إِلَّا بورَقَة بِخَط السُّلْطَان قد خرجت إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُول فِيهَا يَا حَكِيم اسْتعْملت مَا ذكرته فَزَالَ جَمِيع مَا بِي لوقته وَكَانَ ذَلِك بِحُضُور الأسعد الطَّبِيب الَّذِي كَانَ يعالجه أَولا

فَقَالَ لَهُ وَنحن مَا نصلح لمداواة الْمُلُوك وَلَا يصلح لمداواتهم إِلَّا أَنْتُم

ثمَّ دخل الْملك الْكَامِل إِلَى خزانته وَبعث إِلَيْهِ مِنْهَا خلعا سنية وذهبا متوفرا

وَمن حكاياته إِنَّه لما طَال عَلَيْهِ عمل الترياق الْفَارُوق لتعذر حُضُور أدويته الصَّحِيحَة من الْآفَاق عمل ترياقا مُخْتَصرا تُوجد أدويته فِي كل مَكَان

وَنوى أَنه لَا يقْصد بِهِ قربا من ملك وَلَا طلب مَال وَلَا جاها فِي الدُّنْيَا وَلَا يقْصد بِهِ إِلَّا التَّقَرُّب إِلَى الله بنفع خلقه أَجْمَعِينَ والشفقة على سَائِر الْعَالمين وبذله للمرضى فَكَانَ يخلص بِهِ المفلوجين وَيقوم بِهِ الْأَيْدِي المتقوسة لوقته وساعته بِحَيْثُ كَانَ ينشيء فِي العصب زِيَادَة فِي الْحَرَارَة الغريزية وتقوية وإذابة البلغم الَّذِي فِيهِ فيجد الْمَرِيض الرَّاحَة بِهِ لوقته ويسكن وجع القولنج من بعد الاستفراغ لوقته

وَأَنه مر على بواب الْبَاب الَّذِي بَين السورين بِالْقَاهِرَةِ المحروسة وَهُوَ رجل يعرف بعلي وَهُوَ ملقى على ظَهره لَا يقدر أَن ينْتَصب من جنب إِلَى جنب فَشَكا إِلَيْهِ حَاله فَأَعْطَاهُ مِنْهُ شربة وطلع القلعة وباشر المرضى وَعَاد فِي السَّاعَة الثَّالِثَة من النَّهَار فَقَامَ المفلوج يعدو فِي ركابه يَدْعُو لَهُ

فَقَالَ لَهُ اقعد فَقَالَ يَا مَوْلَانَا قد شبعت قعُودا خليني أتملى بنفسي

وَمن حكاياته أَن الْملك الْكَامِل كَانَ عِنْده مُؤذن يعرف بأمين الدّين جَعْفَر حصل لَهُ حَصَاة سدت مجْرى الْبَوْل وقاسى من ذَلِك شدَّة أشرف فِيهَا على الْمَوْت

فَكتب إِلَى الْملك الْكَامِل وأعلمه بِحَالِهِ وَطلب مِنْهُ دستورا يمشي إِلَى بَيته يتداوى فَلَمَّا حضر إِلَى بَيته أحضر أطباء الْعَصْر فوصف كل مِنْهُم لَهُ مَا وصف فَلم ينجع

فاستدعى الْحَكِيم أَبَا حليقة الْمَذْكُور فَأَعْطَاهُ شربة من ذَلِك الترياق

فبمقدار مَا وصلت إِلَى معدته نفذت قوتها إِلَى مَوضِع الْحَصَاة ففتتها وَخرجت من الأراقة وَهِي مصبوغة بالدواء وخلص لوقته وَخرج لخدمة سُلْطَانه وَأذن أَذَان الظّهْر

وَكَانَ السُّلْطَان يَوْمئِذٍ مخيما على جيزة الْقَاهِرَة فَلَمَّا سمع صَوته أَمر بإحضاره إِلَيْهِ فَلَمَّا حضر قَالَ لَهُ مَا ورقتك بالْأَمْس وصلتنا وَأَنت تَقول أَنَّك كنت على الْمَوْت فَأَخْبرنِي أَمرك

فَقَالَ يَا مَوْلَانَا الْأَمر كَانَ كَذَلِك لَوْلَا لَحِقَنِي مَمْلُوك مَوْلَانَا الْحَكِيم أَبُو حليقة فَأَعْطَانِي ترياقا خلصت بِهِ للْوَقْت وَالْحَال

وَاتفقَ أَن فِي ذَلِك الْيَوْم جلس إِنْسَان ليريق مَاء فنهشته أَفْعَى فِي ذكره فَقتلته فَلَمَّا سمع السُّلْطَان بِخَبَرِهِ رق عَلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ رؤوفا بالخلق

ثمَّ دخل إِلَى قلعة الْقَاهِرَة بَات بهَا وَأصْبح من باكر والحكيم الْمَذْكُور قَاعد فِي الْخدمَة عِنْد زِمَام الدَّار على الْبَاب

وَالسُّلْطَان قد خرج فَوقف واستدعاه إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ يَا حَكِيم أيش هَذَا الترياق الَّذِي عملته واشتهر نَفعه للنَّاس هَذِه الشُّهْرَة الْعَظِيمَة وَلم تعلمني بِهِ قطّ فَقَالَ يامولانا الْمَمْلُوك لَا يعْمل شَيْئا إِلَّا لمولانا وَمَا سَبَب تَأْخِير إعْلَامه إِلَّا ليجربه الْمَمْلُوك لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أنشأه فَإِذا صحت لَهُ تجربته ذكره لمولانا على ثِقَة مِنْهُ وَإِذ قد صَحَّ هَذَا لمولانا فقد حصل الْمَقْصُود

فَقَالَ لَهُ تمْضِي وتحضر لي كلما عنْدك مِنْهُ

وَترك خَادِمًا قَاعِدا على الْبَاب فِي انْتِظَاره وَرجع إِلَى دَاره كَأَنَّهُ لم يطلع القلعة فِي تِلْكَ اللَّيْلَة وَلَا خرج من الدَّار فِي تِلْكَ السَّاعَة إِلَّا لهَذَا الْمُهِم خَاصَّة

فَمضى الْحَكِيم الْمَذْكُور إِلَى دَاره فَوجدَ عِنْده من ذَلِك الترياق شَيْئا يَسِيرا لِأَن الْخلق كَانَت تغنيه مِمَّا تطلبه مِنْهُ فَمضى إِلَى أصدقائه الَّذين كَانَ أهْدى لَهُم مِنْهُ شَيْئا وَجمع مِنْهُ مِقْدَار أحد عشر درهما وَوَعدهمْ بِأَنَّهُ يعطيهم عوضا عَنهُ أضعافه فَجعله فِي برنية فضَّة صَغِيرَة وَكتب عَلَيْهِ مَنَافِعه وَمِقْدَار الشربة مِنْهُ وَحملهَا إِلَى الْخَادِم الْمَذْكُور الْقَاعِد فِي انْتِظَاره فحملها إِلَى السُّلْطَان وَلم يزل حَافِظًا لَهَا فَلَمَّا آلمته أَسْنَانه دلكه عَلَيْهَا فَحصل لَهُ مِنْهُ من الرَّاحَة مَا ذكر

وَمن حكاياته مَعَه أَنه كَانَ قد عرض لبَعض جهاته مرض عجز عَن مداواته فسيرت تِلْكَ الْجِهَة تَقول لَهُ أَنا أعرف أَن السُّلْطَان لَو عرف أَن فِي الديار المصرية طَبِيبا خيرا مِنْك لما سلم نَفسه وَأَوْلَاده إِلَيْك من دون كَافَّة الْأَطِبَّاء فَأَنت مَا تُؤْتى فِي مداواتي من قلَّة معرفَة بل من التهاون بِأَمْرِي بِدَلِيل أَنَّك تمرض فتداوي نَفسك فِي أَيَّام يسيرَة وَكَذَلِكَ يمرض أحد أولادك فتداويه فِي أَيَّام يسيرَة أَيْضا وَكَذَلِكَ بَقِيَّة الْجِهَات الَّتِي عندنَا مَا مِنْهُم إِلَّا من تداويه وتنجع مداواتك بأيسر سعي

فَقَالَ لَهَا مَا كل الْأَمْرَاض تقبل المداواة وَلَو قبلت الْأَمْرَاض كلهَا المداواة لما مَاتَ أحد

فَلم تسمع ذَلِك مِنْهُ وَقَالَت أَنا أعرف أَن مَا بَقِي فِي الديار المصرية طَبِيب وَأَنا أُشير إِلَى السُّلْطَان يستخدم لي أطباء من دمشق فاستخدم لَهَا طبيبين نَصْرَانِيين فَلَمَّا حضرا لمداواتها من دمشق اتّفق سفر السُّلْطَان إِلَى دمياط فاستؤذن من يمْضِي مَعَه من الْأَطِبَّاء وَمن يتْرك فَقَالَ الْأَطِبَّاء كلهم يبقون فِي خدمَة تِلْكَ الْجِهَة والحكيم فلَان وَحده يكون معي

فَأَما أُولَئِكَ الْأَطِبَّاء فأنهم عالجوها بِكُل مَا يقدرُونَ عَلَيْهِ وتعبوا فِي مداواتها فَلم ينجع فانبسط فِي ذَلِك عذر الْمَذْكُور وَأورد مَا ذكر أبقراط فِي تقدمة الْمعرفَة

ثمَّ أَنه لما سَافر مَعَ السُّلْطَان بَقِي فِي خدمته مُدَّة شهر لم يتَّفق لَهُ أَن يستدعيه وَبعد ذَلِك بدمياط استدعاه لَيْلًا فَحَضَرَ بَين يَدَيْهِ فَوَجَدَهُ محموما وَوجد بِهِ أعراضا مُخْتَلفَة يباين بَعْضهَا بَعْضًا فَركب لَهُ مشروبا يُوَافق تِلْكَ الْأَعْرَاض الْمُخْتَلفَة وَحمله إِلَيْهِ فِي السحر فَلم تغب الشَّمْس إِلَّا وَقد زَالَ جَمِيع مَا كَانَ يشكوه فَحسن ذَلِك عِنْده جدا

وَلم يزل ملازما لاستعمال ذَلِك التَّدْبِير إِلَى أَن وصل إِلَى الْإسْكَنْدَريَّة وَاتفقَ أول يَوْم من صِيَام شهر رَمَضَان أَن الْحَكِيم الْمَذْكُور مرض بهَا فَحَضَرَ إِلَيْهِ الْأَطِبَّاء الَّذين فِي الْخدمَة واستشاروه فِيمَا يحملون إِلَى السُّلْطَان يفْطر عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُم عِنْده مشروب قد جربه وَهُوَ يثني عَلَيْهِ ويطلبه دَائِما فَمَا دَامَ لَا يشكو لكم شَيْئا متجددا يمْنَع من اسْتِعْمَاله فاحملوه إِلَيْهِ وَإِن تجدّد لكم شَيْء فاستعملوا مَا تَقْتَضِيه الْمصلحَة الْحَاضِرَة

فَمَضَوْا وَلم يقبلُوا مِنْهُ قصدا مِنْهُم أَن يجددوا تدبيرا من جهتهم فَلَمَّا جددوا ذَلِك التَّدْبِير تغير عَلَيْهِ مزاجه فاستدعاهم واستدعى نُسْخَة الْحَكِيم الْمَذْكُور وَأخذ يحاققهم عَلَيْهَا فَكَانَ من جملَة مَا فِيهَا بزر هندبا وَقد حذفوه فَقَالَ لَهُم لماذا حذفتم هَذَا البزر وَهُوَ مقو للكبد منق للعروق قَاطع للعطش فَقَالَ أحد الْأَطِبَّاء الَّذين حضرُوا وَالله مَا للمماليك فِي حذفه ذَنْب إِلَّا أَن الأسعد بن أبي الْحسن نقل فِي بزر الهندبا نقلا شاذا بِأَنَّهُ يضر بالطحال الْمَمْلُوك وَالله مَا يعرفهُ وَزعم أَن بمولانا طحالا فوافقه المماليك على ذَلِك

فَقَالَ وَالله يكذب أَنا مَا بِي وجع طحال

وَأمر بِإِعَادَة بزر الهندبا إِلَى مَكَانَهُ

ثمَّ حاققهم على مَنْفَعَة دَوَاء من مُفْرَدَات ذَلِك المشروب الَّتِي حذفوها إِلَى أَن أعادوهما وَأعَاد اسْتِعْمَاله دَائِما وَلم يزل مُنْتَفعا بِهِ شاكرا لَهُ

وَمن حكاياته أَنه طلب مِنْهُ يَوْمًا أَن يركب لَهُ صلصا يَأْكُل بِهِ اليخني فِي الْأَسْفَار واقترح عَلَيْهِ أَن يكون مقويا للمعدة منبها للشهوة وَهُوَ مَعَ ذَلِك ملين للطبخ فَركب لَهُ صلصا هَذِه صفته يُؤْخَذ من المقدونس جُزْء وَمن الريحان الترنجاني وَقُلُوب الأترج الغضة المحلاة بِالْمَاءِ وَالْملح أَيَّامًا ثمَّ بِالْمَاءِ الحلو أخيرا من كل وَاحِد نصف جُزْء يدق فِي جرن الفقاعي كل مِنْهُم بمفرده حَتَّى يصير مثل المرهم

ثمَّ يخلط الْجَمِيع فِي الجرن الْمَذْكُور ويعصر عَلَيْهِ الليمون الْأَخْضَر الْمُنْتَقى ويذر عَلَيْهِ من الْملح الأندراني مِقْدَار مَا يطيبه

ثمَّ يرفع فِي مسللات صغَار تسع كل وَاحِدَة مِنْهَا مِقْدَار مَا يقدم على الْمَائِدَة لِأَنَّهَا إِذا نقصت تكرجت وتختم تِلْكَ الْأَوَانِي بالزيت الطّيب وترفع فَلَمَّا اسْتَعْملهُ السُّلْطَان حصلت لَهُ مِنْهُ الْمَقَاصِد الْمَطْلُوبَة

وَأثْنى عَلَيْهِ ثَنَاء كثيرا

وَكَانَ مُسَافِرًا إِلَى بِلَاد الرّوم فَقَالَ للحكيم الْمَذْكُور هَذَا الصلص يَدُوم مُدَّة طَوِيلَة فَقَالَ لَهُ لَا فَقَالَ مَا يُقيم شهرا فَقَالَ لَهُ نعم إِذا عمل على هَذِه الصُّورَة الَّتِي ذكرتها

فَقَالَ تعْمل لي مِنْهُ راتبا فِي كل شهر مَا يَكْفِينِي فِي مُدَّة ذَلِك الشَّهْر وتسيره لي فِي رَأس كل هِلَال فَلم يزل الْحَكِيم الْمَذْكُور يجدد ذَلِك الصلص فِي كل شهر ويسيره لَهُ إِلَى دربندات الرّوم وَهُوَ يلازم اسْتِعْمَاله فِي الطَّرِيق ويثني عَلَيْهِ ثَنَاء كثيرا

وَمن نوادره أَنه جَاءَت إِلَيْهِ امْرَأَة من الرّيف وَمَعَهَا وَلَدهَا وَهُوَ شَاب قد غلب عَلَيْهِ النحول وَالْمَرَض فشكت إِلَيْهِ حَال وَلَدهَا وَأَنَّهَا قد أعيت فِيهِ من المداواة وَهُوَ لَا يزْدَاد إِلَّا سقاما ونحولا

وَكَانَت قد جَاءَت إِلَيْهِ بِالْغَدَاةِ قبل ركُوبه وَكَانَ الْوَقْت بَارِدًا

فَنظر إِلَيْهِ واستقرأ حَاله وجس نبضه

فَبَيْنَمَا هُوَ يجس نبضه قَالَ لغلامه ادخل ناولني الفرجية حَتَّى أجعلها عَليّ فَتغير نبض ذَلِك الشَّاب عِنْد قَوْله تغيرا كثيرا وَاخْتلف وَزنه وَتغَير لَونه أَيْضا فحدس أَن يكون عَاشِقًا

ثمَّ جس نبضه بعد ذَلِك فتساكن

وعندما خرج الْغُلَام إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ هَذِه الفرجية جس نبضه فَوَجَدَهُ أَيْضا قد تغير فَقَالَ لوالدته إِن ابْنك هَذَا عاشق وَالَّتِي يهواها اسْمهَا فرجية فَقَالَت أَي وَالله يَا مولَايَ هُوَ يحب وَاحِدَة اسْمهَا فرجية وَقد عجزت مِمَّا أعذله فِيهَا

وتعجبت من قَوْله لَهَا غَايَة التَّعَجُّب وَمن اطِّلَاعه على اسْم الْمَرْأَة من غير معرفَة مُتَقَدّمَة لَهُ لذَلِك

أَقُول وَمثل هَذِه الْحِكَايَة كَانَت قد عرضت لِجَالِينُوسَ لما عرف الْمَرْأَة العاشقة وَذَلِكَ أَنه كَانَ قد استدعي إِلَى امْرَأَة جليلة الْقدر وَكَانَ الْمَرَض قد طَال بهَا وحدس أَنَّهَا عاشقة فتردد إِلَيْهَا

وَلما كَانَ يَوْمًا وَهُوَ يجس نبضها وَكَانَت الأجناد قد ركبُوا فِي الميدان وهم يَلْعَبُونَ فَحكى بعض الْحَاضِرين مَا كَانُوا فِيهِ وَأَن فلَانا تبينت لَهُ فروسية وَلعب جيد وعندما سَمِعت باسم ذَلِك الرجل تغير نبضها وَاخْتلف

جسه بعد ذَلِك فَوَجَدَهُ قد تساكن إِلَى أَن عَاد إِلَى حَاله الأولى

ثمَّ إِن جالينوس أَشَارَ لذَلِك الحاكي سرا أَن يُعِيد قَوْله فَلَمَّا أَعَادَهُ وجس نبضها وجده أَيْضا قد تغير فتحقق من حَالهَا أَنَّهَا تعشق ذَلِك الرجل

وَهَذَا يدل على وفور الْعلم وَحسن النّظر فِي تقدمة الْمعرفَة

أَقُول وَجَمَاعَة أهل الْحَكِيم رشيد الدّين أبي حليقة أَكثر شهرتهم فِي الديار المصرية وَالشَّام ببني شَاكر لشهرة الْحَكِيم أبي شَاكر وسمعته الذائعة فَصَارَ كل من لَهُ نسب إِلَيْهِ يعْرفُونَ ببني شَاكر وَإِن لم يَكُونُوا من أَوْلَاده

وَلما اجْتمعت بالحكيم رشيد الدّين أبي حليقة وَكَانَ قد بلغه أنني ذكرت الْأَطِبَّاء الْمَشْهُورين من أَهله ووصفت فَضلهمْ وعلمهم فتشكر مني وتفضل فَأَنْشَدته بديها

(وَكَيفَ لَا أشكر من فَضلهمْ ... قد سَار فِي الْمشرق وَالْمغْرب)

(تشرق مِنْهُم فِي سَمَاء الْعلَا ... نُجُوم سعد قطّ لم تغرب)

(قوم ترى أقدارهم فِي الورى ... بِالْعلمِ تسمو رُتْبَة الْكَوْكَب)

(كم صنفوا فِي الطِّبّ كتبا أَتَت ... بِكُل معنى مبدع مغرب)

(وَإِن شكري فِي بني شَاكر ... مَا زَالَ فِي الْأَبْعَد وَالْأَقْرَب)

(خلدت مجدا دَائِما فيهم ... بِحسن وصف وثنا طيب) السَّرِيع

وَأما سَبَب الْحلقَة الَّتِي وضعت فِي أذن الرشيد واشتهر بهَا اسْمه فَإِن وَالِده لم يَعش لَهُ ولد ذكر غَيره فوصف لَهُ ووالدته حَامِل بِهِ أَن يهيء لَهُ حَلقَة فضَّة قد تصدق بفضتها وَفِي السَّاعَة الَّتِي يخرج فِيهَا إِلَى الْعَالم يكون صائغ مجهزا يثقب أُذُنه وَيَضَع الْحلقَة فِيهَا فَفعل ذَلِك وَأَعْطَاهُ الله الْحَيَاة فعاهدته والدته أَن لَا يقلعها فَبَقيت

ثمَّ تزوج هُوَ وجاءه أَوْلَاد ذُكُور عدَّة ويموتون كَمَا جرى الْحَال فِي أمره فتبه إِلَى عمل الْحلقَة الْمَذْكُورَة فعملها لوَلَده الْكَبِير الْمَعْرُوف بمهذب الدّين أبي سعيد لِأَنَّهُ سَمَّاهُ باسم عَم الْمَذْكُور

وَمن شعر الْحَكِيم رشيد الدّين أبي حليقة وَهُوَ مِمَّا أَنْشدني لنَفسِهِ فَمن ذَلِك قَالَ بِحَضْرَة سيف الْإِسْلَام

(سمح الحبيب بوصله فِي لَيْلَة ... غفل الرَّقِيب ونام عَن جنباتها)

(فِي رَوْضَة لَوْلَا الزَّوَال لشابهت ... جنَّات عدن فِي جَمِيع صفاتها)

(فالطير يطرب فِي الغصون بِصَوْتِهِ ... والراح تجلى فِي كؤوس سقاتها)

(ومجالس الْقَمَر الْمُنِير تنزهت ... فِيهِ الْحَواس باسمها وكناتها) الْكَامِل

وَقَالَ أَيْضا

(أحن إِلَى ذكر التواصل يَا سعد ... حنين النياق العيس عَن لَهَا الْورْد)

(فسعدى على قلبِي ألذ من المنى ... وقربي لَهَا عِنْد اللِّقَاء هُوَ الْقَصْد)

(حوت مبسما كالدر أضحى منظما ... وثغرا كَمثل الأقحوان بِهِ شهد)

(وفرعا كَمثل اللَّيْل أَو حَظّ عاشق ... ووجها كضوء الصُّبْح هَذَا لذا ضد)

(أَقُول لَهَا عِنْد الْوَدَاع وبيننا ... حَدِيث كنشر الْمسك خالطه ند)

(ترى نَلْتَقِي بعد الْفِرَاق بمنزل ... ويظفر مشتاق أضرّ بِهِ الْبعد)

(تمر اللَّيَالِي لَيْلَة بعد لَيْلَة ... وذكركم بَاقٍ يجدده الْعَهْد)

(وَلَكِن خوف الصب إِن طَال هجركم ... فَيَقْضِي وَلَا يمْضِي لَهُ مِنْكُم وعد)

(عشقت سيوف الْهِنْد من أجل أَنَّهَا ... تشابهها فِي فعل ألحاظها الْهِنْد)

(ولي فِي الرماح السمر سمر لِأَنَّهَا ... تشابهها قدا فيا حبذا الْقد)

(وَفِي الْورْد معنى شَاهد فَوق خدها ... نشاهده فِيهَا إِذا عدم الْورْد)

(وَبِي من هَواهَا مَا جحدت وعبرت ... بِهِ عبرتي يَوْمًا وَمَا نفع الْجحْد) الطَّوِيل

وَقَالَ أَيْضا

(خليلي أَنِّي قد بقيت مسهدا ... من الْحبّ مأسور الْفُؤَاد مُقَيّدا)

(بحب فتاة يخجل الْبَدْر وَجههَا ... وَلَا سِيمَا فِي ليل شعر إِذا بدا)

(ضللت بهَا وَهِي الْهلَال ملاحة ... فوا عجبا مِنْهُ أضلّ وَمَا هدى)

(لَهَا مبسم كالدر أضحى منظما ... ونطق كَمثل الدّرّ أَمْسَى مبددا) الطَّوِيل

وَقَالَ أَيْضا لما كَانَ بدمياط وَمرض وَالِده فِي الْقَاهِرَة فَجَاءَهُ كِتَابه بعافيته

(مطرَت على سحائب النعماء ... مذ زَالَ مَا تَشْكُو من البلواء)

(ولبست مذ أَبْصرت خطك نعْمَة ... فِيهَا أقوم لشكرها بوفاء) الْكَامِل

ولرشيد الدّين أبي حليقة من الْكتب مقَالَة فِي حفظ الصِّحَّة

مقَالَة فِي أَن الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية إِذْ الروحانية كمالات وَإِدْرَاك الكمالات والجسمانية إِنَّمَا هِيَ دفع آلام خَاصَّة وَإِن زَادَت أوقعت فِي آلام أخر

كتاب فِي الْأَدْوِيَة المفردة سَمَّاهُ الْمُخْتَار فِي الْألف عقار

كتاب فِي الْأَمْرَاض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة الَّتِي قد أظهرت التجربة نجحها وَلم يداو بهَا مَرضا يُؤَدِّي إِلَى السَّلامَة إِلَّا ونجحت التقطها من الْكتب المصنفة فِي صناعَة الطِّبّ من آدم وَإِلَى وقتنا هَذَا ونظم متشتتها ومتفرقها

مقَالَة فِي ضَرُورَة الْمَوْت وَلما ذكر من التَّحْلِيل فِي هَذِه الْمقَالة إِن الْإِنْسَان لم يزل يتَحَلَّل من بدنه بالحرارة الَّتِي فِي دَاخله وبحرارة الْهَوَاء الَّذِي من خَارج كَانَت نهايته إِلَى الفناء بِهَذَيْنِ السببين وتمثل بعد ذكرهمَا بِهَذَا الْبَيْت[1]

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 590-597

أبو الفرج النصراني

أَنه كَانَ فِي خدمَة صَلَاح الدّين طَبِيب يُقَال لَهُ أَبُو الْفرج النَّصْرَانِي وَبَقِي فِي خدمته مُدَّة وَله تردد إِلَى دوره فَقَالَ يَوْمًا للسُّلْطَان أَن عِنْده بَنَات وَهُوَ يحْتَاج إِلَى تجهيزهن وَطلب مِنْهُ أَن يُطلق لَهُ مَا يَسْتَعِين بِهِ من ذَلِك فَقَالَ لَهُ صَلَاح الدّين اكْتُبْ فِي ورقة جَمِيع مَا تحْتَاج إِلَيْهِ فِي تجهيزهن وجيب الورقة

فَمضى أَبُو الْفرج وَكتب فِي ورقة من المصاغ والقماش والآلات وَغير ذَلِك مَا يكون بِنَحْوِ ثَلَاثِينَ ألف دِرْهَم

وَلما قَرَأَ صَلَاح الدّين الورقة أَمر الخزندار بِأَن يَشْتَرِي لأبي الْفرج جَمِيع مَا تضمنته وَلَا يخل بِشَيْء مِنْهُ

وَلما بلغ ذَلِك ابْن المطران قصر فِي ملازمته الْخدمَة وَتبين لصلاح الدّين مِنْهُ تغير فِي وَجهه فَعرف السَّبَب

ثمَّ أَمر الخزندار بِأَن يحضر جَمِيع مَا وصل إِلَى أبي الْفرج الطَّبِيب مِمَّا اشْتَرَاهُ لَهُ ويحسب جملَة ثمنه وَمهما بلغ من المَال يدْفع إِلَى ابْن المطران مثله سَوَاء فَفعل ذَلِك[1]، وخدم أَيْضا الْملك الْأَفْضَل نور الدّين عَليّ بن صَلَاح الدّين وَأقَام عِنْده بسميساط وَكَذَلِكَ أَيْضا أَوْلَاد أبي الْفرج اشتغلوا بصناعة الطِّبّ وَأَقَامُوا بسميساط فِي خدمَة أَوْلَاد الْأَفْضَل[2]

أبو منصور النصراني

كَانَ طَبِيبا مَشْهُورا عَالما حسن المعالجة والمداواة وخدم بصناعة الطِّبّ الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين ابْن أَيُّوب وَبَقِي سِنِين فِي خدمته[3]

---

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 562

[2]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 661

[3]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 661

أبو النجم النصراني

هُوَ أَبُو النَّجْم بن أبي غَالب بن فَهد بن مَنْصُور بن وهب بن قيس بن مَالك

كَانَ طَبِيبا مَشْهُورا فِي زَمَانه جيد الْمعرفَة بصناعة الطِّبّ مَحْمُود الطَّرِيقَة فِيهَا مشكور المعالجة حسن الْعشْرَة محبا للخير

وَكَانَ يقْرأ عَلَيْهِ علم الطِّبّ ويعد من جملَة الْفُضَلَاء المتميزين فِي وقته

وحَدثني أَبُو الْفَتْح بن مهنا النَّصْرَانِي أَن أَبَا النَّجْم كَانَ أَبوهُ فلاحا فِي قَرْيَة شفا من أَرض حوران وَكَانَ يعرف بالعيار

وَكَانَ ابْنه أَبُو النَّجْم هَذَا صَبيا فَأَخذه بعض الْأَطِبَّاء بِدِمَشْق عِنْده وَلما كبر علمه صناعَة الطِّبّ وعرفه أعمالها

وخدم أَبُو النَّجْم بصناعة الطِّبّ الْملك النَّاصِر صَلَاح الدّين يُوسُف بن أَيُّوب وحظي عِنْده وَكَانَ مكينا فِي الدولة وَبَقِي فِي خدمته مُدَّة

وَكَانَ يتَرَدَّد إِلَى دوره ويعالجهم مَعَ جملَة الْأَطِبَّاء

وَتُوفِّي أَبُو النَّجْم النَّصْرَانِي بِدِمَشْق فِي سنة تسع وَتِسْعين وَخَمْسمِائة

وَله ولد طَبِيب وَهُوَ أَمِين الدولة أَبُو الْفَتْح ابْن أبي النَّجْم

وَله من الْكتب كتاب الموجز فِي الطِّبّ وَهُوَ يشْتَمل على علم وَعمل[1]

---

[1]) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن اصيبعة ص 661

سينوت بك حنا

ولد في بندر أسيوط عام ١٨٨٠م وهو ابن المغفور له الخواجه حنا ميخائيل أحد سراة مديرية أسيوط، فنشأ نشأة كاملة وأنبته الله نباتًا حسنًا ، ولما بلغ السابعة من عمره أدخل مدرسة الأليانس الفرنساوية بأسيوط، فظهرت نجابته وتم ذكاؤه وصار المثل الأعلى لأترابه، فتاقت نفسه إلى الاستزادة فيمم ثغر الإسكندرية ودخل كلية الفرير بها وارتشف العلوم الراقية من منبعها، وظلت مواهبه تتجلى كلما انفتح أمامها باب من العلم يساعدها على الظهور كاملة، أساتذة صاغوا هذه الجوهرة الثمينة وأخرجوها للناس كاملة تمتعهم بجمالها وجلالها، فتَخَرَّجَ من هذه الكلية حاملًا لواء العلوم والمعارف.

وقد ساح كثيرًا في عواصم أوربا وعاشر الطبقات الراقية، وكان في مسامراته معهم يحادثهم عن مجد مصر وآثارها وأهرامها ومسلاتها، ولا يغمض له عين في تلك الزيارات إلا ويذكر استقلال مصر، ومن ذاك الحين أخذ يخدم بلاده بما أوتيه من ذكاء وحكمة، فأخذت مواهبه تسطع بين كبار المفكرين في الأمة المصرية، كما كان الصديق الحميم للمغفور له مصطفى كامل باشا، فكان له المقام الأسمى والقسط الأوفر والرأي الأَسَدُّ عند ذاك الصديق الذي أحبه حبًّا مفرطًا لسمو مداركه وكبير وطنيته وحسن جهاده.

ولما ذاع فضله في دوائر الحكومة وقع اختيارها عليه، فعينته عضوًا في الجمعية التشريعية في أواخر سنة ١٩١٣م، ومما يجب ذكره هنا أنه في بادئ بدء الجمعية التشريعية حصل انقسام بين الأعضاء المنتخبين،١ والحكومة وأعضائها٢ على اختيار أحد وكيلي الجمعية التشريعية للإنابة عن الرئيس إذا تخلف عن إحدى الجلسات، فكانت الحكومة وأعضاؤها ترغب اختيار الوكيل المعين من قبلها أن يكون عضدها الأيمن وساعدها القويم في تنفيذ رغائبها «وكان إذ ذاك صاحب الدولة عدلي يكن باشا وكيلها المعين»، والأعضاء المنتخبون يرغبون اختيار العضو الحر الذي اختارته الأمة بأسرها، وكان صاحب الدولة الزعيم الأكبر

سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري في باريس، فوقف النائب الجريء سينوت بك حنا في المجلس وأعلن على رءوس الأشهاد انضمامه وموافقته مع الأعضاء المنتخبين على اختيار الوكيل المنتخب من قبل الأمة؛ ليمثلها تمثيلًا حقيقيًّا ويعرف ما تحتاج إليه.

وفي سنة ١٩١٨م هزته الأريحية الشماء والحمية الوطنية على المنادات بطلب الاستقلال التام وتحرير البلاد من رق العبودية قائلًا:

أيًا قوم ساءت حالنا فإلى متى   نظل عبيدًا والأرقاء تعتق

فهب كالليث من عرينه دون مبالاة بالمصاعب والمتاعب مهما كلفته، وانضم إلى حضرات أعضاء الوفد المصري في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨م، وأخذ الأهبة للسفر إلى باريس مع رفاقه أعضاء الوفد وصاحب الدولة رئيسهم؛ لبسط شكوى الأمة لدى الدول الأوربية.

وفي يوم ١٣ أبريل سنة ١٩١٩ سافر مع أعضاء الوفد ميممًا باريس، فكان يوم وداعهم يومًا تحفه القلوب فشيعتهم الأبصار، وسافر على ظهر الباخرة «كالدونيا»، ولما وصل باريس وطلب حضور مؤتمر الصلح بناء على التفويضات المأخوذة من جميع أفراد الأمة قوبل طلبه بالرفض، وهذه أول صدمة اصطدم بها الوفد المصري في طريقه، غير أنه قبلها بصدر رحب ولم تثن من عزم هؤلاء الأبطال المجاهدين، فأخذوا يشرحون مظلمتهم على صفحات جرائدهم الأوربية الحرة ولأعضاء مجلس النواب الأحرار، ويقدمون المستندات القوية حتى استلفتوا أنظار العالم الأوربي، وتطوع كثيرون من أحرارهم وأعضاء مجالسهم وكبار محاميهم مثل المستر فولك المحامي الأمريكي ذائع الصيت للدفاع عن القضية المصرية، حتى اعترف بأحقيتها وعدالتها مجلس شيوخ أمريكا، وبعد جهاد عظيم عاد صاحب الترجمة لمصر في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩، وترك الزعيم الأكبر ورفاقه يعملون لما فيه الوصول لبغيتهم وضالتهم المنشودة.

ومن ثم أخذ صاحب الترجمة ينشر في أمهات الجرائد المصرية مقالاته المشهورة:

الوطنية ديننا   والاستقلال حياتنا

ولما رغبت الدولة الإنجليزية في إرسال لجنة ملنر أخذ صاحب الترجمة ينشر درره الغوالي وينبه أذهان الأمة بوجوب مقاطعتها، وذكر الوزارة السعيدية بواجبها إزاء هذه اللجنة مما اضطرها إلى تقديم استقالتها في شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ فيا لها من خدمة جليلة تذكرها

الأمة له بجميل الشكر وعظيم الثناء، وما كادت اللجنة المذكورة تطأ أقدامها أرض وادي النيل في يوم الأحد ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩، حتى كانت الحكومة قد أخذت حيطتها لمنع المظاهرات خوفًا من الاضطرابات، وأمرت بإبعاد الزعماء السياسيين وقادة الرأي العام الوطني عن العاصمة، والحجر عليهم في عزبهم دون أن يغادروها، كما وقد حذّرت على الكتاب والأدباء الخوض والأبحاث في ما جاءت لأجله هذه اللجنة، فكان نصيب نائبنا الحر الجريء أن نفي بالقوة إلى عزبته بمركز الفشن، ولما رأت اللجنة الملنرية والحكومة أن هذه الخطة لم تجدهما نفعًا عدلت عنها، وأمرت بعودة أولئك الأبطال من منفاهم، فما وصل هذا الخبر مسامع أعيان ووجهاء مركز الفشن حتى أخذوا يفدون إلى عزبة صاحب الترجمة أفواجًا أفواجا؛ لرفع التهاني الخالصة لإطلاق سراحه، واحتفلوا به عند عودته للقاهرة احتفالًا شائقًا حيث أعدوا لعزته قطارًا خاصًّا زين بالزهور والرياحين والأعلام المصرية، وجاءوا معه، وما وصل القطار محطة العاصمة حتى استقبله كبار رجال الأمة، وعموم أعضاء الوفد المصري وطلبة المدارس، فأنزلوا سينوت بك من القطار محمولًا على الأعناق تكريمًا له وإظهارًا لعواطفهم، ومن ثم أخذ ينتقد ما يجب انتقاده في أعمال الوزارة اليوسفية، وكان من وراء نقده عدم صلاحية إقامة الخزان في أعلى النيل لإرواء ثلاثمائة ألف فدان من أراضي السودان لوقوع الضرر بالأراضي المصرية، مفندًا أسباب ذلك بمقالاته التي نشرت تباعًا بجريدة الأفكار من عشرة إلى ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٠، فكان من وراء نقده الحر أن قدم معالي إسماعيل سري باشا وزير الأشغال استقالته في الشهر نفسه.

وحدث أن السلطة العسكرية الإنجليزية قررت نفي زعيم الأمة إلى عدن في ٢٣ ديسمبر، وما كاد يذاع هذا الخبر حتى أصبح الناس والسماء ملبدة بالغيوم والسحب القائمة، وكأنما كان ذاك اليوم العبوس القمطرير ينذر بمصائب وأرزاء، وكل مصري يعرف ما انتحل من الأسباب لتبرير ذلك الاعتقال، كما وقد صدرت أوامر أخرى باعتقال صاحب الترجمة والأستاذين مصطفى النحاس باشا ووليم مكرم عبيد، وفي اليوم ذاته أقلت السيارات الإنجليزية المسلحة حضرات الأعضاء المذكورين، وكذا محمد فتح الله بركات باشا والمرحوم عاطف باشا بركات، حيث أحاطت بمنازلهم هذه القوات وانتزعتهم قوة واقتدارًا، كما ذهبت قوة أخرى في الوقت نفسه لصوب بيت الأمة معها سيارة، حيث أنزلت حضرة صاحب

الدولة سعد باشا زغلول وأخذته، وواصلوا السير بهم إلى عدن إلى أن بلغوها أصيل يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٢٢، وما عدن إلا صخور سوداء وأراضي جرداء قاحلة، وظل القوم بها يقاسون سوء مناخها ورداءة طقسها حتى يوم أول مارس سنة ١٩٢٢، حيث صدرت الأوامر بنقل الرئيس الجليل بمفرده إلى سيشل مع خادمه الخصوصي، ولا تسل عما شمل صحبه من الغم والحزن لهذا الفراق المريع، وبتاريخ ١٧ مارس سنة ١٩٢٢ صدرت الأوامر لباقي صحبه المخلصين الموجودين بعدن بالسفر إلى سيشل، وما كاد يستقر بهم المقام طويلًا حتى فوجئوا بنقل دولة الزعيم إلى جبل طارق، وهناك احتج بخطاب أرسله إلى حاكم جبل طارق بسوء الحال ورداءة المناخ بالنسبة لصحة صحبه إلى أن قال: وجميع صحبي يعانون كثيرًا من تأثيراته، وإن صحتهم لفي خطر من عدم وجود التسهيلات الطبية اللازمة، وطلب منه نقلهم من سيشل إلى مكان آخر، فأبى السماح له بما طلب، وظلوا بها حتى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٢، حيث صدرت الأوامر بالإفراج عنهم والعودة إلى الوطن المحبوب.

ولما أعلن تصريح ٢٨ فبراير وأرادت الحكومة المصرية إجراء عملية لانتخاب أعضاء مجلس نوابها وشيوخها، كان حضرة صاحب هذه الترجمة أول من نال أغلبية الأصوات الساحقة عن دائرة بندر أسيوط، وفاز بالتزكية فوزًا عظيمًا في دوريه الأول والثاني، ولا عجب فقد رأوا فيه من الشجاعة وقوام المبدأ والتضحيات الغالية ما لا يمكن لغيره احتماله[1].

وتحدد يوم 8 يوليو سنة 1930م لزيارة يقوم بها النحاس باشا إلى مدينة المنصورة لزيارة محمد بك الشناوى رئيس لجنة الوفد، وقد قررت حكومة إسماعيل صدقى منع الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا، وفتحت الكبارى حتى لا يسافر الوفد بالسيارات، وأنتشر عساكر البوليس فى كل مكان بالمنصورة، وعندما مرت سيارة النحاس فى المسار المتفق عليه ولما أشرفت السيارة على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة، وكان سينوت يشعر بخطة دنيئة لاغتيال النحاس دبرتها حكومة صدقى باشا، لذلك قرر سينوت هو وصديقه حامد جوده على أن يلاصقا الزعيم حتى يفتدياه إذا تعرض لمكروه، وعندما لمح

---

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 456-461

سينوت أحد الجنود يسدد الحربة غلى صدر النحاس فتصدى له سينوت ليتلقى الطعنة القاتلة، وبعد أن نقل سينوت إلى منزلة بالجيزة توفى ودفع حياته ثمناً لوفائه[1].

نيافة الحبر الجليل جزيل الطوبى والاحترام الأنبا متاؤس

ما بزغ شهر يناير سنة ١٩٢٣ إلا وطارت الأنباء للدار البطريركية الأرثوذكسية بقدوم حضرة صاحب النيافة كلي الطهر والورع، الأنبا متاؤس مطران كرسي المملكة الحبشية، فبدأت البطريركية في استقباله استقبالًا يليق لهذا الحبر الجليل من التجلة والاحترام، وأرسلت وفدها لمقابلته على ميناء السويس وعادوا بنيافته إلى العاصمة، حيث قوبل فيها من عموم الطائفة بالسرور والابتهاج مهنئينه بقدومه السعيد، وقد تفضل جلالة فؤاد الأول ملك مصر والسودان، فأوفد من قبله مندوبًا لتبليغ تحيات جلالته، وغصت الدار البطريركية بكل عظيم ووجيه، ودقت الأجراس سرورًا وحبورًا وفتحت أبواب الكنيسة المرقسية الكبرى، وأقيمت فيها صلاة شكر لسلامة وصول نيافته، وأنشد الشمامسة أناشيد الابتهاج وساروا أمام نيافته حاملين الصلبان حتى مدخل الكنيسة، ولا يمكن وصف اغتباط الشعب ومنتهى سروره برؤية طلعة هذا التقي الورع، الذي طال اغترابه عن أنظارهم زمنًا طويلًا، حيث كانت زيارته الأخيرة للوطن عام ١٩٠٢م.

ولقد حظي بمقابلة جلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر والسودان صباح يوم الاثنين الموافق ٢٩ يناير، سنة ١٩٢٣ مصحوبًا بحضرات الآباء المحترمين الأنبا يؤانس مطران كرسي

1) هذا الرجل من مصر، لمعى المطيعى ص 190-191

الإسكندرية، والأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق، فأكرم وفادته إكرامًا دل على مكانته السامية في القلوب.

ولما كان مركز نيافته الحالي من أهم المراكز الدينية والسياسية؛ لتدخله في أكثر شؤون المملكة الحبشية وكثيرون يجهلون تاريخ حياة نيافته، فقد رأينا أن نأتي على لمحة من تاريخه الشريف، وسرد ملحوظاتنا عليها وهو كل ما وصلنا إليه فنقول:

ولد نيافته في بلدة بني خالد إحدى قرى مديرية أسيوط، وشب عاكفًا على الآداب والتقوى ثم دخل في دير المحرق في عهد المتنيح المثلث الرحمة الأنبا أبرام الذي كان اسمه وقتئذ القمص بولس، وهذا كان رئيسا للدير المذكور قبل أن يرسم أسقفًا على كرسي الفيوم، ولما كثرت إحسانات وعطايا هذا القديس المتنيح، عزل بمعرفة الأنبا مرقص مطران كرسي البحيرة في ذاك الوقت للسبب المذكور مدعيًا أن إيراد الدير لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكفي لسد حاجة هؤلاء المعوزين، وهكذا كان نصيبه وجزاؤه.

وبعد نهاية المدة التي مكثها نيافة المترجم في دير المحرق، انتقل راهبًا إلى دير العذراء بالبراموس بالبرية في عهد المتنيح الأنبا مرقص مطران كرسي البحيرة، ورسم نيافته أسقفًا للحبشة سنة ١٥٩٧ للشهداء/١٨٩١ ميلادية، وقد كان هناك الأنبا بطرس، فلما ذهب إلى بلاد الأحباش سار بحكمة لذكائه الطبيعي وبقي هناك في مدينة النجاشي منليك حتى إذا ارتقى عرش المملكة دبر سيادته بأحسن طريقة الملك، فكان جزاؤه أن حاز رضا النجاشي التام، وحصل على درجة لم ينلها مثله ممن تولوا الإمامة إلا نادرًا، فإنه فضلًا عن أنه صار كبير الأساقفة هناك، فإن النجاشي لا يعمل عملًا ولا يصدر حكمًا إلا بعد أن يستشيره فيه مكافأة له على حسن تدبيره وعنايته التامة، وسعيه المتواصل لإعلاء منار المملكة، وتقوية دعائم الدين المسيحي، وتثبيت أركانه في تلك البلاد الشاسعة الإرجاء، وقد ثبت في يوم الأحد ١٦ فبراير سنة ١٩٠٢ في درجة المطرانية عظيمة القدر باحتفال حافل جدًّا لم يسبق له مثيل من قبل، ولقد ذاع صيته في أقطار المسكونة، كما أن أحد كبار الإفرنج جاهر بما لنيافته من المقام الأسمى والاحترام الكلي، والكلمة المسموعة والباع الطويل في أمور المملكة، وأطنب في صفاته الشخصية إطنابًا عظيمًا، وذكر ما لمكانته بين ذاك الشعب من الإجلال حتى إنه وصفه ببابا رومية عند طائفة الكاثوليك، ولا غرابة ولا عجب فإن اسم

نيافة الأنبا متاؤس سيخلد بمداد الفخر والإعجاب في بطون التاريخ ضمن من جاهدوا، وسعوا في رفع شأن الديانة المسيحية، وتثبيتها في تلك البلاد وإعلاء كلمتها، ولقد مكث نيافته مدة اثنين وأربعين عامًا حتى تاريخ زيارته هذه للأقطار المصرية وهو في تلك الأقطار النائية عن الوطن دائب على العبادة متمسك بأهداب التقوى والصلاح.

أما عن أخلاق نيافته الشخصية وأعماله الخيرية، فحدث ولا حرج فهو مثال اللطف والوداعة وكرم الأخلاق والطهارة، وحسناته العديدة التي يوزعها على البؤساء، ومن أخنى عليهم الدهر بكله وكانوا من العائلات الشريفة، فحدث عنها ولا حرج، وله اليد الطولى في كل عمل خيري مدفوعًا إلى ذلك بعامل الإيمان المسيحي الحقيقي المجرد من حب الفخر والفخفخة والتظاهر، اللهم إلا ابتغاء مرضاة رب المجد وضميره الطاهر[1].

صاحب النيافة الحبر الجليل الورع الأنبا توماس

ولد هذا الراعي الصالح بعزبة الدير المحرق التابع لمركز منفلوط من أعمال مديرية أسيوط في سنة ١٥٩٠ للشهداء، الموافقة لسنة ١٨٧٣ ميلادية من أبوين تقيين ربياه على الفضيلة والتقوى والصلاح، وأدخله والده مكتب البلدة فتعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة العربية والقبطية، ولما بلغ الثامنة عشر من عمره قصد دير البرموس الكائن ببرية بشهات «أي: ميزان القلوب» بمديرية البحيرة في يوم الخميس ٤ بشنس سنة ١٦٠٧، وكان يدعى عبد الملك نصر الله فسافر بمعية نيافة الحبر الجليل الأنبا يؤنس مطران الإسكندرية، وجناب قنصل روسيا بإسكندرية الذي قصد زيارة الدير في ذاك العام، فكان فيه مثال التقوى والورع.

وفي ١٦ برمودة سنة ١٦٠٩ الموافقة سنة ١٨٩٢ ميلادية كرس راهبًا بالدير المذكور في عهد رئاسة المرحوم القمص باخوم رئيس الدير، وقد واصل الليل بالنهار في حفظ التسبحة والمزامير والألحان الكنائسية، والاشتراك مع الرهبان في أشغال الدير الضرورية، وأخذ فضله يظهر منذ ذاك الحين حتى نال عن جدارة واستحقاق وظيفة القساوسة، بوضع يد

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 550-552

الكلي القداسة الجزيل الاحترام غبطة البابا المعظم الأنبا كيراس الخامس بطريرك الإسكندرية في يوم الأحد الموافق ١٣ بابه سنة ١٦١٣–١٨٩٦م، وأطلق عليه باسم القمص عوض تبركًا وإحياءً لذكر المتنيح الراهب البرماوي، الذي عند ذكر اسمه في وضع يد غبطة البطريرك ذرفت عيناه الطاهرة بالدموع حزنًا على ذلك الراهب الراحل الكريم، فكان لهذا المنظر أعظم تأثير عند الحاضرين، مما دل على ما كان عليه ذاك المتوفى من المكانة السامية عند قداسة البابا، ثم تعين صاحب الترجمة وكيلًا لأشغال عزبة الدير بطوخ النصارى «منوفية» في شهر هاتور من ذاك العام في عهد رئاسة الأنبا ساويرس مطران كرسي صنبو الآن، وفي ٣٠ هاتور عام ١٦١٤–١٨٩٧م رسم قمصًا، وفي أول توت سنة ١٦١٦–١٨٩٩م انتظم في سلك طلبة مدرسة الرهبان الأكليريكية بالإسكندرية، فلبث بها أربع سنوات برز فيها في العلوم اللاهوتية وصار من كبار رجال الدين، وقد وضع نيافته كتابًا للمواعظ مرتبًا على فصول الحدود والأعياد بطول السنة، وكلها إرشادات روحية، وتعاليم وقواعد أرثوذكسية ولكن لم يطبع بعد. وفي ٤ برمهات سنة ١٦١٩ الموافقة لسنة ١٩٠٢، أسند إليه نيافة مطران كرسي الإسكندرية وكالة البطريكخانة، فقام بشؤون وظيفته خير قيام وبرهن على ما له من الخبرة والدراية، ونال ثناء نيافة المطران وإعجاب الإسكندريين لفضله وكمال أدبه، وفي يوم الأحد الموافق ٧ برمهات سنة ١٦٢١ الموافقة لسنة ١٩٠٥، أسندت إليه أسقفية كرسي المنيا والأشمونين خلفًا للمرحوم الأنبا ديمتريوس، فأظهر حزمًا واقتدارًا ملك بهما قلوب شعبه، كما أسندت إليه درجة المطرانية في ٨ بابه سنة ١٦٢٥ الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٩٠٨، وفي سنة ١٩١٢ ضم إليه بندر ملوي، وفي سنة ١٩١٤ ضمت إليه أبروشية بردونوها التي تحتوي على إحدى عشرة بلدة ذلك؛ لأنه رجل العمل الحقيقي، ولا شك أن القارئ الكريم عند مطالعته للأعمال الهامة التي قام بها نيافة صاحب الترجمة يتأكد قوة عزيمته، وصدق إرادته وبعد نظره وغيرته على رفع لواء الدين والعلم والأدب بين ربوع أبروشيته، التي أصبحت زاهرة بفضل مجهوده، وتفرغ كل أوقاته لخير ورفاهية شعب أبروشيته، الذي يفاخر به في كل مجلس وناد، ولكن من سوء الحظ قد ألمت به الأمراض، فأشار عليه الأطباء بالسفر للبلاد الأوربية وفعلًا سافر أولًا للقدس الشريف في ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ لتأدية الواجب الديني وزيارة الأراضي المقدسة، وهناك

وجد الراهب فيلبس الموكل لعمارة كنيسة أريحا، فتبرع نيافته بمبلغ ستين جنيهًا، وجمع من الذين معه بمعيته خمسة وأربعين جنيهًا، وسلمها للراهب المذكور، وسافر بعد ذلك لأوربا وقابل أشهر الأطباء الذين قرروا فحصه جيدًا، وقرروا بأن المرض ناتج من كثرة الأشغال والمجهودات. وإننا نذكر هنا بعض أعماله الخيرية والعلمية والدينية والمادية، التي خدم بها طائفته وفيها الدليل الكافي على ما لنيافته من الفضل الجزيل.

(١)إزالته دار المطرانية القديمة وتجديدها على الطراز الحديث، ونقشها نقشًا بديعًا، وجلب لها ثمين الأثاث حتى أصبحت تضارع أعظم المباني في العظمة والأبهة، وبها متسع لإضافة الغرباء والواردين والمترددين، حيث يقابلون بكل ترحاب، وقد أنارها بالكهرباء.

(٢)وجه عنايته لإصلاح المدرسة فأنشأ مدرسة جديدة بأرض السراية على الطراز الحديث أيضًا، صرف عليها نحو الخمسة عشر ألف جنيه، وأعلا مقامها وجعل فيها قسمًا ثانويًّا هو الآن المنهل العذب لطلاب العلم بمديرية المنيا، وقد زارها كثير من وطنيين وأجانب وجاهروا بأنها أحسن وأجمل وأفخم ما بني من نوعها عند الأقباط في القطر المصري، ونتائجها الثانوية في الشهادتين الابتدائية والكفاءة تدل على اختياره أحسن الأساتذة القائمين بالتدريس بها، ونذكر مع الشكر حضرة الأستاذ الفاضل نخله أفندي خليل المحامي بالمنيا، الذي كان أكبر عضد مالي وأعظم مشجع أدبي لنيافته في إنشاء هذه المدرسة، فضلًا عن أنه أوقف عليها خمسة أفدنة من أطيانه الخصوصية.

(٣)تقسيم المدرسة القديمة إلى خمسة منازل وأوقفها على الدار المطرانية للانتفاع بإيجارها.

(٤)أنشأ كنيسة ومدرسة بالروضة.

(٥)أنشأ كنيسة الفكرية.

(٦)أنشأ مدرسة بالبياضية.

(٧)إصلاح وترميم وتوسيع دير القديس أبو يحسن.

(٨)تجديد كنيسة أتليدم.

(٩)أنشأ كنيسة ومدرسة بأبو قرقاص وجدد الكنيسة القديمة.

(١٠)أنشأ كنيسة أبشادة.

(١١)تجديد كنيسة نزلة أشمنت.

(١٢)مشترى ١٠ قراريط أملاك بناحية هور، أنشئت عليها كنيسة والباقي لإيجاد مدرسة.

(١٣)تجديد كنيسة قصر هور.

(١٤)اكتشاف دير أثري قديم بالجبل الغربي باسم القديس أبو فانا.

(١٥)أنشأ كنيسة بصفط الخمار.

(١٦)تكملة كنيسة بني أحمد.

(١٧)تصليح وترميم وتبليط كنيسة القديس أبا هور سواده.

(١٨)أنشأ كنيسة ومدرسة بنزلة الفلاحين من مال الست المرحومة حرم مرقص بك حنا.

(١٩)تجديد كنيسة بني غني.

(٢٠)أنشأ كنيسة صفط اللبن.

(٢١)أنشأ كنيسة نزلة فلوصنا.

(٢٢)أنشأ كنيسة نزلة النصارى تبع الديرية.

(٢٣)أنشأ كنيسة ومدرسة بسمالوط.

(٢٤)أنشأ كنيسة ومدرسة بقلوصنا.

(٢٥)أنشأ كنيسة بنزلة المناهرة.

(٢٦)مشتري ٤ قراريط أملاك من الحكومة لإنشاء مدرسة عليها بناحية الطيبة.

(٢٧)حصوله على جزء ملك لإنشاء كنيسة بنزلة مسعد حنس.

(٢٨)حصوله على جزء ملك لإنشاء كنيسة بالمطاهرة.

(٢٩)إنشاء كنيسة ومدرسة بجزء من مال المرحومين داود أفندي سيدهم وأخيه سيف بك.

(٣٠)مشتري ملك ببندر المنيا بمبلغ ١٣٦١ جنيه أنشأ عليه كنيسة باسم العذراء، وتم تدشينها يوم الأحد ٤ كيهك لسنة ١٦٣١ الموافق ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٤ بتشريف حضرات أصحاب النيافة مطارنة إسكندرية والقدس وقنا وبني سويف والفيوم، بناء على أمر قداسة الأب البطريرك إجابة لدعوة نيافة صاحب الترجمة، الذي شاد على باقي الملك أيضًا خمسة دكاكين ومنزلين أوقفهم على كنيسة المذكورة لانتفاعها بإيجارها.

(٣١)مشتري ثلاثين فدانًا لوقف دير العذر بجبل الطير، وسيشتري نيافته ثلاثين فدانًا أخرى من ريع هذه الأطيان لهذا الوقف.

(٣٢)تجديد دير مار مينا العجائبي بنمهيري وتصليح كنيسة، وأنشأ عمارتين هائلتين وبهما اثنين وأربعين أودة لراحة الزائرين لهذا الدير من عموم القطر المصري، وضم عليه ١٦ قيراط من الأطيان المكلفة باسمه خاصة بناحية قهري لاتساع هذا الدير وجنينة تساوي مبلغ ١٥٠ جنيهًا، وغرس بها حديقة غناء تحيط بالكنيسة وهاتيك المباني من كل الجهات، واستحضر لها ماكنة تدار بالغاز لري الجنينة، ولشرب الزرايب وصرف على ذلك من ماله الخاص نحو الأربعة آلاف جنيه مصري؛ لأن هذا الدير ليس له أوقاف مطلقًا.

(٣٣)إنشاء كنيسة كوم المحرص.

(٣٤)مشتري ملك من الحكومة ببندر ملوي سنة ١٩٢٤ بمبلغ ٢٦٠٠ جنيه؛ لإنشاء كنيسة ومدرستين إحداهما للبنين والأخرى للبنات؛ لأن المدرسة والكنيسة الحاليتين ضاقتا بالمصلين والطلبة.

(٣٥)مشتري ثلاثة أفدنة أوقفها على كنيسة القديس يوحنا المعمداني بالشيخ تمي.

(٣٦)مشتريماية فدان في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤، وأوقفها شرعًا على المطرانية والمعاهد الدينية والعلمية بالمنيا.

(٣٧)أنشأ كنيسة بنزلة عبيد على حساب حضرة صاحب العزة صارو وليم بك مينا عبيد.

(٣٨)أنشأ كنيسة ببندر المنيا على حساب صاحب السعادة المرحوم سعيد باشا عبد المسيح، الذي سبق فأنشأ أيضًا مدرسة للبنات في عهد نيافته، وقد أصبح في أبروشية كرسي المنيا والأشمونين عدد ٥٠ كنيسة منها عدد ٢٩ كنيسة ما زالت على عهدها، ومنها عدد ٨ كنايس تجددت، وعدد ٢٣ كنيسة أنشئت حديثًا، وعدد ٢١ مدرسة، وهذه الكنائس والمدارس والكتاتيب بعضها انتهى، وبعضها على وشك الانتهاء وبعضها مشروع فيه، والكهنة الذين يؤدون الشعائر الدينية في هاته الكنائس عدد ٧٦ كاهنًا منهم عدد ٢ رهبان وعدد ٣٢ رسموا في عهد الأساقفة السابقين، وعدد ٤٢ رسموا في عهد صاحب الترجمة، ومعظمهم من خريجي المدرسة الأكليريكية الذين يعتلون المنابر للوعظ والإرشاد بتلك الكنائس، حتى كاد أن يكون الوعظ عامًّا في عموم الكنائس الأبروشية، ناهيك عن قيامه ومساعدته في

طبع كتب الكنيسة سواء قبطية أو عربية واهتمامه بالفقراء والأرامل، وتعضيده المدرسة الأكليريكية والجمعيات الخيرية، وخصوصًا جمعية المنيا والمشروعات العامة، وكفى برهانًا ما أحدثه بأبروشية المنيا في مدة العشرين سنة، مما يستوجب عليه معنى الشكر والثناء والإعجاب بهذه الهمة العالية، التي قل أن نراها في كثيرين غيره أثابه الله عليها في الآخرة وكافأه عنها خيرًا[1].

الإيغومانس تادرس مينا

ولد هذا المجاهد الكبير في ٢٠ هاتور سنة ١٥٦٤ قبطية الموافق لعيد الأمير تادريس فأسماه والده باسمه، وهو من عائلة جبلت على الطهر والقداسة، فوالده القمص إبراهيم بن القمص يسطس بن القمص منقريوس بن القمص جرجس بن القمص مكرم الله أي: العائلة التي والت رياسة خدماتها المتوالية لدير مار مينا مدة ٢٠٠ سنة أجل الخدم، وكانت حياة أفرادها ملأى بجلائل الأعمال والمآثر الطيبة، فرباه المرحوم والده على سنن الفضيلة والصلاح، فنشأ نشأة صالحة تليق بأبناء رجال الدين، وأدخله مدرسة حارة السقايين القبطية فتعلم فيها اللغتين العربية والقبطية، ثم تخرج منها واشتغل في بعض الدواير ثم

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 552-562

تعين بمصلحة السكة الحديد الأميرية، ورقي بها إلى أن صار رئيسًا لقلم قضاياها، ولما انتقل المرحوم والده القمص مينا إلى رحمة مولاه أرغم أن يكون قسًّا لدير مار مينا بدلًا من المرحوم والده وفعلًا تم ذلك؛ ونظرًا لما كان عليه من الذكاء والنباهة والجِدِّ عُيِّنَ وكيلًا للدار البطريركية، وذلك في عهد الأنبا مرقس مطران الإسكندرية لما كان الكرسي البطربركي خاليًا، ولما انتخب ورسم غبطة الأنبا كيرلس الحالي بطريركًا استقال الفقيد من أشغال البطريركية.

هذا ولما جلس غبطة الأب البطريرك على الكرسي المرقسي، وعلم بمقدرة الفقيد وجِدِّهِ وإقدامه استدعاه وعَيَّنَهُ وكيلًا للدار البطريريكية، ومنحه أيضًا رتبة الأيغومانوسية فأظهر الكفاءة التامة في جميع أعماله، واشتهر بإخلاصه لغبطة البطريرك فكان أول المقربين إليه وأول المحبِّين له، وفي آخر أيامه اعتزل أعمال البطريكخانة، وبقي مشتغلًا في أعمال الوقف الذي تحت نظارته، فأحدث به عمارات كثيرة وإصلاحات جَمَّة دلَّت على حسن إدارته وقد عاجلته المنية عقب اجتيازه خمسًا وثلاثين سنة في الكهنوت، فاحتفل بيوبيله الفضي وكانت وفاته فجأة، إذ بينما كان في وزارة الأشغال العمومية يقابل بعض ذوي الحل بخصوص قطعة أرض كائنة أمام الدير قد علاها تل من الأتربة، أراد أن يثبت ملكيتها للدير وعاد من تلك الوزارة ظهرًا، وباشر الأعمال الجارية بالوقف وتناول الغداء إذ بدقات شديدة انتابت القلب، وما كاد يحضر الطبيب لفحصه حتى فاضت روحه الكريمة إلى خالقها، وكانت وفاته في يوم الأحد الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٦ وله من العمر ثمان وخمسون سنة، فاحتفل بجنازته احتفالًا عظيمًا يليق بمثله من الرجال العاملين المُجِدِّين، وقد كان الفقيد مشهورًا بحل كل مشكلة من المشاكل الشرعية التي تعرض عليه ممَّا يعجز بعض رجال القانون والتشريع في حله، كما كان جريئًا لدرجة لم تكن في الحسبان ومقدامًا في كل أعماله.

عندما عين الفقيد رئيسًا لدير مار مينا اتصل به أن أراضيه البالغ مساحتها نحو الخمسة عشرة فدانًا مشهورة بوقف الشيخ الأنصاري، فخامره شك عظيم في أمر هذه الوقفية، وأخذ يبحث بحثًا حثيثًا حتى بحسن مسعاه، وبتداخل فقيد الأمة القبطية النابه العظيم المرحوم بطرس باشا غالي، الذي كان وزيرًا في ذاك العهد أثبت للحكومة بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة فساد هذه الملكية، وأنها ملك شرعي للدير، وإن انتساب هذا القدر لوقف

الشيخ الأنصاري محض خطأ، فاضطرت الحكومة والحالة هذه أن تسلم هذا القدر للدير مع منحه مبلغًا قدره ثلاثة آلاف جنيه على سبيل التعويض، فاستلم الفقيد هذا المبلغ ووردہ لخزينة البطريكخانة، كما أنه أضاف تلك الأطيان إلى وقف مار مينا.

وقام من وقته وساعته إلى تقسيم الأراضي المذكورة أقسامًا، جعل منها قسمًا خاصًّا ببناء منازل الحكر، وقسمًا خاصًّا للزراعة فحضر الكثيرون من تلك الجهة من غير الأقباط، واستأجروا بعضًا من تلك الأراضي الزراعية المحدودة، كما أقبل البعض الآخر للسكن بمنازل الحكر البالغ مساحتها ثلاثة أفدنة، ثم قام بتشييد منازل جديدة أخرى لانتفاع الدير بريعها، وأصلح جميع الأراضي الأخرى الواقعة بجهات الدير.

وقد وجد بين دفاتره الخصوصية من بعد وفاته أنه أنفق على هاته الإصلاحات الهامة، والأبنية الكثيرة من ماله الخاص مبلغًا يربو عن الخمسة آلاف جنيه، فلم تشأ عائلة الفقيد مطالبة البطريكخانة برده، بل سمحت مكارمها عن طيب خاطر لأن يدخل في حساب البطريكخانة، والاكتفاء بما تركه الفقيد الراحل من أثر خالد وعمل محمود عند الله والناس يجزى عنهما ثوابًا عظيمًا، ولما كانت الوارثة الوحيدة لهذا الفقيد هي السيدة البارة التقية حرم حضرة الفاضل المحترم عطية أفندي مشرقي المقاول الشهير بمصر، فبلسان المروءة والإنسانية نقدم لها وافر الشكر وعاطر الثناء على منحتها الخيرية الخالدة، وأن الأمة المصرية عامة والأقباط خاصة لتفخر بمثيلاتها المحسنات — ولما كان الفقيد الراحل لم يترك عقبًا ذكرًا، فقد اختص ابن شقيقته ألا وهو رجل الجد والنشاط والإصلاح القمص مينا يعقوب كابن له، فقام بتربيته وتثقيف مداركه وهو الذي حل محله في رئاسة الدير بعد وفاته[1].

---

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 575-578

جناب الأب الفاضل القمص مينا يعقوب

ولد هذا الأب الفاضل بمصر المحروسة عام ١٨٨٠ ميلادية من أبوين تقيين، ويعد الثامن من سلالة العائلة التي اختارها الله تعالى لخدمة الكهنوت بدير مارمينا، فتكفل المرحوم خاله طيب الذكر خالد الأثر الأغومانس تادرس مينا، الذي كان وكيلًا لبطريكخانة الأقباط في ذاك العهد، والمتوفى في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٦ بأمر تربيته وتعليمه وأدخله مدرسة حارة السقايين القبطية، فتعلم بها العلوم الأولية ومن ثم أدخله مدرسة الأقباط الكبرى، فارتشف من بحر علومها إلى أن فاز منها بشهادة الدراسة الابتدائية عام ١٨٩٥م، وناهيك

بما كانت عليه تلك الشهادة من الأهمية في ذاك الوقت، وبعدئذ التحق بالمدرسة الخديوية، وظل مكبًّا على تلقي العلوم حتى سنة ١٨٩٨ ميلادية، وفي شهر أغسطس سنة ١٨٩٨ تعين في إدارة الأموال الغير مقررة بوزارة المالية، فكان مضرب المثل في الجد والاستقامة والكفاءة، وظل في هذه الوظيفة مدة ثلاث سنوات حتى عام ١٩٠١ ميلادية، ومن ثم تاقت نفسه إلى الاشتغال بالأعمال الحرة فاختار أشغال المقاولات، وأوجد محلات خصيصة بجهة فم الخليج بمصر القديمة لحرق الجير، وتصريفه للمقاولين وأصحاب العمارات فانهالت عليه الطلبات، وأقبلت عليه الخيرات نظرًا لحسن معاملته وأمانته وطهارة ذمته، وظل مزاولًا لهذه الأشغال حتى شهر يونيو سنة ١٩٠٨.

ولقد سعى فقيد الأمة القبطية المؤرخ الكبير المرحوم ميخائيل بك شاروبيم من تلقاء نفسه، ونفر عديد من وجهاء الأمة القبطية بعمل تزكية لرسامته قسًّا على دير مارمينا بدلًا من المرحوم خال، وقدموا تلك التزكية إلى غبطة البطريرك المعظم، فلما علم صاحب الترجمة بأمر تلك التزكية أبى بتاتًا، وأرسل إلى غبطته يعتذر عن القبول، غير أن غبطته أرسل إليه خطابًا رسميًّا بتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٩٠٦ موقعًا عليه بخاتمه الكريم بتعيينه ناظرًا على الدير والكنيسة، وحفظ أوانيها وموجوداتها بصفة مؤقتة لحين النظر، فقام بهذه المهمة خير قيام مع مباشرة أشغاله الحرة حتى سنة ١٩٠٨ ميلادية، حيث ألح عليه المرحوم ميخائيل بك وغيره من أبناء الطائفة بقبول هذا المركز، وأبانوا له الميزات الخاصة من خدمة الكهنوت، وعندئذ سمحت العناية الإلهية، ورضخ فرسم قسًّا لدير مارمينا في يونيو سنة ١٩٠٨ كما رقي قمصًا في يونيو سنة ١٩٠٩، واستبدل من تاريخ الرسامة اسم عازر أفندي يعقوب، وما كادت يده تمسك شؤون الدير ورياسته حتى شمر عن ساعد الجد والنشاط والإقدام، ووجه عنايته أولًا لترميم وتصليح الكنيسة التي كادت تئول إلى السقوط، وأصلح مدخلها وسعى سعيًا متواصلًا لدى مدير مصلحة الآثار والبطريركية إلى أن توصل بحسن مجهوداته في تنكيس الكنيسة من الداخل والخارج، وحافظ على آثارها النفيسة ورمم عقوداتها ترميمًا متينًا، ونزع بلاطها واستبدله بترابيع حجرية ثم نقل الحجاب الذي كان مشوهًا للكنيسة، فوضعه في الجهة الغربية منها بحالة منتظمة، وأحدث مقاعد خاصة

لراحة المصليين كما خصص جزءًا منها للسيدات، ثم أزال ما كان مشوها من المباني بمدخل الكنيسة، حتى أصبحت بفضل عظيم مجهوداته آية في الرونق والبهاء.

ثم وجه عنايته إلى إصلاح وتنظيم طرقات المدافن، ونظم كثيرًا منها، وشاد مدفنين خاصين لفقراء الطائفة، ولما رأى أن حالة الدير تستدعي عناية كبرى ومساعدات مالية، سيما لما رأى أن تلك الأراضي قاحلة والأتربة تتصاعد لأقل حركة فكر بأن يشكل لجنة من أبناء الكنيسة المترددين لتعاونه على الأعمال، وجمع الإعانات والتبرعات اللازمة للتحسين، وعرض هذه الفكرة على غبطة البطريرك المعظم، فسر منها كثيرًا وكلفه بانتخاب الأعضاء الذين يرى فيهم الكفاءة والنزاهة، وفعلًا قام صاحب الترجمة بتشكيل لجنة من بعض الغيورين على مصلحة الطائفة، وشرعوا في نظام وتحسين مقابر الدير، وسن لذلك قانونًا بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٢ وهو تاريخ البدء في العمل وجمع التبرعات.

وقد شرع أولًا وبادر بمفاوضة شركة المياه لجلب الماء اللازم لرش الأراضي والمزروعات، فأجيب إلى طلبه وجاءت المياه بثمن مناسب، ووجه همته إلى تنسيق الحدائق والمنتزهات فيرى الداخل من باب الدير العمومي طرقة فسيحة غرس على جانبها أشجار باسقة ذات أظلال، ويتفرع من تلك الطرقة منتزهات متفرقة تحاكي المنتزهات العمومية في ميادين القاهرة من حيث جمال تنسيقها وحسن منظرها، بحيث إن الطرق التي توصل إلى ساحة القبور صارت تضارع شبيهاتها في المقابر الأجنبية.

وإننا نلخص هنا مجمل ما قامت به تلك اللجنة من الخدمات القيمة والمجهودات الفائقة، فقد قامت بتعميم غرس الأشجار في جميع المماشي والطرقات الرئيسية، وهذه الأشجار من النوع الذي إذا كبر ونمت أوراقه ألقى ظله الوارف على الطريق فيقي المارين فيه حرارة الشمس، ويعطي رونقًا جميلًا يخفف من وحشة تلك المنطقة، وسعت في إزالة المقابر البارزة التي تظهر في الشوارع الرئيسية من الساحة لتجعلها مستقيمة، وخابرت فعلًا أصحابها لاستبدال البارز منها بآخر في الأرض الفضاء التي تجاوره، وقامت أيضًا وفوق رأسها هذا المصلح العظيم إلى تنظيم شوارع الساحة الداخلية، ورصفها بالمكدام وعمل أفاريز منزرعة على جوانبها، وإقامة مراحيض صحية على الطراز الحديث مستكملة كل أساليب الراحة، وطرح مشروع بناء مقابر للفقراء والغرباء، وعمل خزان صحي، وهدم وبناء واجهة

الدر على الطرز الحديث، وهي جادة في إدخال النور الكهربائي لمدخل الكنيسة والدير، وسيحقق هذا المسعى قريبًا بفضل ما يبذله حضرته من المساعي المشكورة وكذا حضرات أعضاء لجنته الكرام، وقد أنشئت سبيلًا خاصًّا للزائرين وأحواضًا كبيرة مجاورة للمقابر، ومن فوقها الحنفيات لأخذ ما هو لازم من الماء لري الأشجار والمنتزهات، وأراضي الدير وزائري المقابر أيام المطلع.

وقدرت تلك اللجنة اشتراكًا سنويًّا وشهريًّا على أصحاب المقابر يحصل منهم بموجب قسائم رسمية مطبوعة، وعينت محلًّا خصيصًا لذلك، وقد خصصت هذه الاشتراكات للإنفاق منها على مرتبات الجنينية واستهلاك المياه إلى غير ذلك من النفقات الضرورية، وما يتبقى منها يصرف لإتمام المشروعات الهامة، وكل ذلك مرصود بدفاتر منتظمة، وفي كل سنة تطبع تقريرًا عن مصروفاتها وإيراداتها وبيان المشروعات التي قامت بعملها، ويرفع إلى غبطة البطريرك المعظم، ويوزع على أفراد الطائفة.

ومما يذكر له بالشكر والثناء أنه لما رأى أن شارع الديورة الذي أمام الدير خاليًا من النور، سعى سعيًا متواصلًا لدى مصلحة التنظيم ومحافظة مصر بمد أنابيب الغاز به، وبعد جهد كبير استصدر أمرًا من مدير عام مصلحة التنظيم في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ بإنارة هذا الشارع، وتركيب فوانيس الغاز اللازمة له وإتمام ذلك في شهر أبريل سنة ١٩٢٦ أي: أول السنة المالية الرسمية لميزانية الحكومة المصرية.

ونظرًا لوثوق غبطة الأب البطريرك المعظم في مقدرته ونزاهته وكفاءته الشخصية، وميله الكلي إلى الإصلاح عينه عضوًا بالمجلس الروحي سنة ١٩١١م، وكذا لما شكل المجلس الملي العام سنة ١٩١٢ عين عضوًا به ولا يزال عاملًا به حتى الآن، وعندما تجدد انتخاب المجلس الملي العام في مارس سنة ١٩٢٣، استمر عضوًا به كما انتخب أخيرًا سكرتيرًا للمجلس الأكليركي العام ولجنة الكنائس[1].

جناب الأب المحترم والوطني الغيور القمص بولس غبريال

القمص بولس هو ابن القمص غبريال بشارة رئيس كنيسة العذراء بحارة الروم، ولد بمصر القاهرة في شهر بابه سنة ١٥٩٤ للشهداء أكتوبر سنة ١٨٧٨ ميلادية، وبعد أن شب على

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 578-583

التعاليم الدينية رسم شماسًا للكنيسة المذكورة، وقد أتم دراسته بمدرسة الأقباط الكبرى سنة ١٨٩٥م، وبأمر غبطة البابا المعظم ألحق بالمدرسة الأكليريكية «صوت اللاهوت» في أول نشأتها، وأتم دراسة اللاهوت ونال جائزته سنة ١٩٠٠، فعين ناظرًا لمدرسة الأقباط بالسويس وواعظًا لكنيستها، ثم استدعاه غبطة البابا المعظم لمزاولة الوعظ بمصر بكنيسة العذراء بحارة الروم، وابتدأ إذ ذاك عهده بالإصلاح الطائفي ففي أكتوبر سنة ١٩٠١ تعين وكيلًا لمدرسة التوفيق، ومدرسًا للدين واللغة القبطية فيها، وفي سنة ١٩٠٢ اشترك مع منشئ جمعية الإيمان المركزية لنشر الوعظم والإرشاد، ومارس الوعظ بها وبجمعية التوفيق وبجامعة المحبة، وفي سنة ١٩٠٧ انتدب من قبل اللجنة الملية رئاسة سعادة مرقس سميكة باشا، وعضوية المرحوم يوسف منقريوس بك لاتخاذ الطرق لتعميم تعليم الدين المسيحي بمدارس الحكومة، وبفضل سعي جناب القمص بولس تم تعميمه في مدارس القربية والمحمدية ومحمد علي وعابدين، وساعده في ذلك زعيم مصر الأمجد سعد زغلول باشا وكان وزيرًا للمعارف إذ ذاك، ثم عين مدرسًا بالقسم التجهيزي بمدرسة الأقباط الكبرى، ومدرستي البنين والبنات بحارة السقايين بمصر، وفي ديسمبر سنة ١٩٠٩ تفضل غبطة البابا المعظم، ورسمه قسًّا على كنيسة العذراء بحارة الروم وفي سنة ١٩١٠ تعين عضوًا أولًا للمجلس الملي، وفي سنة ١٩١٤ تعين مندوبًا بطريركيًّا لدى محافظة مصر ومديريتي الجيزة والقليوبية، وفي هذه الأثناء قام بتجديد الكنيسة بحارة الروم، وأنشأ في الجهة البحرية منها كنيسة صغيرة باسم الشهيد الأمير تادرس الشطبي.

وفي سنة ١٩١٩ ظهرت بوادر الحركة الوطنية، فتقدم حضرته في أوائل الصفوف فرفع رأس الطائفة القبطية، وأعلا هامتها بين الطوائف المسيحية، فزادها فخرًا إذ انتخب في لجنة الإدارة للجمعية العمومية رئاسة سعادة عثمان باشا مرتضى، وكفى الطائفة شرفًا إذ أولاه الجمع المحتشد في دار رئاسة مجلس الوزراء (وكان يجمع كل مذاهب الأمة المصرية) شرف النيابة عنهم لدى دولة رشدي باشا، فتقدم بجرأة نادرة طالبًا من دولته اعتراف الحكومة رسميًّا بوكالة الوفد المصري برئاسة سعد زغلول باشا في المفاوضات الرسمية، ولما احتدم الجدل بينهما خاطبه بقوله: (إن لم تخلص للأمة فقدم استعفاءك)، وطالما كان يرأس الوفود العديدة لزيارة دور الحماية والقنصليات مطالبًا بحرية البلاد، وقد وقف نفسه على

ذلك-ولما عقد الاجتماع في الأزهر الشريف كان حضرته أول من وطئت قدماه ساحة الأزهر الشريف، وافتتح الاجتماع بإبلاغ إخواننا المسلمين كلمة غبطة البابا المعظم، وهو أول من نادى بين جدران الأزهر ذلك المعهد الإسلامي المقدس مطالبًا باتحاد العنصرين تنفيذًا لإرادة الله ومشيئته، كما أمر بذلك الزعيم الجليل سعد زغلول باشا.

وتعانق القسيس والشيخ الجليل فأوضحا للنشء خير مثال، ثم انتخب عضوًا في لجنة الدفاع عن الحرية السياسية برئاسة المغفور له البرنس عزيز حسن، وعضوًا بلجنة التوفيق برئاسة البرنس محمد علي، وعضوًا بلجنة منكوبي الأناضول برئاسة البرنس عمر طوسن، وعضوًا بلجنة إدارة لجنة الاكتتابات للريفيين رئاسة سموه أيضًا، وعضوًا بلجنة مؤتمر الشرف بلوزان، وقد طاف صحبة فضيلة الأستاذ الشيخ القاياتي، والمغفور له المصري السعدي باشا بمديريات الوجه البحري لترويج الانتخابات الوفدية سنة ١٩٢٣م، ولما أغلقت السلطة أبواب الجامع الأزهر في وجوه المجتمعين فتح أبواب كنيسته بحارة الروم على مصراعيها، رغم تهديده وإنذاره من السلطة مدة خمسة وأربعين يومًا للخطابة تحت مسئوليته. وهو الذي تعهد مسجوني قصر النيل وألماظة بالزيارة مرتين في الأسبوع، وقد لاقى من جراء ذلك اضطهادات كثيرة إلا أنه قابلها بثبات، وقد وقف حياته لخدمة الوطن[1].

بطرس باشا غالي رئيس وزراء الحكومة المصرية سابقاً

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 584-586



ولد المغفور له في القاهرة سنة ١٨٤٧ ميلادية، وهو أكبر أنجال المرحوم غالي بك نيروز الذي كان باشكاتبًا لدائرة مصطفى فاضل باشا أخو الخديوي إسماعيل بمصر، فعني بتربيته وأدخله مدرسة حارة السقايين فمدرسة الأقباط الكبرى، التي تحت رعاية الأنبا كيرلس الرابع الذي كان صديقًا حميمًا للمرحوم والده، فتلقى فيها بعض العلوم العربية، ومبادئ اللغات الطليانية والإنكليزية والفرنسية، ونبغ بين أقرانه وكان البطريرك المشار إليه يتعهد

المدارس بنفسه، ويراقب سيرها فلاحظ في الفقيد ذكاءً واجتهادًا ممتازين، فتحدث فيما يرجوه من مستقبله، فقضى صاحب الترجمة ثماني سنوات في تلقي العلوم في هذه المدرسة، ثم انتقل إلى مدرسة البرنس فاضل باشا، فأتقن فيها اللغتين العربية والفرنساوية وتعلم الفارسية والتركية أيضًا، وفي تلك السنة ظهرت رغبته في العلم وتلذذه بالدرس، حتى إنه كان يقضي ليله ساهرًا لا يمل المطالعة، فشكى بعضهم ذلك إلى أبيه خوفًا على صحته، وقد ساعده على إتقانه اللغات التي تعلمها أنه كان قوي الذاكرة حتى بهر أساتذته بذكائه النادر.

خرج من المدرسة فكان أول عمل تعاطاه التعليم في مدرسة حارة السقايين، وكان ناظر المدرسة يومئذ المرحوم يعقوب بك نخله رفيله، لكنه لم يلبث طويلًا في تلك المهنة؛ لأن مطامعه كانت أوسع من ذلك كثيرًا فعمد إلى الاستزادة من العلم، الذي يؤهله للمعالي وكان شاعرًا حتى إنه لما خرج من المدرسة أراد الاستخدام في السكة الحديد، فكتب للمرحوم عمر باشا لطفي قصيدة بهذا المعنى، فكان رده عليها: «عندنا من هذا كثير» وأرجعه بخفي حنين، وكانت الحكومة المصرية يومئذ تهتم بتوظيف المترجمين لمصالحها، فتقدم صاحب الترجمة في جملة الطالبين للامتحان، فنال قصب السبق وعين مترجمًا، لكنه ما زال يرتقي، ويحرز ثقة رؤسائه حتى صار رئيس كتاب المجلس وله فيه القول الفصل.

وقد ارتأى الخديوي أن ينشئ نظارة الحقانية سنة ١٨٧٤ أفرنكية، وتعين شريف باشا ناظرًا لها، وكذا تعين صاحب الترجمة باشكاتبًا لها، وكان قد عرفه وعرف قيمة مواهبه السامية فكان موضع ثقته إذ كان يكلفه بترجمة أوراق الحكومة من التركية والعربية إلى الفرنسية، وبالعكس وأنعم عليه بالرتبة الثانية.

ولما ارتبكت مالية مصر عقد قومسيون للتحقيق في سنة ١٨٧٦ ميلادية، فارتأى هذا القومسيون أن يشكل قومسيون مركب من مندوبي عموم الدول لعمل تصفية لمالية الحكومة المصرية، وتعيين صاحب الترجمة نائبًا عنها، وكان ذلك في عهد وزارة رياض باشا، فكان صاحب الترجمة موضع إعجاب أعضاء القومسيون، إذ أخذ يبذل مواهبه العقلية حتى أنقذ الحكومة من وشك الإفلاس، وشكل قومسيون لتعديل الضرائب تحت رئاسة رستم باشا، وكان صاحب الترجمة عضوًا فيه فوضع كتابًا خاصًّا لم يزل معمولًا به للآن،

ويرجع الأمر إليه من وقت لآخر، ويقال إن السير ريفرس ولسن مندوب إنجلترا في ذلك العمل رأى اقتدار صاحب الترجمة فقال له: «إنك ستكون ناظرًا للمالية يومًا ما»، كما قال له هذا القول عمر باشا لطفي، عندما ارتقى صاحب الترجمة إلى الوزارة.

وبعد الانقلاب الذي تم بخلع الخديوي إسماعيل باشا، وتولية المرحوم توفيق باشا عين صاحب الترجمة «بطرس بك غالي» وكيلًا لنظارة الحقانية، ولما تشكلت وزارة شريف باشا في أثناء الثورة العرابية عهدت إليه سكرتيرية مجلس النظار مدة، ثم استقل بوكالة الحقانية وعقب حدوث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م، وبناء على طلب مجلس النظار تحت رئاسة البارودي باشا، أنعم على صاحب الترجمة برتبة الميرميران، وهو أول من حازها من الأقباط.

ومن الخدم التي يذكرونها له في أثناء الثورة العرابية أن العرابيين بعد أن فروا من التل الكبير، وأتوا إلى القاهرة عقدوا مجلسًا للمفاوضة في ماذا يفعلون، ودعوا إليهم كبار الرجال من الأمراء العسكريين والملكيين، وشاوروهم فيما ينبغي عمله فكان رأي صاحب الترجمة التسليم للخديوي، إذ أراد عرابي أن يعمل خط نار لمنع دخول الإنجليز في مصر، وقال له المترجم: إن الأوفق أن تجعل تاريخك ناصع البياض ولا تشوبه بمداد السواد، وبناء على ذلك قبل المجلس الحربي وعرابي ما أبداه المترجم، وعهد إليه ومحمد رءوف باشا وعلي الروبي تقديم عريضة إلى أولي الشأن في الإسكندرية نائبين عن العرابيين.

وظل وكيلًا لنظارة الحقانية عدة سنين وفي عهد وزارة فخري باشا تعين المترجم ناظرًا للمالية، ثم في وزارة فخري باشا التي لم تمكث سوى ثلاثة أيام ثم في وزارة نوبار باشا، وتعين وزيرًا للخارجية في عهد وزارة المرحوم مصطفى فهمي باشا، ومكث فيها حتى سقطت الوزارة الفهمية فوقع موقع الاختيار على تشكيل وزارة جديدة، فشكلها في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨م، وتولى رئاستها مع وزارة الخارجية وهو أكبر منصب يرجوه ابن النيل.

وفي عهد وزارته همت الحكومة المصرية بتوسيع اختصاصات مجلس شورى القوانين، فقررت اشتراك الأمة في النظر في مشرعاتها بعرضها على المجلس، ويحضر الوزراء للمناقشة فيها. وما زال عاملًا مجدًّا حتى قتل في ٢١ فبراير سنة ١٩١٠، وقاتله شاب اسمه إبراهيم ناصب الورداني، وهو أحد أفراد جمعية فوضوية ظهرت أخيرًا في مقتل «المرحوم السردار»، ذلك أنه بينما كان الفقيد نازلًا من ديوان الخارجية يوم الأحد الموافق ٢١ فبراير سنة ١٩١٠

في نحو الساعة الأولى بعد الظهر، ووراءه سكرتيره الخاص أرمولي بك وبالقرب منهما حسين رشدي باشا، الذي كان ناظرًا للحقانية وقتئذ والذي جاء يودع الفقيد إلى الباب، إذ فوجئ بخمس رصاصات أطلقت عليه من مسدس أصابته في الذراع والعنق والكتف والجنب فأغمي عليه، وسقط من المركبة ثم حاول الضارب أن يهرب، فأسرع أرمولي بك والحجاب الواقفون إليه وأمسكوه وأدخلوه إلى الوزارة، وقدم هذا الجاني الأثيم إلى العدالة، فقضت بإعدامه شنقًا، وهذا جزاء الخائنين المارقين وحمل المصاب إلى غرفته، وأسرعوا إلى استدعاء أطباء مصلحة الصحة ورجال جمعية الإسعاف، وعلى الأثر جاء الدكتور نولسن الطبيب الشرعي وتبعه عدد كبير من الأطباء فاتخذوا الاحتياطات الوقتية والإسعافات الضرورية، ثم أخرجوا بعض الرصاصات ومن ثم نقل المصاب إلى مستشفى الدكتور ملتن، وكان حسين رشدي باشا راكبًا بجانبه، وأبلغ خبر الحادث تلفونيًّا إلى سمو الخديوي عباس باشا الثاني خديوي مصر السابق في سراي القبة، فأظهر شديد الحزن ولم تأت الساعة الثالثة حتى كان سموه قد وصل إلى سراي عابدين، فاجتمع بوزرائه وعقدوا مجلسًا فوق العادة للنظر في أمر هذا الحادث الفجائي الخطير، وقبيل الساعة الرابعة ركب سموه وإلى يساره نظار الداخلية، ويمم المستشفى حيث دخل إلى غرفة وزيره فلما وقعت عيناه عليه بدت على محياه علامات التأثر، فقبله وبكى مظهرًا أجمل مظاهر الانعطاف الملوكي، ثم شجعه وانصرف عائدًا إلى سراي عابدين، ولم يعد سموه إلى سراي القبة إلا بعد أن أمر أن تبلغ إليه أخبار حالته ساعة بساعة، وكان الخبر قد بلغ إلى أقاصي بلاد القطر، فتواردت التلغرافات تترى من أعيان البلاد سائلة مستفسرة عن حقيقة الحادث، واشتغلت شركة التلفون بالعاصمة طوال الليل في الإجابة على أسئلة السائلين، وقد ازدحم المستشفى بالمئات من الذوات والأعيان، وفي مقدمتهم الأمراء والوزراء وقناصل الدول وما جاءت الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة حتى فاضت روحه الكريمة، فسمعت ضجة كبرى ارتجت لها جوانب المستشفى، وماج الداخلون في موجة الحزن تذهب بهم الأفكار كل مذهب.

ولما بلغ خبر وفاته سمو الخديوي أجهش بالبكاء، وأخذ يقول: وا حيرتاه وا حسرتاه عليك يا عظيم الرجال، ويا أقدر الوزراء ويا أكبر المخلصين، وأخذ يعدد مآثره البيضاء التي عرفها

سموه أكثر من غيره، وفي الحال عقد مجلس الوزراء برئاسة سموه وقرر أن يحتفل بتشييع جنازة الفقيد احتفالًا رسميًّا على نفقة الحكومة، وأن يسير المشهد في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحًا من مستشفى ملتون إلى الكنيسة المرقسية الكبرى، ومنها إلى دير أنبارويس، فما أشرقت شمس يوم الثلاثاء إلا والأعلام منكسة حدادًا على الفقيد العظيم، وجعلت الفصائل العسكرية تتتابع لتحل في محلاتها تتقدمها موسيقاتها، والمركبات تتقاطر إلى المستشفى ولم تأت الساعة العاشرة إلا ومعظم أسواق العاصمة ومحلاتها ودكاكينها قد أقفلت تعظيمًا لشأن الفقيد، وأقبلت عربة الفقيد لحمل النعش من الكنيسة إلى المدفن مجللة بالسواد يجرها ثمانية من الجياد، واثنتا عشرة عربة مملوءة بأكاليل الأزهار والرياحين، وازدحمت الجماهير العديدة، ثم أقبل الوزراء جميعًا وسمو البرنس محمد علي باشا وساكن الجنان حسين كامل باشا — سلطان مصر الأسبق — والبرنس كمال الدين، وغيرهم من أمراء العائلة المالكة، ودولة رءوف باشا القومسير العثماني في ذلك الوقت، والمرحوم رياض باشا وعطوفة السردار حاكم السودان العام، وقناصل الدول الجنرالية وأكابر موظفي الحكومة المصرية والمحاكم المختلطة، وصندوق الدين ورجال الشورى والجمعية العمومية.

ونزل النعش محمولًا على أيدي عساكر من البوليس، حيث كانت عربة من عربات المدافع المصرية، يجرها ستة جياد واقفة بالانتظار، وكان جيش الاحتلال قد أرسل عربة أخرى من عربات مدافعه لنقل الفقيد فشكر أهل الفقيد واعتذروا بوجود العربة المصرية، ثم لف النعش بالعلم المصري، ووضع على المركبة وفوقه سيف الفقيد ونشانه العثماني، ومشى على جانبها حاجبان يحملان نشانات الفقيد العديدة، ومن ثم واروه التراب بين جمع غفير، وقد تقدم من حاملي أبسطة الرحمة التي يبلغ عددها الخمسة صاحب السمو البرنس محمد علي باشا بالنيابة عن الجناب الخديوي، وبعد الصلاة وقف نيافة الأنبالوكاس مطران كرسي قنا مؤبنًا الفقيد حتى أسال العبرات[1].

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 587-594

أمين باشا غالي

ولد سعادته في عاصمة الديار المصرية سنة ١٨٦٥ ميلادية من أبوين كريمين تقيين عريقين في الفضل والاستقامة، ولما بلغ أشده أدخله والده المدرسة البطريركية، التي كانت وقتئذ أفضل المدارس وأدقها نظامًا، فتلقى فيها اللغة الفرنساوية والعربية فتضلع فيها ونبغ في آدابها، وبعد أن أتم دروسه فيها انتقل إلى مدارس أخرى وتمم علومه بها، وفي خلال ذلك كان يدرس علم الحقوق شأن كل نفس طموحة لاعتلاء قمة المجد، فسافر إلى مدينة أكس من أعمال فرنسا، ودخل بإحدى مدارسها الحقوقية ولبث منكبًّا على ارتشاف كئوس علومها بنفس تواقة وجد ونشاط وإقدام، مدة ثلاث سنوات حتى أحرز قصب السبق في مضمار النجاح، وعاد إلى الوطن العزيز حاملا شهاداتها العالية، يجر أثواب الفخر ويمثل أفضل قدوة لشباب أمته في الجد وطلب المجد؛ ليقتدوا به فيكونوا خير معوان لسعادتهم وفلاحهم.

ولم يمكث طويل زمن بعد أوبته من الأقطار الأوربية حتى عين في ٢ مايو سنة ١٨٨٣ مترجمًا بنظارة الحقانية، فأخذ يزاول عمله بنشاطه المعهود، وذكائه الموصوف، حتى رقي إلى وظيفة مساعد نيابة، ونال الرتبة الرابعة في أول فبراير سنة ١٨٨٤، واستمر قائمًا بها إلى شهر يوليو سنة ١٨٨٥، وفي تلك السنة رقي إلى وكيل نيابة بمحكمة مصر، وكان يقوم وقتئذ بمهام أعمال الرئاسة فيها، وهي الوظيفة التي تجلت فيها كفاءته ودلت على عظيم مقدرته حتى علم الكل أن في السويداء رجالًا، وللشهامة والجد والعدل أنصارًا وأبطالًا، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة ورقي إلى رئاسة نيابة تلك المحكمة، وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٨٧ عين رئيسًا لنيابة محكمة الاستئناف الأهلية، ولما آنس رجال المحاكم المختلطة فيه النباهة وسعة الاطلاع استصوبوا نقله إليها، فعين أولًا وكيلًا لنيابة محكمة الاستئناف المختلطة، وأنعم عليه بالرتبة الثانية وفي أبريل سنة ١٨٩٣ انتقل إلى رئاسة نيابة محكمة مصر المختلطة،

وهي الوظيفة الثانية لدرجة النائب العمومي، وفي سنة ١٨٩٦ ميلادية نال رتبة المتمايز الرفيعة كما نال عدا عن الرتب العالية والوظائف السامية كثيرًا من الأوسمة والنياشين، اعترافًا بفضله وإجلالًا لقدره فمنها النشان العثماني الرابع، والمجيدي الثالث، ونشان شير خورشيد من دولة إيران الفخيمة، وفي عام ١٩٠٨م أنعم عليه سمو الخديوي عباس حلمي باشا السابق بالنيشان العثماني الثالث، وأخيرًا رتبة الباشوية، وقد استعفى من خدمة الحكومة لاشتغاله بإصلاح مزارعه الخصوصية وتعهدها بنفسه.

ويعد حضرة صاحب الترجمة من كبار الأخصائيين في الشؤون الزراعية بدليل ما قام به من ضروب الإصلاح في مزارعه الواسعة بجهة أكياد شرقية وغيرها، وله فيها آراء صائبة واكتشافات مستحدثة دلت على نبوغه وحنكته في هذه الشؤون، ولسعادته في بلدة أكياد المذكورة سراي قل وجود نظيرها في أعظم وأكبر عواصم المديريات، من حيث فخامة البناء وجمال التنظيم وثمين الأثاثات وهي مقصد العظماء والوجوه والأعيان، وطالما دعى إليها لورد اللنبي المندوب السامي البريطاني السابق وعقيلته والدوق أوف كنوت والبرنسيس بيسكو الرومانية، وجناب اللورد جورج لويد المندوب السامي البريطاني الحالي وعقيلته، بناء على دعوة حضرة صاحب الترجمة، فكان يقابل ضيوفه الكرام بكل حفاوة وإكرام، وقد تردد فخامة لورد اللنبي على البلدة ابتغاء الصيد والقنص حيث وجد فيها مناخًا طيبًا ونزهة محمودة، وصديقًا وفيًا ألا وهو سعادة صاحب الترجمة لما آنس فيه من لطف، ودعة وكرم أخلاق، مع علم وأدب، وكرم حاتمي، وقد قصدها أيضًا كثيرون من الأجانب فكانوا يقابلون بصدر رحب وحسن استقبال، مما كان له أثر خالد في قلوبهم عند عودتهم لبلادهم[1].

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 596-598

ميخائيل بك شاروبيم

ولد الفقيد عام ١٢٧٧هـ بجهة حارة السقايين بقسم السيدة زينب بمصر من أبوين شريفين حسبًا ونسبًا، فغذياه بلبان الآداب المنزلية حتى بلغ السابعة من العمر فدخل مع شقيقه الأكبر المرحوم حنا بك شاروبيم مدرسة حارة السقايين، فتلقى فيها العربية والإنجليزية والفرنساوية ومبادئ اللغة القبطية، فأظهر على حداثة سنه نبوغًا كبيرًا في الإنشاء والأدب، وله فيهما عدة قصص وحكايات بأسلوب جميل راقٍ وقلم سيال، ولما أن بلغ الرابعة عشرة من عمره عين في قلم التحريرات الأفرنجية بوزارة المالية، وما كاد ينقضي عليه عامان في ذاك المركز حتى رقي مترجمًا فسكرتيرًا خصوصيًّا للمرحوم إسماعيل باشا صديق، ولبث في هذه الوظيفة إلى سنة ١٨٧٦م حيث نقل بعد وفاة الباشا المشار إليه سكرتيرًا ثانيًا للمستر إسكرفتر مديرًا للجمارك، فوكيلًا لكبير تلك المصلحة، وفي أواخر سنة ١٨٧٧م انتخب لإدارة جمارك دمياط وسلخ سائر أعمالها من محافظتها؛ لتكون إدارة مستقلة على قاعدة ثابتة فقام بما عهد إليه أحسن قيام حتى استحق الثناء الوافر من رؤسائه، فرقوه أمينًا للجمرك المذكور، وزادوا في مرتبه، وفي سنة ١٨٨٠م رقي أمينًا لجمرك بور سعيد ولأسباب صحية استقال من منصبه وعاد إلى القاهرة، غير أنه عاد إلى خدمة الحكومة بعد شهور، حيث طلبته المراقبة الثنائية على عهد المستر كولفن الإنجليزي، والمسيو دي بلبينار الفرنسوي وعينته مفتشًا بها، وفي سنة ١٨٨٢م طلب منه المرحوم سلطان باشا نائب الحضرة الخديوية يومئذ تشكيل ديوان يقوم بأداء لوازم الجيش الإنجليزي، الذي دخل البلاد فقام وشكل الديوان وجمع لعماله من دواوين الحكومة نحو ٧٠ معاونًا و٥٠ جنديًّا من الكتاب وأربعة من المترجمين، وسار في عمله بدقة ونشاط وهمة، حتى شهد له نفس الإنجليز وولاة الأمور بحسن الإدارة والاجتهاد، ثم ألغي هذا الديوان فأعيد المترجم إلى وزارة

المالية بناءً على طلبها بوظيفة مفتش، فلم يقبل هذا المنصب وطلب الراحة من عناء الأعمال فأجيب إلى طلبه.

وفي يناير سنة ١٨٨٤م عين قاضيًا بمحكمة المنصورة الأهلية، ثم رئيسًا لنيابة تلك المحكمة، وكانت يومئذ أكبر النيابات وأوسعها اختصاصًا؛ لأنها كانت تشمل مديريتي الدقهلية والشرقية ومحافظات دمياط وبور سعيد والإسماعيلية والسويس والعريش، وفي آخر شهر يوليو من تلك السنة منحه سمو الخديوي عباس باشا الثاني الرتبة الثانية؛ مكافأة له على اجتهاده، وفي شهر نوفمبر أنعم عليه جلالة ملك اليونان بوسام المخلص من رتبة كومندور؛ اعترافًا بأياديه البيضاء على الجالية اليونانية بإقليم الشرقية، وفي أوائل فبراير سنة ١٨٨٥م أنعم عليه جلالة شاه العجم بوسام الشمس «شيروخورشيد» من الدرجة الرابعة مكافأة له على تحسين العلائق بين المحكمة ودولة إيران، وفي أوائل سنة ١٨٨٨م أنعم عليه ملك إسبانيا بوسام القديس يوحنا من رتبة شفاليه.

أما أعماله في منصب رئاسة نيابة المنصورة، فمعلومة ومآثره العديدة تضيق عن الحصر، ولا يزال أهاليها يذكرونه في كل مناسبة كما كان المسيو لوجريل النائب العمومي في ذاك العهد يحبه حبًّا جمًّا، ويتخذ أعماله قدوة يقتدي بها عمال النيابات الأخرى، ولم يتخل عن إطرائه حتى بعد اعتزاله الأعمال وتركه لخدمة الحكومة.

وعندما تولى المرحوم رياض باشا الوزارة في أغسطس سنة ١٨٨٨، وقع بينه وبين المترجم نفور فمغاضبة بسبب اختصاص الوظيفة، وبالرغم من تدخل المرحوم توفيق باشا الخديو السابق في الأمر، فقد اعتزل المترجم الخدمة وسافر إلى بني سويف مسقط رأس أبويه، وكان لم يرها إلى ذلك الحين حيث أقام بها مشتغلًا بالزراعة وتفليح ما له من الأراضي الزراعية.

وفي شهر نوفمبر سنة ١٨٩٤ جاءه طلب من وزارة المالية، فانحدر إلى القاهرة كارهًا، وما كاد يلتقي بوزيرها أحمد مظلوم باشا، ووكيلها المستر دوكنس حتى كلماه في قبول منصب إدارة مصلحة التاريع التي هي مسلحة أطيان عموم القطر المصري، وكان بها يومئذ كبير من الإنجليز لم يقو على إدارتها، فاعتذر المترجم وألح ببقائه بعيدًا عن المناصب فلم يقبلا ذلك منه، وما زالا به حتى رضي كارهًا فسلماه من يومه كثيرًا من المنشورات والأوامر العالية والقرارات الوزارية، وكلفاه بعمل قانون يكون إليه المرجع في عمل فك الزمام، فقام بعمله

حتى أتمه على أحسن حال، وقد أنعم عليه الخديوي عباس باشا بالنيشان العثماني الرابع سنة ١٨٩٧م، وهو ذاك المسند الخطير الذي ظل فيه إلى سنة ١٨٩٩م، حيث انتقلت أعمال المساحة إلى عهدة صاحب المساحة الجيولوجية، فانتقل المترجم إلى وزارة المالية في منصب ناظر إدارة أملاك الميري الحرة، فلبث بها إلى أخريات سنة ١٨٩٩م ثم تعين مديرًا لأملاك الميري بمدينة الإسكندرية، وجاءه وهو بها نيشان نجمة الافتخار من منليك ملك ملوك الحبشة في آخر أغسطس سنة ١٩٠٠، وقد لبث بها إلى أوائل سنة ١٩٠٣م، ثم انتقل إلى وزارة المالية ثانية بوظيفة ناظر إدارة أملاكها، فكان يرى أن البقاء على هذا النوع من الخدمة معطلًا لأشغاله الخصوصية، ومزيدًا لمتاعبه فجعل يسعى مع ولاة الأمور حتى وافقوا على تقاعده في آخر سنة ١٩٠٣م، وتفرغ بعد ذلك إلى التأليف الذي جد فيه، وأيضًا لاستثمار أراضيه بمديريتي الجيزة وبني سويف، وبتعضيد المشروعات الخيرية والأدبية، والأخذ بيد أمته إلى طريق الحياة والارتقاء إلى أن وافاه القدر المحتوم، فراح مبكيًّا على غزارة فضله وعلمه وفائق مجهوداته، وقد ترك الفقيد مكتبة عامرة حوت نفائس الكتب التاريخية، والعلمية، والأدبية، مما يتعذر وجود مثيلاتها بين ظهرانينا، وقد وهبتها أسرة الفقيد العزيز للمتحف القبطي بمصر القديمة؛ لتكون أثرًا خالدًا جليلًا يدوم ناطقًا لهذه الأسرة الكريمة، وفوق رأسها الشهم النبيل والأديب الفاضل شفيق بك أكبر أنجال الفقيد، الذي حذى حذوه في عمل الخير بالشكر والثناء أبد الدهر.

وقد توفي هذا العالم الجليل والمؤرخ الكبير إلى رحمة ربه في جمادى الأولى سنة ١٣٣٦هـ، واحتفل بتشييع جنازته إذ ذاك باحتفال عظيم سار فيه كل ذي حيثية ومقام كبير في البلاد، كما أقامت له جمعية التوفيق القبطية الكبرى حفلة تأبين، حيث كان الفقيد رئيسًا لها ومن كبار العاملين لإحيائها، تبارى فيها الخطباء معددين مناقبه وآثاره الخالدة، التي ملأت صفحات كبيرة من الكتب والمجلات والصحف على اختلاف أحزابها وآرائها[1].

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 602-607

المعلم رزق

على بك الكبير الذى مات سنة سنة سبع وثمانين وماية وألف هـ ١٧٧٣م، كان كاتبه القبطى المعلم رزق بلغ في أيامه من العظمة ما لم يبلغه قبطي فيما رأينا، ومن مسقاته كرع المعلم إبراهيم الجوهري وأدرك ما أدركه بعده في أيام محمد بك وأتباعه من بعده[1].

المعلم إبراهيم الجوهرى

فى سنة تسع ومايتين وألف هـ يذكر الجبرتي: أنه فى هذه السنة مات الذمي المعلم إبراهيم الجوهري رئيس الكتبة الأقباط بمصر، وأدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم، وأول ظهوره من أيام المعلم رزق كاتب علي بك الكبير، ولما مات علي بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم ونما ذكره في أيام محمد بك، فلما انقضت أيام محمد بك وترأس إبراهيم بك قلده جميع الأمور، فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميري وجميع الإيراد والمنصرف وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته، وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يعزب عن ذهنه شي من دقايق الأمور، ويداري كل إنسان بما يليق به من المداراة ويحابي ويهادي ويبعث الهدايا ويواسي ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة، ويهادي ويبعث الهدايا العظيمة والشموع إلى بيوت الأمرا، وعند دخول رمضان

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 2 ص 299

يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ومَن دونهم الشموع والهدايا والأرز والسكر والكساوي وعمرت في أيامه الكنايس وديور النصارى وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان، ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال، وحزن إبراهيم بك لموته، وخرج في ذلك اليوم إلى قصر العيني حتى شاهد جنازته وهم ذاهبون به إلى المقبرة، وتأسف على فقده تأسفًا زايدًا وكان ذلك في شهر القعدة من السنة[1].

المعلم نقولا النصراني الآرمني

المعلم نقولا النصراني الآرمني الذي كان ريس مركب مراد بك الحربية التي أنشأها بالجيزة وأسكنوه ببيت حسن كتخدا بباب الشعرية[2]، وكان مراد بك قد أحضر أناسًا من القليونجية ونصارى الأروام وصناع المراكب، فأنشاوا له عدة مراكب حربية وغلايين، وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هية مراكب الروم صرف عليها أموالًا عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية، وأدار عليهم الجماكي والأرزاق الكثيرة، وجعل عليهم ريسًا كبيرًا رجلًا نصرانيًّا وهو الذي يقال له نقولا، بنى له دارًا عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر، وله عزوة وأتباع من نصارى الأروام المرتبين عسكرًا، وكان نقولا المذكور يركب الخيل ويلبس الملابس الفاخرة، ويمشي في شوارع مصر راكبًا وأمامه وخلفه قواسة يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمرا، كل ذلك خطرات من وساوسه لا يدري أحد لأي شي هذا الاهتمام، ولأي حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطاه لنصارى الأروام، واختلفت آراء الناس في ذلك فمن قايل إن ذلك خوفًا من خشداشينه، وقايل من مخافة العثمانية كما تقدم في قضية حسن باشا، والبعض يظن خلاف ذلك وليس غير الوهم والتخيل الفاسد والخوف شي، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحواصله والجلل والبنبات حتى أخذ جميعه الفرنسيس، فيقال إنه كان بحواصل الترسخانة من جنس الجلل أحد عشر ألف

---

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 3 ص 365

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 82

جلة، كذا نقل عن معلم الترسخانة أخذ جميع ذلك الفرنسيس يوم استيلاهم على الجيزة والقصر[1].

المعلم بشارة

وهو كان من أعيان كتبة الأقباط فى أسيوط، سنة تلاتين ومايتين وألف هجرية (١٨١٤م)، وما يذكر عنه: فى تاسع محرم حضر إبراهيم باشا من الجهة القبلية إلى داره بالجمالية. وفي عاشره يوم الخميس وصل في ليلته قابجي وعلى يده تقرير للباشا من الحجاز إلى ساحل القصير، فضربوا لذلك مدافع من القلعة. وفي صبحها خرج ابن الباشا وأخوه وكذلك أكابر دولتهم إلى ناحية البساتين، ومنهم من عدَّى النيل إلى البر الغربي لملاقاته على مقتضى عادته في عجلته في الحضور وعلى حساب مضي الأيام من يوم وصوله إلى القصير، فغابوا في انتظاره حتى انقضى النهار ثم رجعوا. وفي صبح اليوم التاني خرجوا ثم عادوا إلى دورهم آخر النهار، واستمروا على الخروج والرجوع تلاتة أيام ولم يحضر، وكثر لغط الناس عند ذلك واختلفت رواياتهم وأقاويلهم مدةً ليلًا ونهارًا، ثم ظهر كذلك هذا الخبر وأن الباشا لم يزل بأرض الحجاز، وقيل: إن سبب إشاعة خبر مجيه أنه وصل إلى ساحل القصير سفينة بها سبعة عشر شخصًا من العسكر، فسألهم الوكيل الكاين بالقصير عن مجيهم، فأجابوه: إنهم مقدمة الباشا، وإنه واصل في أثرهم، فعندما سمع جوابهم أرسل خطابًا إلى كاتب من الأقباط بقنا يعرِّفه بقدوم الباشا، فكتب ذلك القبطي خطابًا إلى وكيل شخص من أعيان

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 4 ص 248-249

كتبة الأقباط بأسيوط يسمى المعلم بشارة، فعندما وصله الجواب أرسل جوابًا إلى موكله بشارة المذكور بمصر بذلك الخبر[1].

المعلم ملطى

فى يوم الخميس سابع وعشرين محرم سنة ثمانية عشر ومائتين وألف هجرية: قبضوا على المعلم ملطي القبطي من أعيان كتبة القبط، وهو الذي كان قاضيًا أيام الفرنسيس، فرموا رقبته عند باب زويلة، وكذلك قطعوا رأس المعلم حنا الصبحاني أخي يوسف الصبحاني من تجار الشوام، عند باب الخرق في ذلك اليوم، وأقاما مرميين إلى تاني يوم[2].

بقطر المحاسب كاتب البرديسي

مات بقطر المحاسب كاتب البرديسي يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمانية عشر ومائتين وألف هجرية، فلما كان يوم التلات، اجتمع العسكر ببيت محمد علي، وحصل بعض قلقة، فحولهم على القبط بمايتاي ألف ريال، منها خمسون على غالي كاتب الألفي وثلاثون على تركة بقطر المحاسب والماية والعشرون موزعة عليهم، فسكن الاضطراب قليلًا[3].

المعلم جرجس الجوهرى

فى سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية: مات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين بالديار المصرية، وهو أخو المعلم إبراهيم الجوهري، ولما مات أخوه في زمن رياسة الأمرا المصرية تعين مكانه في الرياسة على المباشرين والكتبة، وبيده حل الأمور وربطُها في جميع الأقاليم المصرية، نافذ الكلمة وافر الحرمة، وتقدم في أيام الفرنسيس فكان ريس

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 519-520
2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 48
3) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 100

الريسا، وكذلك عند مجي الوزير والعتمانيين، وقدموه وأجلسوه لما يسديه إليهم من الهدايا والرغايب، حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي، ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف أفندي الدفتردار، ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره، ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور.

وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوي والبن، ويعطي ويهب وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والأزبكية، وأنشأ دارًا كبيرة، وهي التي يسكنها الدفتردار الآن، ويعمل فيها الباشا وابنه الدواوين عند قنطرة الدكة، وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم.

ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالي وتداخل في هذا الباشا، وفتح له الأبواب لأخذ الأموال والمترجم يدافع في ذلك، وإذا طلب الباشا طلبًا واسعًا من المعلم جرجس يقول له: هذا لا يتيسر تحصيله، فيأتي المعلم غالي فيسهل له الأمور ويفتح له أبواب التحصيل، فضاق خناق المترجم وخاف على نفسه فهرب إلى قبلي، ثم حضر بأمان كما تقدم، وانحط قدره ولازمته الأمراض حتى مات في أواخر شعبان وانقضى، وخلا الجو للمعلم غالي وتعين بالتقدم، ووافق الباشا في أغراضه الكلية والجزئية[1].

عبود النصراني كاتب الخزينة

في يوم الاثنين الخامس من رجب سنة 1234 هـ مات عبود النصراني كاتب الخزينة، وكان مشكور السيرة في صناعته، وعنده مشاركة ودعوى عريضة ودعوى علم، ويتكلم بالمناسبات والآيات القرآنية، ويُضمِّن إنشاءاته ومراسلاته آيات وأمثالًا وسجعات[2].

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 387

2) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 5 ص 642

الأنبا برصوما العريان

بعد أن كرز لليعاقبة بطرك يقال له يونس، عرف بابن القديس وهو الثمانون من البطاركة، كرز قمصاً بالمعلقة فى يوم الثلاثاء رابع عشر أمشير سنة ألف وستة عشرة لدقلديانوس، وكمل بثغر الأسكندرية فى تاسع عشر أمشير من هذه السنة، الموافق لثانى وعشرين جمادى الأول سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية، وذلك فى أيام السلطان الملك الناصر، وكانت نياحته فى يوم الخميس رابع شهر بؤونة سنة ألف ست وثلاثين للشهداء، الموافق لتاسع عشر ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة للهجرة، وذلك فى دولة الملك الناصر الثالثة، وكانت مدة إقامته فى البطريركية عشرين سنة وثلاثة شهور وثمانية عشر يوماً، وخلا الكرسى بعده ثلاثة شهور واحد عشر يوماً.

وفى أيام هذا الأب البطريرك تنيح الأب العظيم أبونا برصوما العريان بدير شهران، وذلك فى خامس النسئ سنة ألف ثلاث وثلاثين للشهداء، الموافق لتاسع عشر جمادى الآخر سنة سبع عشرة وسبعمائة للهجرة، وفيما مختصر لعجائبه:

كان والد هذا الأب يعرف بالوجيه كاتب شجرة الدر، وأن هذا الأب رفض العالم وكل شهواته وطرحه فاتى وسكن بكنيسة العذراء بحارة زويلة، ثم أنتقل منها إلى جبل طرة ثم أتى وسكن فى بيعة الشهيد مرقوريوس بمصر بالمغارة، وكان بالمغارة تنين عظيم وكان يأنس إلى أبينا برصوما ويقيم عنده، ولمن حضر يقصد زيارة أبينا فيشير إليه بالإنصراف إلى وكره، ثم انتقل من هذا المكان وسكن بدير شهران، وبه كانت نياحته فى التاريخ المذكور أعلاه.

ذكر يسير من الآيات التى أظهرها الله على يديه: قلت كان إنسان يقال له: التاج ابن السنى كاتب دار الضيافة وهو أيضاً من أقارب القاضى كريم الدين الناظر، فحصل له استسقاء وآيست منه الأطباء، فحضر هذا الرجل إلى عند ابينا برصوما، وكان عنده إذ ذاك الوقت بطيخة مكشوفة حامضة، فقال له أبونا: مولانا يأكل من هذه وأرجو لك الصحة فأكل، ثم حصل له إسهال مفرط إلى أن صلح فؤاده وعاد صحيحاً وهو يعيش إلى آخر سنة ألف اثنتين وسبعين لدقلديانوس.

ذكر أعجوبة أخرى: ولما ظهر أمر هذا الأب وأشتهر حاله حضر إليه السلطان الملك الناصر فى نفر يسير من مماليكه، وكان قبل حضور السلطان إلى دير شهران قال أبونا برصوما للرهبان: يا مولانا جهزوا لنا شيئاً للأكل، فإن شخصاً جليل المقدار يحضر إلينا فى هذه الساعة، وأن الرهبان جهزوا ما يليق، فلما حضر السلطان سلم عليه أبونا برصوما وأكرمه وقال له: ينصرك الله. ثم باس أبونا برصوما مكان قلب السلطان، وقال له: المملوك باس مكان يد الله، فإن النبى يقول: يد الله على قلب الملك.

فقال له: ايش هذا الكلام؟ فقال له أبونا برصوما: مولانا السلطان الملك الناصر. فقال له السلطان: خلينا من هذا الكلام. السلطان فى قلعته. فقال له أبونا برصوما: أيضاً مولانا هو. ثم سأله السلطان عن أمور كثيرة، فأجابه عنها، وتوجه.

أعجوبة أخرى: ثم أن السلطان الملك الناصر حصل له فى وقت تغير مزاج، فأرسل إلى أبينا برصوما شخصاً من جهته، فسأله عن ضعف السلطان، فقال له: السلطان طيب، وما يصيبه شيء. فحضر القاصد وعرف السلطان بذلك ، ثم أن السلطان قال له: عد إليه وأستفهم منه متى يموت السلطان؟ فلما حضر القاصد وقال لأبينا برصوما هذا الكلام قال له أبونا: السلطان لا يموت حتى يطلع النيل فوق الرصد. فعرف السلطان بذلك، وكان هذا

الكلام عندهم كالهزوء وما عرف تأويله، وأقامت هذه القضية عدة سنين، ثم أن السلطان رسم بعمارة سواقى فوق الرصد، وجرّ الماء من البحر إليها، فلما انتهت هذه السواقى وشالت الماء إلى علو الرصد، ومنه إلى المجراة التى تحمل الماء إلى القلعة، حصل للسلطان ضعف، فأدرك قول أبينا برصوما.

ثم أنه جلس ذات يوم فى الشباك المطل على الإسطبل تحت القلعة، وكان أيدغمش إذ ذلك الوقت أمير آخور، فقال له السلطان: يا أمير آخور ايش أخبار الناس؟ فقال له: خير وسلامة، وإذا كان مولانا السلطان طيباً هو الدنيا وما فيها، فقال له السلطان: والله يا أيدغمش ما بقيت أعيش، فقال له أيدغمش: يكفى الله مولانا السلطان ويجعلنا فداه من كل سوء، ثم قال له السلطان: خلى عنك، والله، العريان الذى بدير شهران قال لى هكذا: إن السلطان ما يموت حتى يطلع النيل فوق الرصد، ولو فكرت فى ذلك ما عمرت السواقى، ولكن ما بقى فيها حيلة.

وفى هذه السنة ضعف السلطان الملك الناصر، وفيها كانت وفاته.

أعجوبة أخرى: كانت زوجة العلم ابن الرويهب حاملاً ثم مات الولد فى فؤادها، وأقام مدة سنين، وعجزت الأطباء فى معالجتها، فتوجهت إلى عند أبينا برصوما، فأعطاها ماء فشربت منه، وللوقت تقطع الولد ورمته من جوفها، وجاف من رائحته الدير، ووعدها إن الله يعوض عليها عوضه، فكان الأمر كذلك، ورزقت ولداً وأسمته الأمجد فض الله، وهو حى إلى سنة ألف اثنتين وسبعين للشهداء.

أعجوبة أخرى: كان شخص من المسلمين يسمى شمس الدين ابن الصاحب بهاء الدين ابن حنا أستأجر نصف جزيرة بالقرب من دير شهران وهيأها لزرع المقات، ولما زرع المقات حضر شمس الدين-المذكور-إلى عند أبينا برصوما وسأله أن يتوجه معه إلى المقات ويضع الزريعة فى أربعة أركان المكان، فحضر أبونا وفعل كذلك، فلما أودع الحبّ الأرض قال له أيونا برصوما: مولانا يعلم أن مغل هذا المكان يحفظ سبعة آلاف درهم، ثم حصل للمقات آفة سمائية وأفسد جميعه، فحضر شمس الدين-المذكور-إلى عند أبينا وأخبره بذلك، فقال له أبونا برصوما: الذى قلته لك صحيح تماماً، فلما أدرك المقات أبيع بهذا المقدار لم يختل درهماً واحداً.

أعجوبة أخرى: كان أبونا برصوما يملأ عنده جراراً كبيرة فخاراً ماء ويدعها إلى جانبه، وكل من يحضر إليه يقول له: إملأ جرتين .. ثلاث. إلى أن قال له بعض من حضره: يا أبانا، ايش تعمل بهذه الجرار العظيمة؟ فقال له: يا مولانا، المملوك حارس، إذا وقعت شرارة فى النحاسين يطفئها بهذا الماء. وكان عند وقوع الحريق بعد نياحة أبينا برصوما أول حريق وقع فى بداية الأمر بالنحاسين بالقاهرة واتفق من الحريق ما هو مشهور.

أعجوبة أخرى: كان غلام اسمه إبراهيم وكان يلازم أبانا برصوما كثيراً، وكان ضعف حاله، وله زوجة جميلة المنظر، وكان يحبها ويخاف عليها لئلا تنفسد لقلة ذات يده، ولما كان فى بعض الأيام وهو جالس عند أبينا برصوما، وهو يشتكى له من حاله وفاقته، فقال له أبونا: يا مولانا خذ لى جرة حمراء واملأها من البحر. فلما ملأ الجرة وحضر قال له أبونا برصوما: اشترى بدرهمين نقرة خبزاً. فلما اشترى الخبز قال له أبونا برصوما: يا مولانا تبصر ذاك السنّ الجبل وأراه مكاناً من خارج الدير، وقال له: خذ هذا الخبز والماء وأمض نام فوق الجبل فى هذه الليلة، فأمتثل ذاك وتوجه إلى ذلك المكان ونام فيه، فلما كان نصف الليل سمع إبراهيم صوت مشيّ فى الجبل فأستيقظ مرعوباً فلم يشعر إلا بستة رجال حضروا إليه وقالوا له: ما هذا الذى معك؟ فقال لهم: خبز وماء. فقالوا له: هات، وأكلوا ذلك الخبز وشربوا الماء، ثم قالوا له: افتح ظرفك، وسكب له كل واحد منهم حفنة من الذهب. ثم توجهوا إلى حال سبيلهم، فلما حضر إبراهيم بالذهب إلى عند أبينا برصوما استقبله وقال له: يا مولانا، الشام .. يا مولانا، الشام. فخرج إبراهيم-المذكور-فى تلك الساعة وأخذ زوجته وسافر إلى الشام[1].

1) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل ص 488-493

الكنيسة القبطية والحبشة

الحبشة والكنيسة القبطية

أشار عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر سنة 597 هـ إلى تبعية الحبشة للكنيسة القبطية عند حديثه عن نهر النيل حيث ذكر: وورد في شهر شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمن موت مطرانهم ويلتمس عوضه وذكر فيه أن مطرهم في هذه السنة ضعيف وأن النيل قليل المد لذلك[1]

ويذكر ابن إياس الجركسى عندما تحدث عن نقص مياه النيل: وفى سنة احدى وخمسين واربعمائة وقع الغلاء العظيم بمصر الذى لم يسمع بمثله وذلك في دولة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى واستمر الغلاء بمصر سبع سنين متوالية يزيد النيل في الأول اثنى عشر ذراعاً ثم ينقص وتارة يزيد دون اثنى عشر ذراعاً ثم ينقص فأستمر هذا الحال نحو سبع سنين متوالية فبلغ كيل أردب القمح مائة دينار ولا يوجد أصلاً حتى أكلت الناس الميتة والجيف والقطط والكلاب ووقع في هذا الغلاء العجائب والغرائب من الأخبار فلما استمر الغلاء سبع سنين متوالية أشيع بين الناس أن الحبشة سدت مجرى النيل عن أهل مصر فرسم الخليفة المستنصر بالله أن البطرك يتوجه إلى بلاد الحبشة إلى عند مجرى النيل ويسألهم أن يطلقوا للنيل إلى أهل مصر فلما توجه البطرك إليهم أكرموه وسجدوا له وقالوا له ما حاجتك فقال أطلقوا ماء النيل إلى أهل مصر فقال ملك الحبشة لأجلك نطلق لهم ماء النيل فأطلقوه وأوفى النيل في تلك السنة[2].

وفى النزهة الزهية: أن فى خلافة المستنصر بالله الفاطمي بمصر نقص النيل نقصاناً كثيراً فأرسل أحضر مخائيل بترك النصارى اليعقوبية ونفذه إلى بلاد الحبشة بهدايا وتحف إلى ملكها فلما وصل البترك إلى بلاد الحبشة تلقاه الملك وأكرمه وسجد بين يديه وسأله عن سبب قدومه فعرفه أن نيل مصر نقص وأضر البلاد وأهلها فأمر ملك الحبشة بفتح السد الذى يجري منه إلى الديار المصرية وأجرى الله تعالى النيل فى تلك السنة وزاد فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع وتكامل ورويت البلاد[3]

---

1) الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى ص 128

2) نشق الأزهار في عجائب الأقطار لابن إياس الحنفى الجركسى ص78-79

3) النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ص250

ذكر ورود رسل الحبشة إلى أبواب مولانا السلطان، فى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وستمائة هـ ورد رسول من جهة الحبشة ترجمته: المملوك المحب سليمان ملك الحبشة يكباب صهيون مضمونة: أنه أرسل رسولاً بسبب السلام ومعه لأجل بيت المقدس ثوب عمل الحبشة ومائة شمعة للوقود فى الهياكل وسأل إنفاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ويوصي عليهم بألا يُمنعوا من دخول الهياكل وقال: إنه سيَّر صُحبة يوسف بن عبد الرحمن شريفي حربة مذهبة مشعل ويسأل فى إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التى فيها النصارى والمسلمين وقال: إنه ما هو مثل والده وإنني أحفظ المسلمين فى جميع مملكتى ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى نصير مشورة واحدة ويداً واحدة وتتواصل الرسل من الجهتين والذى جرت العادة به عند إنفاذ المطران من الخدام والجوارى والذهب والأصد ويصل مع رسولى وكان يطلب يُسيَّر ذلك صحبة رسوله يوسف لكن تأخر لأجل المطران السريانى الذى أتلف البلاد فى زمن والدى-هو من أعداء المسلمين-وأشتهي أن تحضر المطران المطلوب صحبة رسول السلطان وصحبة رسولي وأنا أنتظر جواب السلطان بما يصلح المسلمين والنصارى حتى تنصلح بلاد الحبشة ولا يقول السلطان: ما وصلتني العوايد التى جرت العادة بها عند طلب المطران فإذا وصل صحبة رسول السلطان ورسلي عملت ما يشتهيه السلطان ويوصي على البطرك.

وفى طى الكتاب ورقة مضمونها: إنني سيرت الكتاب الذى كان السلطان سيَّره إلى والدى والكتاب بخط المملوك مؤلف هذه السيرة الشريفة عن الملك الظاهر، تاريخه مُستهل شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وستمائة هـ، ألقابه وصلت مكاتبة حضرة الملك الجليل الهُمام العادل فى مملكة حطي ملك أمحرا أكبر ملوك الحبشان الحاكم على ما لهم من البلدان نجاشي عصره سيف الملة المسيحية عضد دين النصرانية صديق الملوك والسلاطين ومضمونه: إن كتابك تضمن طلب مطران ولم يحضر من جهتك رسول يكون الإختيار بحضوره لأن كتابك يتضمن أن المطران المطلوب يكون لا يحب ذهباً ولا فضة ومن يتصف بهذا الوصف لا يُختار إلا بحضور رسولك وكان كتاب الملك المظفر صاحب اليمن يذكر أن كتاب الملك وصل إليه صحبة قاصد بطلب المطران وأنه أقام عنده حتى يسير الجواب وقد سير الجواب ووصلت ورقة بإسم صالح بن ياسين بن عبد الرحمن بن شريف ابن أخى الرسول

الواصل من الحبشة قال: إنه كان فى مكة ووصل إلى عيذاب فوجد عمَّه قد وصل رسولاً من الحبشة وأنه قد مات بعيذاب ويشتكي من صاحب زكاة عيذاب عمر بن الفاكهاني.
ووصل رفيق المتوفى ووصل الرسول الأصلي وهو حبشى الجنس ووصل كتاب بالخط العربى من داود العِزًّا النصراني وزير الملك مضمونه: أنه سير هدية خادماً ويعتذر ويشكو من المطران السرياني ويقول: إن رسم المطرانية يسيره إن شاء الله تعالى[1]

تعريب كتاب ورد بالحبشي إلى البطرك وأسمه بالحبشي يكباسون وبالعربية سليمن إلى البطرك بمصر مصمونه: أتوسل للبطرك-بطرك الأسكندرية-أبو يحنس ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص وأنذريانون يكون عليك أسمع كلامي: وأقض حاجتى وأبعث لى مطراناً أسقف جيد صالح يعلمنى كل شيء جيد ويكون مثل ما ضرب داود عليه السلام المثل فى الزبور من شأننا وقال: خلُوا رجالاً جياداً من قبط مصر يخرجون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد وقال فى وصيته: لا تخلى يابني خروفك يأكله الذئب وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك والساعة لا تُتخرب مدينتنا وتسيَّر إلينا مطراناً فسيره إن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك ولا تخلي هؤلاء السريان فى بلادنا ونخرجهم إذا قلت أطردوهم وإن قلت خلوهم خليناهم وأنت أنكرت علينا بسببهم فأغفر لنا هذا الذنب حتى لا تبقى علينا خطية وأغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت
كلام آخر: السلام يا منصور أسمع يا سلطان مصر-نصرك الله-أعطي البطرك الدستور يبعث لي أسقفاً فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم والرسم الذى لك والتقدمة أنا أعطيك إن سيرت لي أسقف وإذا سيرته أنا أتقصى منه عن رسمك ومهما قال فعلته.

1) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص170-172

كتاب آخر بالحبشى من سطان الحبشة إلى القدس الشريف، إلى قبر المسيح ربي: سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام وصبرتم على الحر والبرد وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة وثيابي وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان ما هو كل يوم إلا من يوم العيد إلى يوم العيد ولا يلبسه إلا القسيس الذى يعمل القربان فعرفوني بوصول هذا وأكتبوا أسماءهم وأذكروني فى صلواتكم بدعواتكم وأقبلوا ما سيرته فهو فى سرير سلطاني وزنارى ولا تنسوني كل يوم[1]

وفى سنة اثنتين وسبعين وستمائة هـ وفيها ما ذكره القاضى بن عبد الظاهر: أن ورد كتاباً من ملك الحبشة على السلطان الملك الظاهر طىّ كتاب صاحب اليمن وهو يقول: قد قصد المملوك فى إيصال كتابه إلى السلطان، وكان ضمن كتاب ملك الحبشة يقول: أقل المماليك محراماً لك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله مملكه أن رسولاً وصل من والى قوص ببسبب الراهب الذى جاءنا فنحن ما جاءنا ممطران مولانا السلطان ونحن عبيده فيرسم مولانا السلطان للبطرك يعمل لنا مطران يكون رجلاً جيداً عالماً لا يجبي ذهباً ولا فضة ويسيره إلى مدينة عوان فأقل المماليك يسير إلى الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره غغإلى الأبواب العالية وما أخرت الرسلإلى الأبواب إلا أنى كنت فى بيكار فإن الملك داود قى توفى وقد ملك ولده وعندى فى عسكرى ماية ألف فارس من المسلمين وإنما النصارى فكثير لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك والمطران الكبير يدعو لك وهذا الخلق كلهم يقولوا: آمين، وكل من وصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظم ونسفرهم كما يحبوا والرسول الذي حضر إلينا من والى قوص مريض وبلادنا وخمة من مرض ما يطيق أحداً يدخل إليه فمن شم رايحته يمرض ويموت

قال القاضى محيي الدين: فرسم السلطان بجوابه فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم. ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل فى مملكته حطى ملك أمحرا أكبر ملوك الحبشان الحاكم على ما لهم من البلدان نجاشي عصره وفريد مملكته فى دهره سيف الملة المسيحية صديق الملوك والسلاطين سلطان الأمحرا حرس الله نفسه وبنا على الخير رأسه فوقفنا عليها وفهمنا

1) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص172-173

مضمونها فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نفهم الغرض المطلوب وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها ماية ألف من المسلمين فالله تعالى يكثر فى عساكر المسلمين وأما وخم بلاده فالآجال مقدرة من الله عز وجل وما يموت أحد إلا بأجله والسلام[1]

وفى عهد اسحق بن داود الملقب بالحطى ملك الحبشة الذى مات سنة اثنتي عشرة وثماني مئة هـ قدم عليه رجل من كتاب مصر النصارى يعرف بفخر الدولة فرتب له مملكته وجبى له الأموال[2]، والحبشة لهم مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة من مصر بأمر من السلطان بعد سؤال الحطى في ذلك وإرساله هدية[3]، ويذكر أحمد بن عبد القادر المقريزى: ولابد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة بمصر بعد سؤال الحطي لسلطان مصر فى ذلك بكتاب يبعثه مع رسله صحبة هدية فيتقدم البطريق بتعيين مطران لهم والحبشة قوم يدينون بالنصرانية من قديم ويعتقدون مذهب اليعقوبية وهم يتشددون فى ديانتهم تشدداً زائداً ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكية من النصارى بحيث أخبر من دخل منهم إلى بلاد الحبشة أنه أظهر بها أنه يعقوبى خوفاً من القتل لو علموا أنه ملكى[4]

وفى سنة ست وأربعين وثلثماية هـ فى أيام الحاكم بأمر الله أن النيل لم يزد لا كثيراً ولا قليلاً فقيل للحاكم إن هذا من فعل الحبشة قد حيرّوا مجرى النيل ففأمر بطرك النصارى بأن يتوجه إلى الحبشة فلما وصل البطرك إلى بلاد الحبشة ودخل على ملكهم أكرمه وسجد له وسأله عن سبب قدومه عليه فعرفه أن النيل نقص ولم يزد عندنا شيء وقد أضر ذلك

---

1) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى ج8 ص173-174، أيضاً تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ص267-268

2) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ج1 ص 386

3) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ج1 ص 388

4) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص 3

بسكان مصر فأمر ملك الحبشة بفتح سد عندهم الذى يجرى منه إلى مصر ماء النيل لأجل أن البطرك قدم عليه فزاد النيل فى تلك السنة زيادة قوية حتى أوفى[1]

وكان ببلاد الحبشة بلاء لا يمكن وصفه، وذلك أنا أدركنا ملكها داود بن سيف أرعد بن قسطنطين - ويقال له الحطي - ملك أمحرة، وهو وهم نصاري يعقوبية. فلما مات في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، قام من بعده ابنه تدرس بن داود، فلم تطل مدته، ومات. فملك بعده أخوه أبرم، ويقال له إسحاق بن داود بن سيف أرعد، وفخم أمره، وذلك أن بعض مماليك الأمير بزلار نائب الشام ترقى في الخدم، وعرف بألطنبغا مغرق، حتى باشر ولاية قوص من بلاد الصعيد، ثم فر إلى الحبشة واتصل بالحطي هذا، وعلم أتباعه لعب الرمح، ورمي النشاب وغير ذلك من أدوات الحروب، ثم لحق بالحطي أيضاً بعض المماليك الجراكسة - وكان زرد كاشا - فعل له زرد خاناه ملوكية، وتوجه إليه مع ذلك رجل من كتاب مصر الأقباط النصارى - يقال له فخر الدولة - فرتب له مملكته، وجبى الأموال وجند له الجنود، حتى كثر ترفه، بحيث أخبرني من شاهده وقد ركب في موكب جليل وفي يده صليب من ياقوت أحمر، وقد قبض عليه ووضع يده على فخذه، فصار يبين ويظهر لهذا الصليب الياقوت طرفان كبيران من قبضته، فشرهت نفسه إلى أخذ ممالك الإسلام لكثرة ما وصف له هؤلاء من محاسنها، فبعث بالتوريزي التاجر ليدعو الفرنج للقيام معه، وأوقع في بمن مملكته من المسلمين، فقتل منهم وأسر وسبي عالماً عظيماً. وكان ممن أسر منصوراً ومحمداً، ولدى سعد الدين محمد بن أحمد علي بن ولصمع الجبرتي - ملك المسلمين بالحبشة، فعاجله الله بنقمته، وهلك في شهر ذي القعدة، فأقيم بعده ابنه اندراس بن إسحاق، فهلك لأربعة أشهر، فأقيم بعده عمه حزبناي بن داود بن سيف أرعد، فهلك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين، فأقيم بعده ابن أخيه سلمون بن إسحاق بن داود بن سيف أرعد، فكانت على أمحرة أربعة ملوك في أقل من سنة.[2]

وفى سنة خمس وعشرين وسبعمائة هـ وفي يوم الإثنين سادس عشر المحرم: وردت رسل ملك الحبشة بكتابه يتضمن إعادة ما خرب من كنائس النصارى ومعاملتهم بالإكرام والاحترام،

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 1-1 ص 204

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 3 ص 339

ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر، فسخر السلطان منه، ورد رسله[1].

وفى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وورد الخبر بأن متملك الحبشة داود بن سيف أرعد - الملقب بالحطى - أنفذ جيشًا إلى أطراف معاملة أسوان، فأوقعوا بالعربان، ونال أهل الإسلام منهم بلاء كبير، فبعث الأمير الكبير إلى متى بن سمعان بطريق النصارى اليعاقبة بالمعلقة من مدينة مصر، يأمره أن يكتب إلى صاحب الحبشة يمنعه من التطرق إلى بلاد المسلمين، فأجاب بعد امتناع، وكتب إليه بما اقترحه عليه الأمير الكبير من ذلك. وكتب السلطان إليه كتابا بالإنكار عليه، وندب لرسالته البرهان إبراهيم الدمياطي، نقيب قاضي القضاة المالكي، وجهز. بما يليق به. وفي أول شهر رجب: وفُر إقطاع تقدمة الأمير أَقتمُر عبد الغني، و لم ينعم به على أحد. وفيه امتنع قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة من الحكم، لأجل مال طلب منه من الأوقاف لتجهيز الرسل إلى الحبشة، فأعفي من ذلك، وخلع عليه في ثانيه خلعة الاستمرار[2]

وفى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة استدعى بطرك النصارى، وقد اجتمع القضاة ومشايخ العلم عند السلطان، فأوقف على قدميه، ووبخ وقرع، وأنكر عليه ما بالمسلمين من الذل في بلاد الحبشة، تحت حكم الحطي متملكها، وهدد بالقتل، فانتدب له محتسب القاهرة صدر الدين أحمد بن العجمي وأسمعه المكروه له من أجل تهاون النصارى فيما أمروا به من التزام الذلة والصغار في ملبسهم وهيأتهم، وطال الخطاب في معنى ذلك إلى أن استقر الحال على أن لا يباشر أحد من النصارى في ديوان السلطان، ولا عند أحد من الأمراء، ولا يخرج أحد منهم عما يلزموا به من الصغار، ثم طلب السلطان بالإكرام فضائل النصراني كاتب الوزير، وكان قد سجن منذ أيام، فضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة، عرياناً بين يدي المحتسب، وهو ينادي عليه هذا جزاء من يباشر من النصارى في ديوان السلطان. ثم سجن بعد إشهاره، فانكف النصارى عن مباشرة الديوان ولزموا بيوتهم، وصغروا عمائهم، وضيقوا أكمامهم، وألتزم

---

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 447

2) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 353

اليهود مثل ذلك، وامتنعوا جميعهم من ركوب الحمير في القاهرة، فإذا خرجوا من القاهرة ركبوا الحمير عرضاً، وأنف جماعة من النصارى الكتاب أن يفعلوا ذلك،

وبذلوا جهدهم في السعي، فلما لم يجابوا إلى عودهم إلى ما كانوا عليه، تتابع عدة منهم في إظهار الإسلام، وصاروا من ركوب الحمير إلى ركوب الخيول المسومة، والتعاظم على أعيان أهل الإسلام، والانتقام منهم بإذلالهم، وتعويق معاليمهم ورواتبهم، حتى يخضعوا لهم، ويترددوا إلى دورهم، ويلحوا في السؤال لهم، ولا قوة إلا بالله. وفيه قدم الخبر بتوجه ابن السلطان من مدينة قيسارية إلى جهة قونية في خامس عشر شهر ربيع الآخر، بعدما مهد أمور قيسارية، ورتب أحوالها، ونقش اسم السلطان على بابها وأن الأمير تنبك ميق نائب الشام، لما وصل إلى العمق، حضر إليه الأمير حمزة ابن رمضان بجمائعه من التركمان، وتوجه معه هو- وابن أرزر - إلى قريب المصيصة، وأخذ أذنة وطرسوس. وعملت عقيقة الأمير أحمد ابن السلطان، وخلع على الأمراء، وأركبوا الخيول بالقماش الذهب على العادة. وفيه قدم الأمير ألطنبغا المرقبي حاجب الحجاب، والأمير أبو بكر الأستادار، من الوجه القبلي، وخلع عليهما. وفيه نادي المحتسب في شوارع القاهرة ومصر بأن النصارى واليهود لا يمرون في القاهرة إلا مشاة، غير ركاب، وإذا ركبوا خارج القاهرة، فليركبوا الحمير عرضاً، ولا يلبسوا إلا عمائم صغيرة الحجم، وثياباً ضيقة الأكمام، ومن دخل منهم الحمام فليكن في عنقه جرس، وأن تلبس نساء النصارى الأزر الزرق، ونساء اليهود الأزر الصفر، فضاقوا بذلك، واشتد الأمر عليهم، فسعوا في إبطاله سعياً كبيراً، فلم ينالوا غرضاً، وكبست عليهم الحمامات، وضرب جماعة منهم لمخالفته، فامتنع كثير منهم عن دخول الحمام، وعن إظهار النساء في الأسواق[1].

وفى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانون وسبعمائة هـ فيه ورد الخبر بأن متملك الحبشة داود بن سيف أرعد الملقب بالحطى تعدى على أطراف بلاد السلطان وأنفذ جيشاً إلى أطراف معاملة أسوان فنهبوا البلاد ونال منهم العربان ضرر عظيم، فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك بعث خلف بطريق النصارى المسمى متى ابن سمعان فلما حضر أمره أن يكتب إلى صاحب الحبشة ويمنعه من التعرض إلى بلاد السلطان فكتب إليه البطريق بما أقترحه عليه الأتابكى

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 3 ص 231

برقوق بالإنكار عليه وندب لرسالته البرهان إبراهيم الدمياطى نقيب قاضى القضاة المالكى فتوجه بهذه الرسالة إلى صاحب الحبشة[1]

في سنة احدى وأربعين وثمانمائة هـ وفيها ورد كتب صاحب الحبشة يذكر فيه أن البطرك الذي عندهم من قبل البطرك الساكن بمصر مات ويلتمس من السلطان أن يأمر البطرك أن يجهز إليهم من عنده بدله ويذكر فيه مودة ومحبة وتوصية بمن بمصر وأعمالها من النصارى، فتقدم الأمر إلى البطرك بذلك فبعث نصرانياً يسمى مخاييل، ومن قبل أن يسافرا حضر عندهما جماعة من الحبشى نصارى فشكوا أنهم كانوا في دير وأن قطاع الطريق نزلوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة وهرب من بقي، وسألوا في ترميم كنيسة كانت قديمة ببساتين الوزير وتركها أهلها من أجل تخريبها، فرفعوا قصة إلى السلطان فأذن في ذلك، ورفعوا أمرهم إلى القاضي الحنفي وهو حينئذ بدر الدين العيني فكتب لبعض من ينوب عنه بالتوجه لتلك الجهة وإعادة الكنيسة على ما كانت عليه بأنقاضها من غير مزيد على ذلك ففعل، فكان في سنة 844 ما سأذكره[2]

ويذكر ابن فضل القرشى: كنيسة ماري حنا بالاسكندرية وهي معتقد اليعاقبة منهم، وبها بطريرك القبط، وملوك الحبشة لعظم هذا البطريرك، وتشير إليه بالتعظيم، وإذا جاءهم كتابه عملوا به، لا خروج لهم عنه، ولا مندوحة لهم عند حكمه، وهو يولى عليهم مطرانا بعد مطران، كلما مات واحد بعث غيره، نائبا له فيهم، وذلك المطران يقوم بالحبشة مقام البطريرك في الأمر والنهي فيهم، وانقيادهم أجمعين إلى طاعته من غير مخالفة له ولا عليه في شيء حدثني من أثق به أن بعض التجار بمصر جهز مالا له مع مسفر به إلى الحبشة، فمات المسفر وبئس صاحب المال من ماله، وكان مالا كثيرا، فعيل صبره، وشكا إلى السلطنة بمصر حاله، فقيل للبطريرك، فكتب كتابا إلى ملك الحبشة، يأمره بإعادة مال الرجل إليه ثم أن صاحب المال سفر رجلا أعهد عليه فما طال به المكث أتى بجوابه بالامتثال، وأحضر معه

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج 1-2 ص 289

2) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 69

جميع المال بعينه أصله وربحه. وحكى عن تعظيم الحبشة لكتاب البطريرك أنه منذ دخل حدود بلاده وحدودهم وعلموا بالكتاب، تلقاه عمال الأطراف بها ورفعوا الكتاب على رمح وحملوه هو ومحضره ومن حضر معه على أرفه الدواب، ورتبوا له الإنزال والإقامات يوصله أهل كل عمل إلى الآخر على هذه الصورة حتى انتهى إلى حضرة الملك، فبالغ في إكرامه وإنزاله، وإضافته. فلما كان يوم الأحد أخذ منه الكتاب وقرأه المطران في الكنيسة على الملك، وهو واقف مكشوف الرأس إلى أن فرغ ثم أمر بإحضار المال وتسليمه إليه، ولم يخرج منه مكانه حتى أوصل إليه المال ثم وصله بصلة جيدة، وإفادة مكرمة والإنزال جار عليه من عمل إلى عمل إلى أن خرج من حدوده. قلت: ولهذا جميع ملوك النصرانية الملكية واليعاقبة تهادى صاحب مصر، وتراسله لاحتياجها لتمكين المترددين من عندهم من زيارة قمامة، وبقية مزاراتهم، واليعاقبة أكثر حاجاتهم إليه لمقام بطريركهم عنده، فإنهم لا باب لهم بخلاف الملكية فإن لأولئك الباب وهو بروميه. قلت: والباب هو طاغيتهم العظمى عندهم أن الحلال ما حلل والحرام ما حرم، ولا لأحد عندهم مندوحة أن يتأخر عن أمره أو يتقدم[1].

هذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سلطنة الملك المظفّر على الملك الظاهر بيبرس رحمه الله، بطلب مطران يقيمه لهم البطرك، مما كتب به القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي: ورد كتاب الملك، الجليل، الهمام، العادل في ملّته، حطّيّ ملك أمحرا أكبر ملوك الحبشان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشيّ عصره، صديق الملوك والسلاطين، سلطان الأمحرا، حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسّه، فوقفنا عليه وفهمنا ما تضمّنه. فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتّى كنا نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب السلطان الملك المظفّر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة الملك كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتّى يسيّر إليه الجواب. وأما ما ذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر في عساكر الإسلام. وأما وخم بلاده فالآجال مقدّرة من الله تعالى، ولا يموت أحد إلّا بأجله، ومن فرغ أجله مات. واعلم أنّ العادة جرت أنه كلما كتب إليه كتاب عن الأبواب السلطانية كتب قرينه كتاب عن البطريرك. قال في

1) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل القرشى ج 3 ص 474-475

«التعريف» : ولأوامر البطريرك عنده ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب كتابا فأتى ذلك الكتاب أوّل مملكته، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم، ولا يزال يحمله بيده حتّى يخرجه من أرضه، وأرباب الديانة في تلك الأرض، كالقسوس والشّمامسة حوله مشاة بالأدخنة، فإذا خرجوا من حدّ أرضهم تلقّاهم من يليهم أبدا كذلك في كلّ أرض بعد أرض حتّى يصلوا إلى أمحرا، فيخرج صاحبها بنفسه، ويفعل مثل ذلك الفعل الأوّل، إلّا أنّ المطران هو الذي يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبّي الملك. ثم لا يتصرف الملك في أمر ولا نهي، ولا قليل ولا كثير، حتّى ينادى للكتاب، ويجتمع له يوم الأحد في الكنيسة، ويقرأ والملك واقف، ثم لا يجلس مجلسه حتّى ينفّذ ما أمره به[1].

وعن الكتب الواردة من ملوك الحبشة أيضا يذكر القلقشندى في صبح الأعشى: والعادة فيها أن ترد في قطع باللسان ولم أظفر بصورة مكاتبة في هذا المعنى إلّا مكاتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنّفات وهو: أقل المماليك يقبّل الأرض، وينهي بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلّد الله ملكه، أنّ رسولا وصل إليّ من والي قوص، بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهّز لنا مطرانا يكون رجلا جيّدا عالما، لا يحبّ ذهبا ولا فضّة، ويرسله إلى مدينة «عوان» . وأقلّ المماليك يسيّر إلى نوّاب مولانا الملك المظفّر، صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيّره إلى نوّاب مولانا السلطان، وما كان سبب تأخير الرّسل عن الحضور إلى ما بين يدي مولانا السلطان، إلّا أنني كنت في سكار والملك داود قد توفّي، وقد ملّك موضعه ولده، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين، وأما النصارى فكثير لا يحصون، والكلّ غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلّهم يقولون آمين، وكلّ من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقلّ المماليك، ونحفظهم ونسفّرهم كما يحبّون ويختارون، وأما الرسول الذي سفّروه فهو مريض، وبلادنا وخمة، أيّ من مرض لا يقدر أحد يدخل إليه، وأيّ من شمّ رائحته فيمرض فيموت. ونحن نحفظ كلّ من يأتي من بلاد المسلمين، فسيّروا مطرانا يحفظهم. قلت:

1) صبح الأعشى للقلقشندى ج 8 ص 42-44

وقد تقدّم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدّم هناك من ادّعائه العظمة، وأنه لولا اضطراره إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يشمخ بنفسه عن المكاتبة، ولعلّ ذلك كان في الزمن المتقدّم[1].

ويذكر المقريزى في رسائله عن الحبشة، ولا بد للحبشة من مطران يولّيه بطريق النصارى اليعاقبة بمصر بعد سؤال الحطى لسلطان مصر فى ذلك بكتاب يبعثه مع رسله وصحبته هدية، فيتقدم للبطريق بتعيين مطران لهم. والحبشة قوم يدينون بالنصرانية من قديم ويعتقدون مذهب اليعقوبية، وهم يتشددون في ديانتهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملكية من النصارى، بحيث أخبرنى من دخل منهم إلى بلاد الحبشة أنه أظهر بها أنه يعقوبى خوفا من القتل لو علموا أنه ملكى. ولما تملك عليهم إسحاق بن داود بن سيف أرعد قدم عليه أيضا من قبط مصر نصرانى يعقوبى يعرف بفخر الدولة فرتب له المملكة، وجىء له بالأموال فصار له ملك له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا لا ديوان لهما ولا ترتيب ولا قانون وانضبطت عنده الأمور وتميز زيّه من رعيته بالملابس الفاخرة بعد ما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا، وقد عصب رأسه بعصابة حمراء، فصار إسحاق يمر في موكب جليل بشارة الملك، حتى لقد أخبرنى من رآه وهو راكب فرسه وقد مر في موكبه، وبيده اليمنى صليب من ياقوت أحمر قد قبض عليه بكفه ووضعها على فخذه وطرفا الصليب بارزتان عن يده بروزا كثيرا، فلما تحضرت دولته وقويت شوكته أن يأخذ ممالك الإسلام، فأوقع من تحت يده في ممالك الحبشة من المسلمين وقائع شنيعة طويلة قتل فيها وسبى واسترق عالما لا يحصيه إلا خالقه سبحانه وتعالى. وأزال دولة المسلمين من هناك كما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى، ثم كتب إلى ملوك الإفرنج يحثهم على ملاقاته لإزالة دولة الإسلام وواعدهم على ذلك، وأخذ فى تمهيد ما بينه وبين البلاد

1) صبح الأعشى للقلقشندى ج 8 ص 123-124

الإسلامية واستجلاب العربان إليه، فعاجله الله تعالى بنقمته وأهلكه عقيب ذلك في ذى القعدة ثلاث وثلاثين وثمانمائة1.

ما سبق يذكر فى درر العقود بكثير من التفصيل: إسحق بن داود بن سيف أرعد الملكقب بالحطيّ ملك الحبشة، قدمت رسله بكتابه وهديته إلى السلطان الملك الظاهر برقوق ومات سنة اثنتي عشرة وثمانمائة هـ وقد طالت مدته فأقيم بعده ابنه تدروس ومات سريعاً وأقيم بعده أخوه إسحق وفخم أمره وذلك أن بعض المماليك الأتراك أو الجراكسة كان يسمى الطنبغا مغرق فرَّ إليه وحظي عنده لما يتقنه من الآلات الحربية وأدوات القتال كاللعب بالرمح ورمي السهام ونحو ذلك ولحق به أيضاً زرد كاش من المماليك الجراكسة فعمل له زرد خاناه عظيمة وتعلم عسكره أنواعاً من الحرب ثم قدم عليه رجل من كتاب مصر النصارى يعرف بفخر الدولة فرتب له مملكته وجبي له الأموال فصار ملكاً بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجاً لا ديوان لها ولا قانون فأنضبطت عنده الأمور وتميز زيه عن رعيته بحيث أخبر من شاهده وهو راكب وفى يده صليب من ياقوت أحمر قد قبض عليه بيده اليمنى ووضعها على فخذه وطرفا الصليب بارزان عن يده وذلك بعدما أخبر برهان الدين إبراهيم الدمياطي وكان الظاهر برقوق قد بعثه رسولاً إلى الحطي داؤد بن سيف أرعد أنه لا يزال عرياناً حاسر الرأس وأنه يعصب رأسه بعصابة حمراء وأنه شاهده وقد جيء إليه بكرش بقرة قد نفض ما فيها من الفرث ولم تغسل ولم تعل على النار فصار يأكلها نيئة فلما تحضرت مملكة إسحق أراد أن يأخذ ممالك الإسلام فأوقع بمن فى ممالك الحبشة من المسلمين وقائع شنيعة طويلة طويلة قتل منهم فيها وأسر وسبى وأسر أمماً لا يحصيهم إلا الله خالقهم وأزل دولة سعد الدين وأسر ابنيه منصوراً ومحمداً وكتب إلى بلاد الفرنج يحث من فيها من الفرنج على المسير إلى بلاد المسلمين ليوافوه فى البحر إذا قدم هو فى البر وواعدهم على ذلك ولكنه مات سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هـ وأيد عليه وعلى قومه أمحرة النصارى عباد جمال الدين بن سعدد بن محمد فجمع من الملسمين طائفة وقام يعيث فى بلاد الحطي ويقتل ويسبي ويغنم، وقد أقيم بعد إسحق ابنه أندراس بن إسحق ومات بعد أربعة أشهر لموت أبيه، فقام بعده بأمر أمحرة عمه حزبناي بن داود بن سيف أرعد ومات سنة أربع وثلاثين وثمانمائة هـ، وأقيم بعده سلمون

1) رسائل المقريزى ص 232-233

بن إسحق بن داود بن سيف أرعد ومات أيضاً بنفس السنة فكان للحبشة فى سنةٍ واحدة أربعة ملوك، وبلاد الحبشة واسعة جداً أولها من الشرق المائل إلى الشمال بحر الهند واليمن وفيها يمر نهر حلو يقال له سيحون يرفد نيل مصر وآخرها الجهة الغربية إلى بلاد التكرور مما يلي اليمن فأولها مفازة بمكان يسمى وادى بركة يتوصل منه إلى سيحون، ولهم مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة من مصر بأمر السلطان بعد سؤال الحطي فى ذلك وإرساله الهدية[1]

وفى خبر برسباي الدقماق السلطان الأشرف سيف الدين أبو النصر الجركسى: عندما أغلقت كنيسة القيامة وبلغ أبرم بن داود بن سيف أرعد ملك الحبشة غلق كنيسة القيامة بالقدس فقتل من فى بلاده من رجال المسلمين وأسترق أولادهم ونسائهم وعذبهم عذاباً شديداً وهدم ما فى مملكته من المساجد وركب إلى بلاد جبرت فأوقع بالمسلمين وأسر النساء والأولاد وهدم المساجد فكانت ملحمة عظيمة على المسلمين قتل فيها منهم عالم عظيم لا يمكن حصره[2]

وفى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هـ وَفِيه قدم الْخَبَر بنفَاق عرب الصَّعِيد ونهبهم سقط ميدان وَقتل أَهلهَا وَنهب بِلَاد سودى بن مَانع وَأَن أهل منفلوط رجموا الْوَالِي. فألزم الْأَمِير أزدمر الْأَعْمَى الكاشف بِالْخرُوجِ إِلَيْهِم وأنعم عَلَيْهِ بِأَلف أردب شعير وَأَرْبَعين ألف دِرْهَم قبضهَا وسافر. وَفِيه قدم الْخَبَر أَن طَائِفَة الزيلع كَانَت عَادَتهم حمل قطيعة فِي كل سنة إِلَى ملك الْحَبَشَة من تقادم السنين. فَقَامَ فِيهَا عبد صَالح ومنعهم من الْحمل وشنع عَلَيْهِم إعطاءهم الْجِزْيَة وهم مُسلمُونَ لنصراني ورد رَسُول ملك الْحَبَشَة. فشق ذَلِك على ملك الْحَبَشَة وَخرج بعساكره ليقْتل الزيلع عَن آخِرهم. فَلَمَّا صَار على يَوْم مِنْهُم قَامَ العَبْد الصَّالح تِلْكَ اللَّيْلَة يسْأَل الله تَعَالَى كِفَايَة أَمر الحبشي فَاسْتَجَاب دعاءه. وعندما ركب ملك الْحَبَشَة بكرَة النَّهَار أظلم الجو - حَتَّى كَاد الرجل لَا يرى صَاحبه - مِقْدَار سَاعَة ثمَّ انقشع الظلام وأمطرت السَّمَاء عَلَيْهِم مَاء متغير اللَّوْن بحمرة وأعقبه رمل أَحْمَر امْتَلَأت مِنْهُ أَعينهم ووجوههم وَنزل من بعده

1) درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة للمقريزى ج 2 ص 211-215

2) درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة للمقريزى ج 1 ص 465-466

حيات كَبِيرَة جدا فقتلت مِنْهُم عَالما كثيرا. فَعَاد بَقِيَّتهمْ من حَيْثُ أَتَوا وَهلك فِي عودهم معظمهم دوابهم وَكثير مِنْهُم[1].

لما أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة هـ بطركاً، فأقام تسع وسنين وثمانية أشهر ومات في المعلقة بمصر، وكان المستنصر بالله لما نقص نيل مصر بعثه إلى بلاد الحبشة بهدية سنية، فتلقاه ملكها وسأله عن سبب قدومه، فعرّفه نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك، فأمر بفتح سدّ يجري منه الماء إلى أرض مصر، ففتح وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع، واستمرّت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت، ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر وأحسن إليه[2]

لما قدّم اليعاقبة يوساب في دير بومقار بوادي هبيب في سنة سبع وعشرين ومائتين هـ بطركاً، فأقام ثماني عشرة سنة ومات. وفي أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة وقد نفته زوجة ملكهم. وأقامت عوضه أسقفا، فبعث ملك الحبشة يطلب إعادته من البطرك، فبعث به إليه وبعث أيضا عدّة أساقفة إلى إفريقية[3].

فى سنة احدى وأربعين وثمانمائة وفيه ورد إلى القاهرة مكاتبة الحطي ملك الحبشة، الناصر يعقوب بن داود بن سيف أرعد النصراني، ومع المكاتبة هدية ما بين ذهب وزباد وغير ذلك. وفي مكاتبته التودد والوصية بإخوانه من النصارى بهذه البلاد، والالتماس من السلطان أن يأمر البطرك الذي بالقاهرة أن يعين لهم بطركا، فإن البطرك الذي كان عندهم من قبله قد هلك. فعين البطرك إنسانا يقال له ميخائيل، وبعثه مع قاصد من جهته يقال له صدقة، وعلى يده تقليد ميخائيل المذكور بعد أن حضر عندهما جماعة من نصارى الحبشة، وذكروا لهما أنهم مقيمون بدير، فنزل عليهم قطاع الطريق وقتلوا منهم ثلاثة، وفر من بقي، وسألوا أن يرمم كنيسة لهم كانت قديمة بقرى بساتين الوزير من الضواحي، كان أهلها قد تركوها من أجل كونها خرابا. فرفع البطركان قصة للسلطان، فأذن بذلك. ورجع الأمر فيه إلى القاضي

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 4 ص 155

2) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 414

3) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 410-411

الحنفي، فعين ذلك على بعض نوابه، وأنها تعاد بأنقاضها من غير زيادة على ذلك وكان لهذه الكنيسة قصة بعد هذا التاريخ لعلنا نذكرها[1].

وفى سنة سبع وأربعين وثمانمائة هـ أرسل ملك الحبشة هدية وهى سبعون جارية وطشت وأبريق من ذهب وسيف من ذهب وحياصة وبناد ومهماز كل ذلك من ذهب وغير ذلك وكتاب مرسل بسبب ما ظهر ما عمل فى الكنايس من زرع يعقوب المكني قسطنطين من نسل سيف أرعد من بني سليمان بن داود ملك سلاطين الحبشة وصاحب النواب بالمملكة النجاشية إلى السلطان الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين بمصر والشام: قد اتصل إلينا جميل أخباركم ..... كان فى أيام الظاهر برقوق وجدنا من المحبة والاتفاق على ما ظهرت بع الصحائف من أخبارهم الحميدة وسيرهم المرضية وأنهم كانوا قائمين بالعدل خصوصاً بأخوتنا النصارى متوصين ويرجعوا عنهم القوم الرائدين هدم كنائسهم وقتل من فيها من القسوس والرهبان ومن كان يموت منهم يدفن من غير تعرض أحد ومن كان لا وارث له وخلف شيئاً مو الموجود يتولى أمره أبونا البطريرك ليستعين به على كافة الواردين والمنقطعين وبلغنا الآن أن هذه القواعد قد تغيرت من قبل قوم كانوا عن طريق العدل حائدين وفى طريق الظلم خائضين والآن إذا مات أحد من أخواتنا النصارى لا يدفن إلا بعد مشقة كبيرة لأهله وأقاربه ويؤخذ منهم مالم تج به عادة في أيام الملوك السالفين والله لم يعذب أحداً من خلقه بقطع الرزق وإذا وجد منهم أحداً على الطريق وهو يباشر شيئاً لا يليق يؤدب بمفررده ولا يشاركه غيره لأن الله تعالى لا يطالب الولد عن أبيه ولا الوالد عن ولده إنما كل أحد بعمله وبلغنا أيضاً أن من ثم يتعرض لهم فى كنائسهم فى أوقات صلاتهم وفى أيام أعيادهم بقطع مصانعاتهم وأخذ مالا يستحقون أخذه وأنهم فى غاية الضيق من ذلك وأنتم حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعي من النظر فى حال رعيته وأن الله يطالبه بذلك وأبونا البطرك وأخواتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ضعاف الحال مساكين فى كل الجهات ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وكل حين رادعين من يتعرض إليهم ونحن على ما كان عليه أباؤنا سالكون فى طريقهم غير

1) نيل الأمل في ذيل الدول للقفطي ص 15-16

متعرضين لإقامة مساجدهم ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مواسمهم وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون الخيول وعامتهم فى أسبابهم آمنون مطمئنون على أنفسهم وأولادهم وأموالهم راكبون االبغال فى أحسن الأحوال ولا نأخذ منهم جزية ولا شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً ولا نشوش عليهم ولو أخذنا منهم جزية وكان كل واحد يزن درهماً لكان يجتمع لنا من الأموال مالا يحصى وإن كنتم فى شك من ذلك فأسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا ليخبرروكم بذلك بالحق والصدق ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمي الفتن وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل يجري إليكم من بلادنا ولنا الاستطاعة أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشيّ إليكم لأن لنا لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية يتصرف فيها إلى أماكن أخر قبل أن يجيء إليكم ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله فأعملوا أنتم بما يلزمكم وبما يلقي الله فى قلوبكم ولم يبقى لكم عذر تبدونه وفى صدق مودتكم وفضلكم ما يغني عن تكرار السؤال وما قصصدنا بهذا إلا أن يكون بيننا وبينكم الصلح كما كان بين الملوك السالفين وأسألوا الذين يقيمون بالجامع الأزهر كم لهم من سلطان من المسلمين ومن جملة مضمون الكتاب وكان والدي داود أرسل رسلاً إلى الملك الظاهر برقوق فقابلهم بالإكرام والإحترام وودعهم سريعاً ليكونوا مستبشرين وبسببب ذلك صار بينهم اثبات العهود والمودة إلى حين وفاتهم ولما أراد الله تعالى جلوسنا على تخت والدنا أرسلنا رسولاً إلى الملك الأشرف رحمه الله لنجدد العهد والمودة بيننا فأكرم قصادنا وأحسن إليهم والآن فقد أرسلنا لعظمة سلطانكم رسلاً ومهما فعلتم من الإحسان نحن أضعاف ذلك وتصير المودة بيننا وبينكم كما كانت بين الملوك السالفين وقد بلغنا أن عظمة سلطانكم رسم للأفرنج بعمارة فى القدس الشريف من صدقاتكم الشريفة بروز أمركم بعمارة قبر مريم عليها السلام إن أحسنتم فما جزاء الإحسان إلا الإحسان مثله وأضعافه وقد بلغنا أن دير المغطس هدم وهو من أيام الملوك السالفة وبروز أمركم الشريف بعمارة ذلك ونحن مقيمون على العهد القديم من أيام أبائنا وأجدادنا فى إقامة جوامكم ومساجدكم وأنتم أيضاً تأمرون بالنداء أن لايقول أحد للنصراني يا كلب فإن الله مقسم الأديان ويعاقب كل أحد على قدر ذنبه وأما نحن فنقول للشريف يا شريف وللقاضى يا قاضى وللشيخ يا شيخ وإن لم تصدقوا فأرسلوا إلينا إنساناً جيداً ليرى ذلك ويسمع وبلغنا أن الحبوش القاطنين بالقدس الشريف قصدوا عمارة بالأرض

لميت مدفون فيه ومنعهم من عمارته نائب السلطنة هناك والقصد من عظمة سلطانكم بروز أمركم لنائب القدس أن يرسم للحبوش بعمارة ذلك فنحن فى سائر ممالكنا نأمر باجهار النداء بعمارة الجوامع والمساجد والقصد من عظمة سلطانكم أن تتوصوا غاية الوصية بأخوتي النصارى لتصير بيننا المودة وتفرح فى أيام سلطنتكم الرعية بعد السلام الوافى التام على المجلس الشريف السلطانى وعلى محبيه وعلى أمرائه وقضاة الشرع وعلى كل ما حوت مملكته العالية

فلما طرق ذلك مسمع السلطان وتحقق ما عند هؤلاء من الزور والبهتان حمى فيما بلغني بيقين لهذا الدين وغار غيرة المسلمين ولكنه سلك لقصد الإعتدال وعدم الخطأ طريقة وسطى فإن جهز شخصاً كان قديماً أستادار الصحبة عنده وهو يحى بن أحمد بن شادبك ومعه كما ذكره لي من لفظه برسم كبير نصارى الحبشة سرجان من ذهب وشقق مذهبة أيضاً وديك مجوف من بلور مزين بالذهب ومن الجوخ قطعتان خارجاً عن عشر خلع بوجهين من الجوخ ومثلها من الصوف الملون ومائتي ثوب بطانة وزلعتين من الزيت الطيب وغير ذلك وعلى يده كتاب لم أقف على تفصيله ولا علمت إجمال جميعه إلا أن يتضمن فيما سمعت عدم الموافقة فى جميع ما سأل فيه لكون نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة فى البناء وإحداث الكنائس ونحو ذلك فلم يرتض اللعين هذا الجواب بل عوق القاصد وتهدده ثم لم يلبث أن جرد بحضرته بدلاى المسمى بشهاب الدين بن سعد الدين ملك الملسلمين من الحبشة وهم شرذمة يسيرة ووقع الحرب بين الفريقين وآل الأمر إلى أن قتل ابن سعد الدين وما اكتفى هذا اللعين بصنيعه بل ألزم قاصد السلطان بالركوب إلى المقتول لينظره كأنه ليكون أنكى للمسلمين فما استطاع مخالفته وسار إلى المكان الذى هو فيه أياماً حتى رآه ثم رجع وكان ذلك كله بترتيب التاجر عبد الرحمن المذكور أولاً فأنه ممن يتظاهر بكونه من المسلمين وفى الباطن خلاف ذلك ولكنه لم ينل قصده فقد كان يروم أن يتملك المسلمين فما تيسر له وأستقر عوض المقتول ولده محمد وجاءت الأخبار إلى السلطان بذلك فكرب له وضاقت عليه المسالك وبادر باحضار البطريك فضربه ضرباً مبرحاً وتهدده بل ووعد بقتل جميع من بمملكته من النصارى لكونهم كانوا السببب فى ذلك كله فروجع فيه وبرؤا ساحة البطريك منه واقتضى الرأى إرسال كتاب بخطه على يد قاصد من عنده فى

خدمة قاصد من المسلمين يتضمن التعريف بما حلّ به من الذل والنقص وبما توعد به هو ومن بقى ويلزمهم بإرسال القاصد مكرماً مبجلاً من غير تشويش عليه ولا على أحد من المسلمين فلما وصل إلى كبير نصارى الحبشة ذلك أمر بإحضار القاصد فخلع عليه ثم أمر بإرساله وباطن فى تعويقه فعوّق مدة ثم استدعى به أيضاً وخلع عليه واستمر هكذا مع تمقته له واظهار ناموسه بحضرته إلى أن ملّ القاصد وواجهه بقوله: إن كان المقصود القتل فها أنا ذا وإلا فأطلقنى أو نحو ذلك وفارقه، فأرسل إليه شخصاً من أمرائه يعلمه أن الملك قد منّ عليه وعفا عنه وسار حينئذ ومعه قاصد من النصارى حتى وصل إلى الديار المصرية بعد مضيّ حوالى أربع سنين فلما وصل عوّق السلطان أيضاً قاصده ثم أقتضى الرأي إطلاقه وجهز حينئذ الأمير مثقال الحبشى لابن سعد الدين ملك المسلمين

ويقال أنه قيل لابن سعد الدين: إنا نكرم من عندنا من النصارى رعاية لكم خوفاً على مملكتكم لقلة عد المسلمين هناك وكثرة القائمين من أعدائكم بالإشراك فقال: لا تتكلفوا لذلك وأفعلوا ما أمرتم به من عز الدين وذل من للكفر سالك فحزب الله هو المنصور وحزب أعدائه كل منا به مأمور وكم من ملك وأمير وخليل ووزير قد تصدى لهدم كثير مما للنصارى من الديورات والكنائس وكانت عاقبته محمودة وعائدته بالنفع موجودة منهم نوروز العلى الهمة والمقدار مع كونه فى مملكة التتار ثم منكلى بغا نائب الشام المحروس بالغ فى ذل النصارى والبتارك والقسوس بالحبس والغل والإشهار والرفس والذل بل لما فتح باب كيسان بالشام وجد هناك مسجداً كان قبل الخمسمائة كنيسة لليهود قد تمادى عليه الزمان وهجر من الصلاة والإعلان بالأذان فوسعه وصيره جامعاً ثابت الأركان وأحدث فيه خطبة مع كونه داخل سور دمشق ولم يتفق منذ فتحت إحداثهإلى الآن فأرتغم اليهود بذلك أيضاً لاسيما وقد صارت حارتهم هناك للدواب وغيرها موطئاً وأرضاً وكذا أتفق حين كان البلقينى بالشام قاضياً أخذ كنيس لليهود وجعلت مسجداً فى زمن الناصر محمد بن قلاوون بغير اختياره ومرسومه وبعد فراغ الناس من صلاة الجمعة بقلعة الجبل قام مولّه فى وسط الجامع فصاح صياحاً مزعجاً خرج به عن الحد: اهدموا الكنيسة التى بالقلعة وكرر ذلك ثم اضطرب ، فتعجب السلطان والأمراء من قوله ورسم بالفحص عنه فوجد بخرائب التتر من القلعة قد بنيت كنيسة فهدمت ولم يفرغوا منها حتى جاء الخبر أن العوام والغوغاء أجتمعوا وقت صلاة

الجمعة أيضاً وهدموا عدة كنائس بقناطر السباع ونواحيها ونهبوا ما فيها وهو شيء يفوق الوصف حتى صارت كوماً وأتفق مثل ذلك فى هذا اليوم أيضاً بالقاهرة حيث صاح شخص آخر من الفقراء بجامع الأزهر بين خروج الخطيب والأذان بقوله: أهدموا كنائس الكفر والطغيان نعم الله أكبر فتح الله ونصر وصار يزعج نفسه ويصرخ بقوله: إلى الأساس إلى الأساس، فأحدق الناس إليه النظر ولم يدروا ما هذا الخبر بل ولم يجدوا شخصه مع احكام كل منهم فى ذلك فحصه فهدمت عدة كنائس منها بل ومن مصر أيضاً وجاء الخبر من كل من نائب الأسكندرية ووالى البحيرة ومدينة القوص أنه وقع بالأمكنة المذكورة فى يوم الجمعة المشار إليه هدم كنائسها أيضاً وتوارد الخبر من الوجهين القبلى والبحرى بكثرة ما هدم فى اليوم المذكور[1]

وفى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة هـ فى يوم العشرين من جمادى الأول عُقد مجلس بين يديّ السلطان فى الحوش بالقضاة الأربعة وغيرهم منهم الشيخ بدر الدين العينى بسبب بطريك النصارى اليعاقبة وكان السلطان قد غضب عليه بحيث ضربه وحبسه فى المقشرة وأخذ منه شيئاً كثيراً فأمر بكتابه إشهاد عليه أنه لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابه وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده وضربت عنقه وحكم قاضى المالكية بذلك ونفذه بقية القضاة ثم قرئ الإشهاد بين يديّ السلطان والجماعة ورسم بكتابة خمس نسخ منه ليكون عنده وعند كل من القضاة الأربعة نسخة وانفض المجلس على ذلك[2]

وفى يوم الخميس خامس عشرينه من محرم سنة اثنان وعشرون وتسعمائة هـ حضر قاصد من عند ملك الحبشة وقصاد ملوك الحبشة لها مدة طويلة لم يدخل أحد منهم إلى مصر وقد دخل من عند ملك الحبشة فى دولة الأشرف قايتباى وذلك فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هـ وفى هذه المدة لم يدخل إلى مصر قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة ومالهم شغل فى مصر، فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكباً فى الحوش

1) التبر المسبوك فى ذيل الملوك للسخاوى ج 1 ص 64-73

2) التبر المسبوك فى ذيل الملوك للسخاوى ج2 ص 81

من غير شاش ولا قماش كما تقدم للأشرف قايتباى، فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش وأصطفت الأمراء عن يمنه وعن شماله وكل واحد منهم فى منزلته ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الروس النُوَب والمالليك السلطانية وغير ذلك وكان القاصد معه أعيان من أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعى رأسه شوشة بشعر وفيهم من فى أذنه حلق من ذهب قدر القُرصة وفى أيديهم أساور من ذهب وأما القاصد الكبير ذكروا على أنه ابن أمير كبير الحبشة وقيل أن أباه هو الذى حضر فى دولة الأشرف قايتباى فكان على رأسه خوذة مُخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيهم بعض فصوص وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة وعليه شاياه حرير ملون وعلى بقية أعيان الحبشة شايات حرير ملون وعلى رأسهم شُدود حرير وذكروا أن فيهم شخصاً شريفاً فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان وأواسطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير وكان معه لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها وكان صحبتهم البطرك الكبير وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج البطرك ماش قدامهم فلما وصلوا إلى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا يجلسون عليها بحضرة السلطان فما مكنوهم الرءوس نُوَب من ذلك ... ثم قدموا كتاب ملك الحبشة قيل أنه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب فلما قُرئ على السطان وجد فيه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان وأن قصادنا أتوا إلى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس فلا تمنعوهم من ذلك[1]

جاورجى ابن ملك النوبيين

سنة 1147 م زار جاورجى ابن ملك النوبيين خليفة المسلمين وقد اعتاد ملوك النوبيين منذ أمد كويل أن يقدموا لخلفاء المسلمين سنوياً عبداً أسود وقردة مدربة ومروضة على تقليد تصرفات الناس وحيوانات تدعى زرافة وعاجاً وجلود النمور ومقابل ذلك كان خلفاء المسلمين

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 5 ص 11-12

يعطون ملوك النوبيين كذا كيل من القمح من بلاد مصر وكذا كيل من زيت الزيتون وأوانى وثياباً فاخرة كما أذنوا له أن يجبى الضرائب من النوبيين الساكنين في بلاد المسلمين وبموجب هذا الاتفاق لم يعد المسلمون يسبون النوبيين ولا النوبيون يجتازون مدينة ساونى الحدودية من ناحية مصر ويدخلون إلى أراضى المسلمين ولكن هذا الوفاق نقض بسبب الاضطراب الذى ساد العالم منذ أيام هارون على أثر اتساع نفوذ الذين استخفوا بالنوبيين وأبطلوا العادة فلم يعد النوبيين يرسلون شيئاً إلى المسلمين ولا المسلمون إلى النوبيين فلما علم المعتصم بهذه القطيعة دعا شخصاً من حاشيته وأرسله إلى ملك النوبيين ليرسل الحقوق كالعادة المألوفة مهدداً إياه بالغزو في حالة الامتناع ولدى وصول الموفد وجد أن الملك بابديس قد مات وأن زعيماً يدعى زكريا ليس من سلالة الملوك يقوم بإدارة شؤون الدولة لكن زوجته المنحدرة من أرومة الملوك أنجبت له ابنا دعى جاورجي فوضعوا له التاج في حين استمر والده يدير دفة الأمور حتى بلغ سن الرشد وإذ أدرك زكريا من الموفد ما يدور في ذهن المسلمين أرسل ابنه إلى أبى اسحق عله يجد نعمة لديه وبهذه الطريقة يكمل رعباته لذا قال لموفد الخليفة لا أحبذ أن يتم الحوار بيننا عن طريق الرسائل بل سأرسل ابنى الذى يمكل على النوبيين للسلام على خليفتكم فنقل الموفد هذه الرغبة إلى الخليفة فأذن بمجيئه وأمر عماله في مصر أن يستقبلوه بترحاب واحترام فلما علم أبو إسحاق بوصوله إلى فسطاط مصر كتب إلى الحكام ليستأجروا جمالاً لكل أفراد أسرته ويعطوه ثلاثين ديناراً يومياً كنفقات ويستقبله حكام المدن بما يليق به كملك، ففي الرقة استقبله أمير الجزيرة واحتفى به المسيحيون والمسلمون وتهافتوا عليه وكأنما شيء غريب حدث في بلدهم فقد كان يركب جملاً مسرجاً بسرج غريب يختلف عن سرج منطقتنا تعلوه مظلة موشاة بأقمشة فاخرة وعلى قمتها صليب ذهبى وأمسك عصى بإحدى يديه وصليباً بالثانية وإلى جانبيه يسير شبان نوبيون حاملين صلباناً بأيديهم ويتقدمه أسقف راكب وبيده صليب وجميع هذه الصلبان من ذهب وجميع الفرسان والعبيد الذين معه هم من السود وكان يرافقه أسقفان آخران توفيا في الطريق كما توفى بعض مرافقيه بسبب الثلج والجليد، لم يكن أبناء الرقة قد نظروا مثل هذه المشاهد من قبل[1].

1) تاريخ مار ميخائيل السريانى الكبير بطريرك أنطاكية ج3 ص 58-60

سمو الرأي تفري ولي عهد المملكة الحبشية

زار مصر في صيف عام ١٩٢٤ حضرة صاحب السمو الرأس تفري ولي عهد الإمبراطورية الحبشية، وكان معه رءوس الحبشة وحاشية كبرى نزلوا جميعًا بفندق الكونتيننتال، وعقب حضوره تشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول بسراي عابدين العامرة، حيث أقلته إليه عربة التشريفات الكبرى مع الحرس الملكي، فأكرم جلالة الملك وفادته، وتفضل حفظه الله وأنعم عليه بالوشاح الأكبر وهو أكبر وشاح لدى الحكومة المصرية، ثم زار بعد ذلك قداسة الحبر الجليل غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس، الذي أمر بعمل قداس خاص بداخل الكنيسة المرقسية الكبرى عند وصول سموه للديار المصرية، حضره صفوة الأعيان ووجهاء الأمة القبطية الأرثوذكسية، فكان الاحتفال بمقدمه بالغًا حد الأبهة والجلال.

ولما كانت مشكلة دير السلطان الذي للأقباط بالحبشة قائمة على قدم وساق في ذاك الوقت، حيث تريد الحبشة الاستيلاء عليه في حين أنه مملوك للأقباط رسميًّا منذ زمن مديد، فقد ألف وفد من أعيان الأقباط مؤلف من حضرة صاحب المعالي فوزي باشا المطيعي وزير الزراعة سابقًا، وسعادة قليني فهمي باشا، وجناب الأغومانوس بطرس عبد الملك رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى للمفاوضة مع سموه في شأنه، وبعد مفاوضات عديدة أظهر فيها الوفد القبطي أحقيته لهذا الدير، طلب سمو الرأس تفري انعقاد الجمعية العمومية لقبط للبحث في هذا الصدد، وفعلًا تم انعقاد هذه الجمعية، وبعد عدة جلسات تم قرارها على إعطاء الأحباش جزءًا من هذا الدير للمرور منه، وذلك حسما لكل نزاع بين الفريقين المتحابين، وبذا انقضى هذا الإشكال وزال الجفاء الوقتي والحمد لله، وقد غادر سمو الرأس تفري مصر إلى أوربا؛ ليقف بنفسه على الحضارة الأوربية ويفض المشاكل القائمة الآن بين بلاده وبعض دول أوربا[1].

1) صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ذكى فهمى ص 543-546

مملكة النوبة المسيحية

جاورجى ابن ملك النوبيين

سنة 1147 م زار جاورجى ابن ملك النوبيين خليفة المسلمين وقد اعتاد ملوك النوبيين منذ أمد كويل أن يقدموا لخلفاء المسلمين سنوياً عبداً أسود وقردة مدربة ومروضة على تقليد تصرفات الناس وحيوانات تدعى زرافة وعاجاً وجلود النمور ومقابل ذلك كان خلفاء المسلمين يعطون ملوك النوبيين كذا كيل من القمح من بلاد مصر وكذا كيل من زيت الزيتون وأوانى وثياباً فاخرة كما أذنوا له أن يجبى الضرائب من النوبيين الساكنين في بلاد المسلمين وبموجب هذا الاتفاق لم يعد المسلمون يسبون النوبيين ولا النوبيون يجتازون مدينة ساونى الحدودية من ناحية مصر ويدخلون إلى أراضى المسلمين ولكن هذا الوفاق نقض بسبب الاضطراب الذى ساد العالم منذ أيام هارون على أثر اتساع نفوذ الذين استخفوا بالنوبيين وأبطلوا العادة فلم يعد النوبيين يرسلون شيئاً إلى المسلمين ولا المسلمون إلى النوبيين فلما علم المعتصم بهذه القطيعة دعا شخصاً من حاشيته وأرسله إلى ملك النوبيين ليرسل الحقوق كالعادة المألوفة مهدداً إياه بالغزو في حالة الامتناع ولدى وصول الموفد وجد أن الملك بابديس قد مات وأن زعيماً يدعى زكريا ليس من سلالة الملوك يقوم بإدارة شؤون الدولة لكن زوجته المنحدرة من أرومة الملوك أنجبت له ابنا دعى جاورجي فوضعوا له التاج في حين استمر والده يدير دفة الأمور حتى بلغ سن الرشد وإذ أدرك زكريا من الموفد ما يدور في ذهن المسلمين أرسل ابنه إلى أبى اسحق عله يجد نعمة لديه وبهذه الطريقة يكمل رعباته لذا قال لموفد الخليفة لا أحبذ أن يتم الحوار بيننا عن طريق الرسائل بل سأرسل ابنى الذى يمكل على النوبيين للسلام على خليفتكم فنقل الموفد هذه الرغبة إلى الخليفة فأذن بمجيئه وأمر عماله في مصر أن يستقبلوه بترحاب واحترام فلما علم أبو إسحاق بوصوله إلى فسطاط مصر كتب إلى الحكام ليستأجروا جمالاً لكل أفراد أسرته ويعطوه ثلاثين ديناراً يومياً كنفقات ويستقبله حكام المدن بما يليق به كملك، ففي الرقة استقبله أمير الجزيرة واحتفى به المسيحيون والمسلمون وتهافتوا عليه وكأنما شيء غريب حدث في بلدهم فقد كان يركب جملاً مسرجاً بسرج غريب يختلف عن سرج منطقتنا تعلوه مظلة موشاة بأقمشة فاخرة وعلى قمتها صليب ذهبى وأمسك عصى بإحدى يديه وصليباً بالثانية وإلى جانبيه يسير شبان نوبيون حاملين صلباناً بأيديهم ويتقدمه أسقف راكب وبيده صليب وجميع هذه الصلبان من ذهب وجميع الفرسان والعبيد الذين معه هم من السود وكان يرافقه أسقفان آخران توفيا

في الطريق كما توفى بعض مرافقيه بسبب الثلج والجليد، لم يكن أبناء الرقة قد نظروا مثل هذه المشاهد من قبل[1]

شكندة ابن عم داود ملك النوبة

فى سنة أربع وسبعين وستمائة هجرية: وفد على السلطان شكندة ابن عم داود ملك النوبة، متظلماً من ابن عمه داود، وذكر أن الملك كان له دونه، وكان داود أيضاً قد تقدمت اساءته على إغارته على عيذاب، فلما استقر ركاب السلطان بالقاهرة بعد عودته من الشام جرد الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين أيبك الأفرم إلى النوبة، وصحبتهم ثلاثمائة فارس، وشكندة بصحبتهم، وأمرهم أنهم إذا فتحوا البلاد يسلموها له، على أن يكون لشكندة النصف والربع من البلاد، والربع خالصاً للسلطان، فخرجوا مستهل شعبان فوصلوا دنقلة فى الثالث عشر من شوال، فلما قربوا منها خرج إليهم داود وأخوته وبنو عمه فى جيشه ركاباً على النجب بأيديهم الحراب، وليس عليهم أكسية سود يسموا: الدكاديك، فهاوشوهم القتال فهربوا، وقتل منهم خلق كثير، وأسر أكثر مما قت، حتى بيع كل رأس منهم بثلاث دراهم، والذى بعد القتل والأسر فجاء عدتهم عشرة آلاف نفر، وانهزم الملك داود فيمن انهزم، وقطع بحر النيل إلى البر الغربى، ثم فى أثناء الليل إلى بعض الحصون، فبلغ خبره الأفرم والفارقانى، فركبا بمن معهما وساروا فى طلبه ثلاثة أيام مجدين، فلما أحس بهم ترك أمه وأخته وابنة أخيه ونجا بنفسه وبابنه، فأخذوا حريمه ورجعوا إلى دنقلة، فأقاموا بها إلى أن ملكوا شكندة ورتبوا على كل بالغ فى البلاد ديناراً فى السنة جزية، وأن يحمل للسلطان فى كل سنة ما قرر عليه، وقرروا أيضاً عليه أيضاً أن تكون دو وأبريم-وهما قلعتان حصينتان قريبتين من أسوان، بينهما سبعة أيام-خاصاً للسلطان، ثم عادت الأمراء إلى الديار المصرية، واجتمعوا بالسلطان فى الخامس من ذى الحجة، ومعهما أخو الملك داود أسيراً، فشكر لهما وأخلع عليهما، ثم وصل بعد أيام أم داود وأخته وابنته وأخوه فحبسوا، ثم وصل السبي فأبيع بمائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم، وتقدم مرسوم السلطان أن لا يفرق بين الأم والأولاد.

وكان الملك داود لما هرب قصد ملك الأبواب وهو ملك من ملوك النوبة له إقليم متسع، فحمله الخوف من الملك الظاهر أنه مسك داود وسيره إلى السلطان، فوصل فى قبضة الأسر فى الثالث عشر من المحرم سنة خمس وسبعين وستمائة هجرية، ولما أجلسوا شكندة حلفوه بما هذا

1) تاريخ مارميخائيل السريانى الكبير بطريرك أنطاكية ج3 ص 58-60

نسخته: والله والله والله، وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور، والمعمودية والأنبياء والرسل والحواريين والقديسين والشهداء والأبرار، وإلا أجحد المسيح كما جحد يودس، وأقول فيه ما تقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه، وألا أكون يودس وأطعن المسيح بالحربة كما طعنوه اليهود أنى أخلصت نيتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه وأننى ابذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته، وأننى مادمت نائبه لا أقطع ما قرر علىّ فى كل سنة تمضى، وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة، وأن يكون النصف من المتحصل لولانا السلطان مخلصاً من كل فن، والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها، وأن يكون علىّ فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقار الجيدة أربعمائة رأس، وأننى أقرر على كل نفر من الرعية التى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً، وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولإخوة شنكوا ولأمه ولأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب العالية، وأننى لا أترك شيئاً منه قلّ ولا جلّ ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من اخفائه، ومتى خرجت عن شيء مما قرر على أعلاه كنت بريأً من المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب وأعتقد ما يعتقدونه اليهود ، ثم أننى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته غلى الأبواب العالية، وأننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقته، وأننى لا أنفرد بشيء من الأشياء واننى عبد مولانا السلطان عز نصره غرس صنائعه وسيف المنصور، وأنا ولى من والاه وعدو من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد.

وحلفت الرعية أيضاً كذلك، ثم حلف شكندة يميناً ثانياً: أن متى ورد عليه مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلب إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته ولساعته ولا يتأخر بوجه من الوجوه إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر، وتقررت الأيمان فى تاسع عشر ذى الحجة[2].

2) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل، جـ 1 ص 206-209

العائلة المقدسة
فى مصر

وبعين شمس بناحية المطرية مكان ينبت في قصبان يسمى البلسان وقيل البلسم ليس يوجد بأرض سواها وهناك بير يعظمها النصارى ويغتسل بما بها للتبرك وهذا البلسم لا يسقى إلا من ماء البير وعند إدراك البلسم يأتي من قبل السلطان من يتولى احضاره وحفظه ويحمل إلى خزائن السلطان ويضاف منه إلى المارستان لمعالجة الأمراض الباردة والظهر ولا يوجد منه شيء إلا بمرسوم سلطانى وله عند ملوك النصارى من الحبشة والفرنج مقام عظيم ويتغالون في ثمنه ويقولون أن لا يصح عندهم التنصر إلا إذا كان في ماء العمودية شيئاً من دهن البلسم ثم ينغمس فيه وسبب ذلك أن المسيح خرجت به أمه ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها ثم نزلوا إلى مدين سمنود وعدوا إلى مدينة الأشمونين وكان على بابها فرس من نحاس إذا قدم إليها غريب صهل ذلك الفرس فعندما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام إلى باب المدينة سقط ذلك الفرس المذكور وتكسر فدخلت به أمه إلى أشمونين فرأى جمالاً محملة زاحمتهم في مرورهم فصرخ فيها المسيح فصارت حجارة ثم أنهم ساروا من الأشمونين إلى قرية تسمى فيكس ثم مضوا إلى مدينة تسمى فش وهى التي يقال لها اليوم القوصية فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التي بها وقال: أن امرأة أتت معها ولدها يريدون أن يخربوا معابدكم، فخرج إليهم مائة رجل وطردوهم عن المدينة فمضوا إلى غربى القوصية في موضع يعرف اليوم بدير المحرق وأقاموا به ستة أشهر ثم مضوا إلى مدينة مصر في الموضع الذى يعرف بقصر الشمع وأقاموا به وهو مكان يعرف بكنيسة أبو سرجة ثم خرجوا منها قاصدين بيت المقدس فنزلوا بمدينة عين شمس وهى المطرية فأقاموا هناك على بير وكان ثياب المسيح في تلك الأرض فأتيت الله تعالى من ذلك الماء هذا البلسم وهؤلاء يوجد إلا بهذه الأرض فقط وقيل أن المسيح اغتسل من ماء تلك البئر وهى البئر الموجودة هناك الآن وقيل أن في هذه البئر عيناً جارية من أسفلها وهذا سبب تعظيم النصارى لها والبلسم لا يسقى إلا من ماء تلك البئر وأقام المسيح هو وأمه ويوسف النجار في هذا الموضع ثم مضوا إلى بيت المقدس بعد أن هلك هيرودس ملك اليهود[1]

[1]) نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس ص 220-221

ويذكر المقريزى، وبناحية المطرية من حاضرة عين شمس، البلسان، وهو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك، وهذه البئر، تعظمها النصارى وتقصدها، وتغتسل بمائها، وتستشفي به، ويخرج لاعتصار البلسان أوان إدراكه من قبل السلطان، من يتولى ذلك، ويحفظه ويحمل إلى الخزانة السلطانية، ثم ينقل منه إلى قلاع الشام، والمارستانات لمعالجة المبرودين، ولا يؤخذ منه شيء إلا من خزانة السلطان بعد أخذ مرسوم بذلك، ولملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج فيه غلوّ عظيم، وهم يتهادونه من صاحب مصر، ويرون أنهم لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر إلا أن ينغمس في ماء المعمودية، ويعتقدون أنه لا بدّ أن يكون في ماء المعمودية شيء من دهن البلسان، ويسمونه: الميرون. وكان في القديم، إذا وصل من الشام خبر انتهى إلى صاحب عين شمس، ثم يرد من عين شمس إلى الحصن الذي عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر، ثم يرد من الحصر إلى مدينة منف، حيث كانت منف تحت الملك. وسبب تعظيم النصارى لدهن البلسان، ما ذكره في كتاب السنكسار، وهو يشتمل على أخبار النصارى: أنّ المسيح لما خرجت به أمّه، ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس فرارا من هيرودس ملك اليهود، نزلت به أول موضع من أرض مصر، مدينة بسطة في رابع عشري بشنس، فلم يقبلهم أهلها، فنزلوا بظاهرها، وأقاموا أياما، ثم ساروا إلى مدينة سمنود، وعدّوا النيل إلى الغربية، ومشوا إلى مدينة الأشمونين، وكان بأعلاها إذ ذاك، شكل فرس من نحاس قائم على أربعة أعمدة، فإذا قدم إليها غريب صهل، فجاءوا ونظروا في أمر القادم، فعندما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام، إلى المدينة سقط الفرس المذكور، وتكسر فدخلت به أمّه، وظهرت له عليه السلام في الأشمونين آية، وهو أنّ: خمسة جمال محملة زاحمتهم في مرورهم، فصرخ فيها المسيح في الأشمونين، فصارت حجارة، ثم إنهم ساروا من الأشمونين، وأقاموا بقرية تسمى: فيلس مدّة أيام، ثم مضوا إلى مدينة تسمى: قسقام، وهي التي يقال لها اليوم: القوصية، فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التي بها، وقال: إنّ امرأة أتت، ومعها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم، فخرج إليهم مائة رجل بسلاحهم، وطردوهم عن المدينة، فمضوا إلى ناحية ميرة في غربيّ القوصية، ونزلوا في الموضع الذي يعرف اليوم بدير المحرق، وأقاموا به ستة أشهر وأياما، فرأى يوسف النجار في منامه قائلا يخبره بموت هيرودس، ويأمره أن يرجع بالمسيح إلى القدس، فعادوا من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذي يعرف اليوم في مدينة مصر بقصر الشمع، وأقاموا بمغارة

تعرف اليوم بكنيسة بوسرجة، ثم خرجوا منها إلى عين شمس، فاستراحوا هناك بجوار ماء، فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح، وقد اتسخت، وصبت غسالتها بتلك الأراضي، فأنبت الله هنالك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن، فانقطع من هناك، وبقي بهذه الأرض، وغمرت هذه البئر التي هي الآن موجودة هناك على ذلك الماء الذي غسلت منه مريم، وبلغني أنها إلى الآن إذا اعتبرت يوجد ماؤها عينا جارية في أسفلها، فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر وللبلسان، فإنه إنما سقي منها1.

يذكر الحميرى المتوفى في 900هـ الموافقة 1495م أن نخلة مريم كانت لا تزال موجودة في كورة إهناس[2]،

يذكر الحميرى أنه كان في بعض مدن الواحات قبائل من لواتة وإنما أهلها من الأقباط[3]، يذكر ابن الوردى: عين شمس وبها البستان الذى لا ينبت شيء من الأرض إلا وهو فيه وهو بستان طوله ميل في ميل والسر في بئره لأن السيد المسيح اغتسل فيه[4]

ويذكر القزوينى: المطرية قرية من قرى مصر عندها منبت شجر البلسان وبها بئر يسقى منها قيل أنه من خاصية البئر لأن السيد المسيح اغتسل فيها وقد حدّث من رآها أن شجر البلسان يشبه شجر الحنا أو شجر الرمان أول ما ينشأ وأرضها نحو مدّ مصر في مثله محوط عليه ولها قوم يخرجون شجرتها من سوقها ويتخذون منها ماءً لطيفاً في آنية زجاج ويجمعونه بجدّ واجتهاد عظيم فيحصل في العام نحو مائتى رطل بالمصري وهناك رجل نصرانى يطبخه بصناعة يعرفها لا يطلع عليها أحد ويصفى منها الدهن وقد اجتهد الملوك أن يعلّمهم فأبى وقال لو قتلت ما علمت أحداً ما بقى لى عقب وقال الحاكى شربت من هذه البئر وهى عذبة وفيها نوع دهنية لطيفة وقد استأذن الملك الكامل أباه الملك العادل أن يزرع شيئاً من شجر البلسان فأذن له فغرم غرامات وزرعه فلم ينجح ولا حصل منه دهن البتة فسأل أبه أن يجرى لها ساقية من البئر المذكورة فأذن له ففعل وأنجح فعلموا أن ذلك من خاصية البئر وليس في جميع الدنيا موضع ينبت شجر البلسان وينجح دهنه إلا هناك ورأى رجل من أهل الحجاز شجر البلسان فقال أنه شجر البشام

---

1) المواعظ والاعتبار ج1 ص 426-427

2) الروض المعطار في خبر الأقطار للحميرى ص 62

3) الروض المعطار في خبر الأقطار للحميرى ص 600

4) خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردى ص 89-90

بعينه إلا أنّا ما علمنا استخراج الدهن منه[1]، ويذكر ابن سباهى في القرن السادس عشر الميلادى: أن البلسان الذى عند شجرة القديسة العذراء مريم مريم بالمطرية ناحية عين شمس لا ينبت في شيء من الأرض إلا بها وهى بستان طوله ميل في ميل والسر في بئره أن السيد المسيح اغتسل فيها[2]

والنخلة التى أمرت مريم عليها السلام أن تضع عيسى تحتها فلم يثمر غيرها وهي بالجيزة واللبخة التى كانت تنضح له الزيت بمدينة أشمون مشهورة والنخلة التى آوت إليها أمه بسدمنت مذكورة وبركة عيسى ظاهرة ببئر البلسم التى بأرض المطرية[3]، وابن سباهي يذكر: ناحية عين شمس وهى تبعد عن القاهرة نصف مرحلة وعندها ضيعة تسمى ببالمطرية وهى عن القاهرة من جهة الشمال وبها البلسان الذى لا ينبت فى شيء من الأرض إلا بها وهي بستان طوله ميل في ميل والسّر في بئره لأنّ المسيح عليه السّلام اغتسل فيها[4]

عندما جاء يوسف النجار ومريم العذراء وابنها إلى أرض البهنسا على حمار له كان هناك بئر في المعبد وكانوا يستشفون منها من الأمراض وكانت مرة تفيض بالمياه وتارة لم يجدوا فيها الماء وأن مريم العذراء لما دخلت بولدها إلى أرض البهنسا أتوا إلى مكان البئر المعروفة ورجع يوسف النجار وخلى مريم عند البئر فطلب عيسى عليه السلام الماء ليشرب فبكى من العطش فحزنت عليه أمه فأرتفعت البئر حتى شرب منها وهى في أوان ذلك اليوم تزيد ويعرف بها النيل ويجعل لها النصارى عيد إلى يومنا هذا وهناك ديور وزروعات ثم إلى مريم وعيسى دخلا المدينة المذكورة وأقاما بالمدينة وأمه تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين[5]، وأبى طالب الأنصارى الصوفى في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى يؤكد بأن: وفى إهناس كانت النخلة والربوة التي آوى إليها السيد المسيح وأمه هناك[6]

---

1) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص 271-272

2) أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك لابن سباهى ص479

3) أخبار نيل مصر للأقفهسى ص 51-52، وأيضاً فضائل مصر المحروسة لابن الكندى ص20

4) أوضح المسالك إلى معرفة البلدات والممالك لابن سباهي ص 478-479

5) فتوح البهنسا ص 9، وأيضاً فتوح الشام للواقدى ج2 ص 200

6) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للأنصارى الصوفى الدمشقى ص 233

وفى ضاحية البهنسا من أعمال الصعيد ضيعة تسمى منيل أبو شعرة وبها بئر تسمى بئر عيسى ولتلك البئر سلالم بدرج فإذا كان ليلة الخامس والعشرين من بشنس فيها يطفّ ماء تلك البئر فى الليل فمهما غطى من الدرج فيكون حال زيادة النيل فى تلك السنة ويعلم منه مقدار الزيادة وهذا السر باقى فى هذه البئر إلى يومنا هذا وقيل أن المسيح إغتسل من هذه البئر فى مثل تلك الليلة فصار هذا السر باق فيها للآن، ومدينة إهناس بها دخلت مريم أم المسيح وبها النخلة التى كانت تنضح لهما الزيت حتى يتقوون بها[1].

وجاء فى رحلة طافور بالقرن الخامس عشر الميلادى: المطرية بستان ضخم مسور بحائط وفيها الحديقة التى ينمو بها البلسم، ويبلغ اتساعها قرابة ستين أو سبعين قدماً مربعاً، وفيها تنمو شجرة البلسم التى تشبه كرمة بلغت من العمر عامين، ويجمعه القوم فى شهر أكتوبر حيث يأتى السلطاان فى احتفال كبير لجمع الزيت، ويقال أن المعصور منه لا يكاد يصل إلى نصف مكيال من مكاييلنا، ولكنهم يعمدون إلى أخذ الغصون ويغلونها فى الزيت ويوزعون ذلك على العالم بإسم البلسم، حتى إذا فرغوا من جمع الجذور بدأوا فى الحال فى زراعة الأرض، ويأخذون شتلات معينة خاصة ويغرسونها فى التربة ثم يروونها بالماء الذى تدفق لسيدتنا العذراء فى هذه البقعة حينما هربت هى وابنها إلى مصر، وهذا المكان من الأماكن المقدسة عندنا نحن المسيحيين، وإذا روى القوم النباتات بهذا الماء وجدوها فى اليوم التالى قد ضربت بجذورها فى الأعماق، وكثيراً ما حاولوا ريها بماء النيل أو بغغيره من المياه فجفت جذورها فى الحال.

وحين يخرج الماء من هذه الحديقة يصادف شجرة تين ضخمة جداً تنتج تين فرعون، وهو أحمر اللون، وفى داخل الجزع فجوة ضئيلة أشبه ما تكون بالكنيسة الصغيرة، ويقولون أن هذه الشجرة قد فتحت نفسها بنفسها حيث اختفت بها القديسة مريم العذراء وابنها حين كانا فى خوف من إلقاء القبض عليهما[2].

---

1) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 1-1 ص 21

2) رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى ص 70-71

الأديرة والكنائس

تعرضت الكنائس للكثير من أعمال التخريب والنهب فى خلال فترات الدول المتعاقبة، وكانت تلك هى الوسيلة التى يلجأ لها الحكام والولاة فى بعض الأحيان لتهدئة العامة، فيذكر أ.س. ترتون: أن الكنائس التى خربت أثناء أحداث سنة 721 للهجرة هى كنيسة فى خرائب التتر بالقلعة، كنيسة الزهرى، كنيسة الحمراء، كنيسة البنات قرب السبع سقايات، كنيسة أبى مينا، كنيسة الفهادين بالقاهرة، كنيسة بحار الروم، كنيسة بحارة البندقانيين، كنيستان فى حارة زويلة، كنيسة فى خزانة البنود، كنيسة فى الخندق، أربعة كنائس فى الأسكندرية، كنيستان فى دمنهور، أربعة كنائس فى الغربية، ثلاث كنائس فى الشرقية، ستة كنائس فى البهنساوية، ثمانية كنائس فى أسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب، إحدى عشرة كنيسة فى قوص وأسوان، كنيسة فى إطفيح، ثمانية كنائس فى مصر بسوق وردان والمصاصة وقصر الشمع[1]، فقد سجل أ.س. ترتون عدد 59 تسعو وخمسون كنيسة تم تخريبها فى عام 721 هـ ولكن الواقع أن هناك كنائس أخرى مجهولة خربت ولم يذكرها المؤرخين.

يذكر المقريزى عن نهب أعمدة الكنائس، عندما قاموا ببناء المسجد الجامع بالجيزة في المحرّم سنة خمسين وثلثمائة بأمر الأمير عليّ بن الإخشيد، فتقدّم كافور، إلى الخازن ببنائه، وعمل له مستغلا، واحتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن في الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها، ونصب بدلها أركانا، وحمل العمد إلى الجامع، وقال اليمنيّ: وقد كان ابن الطحاويّ، يصلي في جامع الفسطاط العتيق، وبعض عمده أو أكثرها ورخامه من كنائس الإسكندرية، وأرياف مصر، وبعضه بناه قرّة بن شريك[2].

يذكر ياقوت الحموى جملة من الأديرة وأخبار عن أديرة أخرى في كتابه الخزل والدال: دير أبشيا وهو دير بنواحى الصعيد سيوط من ديار مصر[3]، دير أبى بشاية بنواحى الصعيد من ديار مصر على شاطئ النيل ودير أبى منصور بمصر ودير أبى مينا قرية معروفة بمصر[4]، دير أبى بخوم وهو دير بصعيد مصر شرقى النيل بقرية يقال لها فاو من قرى أقباط مصر واللفظة قبطية وهذا الدير أزلى قديم له حرمة عندهم ودير أبى سويرس وهو دير على

---

1) أهل الذمة فى الإسلام، أ.س. ترتون ص 91-92

2) المواعظ والاعتبار ج1 ص 381

3) الخزل والدال لياقوت الحموى ج1 ص253-254، وأيضاً انظر: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص549

4) الخزل والدال لياقوت الحموى ج1 ص255-256، وأيضاً أنظر: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص549

شاطئ النيل بصعيد مصر شرقيه من جهة الصعيد ودير سويرس أيضاً بأسيوط[1]، دير أتريب بأرض مصر ويعرف بمارت[2] ، دير بانوب بصعيد مصر بقرب أشمونين ودير البتول وهو دير كبير جداً مشهور بصعيد مصر في شرقي النيل بقرب مدينة أنصنا القديمة من نواحى الصعيد[3]، ويذكر البغدادى أن سبب تسمية دير البتول أن القديسة مريم العذراء أتت إليه[4]، دير بهور من أعمال أشمون ودير تنادة وهو دير مشهور بالصعيد في أرض أسيوط غربي النيل وتحته قرى ومتنزه خسن ورهبانه كثيرون[5]، دير البلاص بالصاد المهملة بصعيد مصر قرب قفط[6]

دير حرجة والحرجة في الأصل موضع كثير الشجر لا تبلغه السائمة والحرج والضيق وحرج الصدر ضيقة ودير حرجة بصعيد مصر في شرقي قوص وهو بكورة صغيرة هنالك بصعيد مصر الأعلى تسمى حرجة أضيف الدير إليها وعنده قرية من قرى الكورة تسمى العباسية وربما أضيف هذا الدير إليها فقيل دير العباسية[7]، والبغدادى فى مراصد الاطلاع يذكر: دير حرجة بالصعيد شرقيّ قوص ذكر على اسم مارجرجس[8] ، دير الشمع هو دير قديم بنواحى الجيزة من مصر معظم عند النصارى بينه وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ مصعداً على النيل وقدمه جعل له مكانته عتد القبط بمصر وفيه كرسى البطريرك وبه مستقره ما دام بمصر[9]، دير الطين بأرض مصر على شاطئ النيل في الطريق إلى الصعيد قرب الفسطاط متصل ببركة الحبش عند العدوية وأهل الدير والعدوية من غنيم ورأيت أنا الدير والبركة وهو في مكان نزه من حوله البساتين وكثير منها أنشأها تميم بن المعز[10]،ويأتي خبر هذا الدير فى وقت متأخر فيذكر عنه ابن ان الوكيل: ومما لإبراهيم باشا من المآثر الحسنة بمصر

1) الخزل والدال لياقوت الحموى ج1 ص260-261، وأيضاً أنظر: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص550

2) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص 551

3) الخزل والدال لياقوت الحموى ج1 ص285-286

4) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص553

5) الخزل والدال لياقوت الحموى ج1 ص199-200

6) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص 554

7) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص8

8) مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص 557

9) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص94

10) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص115-116

عمارة الآثار النبوية التى بالقرب من دير الطين[1] دير العربة بالصعيد من مصر كان فيه راهب معمر قيل أنه تجاوز مائتى 200 سنة وكان طعامه الخل والزيت والخبز والعسل وعنده علم بخط الأولين ودير العسل في غربى شاطئ النيل بمصر من نواحى الصعيد وهو دير مليح عجيب نزه عامر بالرهبان مقصود بالأعياد[2]، دير الفأر دير قديم بارض مصر على شاطئ النيل شاهق البناء إلى جانبيه دير الكلب وهو حسن نزه كثير النخل والشجر سمى بالفأر لكثرته فيه منذ القدم[3]، دير ماواس بصعيد مصر الأدنى قريب من أشمونين في الجانب الغربى من النيل وهو من الديرة القديمة بمصر[4]، دير المحرق هذا الدير على رأس جبل في الصعيد الأدنى غربى النيل بمصر وهو دير مليح نزه حسن العمارة والنصارى يعظمونه ويسافرون إليه من النواحى ويقولون أن السيد المسيح نزل به لما ورد مصر وأنه أقام فيه أيام[5]، دير مقرونة بصعيد مصر الأدنى من أعمال أشمونين غربى النيل وهو مكان نزه فيه بساتين ونخل كثير ودير ميخائيل بمصر إزاء حلوان[6]، دير نجم من أعمال أشمونين غربى النيل بالصعيد الأدنى بمصر[7]، الديرة البيض هما ديران أطلق عليهما لفظ الجمع نزهان بالصعيد من أرض مصر في الجانب الغربى من نيلها فيها رهبان كثيرون يقصدهما الناس لنزاهتهما ولهما عيد واحد في اليوم الحادى والعشرون من بؤونة وهذان الديران في موضع واحد يحيط بها سور له أربعة أبواب[8].

وابن حوقل عند حديثه عن الواحات الداخلة: ومن قصد الواح الداخلة وهى دار مملكة آل عبدون من ناحية القيس والبهنسة كان وصوله إلى بهنسة الواح إذ بها ناحية تعرف بالبهنسة أيضاً (بهنسة أخرى غير المعروفة .. المؤلف) وبينها وبين الفرفرون مرحلة والفرفرون قرية ذات قصور ... وتصيب الماء فى هذا الطريق بموضع يعرف بماء النخلة وفيه نخلة والغالب على أهل الفرفرون القبط النصارى وبالفرفرون والبهنسة (الواحات) قصران لآل عبدون ... ولايمد آل عبدون وخدمهم أيديهم فى شيء من الجباية سوى الخراج والجزية من النصارى ...

1) تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب لابن الوكيل ص142

2) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص130-131

3) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص139

4) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص189

5) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص191

6) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص220-221

7) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص230

8) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص253

وبجميع الواحات بيع قديمة أزلية معمورة لأن البلد كان نصراني الأصل قديماً وكان غزير الدخل كثير المال فشاب وشمط بجور السلطان وقد استحدث المسلمون بهذه النواحي الخمس نحو خمس عشر منبراً ... وجميع من بها من القبط فى ولاء لآل عبدون[1]

قال إبراهيم بن منقذ الخولاني: خرجنا إلى منف، فإذا بعثمان بن صالح جالس على باب الكنيسة فسلمنا عليه، فقال أتدرون ما مكتوب على باب الكنيسة؟ قلنا: ما هو؟ قال: مكتوب عليه، أنا فلان بن فلان، لا تلموني على صغر هذه الكنيسة، فإني اشتريت كل ذراع منها بمائة دينار، فقلنا: إن لهذه قصة، فقال: ها هنا وكز موسى الرجل فقتله[2].

ويذكر ابن إياس خبر عجيب: ففى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرون وثمانمئة هـ عندما أتى السلطان فى الحراقة إلى المقياس وصلى بالجامع الذى هناك وكان بجوار هذا الجامع كنيسة لليعاقبة وكان بها بئر مالح جداً وهذا من العجائب أنها فى وسط النيل وماؤها مالح فعد ذلك من النوادر[3]

ويذكر ابن عبد الحكم عن أول كنيسة بنيت بمدينة الفسطاط، حدثنا حميد بن هشام الحميرى، قال: كل مسجد بفسطاط مصر فيه عمد رخام فليس بخطى، وأول كنيسة بنيت بفسطاط مصر، كما حدثنا عبد الملك بن مسلمة، عن ابن لهيعة، عن بعض شيوخ أهل مصر، الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد، فأنكر ذلك الجند على مسلمة وقالوا له: أتقر لهم أن يبنوا الكنائس! حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر، فاحتج عليهم مسلمة يومئذ فقال: إنها ليست فى قيروانكم، وإنما هى خارجة فى أرضهم، فسكتوا عند ذلك، فهذه خطط أهل مصر[4].

وعن الكنائس التى بنيت أيام عبد الملك ابن مروان: كان لعبد الملك ابن مروان فراشين نصارى ملكية إستأذنوه فى بناء كنيسة لهم فأذن لهم، فبنوا كنيسة مارجرجس بحلوان، وهى كنيسة صغيرة كانت تسمى بكنيسة الفراشين، وكان لعبد الملك ابن مروان أيضاً كاتب يقال له أثناس، فإستأذنه أن يبنى كنيسة فى قصر الشمع، فأذن له بذلك، فبنى كنيسة

1) كتاب الجغرافيا لابن حوقل ج1 ص155-156

2) فضائل مصر المحروسة لابن الكندى ص 14

3) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ج 2 ص 54-55

4) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص 159

مارجرجس وكنيسة ابوقير التى داخل القصر عند أصحاب الريبات، ويقال إنما بنيت كنيسة ابوقير من فضلات كنيسة مارجرجس[1].

وفى تاج العروس يذكر: والكنيسة: تصغير الكنيسة: سبعة مواضع، منها ستة بمصر: إثنان بالغربية، وهما كنيسة سردوس، وكوم الكنيسة، وإثنان في البحيرة، وهما: كنيسة عبد الملك، وكنيسة الغيط، وواحد في حوف رمسيس، وهو كنيسة مبارك، وواحد في الأسيوطية، وهو كنيسة طاهر[2]، ودير الجزيرة، ودير قسطان، كلاهما من أعمال القوصية ودير بخمطهر: من أعمال الشرقية ودير شبرا بالغربية ودير بادرس: بالفييوم ودير الفخار ودير أبي منصور ودير سعران ودير الجميزة الأربعة من الجيزية ودير العسل ودير نجم ودير بهور ودير بانوب ودير ماواس ودير مقروفة الستة من أعمال أشمونين وديرى طرفة وديري الخادم وديري أبو نملة الثلاثة من أعمال الفيوم وديرين بالكسر: قرية عامرة بالغربية، وقد دخلتها وزرت صاحبها القطب أبا محمد عبد العزيز بن أحمد بن سعيد بن عبد الله الدميري المعروف بالديريني مؤلف كتاب " طهارة القلوب " والمصابح المنير في علم التفسير " ونظم الوجيز " في خمسة آلاف بيت، وغيرها، أخذ عن العز بن عبد السلام وصحب أبا الفتح بن أبي الغنائم الرسعني الواسطي وبه تخرج[3]، ويذكر البغدادى: دير العسل على غربيّ شاطىء النيل دير مليح عامر بالرهبان[4]. ودير الطين: هو دير مرجنا: قرية قرب مصر شرقيها على النيل المبارك، وبها الآثار الشريفة وموضع آخر قبالة سملوط مطل على النيل، وله سلالم منحوتة في الجبل[5]، البلاص ككتان: بصعيد مصر الأعلى قبالة قوص بها دير مشهور يضاف إليها وإليها نسبت هذه الجرار الكبيرة[6]. وفي الجيزية: منية القائد فضل وعقبة وأبي علي ورهينة والشماس وهي دير الشمع[7]

1) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، سعيد ابن بطريق، جـ 2 ص 40-41

2) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدى ج 16 ص 454

3) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدى ج 11 ص 356-357

4) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص569

5) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدى ج 35 ص 362

6) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدى ج 17 ص 495

7) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدى ج 39 ص 571

وقال إبراهيم بن القاسم الكاتب الذى يعرف بالرقيق القيروانى عندما قدم مصر في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصير الدولة باديس بن زبري إلى الحاكم قال ومثل هذه القصيدة في الجودة تشوق فيها اخوانه بمصر ويذكر فيها بعض الأديرة ومنها[1]

وترجـع أيام خلت بمعـاهد   من اللهو لا تنفك منى على ذكر
فكـم لى بالأهرام أو دير نهية   مصايد غزلان المكانس والقفر
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت   جزيرتها ذات المواخير والجسر
وبالمقس فالبسـتان للعين منظر   أنيق إلى شاطئ الخليج إلى القصر
وفى سـرودس مسـتراد وملعب   إلى دير مر حنا إلى ساحل البحر
وكم بين بسـتان الأمير وقصـره   إلى البركة الزهراء من زهر نضر
تراهـا كمـرآة بدت في رفـارف   من السـندس الموشى ينشـر للتجر
وكم بت في دير القصير مواصلاً   نهارى بليلى لا أفيق من السكر
تبـاكرنى بالـراح بكـر غـريرة   إذا هتف الناقوس في غرة الفجر
مسـيحية خوطية كلما انشـت   تشكت أذى الزنار من دقة الخصر[2]

يذكر الأصفهانى أن في سنة تسع وتسعين ومائتين هـ وفيها احترقت الكنيسة بالأسكندرية التي تعرف بالقيسارية وهى هيكل زحل[3]، سنة سبع وسبعين وخمسمائة هـ وفيها ظهر في الغربية عند ناجية تعرف بالكنيسة قريباً من المحلة تتاخم أرض قلين عين ماء ذكر عنها رجل نصرانى أنه رأى في المنام أن فيها معجزة وأن ماءها يبرئ من العلل وقصدها الناس من كل مكان وعمل عليها سوقاً وركن عسكر[4]

يذكر ابن دقماق عن الأديرة والكنائس بمصر وظواهرها من ذلك ما يختص باليعاقبة: دير نسطور هذا الدير بظاهر مصر ببساتين الوزير بالرمل، دير أبى بكير هذا الدير أيضاً بظاهر مصر ببساتين الوزير بالرمل، كنيسة أبى جرج هذه الكنيسة بظاهر مصر بدير الطين بالجانب الشرقى، كنيسة ميكائيل هذه الكنيسة بظاهر مصر قبالة بركة الشعيبة بجوار المسجد، كنيسة السيدة هذه الكنيسة بذيل كوم ابن غراب بالفواخير بالقرب من

---

1) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموى ج1 ص98-100
2) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموى ج1 ص101، وأيضاً المقفى الكبير للمقريزى ج 1 ص 258
3) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ص233
4) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ص416

باب اليون، كنيسة تعرف بسنتادر وهذ الكنيسة أيضاً تجاور الاثنتين اللتين قبلها أو الثلاثة في مكان واحد، الكنيسة المعلقة هذه الكنيسة داخل مصر بباب القصر وهو قصر الروم المعروف بقصر الشمع في علو بابه، الكنيسة المعروفة بالقمارية هذه الكنيسة تجاور المعلقة وبابها من الزقاق المعروف بها، كنيسة بربارة هذه الكنيسة بقصر الروم بجوار خوخة خبيصة يفصل بينهما مسجد، كنيسة أبى سرجة هي في درب بقصر الروم بحرى مسجد الشيخ شمس الدين بن النعمان، كنيسة تعرف بالسيدة هذه الكنيسة في خوخة تعرف بخوخة السيدة بقصر الروم، كنيسة تعرف بأبى جرج بقصر الروم أيضاً بالخوخة المذكورة، كنيسة تعرف بأبى منقورة بمصر بخط سويقة أبى شنودة قبالة جام السرى، كنيسة أبى شنودة هذه الكنيسة بالخط المذكور بجوار الدرب ومسجد ابن عبد الحميد، كنيسة تعرف بأبى نفر هذه الكنيسة بالحمرا الوسطى بخط الكارة بجوار المسجد الذى هناك، كنيسة تعرف بأبى المنا هذه الكنيسة بالحمرا بالفواخير بجوار المسجد المعروف بابن الخشاب، كنيسة تعرف بغبريال بجوار البساتين المعروفة بحارة الروم وقف مجد الدين الخليلى، كنيسة تعرف بأبى جرج بخليج مصر قبالة بستان السكرة فيما بين دويرة السطونى وحارة الروم، كنيسة تعرف بفام طبيب العين هذه الكنيسة بالحمرا القصوى بخط الزهرى على طريق الميدان[1]، ويذكر ابن شاهين الظارهى عن الكنيسة المعلقة، قصر الشمع وهو كنيسة كبيرة وبها السد الذى يقطع كل سنة عند وفاء النيل[2]، ويذكر أبي الفتح الصوفي: قصر الشمع وهى كنيسة كبيرة وبها السد يقطع كل سنة ليدخل النيل وسط القاهرة[3]

ثم يذكر ابن دقماق كنائس الملكيين وهم: كنيسة تعرف بمرِحنا هذه الكنيسة بدير الطين بجوار بستان الصاحب تاج الدين بن حنا ذو الحوض، كنيسة ميكائيل هذه بقصر الروم بمحط بالقرب بأول زقاق الشريف الحلبى، كنيسة السيدة مريم هذه بقصر الروم بمحط اللبن بزقاق الاسكندرانى على يسرة داخله، كنيسة قيريانوس هذه الكنيسة على يمنة من صار بأقصى الزقاق المذكور ذات البابين، كنيسة سيدروس هذه بزقاق مسجد القبة بقصر

1) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج1 ص107-108

2) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لابن شااهين الظاهرى ص 28

3) الصفوة فى وصف المملكة المصرية لأبي الفتح الصوفي ص93

الروم المذكور على يمنة من دخله، كنيسة تادروس هذه بالزقاق المذكور على يمنة من دخل إلى قصر الروم، دير أبى جرج هذا الدير بقصر الروم بزقاق الترمس يعرف بدير البنات[1]

وفى رواية للقزوينى: ومن عجائب مصر حوض لعين ماء منقور في حجر عظيم يسيل الماء إلى الحوض من تلك العين من جبل بجنب كنيسة فإذا مسّ ذلك الماء إنسان غير طاهر أو حائض انقطع الماء السائل من ساعته وينتن الماء الذى في الحوض فيعرف الناس سببه فينزفون الماء الذى في الحوض وينظفونه فيعود إليه الماء على حالته الأولى وقد ذكر أمر هذا الحوض أبو الريحان الخوارزمى في كتابه الآثار الباقية وأن هذا الحوض يسمى الطاهر[2]

و في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة هـ وفيه أمر السلطان القضاة بالتوجه إلى الكنيسة المعلقة والكنيسة المعروفة بشنودة وكشفتا، وهدم من المعلقة أشياء جددت ما بين شبابيك مخروطة وكتيبات مطعمة ودقيسيات، وألزموا بتكملة هدم البناء المجدد الزائد عما سبق لهم من حكم نائب الحنفي بترميمه[3]

و فى روايات أبى عبيد بن البكرى , ترنوط و هى قرية جامعة على النيل بها أسواق و مسجد و جامع و كنيسة و خراب كثير خربته كتامة إذ كانوا هناك مع أبى القاسم بن عبيد الله و أكثر بنيانها بالأجر و بها معاصر سكر و بين ترنوط غلى المنى[4] ثلاث مدن قائمة البنية خالية بها قصور شريفة و تلك القصور محكمة البناء جدرها أكثرها على أزاج معقودة يسكن بعضها رهبان و بها بىار عذبة قليلة الماء و منها إلى أبى مينا و هى كنيسة عظيمة بها عجائب من الصور و النقوش توقد قناديلها ليلاً و نهاراً لا تطفأ و بها قبو عظيم و فى آخر مبانيها بها صورة جملين من رخام عليها صورة إنسان قايم رجلاه على الجملين إحدى يديه مبسوطة و الأخرى مقبوضة يقال أنها صورة أبى مينا كل ذلك من رخام و فى هذه الكنيسة صور الأنبياء كلهم عليهم السلام صورة ذكريا و يحيى و عيسى فى عمود رخام عظيم على ذات يمين الداخل يغلف عليها باب و صورة مريم قد أسدل عليها ستران و صور سائر الأنبياء و من خارج الكنيسة صور جميع الحيوانات و أهل الصناعات من جملتها صورة تاجر الرقيق و رفيقه معه و بيده خريطة مفتوحة و يعنى بها أن تاجر الرقيق لا ربح له و فى وسط الكنيسة ثمان صور يزعمون أنها صور الملائكة و فى جهة من الكنيسة مسجد محرابه إلى القبلة يصلى

---

1) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج1 ص108

2) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص 270

3) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 99

4) المنى و هى مدينة بو مينا فى ذلك الوقت

فيه المسلمين و حولها ثمار كثيرة و عامتها اللوز الأملس و الخروب المعسل الرطب يعقد منه الأشربة و كروم كثيرة يحمل أعنابها و شرابها إلى مصر و يقولون أن سبب بنيان هذا الكنيسة هو أن قبراً كان فى موضعها و كان بالقرب منه قرية و أن رجلاً من أهلها كان مقعداً و بعد أن تاه حماره زحف ليبحث عنه حتى وصل إلى القبر فلما صار عليه أنطلق ماشياً و أخذ حماره و ركبه و رجع إلى موضعه صحيحاً و لما سمع الناس بذلك جاء كل عليل إلى القبر و نال منه الشفاء[1]

ذكر أبى عبيد بن البكرى عن الواحات أن محمد بن سعيد الأزددى أنه دخلها و رأى فيها فى يوم عيد النصارى و أهلها عرب مسلمون و قبط نصارى تابوتاً به رجل ميت يجعلونه على عجلة يسمونه ابن فرمَى و يزعمون أنه من الحواريون يتطوبون به فى سكك البلد و يتبركون بذلك و يتقربون إلى الله و تجر تلك العجلة البقر و إن عبرت من موضع و لم تسر به علموا أن ذلك الموضع غير طاهر[2]

في سنة أربعة وأربعين وثمانمائة هـ في شهر شوال توجه القاضي الشافعي ونائب القلعة وهو تغري برمش الفقيه إلى الدير الذي نبه عليه في حوادث شعبان في ترجمة جوهر وهو بساتين الوزير لما رفعت إلى السلطان قصة بأنه أحدث فيه أبنية مشيدة فأمرهما بكشفه وعمل ما يقتضيه حكم الشرع، فتوجها في طائفة من الناس فإذا فيه جماعة من الجيوش، ووجدوا النصارى قد بالغوا في تحصينه، وجددوا أمام الباب حوشاً كبيراً دوره بذراع العمل من ثلاث جوانب نحو الستين ذراعاً بالحجر الأبيض، واعتلوا بأن اللصوص قد تهجم عليه، فظهرت معذرتهم في التشييد لا في المحدث، فأمروا بإزالته وإبقاء الترميم؛ وذكر بعض - من جاورهم أن جاههم انخفض بموت الخازندار وأن قريبه بعد وفاته تسحب، فلما كان يوم الثلاثاء سابع عشر الشهر المذكور توجه نائب الشافعي ونائب القلعة بأمر السلطان فهدم الحوش المذكور بحضرتهم، فحضر جمع من أهل تلك القرية وأخبروا أن الجدار المستطيل المسامت لكنيسة كان للبستان المجاور للكنيسة، وأن البستان لما خرب وسقطت جدرانه وقلعت اشجاره بقي أثر الجدار المذكور، فادعى النصارى أنه كان جدار الحوش يتعلق بالكنيسة وأقاموا من شهد بذلك، فأذن نائب الحنفي في إعادته بنقضه فجددوه كما تقدم،

1) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية و المغرب ص 1-3

2) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية و المغرب ص 14-15

فظهر أن لا استحقاق لهم فهدم، وحصل لأهل تلك الناحية سرور كثير بذلك، فإن من كانوا فيه من الجيوش كانوا يستطيلون على من فيه وعلى من يمر بهم[1]

اشتهر فى دولة المماليك الأمير سيباى العلائي الأشرفى بكثرة الخروج للصيد و الإقامه من أجله فى بعض الأديار فقال السخاوى : كانت عليه رواتب لبعض ديور النصارى محتجاً بقصد من يرد عليهم من المسلمين خصوصاً و هو يكثر الخروج للصيد و يقيم عندهم فيها و لم يزل فى نمو إلى أن قتل فى ليلة الجمعة ثالث رجب سنة خمس و ثمانين 1454 م بمخيمه على شاطئ النيل قريباً من طما من أعمال أسيوط [2]
و جاء فى تاريخ ابن الوردى أن جامع عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط كان يوجد مكانه كنيسة الروم فهدمها عمرو بن العاص و بناها مسجداً[3]

ناحية الفيوم
يذكر أبى عثمان النابلسى في القرن الثالث ععشر الميلادى: وأما عدة الأديرة فثلاثة عشر ديراً تفصيله دير أبى اسحق بجوار اللاهون وهو بحريه دير سيلة قبليها دير العامل قبلى العدوة دير سدمنت على بحر الفيوم وهو بحرى سدمنت في الجبل دير نقلون في الجبل قريب من قبشا وهو بالشرق منها دير دموشيه وهو قبليها دير أبى شنودة قبلى منشأة أولاد عرفة دير بمويه وهو شرقيها دير فانو وهو غربيها دير سنورس وهو غربيها دير دسيا وهو بحريها دير ذات الصفا وهو قبليها دير القلمون وهو آخر الأعمال قريب من الهنسا، وأما عدة الكنائس فخمسة وعشرون كنيسة بالمدينة أربعة كنائس عامرة باجة ثلاث كنائس منها واحدة متهدمة منية الأسقف كنيسة واحدة دمشقين كنيستان سيلة كنيسة عامرة سنورس كنيستان واحدة عامرة وكنيسة متهدمة في حدود شونة الغلات السلطانية نقليفة كنيسة واحدة فانو ثلاث كنائس متهدمة ذات الصفا كنيستان أبو كسا كنيسة واحدة[4]، ويذكر أن دير أبى اسحق كان له فدانان والمربى بها من الفروج للديوان والمقطعين ستمائة

1) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 162-163
2) مجلة المشرق السنة السادسة والثلاثون أيلول 1938 ص 319
3) خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردى ص86
4) تاريخ الفيوم وبلاده لأبى عثمان النابلسى ص 22

فروج[1] وبناحية سنورس دير سنورس ربع قبضة وبها من الأحجار لاعتصار الأقصاب أربعة أحجار دائرة[2]

عندما سعى عبدالله بن عليّ فى طلب مروان بن عبد الملك، فأجفل مروان إلى النيل ثم إلى الصعيد ونزل صالح بن علي الفسطاط يعني مصر فتقدمت عساكره فلقوا خيلا لمروان فهزموهم وأسروا منهم ودلوهم على مكانه بيوصر ذكر العلامة الدميري في حياة الحيوان أن مروان لما أن وصل إلى أبو صير وهي قرية عند الفيوم قال ما اسم هذه القرية قيل له أبو صير فقال وإلى الله المصير ثم دخل كنيسة فبلغه أن خادما نم عليه فأمر به فقطع رأسه وسل لسانه وألقى على الأرض فجاءت هرة فأكلته ثم سار إليه أبو عون وعامر بن إسماعيل المذحجي فأدركوه ببوصير ثم هجم على الكنيسة التي كان نازلا بها عامر بن إسماعيل المذحجي فخرج مروان من باب الكنيسة وفي يده السيف وقد أحاطت به الجنود وصفت حوله الخيول فتمثل ببيت العجاج بن حكيم السلمي من ثم قاتل حتى قتل فأمر عامر برأسه فقطع في ذلك المكان وسل لسانه وألقى على الأرض فجاءت تلك الهرة بعينها فخطفته وأكلته فقال عامر لو لم يكن في الدنيا عجب إلا هذا لكان كافيا لسان مروان في فم هرة وبعث عون بالرأس إلى صالح بن علي فبعث به صالح إلى السفاح ووجد عامر بن إسماعيل المذكور نساء مروان وبناته في كنيسة بوصير وقد وكل بهن خادما يقتلهن بعده فبعث بهن إلى صالح ولما دخلن عليه سألنه في الإبقاء عليهن على قتلاهم عند بني أمية ثم عفا عنهن وحملهن إلى حران يبكين ودخل عامر بعد قتل مروان الكنسية فجلس على فرش مروان وكان مروان يتعشى فلما سمع الوجبة وثب عن عشائه فخرج فقتل فجلس عامر على ذلك الطعام وجعل يأكل منه[3]

1) تاريخ الفيوم وبلاده لأبى عثمان النابلسى ص54

2) تاريخ الفيوم وبلاده لأبى عثمان النابلسى ص107

3) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج 3 ص 247

ناحية قوص

كان النصارى بقوص أحضروا مرسوماً أن تفتح الكنائس فقام شخص في السحر بجامع قوص وهو جامع تجتمع فيه الناس في السحر من كل نواحى البلد وقرأ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم وقال يا أصحابنا الصلاة في هدم الكنائس فلم يأت وقت الظهر إلا وقد هدمت ثلاثة عشر كنيسة ونسب ذلك إلى أنه من جهد الشيخ عبد الغفار ثم حضر بعد أيام عز الدين الرشيدى أستاذ الدار نائب السلطنة الشريفة الأمير سيف الدين سلار فنزل إليه شخص من النصارى اسمه النشو كان يخدم عندهم فتكلم في القضية فاجتمع العوام ورجموا ووصل الرجم إلى حراقة الرشيدى فأتهم الشيخ عبد الغفار في ذلك وسافر الرشيدى إلى القاهرة ثم بعد أيام حضر أمير إلى قوص ومسك جماعة من الفقراء وضربهم وأخذ الشيخ عبد الغفار وتوجه إلى مصر ورسم للشيخ أن يقيم بها ولا يطلع على الصعيد ثم بعد مدة لطيفة حصل للرشيدى مرض وتهوس وتلاشى حاله واستمر في انحس حال إلى أن توفى فقال من يحب الشيخ إنه إنما أصابه ذلك بسبب تشويشه على الشيخ وبعد مدة توفى الشيخ بمصر في الثامن من ذي القعدة سنة ثمان وسبعمائة هـ وبعد مدة لطيفة قتل النشو النصرانى[1]

وقال ابن تفرى: كان النصارى قد أحضروا إلى قوص مرسوماً بفتح الكنائس بها سنة 708 هـ، فقام شخص في السحر وقرأ " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " وقال: يا أصحابنا الصلاة في هذه الكنائس، فلم يأت الظهر إلى وقد هدمت ثلاث عشرة كنيسة ونسب ذلك إليه، ثم إن الرشيدي إستادار سلار توجه إلى قوص - وكان بخدمته نصراني - فتكلم في القضية، فاجتمع العوام ورجموه إلى أن وصل الرجم إلى حرافة الرشيدي، فاتهم الشيخ أيضاً بذلك، ثم بعد أيام حضر أمير إلى قوص وأمسك جماعة من الفقراء وضربهم، وأخذ الشيخ عبد الغفار هذا معه إلى القاهرة ورسم له بأن يقيم بمصر، فحصل بعد أيام للرشيدي مرض، واستمر في أسوأ حال حتى توفي[2]

---

1) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص172-173

[2]) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تفرى ج 7 ص 312

ناحية تنيس

كان بتنيس من الكنائس اثنتان وسبعون 72 كنيسة إلى أن أمر بهدمها الحاكم بأمر الله في سنة ثلاث وأربعمائة هـ وجعل عوضها مساجد[1]، وأيضاً يذكر ابن إياس أن مدينة تنيس كان بها اثنان وسبعون كنيسة إلى أن أمر بهدمها الحاكم بأمر الله في سنة ثلاث وأربعمائة هـ وبنى مكانها مسجداً[2]

دير القصير

وهذا الدير في أعلى الجبل، على سطح قلته. وهو دير حسن البناء، محكم الصنعة، نزه البقعة. فيه رهبان مقيمون به. وله بئر منقورة في الحجر يستقى الماء له منها. وفي هيكله صورة مريم في حجرها صورة المسيح عليه السلام. والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة. وفي أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، لها أربع طاقات إلى أربع جهات. وكان كثير الغشيان لهذا الدير. معجباً بالصورة التي فيه، يشرب على النظر إليها. وفي الطريق إلى هذا الدير من جهة مصر صعوبة. فأما من قبليه فسهل الصعود والترول. وإلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها. وهو مطل على القرية المعروفة بشهران وعلى الصحراء والبحر. وهذه القرية المذكورة، قرية كبيرة عامرة على شاطئ البحر، ويذكرون أن موسى، صلى الله عليه، ولد فيها، ومنها ألقته أمه إلى البحر في التابوت. فدير القصير هذا، أحد الديارات المقصودة لحسن موقعه وإشرافه على مصر وأعمالها. وقد قال فيه شعراء مصر وذكروا طيبه ونزهته[3]

فى سنة احدى عشر وأربعمائة هـ أن الحاكم خرج ليلة الاثنين السابع وعشرين من شوال يطوف على حماره كجرْيٍ عادته وأصبح عند قبر الفقاعى ثم توجه إلى شرق حلوان ومعه ركابيان عاد أحدهما ومعه تسعة نفرٍ من عرب السويديين إلى بيت المال ففأمر لهم بجائزة ثم حضر الركابى الآخر وذكر أنه نركه عند المقصبة والقبر وأنه أمره بالإنصراف وصار الناس يخرجون فى كل يوم مع المواكب ينتظرونه يرجع فلما كان يوم الأحد ثالث ذى القعدة خرج صاحب المظلة ونسيم الخادم وابن يشكن التركى صاحب الرمح وجماعة من الأتراك والقاضى ابن أبى العوام فلم يزوالوا حتى بلغوا دير القصير وأمهعنوا فى الجبل فرأوا حماره

---

1) أنيس الجليس في أخبار تنيس ص 184

2) نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس ص 184

3) الديارات للشابشتى ص 284-285

على بعدٍ فأتوه فوجدوه وقد ضربت يداه بسيفٍ ثم وجدوا جباب الحاكم فى البركة التى هناك[1]

ولأبي هريرة ابن أبي العصام، فيه:

كم لي بدير القصير من قصف مع كل ذي صبوةٍ وذي ظرف
لهوت فيه بشادنٍ غنج تقصر عنه بدائع الوصف

وقال فيه أيضاً

أذكرتني يا دير من قد مضى من أهل ودي ومصافاتي
كم كان لي فيك وفيهم معاً من طيب أيام وليلات
أشكو إلى الله مصابي بهم وفقدنا أهل المروءات

ولمحمد بن عاصم في هذا الدير:

إن دير القصير هاج ادكاري لهو أيامي الحسان القصار
وزماناً مضى حميداً سريعاً وشباباً مثل الرداء المعار
عرفتني ربوعه بعد نكرٍ فعرفت الربوع بالانكار
فلو أن الديار تشكو اشتياقاً لشكت جفوتي وبعد مزاري
ولكادت نحوي تسير لما قد كنت فيها سيرت من أشعاري
فكأني إذ زرته بعد هجرٍ لم يكن من منازلي ودياري
إذ صعودي على الجياد إليه وانحداري في المعنقات الجواري
بصقورٍ إلى الدماء صوادٍ وكلابٍ على الوحوش ضواري
منزلاً لست محصياً ما لقلبي ولنفسي فيه من الأوطار
منزلاً من علوه كسماء والمصابيح حوله كالدراري
وكأن الرهبان في الشعر الأسود سود الغربان في الأوكار
غربه ذو البحار والأنهار في ثيابٍ من سندسٍ ذي اخضرار
غردت بيننا الطيور فطارت بفؤاد المتيم المستطار
كم خلعت العذار فيه ولم أر ع مشيباً بمفرقي وعذاري
كم شربنا على التصاوير فيه بصغارٍ محثوثةٍ وكبار

1) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى ج6 ص299-300

صورةٌ من مصورٍ فيه ظلّت فتنةً للقلوب والأبصار
أطربتنا بغير شدوٍ فأغنت عن سماع العيدان والمزمار
يفتر الجسم حين ترميه حسناً بفنونٍ من طرفها السحار
وإشاراتها إلى من رآها بخضوع وذلةٍ وانكسار
لا وحسن العينين والشفة اللمي اء منها وخدها الجّلناري
لا تخّلفت عن مزاري لدير هي فيه ولو نأى بي مزاري
فاقصرا عن ملامي اليوم إني غير ذي سلوةٍ ولا اقصار
فسقى الله أرض حلوان فالنخ ل فدير القصير صوب القطار
كم تنبهت من لذاذة نومي بنعير الرهبان في الأسحار
والنواقيس صائحاتٌ تنادي حيّ يا نائماً على الابتكار
قبل أن يبلي الجديد الجديدا ن بليل معاقب لنهار
إنما هذه الحياة عوارٍ وعلى المستعير رد المعار

ولابن الزنبقي المصري في دير القصير من شعر طويل:

يا حسرةً في القلب ما أقتلها كأنها في القلب أطراف الأسل
كم كم وكم من ليلةٍ أحييتها ياصاحبي بالدير في خير محل
دير القصير الفرد في صفاته يا من رأى الجّنة في رأس جبل
أشربها راحاً شمولاً قرقفاً تدب في الجسم صباحي والأصل
يديرها ذو غنج بظرفه يحيي من شاء، ومن شاء قتل
كأنه غصن من البان وقد زاد عليه بالقوام المعتدل
ألثغ، حتف النفس في لثغته تاه بها على الورى تيه مدل
إن قال نار قال ناغٌ أو يقل نور يقل نوغٌ بدلّ وغزل
وضرب الناقوس فيه راهب ضرباً على ريثٍ وضرباً بعجل
فأحثث كؤوس الراح يا ساقينا واغتنم الدهر فللدهر دول
من قبل أن يطرقنا بين فلا ينفع عند البين ليتٌ ولعل[1]

قال سعيد بن نفيس: تنزهنا إلى دير القصير فى عقب نزهة الأمير خمارويه إليه فقرأت فى الحائط بخط حسنٍ ما رأيت أحسن منه ولا أتم حروفاً:

1) الديارات للشابشتى ص 284-288

أيها العاشق المعذب أبشر   فخطايا ذوي الهوى مغفورة

زفرة فى الهوى أحطُّ لذنب   من غزاةٍ وحجّةً مبرورة

وتحت ذلك: وكتب خمارويه بن أحمد بخطّه[1]

في سنة أثنين وأربعين وستمائة هـ في التاسع عشر من شوال خرج جماعة إلى دير القصير ويعرف الآن بدير البغل ظاهر مصر فرأوا أثر باب بجوار الدير فدخلوا المكان فرأوا آثار محاريب المسلمين فعادوا إلى المدينة وعرفوا مولانا الصاحب بهاء الدين بن حنا بذلك فتقدم مرسومه إلى القاضي بهاء الدين ناظر الأحباس بأن يجمع الحكام والمهندسين والبنائين فأمتثل ذلك وخرج ومعه من المدرسين وجيه الدين البهنسى وظهير الدين النزمنتى وعلم الدين السمنودى كاتب الحكم بمصر ومن أعيان العدول نظام الدين بن الخليلى والمهندسين فرأوا المكان فيه آثار تدل على أنه كان مسجداً وشهدوا عند علم الدين السمنودى فأثبتوه ونقلوا الحكم إلى قاضى القضاة محيى الدين بن عين الدولة ونقوله إلى الحكام بالقاهرة وتقدموا إلى مولانا الصاحب بعمارته فأمر بعمارته فعمر وفتح وأقام فيه مؤذنين وإماماً وقومه وأجرى عليه راتباً ورتب له ما تحتاج إليه المساجد والدليل على أنه كان مسجداً أن الحاكم في أيام ولايته بالديار المصرية بنى جوار كل كنيسة مسجداً بباطن مصر وظاهرها[2]

1) المقفى الكبير للمقريزى ج 3 ص 825-826

2) تاريخ الملك الظاهر لابن شداد ص186

دير شهران

وهو في حدود طرا من ضواحي القاهرة القبلية في لحف الجبل الأحمر المعروف بالمقطم وبناؤه بالحجر واللبن وعليه نخل وبه جمائع من الرهبان وهو من ديارات اليعاقبة وحكى أن السراح الوراق مرّ عليه فنزل به فرأى به جماعة من أودائه على راح تقدح لهم أقداحهم وتهدى إليهم أفراحها وكان السراج قد طفئت فتيلته من شعلة ذلك اللهب ونكرت قافيته صفرة ذاك الذهب فأتاه بها الساقى فردها و واصلته في الكأس فصدها هذا حين نكس الكبر صعدته وأنفذ العمر مدته وذكر بجلسائها فقد أخوانه وذهاب زمانه فلامه من حضر إذ صد الكأس وقال: أمالك أسوة بهؤلاء الجلاس فقال

عجب الساقى لردى الفدحا ولأمرٍ في النصابى فدحا
و أتانا يحميا كأسه حيث جئنا دير شهران ضحى
قلت يا قرة عينى ربما غص طرف بعد ما قد طمحا
لم أكن أول ولهان سلا لا ولا أول نشوان صحا
أشرب الراح أرجى فرحاً فيتيح الحظ منها ترجا
وخمول منطق بالشتم لى من أرى دهرى له ممتدحا
زاد في سبى إلى أن خله شهد الله به قد سبحا
أنا ما ذنبى لحا الله أمرأ لام في التوبة مثلى ولحا
يا نديمى أنت للراح فدعنى أنزح الدمع إلى أن يبرحا
هي أوقات وكل آخذ من صفا أوقاته ما سمحا

وحكى أن سراج الوراق كان يغشى راهباً بدير شهران وافر العقل كامل الفضل فخرج إليه في جماعة من أهل الأدب وشعبان قد بقى على أقل من نصفه وبدره قد أحد يتقهقر إلى خلفه وشهر رمضان قد آن له أن تغل فيه شياطين الأنام وتختم فيه على الأفواه بالصيام فألقوا الراهب وقد لبس مسحه وساح وعزل الدير[1]، ويذكر القزوينى أن جبل المقطم لم يكن به ماء إلا عين صغيرة تنزّ في دير النصارى[2]، وفى سنة ثلاثين وثمانمائة هـ أحضر راهب بدير شعران من طرا يقال له ميخائيل فقرر فى بطركية النصارى اليعقوبية عوضاً عن غبريال سلفه الذى تنيح[3]

---

1) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 366-369

2) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص270

3) نيل الأمل في ذيل الدول لابن شاهين الملطي ج 4 ص 214

دير البغل

دير البغل وهو شمالى دير شهران وبناؤه في لحف جبل المقطم وعليه نحل وبه جمائع من الرهبان اليعاقبة قالوا وسمى بدير البغل لأنه كان به بغل لسقىّ الماء تعود هذا وألفه وكانوا إذا أطلقوه أتى مورد الماء وهناك من يملأ عليه فإذا حمله أتى إلى الدير بالماء، وخرد إليه السراج الوراق مع أبى المفضل بن العسال في جماعة من أهله وأقاموا به أياماً في لهو يجترون أعطاف الزهو وكان بالدير غلام لا يتعداه أمل المقترح فألفه السراج الوراق وهو إلى وصل منه محتاج فلما عادوا قال السراج يذكر أنامه ويمدح أبا المفضل ويذكر شيئاً كان عليه به قد تفضل[1]

دير ماريوحنا

وهذا الدير، على شاطىء بركة الحبش، قريب من البحر، وإلى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم أخو أمير المؤمنين العزيز بالله عليهما السلام. ومجلس على عمد حسن البناء مليح الصنعة مصور، أنشأه الأمير تميم أيضاً وبقرب هذا الدير، بئر تعرف ببئر نجاتي، عليها جميزة، تجتمع الناس إليها ويشربون عندها. فهذا الموضع، من مواضع اللعب ومواطن اللهو والطرب، نزه في أيام النيل وزيادته وامتلاء البركة، حسن المنظر، نزه البقاع، وكذلك في أيام الزرع والنوار. ولا يكاد يخلو من المتطرحين والمترهين. وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه[2]

ولابن عاصم، فيه:

يا طيب أيام سفحت مع الصبى   طوع الهوى فيها بسفح المنظر

فالبركة الغناء فالدير الذي   قد هاج فرط صبابتي وتفـكري

فأحثث كؤوسك يا غلام وأعفني   فلقد سكرت وخمر طرفك مسكري

وأرى الثريا في السماء كأنها   تاج تفصل جانباه بجوهر

فاشرب على حسن الرياض وغّنني   أُنظر إلى الساقي الأغن الأحور

فلعلّ أيام الحياة قليلةٌ   ولعّلني قدرت ما لم يقدر

وقال أيضاً:

عرج بجميزة العرجا مطياتي   بسفح حلوان والمم بالتويتات

---

1) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 369-370

2) الديارات للشابشتى ص 289

والمم بقصر ابن بسطام فربتما | سعدت فيه بأيامي وليلاتي
واقرأ على دير مر حّنا السلام فقد | أبدى تذكره مني صباباتي
وبركة الحبش اللاتي ببهجتها | أدركت ما شئت من لهوي ولّذاتي
كأن أجبالها من حولها سحب | تقشعت بعد قطرٍ عن سماوات
كأن أذناب ما قد كان صيد لنا | من أبرميس وراي بالشبيكات
أسّنةٌ خضبت أطرافها بدم | أو دستج نزعوه من جراحات
منازلاً كنت أغشاها وأطرقها | وكن قدماً مواخيري وحاناتي

وقال أيضاً:

أأيامي بشاطي البركتين | سقاك اللّه نوء المرزمين
لقد أذكرتني طربي ولهوي | ووكلت الفؤاد بلوعتين
ترى أيامنا فيك المواضي | يعود وصالها من بعد بين
سقى اللّه البقاع ملّث قطرٍ | وأعطش منزلاً بالجلهتين
وطلّ الطيلسان بصوب طلٍ | إلى النخلات فالجميزتين
ودار على المدار وهام مزنٍ | تسير إلى جنان السروتين
وخص الربوتين فكم غزالٍ | ربيب بين تلك الربوتين
منازل قد شهدنا اللهو فيها | بأكرم معهدين ومألفين
فكم من بيعة عقدت لقصفٍ | وعزف في رياض البقعتين
وكم من مدنفٍ قد حاز وصلاً | ونال مناه وسط المنيتين

وللعباس بن البصري من قصيدة:

يا حامل الكأس أدرها واسقني | قد ذعر الشوق فؤادي فانذعر
أما ترى البركة ما أحسنها | إذا تداعى الطير فيها فصفر
أما ترى نوارها أما ترى | حسن مسيل مائها إذا انحدر
كأنما صفر الدنانير بها | مبذولةٌ ليس بها من مّتجر
كأنما الجوهر في ألوانه | نّثر في تلك النواحي فانتثر
كأنما كف جوادٍ ولعت | في ذلك الروض بتبديد البدر
وأبيض النرجس في أجفانه | دمع الندى لولا التشاجي لقطر
ونظرة الورد إلى أترابه | نظرة معشوقٍ بلحظ منكسر

دعني فما أهلك إلا بالجوى   ما عيشة العاشق إلا في كدر

ولصالح بن موسى مولى تميم يذكر البركة:

وحسبك البركة مرأى لا يمل

تبذل وشياً لم يكن بمبتذل

متصل الأطراف غير منفصل

من شاطىء النيل إلى سفح الجبل

أكرم بتلك منزلاً لمن نزل

قد نشطت أطياره بعد الكسل

وسجعت ورجعت على مهل

بين الثقيل والخفيف والرمل

كأنهن في مراءٍ وجدل

ينحن لا للحزن لكن للجذل

يذكرننا أيامنا الغر الأول

وقال أيضا يذكر الدير والبركة:

إني لمثلك ناصح   فاجنح إلي ولا تغر

بكر إلى دير المعا   فر آن أوقات البكر

أو ما ترى حسن الريا   ض وما اكتسين من الزهر

وجه الربيع، وحبذا   وجه الربيع إذا ظهر

الوشي ينشر، والملا   حف والمطارف، والحبر

هذا البنفسج في الحدا   د بغير حزنٍ قد ظهر

وأتى البهار بصفرةٍ   فلكلّ حسن قد بهر

وكأن آذر يونه   كاسات خمرٍ تبتدر

وكأنما المنثور عق   د في جوانبه انتشر

والأقحوان فضاحك   عن عسجدٍ فيه درر

وشقائق النّعمان كال   أعلام ثم لمن نظر

وتورد الورد الذكي   وفاح مسكاً في السحر

وتجاوبت طير الغصو ن بكلّ لحنٍ مشتهر

فمغرد حسن الغنا ء شدا وآخر قد زمر

وتسرقت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر[1]

ويضيف ياقوت الحموى الرومى: دير مرحنا هذا الدير بمصر على شاطئ بركة الحبش قريب من النيل وإلى جانبه بساتين أنشأ بعضها تميم بن المعز وبقرب هذا الدير بئر تعرف ببئر مماتى عليها شجرة جميز يجتمع إليها الناس ويتنزهون عندها ويشربون وهذا الموضع نزه طيب من مواطن اللعب واللهو والطرب خصوصاً في أيام زيادة النيل حين تمتلئ البركة فهو أحسن متنزه بمصر[2]

1) الديارات للشابشتى ص 289-293

2) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص203

دير نهيا

ونهيا بالجيزة وديرها من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها، عامر برهبانه وسكانه. وله في النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته. فإذا انصرف الماء وزرع، أظهرت أراضيه غرائب النوار وأصناف الزهر. فهو من المترهات الموصوفة والبقاع المشهورة. وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور، فهو أيضاً متصيد حسن. وقد وصفته الشعراء وذكرت حسنه وطيب موضعه.

ولعباس بن البصري، فيه:

يا من إذا سكر النديم بكأسه ... غريت لواحظه بسكر الفيق

طلع الصباح فسّقني تلك التي ... ظلمت فشبه لونها بالزنبق

والق الصباح بنور وجهك إنه ... لا يلتقي الفرحان حتى يلتقي

قلبي الذي لم يبق فيه هواكم ... إلا بقية نار شوقٍ قد بقي

أواما ترى وجه الربيع وقد زهت ... أنواره بنهاره المتألق

وتجاوبت أطياره وتبسمت ... أشجاره عن ثغر زهرٍ مونق

لم يغذها طلّ الرذاذ ببرده ... حتى تفّتح كل جفنٍ مطبق

والبدر في وسط السماء كأنه ... وجه مليح في قناع أزرق

يا للديارات الملاح وما بها ... من طيب يوم مر لي بتشوق

أيام كنت وكان لي شغلٌ بها ... وأسير شوق صبابتي لم يطلق

يا دير نهيا، ما ذكرتك ساعةً ... إلا تذكرت الشباب بمفرقي

والدهر غض والزمان مساد ... ومقامنا ومبيتنا بالجوسق

يا دير نهيا إن ذكرت فإنني ... أسعى إليك مدى الخيول السبق

وإذا سئلت عن الطيور وصيدها ... وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق

فالغر، فالكروان، فالفارور إذ ... يشجيك في طيرانه المتحّلق

أشهدت حرب الطير في غيطانه ... لما تجوق منه كلّ مجوق

والزمج الغضبان في رهط له ... ينحط بين مرعدٍ ومبرق

ورأيت للبازي سطوة موسر ... ولغيره ذلّ الفقير المملق

كم قد صبوت بغرتي في شرتي ... وقطعت أوقاتي برمي البندق

وخلعت في طلب المجون حبائلي ... حتى نسبت إلى فعال الأخرق

ومهاجرٍ ومكابر ومنافرٍ ... قلق الفؤاد به وإن لم يقلق

لو عاين التفاح حمرة خده	لصبا إلى ديباج ذاك الرونق
يا حامل السيف الغداة وطرفه	أمضى من السيف الحسام المطلق
إرفق بعبدك لا تطل أشجانه	وإرفق به يا صاحب الثغر النقي

وكان ابن البصري هذا من الخلعاء المجان وله شعر يجري مجرى الهزل والطيب وخدم أبا القاسم أونوجور بن الاخشيد، فأحسن إليه وكساه وصار يركب معه. وكان يلبس طيلساناً أزرق يتشبه بالقضاة. وكان أونوجور قد حمله على برذون أصفر غليظ بطيء السير، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه، قال لهم: صفوا لي موضعكم حتى ألحق بكم ! وكان مليح المجالسة، كثير النادرة وكان يبيع الصيدلة في مسجد عبد الله بمصر[1]، ويضيف القزويني عن دير نهيا: بالجيزة من أرض مصر من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعاً عامر بالرهبان وله في النيل منظر عجيب لأن الماء محيط به من كل جهاته فإذا انصرف الماء وزرعت أظهرت أنواع الأزهار وأصناف الأنوار فتشبه الديباج المنقش لا يريد الإنسان أن يفارقها وله خليج تجتمع فيه الطيور[2]

1) الديارات للشابشتي ص 294-297

2) آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص198

دير طمويه

وطمويه في الغرب بإزاء حلوان والدير راكب البحر وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر. فهو نزه عامر آهل. وله في النيل منظر حسن. وحين تخضر الأرض، فإنه يكون بين بساطين من البحر والزرع. وهو أحد مترهات مصر المذكورة ومواضع لهوها المشهورة.

ولابن عاصم، فيه:

أقصرا عن ملامي اليوم أني	غير ذي سلوةٍ ولا إقصار
فسقى الله دير طمويه غيثاً	بغوادٍ موصولةٍ بسواري
كم ليالٍ نبهت من نوم سكري	بنعير الرهبان في الأسحار
والنواقيس صائحات تنادي	حي يا نائماً على الابتكار

وقال فيه أيضاً:

واشرب بطمويه من صهباء صافيةٍ	تزري بخمر قرى هيتٍ وعانات
على رياضٍ من النوار زاهرةٍ	تجري الجداول منها بين جنات
كأن نبت الشقيق العصفري بها	كاسات خمرٍ بدت في إثر كاسات
كأن نرجسها في حسنه حدقٌ	في خفيةٍ تتناجى بالاشارات
كأنما النيل في مر النسيم بها	مستلئم في دروع سباريات
منازلاً كنت مفتوناً بها يفعاً	وكن قدماً مواخيري وحاناتي
إذ لا أزال ملحاً بالصبوح على	ضرب النواقيس صباً بالديارات[1]

دير طمويه أضيف هذا الدير إلى قرية طمويه وهو على النيل بمصر بإزاء موضع يقال له حلوان والدير راكب على النيل وقد أحدقت به الأشجار والكروم والنخيل وهو دير عامر أهل من منتزهات مصر المذكورة ومواضع لهوها المشهورة[2]

---

[1]) الديارات للشابشتى ص 298-299

2) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص103

دير طرا

دير طرا وموقعه قبلى القرافة ومصر يلى بركة الحبش وبساتين الوزير يقصده أهل مصر للفرجة والتنزه ويؤتى إليه على ظهر البرّ والنيل وله اشراف على النيل ولا يخلو من قصف وشرب ولأمراء الديار المصرية إليه إفضاء في الفضاء ومنتهى الركوب وفيه أقول

يوم طر وديرها وما أتى من خيرها
وأبيض من يومها وأحمر من ميرها
مدامة تسرى بنا مجدة في سيرها
لم أنس هيف نخلها ويومنا في حيرها
وأكلنا من حوتها ووحشها وطيرها
هذا إلى فاتنة مليحة في ديرها
فلا تقل لى غيرها ما أربى في غيرها[1]

دير يحنس

هذا الدير بدمنهور، من أعمال مصر. إذا كان يوم عيده، أخرج شاهده من الدير في تابوت، فيسير التابوت على وجه الأرض لا يقدر أحد أن يمسكه ولا يحبسه حتى يرد البحر فيغطس فيه ثم يرجع إلى مكانه[2]، لكن ابن فضل العمرى يذكر أن ذلك لا صحة له وإنما الذى بلغه وهو بمصر أنه إذا كان أوان تحرك النيل يخرج تابوت يقال أن فيه أصبع الشهيد ويرمى في البحر وذلك لوقت معلوم يسمونه عيد الشهيد ويكون الذى يرميه بعض كبراء القبط ويظن القبط أن رمى الأصبع يسبب الزيادة[3]، ويذكر ياقوت الحموى نقلاً عن الشابستى أن هذا الدير كان يوجد بسمنود من أعمال حوف مصر[4]

نواحي اخميم

دير كبير عامر، يقصدونه من كل موضع. وهو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف. وفي موضع من الجبل شق، إذا كان يوم عيد هذا الدير، ولم يبق من الطير المعروف ببوقير شيء

1) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 370
2) الديارات للشابشتى ص 312
3) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 361
4) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص251

في ذلك المكان، وهم به كثير حتى يجيء إلى الموضع فيكون أمراً عظيماً لكثرته واجتماعهم وصياحهم عند ذلك الشق، ثم لا يزالون واحداً بعد واحد يدخل رأسه في ذلك الشق ويصيح ويخرج ويجيء غيره فيفعل كفعله إلى أن يعلق رأس أحدهم وينشب في الموضع، فيضطرب حتى يموت. فحينئذ يتفرق الباقون ويرجعون إلى مواضعهم، فلا يبقى منها طائر. والله أعلم[1].

1) الديارات للشابشتي ص 314-315

كنيسة الطور

وطور سينا، هو الجبل الذي تجلى فيه لموسى عليه السلام وصعق فيه. والكنيسة في أعلى الجبل، مبنية بحجر أسود. وعرض حصنه سبعة أذرع، وله ثلاثة أبواب حديد. وفي غربيه باب لطيف قدامه حجر لهم، إذا أرادوا رفعه رفعوه، وإن قصدهم أحد أرسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب. وداخله عين ماء وخارجه عين أخرى. وزعم النصارى أن بها ناراً من نوع الجديدة التي كانت بالبيت المقدس، يوقدون منها في كل عشية، وهي بيضاء ضعيفة الحر لا تحرق ثم تقوى إذا أوقد منها السرج. وهو عامر بالرهبان، والناس يقصدونه لأنه من الديارات الموصوفة.

ولابن عاصم، فيه:

يا راهب الدير، ماذا الضوء والنور فقد أضاء به في ديرك الـطور

هل حّلت الشمس فيه دون أبرجها أو غيب البدر فيه فهو مستور

فقال: ما حّله شمس ولا قمر لكن تق رب فيه اليوم قورير[1]

مدينة الطور على تل بين جبلين وفه هذين الجبلين ثقوب لا تحصى مملوءة أمواتاً وفى سفح أحدهما بيعة للنصارى حصينة عليها سور من حجارة ذو شرفات وأبواب من حديد داخله عين ماء عذب وعلى العين درابزين من نخاس لئلا يسقط فيه أحد وقد أجرى ماؤها في قنى رصاص إلى ما حوالي الدير من الكروم والأشجار، ويقال أن على هذه العين كان ثمر العليق الذى آنس موسى النبى عنده النار وعلى خطوات بن هذا الدير أول العقبة التي يصعد منها الناس إلى طور سيناء وهى ستة آلاف وستمائة وستون مرقاة قد نحتت درجات في الصخر فإذا قطعت نصف المرقاة صرت إلى مستوى من الأرض فيه أشجار وماء عذب وهناك كنيسة على اسم إيليا النبى وهناك مغارة يزعمون أن إيليا النبى اختبأ فيها من أزقيل الملك ثم تستمر في الارتقاء حتى تنتهى إلى قمة الجبل وهناك كنيسة متقنة البناء تنسب إلى موسى النبى بأساطين رخام وحيطانها مزخرفة بالفسيفساء وأبوابها ملبسة بالصفر وسقفها من خشب الصنوبر وأعلاها أطباق رصاص قد أحكمت غاية الاحكام وليس فيها إلا انسان واخد يقمها ويقوم عليها ويجمرها ويسرج قناديلها واتخذ هذا الراهب لنفسه بيتاً صغيراً خارجاً عن الكنيسة يأوى إليه وينام فيه ولا يمكن لأحد أن ينام في الكنيسة ولا يدخل عينيه غمض وهذه الكنيسة بنيت في المكان الذى تكلم الله فيه مع موسى النبى[2]، ويقول القزوينى

---

1) الديارات للشابشتى ص 310، وأيضاً مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادى ج2 ص567

2) الروض المعطار في خبر الأقطار ص 398

عن دير طور سيناء: الدير مبنى بالحجر الأسود وفى غربيه باب لطيف قدامه حجر إذا أرادوا رفعه رفعوه وإذا قصدهم قاصد أرسلوه فأنطبق على الموضع ولم يعرف مكان الباب وفى داخلها عين ماء وزعم النصارى أن بها ناراً من النار التي كانت ببيت المقدس وهى نار بيضاء ضعيفة الحر لا تحرق وتقوى إذا أوقد منها السرج وهو عامر بالرهبان والناس يقصدونه[1] ثم يذكر القزوينى أن ابن عاصم قال فيه

يا راهب الدير ماذا الضوء والنور وقد أضاء بما في ديرك الطور؟

هل حلت الشمس فيه دون أبرجها أم غيب البدر عنه فهو مستور؟

وفى سنة 411 هـ الموافقة 1021 م قابل أنبا سلمون رئيس دير طور سيناء الحاكم بأمر الله وشكى إلية سوء حالة رهبان طور سيناء وما هم عليه من الضر والفاقة وتوسل إليه في إطلاق الأوقاف المقبوضة برسم هذا الدير ليستعينوا بها على ما هم بسبيله ويغتنم دعاهم له ما عاشوا فأجابه الحاكم بأمر الله إلى ذلك وأعاد جميع أوقافهم إليه[2]، ثم عاد أنبا سلمون رئيس دير طور سيناء والتقى بالحاكم بأمر الله وشكى له بتمادى خراب الكنائس وأن الأوقاف التي كانت برسمها قبض عليها وقد خربت واختلت وعرض بالمسألة في الإذن بتجديد عمارة دير القصير وأن يرى رأيه بالمسامحة به وعودة الرهبان إلى سكناه واجتماع النصارى فيه للصلاة ولإطلاق ما برسمه من الأوقاف فسعفه بطلبته وأمر بالمسامحة بما يجب لبيت المال على الأوقاف المخصوصة من خراج وكتب له بذلك سجلاً هذا نسخته: " هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى عليّ الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لسليمان بن إبراهيم الراهب بما رآه من إنعامه عليه واسعافه بما رغب إليه من الإذن له في إعادة إعمار الدير المعروف بالقصير بطرا من جبل فسطاط مصر إلى ما كان عليه قبل هدمه وتمكين الرهبان سكناه والمقام فيه على عادتهم والجري على ما سلف من عبادتهم وصلواتهم وإقامة سُنَّة ديانتهم والفسح في اجتماع من يطرقه من أهل ملتهم وإزالة الاعتراضات عنهم ومنع الأذى والتسلط عليهم وكف التبسط والخيف لهم ورد الأوقاف والأملاك التي كانت محبسة عليه ومنسوبة إليه من ضيعة ومزرعة ومينا وأرض وحصة ودار وقيسارية وحمام وحانوت وفاخورة ونخيل وبستان وشجرة مثمرة وجنان بمصر وأعمالها من جميع بلاد المملكة واقطارها وأطرافها وتسليم ذلك إلى هذا الراهب ليتولى جداه ويحوز نفعه وجناه ويصرفه في مصالح هذا الدير والمقيمين فيه والقاصدين إليه ويبسط يده في

---

1) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص197

2) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 353

تدبيره ومن يسببه في جميعه وصيانة حقوق بيت مال المسلمين منه ويطهره من درنه والوزر عنه والمسامحة بما يجب على ذلك من خراج وعشر وغرم ورسم في سائر دواوين الحضرة المحلولة والمحبسة وإزالة التأول عنه والاضرار بسببه والتتبيع له في هذا الوقت وما يأتي بعده من الأوقات على استقبال تاريخ هذا السجل وفاء بالذمة وجزاء على مناصحتهم ومضامنتهم الملة لا يغيره كَرّ حين ولا يُحيله مَرّ الأحقاب والسنين فمن قرأه أو قرئ من الأولياء والولاة ومتولى الدواوين والضمناء والمتصرفين في الأعمال والأحوال فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبحسبه. كتب في شهر ربيع الآخر سنة 411 هـ الموافق أغسطس 1020م وليقرأ هذه المنشور في يد متخذه حجة له بمضمونه ويثبت بحيث مثله إن شاء الله ووقع الحاكم في أعلاه عليه بخطه[1]، وفى آكام المرجان يذكر في وصف الكنيسة وفيه جسر ومنامات للرهبان. ثم يصعد الجبل على ستة آلاف وخمسمائة مرقى، في أعلاه كنيسة وآثار عجيبة[2].

وفى سنة تسع وأربعين وثمانمائة في آخر شوال عين السلطان القاضى شرف الدين التباني الحنفى والخطيب شمس الدين بن أبى عمر الحنبلى وجماعة من الموقعين للتوجه مع الالأمير إينال الذى كان داودار الناصرى محمد ابن السلطان إلى الطور لكون السلطان بلغه أن بها كنائس ملاصقة لجامعها عالية عليه وأن سقوفها مطبقة بالرصاص الكثير الموازى لألأكثر من ألفى قنطار يكون قيمته نحو عشرة آلاف دينار وعقد مجلساً لذلك بالقضاة الكبار فمن دونهم بحضرته مرة ثم بالصالحية أيضاً وآل الأمر إلى أن أدعى القاضى برهان الدين إبراهيم بن ظهير الحنفى عند قاضى الحنفية بطريق التوكيل عن السلطان على ثلاثة من النصارى الملكيين المقيمين بدير طور سيناء منهم الأسقف أن بالطور ست كنائس الأولى تعرف بمار موسى والثانية بالسيدة والثالثة بمار يوحنا والرابعة بأستافالس والخامسة بالكرج والسادسة بماسليوس كلها مرتفعة البناء على الجامع القديم الداخل فى سور الدير ارتفاعاً متفاوتاً وبسطح واحد منها ناقوساً يقابل منار الجامع يكون بينهما نحو مقدار ثلاثين ذراعاً تجتمع النصارى للضرب به فى اليوم والليلة ثلاث مرات وبالأخرى قلالى عالية على بيت الخطابة والجامع أيضاً سوى قلالي أيضاً بالدير معدة لسكنى الرهبان فيها تصاوير وتماثيل وأنه بداخل الدير سبع كنائس بينها وبين الجامع نحو ثلاثين ذراعاً وبجبل الطور تسع

1) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 354-355

2) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة ص 195

كنائس وبوادى اللحاة والربوة ثلاث كنائس وبوادى الفقيرة كنيسة مما جميعه محدث بدار الإسلام وأنه بكل من الوادى والجبل أراضى مشغولة بالكرم والبساتين من سنين متقادمة وهى مستحقة لبيت المال وهم لا يقومون بخراجها فأجابوا لصحة الدعوى غير أنهم لا يعرفون حدوث الكنائس الست الأول وأنهم يقومون بخراج ما ينتفعون به من الأراضى مع زيادة عليه لحجاج المسلمين المنقطعين الذين يردون من البحر أو البر إليه وكان سبق منهم قبل تاريخه السؤال فى أن يقرر عليهم فى أجرة الأراضى كل سنة خمسون ديناراً يؤدونها فى كل شهر أربعة دنانير وسدس دينار لجهة الجامع المذكور ولما تم ما يقتضى الحكم سأل المدعى فيه فحينئذ أستخار الله تعالى وأمر الرهبان الثلاثة بهدم ما بالجبل من الكنائس والصوامع المستجدة وبهدم ما ارتفع من بناء الكنائس المجاورة للجامع على بنائه بل ويؤخذ منها أيضاً ذراع بحيث تكون منخفضة عن الجامع وبنقض ما علم إحداثه من الكنائس أمراً شرعياً بطريقة عالما بالخلاف وألزمهم بتسليم أنقاض ذلك لمن يتولى قبض ما يكون لجهة بيت مال المسلمين ليجعله فيه حتى تبين له مستحق بالطريق الشرعى لكونهم أقروا انهم لا يعرفون لها مالكاً ولا منشئاً ولا مستحقاً ترد إليه وكان ذلك كله فى شوال من السنة وعد ذلك طولبوا تلك الأراضى فى مدة وضع أيديهم عليها وانتفاعهم بها فى الوزروع والغرس وغير ذلك وكتبت عليهم أجاير مستقبلة ثم بعد ذلك رسم السلطان لكل واحد من النواب والموقعين المعنيين بهجن برسم الركوب وبعشرين ديناراً برسم النفقة ولما وصلوا إلى الطور كشفوا الكنائس المشار إليها فوجدوها كما شرحت هذا مع أنه سبق إعترافهم بذلك غير أنه فعل قطعاً للحجيج من كل وجه فكتبوا محضراً يتضمن شرح ذلك ثم صورت دعوى شرعية وحكم القاضى شرف الدين بن التبانى النائب الحنفى بعد إستيفاء الشروط بحضرة جماعة من الرهبان والنصلرى المقيمين هناك بهدم هذه الكنائس والقلالى وبأن أنقاضها تكون لبيت المال وكان ذلم فى خامس عشر ذى الحجة[1]

---

1) التبر المسبوك فى ذيل الملوك للسخاوى ج1 ص 263-265

بيعة أب هور

وهذه البيعة بسرياقوس من أعمال مصر، عامرة، كثيرة الرهبان، لها أعياد يقصدها الناس. وفيها، على ما ذكره أهلها، أعجوبة وهي إن من كانت به خنازير، يقصد هذا الموضع ليعالج به. فيأخذه رئيس الموضع فيضجعه ويأتيه بخترير فيرسله على موضع الوجع، فيأكل الخترير الذي فيه، لا يتعدى ذلك الموضع. فإذا تنظف الموضع، ذر عليه من رماد خترير فعل مثل هذا الفعل من قبل ومن زيت قنديل البيعة فيبرأ، ثم يؤخذ ذلك الخترير فيذبح ويحرق ويعد رماده لمثل هذه الحال[1]، وهى بيعة عامرة برهبانها مثرية بفضة قناديلها وذهب صلبانها كثيرة القلالى مذهبة بالوقود جنح الليالى ولها أعياد مقصودة الأوقات منتظرة الميقات[2]

بيعة اتريب

وعيدها اليوم الحادي والعشرين من بونة. يذكرون أن حمامة بيضاء تجيئهم في ذلك العيد. فتدخل المذبح،

لا يدرون من أين جاءت، ثم لا يرونها إلى يوم مثله[3]، ويذكر ياقوت الحموى أنه كان يقال لهذا الدير مارت مرييم[4]

كنيسة أبى شنودة

كان الإخشيد ذا سياسة ومرافعة ولقد انهدمت قطعة من كنيسة أبى شنودة في سنة 326هـ الموافقة 938م فبذل له النصارى مالاً لطيفاً ليطلق عمارتها وقال خذوا فتوى الفقهاء فلما ابن الحداد أفتى بألا تعمر وبذلك أفنى أصحاب مِلك وأفتى محمد بن على بأن لهم أن يرموها ويعمروها واشتهر ذلك عنه فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله فندم على فتواه وشغبت الرعية وأغلقت الدروب وأحاطت بالكنيسة فبلغ الاخشيد ذلك فاغتاظ وأرسل بوجوه غلمانه كافور ومنجح وشادن في عسكر كبير وقال لهم لا تجاوزوا مسجد عبد الله فبلغوا مسجد عبد الله وزحفت إليهم الرعية ورموهم بالحجارة فأرسلوا يخبرون الاخشيد فأرسل إليهم ارجعوا ثم دعا بأبي بكر بن الحداد الفقيه وقال له اركب إلى الكنيسة

---

1) الديارات للشابشتى ص 311

2) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 360

3) الديارات للشابشتى ص 313

4) الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى ص 263

فإن كانت تبقى فاتركها على حالها وإن كانت مخوفة فاهدمها فسمعت أبا بكر بن الحداد يقول أخذت معى على بن عبدالله البواش المهندس وركبت إلى الكنيسة فما تركت من كل درب فلم أزل ارفق وأعلمهم أنى معهم ففتحوا لى فجئت إلى الكنيسة وأمرت بإخراج جميع من فيها من النصارى ودخلت ومعى ابن البواش وأغلقت عليّ وعليه وجئت به إلى المذبح وقلت له: هذا الموضع الذى قال الله تعالى فيه: يكمد السموات ينقضون منه وتنشق الأرض فخذ بيدك شمعة وأدخل معك وعرفنى فطاف وعاد إليّ وقال لى: تبقى كذا خمسة عشر سنة ثم يسقط منها موضع ثم تقيم إلى تمام أربعين سنة ويسقط جميعها، فأنصرفت إلى الاخشيد وعرفته فتركها ولم يعمرها وكان أمرها كما قال ابن البواش المهندس فعمرت سنة ست وستين قبل تمام أربعين سنة ولو تركت سقطت[1]، واتفق أن كنيسة أبي شنودة انهدم جانبها، وبذل النصارى مالاً كثيراً ليطلق لهم عمارتها فاستفتوا الفقهاء. فأفتى ابن الحدّاد بهدم عمارتها، ووافقه أصحاب مالك وأفتى محمد بن علي بأن لهم أن يرمّوها ويعمروها. فثارت العامة بِهِ وهمُّوا بإحراق داره فاستتر، وأحاطوا الكنيسة. فبلغ ذَلِكَ الأمير فاغتاظ، فأرسل وجوه غلمانه فِي جمع كثير، فاجتمع عليهم العوامّ ورمَوْهم بالحجارة، فراسلوه، فأرسل إِلَى ابن الحدّاد فقال: اركب إِلَى الكنيسة، فإن كَانَتْ قائمة فاتركها عَلَى حالها، وإن كَانَتْ دائرة فاهدمها. فوجَّه ابن الحدَّاد وصُحبته عليّ بن عبد الله بن النّواس المهندس وكثُرَ الزِّحام، فلم يزل يرفق بهم اللفظ ويلين لهم القول ويُعلمهم أنه معهم حَتَّى فتحوا الدروب. ودخل الكنيسة فأخرج جميع من فِيهَا من النصارى وأغلق الباب ودفع للمهندس شمعة. ودخل المذبح وكشفه وقال: يبقى خمس عشرة سنة ثُمَّ يسقط منها موضع ثُمَّ يبقى إِلَى تمام أربعين سنة ويسقط جميعها. فأعاد الجواب فتركها وَلَمْ يعمرها، فلما كَانَتْ سنة ست وستين عُمرت كلها ولو تُركت لسقطت[2].

---

[1]) كتاب المُغْرِبِ فِي حُلّى المَغْرِبِ لابن سعيد ص 32-33

2) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حج العسقلانى ص 334-335

دير الطير

بأرض مصر على شاطئ النيل بقرب الجبل المعروف بجبل اللهف وفى هذا الجبل شق فإذا كان يوم عيد هذا الدير يأتي صنف من الطير يقال له بوقير لم يبق منها واحد إلا جاءوا ذلك الشق ويشتد عندهم صياحهم ولا يزال الواحد بعد الواحد يجعل رأسه في ذلك الشق ويصيح إلى أن يتشبث رأس أحدها بالشق فيضطرب حتى يموت وعند ذلك تنصرف البقية إلى السنة القابلة ولا يبقى منها هناك طير وهذا دليل الخصب في تلك السنة وربما تشبث طيرين فيكون الخصب يانعاً جداً[1]

ويذكر مؤرخ آخر جبل الطير: وفى البر الشرقى قبالة المنية قرية تعرف بطهنة عندها بلد يقال له عين شمس به آثار عجيبة وهى ليست عين شمس التي عند المطرية ومن بحريها جبل الطير ويقال له الطليمون وهو من عجائب الدنيا وذلك أن الطيور تجتمع إليه في كل سنة وهى طيور يقال لها بوقير وفى رأس هذا الجبل ثقب صغير والجبل مطل من ناحية البحر ولا يبقى طير إلا ويخل منقاره في ذلك الثقب ثم يخرج ويعوم في البحر وتزال الطيور كذلك إلى أن يقبض ذلك الثقب على طائر منها فيبقى معلقاً بمنقاره إلى أن يموت ويلقيه وكذلك في كل سنة وهذ لا يختلف فيه أخد من أهل البلاد، وحدثنى رجل كبير من أهل هذه البلاد أنه إذا كانت سنة جيدة قبض الجبل على طيرين وإذا كانت متوسطة قبض على طير واحد وإذا كانت قليلة الخير لا يقبض شيئاً، وبهذا الجبل كنيسة قطعة واحدة قد استخرجوها ونحتوها منه يقال لها كنيسة الكف ويقال أن المسيح أقام بها وبها كفه[2]

دير أبى بخوم

وهو دير بصعيد مصر شرقى النيل بقرية يقال لها فاو من قرى أقباط مصر وهذا الدير أزلى قديم له حرمة عندهم[3]

دير أبى سويرس

وهو دير على شاطئ النيل بمصر شرقيه من جهة الصعيد، ودير سويرس أيضاً بأسيوط منسوب إلى رجل[1]

---

[1]) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص271

2) الإشارات إلى معرفة الزيارات ص 42-43

3) الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى ص 261

دير هرمس

دير هرمس بمنف من أرض مصر وعنده هرم قيل أن فيه مدفوناً رجلاً يعد بألف فارس على ما ذكروه وهو غربى الأهرام المشهورة[2]

دير بانوب

وهو من الديرة التي بصعيد مصر بقرب أشمونين[3]

دير البتول

وهو دير كبير جداً مشهور بصعيد مصر في شرقى النيل بقرب مدينة أنصنا القديمة من نواحى الصعيد ويقال أن مريم عليها السلام وردت هذا الدير[4]

دير الحرجة

دير حرجة والحرجة في الأصل موضع كثير الشجر لا تبلغه السائمة والحرج والضيق وحرج الصدر ضيقة ودير حرجة بصعيد مصر في شرقى قوص وهو بكورة صغيرة هنالك بصعيد مصر الأعلى تسمى حرجة أضيف الدير إليها وعنده قرية من قرى الكورة تسمى العباسية وربما أضيف هذا الدير إليها فقيل دير العباسية[5]، ويضيف ياقوت الحموى: أن دير الحرجة بنى على اسم مارجرجس[6]

دير تنادة

وهو دير مشهور بالصعيد في أرض أسيوط غربى النيل وتحته قرى ومتنزه حسن ورهبانه كثيرون[7]

---

1) الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى ص 261

2) معجم البلدان لياقوت الحموى ج2 ص540

3) الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى ص 285

4) الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى ص 286

5) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص8

6) معجم البلدان لياقوت الحموى ج2 ص505

7) الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى ص 300

دير أبومينا

ترنوط وهى قرية جامعة على النيل بها أسواق ومسجد وكنيسة وجامع وخراب كثير خربته كتامة إذ كانوا هناك مع القاسم بن أبى عبيد الله الشيعي وأكثر بنيانها بالأجر وبها معاصر سكر وبين ترنوط إلى المنى وهى ثلاث مدن قائمة البنيية خالية بها قصور شريفة في صحراء رمل ربما قطع فيها الأعراب على الربان وتلك القصور محكمة البناء منجدة الجدر أكثرها على أزاج معقودة يسكن بعضها رهبان وبها آبار عذبة قليلة المياه ومنها إلى أبى مينى وهى كنيسة عظيمة فيها عجائب من الصور والنقوش توقد قناديلها ليلاً ونهاراً لا تطفأ وفيها قبو عظيم في آخر مبانيها فيها صورة جميلين من رخام عليهما صورة إنسان قائم رجلاه على الجملين إحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة يقال أنها صورة أبى مينى كل ذلك من رخام وفى هذه الكنيسة صور الأنبياء كلهم عليهم السلام صورة زكريا ويحيى وعيسى في عمود رخام عظيم على ذات يمين الداخل يغلق عليها باب وصورة مريم قد أسدل عليها ستران وصور سائر الأنبياء ومن خارج الكنيسة صور جميع الحيوان وأهل الصناعات ومن جملتها صورة تاجر الرقيق ورفيقه معه وبيده خريطة مفتوحة لأسفل يعنى أن التاجر بالرقيق لا ربح له وفى وسط الكنيسة قبة فيها ثمان صور يزعمون أنها صور الملائكة وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابه إلى القبلة يصلى فيها المسلمون حولها ثمار كثيرة وعامتها اللوز الأملس والخروب المعسل الرطب يعقد منه الأشربة وكروم كثيرة يحمل أعنابها وشرابها إلى مصر ويقولون أن سبب بنيان هذه الكنيسة أن قبراً كان في موضعها وكان بالقرب منه قرية وأن رجلاً من أهلها كان مقعداً يزال عنه حماره يزحف في طلبه ليصرفه حتى وصل إلى القبر فلما صار عليه انطلق ماشياً فمشى إلى حماره واستولى عليه راكباً وانصرف إلى موضعه صحيحاً فسمع الناس بذلك فلم يبق عليل إلا قصد ذلك القبر فجلس عليه وبنيت عليه هذه الكنيسة وقصدها أولوا الأسقام ليستشفوا بها[1]، ويذكر ابن حوقل: ابومينا ضيعة كبيرة بها جامع وخلق كثير وبادية ومزارع وغلات واسعة[2]، وابن رستة في الأعلاق النفيسة يصف الدير عندما تحدث عن الطريق السالك من مصر إلى برقة: فأما من أراد أن يسلك من مصر إلى برقة وأقاصى المغرب نفذ من الفسطاط في الجانب الغربى من النيل حتى يأتي إلى

---

1) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى ص 1-2

2) المسالك والممالك لابن حوقل ص 91

ترنوط ثم يصير إلى منزل يعرف بالمنى قد اقفر أهله ثم إلى الدير الكبير المعروف ببومينا وفيه الكنيسة الموصوفة العجيبة البناء الكثيرة الرخام[1]

1) الأعلاق النفيسة لابن رستة ص342

كنائس منف

ذكر بعض علماء مصر قال: دخلت منف فرأيت عثمان بن صالح عالم مصر جالساً على باب الكنيسة بمنف، فقال لى: تدرى ما على باب هذ الكنيسة مكتوب؟ قلت: لا، قال: عليها مكتوب لا تلومونى على صغرها فإنى اشتريت كل ذراع بمائة دينار لشدة العمارة، قال عثمان بن صالح: وعلى باب هذه الكنيسة وكز موسى عليه السلام الرجل فقتله

ومنف بها كنيسة الأسقف لا يعرف طولها من عرضها مسقفه بحجر واحد حتى لو أن ملوك الدنيا قبل الإسلام جعلوا همتهم على أن يعملوا مثلها ما أمكنهم ذلك[1]

الديارات السبع

وهي في الوجه البحري، وهو سُفليُّ ديار مصر ممتدَّة غرباً على جانب البرِّيَّة القاطعة بين بلاد البُحَيرة والفَيُّوم مررنا على بعضها في الصحبة الشريفة الناصريّة. وهي في رمال منقطعة، وسباخ مالحة، وبرار مُعْطِشة، وقِفار مُهلكة. وشِرب سكّانها من جفارات لهم. وهم في غاية من قَشَف العيش وشَظَف القوت ويحمل النصارى إليهم جلائل النذور والقرابين، وتخصهم بكرائم التُّحَف ويتّخذ كتبة القِبط وخَدَم السلطان منهم خاصة، أيادِيَ معهم، ليكونوا لهم ملجأً من الدولة، إذا جارت عليهم صُرُوفُها ولم أعلم فيها أخبارا فأذكرها ولا أشعارا فأُطرِفَ بها. وإنما ذكرتها لشهرة اسمها وبُعد صيتها[2]

دير الأنبا شنودة

يذكر ابن رستة: مدينة أخميم في الجانب الشرقى من النيل ولها ساحل وبها يعمل الفرش القطوع والجلود الأخميمية والدير المعروف بدير بو شنودة ويقال أنه فيه قبر رجلين من حوارى السيد المسيح[3]، وأيضاً يذكر عنه ابن فضل العمرى: هو دير جليل البناء، أبيض كما سُمِّيَ. عليه رونق. قد بُنِيَ بالحجر الأبيض، وزُيِّنَ في أبنيته، ووُسِّع في قدر أفنيته. وهو غربيّ النيل، في طرف الحاجر المطلّ على المزدَرَع، فيما يقابل إخْميَم. وله إشراف على

---

1) فضائل مصر لابن زولاق ص 67-68

[2]) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 374

[3]) الأعلاق النفيسة لابن رستة ص 332

بسائط تلك الزروع، وسوارح تلك المواشي. وبإزائه نخل خاصٌّ به ويجري من النيل خليج طويل المدى، كأنه السيف النقيّ من الصدى، ينتهي إلى مَلَقةٍ متسعة، وبركة فيها أمداد المياه متجمعة، شرقيّ الدير. يفصل بينهما الطريق ويطلّ على هذه المَلَقَة رابية عليه، قد تكونت من فضلات التُّرع المحفورة والجسور المستجدّة لا يُرى مثل نزاهته في زمن الشتاء والربيع: يتضاحك في جنباته النُّوَّار، وتخضَرُّ فيه شقاق الزروع، وتكثر فيه مصائد الطير، ويكون من الحسن في غاية تملأ البصر، وتزيد على الخبر. ومررنا به صحبة السلطان ونزلنا على تلك الرابية. وأشرفت على البركة وفيها قارب يصاد فيه السمك، ومرّت الأطلاب مُزَيَّنَةُ الترك وجياد الخيل. فسُئِلت أن أعمل في مثل هذا شيئا، على رسم ما يقال في الديارات. فقلت:[1]

يوْمٌ لنا بالدَّيْر، دير الأبيضِ ... قد انقضى وطِيبُه لم ينقضِي.

قد جئْتُه في العَسْكر المنصُور ... فغلّق الأبوابَ كالمحصُورِ.

ونزل الرُّهْبانُ بالدّبُّوسِ ... فيه إلى قَرَارة الدَّيْمُوسِ

واطَّلَعَتْ نَحْوِي هُناك رابيهْ ... تيَّاهَةٌ على الوِهَاد آبيَهْ

قد خضعَتْ من جانِبَيْها الوُهْدُ ... كأنّها فَوْقَ الصُّدُورِ نَهْدُ

كأنّما تَطْلُب منّي المَأْتى ... هذا وقد وَلَّى زمانُ المَشْتى

وللربيع مُذْ أتى اعتِدالُ ... وللنَّسِيم بينَهُ اعتِلالُ

والشمسُ قد دَبَّ بها السِّقامُ ... واليومُ لم يَبْقَ له مُقامُ

والليل قد هيَّأ صفَّ عَسْكرِهْ ... وإنّما مَعْروفُه في مُنكَرِهْ

والجوُّ في ردائِهِ المُصَنْدَلِ ... والأرضُ تُذْكى باشتعالِ المَنْدَلِ

ومُجْمِرُ الشَّقيقِ فيها مُوقدُ ... وشُعَلُ البَهارِ فيها تُوقَدُ

وزَهَرُ الفُول ادَّعى بالحقّ ... شبيهَ أذنابِ الدَّجاج البُلْقِ

وزَهَرُ الكَتَّان كالبَنَفْسَجِ ... ومِثله لولا ذَكِيُّ الأَرَجِ،

تَبْدُو على أعطافه التَّرافَهْ ... ذو هَيَفٍ في شَكْلِهِ ظَرَافه

[1]) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 374-384

كأنّه في مائه الممتَزِجِ ... زَبَرْجَدٌ رُصِّعَ بالفَيْروزَجِ

وسائرُ الزرعِ شِقاقٌ خُضْرُ ... وبعضُها لها طِرازٌ نَهْرُ

والنخلُ حولَ الدير كالعرائِس ... مَجْلُوَّةً في فاخِرِ المَلابِس

كأنه مشَمِّراً فِي هِمَّهْ ... صفٌّ وُقُوفٌ حولَه في الخِدْمَهْ

وَثَمَّ من باقِي مُدودِ النِيلِ ... ماءٌ شبيهُ الصارِمِ الصَّقِيلِ،

وَافَتْ إليهِ خُلُجٌ مُفَرَّقَهْ ... واجتمعَتْ جميعُها في مَلَقَهْ:

دائرةٍ قَوراءَ مثلِ الأُفُقِ ... تأوِي بها حِيتانُها في نَفَقِ

صافيةٍ كمثل عَيْنِ الدِّيكِ ... في غاية الصِّقال والتفريكِ

قد وَلِعَتْ فيها الرياحُ بالطُّرَرْ ... فشوّشَتْها ثم سَالَتْ كالغُرَرْ

فسيحة الأرجاء كالميدانِ ... تشُقُّها سَوَابُح الحِيتَانِ

فيها من الأسماك أشتاتٌ تُرى ... تأخُذُ من أنواعهنَّ العنبرَا

فيها من البُلْطِيّ والبُنِّيّ ... مآكلٌ كالرُّطَبِ الجَنِيّ

والبُركةُ الفيحاء فيها قارِبُ ... وفيه صَارٍ للشِّباكِ ضارِبُ

يجري به قارِبُهُ على نَفَسْ ... وَهْوَ بِهِ في الماءِ نارِيُّ القَبَسْ

كأنّما أجْرى به جَوادا ... أسرعَ في الرَّكْضِ وما تَمادى

كأنّه إذا أراد المَرْكَبَا ... صِلٌّ من الحيّات يرقى عَقْرَبَا

يُسَيِّرُ الحِيتانَ وسْطَ الماءِ ... كأنَّها النجومُ في السماءِ

تأتِي إليها بأضاليل الخُدَعْ ... لأَجْلِ ما يأخُذُ منها ويَدَعْ

ولم يزلْ بخفَّةٍ في الحَرَكَهْ ... حتّى انَّهُ يُلْقِي عليها الشَبَكَهْ

وكُلَّ ما يُريدُهُ يَصِيدُ ... يا زَرْعَها آنَ لَكَ الحَصِيدُ

وعَنّض لي سِرْبُ مَهاُ جآذِرُ ... أجفانُها تضُمُّ ما نُحاذِرُ

أقمارُ تُرْكٍ فوقَ شُهْبِ الخيْلِ ... وبَيْنَها أدْهَمُ ضافِي الذَّيْلِ

فجئتُ حتّى صرتُ فوقَ الهَضْبَهْ ... وعاينَت عيناىَ تلك الحَلْبَهْ

ويا لَها من حَلْبَةٍ لا تُلْحَقُ ... تكْبُو وراءَها الرياحُ السُّبَّقُ!

كأنَّها أُفقٌ حوى أقمارًا ... قد طَلَعُوا في أُفْقِها نَهارا

من نَسْلِ خاقانَ وجِنسِ التُّرْكِ ... قد عوَّدوا ألحاظَهم بالفَتْكِ

كم فيهمُ من ساحِرِ الأَجفانِ ... قَيْسِيّ خدٍّ طرفُهُ يَمَانِي!

للهِ إنْ جرَّد أسيافَ الحَدَقْ ... وبدَّد الدِّماءَ في الخدِّ الْيَقَقْ!

فيها مِلاحٌ للعِنَاق خُلِقُوا ... ما بَرَزوا للعين حتّى عُشِقُوا

ومُيَّدُ الأغصانِ ثَمَّ تَسْتَبِقْ ... طوْراً تُخَلِيّ ثُمَّ طَوْراً تَعتَنِقْ

أغصانُ بانٍ أمْ هُمُ غِزلانُ ... أوِالشُّمُوسُ بَلْ هُمُ الوِلدانُ

قد ركِبُوا صوافِنَ السَوَابِقِ ... وافترقوا لكن فؤادَ العاشِقِ

منهم فتىً يهتزُّ كالرُّدَيْنِي ... مَنْ لِيَ منْهث لو قَضَيْتُ دَيْنِي؟

قد أسرجَ الغَمامَ بالهلالِ ... مُطَهَّماً في صِبغةِ الليالي

يَفْرُقُ شَطْرَيْ وجهِهِ بغُرَّهُ ... كَآبَةٌ في وسْطها مَسَرَّهْ

أدهمُ منه في السِّبَاق قد بَدَرْ ... ليْلٌ ولكن فوقَ عِطْفَيْهِ قَمَر

مُبَلْبَلُ الصُّدغِ رخيمُ الدَّلِّ ... أُرِيدُ منه للهوى مُعَلَّي

لهُ من العُجْبِ جُفُونٌ مُطْبَقَهْ ... وآفتِي من العُيُون الضَّيِّقَهْ

لم أرَ مثلَ ثغرِهِ إذ ضَحِكَا ... لقد حكَاه البرقُ لكن ما حَكى

بدرٌ ولا تَفصَحُ لي أسماؤُهُ ... ذو تَرَفٍ يكاد يجرِي ماؤُهُ

مالِي وما للراحِ أو للأكْؤُسِ ... إذ حلَّ لي بندَ القَبَاء الأطلسِ!

وبانَ من ثِيَابه المجَرَّدُ ... كأنَه من فِضّةٍ تُنَقَّدُ

فيا أُخَيَّ إنْ قَضَيْتُ نَحْبَا ... دَعْنِي أموتُ في هواهُ حُبَّا!

أهْونْ بدَمعِ مُقْلَتَيَّ الصَّبِّ ... فقد تعشَّقتُ صَبِيّاً يُصْبِي!

ما الموتُ في هَوَاهُ إلاّ مَحْيَا ... لوْ مُتُّ عِشْقا فيه كنتُ أحْيَا!

لَمَّا أتانِي من بعيدٍ ووقَفْ ... قُمتُ له لِلَثْم أقدام وكَفّْ

وكان قد حانَ غُرُوبُ الشمسِ ... وطلَعَ البدرُ كمثلِ التُّرسْ.

وظَلْتُ أُلهيهِ بأشغال السَّمَرْ ... لعلَّ للّذي فعلتُه ثَمَرْ.

وقلتُ هذا مَنْزِلٌ نَزِيهُ ... ليس له فيما هُنا شَبِيهُ.

يامرحباً شرّفتَ هذا المَوْضِعَا ... وجئتَنا والبدرَ في وقتٍ معَا!

فلو نزَلته هناك أو هُنَا ... عَمَّ بقُرْبك السُّرور والهَنَا

فانزِلْ بنا واقعُد قريباً ساعَهْ ... ولا تخَفْ من فاضِح الشَّنَاعَهْ

فَلانَ لِي جانبُه ثُمَّ ابتسَمْ ... وفاحَ لي طِيبُ رِضاهُ ونَسَمْ

وقال لي أقِمْ حَوَالَيْنَا الحَرَسْ ... وانحطَّ لي كالسَّهْم عن ظهر الفَرَسْ

فقلتُ: ما تقول في ذا إنْ مَسَكْ ... هذا لنا وجابَ من هذا السَّمَكْ؟

ونُوقِدُ النارَ له ليُقْلى ... ومَنْ أتى مُزاحِماً في المَقْلى.

ونأكُلُ السَّلُّورَ والشَّبُّوطَا ... والفرخَ والمَسْلُوخَ والمسْمُوطَا.

هذا كما تضُمُّ أكنافُ السُّفَرْ ... وما تكون منه ألطافُ السَّفَرْ.

فقال لي: دُونَك مَا تُريدُ! ... فكان عِنْدِي باللِّقاء عِيدُ.

هذا وكُنّا قد أَمَرْنَا الطَّاهِي ... بأخْذِ تلك الجِلَّة الزَّوَاهي.

فأتقنَ الجميعَ بالتنظيف ... وزانَها في الوضع والتصفِيف.

وحَطَّ عن أجسامها الجَوَاشنَا ... وأظهرَ الجَمَالَ والمَحَاسنَا.

وأقتدَحَ النارَ من الزِّنَادِ ... مِثلَ اصطِكاك البَرْقِ في العِهادِ.

يطيرُ من جانبِها شَرَارُ ... هلْ منه للرُّمّانة انتثارُ.

يُؤَرِّثُ المَوقِدَ جُلَّ نارِ ... كأنّها شُبَّتْ بجُلَّنَارِ.

وبعدَ هذا صفَّف المَقالِي ... وكلُّنا نُحِبُ ذاك القالِي.

وسكَبَ الدّهانَ في الطِّنجيرِ ... كمثل بسْطِ الظِّلِّ في الغديرِ.

ثُمَّ قَلى في الطاجن الأسماكَا ... لولا قليلٌ، لقَلى السِّماكَا.

ونضَّدَ الصُّحُونَ ثُمَّ صفّفا ... سبائكاً من النُّضَار قد صَفَا.

أعادَها بعدَ الُّلَجَيْنِ عَسْجَدَا ... صَفَّرَ ألْواناً لها وَوَرَّدَا.

وجاء بالمِلح وبالأَبزارِ ... سكَارجَا تروق للأَبصارِ.

مصوفةً لنا على مقدارِ ... كدِرْهَمٍ صُفَّ إلى دِينارِ.

وصَبَّ من أطاييب الأَصْلاصِ ... حقائباً مسدودةَ العِفَاصِ.

من حامِضٍ مُطَيَّبٍ ومُزّ ... وغيرِ ذا ذلك من كُلِّ حمض يجزِي.

ونَضَّدَ البُقولَ في الأَطباقِ ... مثلَ الحَرِيرِ لُفَّ في الأوراقِ.

ووَضَعَ الكِماجَ والرُّقَاقَا ... حتّى استدار حولَها نِطاقَا.

وجاءَ بالفُقَّاعِ والمشرُوبِ ... يَهُمُّ في الكِيزان بالوُثُوبِ.

ومْنهُ في إنائه مسكوبُ ... كأنَّه من ذَهَبٍ مصبوبُ.

وقَرَّبوا الحَلْوَاء مِلْءَ الجَامِ ... كمثلِ قُرص الشمس بالتَمامِ.

فقال لي وَزْنُ سُرُوري وقَسَطْ ... لأَنَّ مَنْ أحببتُهُ قد انْبَسَطْ.

ومدّ عندي يَدَهُ ثُمَّ أَكَلْ ... ثُمَّ تنقَّلها بمنهوب القُبْلَ.

فكْمَ أصبْنَا منه ما أردنا ... ولو نشاء بعدَ هذا زِدْنا!.

ثم أدَمْنا حمدنا والشكرا ... وهْوَ بما جاد عليها أدرى.

ثم أتانا الطَّستُ والغَسُولُ ... كأنّه بعنبرٍ مجبولُ.

ثم تلاه الطِّيبُ والمِنديلُ ... يا حبَّذا ما حَبَّه الرسولُ.

حتّى إذا ما نَزلَ السلطانُ ... واشتغل الغَوْغاء والغِلْمانُ.

ونام كلٌّ مستِكنًّا في الخِيَمْ ... ونَكَّرَ الآفاقَ جِلبابُ الظُّلَمْ.

وأمِنَ الراهبُ والقِسِّيسُ ... وانشقَّ عن موتاهُمُ الناوُوسُ.

وأوقدوا في البِيعة القِنديلا ... ورَجَّعوا المِزْمارَ والإنجيلا.

وزيّنوا الهَيْكلَ بالقُرْبانِ ... وصفَّفوا الشُّمُوع والقَنَاني.

وسَكَبُوا الصهباء في الإبريقِ ... صفراءَ أو حمراءَ كالعقيقِ.

وصبّها في الكاس مثلَ اللَّهَبِ ... ممتدّة مثل شَريط الذهبِ.

يسعى بها مُقَرْطَقٌ مُزَنَّرُ ... شِبهُ الغزال الخِشْفِ أحْوى أحورُ.

مِن فِتْيةٍ داموا على الإنجيلِ ... مَنْ لي بهم لو أنّهمْ من جِيلي.

وبعضهم دبَّ له عِذارُ ... كأنّه من صَدِّه اعتذارُ.

وفيهمُ ذاك الغَزَال النافرُ ... خليفةُ المِلاَح وهْو الظافرُ.

لما بدأ منه الصَّباح السافرُ ... تستَّر الليلُ فقيل الكافرُ.

أو بِنْتُ قِسِّيس عليها مِسْحُ ... كالليل قد أقبل فيه الصبحُ.

بِمعصَمٍ فيد دَلائَلٌ وتَرَفْ ... كأنَّه من ماءِ خدَّيْها اغترفْ.

فاتنةٌ من الظِّباء العِينَ ... قد ناصبَت بِدِينها لِدِيني.

ماذا أقول في بديع صُنْعِها ... والبدرُ في الظَّلماء حشرُ دِرعها؟

غصنٌ رطيبٌ دبَّ فيه الراحُ ... ومِن جَنى خُدُودها التُّفَّاحُ.

آفةُ كلِّ مسلمٍ وكافرِ ... وفتنةٌ في أوَّلٍ وآخرِ.

يا ما جَرى منها ويا ما يَجْرِي ... مِنَّا ومِنْها من بُكاً وهَجْرِ!

فَمُذْ هَدَتْ عنَّا عيونُ الناسِ ... ثُرْتُ به في غفلةِ الحُرَّاسِ.

وقلتُ، قُمْ حتّى نروحُ في الغَلَسْ ... في خُلْسةٍ، فأطيبُ الطيب الخُلَسْ!

فالدَّيْر قد آن له أن يُفْتَحا ... وكان قد أُغْلِقَ عمداً من ضُحى.

قُمنا إليه تحت سِتر الليلِ ... نوازعاً نَرْمِي على سُهَيْلِ.

وقد علا هيكلهَ القِنديلُ ... كأنّه لرأسه إكليلُ.

وثَمَّ في الدير لنا صَدِيقُ ... منهمكٌ في السُّكْر لا يُفِيقُ.

لكنَّهُ لخوفه قد كانا ... ما شرِب الصَّهْباء حتّى الآنا.

وعنده جميعُ ما نطلبُهُ ... وصوتُ أوتارٍ له تُطرِبُهُ.

وهْوَ إذا تبطَّن السُّلاَفة ... لم تستطعْ مليحةٌ خِلاَفَهْ.

لأنه عرَّف كلَّ راهبة ... بمكره أنَّ الحياة ذاهبة.

وكلُّ ما تريد منه يحصُلُ ... وَفْقَ المُنى مسارعاً يستعجلُ.

فانهضْ وقُمْ وطِبْ ولا تُوَنِّي ... واقتُلْ بما شئتَ سِوى التجَنِّي!

فقم بنا انهضْ وَدعِ العُذّالا! ... كم ذا القُعودُ هكذا كُسَالى!

لِنَغم الصِّحّة والفَرَاغا ... ونشربَ العُمْرُ لنا ما اساغا!

وما أزَلْ بِهِ بِهِ حتّى نَزَلْ ... شاباشُ لِي! صِدْتُ الغَزَالَ بالغَزَلْ!

خدعتُه فأنطاع لِي الغُلامُ ... وكان ما قد كان، والسلام!

وبِتُّ مسرورا بذاك الحِشْفِ ... وفوق ما وصَفْتُ منه المَخْفي.

وكان لي غُلَيِّمٌ ظريفُ ... حُلْوُ الكلام فَكِةٌ خفيفٌ.

جميعُ ما يقوله مُجُونُ ... ما كان مثلهُ وما يكونُ.

حديثهُ ليس عليه من حَرَجْ ... لنا هـ الفالُ وقد سُمِّي فَرَجْ.

قلت له: كأنَّني ممن نَدِمْ ... لأجل ذاك الظْبِي لمّا أَنْ طَعِمْ.

ويْحكَ لْمِ أطعمتُ هذاذا السمكْ! ... فقال: لولاه لما كان انمسَكْ!

جعلتُه لصيده كالفَخّ ... لأجل ذا أبصرتَه مُسْتَرْخِي.

يا شاطرَ البلاد أنت القيِّمُ ... فعلتَ ما لا تستطيع الأسهُمُ!

لا شكَّ قد أتقنتَ على السِّحرِ ... وصِدْتَ صيدْ البَرِّ بعد البحرِ!

ومما قلته فيه:

وبالديرِ يومٌ أبيضٌ لِي كاسمِهِ ... وقد طَلَعَتْ من جانب الدير أقمارُ.

وقد جُلِيَتْ في الكأس صهباءُ مُزَّةٌ ... تَكَشَّفَ منها في الدُّجُنَّةِ أستارُ.

وبالدير دَيْرانِّيةٌ بَرَزَتْ لنا ... فتمَّ لنا فيه حديثٌ وأسمارُ.

جَلَتْها كأنَّ الطُّورُ جانبُ كأْسِها ... وإلاَّ رُبى دَارِينَ من دُونِها دار.

وقلت:

ولم أَنْسَ بالدير يوماً لنا ... وعيْشُ السُّرور بهِ يُنْتَهَبْ!

ففضَّضَ أبكاَره بالُّلجيْنِ ... وموَّهَ آصالَهُ بالذهبْ!

وكأسُ المُدَام علينا تَطُوف ... بحمراءٍ صافيةٍ كالَّلهَبْ.

يطوفُ بها من بَنَاتِ القُسُو ... س باخلةُ الكَفِّ ليستْ تَهَبْ.

مُبَتَّلةٌ بين رُهْبانها ... لألحاظِها في حَشَانا رَهَبْ.

مسيحيَّةٌ طَلَعَتْ في المُسوح ... كصبحٍ أَطَلَّ وليلٍ ذَهَبْ.

وقد غاب عَنَّا عِيانُ الرقيب ... وجاد الزمانُ بما قد وَهَبْ.

فَرَشْفُ اللَّمى خُلَسٌ بيننا ... وعضُّ الخُدُود لديْنا نُهَبْ.

ويضيف ياقوت الحموى الرومى عن الأديرة البيض: الديرة البيض هما ديران أطلق عليهما لفظ الجمع نزهان بالصعيد من أرض مصر في الجانب الغربى من نيلها فيها رهبان كثيرون

يقصدهما الناس لنزاهتهما ولهما عيد واحد في اليوم الحادى والعشرون من بؤونة وهذان الديران في موضع واحد يحيط بها سور له أربعة أبواب[1]

ويذكر ابن أيبك الدوادراى: أنه نقل جزء من تاريخه نقله من كتاب قبطى وقع له لما توجه ... إلى الوجهه القبلى بسبب ترميم الكنائس والأديرة فوجد هذا الكتاب فى الدير الأبيض الذى مقابل سوهاى وكان به رجل راهب فاضل يقال له: برصوما ولما تجارينا فى أمر تاريخ مصر أحضر هذا الكتاب وقرأه علىّ وفسره بالعربى فأستنسخت منه لى طول مدة إقامتى بهذا الدير[2]

1) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص253

2) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدواداري ج2 ص102-103

دير ريفة

وهو بصعيد مصر، فوق سيوط، لا ببعيد. على الجبل الغربيّ المطلّ على ريفة وهناك عدّة ديارات. المشهور أكبرها. والبقية كالقلاليّ وهو من الأبنية القديمة المحكمة ولأهله رزق من أطيان تُزرع وتستغلُّ. جارية بتواقيع السلاطين، ثابتة في حساب الدواوين وهو دير مذكور وله أخبار[1]

كنيسة أسفل الأرض

كنيسة أسفل الأرض وهى مدينة على مدينة ليس على وجه الأرض من هذه الصفة سواها ويقال أنها أرم ذات العماد وسميت بذلك لأن عمدها ورخامها الأصفنديس المخطط طولاً وعرضاً[2]،كنيسة أسفل الأرض كانت بظاهر الأسكندرية عمارتها عجيبة[3]

دير الخندق

ولما بنى جوهر الصقلى القصر وحفر أساسه أول ليلة نزوله القاهرة أدخل فيه دير العظام وهو المكان المعروف الآن بالركن المخلق قبالة حوض الجامع الأقمر قريب بئر العظام والمصريون يسمونها بئر العظمة ونقل جوهر العظام التي كانت في الدير المذكور والرمم إلى دير بناه في الخندق فدفنها لأنه يقال أنها عظام جماعة من الحواريين وبنى مكانها مسجداً من داخل السور[4]، وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة هـ وفيه هدم دير الخندق خرج باب الفتوح من القاهرة، واجتمع لهدمه عالم كثير، وكان يوماً مشهوداً.[5]، ويذكر ابن السخاوى: جامع الأقمر وهذا الجامع أمر بإنشائه الخليفة الآمر بأحكام الله بن المستعلى بالله سنة سبع عشرة وخمسمائة.

ويذكر ابن أيبك الدوادارى: لما بنى جوهر القصر أدخل فيه دير العظام وهو الآن المعروف بالركن المخلق قبالة حوض جامع الأقمر وبقربه بئر العظام والمصريون يقولون بئر العظمة

---

[1]) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى ص 384

[2]) نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس ص 44، وأيضاً الالرحلة الورثيلانية لابن محمد الورثيلاني ج2 ص656

3) الإشارات إلى معرفة الزيارات ص 49

4) الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة لابن عبد الظاهر ص 15

5) السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 ص223، أيضاً تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لابن عبد الظاهر ج1 ص58

فكره جوهر أن يكون فى القصر دير فنقل العظام التى كانت به والرمم إلى دير فى الخندق لأنها يقال أنها عظام جماعة من الحواريين وبنى مكان الدير مسجداً من داخل القصر[1]
ثم أمر السلطان الظاهر برقوق بتجديده والذى قام بذلك يلبغا السالمى الخاصكى فى شهر رمضان سنة تسع وتسعين وسبعمائة. وله بئر قديمة كانت داخل دير وكنيسة تسمى بئر العظام[2]

كنيسة ناحية بو النمرس

في شهر رمضان سنة ثمانين وسبعمائة هـ كانت واقعة كنيسة ناحية بو النمرس من الجيزة وذلك أن رجلاً من فقراء الزيلع بات بناحية بو النمرس، فسمع لنواقيس كنيستها صوتا عاليا، وقيل له إنهم يضربون بنواقيسهم عند خطبة الإمام للجمعة، بحيث لا تكاد تسمع خطبة الخطيب، فوقف للسلطان الملك الأشرف شعبان، فلم ينل غرضا، فتوجه إلى الحجاز وعاد بعد مدة طويلة، وبيده أوراق تتضمن أنه تشفع برسول الله وهو نائم عند قبره المقدس في هدم كنيسة بو النمرس، ووقف بها إلى الأمير الكبير برقوق الأتابك، فرسم للمحتسب جمال الدين محمود العجمي أن يتوجه إلى الكنيسة المذكورة، وينظر في أمرها، فسار إليها وكشف عن أمرها، فبلغه من أهل الناحية ما اقتضى عنده غلقها، فأغلقها، وعاد إلى الأمير الكبير وعرفه ما قيل عن نصارى الكنيسة، فطلب متى بطريق النصارى اليعاقبة وأهانه، فسعى النصارى في فتح الكنيسة، وبذلوا مالاً كبيراً، فعرف المحتسب الأمير الكبير بذلك، فرسم بهدمها بتحسين المحتسب له ذلك، فسار إليها وهدمها، وعملها مسجداً[3].

حص بابليون

يذكر أن هذا القصر قد بنى بعد خراب مصر على يد بخت نصر ملك الفرس وكان هذا القصر يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر وذلك أنه إذا حلت الشمس في برج من البروج أوقد في تلك الليلة الشمع على رأس ذلك القصر فيعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس قد انتقلت من البرج الذى كانت فيه إلى برج آخر غيره وقد عرف بقصر الشمع لأنه كان له باب

1) كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى ج6 ص139-140
2) تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات لابن السخاوى ص 57
3) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 2 ص 319، وأيضاً تاريخ ابن قاضي شهبة ج3 ص577-578

يقال له باب الشمع[1]، و كان حصول الكنيسة المعروفة بكنيسة البطريرك داخل قصر الشمع لأرسانيوس الراهب الرومى أخو زوجة أمير المؤمنين بو منصور نزار العزيز بالله وهى كنيسة مرتمريم يوم الجمعة مستهل جمادى الأول سنة 370هـ الموافق الجمعة 11 نوفمبر سنة 980م وقدست النصارى الملكية فأغتسل مذبحها ومُسحت بالميرون وزالت عن اليعاقبة[2]

وفى سلخ شهر جمادى الآخرة سنة ست وثمانون وسبعامئة هـ ركب الأمير سودون النائب وصحبته قضاة القضاة الأربعة وتوجه إلى مصر العتيقة وكشف عن الكنيسة المعلقة التى بقصر الشمع وأمر بهدم ما أستجده النصارى من البناء بها[3]

وفى سنة احدى وخمسين وثمانمائة هـ وفيه أمر السلطان بهدم كنيس النصارى الملكيين بقصر الشمع من مصر العتيق بسبب قيام السيد الشريف النعماني في ذلك وجرت أمور يطول الشرح في ذكرها، وعقد بسبب ذلك مجلس يطول الكلام عليه وفيه بعد هدم هذه الكنيسة نقل جميع أنقاضها إلى المسجد المجاور لها المعروف أولا بالطليحي، ثم بالسيد الكبير أبي عبد الله بن النعمان المالكي، وكان قد تشعت ومالت منارته فجدد بناؤه من أحسن الأبنية، ونقل إليه جميع عدد الكنيسة من آلات نحاس وغير ذلك. وجعل كرسي البطرك الذي كان يجلس عليه في أعيادهم منبرا له، وكان عاليا جدا فاختصر منه المنبر، ووقف عليه السلطان وقفا جيدا، وجعل إمامه الشمس الحمصي المقري، إمام الجامع الطولوني الآن في عصرنا الذي نحن فيه، وشيخ الإقراء بالشيخونية، رحمه الله تعالى[4]، وفى سنة اثنين وأربعين وثمانمائة هـ وفيه هدم جانب من الكنيسة المعلقة بمصر وقد حضر القضاة ومعهم إذن من جهة السلطان[5]، وفى سنة ست وثمانين وسبعمائة وفي أواخره ركب سودون الشيخوني نائب السلطنة ومعه قضاة القضاة إلى مصر لكنيسة المعلقة بقصر الشمع فكشفت وهدم منها ما استجده النصارى بها من أبنية[6]

---

1) الخطط المقريزية ج1 ص 792

2) تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ص 463-464

3) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس الحنفى ج 1-2 ص 348

4) نيل الأمل فى ذيل الدول للقفطى ص 236

5) نيل الأمل فى ذيل الدول للقفطى ص 59

6) نيل الأمل فى ذيل الدول للقفطى ص 217، نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ج 1 ص 98

كنيسة القديس مارمرقس بالأسكندرية

مازال يوجد بين سكان الأسكندرية عدد كبير من أولئك المسيحيين الذين يدعون اليعاقبة لهم كنيسة خاصة بهم أعيد بناؤها عدة مرات وبقيت إلى يومنا هذا وقد دفن فيها رفات القديس مرقس الإنجيلى الذى اختطفه غدراً عام 857 م تجار من البندقية وحملوه إلى هذه المدينة وهؤلاء اليعاقبة كلهم تجار وصناع يؤدون الجزية إلى ملك القاهرة[1]

هناك خبر آخر ذكره ابن شداد عن هذه الكنيسة في خبر إعتقال الشيخ خضر: في يوم الإثنين ثانى عشر شوال استدعى مولانا السلطان الظاهر الشيخ خضر إلى القلعة وأحضره بين يديه مع جماعة حاققوه على أشياء كثيرة ورموه بالزنا واللواط فتقدم باعتقاله وهذا الشيخ كانت له منزلة عند مولانا السلطان لم يظفر بها أحد وكان قد دخل إلى كنيسة القيامة وذبح قسيسها بيده وعدة كنائس أخرى هدمها وصيرها مسجداً ودخل كنيسة في الأسكندرية عظيمة عند النصارى يعتقدون بها البطركية فنهبها وصيرها مسجداً وسماها المدرسة الخضراء وأنفق في تغييرها مالاً كثيراً من بيت المال[2]، ثم يذكر ابن شداد: وكذلك قصد بالأسكنددرية كنيسة للروم كانت كرسياً من كراسيهم التي يعتقدون فيها البطركية ويزعمون أن رأس يوحنا بن زكريا فيها وصيرها مسجداً وبنى فيها المحاريب وسماها المدرسة الخضراء والسلطان موافق له على جميع ما يعتمده[3]

ناحية أسيوط

وفى خارج المدينة دير مسيحى يعيش فيه أكثر من مائة راهب لا يأكلون لحماً ولا سمكاً وإنما يتغذون بالخبز والخضر والزيتون ويصنعون مأكولات لذيذة لا يدعل فيها أي شحم وهذا الدير غنى ومن عاداته أن يطعم كل غريب عابر سبيل يضيفه ثلاث أيام ويربى لهذا الغرض كثيراً من الدجاج والحمام[4]

ويذكر أنه الحسن بن الوزان أن أسيوط كان فيها نحو مائة من دور المسيحيين وثلاث أو أربع كنائس وفى خارج المدينة دير مسيحى يعيش فيه أكثر من مائة راهب لا يأكلون لحماً ولا سمكاً وإنما كانوا يتغذون بالخبز والخضر والزيتون ويصنعون مأكولات لذيذة لا يدخل فيها

---

1) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى ج2 ص 196

2) تاريخ الملك الظاهر لابن شداد ص58-59

3) تاريخ الملك الظاهر لابن شداد ص274

4) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى ج2 ص 237

أى شحم وهذا الدير غنى من عادته أن يطعم كل غريب عابر سبيل يضيفه ثلاثة أيام ويربى لهذا الغرض كثيراً من الحمام والدجاج[1]

كنيسة القديسة بربارة

في سنة ثمان عشر وسبعمائة هـ

ناحية جرجا

كانت ديراً مسيحياً في غاية السعة والغنى يسمى القديس جرجس على بعد نحو ستة أميال من المنشية وكانت تحيط به أراضى زراعية فسيحة ومروج ويضم أكثر من مائتى راهب كانوا بدورهم يطعمون الغرباء ويبعثون مما يدخرونه من الموارد إلى بطريق القاهرة ليوزعه على المسيحيين الفقراء إلا أنه منذ مائة سنة أصيبت مصر بوباء الطاعون الذى ذهب بجميع رهبان هذا الدير وبقى المكان خالياً مدة ثلاث سنوات لم يسكنه أحد حتى أن أمير المنشية أخذ في تسويره وبناء دور للتجار والصناع من مختلف الحرف وجاء ليسكنه بنفسه بعد ما استلفت نظره ما فيه من حدائق جميلة على التلال المجاورة لكن بطريق اليعاقبة شكا ذلك إلى السلطان فأضطر إلى بناء دير آخر مكان المدينة القديمة ومنحنه مورداً كافياً يعيش به ثلاثون راهباً عيشة راضية[2]

ويذكر أيضاً الحسن بن الوزان أن جرجا كانت ديراً مسيحياً فى غاية السعة والغنى يسمى القديس جورج وكانت تحيط به أراضى زراعية فسيحة ومروج ويضم أكثر من مائتى راهب كانوا بدورهم يطعمون الغرباء ويبعثون بما يدخرونه من الموارد إلى البطرك بالقاهرة ليوزعه على المسيحيين الفقراء إلا أنه منذ سنة أصيبت مصر بوباء الطاعون الذى ذهب بجميع رهبان هذا الدير وبقى المكان خالياً مدة ثلاث سنوات لم يسكنه أحد حتى أن أمير المنشية أخذ فى تسويره وبناء دور للتجار والصناع من مختلف الحرف وجاء ليسكنه بنفسه بعد أن استلفت نظره ما فيه من حدائق جميلة على التلال المجاورة لكن بطرك اليعاقبة شكا ذلك إلى السلطان فاضطر إلى بناء دير آخر مكان المدينة القديمة ومنحه مورداً كافياً يعيش به ثلاثون راهباً عيشة راضية[3]

---

1) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى ص 236-237

2) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى ج2 ص 238

3) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى ص 238

ناجية ترنوط

يذكر ابن حوقل: ترنوط وهى جانبان متحاذيان جعلت على الخليج وبها منبر في الجانب البحرى منهما وبيع كثيرة وقسيسون ورهبان وأسواق عامرة وحمامات[1]

أديرة بناحية الخيام بصعيد مصر

الخيام مدينة صغيرة شيدت على النيل في العصر الإسلامي لا يسكنها إلا نصارى يعاقبة كلهم فلاحون يربون الدجاج والأوز ولهم أيضاً عدد لا يحصى من الحمام بحيث لو أعطيتهم قطعة نقدية تساوى نحو باوتشيين لباعوك بها عشرة طيور وهناك بعض الأديرة المسيحية التي تقدم الطعام للغرباء كذلك ولا وجود لمسلم في هذه المدينة باستثناء الوالى وأسرته[2]

كنيسة للروم بناحية بدرسانة

ومن العجائب المذكورة بأرض مصر في قرية يقال لها بدرسانة كنيسة قديمة للروم فيها بيت يصعد إليه في نيف وعشرين مرقى، وهناك سرير عليه صبى ميت وتحت السرير صورة ثور عظيم من زجاج في جوقة باطية زجاج فيها أنبوبة نحاس موضوع فيها فتيل كتان ويصب عليه يسير زيت فما تلبث أن تمتلئ الباطية من الزيت حتى يفيض إلى جوف الثور فيأخذ قيم الكنيسة ذلك الزيت دائماً فيسرج منه قناديل الكنيسة كلها ولا ينقطع نماؤه وزيادته على مرور الدهور والأيام فإن أزيل الصبى الميت طفيت النار ولم يفض الزيت فإذا أعيد عاد الزيت إلى ما كان عليه وقد سار إلى هذه الكنيسة جماعة رأوا ذلك وأفرعوا الباطية ثم أسرجوها بيسير من الزيت ففاضت وبدا منها ما ذكرنا[3]

كنيسة القديسة بربارة بحارة الروم

في سنة ثمان عشر وسبعمائة هـ وفيه سأل النصارى في رم جدران كنيسة بربارة بحارة الروم، فأذن لهم السلطان في رمها. فاجتمع لعمارتها جماعة كثيرة من النصارى، وأحضر الأقباط لهم الآلات، وأقاموا على عملها عدة من المسلمين شادين ومستحثين، فجاءت

---

1) المسالك والممالك لابن حوقل ص 90

2) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى ج2 ص 239

3) الاستبصار في عجائب الأمصار ص 63-64

كأحسن المبانى. فشق ذلك على جيران الكنيسة من المسلمين، وشكوا أمرها إلى الأمير أرغون النائب والفخر ناظر الجيش، وأن ذلك وقع بجاه كريم الدين الكبير وكريم الدين الصغير، ورفعوا عدة قصص إلى السلطان بدار العدل. فساعد النائب والفخر عند قراءة القصص في الإنكار على بناء الكنيسة، إلى أن رسم لمتولي القاهرة على علم الدين سنجر الخازن بخراب ما جدد فيها من البناء، فنزل إليها علم الدين، واجتمع إليه من الناس عدد لا يحصيه إلا الله، وهدم ما جدد فيها، ومضى لسبيله. فقامت طائفة من المسلمين وبنوا الجانب الذي هدم محراباً، وأذنوا فيه أوقات الصلوات، وصلوا وقرأوا هناك القرآن، ولزموا الإقامة فيه. فحنق النصارى من ذلك، وشكوا أمرهم إلى كريم الدين، فرفع كريم الدين ذلك للسلطان، وأغراه ممن فعل ذلك، وأنه يريد نهب النصارى وأخذ أموالهم، وشنع القول. فرسم السلطان للخازن بهدم المحراب وإعادة البناء، وقبض أهل حارة الروم وعملهم في الحديد، فلما توجه الخازن لذلك اجتمع الناس وصاحوا به، فساس الأمير وتركهم، وأهمل ذلك الموضع حتى صار كوم تراب.[1]

كنيسة شبرا الخيام

في سنة ثلاث وثمانمائة هـ خرج الأمير يلبغا السالمي إلى شبرا الخيام - من ضواحي القاهرة - وكسر بها من جرار الخمر أربعة وأربعين ألف جرة، وأراق ما فيها، وخرب بها كنيسة للنصارى. وعاد في أخره ومعه عدة م أحمال من جرار الخمر، فكسرها عند باب زويلة وتحت القلعة. ومن حينئذ تلاشى حال أهل شبرا ومنية الشيرج، فإن معظم أموالهم كان من عصير الخمر وبيعه[2]. ويذكر ابن الصيرفى عن مكان هذه الكنيسة : أنه فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة أربعون وثمانمائة للهجرة، برز المرسوم الشريف للأمير جانى بك الأستادار أن يتوجه إلى شبرا الخيام من بلاد الضواحى التى فى الديوان المفرد[3].

وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة هـ وفيه كان هدم كنيسة شبرا الخيام، وحرق إصبع الشهيد ذي يزعمون النصارى أنه من الأمور العظيمة. وأن النيل لا يجري إلا إذا ألقي به ثم أخرج، فعارض صرغتمش في ذلك بعد أن استأذن السلطان فيه، وأعلمه أن في هذا الإصبع من الفتن والفساد ما لا يحصى، فأذن له بهدم الكنيس وحرق الإصبع، فركب هو والوالي

---

1) السلوك لمعرفة دول الملوك ج 1 ص 412

2) السلوك لمعرفة دول الملك ج 3 ص 23

3) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، للخطيب الجوهرى على بن داود الصيرفى جـ 3 ص 382

وحاجب الحجاب إلى ذلك، وكان يوما مشهودا، هدم فيه الكنيس عن آخره، ومن جملة أحجاره أنشأ شيخو جامعه، بل ومن جملة ذلك ما دخل به في عمارة خانقاته. وأخذ الصندوق الذي فيه الإصبع وحمل إلى بين يدي السلطان وهو بالميدان فأضرم النار وأحرق الصندوق، فأخذ النصارى يشيعوا بأن النيل لا يحصل منه الوفاء في هذا العام، فزاد زيادة خارجة عن الحد على ما سيعرف ما حصل من زيادته. وبطل الشهيد وما كان يحدث في يوم حمله لإلقائه بالنيل من المفاسد والاجتماعات ومنع الخمور والتظاهر بها بناحية شبرا. وكان يفعله المسلمون للنصارى ذلك اليوم من خروجهم إلى هناك، وصار في صحائف صرغتمش[1]
وفى سنة أربعين وثمانمائة هـ وفيه كان هدم كنيسة النصارى التي بشبرا الخيام، بعث إليها السلطان جانبك الأستادار في طائفة فهدموها، ونهب ما كان بها من الحواصل، وأحرقت عظام رمم كانت بها تزعم النصارى أنها عظام شهداء منهم[2]

دير مرقص والفتح العربى

حدثنا نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار وقال: يا عم اعلم أن ألله أراد أمراً هيأ أسبابه وذلك أننا لما أشرفنا على أول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديراً عامراً بالرهبان فلما نزلنا عليه أشرف علينا أهله وقالوا: من أنتم؟ قلنا: نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فأنه قد أرسل إلينا يستفزنا لأجل هؤلاء العرب. قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدم عليهم في دينهم شيخاً كبيراً وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدينهم وكان اسمه نونلس وأن المسلمين لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس بأمواله وأولاده إلى طرابلس وركب البحر في مركب وتوصل إلى مصر وبلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن حاله فحدثه بأمره فخلع عليه وجعله قيماً في الكنيسة المعلقة التي في قصر الشمع وصار من أصحاب سكناه في دير مرقص ولا يدخل مصر إلا في أمر مهم، فلما نزل عمرو بمن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج إلى رأى البطرك (الملكى) فأرسل إليه وأنزله في الكنيسة وولى البطرك مكان هذا القس نونلس بن لوقا فكان في الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير، فلما سمع الرهبان نزلوا وفتحوا الباب وسلموا لنا القس فعرض عليه خالد بن الوليد الإسلام فرفض وقال له

1) نيل الأمل في ذيل الدول للقفطى ص 268
2) نيل الأمل في ذيل الدول للقفطى ص 422

القس: أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعنى المسيح في أيديكم فأفعل ما أردت، فضربوا عنقه[1]

دير الزجاج

حدثنا ابن إسحق قال: حدثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزي عن سلمة عن عبد الله بن المبارك عن عبد العزيز عن أبيه قال: لما أخذت النصارى حلل دوس وضرار بن الأوزر وأخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقي إلى إسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد قتلهم فقال له أرباب دولته: أيها الملك لا تعجل عليهم واعلم أن العرب متوجهة إلينا ولا بد لنا من قتالهم فإن أسر أحد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نفادي به ولعل أن نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال: ادفعوا هؤلاء الأسرى إلى دير الزجاج وأرسل معهم ألفي فارس يوصلونهم إلى الدير فجاءت عيون خالد بن الوليد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد إلى الدير قبل وصول الأسارى ومن معهم فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه فباحًا وكان تلميذًا لبحيرا راهب بصرى وكان مؤمنًا بالله

فقال له خالد: يا راهب كيف ترى الدنيا.

قال: تنحف البدن وتجدد الأمل وتقرب المنية وتقطع الأمنية

قال: فما حال أهلها

قال: من نال منها شيئًا نفضته ومن فاته منها شيء حسرته

قال: فما خير الأصحاب فيها

قال: العمل الصالح والتقي

قال: فما شر الأصحاب فيها

قال: اتباع النفس والهوى

ثم قال خالد: كيف طابت لك الوحدة

قال الراهب: ألفتها

قال خالد: فهل نلت منها فائدة

قال الراهب: نعم الراحة من مداراة الناس

قال خالد: أعندك خبر بالعرب الأسرى الذين أرسلهم الملك هنا

---

1) فتوح الشام للواقدى ج2 ص57-59

قال الراهب: لا والله ولكن مر بي البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتما فقالا: من الإسكندرية وإننا رسل الملك كيماويل صاحب أرض برقة وأنه أرسلنا إلى ملك القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة وإذا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك.

ثم قال الراهب لخالد: لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام

قال خالد: نحن هم

فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد والقعقاع ورفاعة وترك بقية العسكر محيطة بالدير ومضوا إلى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا إليه وإذا بالبطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح وقد قصد إلى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين فنزل على العين وصاح بغلمانه فأتوا إليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر وقال لهم: هاتوا المسلم فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر فلما رآه قال له: أنت قد غلبتني بتجلدك على العذاب وحق ديني لا أرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك إلى ديني

فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين ولم يكن لأهل الدير شرب إلا من تلك العين فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير وقالوا: ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم وقد نهاكم نبيكم عن قتل الرهبان فقال خالد: سلموا لنا مال هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نترككم في ديركم ففتحوا لهم وسلموا لهم جميع موجوداته وأخذوا الأسير وساروا وسأله خالد بن الوليد من أين أنت فقال: أنا أمية بن حاتم أخو عدي وقد أخذني هذا في أواخر أيام أبي بكر الصديق فإني كنت طالب برقة مع قافلة ومعي بضاعة نأخذها وأخذني

قال: فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم إلا والراهب صاح وقال لهم: استعدوا للقاء عدوكم فإنهم قربوا منكم فتجهزوا للقاء العدو وإذا بهم قد أقبلوا وضجيج الأطفال وبكاء الناس وأنين الرجال وصراخ المأسورات وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم وزئير الفرسان وهفيف الصلبان والعربيات تنادي بالويل والهوان وخولة بنت الأزور على مقدمة الأسارى وهي تنادى خالد

فلما سمع خالد نداءها قال: لبيك يا بنت الأزور قد جاءك انفرج ذهب عنك الحرج فأطبقوا على القبط فما كان ببعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفًا وثلثمائة وخلصوا الأسرى وسلموا على ضرار وهنئوه بالسلامة وودعوا الراهب بعدما كتب له خالد كتابًا بأن له من

طعام الإسكندرية صاعًا ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته ثم إنهم ساروا طالبين الإسكندرية وهم سائقون الأسرى من القبط بين أيديهم[1]

وهناك دليل أن دير الزجاج استمر موجوداً حتى القرن الثالث عشر الميلادي فقد ذكره ابن االتجاني فى رحلته فيذكر: يقول أبو يحيى ابن مطروح عندا قدم إلى الأسكندرية لوقفة عند باب البحر ضاحية أو باب هوارة أو موقف الغنم أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج وشاطئ بركة الخدم[2]

الكنيسة التي بارجنوس

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا، بها كنيسة بظاهرها، فيها بئر يقال لها بئر سيرس صغيرة، لها عيد يعمل في اليوم الخامس والعشرين من بشنس أحد شهور القبط، فيفور بها الماء، عند مضي ست ساعات من النهار حتى يطفو، ثم يعود إلى ما كان عليه، ويستدل النصارى على زيادة النيل في كل سنة، بقدر ما علا الماء من الأرض، فيزعمون أنّ الأمر في النيل وزيادته يكون موافقا لذلك[3].

دير أبي تكموس

في حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وابتدئ بناء جامع راشدة في سابع عشر ربيع الآخر هذا الجامع عرف بجامع راشدة لأنه في خطة راشدة. قال القضاعيّ: خطة راشدة بن أدوب بن جديلة من لخم، هي متاخمة للخطة التي قبلها إلى الدير المعروف كان بأبي تكموس، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى، وقال ابن المتوّج: هذا الجامع فيما بين دير الطين والفسطاط، وهو مشهور الآن بجامع راشدة، وليس بصحيح. وإنما جامع راشدة كان جامعا قديم البناء بجوار هذا الجامع، عمر في زمن الفتح، عمرته راشدة، وهي قبيلة من القبائل كقبيلة تجيب ومهرة نزلت في هذا المكان، وعمروا فيه جامعا كبيراً، وقد حكينا ما تقدّم عن المسبحيّ وهو مشاهد ما نقله من بناء الجامع المذكور في موضع الكنيسة بأمر الحاكم بأمر الله، وقال ابن أبي طيّ في أخبار سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في كتابه تاريخ

1) فتوح الشام للواقدى ج2 ص69-72

2) رحلة التجاني ص245

3) المواعظ والاعتبار ج1 ص 376

حلب: كانت النصارى اليعقوبية قد شرعوا في إنشاء كنيسة كانت قد اندرست لهم بظاهر مصر في الموضع المعروف براشدة، فثار قوم من المسلمين وهدموا ما بنى النصارى وأنهي إلى الحاكم ذلك، قيل له إنّ النصارى ابتدأوا بناءها، وقال النصارى إنها كانت قبل الإسلام، فأمر الحاكم الحسين بن جوهر بالنظر في حال الفريقين، فمال في الحكم مع النصارى، وتبين للحاكم ذلك، فأمر أن تبنى تلك الكنيسة مسجدا جامعا، فبنى في أسرع وقت، وهو جامع راشدة. وراشدة اسم للكنيسة، وكان بجواره كنيستان إحداهما لليعقوبية والأخرى للنسطورية، فهدمتا أيضا وبنيتا مسجدين، كان في حارة الروم بالقاهرة آدر للروم وكنيستان لهم، فهدمتا وجعلتا مسجدين أيضا، وحوّل الروم إلى الموضع المعروف بالحمراء وأسس الروم ثلاث كنائس عوضا عما هدم لهم، وهذا أيضا مصرّح بأن جامع راشدة أسسه الحاكم، وفيه وهم لكونه جعل راشدة اسما للكنيسة[1]

كنيسة بناحية شبرا الخيمة

ركب الملك الناصر فرج بن برقوق في صفر سنة ثلاث وثمانمائة إلى ناحية المنية وشبرا الخيمة من الضواحي بالقاهرة، وكسر منها ما ينيف على أربعين ألف جرّة خمر، وخرّب بها كنيسة كانت للنصارى، وحمل عدّة جرار فكسرها تحت قلعة الجبل، وعلى باب زويلة، وشدّد على النصارى، فلم يمكنه أمراء الدولة من حملهم على الصغار والمذلة في ملبسهم[2]

كنيسة المقس

سنة خمس عشرة وأربعمائة، كان ثالث الفتح، فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم، وركب أمير المؤمنين، يعني الظاهر لاعزاز دين الله أبا

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 66-67

2) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 82

الحسن عليّ بن الحاكم بأمر الله، في مركبه إلى المقس، وعليه عمامة شرب مفوّطة بسواد، وثوب ديبقي من شكل العمامة، ودار هناك طويلا وعاد إلى قصره سالما[1]،

كنيسة ابن لقلق البطرك

بعد أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سلطنة مصر، فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وابتدأ بنيانها في آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشرة، وفي عاشر ذي القعدة وقع الهدم في الدور والقصور والمساجد التي كانت بجزيرة الروضة، وتحوّل الناس من مساكنهم التي كانوا بها، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس وأدخلها في القلعة، وأنفق في عمارتها أموالا جمة[2]، قال ابن المتوج في جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط: هذا الجامع عمره السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق بترك اليعاقبة، وكان بها بئر مالحة، وذلك مما عدّ من عجائب مصر أن في وسط النيل جزيرة بوسطها بئر مالحة، وهذه البئر التي رأيتها كانت قبالة باب المسجد الجامع، وإنما ردمت بعد ذلك[3]

1) المواعظ والاعتبار ج 3 ص 257-258

2) المواعظ والاعتبار ج 3 ص 321

3) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 90-91

الكنائس التي خربت أيام الناصر محمد بن قلاوون بالقاهرة

كان بطرف خط السبع سقايات كنيسة الحمراء، وعدّة كنائس أخر بعضها بحكر أقبغا [1]، وحكر أقبغا هذا الحكر بجوار السبع سقايات، بعضه بجانب الخليج الغربيّ، وبعضه بجانب الخليج الشرقيّ، كان بستانا يعرف قديما بجنان الحارة، ويسلك إليه من خط قناطر السباع على يمنة السالك طالبا السبع سقايات، بالقرب من كنيسة الحمراء، وكان بعضه بستانا يعرف ببستان المحلي، وهو الذي في غربيّ الخليج، وكان بستان جنان الحارة بجوار بركة قارون، وينتهي إلى حوض الدمياطيّ الموجود الآن على يمنة من سلك من خط السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، فاستولى عليه الأمير أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأذن للناس في تحكيره، فحكر وبني فيه عدّة مساكن. وإلى يومنا هذا يجبى حكره ويصرف في مصارف المدرسة الأقبغاوية المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة، وأوّل من عمر في حكر أقبغا هذا أستادار الأمير جنكل بن البابا، فتبعه الناس. وفي موضع هذا الحكر كانت كنيسة الحمراء التي هدمها العامّة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاون[2].

كنيسة بومنا: بالحمراء، وتعرف الحمراء اليوم بخط قناطر السباع، فيما بين القاهرة ومصر، وأحدثت هذه الكنيسة في سنة سبع عشرة ومائة من سني الهجرة بإذن الوليد بن رفاعة أمير مصر، فغضب وهيب اليحصبيّ وخرج على السلطان وجاء إلى ابن رفاعة ليفتك به، فأخذ وقتل، وكان وهيب مدريا من اليمن، قدم إلى مصر فخرج القرّاء على الوليد بن رفاعة غضبا لوهيب وقاتلوه، وصارت معونة امرأة وهيب تطوف ليلا على منازل القرّاء تحرّضهم على الطلب بدمه، وقد حلقت رأسها، وكانت امرأة جزلة، فأخذ ابن رفاعة أبا عيسى مروان بن عبد الرحمن اليحصبيّ بالقرّاء، فاعتذر وخلى ابن رفاعة عنهم، فسكنت الفتنة بعد ما قتل جماعة، ولم تزل هذه الكنيسة بالحمراء إلى أن كانت واقعة هدم الكنائس في أيام الناصر محمد بن قلاون على ما يأتي ذكر ذلك، والخبر عن هدم جميع كنائس أرض مصر وديارات النصارى في وقت واحد[3].

كنيسة الزهري: كانت في الموضع الذي فيه اليوم البركة الناصرية بالقرب من قناطر السباع في برّ الخليج الغربيّ، غربيّ اللوق، واتفق في أمرها عدّة حوادث، وذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاون لما أنشأ ميدان المهاري المجاور لقناطر السباع، في سنة عشرين وسبعمائة،

---

1) المواعظ والاعتبار ج 3 ص 205

2) المواعظ والاعتبار ج 3 ص 208-209

3) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 439-440

قصد بناء زريبة على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسيّ، فأمر بنقل كوم تراب كان هناك، وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة، وأجرى الماء إلى مكان الحفر، فصار يعرف إلى اليوم بالبركة الناصرية، وكان الشروع في حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهريّ، وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها، وبجانبها أيضا عدّة كنائس في الموضع الذي يعرف اليوم بحكر أقبغا، ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السدّ خارج مدينة مصر، أخذ الفعلة في الحفر حول كنيسة الزهريّ حتى بقيت قائمة في وسط الموضع الذي عينه السلطان ليحفر، وهو اليوم بركة الناصرية، وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة، وكان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها، وصارت العامّة من غلمان الأمراء العمالين في الحفر وغيرهم في كل وقت يصرخون على الأمراء في طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة، والعمل من الحفر بطال، فتجمع عدّة من غوغاء العامّة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال مرتفع الله أكبر، ووضعوا أيديهم بالمساحي ونحوها في كنيسة الزهري وهدموها حتى بقيت كوما، وقتلوا من كان فيها من النصارى، وأخذوا جميع ما كان فيها، وهدموا كنيسة بومنا التي كانت بالحمراء، وكانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان، وبها عدّة من النصارى قد انقطعوا فيها، ويحمل إليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه، ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة، فوجد فيها مال كثير ما بين نقد ومصاغ وغيره، وتسلق العامّة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشا وجرار خمر، فكان أمرا مهولا.

ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات، كان يسكنها بنات النصارى وعدّة من الرهبان، فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات وكنّ زيادة على ستين بنتا، وأخذوا ما عليهنّ من الثياب ونهبوا سائر ما ظفروا به، وحرّقوا وهدموا تلك الكنائس كلها، هذا والناس في صلاة الجمعة، فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق ومرج الناس وشدّة حركاتهم، ومعهم ما نهبوه، فما شبه الناس الحال لهوله إلّا بيوم القيامة، وانتشر الخبر وطار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل، فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته، فبعث لكشف الخبر، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجري العامّة وإقدامهم على ذلك بغير أمره، وأمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية ويتدارك هذا الخلل، ويقبض على من فعله، فأخذ أيدغمش يتهيأ

للركوب وإذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامّة ثارت في القاهرة وخرّبت كنيسة بحارة الروم، وكنيسة بحارة زويلة، وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامّة قامت بمصر في جمع كثير جدّا وزحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فأغلقها النصارى وهم محصورون بها وهي على أن توخذ، فتزايد غضب السلطان وهمّ أن يركب بنفسه ويبطش بالعامّة، ثم تأخر لمّا راجعه الأمير أيدغمش ونزل من القلعة في أربعة من الأمراء إلى مصر، وركب الأمير بيبرس الحاجب، والأمير الماس الحاجب إلى موضع الحفر، وركب الأمير طينال إلى القاهرة، وكل منهم في عدّة وافرة، وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامّة، بحيث لا يعفو عن أحد، فقامت القاهرة ومصر على ساق، وفرّت النهابة، فلم يظفر الأمراء منهم إلّا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذي نهبه من الكنائس، ولحق الأمير أيدغمش بمصر وقد ركب الوالي إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب، فأخذه الرجم حتى فرّ منهم، ولم يبق إلّا أن يحرق باب الكنيسة، فجرّد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامّة، فوجدوا عالما لا يقع عليه حصر، وخاف سوء العاقبة، فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بإرجاف العامّة من غير إهراق دم، ونادى منادية: من وقف حلّ دمه. ففرّ سائر من اجتمع من العامّة وتفرّقوا، وصار أيدغمش واقفا إلى أن أذّن العصر خوفا من عود العامّة، ثم مضى وألزم والي مصر أن يبيت بأعوانه هناك، وترك معه خمسين من الأوشاقية.

وأما الأمير الماس فإنه وصل إلى كنائس الحمراء وكنائس الزهريّ ليتداركها، فإذا بها قد بقيت كيمانا ليس بها جدار قائم، فعاد وعاد الأمراء، فردّوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد إلّا حنقا، فما زالوا به حتى سكن غضبه، وكان الأمر في هدم هذه الكنائس عجبا من العجب، وهو أن الناس لما كانوا في صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل، فعندما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح من وسط الجامع: اهدموا الكنيسة التي في القلعة، اهدموها. وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحدّ، ثم اضطرب. فتعجب السلطان والأمراء من قوله، ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك، فمضيا من الجامع إلى خرائب التتر من القلعة، فإذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها، ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء والقاهرة، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير، وطلب فلم يوقف له على خبر، واتفق أيضا بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا في هذا

اليوم لصلاة الجمعة، أخذ شخصا من الفقراء مثل الرعدة، ثم قام بعد ما أذن قبل أن يخرج الخطيب وقال: اهدموا كنائس الطغيان والكفرة، نعم الله أكبر، فتح الله ونصر. وصار يزعج نفسه ويصرخ من الأساس إلى الأساس، فحدّق الناس بالنظر إليه ولم يدروا ما خبره، وافترقوا في أمره. فقائل هذا مجنون، وقائل هذه إشارة لشيء. فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح، وطلب بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد. وخرج الناس إلى باب الجامع فرأوا النهابة ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهوب، فسألوا عن الخبر فقيل: قد نادى السلطان بخراب الكنائس، فظنّ الناس الأمر كما قيل، حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر إنما كان من غير أمر السلطان، وكان الذي هدم في هذا اليوم من الكنائس بالقاهرة، كنيسة بحارة الروم، وكنيسة بالبندقانيين، وكنيستين بحارة زويلة. وفي يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة الكائن فيه هدم كنائس القاهرة ومصر، ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسنيّ والي الإسكندرية، بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة، وقع في الناس هرج، وخرجوا من الجامع وقد وقع الصياح: هدمت الكنائس- فركب المملوك من فوره فوجد الكنائس قد صارت كوما، وعدّتها أربع كنائس، وأن بطاقة وقعت من والي البحيرة بأن كنيستين في مدينة دمنهور هدمتا والناس في صلاة الجمعة من هذا اليوم، فكثر التعجب من ذلك، إلى أن ورد في يوم الجمعة سادس عشرة الخبر من مدينة قوص بأن الناس عند ما فرغوا من صلاة الجمعة في اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر، قام رجل من الفقراء وقال يا فقراء اخرجوا إلى هدم الكنائس، وخرج في جمع من الناس فوجدوا الهدم قد وقع في الكنائس، فهدمت ست كنائس كانت بقوص وما حولها في ساعة واحدة، وتواتر الخبر من الوجه القبليّ والوجه البحريّ بكثرة ما هدم في هذا اليوم وقت صلاة الجمعة وما بعدها من الكنائس والأديرة، في جميع إقليم مصر كله، ما بين قوص والإسكندرية ودمياط، فاشتدّ حنق السلطان على العامّة خوفا من فساد الحال، وأخذ الأمراء في تسكين غضبه وقالوا: هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله، ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه، وما هذا إلّا بأمر الله سبحانه، وبقدره لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم، ليكون ما وقع نقمة وعذابا لهم، هذا والعامّة

بالقاهرة ومصر قد اشتدّ خوفهم من السلطان لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل، ففرّ عدّة من الأوباش والغوغاء، وأخذ القاضي فخر الدين ناظر الجيش في ترجيع السلطان عن الفتك بالعامّة وسياسة الحال معه، وأخذ كريم الدين الكبير ناظر الخاص يغريه بهم إلى أن أخرجه السلطان إلى الإسكندرية بسبب تحصيل المال، وكشف الكنائس التي خربت بها. فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر في عدّة مواضع، وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس، فوقع الحريق في ربع بخط الشوّايين من القاهرة، في يوم السبت عاشر جمادى الأولى، وسرت النار إلى ما حوله واستمرّت إلى آخر يوم الأحد، فتلف في هذا الحريق شيء كثير، وعند ما أطفيء وقع الحريق بحارة الديلم في زقاق العريسة بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص، في خامس عشري جمادى الأولى، وكانت ليلة شديدة الريح، فسرت النار من كلّ ناحية حتى وصلت إلى بيت كريم الدين، وبلغ ذلك السلطان فانزعج انزعاجا عظيما لما كان هناك من الحواصل السلطانية، وسيّر طائفة من الأمراء لإطفائه، فجمعوا الناس لإطفائه وتكاثروا عليه وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء، فتزايد الحال في اشتعال النار وعجز الأمراء والناس عن إطفائها لكثرة انتشارها في الأماكن وقوّة الريح التي ألقت باسقات النخل، وغرّقت المراكب، فلم يشكّ الناس في حريق القاهرة كلّها، وصعدوا المآذن، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح وضجوا بالتكبير والدعاء، وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم، وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدّة الريح، واستمرّ الحريق والاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان في إطفائه إلى يوم الثلاثاء، فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقائين، ونزل الأمير بكتمر الساقي، فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم منه ولا أشدّ هولا، ووكل بأبواب القاهرة من يردّ السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار، فلم يبق أحد من سقائي الأمراء وسقائي البلد إلّا وعمل، وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات، وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور، فهدم في هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة، وعمل في هذا الحريق أربعة وعشرون أميرا من الأمراء المقدّمين، سوى من عداهم من أمراء الطبلخانات

والعشراوات والمماليك، وعمل الأمراء بأنفسهم فيه، وصار الماء من باب زويلة إلى حارة الديلم في الشارع بحرا من كثرة الرجال والجمال التي تحمل الماء، ووقف الأمير بكتمر الساقي والأمير أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصيّ، وخرّبوا ستة عشر دارا من جوار الدار وقبالتها، حتى تمكنوا من نقل الحواصل، فما هو إلا أن كمل إطفاء الحريق ونقل الحواصل، وإذا بالحريق قد وقع في ربع الظاهر خارج باب زويلة، وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا، وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء، وهب مع الحريق ريح قوية، فركب الحاجب والوالي لإطفائه وهدموا عدّة دور من حوله حتى انطفأ، فوقع في ثاني يوم حريق بدار الأمير سلار في خط بين القصرين، ابتدأ من الباذهنج، وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع بالعمل، فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفيء، فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والي القاهرة، والأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، بالاحتراز واليقظة، ونودي بأن يعمل عند كلّ حانوت دنّ فيه ماء، أو زير مملوء بالماء، وأن يقام مثل ذلك في جميع الحارات والأزقة والدروب، فبلغ ثمن كل دنّ خمس دراهم بعد درهم، وثمن الزير ثمانية دراهم، ووقع حريق بحارة الروم وعدّة مواضع، حتى أنه لم يخل يوم من وقوع الحريق في موضع، فتنبه الناس لما نزل بهم، وظنوا أنه من أفعال النصارى، وذلك أن النار كانت ترى في منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس، فاستعدّوا للحريق وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران. فلما كان ليلة الجمعة النصف من جمادى، قبض على راهبين عند ما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة، وقد اشتعلت النار في المدرسة، ورائحة الكبريت في أيديهما، فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن والي القاهرة، فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما، فما هو إلّا أن نزل من القلعة وإذا بالعامّة قد أمسكوا نصرانيا وجد في جامع الظاهر ومعه خرق على هيئة الكعكة، في داخلها قطران ونفط، وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر، وما زال واقفا إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع، وكان قد فطن به شخص وتأمّله من حيث لم يشعر به النصرانيّ، فقبض عليه وتكاثر الناس فجرّوه إلى بيت الوالي وهو بهيئة المسلمين، فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، فاعترف بأن جماعة

من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم، وأنه ممن أعطي ذلك وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر، ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل، وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التي تقدّم ذكرها بالقاهرة، غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس، وأن طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط. واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرّفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى، فقال: النصارى لهم بطرك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم، فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدّث معه في أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم في ذلك، فجاء في حماية والي القاهرة في الليل خوفا من العامّة، فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالي، قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والوالي جميع ما اعترفوا به قبل ذلك، فبكى البطرك عند ما سمع كلامهم وقال: هؤلاء سفهاء النصارى، قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس، وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرّما، فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها، فركبها وسار، فعظم ذلك على الناس وقاموا عليه يدا واحدة، فلولا أن الوالي كان يسايره وإلّا هلك، وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة، فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامّة ما يحلّ لك يا قاضي تحامي للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال، فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته، واجتمع بالسلطان، فأخذ يهوّن أمر النصارى الممسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال، فرسم السلطان للوالي بتشديد عقوبتهم، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة، فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها، وفيهم راهب يصنع النفط، وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر، فجعل للقاهرة ثمانية، ولمصر ستة، فكبس دير البغل وقبض على من فيه وأحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع ابن طولون في يوم الجمعة، وقد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم، فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم، وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار، فغضب السلطان من ذلك وهمّ أن يوقع بالعامّة، واتفق أنه ركب من القلعة يريد

الميدان الكبير في يوم السبت، فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يصيحون نصر الله الإسلام، أنصر دين محمد بن عبد الله. فخرج من ذلك، وعندما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور، فأمر بتحريقهما، فأخرجا وعمل لهما حفرة وأحرقا بمرأى من الناس، وبينا هم في إحراق النصرانيين إذا بديوان الأمير بكتمر الساقي قد مرّ يريد بيت الأمير بكتمر، وكان نصرانيا، فعندما عاينه العامّة ألقوه عن دابته إلى الأرض وجرّدوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه في النار، فصاح بالشهادتين وأظهر الإسلام، فأطلق.

واتفق مع هذا مرور كريم الدين، وقد لبس التشريف، من الميدان، فرجمه من هنالك رجما متتابعا وصاحوا به: كم تحامي للنصارى وتشدّ معهم، ولعنوه وسبّوه، فلم يجد بدّا من العود إلى السلطان وهو بالميدان، وقد اشتدّ ضجيج العامّة وصياحهم حتى سمعهم السلطان، فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضبا واستشار الأمراء، وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك، والأمير سيف الدين البوبكريّ، والخطيريّ، وبكتمر الحاجب في عدّة أخرى، فقال الأبوبكريّ: العامة عمي والمصلحة أن يخرج إليهم الحاجب ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم. فكره هذا من قوله السلطان، وأعرض عنه. فقال نائب الكرك: كل هذا من أجل الكتاب النصارى، فإن الناس أبغضوهم، والرأي أن السلطان لا يعمل في العامة شيئا، وإنما يعزل النصارى من الديوان. فلم يعجبه هذا الرأي أيضا، وقال للأمير الماس الحاجب: امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف في العامّة من حين تخرج من باب الميدان إلى أن تصل إلى باب زويلة، واضرب فيهم بالسيف من باب زويلة إلى باب النصر، بحيث لا ترفع السيف عن أحد البتة. وقال لوالي القاهرة: اركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر، ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة، ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلي، يعني كريم الدين، وإلّا وحياة رأسي شنقتك عوضا عنهم، وعين معه عدّة من المماليك السلطانية، فخرج الأمراء بعد ما تلكئوا في المسير حتى اشتهر الخبر، فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الأمراء وحواشيهم، ووقع القول بذلك في القاهرة، فغلقت الأسواق جميعها، وحل بالناس أمر لم يسمع بأشدّ منه، وسار الأمراء فلم يجدوا في طول

طريقهم أحدا إلى أن بلغوا باب النصر، وقبض الوالي من باب اللوق وناحية بولاق وباب البحر كثيرا من الكلابزية والنواتية وأسقاط الناس، فاشتدّ الخوف وعدّى كثير من الناس إلى البرّ الغربيّ بالجيزة، وخرج السلطان من الميدان فلم يجد في طريقه إلى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامّة، وعند ما استقرّ بالقلعة سيّر إلى الوالي يستعجل حضوره، فما غربت الشمس حتى أحضر ممن أمسك من العامّة نحو مائتي رجل، فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم، وجماعة رسم بتوسيطهم، وجماعة رسم بقطع أيديهم، فصاحوا بأجمعهم: يا خوند ما يحلّ لك، ما نحن الذين رجمنا، فبكى الأمير بكتمر الساقي ومن حضر من الأمراء رحمة لهم، وما زالوا بالسلطان إلى أن قال للوالي: اعزل منهم جماعة، وانصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل، وعلّق هؤلاء بأيديهم. فلما أصبح يوم الأحد علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل، وكان فيهم من له بزة وهيئة، ومرّ الأمراء بهم فتوجعوا لهم وبكوا عليهم، ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر في هذا اليوم حانوتا، وخرج كريم الدين من داره يريد القلعة على العادة فلم يستطع المرور على المصولبين، وعدل عن طريق باب زويلة، وجلس السلطان في الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالي فقطع أيدي وأرجل ثلاثة منهم والأمراء لا يقدرون على الكلام معه في أمرهم لشدّة حنقه، فتقدّم كريم الدين وكشف رأسه وقبّل الأرض وهو يسأل العفو، فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا في حفير الجيزة، فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان، وأنزل المعلقون من على الخشب. وعند ما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق في جهة جامع ابن طولون، وفي قلعة الجبل، وفي بيت الأمير ركن الدين الأحمديّ بحارة بهاء الدين، وبالفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الربع، وفي صبيحة يوم هذا الحريق قبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط، فأحضروا إلى السلطان واعترفوا بأن الحريق كان منهم، واستمرّ الحريق في الأماكن إلى يوم السبت، فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامّة قد صبغوا خرقا بلون أزرق وعلموا فيها صلبانا بيضا، وعند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لا دين إلّا دين الإسلام، نصر الله دين محمد بن عبد الله، يا ملك الناصر، يا

سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر، ولا تنصر النصارى. فارتجت الدنيا من هول أصواتهم، وأوقع الله الرعب في قلب السلطان وقلوب الأمراء، وسار وهو في فكر زائد حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل، فرأى أن الرأي في استعمال المداراة، وأمر الحاجب أن يخرج وينادي بين يديه: من وجد نصرانيا فله ماله ودمه. فخرج ونادى بذلك، فصاحت العامّة وصرخت: نصرك الله. وضجوا بالدعاء، وكان النصارى يلبسون العمائم البيض، فنودي في القاهرة ومصر من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حلّ له دمه وماله، ومن وجد نصرانيا راكبا حلّ له دمه وماله، وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء، وأن لا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا، ومن ركب حمارا فليركبه مقلوبا، ولا يدخل نصرانيّ الحمام إلّا وفي عنقه جرس، ولا يتزيا أحد منهم بزيّ المسلمين، ومنع الأمراء من استخدام النصارى، وأخرجوا من ديوان السلطان. وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى، وكثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعي في الطرقات، وأسلم منهم جماعة كثيرة، وكان اليهود قد سكت عنهم في هذه المدّة، فكان النصرانيّ إذا أراد أن يخرج من منزله يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود ويلبسها، حتى يسلم من العامّة، واتفق أن بعض دواوين النصارى كان له عند يهوديّ مبلغ أربعة آلاف درهم نقرة، فصار إلى بيت اليهوديّ وهو متنكر في الليل ليطالبه، فأمسكه اليهودي وقال: أنا بالله وبالمسلمين، وصاح. فاجتمع الناس لأخذ النصرانيّ، ففرّ إلى داخل بيت اليهوديّ واستجار بامرأته، وأشهد عليه بإبراء اليهوديّ حتى خلص منه، وعثر على طائفة من النصارى بدير الخندق يعملون النفط لإحراق الأماكن، فقبض عليهم وسمروا ونودي في الناس بالأمان، وأنهم يتفرّجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان، وذلك أنهم كانوا قد تخوّفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى، وزادوا في الخروج عن الحدّ، فاطمأنوا وخرجوا على العادة إلى جهة الميدان، ودعوا للسلطان، وصاروا يقولون نصرك الله يا سلطان الأرض، اصطلحنا اصطلحنا، وأعجب السلطان ذلك وتبسم من قولهم، وفي تلك الليلة وقع حريق في بيت الأمير الماس الحاجب من القلعة، وكان الريح شديدا، فقويت النار وسرت إلى بيت الأمير ايتمش، فانزعج أهل القلعة وأهل القاهرة وحسبوا أن القلعة جميعها احترقت، ولم يسمع بأشنع من هذه الكائنة، فإنه

احترق على يد النصارى بالقاهرة ربع في سوق الشوّايين، وزقاق العريسة بحارة الديلم، وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين، وعدّة أماكن بحارة الروم، ودار بهادر بجوار المشهد الحسينيّ، وأماكن باصطبل الطارمة وبدرب العسل، وقصر أمير سلاح، وقصر سلار بخط بين القصرين، وقصر بيسرى، وخان الحجر، والجملون، وقيسارية الادم، ودار بيبرس بحارة الصالحية، ودار ابن المغربيّ بحارة زويلة، وعدّة أماكن بخط بئر الوطاويط وبيشكر وفي قلعة الجبل وفي كثير من الجوامع والمساجد إلى غير ذلك من الأماكن بمصر والقاهرة يطول عددها.

وخرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل، وكنيسة الزهري في الموضع الذي فيه الآن البركة الناصرية، وكنيسة الحمراء، وكنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات، وكنيسة أبي المنيا، وكنيسة الفهادين بالقاهرة، وكنيسة بحارة الروم، وكنيسة بالبندقانيين، وكنيستان بحارة زويلة، وكنيسة بخزانة البنود، وكنيسة بالخندق، وأربع كنائس بثغر الإسكندرية، وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش، وأربع كنائس بالغربية، وثلاث كنائس بالشرقية، وست كنائس بالبهنساوية، وبسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب ثمان كنائس، وبقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة، وبالأطفيحية كنيسة، وبسوق وردان من مدينة مصر، وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس، وخرب من الديارات شيء كثير، وأقام دير البغل ودير شهران مدّة ليس فيهما أحد، وكانت هذه الخطوب الجليلة في مدّة يسيرة. قلما يقع مثلها في الأزمان المتطاولة، هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته، ولله عاقبة الأمور[1].

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 439-447

الكنائس والآديرة التي ذكرها المقريزى في خططه

كنيسة الفهادين كانت في موضع المدرسة الفارسية و هذه المدرسة بخط الفهادين من أوّل العطوفية بالقاهرة، كان موضعها كنيسة تعرف بكنيسة الفهادين، فلما كانت واقعة النصارى في سنة ست وخمسين وسبعمائة، هدمها الأمير فارس الدين البكيّ، قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجو كندار، وبنى هذه المدرسة ووقف عليها وقفا يقوم بما تحتاج إليه[1].

في عهد السلطان بيبرس البندقاريّ أطلق يد الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهرانيّ العدويّ وصرّفه في مملكته، فهدم كنيسة للروم بالإسكندرية كانت من كراسي النصارى، ويزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا، وعملها مسجدا سماه الخضر[2]

كنيسة الملاك ميخائيل بالأسكندرية وهى كانت مكان هيكل زحل فلم تزل هذه الكنيسة بالإسكندرية إلى أن حرّقها جيوش الإمام المعز لدين الله أبي تميم معدّ، لما قدموا في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة هـ[3]

كنيسة مرقص بالأسكندرية: لما مات البطرك بنيامين في سنة تسع وثلاثين من الهجرة بالإسكندرية في إمارة عمرو الثانية، قدّم اليعاقبة بعده أغانو فأقام سبع عشرة سنة ومات سنة ست وخمسين، وهو الذي بنى كنيسة مرقص بالإسكندرية، فلم تزل إلى أن هدمت في سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب[4]

القلاية بمصر: هذه القلاية بجانب المعلقة التي تعرف بقصر الشمع في مدينة مصر، وهي مجمع أكابر الرهبان وعلماء النصارى، وحكمها عندهم حكم الأديرة.

دير طرا: ويعرف بدير أبي جرج، وهو على شاطيء النيل. وأبو جرج هذا هو جرجس، وكان ممن عذبه الملك دقلطيانوس ليرجع عن دين النصرانية، ونوّع له العقوبات من الضرب والتحريق بالنار، فلم يرجع، فضرب عنقه بالسيف في ثالث تشرين وسابع بابه.

---

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 248

2) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 307

3) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 399

4) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 409

دير شعران: هذا الدير في حدود ناحية طرا، وهو مبنيّ بالحجر واللبن، وبه نخل وبه عدّة رهبان، ويقال إنما هو دير شهران بالهاء، وأنّ شهران كان من حكماء النصارى، وقيل بل كان ملكا، وكان هذا الدير يعرف قديما بمرقوريوس الذي يقال له مرقورة، وأبو مرقورة، ثم لما سكنه برصوما بن التبان عرف بدير برصوما، وله عيد يعمل في الجمعة الخامسة من الصوم الكبير، فيحضره البطرك وأكابر النصارى، وينفقون فيه مالا كبيرا. ومرقوريوس هذا كان ممن قتله دقلطيانوس في تاسع عشر تموز، وخامس عشري أبيب، وكان جنديا.

دير الرسل: هذا الدير خارج ناحية الصف والودي، وهو دير قديم لطيف.

دير بطرس وبولص: هذا الدير خارج اطفيح من قبليها، وهو دير لطيف وله عيد في خامس أبيب يعرف بعيد القصرية. وبطرس هذا هو أكبر الرسل الحواريين، وكان دباغا، وقيل صيادا، قتله الملك نيرون في تاسع عشري حزيران، وخامس أبيب. وبولص هذا كان يهوديا فتنصر بعد رفع المسيح عليه السلام، ودعا إلى دينه، فقتله الملك نيرون بعد قتله بطرس بسنة.

دير الجميزة: ويعرف بدير الجود، ويسمي موضعه البحارة جزائر الدير، وهو قبالة الميمون، وهو عزبة لدير العزبة، بني على اسم انطونيوس، ويقال انطونة، وكان من أهل قمن، فلما انقضت أيام الملك دقلطيانوس وفاتته الشهادة أحب أن يتعوّض عنها بعبادة توصل ثوابها أو قريبا من ذلك، فترهب، وكان أوّل من أحدث الرهبانية للنصارى عوضا عن الشهادة، وواصل أربعين يوما ليلا ونهارا طاويا لا يتناول طعاما ولا شرابا مع قيام الليل، وكان هكذا يفعل في الصيام الكبير كل سنة.

دير العزبة: هذا الدير يسار إليه في الجبل الشرقيّ ثلاثة أيام بسير الإبل، وبينه وبين بحر القلزم مسافة يوم كامل، وفيه غالب الفواكه مزدرعة، وبه ثلاثة أعين تجري، وبناه أنطونيوس المقدّم ذكره، ورهبان هذا الدير لا يزالون دهرهم صائمين، لكن صومهم إلى العصر فقط ثم يفطرون، ما خلا الصوم الكبير والبرمولات، فإن صومهم في ذلك إلى طلوع النجم، والبرمولات هي الصوم كذلك بلغتهم.

دير أنبابولا: وكان يقال له أوّلا دير بولص، ثم قيل له دير بولا، ويعرف بدير النمورة أيضا، وهذا الدير في البرّ الغربيّ من الطور على عين ماء يردها المسافرون، وعندهم أن هذه العين تطهرت منها مريم أخت موسى عليهما السلام عند نزول موسى ببني إسرائيل في برّية القلزم. وانبابولا هذا كان من أهل الإسكندرية، فلما مات أبوه ترك له ولأخيه مالا جما، فخاصمه أخوه في ذلك وخرج مغاضبا له، فرأى ميتا يقبر، فاعتبر به ومرّ على وجهه سائحا حتى نزل على هذه العين، فأقام هناك والله تعالى يرزقه، فمرّ به انطونيوس وصحبه حتى مات، فبني هذا الدير على قبره، وبين هذا الدير والبحر ثلاث ساعات، وفيه بستان فيه نخل وعنب وبه عين ماء تجري أيضا.

دير القصير: قال أبو الحسن عليّ بن محمد الشابشتي في كتاب الديارات: وهذا الدير في أعلى الجبل على سطح في قلته، وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة، وفيه رهبان مقيمون به، وله بئر منقورة في الحجر يستقى له منها الماء، وفي هيكله صورة مريم عليها السلام في لوح، والناس يقصدون الموضع للنظر إلى هذه الصورة، وفي أعلاه غرفة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، لها أربع طاقات إلى أربع جهات، وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجبا بالصورة التي فيه، يستحسنها ويشرب على النظر إليها، وفي الطريق إلى هذا الدير من جهة مصر صعوبة، وأما من قبليه فسهل الصعود والنزول، وإلى جانبه صومعة لا تخلو من حبيس يكون فيها، وهو مطلّ على القرية المعروفة بشهران، وعلى الصحراء والبحر، وهي قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر، ويذكرون أن موسى صلوات الله عليه ولد فيها، ومنها ألقته أمّه إلى البحر في التابوت، وبه أيضا دير يعرف بدير شهران، ودير القصير هذا أحد الديارات المقصودة، والمنتزهات المطروقة لحسن موضعه وإشرافه على مصر وأعمالها، وقد قال فيه شعراء مصر ووصفوه فذكروا طيبه ونزهته، ولأبي هريرة بن أبي عاصم فيه من المنسرح:

كم لي بدير القصير من قصف ... مع كل ذي صبوة وذي ظرف

لهوت فيه بشادن غنج ... تقصر عنه بدائع الوصف

وقال ابن عبد الحكم في كتاب فتوح مصر: وقد اختلف في القصير فعن ابن لهيعة قال: ليس بقصير موسى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولكنه موسى الساحر، وعن المفضل بن فضالة عن أبيه قال: دخلنا على كعب الأحبار فقال لنا: ممن أنتم؟ قلنا فتيان من أهل مصر. فقال: ما تقولون في القصير؟ قلنا قصير موسى. فقال: ليس بقصير موسى، ولكنه قصير عزيز مصر، كان إذا جرى النيل يترفع فيه. وعلى ذلك إنه لمقدّس من الجبل إلى البحر. قال: ويقال بل كان موقدا يوقد فيه لفرعون إذا هو ركب من منف إلى عين شمس، وكان على المقطم موقد آخر، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فأعدّوا له ما يريد، وكذلك إذا ركب منصرفا من عين شمس، والله أعلم، وما أحسن قول كشاجم:

سلام على دير القصير وسفحه ... بجنات حلوان إلى النخلات

منازل كانت لي بهنّ مآرب ... وكنّ مواخيري ومنتزهاتي

إذا جئتها كان الجياد مراكبي ... ومنصرفي في السفن منحدرات

فأقبض بالأسحار وحشيّ عينها ... وأقتنص الأنسيّ في الظلمات

معي كلّ بسام أغرّ مهذب ... على كل ما يهوى النديم مواتي

ولحمان مما أمسكته كلابنا ... علينا ومما صيد في الشبكات

وكأس وابريق وناي ومزهر ... وساق غرير فاتر اللحظات

كأنّ قضيب البان عند اهتزازه ... تعلم من أعطافه الحركات

هنالك تصفو لي مشارب لذتي ... وتصحب أيام السرور حياتي

وقال علماء الأخبار من النصارى: إن أرقاديوس ملك الروم طلب أرسانيوس ليعلّم ولده، فظنّ أنه يقتله، ففرّ إلى مصر وترهب، فبعث إليه أمانا وأعلمه أن الطلب من أجل تعليم ولده، فاستعفى وتحوّل إلى الجبل المقطم شرقيّ طرا، وأقام في مغارة ثلاث سنين ومات، فبعث إليه أرقاديوس فإذا هو قد مات، فأمر أن يبنى على قبره كنيسة، وهو المكان المعروف بدير القصير، ويعرف الآن بدير البغل، من أجل أنه كان به بغل يستقي عليه الماء، فإذا خرج من الدير أتى الموردة، وهناك من يملأ عليه، فإذا فرغ من الماء تركه فعاد إلى الدير. وفي

رمضان سنة أربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم دير القصير، فأقام الهدم والنهب فيه مدّة أيام.

دير مرحنا: قال الشابشتي: دير مرحنا على شاطىء بركة الحبش، وهو قريب من النيل، وإلى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز، ومجلس على عمد، حسن البناء مليح الصنعة مسوّر، أنشأه الأمير تميم أيضا، وبقرب الدير بئر تعرف ببئر مماتي، عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس إليها ويشربون تحتها، وهذا الموضع من مغاني اللعب ومواطن القصف والطرب، وهو نزه في أيام النيل وزيادة البحر وامتلاء البركة، حسن المنظر في أيام الزرع والنواوير، لا يكاد حينئذ يخلو من المتنزهين والمتطربين، وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه، وهذا الدير يعرف اليوم بدير الطين بالنون.

دير أبي النعناع: هذا الدير خارج انصنا، وهو من جملة عماراتها القديمة، وكنيسته في قصره لا في أرضه، وهو على اسم أبي بخنس القصير، وعيده في العشرين من بابه، وسيأتي ذكر أبي بخنس هذا.

دير مغارة شقلقيل: هو دير لطيف معلق في الجبل، وهو نقر في الحجر على صخرة تحتها عقبة لا يتوصل إليه من أعلاه ولا من أسفله ولا سلّم له، وإنما جعلت له نقور في الجبل، فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده وجعل رجليه في تلك النقور وصعد، وبه طاحونة يديرها حمار واحد، ويطلّ هذا الدير على النيل تجاه منفلوط وتجاه أمّ القصور، وتجاهه جزيرة يحيط بها الماء، وهي التي يقال لها شقلقيل، وبها قريتان إحداهما شقلقيل والأخرى بني شقير، ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى، وهو على اسم يومينا، وهو من الأجناد الذين عاقبهم ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية ويسجد للأصنام، فثبت على دينه، فقتله في عاشر حزيران وسادس عشر بابه.

دير بقطر: بحاجر أبنوب من شرقيّ بني مرّ تحت الجبل، على مائتي قصبة منه، وهو دير كبير جدّا، وله عيد يجتمع فيه نصارى البلاد شرقا وغربا، ويحضره الأسقف. وبقطر هذا هو ابن رومانوس، كان أبوه من وزراء ديقلطيانوس، وكان هو جميلا شجاعا له منزلة من

الملك، فلما تنصر وعده الملك ومناه ليرجع إلى عبادة الأصنام فلم يفعل، فقتله في ثاني عشري نيسان، وسابع عشري برمودة.

دير بقطرشق: في بحريّ أبنوب، وهو دير لطيف خال، وإنما تأتيه النصارى مرّة في كل سنة. وبقطرشق ممن عذبه ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية فلم يرجع، فقتله في العشرين من هتور، وكان جنديا.

دير بوجرج: بني على اسم بوجرج، وهو خارج المعيصرة بناحية شرق بني مرّو، تارة يخلو من الرهبان وتارة يعمر بهم، وله وقت يعمل العيد فيه.

دير حماس: وحماس اسم بلد هو بحريها، وله عيدان في كل سنة وجموعات متعدّدة.

دير الطير: هذا الدير قديم، وهو مطلّ على النيل، وله سلالم منحوتة في الجبل، وهو قبالة سملوط. وقال الشابشتي وبنواحي أخميم دير كبير عامر يقصد من كل موضع، وهو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف، وفي موضع من الجبل شق فإذا كان يوم عيد هذا الدير لم يبق في البلد بوقير حتى يجيء إلى هذا الموضع، فيكون أمرا عظيما بكثرتها واجتماعها وصياحها عند الشق، ولا يزال الواحد بعد الواحد يدخل رأسه في ذلك الشق ويصيح ويخرج، ويجيء غيره إلى أن يعلق رأس أحدها وينشب في الموضع، فيضطرب حتى يموت، وتتفرّق حينئذ الباقية فلا يبقى منها طائر. وقال القاضي: أبو جعفر القضاعيّ: ومن عجائبها يعني مصر، شعب البوقيرات بناحية أشموم من أرض الصعيد، وهو شعب في جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات في يوم من السنة كان معروفا، فتعرض أنفسها على الصدع، فكلما أدخل بوقير منها منقاره في الصدع مضى لطيته، فلا تزال تفعل ذلك حتى يلقتي الصدع على بوقير منها فيحبسه، وتمضي كلها ولا يزال ذلك الذي تحبسه معلقا حتى يتساقط. قال مؤلفه رحمه الله تعالى: وقد بطل هذا. في جملة ما بطل.

دير أبي هرمينة: بحريّ فاو الخراب، وبحريه بربافاو، وهي مملوءة كتبا وحكما، وبين دير الطين وهذا الدير نحو يومين ونصف، وأبو هرمينة هذا من قدماء الرهبان المشهورين عند النصارى.

دير السبعة جبال باخميم: هذا الدير داخل سبعة أودية، وهو دير عال بين جبال شامخة، ولا تشرق عليه الشمس إلّا بعد ساعتين من الشروق لعلوّ الجبل الذي هو في لحفه، وإذا بقي للغروب نحو ساعتين خيل لمن فيه أن الشمس قد غابت وأقبل الليل، فيشعلون حينئذ الضوء فيه، وعلى هذا الدير من خارجه عين ماء تظلها صفصافة، ويعرف هذا الموضع الذي فيه دير الصفصافة بوادي الملوك، لأن فيه نباتا يقال له الملوكة، وهو شبه الفجل، وماؤه أحمر قان يدخل في صناعة علم أهل الكيمياء، ومن داخل هذا الدير دير القرقس: وهو في أعلى جبل، قد نقر فيه، ولا يعلم له طريق، بل يصعد إليه في نقور في الجبل، ولا يتوصل إليه إلّا كذلك، وبين دير الصفصافة ودير القرقس ثلاث ساعات، وتحت دير القرقس عين ماء عذب وأشجار بان.

دير صبرة: في شرقيّ اخميم، عرف بعرب يقال لهم بني صبرة، وهو على اسم ميخائيل الملك، وليس به غير راهب واحد.

دير أبي بشادة الأسقف: قريب من ناحية انقه، وهو بالحاجر، وتجاهه في الغرب منشأة اخميم، وكان أبو بشادة هذا من علماء النصارى.

دير بوهر الراهب: ويعرف بدير سوادة، وسوادة عرب تنزل هناك، وهو قبالة منية بني خصيب، خرّبته العرب، وهذه الأديرة كلها في الشرق من النيل، وجميعها لليعاقبة، وليس في الجانب الشرقيّ الآن سواها، وأما الجانب الغربيّ من النيل فإنه كثير الديارات لكثرة عمارته.

دير دموة بالجيزة: وتعرف بدموة السباع، وهو على اسم قزمان ودميان، وهو دير لطيف، وتزعم النصارى أن بعض الحكماء كان يقال له سبع أقام بدموة، وأن كنيسة دموة التي بأيدي اليهود الآن كانت ديرا من ديارات النصارى، فابتاعته منهم اليهود في ضائقة نزلت بهم، وقد تقدّم ذكر كنيسة دموة وقزمان ودميان من حكماء النصارى ورهبانهم العباد، ولهما أخبار عندهم.

دير نهيا: قال الشابشتي: ونهيا بالجيزة، وديرها هذا من أحسن ديارات مصر، وأنزهها وأطيبها موضعا، وأجلها موقعا، عامر برهبانه وسكانه، وله في أيام النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، فإذا انصرف الماء وزرعت الأرض أظهرت أراضيه غرائب النواوير

وأصناف الزهر، وهو من المنتزهات الموصوفة والبقاع المستحسنة، وله خليج يجتمع فيه سائر الطير، فهو أيضا متصيد ممنع، وقد وصفته الشعراء وذكرت حسنه وطيبه، قلت وقد خرب هذا الدير.

دير طمويه: قال ياقوت: طمويه- بفتح الطاء وسكون الميم وفتح الواو ساكنة- قريتان بمصر، إحداهما في كورة المرتاحية، والأخرى بالجيزة، قال الشابشتي: وطمويه في الغرب بإزاء حلوان، والدير راكب البحر، حوله الكروم والبساتين والنخل والشجر، وهو نزه عامر آهل، وله في النيل منظر حسن، وحين تخضرّ الأرض يكون في بساطين من البحر والزرع، وهو أحد منتزهات أهل مصر المذكورة، ومواضع لهوها المشهورة. ولابن أبي عاصم المصريّ فيه من البسيط:

واشرب بطمويه من صهباء صافية ... تزرى بخمر قرى هيت وعانات

على رياض من النوّار زاهرة ... تجري الجداول فيها بين جنات

كأن نبت الشقيق العصفريّ بها ... كاسات خمر بدت في إثر كاسات

كأنّ نرجسها من حسنه حدق ... في خفية يتناجى بالإشارات

كأنما النيل في مرّ النسيم به ... مستلئم في دروع سابريات

منازل كنت مفتونا بها شغفا ... وكنّ قدما مواخيري وحاناتي

إذ لا أزال ملما بالصبوح على ... ضرب النواقيس صبّا بالديارات

قلت هذا الدير عند النصارى على اسم بوجرج ويجتمع فيه النصارى من النواحي:

دير أقفاص: وصوابها أقفهس وقد خرب.

دير خارج ناحية منهري: خامل الذكر لأنهم لا يطعمون فيه أحدا.

دير الخادم: على جانب المنهي بأعمال البهنسا، على اسم غبريال الملك، به بستان فيه نخل وزيتون.

دير أشنين: عرف بناحية أشنين، فإنه في بحريها، وهو لطيف على اسم السيدة مريم، وليس به سوى راهب واحد.

دير ايسوس: ومعنى ايسوس يسوع، ويقال له دير أرجنوس، وله عيد في خامس عشري بشنس، فإذا كان ليلة هذا اليوم سدّت بئر فيه تعرف ببئر ايسوس، وقد اجتمع الناس إلى الساعة السادسة من النهار، ثم كشفوا الطابق عن البئر فإذا بها قد فاض ماؤها ثم ينزل، فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقرّ فيه الماء، فما بلغ كانت زيادة النيل في تلك السنة من الأذرع.

دير سدمنت: على جانب المنهي بالحاجر بين الفيوم والريف على اسم بوجرج، وقد ضعفت أحواله عما كان عليه وقل ساكنه.

دير النقلون: ويقال له دير الخشبة، ودير غبريال الملك، وهو تحت مغارة في الجبل الذي يقال له طارف الفيوم، وهذه المغارة تعرف عندهم بمظلة يعقوب، يزعمون أن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر كان يستظل بها، وهذا الجبل مطلّ على بلدين يقال لهما اطفيح شيلا، وشلا. ويملأ الماء لهذا الدير من بحر المنهي ومن تحت دير سدمنت، ولهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم وغيرهم، وهو على السكة التي تنزل إلى الفيوم ولا يسكلها إلّا القليل من المسافرين.

دير القلمون: هذا الدير في برّية تحت عقبة القلمون، يتوصل المسافر منها إلى الفيوم، يقال لها عقبة الغريق، وبني هذا الدير على اسم صمويل الراهب، وكان في زمن الفترة ما بين عيسى ومحمد صلّى الله عليه وسلّم، ومات في ثامن كيهك، وفي هذا الدير نخل كثير يعمل من تمره العجوة، وفيه أيضا شجر البلخ، ولا يوجد إلّا فيه، وثمره بقدر الليمون، طعمه حلو في مثل طعم الرامخ، ولنواه عدّة منافع، وقال أبو حنيفة في كتاب النبات: ولا ينبت اللبخ إلّا بأنصنا، وهو عود تنشر منه ألواح السفن، وربما أرعف ناشرها، ويباع اللوح منها بخمسين دينارا ونحوها، وإذا شدّ لوح منها بلوح وطرحا في الماء سنة التأما وصارا لوحا واحدا، وفي هذا الدير قصران مبنيان بالحجارة، وهما عاليان كبيران لبياضهما إشراق، وفيه أيضا عين ماء تجري، وفي خارجه عين أخرى، وبهذا الوادي عدّة معابد قديمة، وثمّ واد يقال له الأميلح فيه عين ماء تجري ونخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها، وخارج هذا الدير ملّاحة يبيع رهبان الدير ملحها فيعم تلك الجهات.

دير السيدة مريم: خارج طنبدى، ليس فيه سوى راهب واحد وهو على غير الطريق المسلوك، وكان بأعمال البهنسا عدّة ديارات خربت.

دير برقانا: بحريّ بني خالد، وهو مبنيّ بالحجر وعمارته حسنة، وهو من أعمال المنية، وكان به في القديم ألف راهب، وليس به الآن سوى راهبين، وهو في الحاجر تحت الجبل.

دير بالوجه: على جنب المنهي، وهو لأهل دلجة، وهو من الأديرة الكبار، وقد خرب حتى لم يبق به سوى راهب أو راهبين، وهو بإزاء دلجة بينه وبينها نحو ساعتين.

دير مرقورة: ويقال أبو مرقورة، هذا الدير تحت دلجة بخارجها من شرقيها وليس به أحد.

دير صنبو: في خارجها من بحريها على اسم السيدة مريم وليس به أحد.

دير تادرس: قبليّ صنبو وقد تلاشى أمره لاتضاع حال النصارى.

دير الريرمون: في شرقيّ ناحية الريرمون، وهو شرقيّ ملوى وغربيّ أنصنا، وهو على اسم الملك غبريال.

دير المحرق: تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام في موضعه ستة أشهر وأياما، وله عيد عظيم يعرف بعيد الزيتونة وعيد العنصرة يجتمع فيه عالم كثير.

دير بني كلب: عرف بذلك لنزول بني كلب حوله، وهو على اسم غبريال، وليس فيه أحد من الرهبان وإنما هو كنيسة لنصارى منفلوط وهو غربيها.

دير الجاولية: هذا الدير ناحية الجاولية من قبليها، وهو على اسم الشهيد مرقورس الذي يقال له مرقورة، وعليه رزق محبسة، وتأتيه النذورات والعوائد وله عيدان في كل سنة.

دير السبعة جبال: هذا الدير على رأس الجبل الذي غربيّ سيوط، على شاطيء النيل، ويعرف بدير بخنس القصير، وله عدّة أعياد، وخرب في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة من منسر طرقه ليلا. بخنس: ويقال أبو بخنس القصير، كان راهبا قمصا، له أخبار كثيرة منها: أنه غرس خشبة يابسة في الأرض بأمر شيخه له، وسقاها الماء مدّة فصارت شجرة مثمرة تأكل منها الرهبان، وسميت شجرة الطاعة ودفن في ديره.

دير المطل: هذا الدير على اسم السيدة مريم، وهو على طرف الجبل تحت دير السبعة جبال قبالة سيوط، وله عيد يحضره أهل النواحي وليس به أحد من الرهبان.

أديرة درنكة: اعلم أن ناحية أدرنكة هي من قرى النصارى الصعايدة، ونصاراها أهل علم في دينهم، وتفاسيرهم في اللسان القبطيّ، ولهم أديرة كثيرة في خارج البلد من قبلها مع الجبل، وقد خرب أكثرها وبقي منها:

دير بوجرج: وهو عامر البناء وليس به أحد من الرهبان ويعمل فيه عيد في أوانه.

دير أرض الحاجر ودير ميكائيل ودير كرفونه: على اسم السيدة مريم، وكان يقال له ارافونه واغرافونا ومعناه النساخ، فإن نساخ علوم النصارى كانت في القديم تقيم به وهو على طرف الجبل، وفيه مغاير كثيرة منها ما يسير الماشي بجنبه نحو يومين.

دير أبي بغام: تحت دير كرفونة بالحاجر، وقد كان أبو بغام جنديا في أيام ديقلطيانوس فتنصر وعذب ليرجع عن دينه، ثم قتل في ثامن عشري كانون الأوّل، وثاني كيهك.

ديربوساويرس: بحاجر أدرنكة، كان على اسم السيدة مريم، وكان ساويرس من عظماء الرهبان فعمل بطركا، وظهرت آية عند موته، وذلك أنه أنذرهم لما سار إلى الصعيد بأنه إذا مات ينشق الجبل وتقع منه قطعة عظيمة على الكنيسة فلا تضرّها، فلما كان في بعض الأيام سقطت قطعة عظيمة من الجبل كما قال، فعلم رهبان هذا الدير بأن ساويرس قد مات، فأرخوا ذلك فوجدوه وقت موته فسموا الدير حينئذ باسمه.

دير تادرس: تحت دير بوساويرس، وتادرس اثنان كانا من أجناد ديقلطيانوس، أحدهما يقال له قاتل التنين والآخر الاسفهسلار، وقتلا كما قتل غيرهما.

دير منسى آك: ويقال منساك، وبني ساك وايساآك، ومعنى ذلك إسحاق، وكان على اسم السيدة ماريهام يعني مار مريم، ثم عرف بمنساك، وكان راهبا قديما له عندهم شهرة، وبهذا الدير بئر تحته في الحاجر منها شرب الرهبان فإذا زاد النيل شربوا من مائه.

دير الرسل: تحت دير منساك، ويعرف بدير الأثل، وهو لأعمال بوتيج، ودير منساك لأهل ربقة هو ودير ساويرس، ودير كرفونة لأهل سيوط، ودير بوجرج لأهل أدرنكة، ودير الأثل كان في خراب فعمر بجانبه كفر لطيف عرف بمنشأة الشيخ، لأن الشيخ أبا بكر الشاذليّ أنشأه وأنشأ بستانا كبيرا، وقد وجد موضعه بئرا كبيرة وجد بها كنزا، أخبرني من شاهد من ذهبه دنانير مربعة بأحد وجهيها صليب وزنة الدينار مثقال ونصف. وأديرة أدرنكة المذكورة

قريب بعضها من بعض، وبينها مغاير عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء كما على البرابي، وهي مزخرفة بعدّة أصباغ، ملوّنة تشتمل على علوم شتى، ودير السبعة جبال ودير المطل ودير النساخ خارج سيوط في المقابر، ويقال أنه كان في الحاجرين ثلاثمائة وستون ديرا، وأن المسافر كان لا يزال من البدرشين إلى أصفون في ظل البساتين، وقد خرب ذلك وباد أهله.

دير موشه: وموشه خارج سيوط من قبلها بني على اسم توما الرسول الهندي، وهو بين الغيطان قريب من ربقة، وفي أيام النيل لا يوصل إليه إلّا في مركب، وله أعياد والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطيّ الصعيديّ، وهو أصل اللغة القبطية، وبعدها اللغة القبطية البحرية، ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلّا بالقبطية الصعيدية، ولهم أيضا معرفة تامّة باللغة الرومية.

دير أبى مقروفة: وأبو مقروفة اسم للبلدة التي بها هذا الدير، وهو منقور في لحف الجبل وفيه عدّه مغاير وهو على اسم السيدة مريم، وبمقروفة نصارى كثيرة غنامة ورعاة أكثرهم همج، وفيهم قليل من يقرأ ويكتب، وهو دير معطش.

دير بومغام: خارج طما وأهلها نصارى وكانوا قديما أهل علم.

دير بوشنوده: ويعرف بالدير الأبيض، وهو غربيّ ناحية سوهاي وبناؤه بالحجر وقد خرب ولم يبق منه إلا كنيسته، ويقال إن مساحته أربعة فدادين ونصف وربع، والباقي منه نحو فدّان وهو دير قديم.

الدير الأحمر: ويعرف بدير أبي بشاي، وهو بحريّ الدير الأبيض بينهما نحو ثلاث ساعات، وهو دير لطيف مبنيّ بالطوب الأحمر، وأبو بشاي هذا من الرهبان المعاصرين لشنوده، وهو تلميذه، وصار من تحت يده ثلاث آلاف راهب، وله دير آخر في بريّة شيهات.

دير أبي ميساس: ويقال أبو ميسيس، واسمه موسى، وهذا الدير تحت البلينا وهو دير كبير. وأبو ميسيس هذا كان راهبا من أهل البلينا وله عندهم شهرة، وهم ينذرونه ويزعمون فيه مزاعم، ولم يبق بعد هذا الدير إلا أديرة بحاجر اسنا ونقادة قليلة العمارة، وكان بأصفون دير كبير وكانت أصفون من أحسن بلاد مصر وأكثر نواحي الصعيد فواكه، وكان رهبان

ديرها معروفين بالعلم والمهارة، فخربت أصفون وخرب ديرها. وهذا آخر أديرة الصعيد وهي كلها يحمل متلاشية آئلة إلى الدثور بعد كثرة عمارتها ووفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم، وكثرة ما كان يحمل إليهم.

وأما

الوجه البحري: فكان فيه أديرة كثيرة خربت وبقي منها بقية، فكان بالمقس خارج القاهرة من بحريها عدّة كنائس هدمها الحاكم بأمر الله أبو عليّ منصور في تاسع عشر ذي الحجة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأباح ما كان فيها، فنهب منها شيء كثير جدّا بعد ما أمر في شهر ربيع الأوّل منها بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها، وجعل موضعها الجامع المعروف براشدة، وهدم أيضا في سنة أربع وتسعين كنيستين هناك، وألزم النصارى بلبس السواد وشدّ الزنار، وقبض على الأملاك التي كانت محبسة على الكنائس والأديرة وجعلها في ديوان السلطان، وأحرق عدّة كثيرة من الصلبان، ومنع النصارى من إظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين، وتشدّد عليهم وضرب جماعة منهم، وكانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وكان في ناحية أبي النمرس من الجيزة كنيسة قام في هدمها رجل من الزيالعة، لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها في ليلة الجمعة بهذه الكنيسة، فلم يتمكن من ذلك في أيام الأشرف شعبان بن حسين لتمكن الأقباط في الدولة، فقام في ذلك مع الأمير الكبير برقوق، وهو يومئذ القائم بتدبير الدولة، حتى هدمها على يد القاضي جمال الدين محمود

العجميّ محتسب القاهرة في ثامن عشر رمضان سنة ثمانين وسبعمائة، وعملت مسجدا.

دير الخندق: ظاهر القاهرة من بحريها، عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه في القاهرة، كان بالقرب من الجامع الأقمر حيث البئر التي تعرف الآن ببئر العظمة، وكانت إذ ذاك تعرف ببئر العظام من أجل أنه نقل عظاما كانت بالدير وجعلها بدير الخندق، ثم هدم دير الخندق في رابع عشري شوّال سنة ثمان وسبعين وستمائة، في أيام المنصور قلاون، ثم جدّد هذا الدير الذي هناك بعد ذلك، وعمل كنيستين يأتي ذكرهما في الكنائس.

دير سرياقوس: كان يعرف بأبي هور، وله عيد يجتمع فيه الناس، وكان فيه أعجوبة ذكرها الشابشتي، وهو أن من كان به خنازير أخذه رئيس هذا الدير وأضجعه وجاءه بخنزير فلحس موضع الوجع، ثم أكل الخنازير التي فيه فلا يتعدّى ذلك إلى الموضع الصحيح، فإذا نظف الموضع ذرّ عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ودهنه بزيت قنديل البيعة، فإنه يبرأ ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذي أكل خنازير العليل فيذبح ويحرق، ويعدّ رماده لمثل هذه الحالة، فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة، وفيه خلق من النصارى.

دير اتريب: ويعرف بماري مريم، وعيده في حادي عشري بؤنه، وذكر الشابشتي أن حمامة بيضاء تأتي في ذلك العيد فتدخل المذبح، لا يدرون من أين جاءت ولا يرونها إلى يوم مثله. وقد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به إلّا ثلاثة من الرهبان، لكنهم يجتمعون في عيده، وهو على شاطيء النيل قريب من بنها العسل.

دير المغطس: عند الملاحات قريب من بحيرة البراس، وتحج إليه النصارى من قبليّ أرض مصر، ومن بحريها، مثل حجهم إلى كنيسة القيامة، وذلك يوم عيده، وهو في بشنس ويسمونه عيد الظهور من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلفة، وليس بحذاء هذا الدير عمارة سوى منشأة صغيرة في قبليه بشرق، وبقربه الملاحة التي يؤخذ منها الملح الرشيديّ، وقد هدم هذا الدير في شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بقيام بعض الفقراء المعتقدين.

دير العسكر: في أرض السباخ على يوم من دير المغطس، على اسم الرسل، وبقربه ملاحة الملح الرشيديّ ولم يبق به سوى راهب واحد.

دير جميانة: على اسم بوجرج قريب من دير العسكر على ثلاث ساعات منه، وعيده عقب عيد دير المغطس وليس به الآن أحد.

دير الميمنة: بالقرب من دير العسكر، كانت له حالات جليلة، ولم يكن في القديم دير بالوجه البحريّ أكثر رهبانا منه، إلّا أنه تلاشى أمره وخرب، فنزله الحبش وعمروه،

وليس في السباخ سوى هذه الأربعة الأديرة. وأما وادي هبيب وهو وادي النطرون، ويعرف ببرّية شيهات وببرّية الأسقط وبميزان القلوب، فإنه كان بها في القديم مائة دير، ثم صارت سبعة ممتدّة غربا على جانب البرّية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم، وهي في رمال منقطعة وسباخ مالحة وبرار منقطعة معطشة وقفار مهلكة، وشارب أهلها من حفائر، وتحمل النصارى إليهم النذور والقرابين، وقد تلاشت في هذا الوقت بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه وأنه كتب لهم كتابا هو عندهم.

فمنها

دير أبي مقار الكبير: وهو دير جليل عندهم، وبخارجه أديرة كثيرة خربت، وكان دير النساك في القديم، ولا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه في هذا الدير بعد جلوسه بكرسيّ اسكندرية، ويذكر أنه كان فيه من الرهبان ألف وخمسمائة لا تزال مقيمة به، وليس به الآن إلّا قليل منهم، والمقارات ثلاثة: أكبرهم صاحب هذا الدير، ثم أبو مقار الإسكندرانيّ، ثم أبو مقار الأسقف. وهؤلاء الثلاثة قد وضعت رممهم في ثلاث أنابيب من خشب، وتزورها النصارى بهذا الدير، وبه أيضا الكتاب الذي كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادي هبيب بجرانة نواحي الوجه البحري على ما أخبرني من أخبر برؤيته فيه.

أبو مقار الأكبر: هو مقاريوس، أخذ الرهبانية عن أنطونيوس، وهو أوّل من لبس عندهم القلنسوة والاشكيم، وهو سير من جلد فيه صليب يتوشح به الرهبان فقط، ولقي انطونيوس بالجبل الشرقيّ من حيث دير العزبة، وأقام عنده مدّة، ثم ألبسه لباس الرهبانية وأمره بالمسير إلى وادي النطرون ليقيم هناك، ففعل ذلك واجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد، وله عندهم فضائل عديدة منها: أنه كان لا يصوم الأربعين إلّا طاويا في جميعها لا يتناول غذاء ولا شرابا البتة، مع قيام ليلها. وكان لا يعمل الخوص ويتقوّت منه، وما أكل خبزا طريا قط، بل يأخذ القراقيش فيبلها في نقاعة الخوص ويتناول منها هو ورهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة، هذا قوتهم مدّة حياتهم حتى مضوا لسبيلهم، وأما أبو

مقار الإسكندرانيّ فإنه ساح من الإسكندرية إلى مقاريوس المذكور وترهب على يديه، ثم كان أبو مقار الثالث وصار أسقفا.

دير أبي بخنس القصير: يقال أنه عمر في أيام قسطنطين بن هيلانة، ولأبي بخنس هذا فضائل مذكورة، وهو من أجل الرهبان، وكان لهذا الدير حالات شهيرة وبه طوائف من الرهبان، ولم يبق به الآن إلّا ثلاثة رهبان.

دير الياس: عليه السلام، وهو دير للحبشة، وقد خرب دير بخنس كما خرب دير الياس، أكلت الأرضة أخشابهما فسقطا، وصار الحبشة إلى دير سيدة بوبخنس القصير، وهو دير لطيف بجوار دير بوبخنس القصير. وبالقرب من هذه الأديرة.

دير انبانوب: وقد خرب هذا الدير أيضا انبانوب هذا من أهل سمنود قتل في الإسلام ووضع جسده في بيت بسمنود.

دير الأرمن: قريب من هذه الأديرة وقد خرب. وبجوارها أيضا:

دير بوبشاي: وهو دير عظيم عندهم، من أجل أن بوبشاي هذا كان من الرهبان الذين في طبقة مقاريوس وبخنس القصير، وهو دير كبير جدّا.

دير بإزاء دير بوبشاي: كان بيد اليعاقبة، ثم ملكته رهبان السريان من نحو ثلاثمائة سنة، وهو بيدهم الآن، ومواضع هذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة.

دير سيدة برموس: على اسم السيدة مريم فيه بعض رهبان. وبإزائه:

دير موسى: ويقال أبو موسى الأسود، ويقال برمؤس، وهذا الدير لسيدة برمؤس، فبرموس اسم الدير وله قصة حاصلها أن مكسيموس ودوماديوس كانا ولدي ملك الروم، وكان لهما معلم يقال له ارسانيوس، فسار المعلم من بلاد الروم إلى أرض مصر، وعبر برّية شيهات هذه، وترهب وأقام بها حتى مات، وكان فاضلا. وأتاه في حياته ابنا الملك المذكوران وترهبا على يديه، فلما ماتا بعث أبوهما فبنى على اسمهما كنيسة برموس. وأبو موسى الأسود كان لصا فاتكا قتل مائة نفس، ثم إنه تنصر وترهب وصنف عدّة كتب، وكان ممن يطوي الأربعين في صومه وهو بربريّ.

دير الزجاج: هذا الدير خارج مدينة الإسكندرية، ويقال له الهايطون، وهو على اسم بوجرج الكبير، ومن شرط البطرك أنه لا بدّ أن يتوجه من المعلقة بمصر إلى دير الزجاج هذا، ثم إنهم في هذا الزمان تركوا ذلك، فهذه أديرة اليعاقبة.

وللنساء ديارات تختص بهنّ: فمنها دير الراهبات بحارة زويلة من القاهرة، وهو دير عامر بالإبكار المترهبات وغيرهنّ من نساء النصارى.

دير البنات: بحارة الروم بالقاهرة عامر بالنساء المترهبات.

دير المعلقة: بمدينة مصر، وهو أشهر ديارات النساء عامر بهنّ.

دير بربارة: بمصر بجوار كنيسة بربارة عامر بالبنات المترهبات بربارة: كانت قدّيسة في زمان دقلطيانوس، فعذبها لترجع عن ديانتها وتسجد للأصنام، فثبتت على دينها وصبرت على عذاب شديد وهي بكر لم يمسها رجل، فلما يئس منها ضرب عنقها وعنق عدّة من النساء معها وللنصارى الملكية قلاية بطركهم بجوار كنيسة ميكائيل بالقرب من جسر الأفرم خارج مصر، وهي مجمع الرهبان الواردين من بلاد الروم.

دير بخنس القصير: المعروف بالقصيّر، وصوابه عندهم دير القصير على وزن شهيد، وحرّف فقيل دير القصيّر، بضم القاف وفتح الصاد وتشديد الياء، فسماه المسلمون دير القصير بضم القاف وفتح الصاد وإسكان الياء آخر الحروف، كأنه تصغير قصير، وأصله كما عرّفتك دير القصير الذي هو ضدّ الطويل، وسمي أيضا دير هر قل، ودير البغل، وقد تقدّم ذكره. وكان من أعظم ديارات النصارى وليس به الآن سوى واحد يحرسه، وهو بيد الملكية[1].

ويذكر ابوسالم العياشى فى رحلته سنة 1601-1603م عن وادى هبيب: انما سمى هذا الوادى وادى الرهبان لأن فيه رهبان النصارى يتعبدون فى ديور أربعة كل طائفة فى دير، ولا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم، وليس لهم زرع ولا ضرع، وأهل الذمة من النصارى الذين بمصر يعاملونهم ويبعثون إليهم بالنذور والصدقات من الطعام والكسوة[2].

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 423-436

2) الرحلة العياشية، ابو سالم عبد الله بن محمد العياشى جـ1 ص 217

دير الطور: ذكر مؤرخو النصارى أنّ هذا الدير أمر بعمارته يوسطيانوس ملك الروم بقسطنطينية، فعمل عليه حصن فوقه عدّة قلالي، وأقيم فيه الحرس لحفظ رهبانه من قوم يقال لهم بنو صالح من العرب، وفي أيام هذا الملك كان المجمع الخامس من مجامع النصارى، وبينه وبين القلزم، وكانت مدينة، طريقان إحداهما في البرّ والأخرى في البحر، وهما جميعا يؤدّيان إلى مدينة فاران، وهي من مدائن العمالقة، ثم منها إلى الطور مسيرة يومين، ومن مدينة مصر إلى القلزم ثلاثة أيام، ويصعد إلى جبل الطور بستة آلاف وستمائة وست وستين مرقاة، وفي نصف الجبل كنيسة لإيلياء النبيّ، وفي قلته كنيسة على اسم موسى عليه السلام بأساطين من رخام، وأبواب من صفر، وهو الموضع الذي كلم الله تعالى فيه موسى، وقطع منه الألواح ولا يكون فيها إلّا راهب واحد للخدمة، ويزعمون أنه لا يقدر أحد أن يبيت فيها، بل يهيأ له موضع من خارج يبيت فيه، ولم يبق لهاتين الكنيستين وجود.

دير البنات بقصر الشمع بمصر: وهو على اسم بوجرج، وكان مقياس النيل قبل الإسلام، وبه آثار ذلك إلى اليوم، فهذا ما للنصارى اليعاقبة، والملكية رجالهم ونسائهم من الديارات بأرض مصر قبليها وبحريها، وعدّتها ستة وثمانون ديرا منها لليعاقبة[1]

كنيستا الخندق: ظاهر القاهرة، إحداهما على اسم غبريال الملاك، والأخرى على اسم مرقوريوس، وعرفت برويس، وكان راهبا مشهورا بعد سنة ثمانمائة، وعند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم، وتعرف بمقبرة الخندق، وعمرت هاتان الكنيستان عوضا عن كنائس المقس في الأيام الإسلامية.

كنيسة حارة زويلة بالقاهرة: كنيسة عظيمة عند النصارى اليعاقبة، وهي على اسم السيدة، وزعموا أنها قديمة تعرف بالحكيم زايلون، وكان قبل الملة الإسلامية بنحو مائتين وسبعين سنة، وأنه صاحب علوم شتى، وأن له كنزا عظيما يتوصل إليه من بئر هناك.

كنيسة تعرف بالمغيثة: بحارة الروم من القاهرة على اسم السيدة مريم، وليس لليعاقبة بالقاهرة سوى هاتين الكنيستين، وكان بحارة الروم أيضا كنيسة أخرى يقال لها كنيسة بربارة هدمت في سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وسبب ذلك أن النصارى رفعوا قصة

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 437

للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون يسألون الإذن في إعادة ما تهدّم منها، فأذن لهم في ذلك فعمروها أحسن ما كانت، فغضبت طائفة من المسلمين ورفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن، والي القاهرة بهدم ما جدّدوه، فركب وقد اجتمع الخلائق، فبادروا وهدموا الكنيسة كلها في أسرع وقت، وأقاموا في موضعها محرابا وأذنوا وصلوا وقرؤا القرآن، كل ذلك بأيديهم، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة، فاشتدّ الأمر على النصارى وشكوا أمرهم للقاضي كريم الدين ناظر الخاص، فقام وقعد غضبا لدين أسلافه، وما زال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب فهدم، وصار موضعه كوم تراب ومضى الحال على ذلك.

كنيسة بومنا: هذه الكنيسة قريبة من السدّ فيما بين الكيمان بطريق مصر، وهي ثلاث كنائس متجاورة، إحداها لليعاقبة، والأخرى للسريان، وأخرى للأرمن، ولها عيد في كل سنة تجتمع إليه النصارى.

كنيسة المعلقة: بمدينة مصر في خط قصر الشمع، على اسم السيدة، وهي جليلة القدر عندهم، وهي غير القلاية التي تقدّم ذكرها.

كنيسة شنوده: بمصر، نسبت لأبي شنودة الراهب القديم، وله أخبار منها: أنه كان ممن يطوى في الأربعين إذا صام، وكان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوّت هو وإياهم من عمل الخوص، وله عدّة مصنفات.

كنيسة مريم: بجوار كنيسة شنودة، هدمها عليّ بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس أمير مصر لما ولي من قبل أمير المؤمنين الهادي موسى، في سنة تسع وستين ومائة، وهدم كنائس محرس قسطنطين، وبذل له النصارى في تركها خمسين ألف دينار فامتنع، فلما عزل بموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في خلافة هارون الرشيد، أذن موسى بن عيسى للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها عليّ بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة. وقالا هو من عمارة البلاد، واحتجا بأن الكنائس التي بمصر لم تبن إلّا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين.

كنيسة بوجرج الثقة: هذه الكنيسة في درب بخط قصر الشمع بمصر يقال له درب الثقة، ويجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

الثقة، ويجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

كنيسة بربارة: بمصر، كبيرة جليلة عندهم، وهي تنسب إلى القديسة بربارة الراهبة، وكان في زمانها راهبتان بكران، وهما ايسي وتكلة، ويعمل لهنّ عيد عظيم بهذه الكنيسة يحضره البطريق.

كنيسة بوسرحه: بالقرب من بربارة بجوار زاوية ابن النعمان، فيها مغارة يقال أن المسيح وأمّه مريم عليها السلام جلسا بها.

كنيسة بابليون: في قبليّ قصر الشمع بطريق جسر الأفرم، وهذه الكنيسة قديمة جدّا، وهي لطيفة، ويذكر أن تحتها كنز بابليون وقد خرب ما حولها.

كنيسة تاودورس الشهيد: بجوار بابليون، نسبت للشهيد تاودورس الإسفهسلار.

كنيسة بومنا بجوار بابليون أيضا: وهاتان الكنيستان مغلوقتان لخراب ما حولهما[1].

كنيسة ميكائيل: هذه الكنيسة كانت عند خليج بني وائل خارج مدينة مصر قبليّ عقبة يحصب، وهي الآن قريبة من جسر الأفرم، أحدثت في الإسلام وهي مليحة البناء.

كنيسة مريم: في بساتين الوزير قبليّ بركة الحبش خالية ليس بها أحد.

كنيسة مريم: بناحية العدوية من قبلها قديمة وقد تلاشت.

كنيسة أنطونيوس: بناحية بياض قبليّ اطفيح، وهي محدثة. وكان بناحية شرنوب عدّة كنائس خربت، وبقي بناحية أهريت الجبل قبليّ بياض بيومين. كنيسة السيدة: بناحية أشكر وعلى بابها برج مبنيّ بلبن كبار يذكر أنه موضع ولد موسى بن عمران عليه السلام.

كنيسة مريم: بناحية الخصوص وهي بيت فعملوه كنيسة لا يعبأ بها.

كنيسة مريم

وكنيسة بخنس القصير

وكنيسة غبريال: هذه الكنائس الثلاث بناحية أبنوب.

---

[1]) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 438-439

كنيسة أسبوطير ومعناه المخلص: هذه الكنيسة بمدينة اخميم، وهي كنيسة معظمة عندهم، وهي على اسم الشهداء، وفيها بئر إذا جعل ماؤها في القنديل صار أحمر قانيا كأنه الدم.

كنيسة ميكائيل: بمدينة أخميم أيضا، ومن عادة النصارى بهاتين الكنيستين إذا عملوا عيد الزيتونة المعروف بعيد الشعانين أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشتعلة ويقفوا على باب القاضي، ثم أبواب الأعيان من المسلمين، فيبخروا ويقرءوا فصلا من الإنجيل، ويطرحوا له طرحا، يعني يمدحونه.

كنيسة بوبخوم: بناحية اتفه، وهي آخر كنائس الجانب الشرقيّ، وبخوم ويقال بخوميوس، كان راهبا في زمن بوشنودة، ويقال له أبو الشركة من أجل أنه كان يربي الرهبان، فيجعل لكل راهبين معلما، وكان لا يمكن من دخول الخمر ولا اللحم إلى ديره، ويأمر بالصوم إلى آخر التاسعة من النهار، ويطعم رهبانه الحمص المصلوق، ويقال له عندهم حمص القلة، وقد خرب ديره وبقيت كنيسته هذه باتفه قبليّ اخميم.

كنيسة مرقص الإنجيليّ: بالجيزة، خربت بعد سنة ثمانمائة ثم عمرت. ومرقص هذا أحد الحواريين، وهو صاحب كرسيّ مصر والحبشة.

كنيسة بوجرج: بناحية أبي النمرس من الجيزة، هدمت في سنة ثمانين وسبعمائة، كما تقدّم ذكره ثم أعيدت بعد ذلك.

كنيسة بوفار: آخر أعمال الجيزة.

كنيسة شنودة: بناحية هربشت.

كنيسة بوجرج: بناحية ببا، وهي جليلة عندهم يأتونها بالنذور ويحلفون بها، ويحكون لها فضائل متعدّدة.

كنيسة ماروطا القدّيس: بناحية شمسطا، وهم يبالغون في ماروطا هذا، وكان من عظماء رهبانهم، وجسده في انبوبة بدير بوبشاء من برّية شيهات، يزورونه إلى اليوم.

كنيسة مريم بالبهناس: ويقال أنه كان بالبهنسا ثلاثمائة وستون كنيسة خربت كلها، ولم يبق بها إلّا هذه الكنيسة لا غير.

كنيسة صمويل: الراهب بناحية شبري.

كنيسة مريم: بناحية طنبدي وهي قديمة.

كنيسة ميخائيل: بناحية طنبدي وهي كبيرة قديمة، وكان هناك كنائس كثيرة خربت، وأكثر أهل طنبدي نصارى أصحاب صنائع.

كنيسة الأيصطولي: أعني الرسل، بناحية أشنين، وهي كبيرة جدّا.

كنيسة مريم: بناحية اشنين أيضا وهي قديمة.

كنيسة ميخائيل

وكنيسة غبريال: بناحية اشنين أيضا، وكان بهذه الناحية مائة وستون كنيسة خربت كلها إلّا هذه الكنائس الأربع، وأكثر أهل اشنين نصارى، وعليهم الدرك في الخفارة، وبظاهرها آثار كنائس يعملون فيها أعيادهم، منها كنيسة بوجرج، وكنيسة مريم، وكنيسة ماروطا، وكنيسة بربارة، وكنيسة كفريل، وهو جبريل عليه السلام.

وفي منية ابن خصيب ست كنائس: كنيسة المعلقة وهي كنيسة السيدة، وكنيسة بطرس وبولص، وكنيسة ميكائيل، وكنيسة بوجرج، وكنيسة انيابولا الطمويهيّ، وكنيسة الثلاث فتية، وهم حنانيا وعزاريا وميصائيل، وكانوا أجنادا في أيام بخت نصر فعبدوا الله تعالى خفية، فلما عثروا عليهم راودهم بخت نصر أن يرجعوا إلى عبادة الأصنام فامتنعوا من ذلك، فسجنهم مدّة ليرجعوا فلم يرجعوا، فأخرجهم وألقاهم في النار فلم تحرقهم، والنصارى تعظمهم، وإن كانوا قبل المسيح بدهر.

كنيسة بناحية طحا: على اسم الحواريين الذين يقال لهم عندهم الرسل.

كنيسة مريم: بناحية طحا أيضا.

كنيسة الحكيمين: بناحية منهري، لها عيد عظيم في بشنس يحضره الأسقف، ويقام هناك سوق كبير في العيد، وهذان الحيكمان هما قزمان ودميان الراهبان.

كنيسة السيدة: بناحية بقرقاس قديمة كبيرة.

وبناحية ملوى كنيسة كنيسة الرسل، وكنيستان خراب، إحداهما على اسم بوجرج، والأخرى على اسم الملك ميخائيل. وبناحية دلجة كنائس كثيرة لم يبق منها إلّا ثلاث

كنائس: كنيسة السيدة، وهي كبيرة. وكنيسة شنودة، وكنيسة مرقورة، وقد تلاشت كلها. وبناحية صنبو كنيسة انبابولا، وكنيسة بوجرج، وصنبو كثيرة النصارى. وبناحية ببلاو وهي بحريّ صنبو كنيسة قديمة بجانبها الغربيّ على اسم جرجس، وبها نصارى كثيرون فلاحون. وبناحيا دروط كنيسة وفي خارجها شبه الدير على اسم الراهب ساراماتون، وكان في زمان شنودة، وعمل أسقفا، وله أخبار كثيرة. وبناحية بوق بنى زيد كنيسة كبيرة على اسم الرسل، ولها عيد. وبالقوصية كنيسة مريم، وكنيسة غبريال، وبناحية دمشير كنيسة الشهيد مرقوريوس، وهي قديمة وبها عدّة نصارى. وبناحية أمّ القصور كنيسة بوبخنس القصير وهي قديمة. وبناحية بلوط من ضواحي منفلوط كنيسة ميخائيل وهي صغيرة. وبناحية البلاعزة من ضواحي منفلوط كنيسة صغيرة يقيم بها القسيس بأولاده. وبناحية شقلقيل ثلاث كنائس كبار قديمة إحداها على اسم الرسل، وأخرى باسم ميخائيل، وأخرى باسم بومنا. وبناحية منشأة النصارى كنيسة ميخائيل. وبمدينة سيوط كنيسة بوسدرة وكنيسة الرسل، وبخارجها كنيسة بومينا. وبناحية درنكة كنيسة قديمة جدّا على اسم الثلاثة فتية حنانيا وعزاريا وميصائيل، وهي مورد لفقراء النصارى، ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية، فيتحدّث صغيرهم وكبيرهم بها، ويفسرونها بالعربية. وبناحية ريفة كنيسة بوقلتة الطبيب الراهب صاحب الأحوال العجيبة في مداواة الرمدى من الناس، وله عيد يعمل بهذه الكنيسة. وبها كنيسة ميخائيل أيضا، وقد أكلت الأرضة جانب ريفة الغربيّ. وبناحية موشة كنيسة مركبة على حمام على اسم الشهيد بقطر، وبنيت في أيام قسطنطين ابن هيلانة، ولها رصيف عرضه عشرة أذرع، ولها ثلاث قباب ارتفاع كل منها نحو الثمانين ذراعا، مبنية بالحجر الأبيض كلها، وقد سقط نصفها الغربيّ، ويقال أنّ هذه الكنيسة على كنز تحتها، ويذكر أنه كان من سيوط إلى موشة هذه ممشاة تحت الأرض. وبناحية بقور من ضواحي بوتيج كنيسة قديمة للشهيد اكلوديس، وهو يعدل عندهم مرقوريوس، وجاأرجيوس، وهو أبو جرج والإسفهسلارتا أدروس وميتاوس، وكان أكلوديوس أبوه من قوّاد ديقلطيانوس، وعرف هو بالشجاعة فتنصر، فأخذه الملك وعذبه ليرجع إلى عبادة الأصنام، فثبت حتى قتل وله أخبار كثيرة. وبناحية القطيعة كنيسة على اسم

السيدة، وكان بها أسقف يقال له الدوين، بينه وبينهم منافرة فدفنوه حيا، وهم من شرار النصارى معروفون بالشرّ، وكان منهم نصرانيّ يقال له جرجس ابن الراهبة، تعدّى طوره فضرب رقبته الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بالقاهرة في أيام الناصر فرج بن برقوق. وبناحية بوتيج كنائس كثيرة قد خربت، وصار النصارى يصلون في بيت لهم سرّا، فإذا طلع النهار خرجوا إلى آثار كنيسة وعملوا لها سياجا من جريد شبه القفص وأقاموا هناك عباداتهم.

وبناحية مقروفه كنيسة قديمة لميخائيل، ولها عيد في كل سنة، وأهل هذه الناحية نصارى، أكثرهم رعاة غنم وهم همج رعاع.

وبناحية دوينة كنيسة على اسم بوبخنس القصير، وهي قبة عظيمة وكان بها رجل يقال له يونس، عمل أسقفا واشتهر بمعرفة علوم عديدة فتعصبوا عليه حسدا منهم له على علمه ودفنوه حيا، وقد توعك جسمه.

وبالمراغة التي بين طهطا وطما كنيسة.

وبناحية قلفا كنيسة كبيرة، وتعرف نصارى هذه البلدة بمعرفة السحر ونحوه، وكان بها في أيام الظاهر برقوق شماس يقال له أبصاطيس له في ذلك يد طولى، ويحكى عنه ما لا أحب حكايته لغرابته، وبناحية فرشوط كنيسة ميخائيل، وكنيسة السيدة مارت مريم، وبمدينة هوّ كنيسة السيدة وكنيسة بومنا. وبناحية بهجورة كنيسة الرسل. وباسنا كنيسة مريم وكنيسة ميخائيل وكنيسة يوحنا المعمدانيّ، وهو يحي بن زكريا عليهما السلام. وبنقادة كنيسة السيدة، وكنيسة يوحنا المعمدانيّ، وكنيسة غبريال، وكنيسة يوحنا الرحوم، وهو من أهل أنطاكية ذوي الأموال، فزهد وفرّق ماله كله في الفقراء وساح وهو على دين النصرانية في البلاد، فعمل أبواه عزاءه وظنوا أنه قد مات، ثم قدم أنطاكية في حالة لا يعرف فيها، وأقام في كوخ على مزبلة، وأقام رمقه بما يلقى على تلك المزبلة حتى مات، فلما عملت جنازته كان ممن حضرها أبوه، فعرف غلاف إنجيله، ففحص عنه حتى عرف أنه ابنه، فدفنه وبنى عليه كنيسة أنطاكية. وبمدينة قفط كنيسة السيدة، وكان بأصفون عدّة

كنائس خربت بخرابها، وبمدينة قوص عدّة أديرة وعدّة كنائس خربت بخرابها، وبقي بها كنيسة السيدة ولم يبق بالوجه القبليّ من الكنائس سوى ما تقدّم ذكرنا له.

وأما الوجه البحريّ: ففي منية صرد من ضواحي القاهرة كنيسة السيدة مريم، وهي جليلة عندهم. وبناحية سندوة كنيسة محدثة على اسم بوجرج، وبمر صفا كنيسة مستجدّة على اسم بوجرج أيضا، وبسمنود كنيسة على اسم الرسل عملت في بيت، وبسنباط كنيسة جليلة عندهم على اسم الرسل، وبصندفة كنيسة معتبرة عندهم على اسم بوجرج، وبالريدانية كنيسة السيدة ولها قدر جليل عندهم، وفي دمياط أربع كنائس للسيدة ولميخائيل وليوحنا المعمدانيّ ولماري جرجس، ولها مجد عندهم. وبناحية سبك العبيد كنيسة محدثة في بيت مخفيّ على اسم السيدة، وبالنحراوية كنيسة محدثة في بيت مخفي، وفي لقانة كنيسة بوبخنس القصير، وبدمنهور كنيسة محدثة في بيت مخفي على اسم ميخائيل، وبالإسكندرية المعلقة على اسم السيدة وكنيسة بوجرج وكنيسة يوحنا المعمداني وكنيسة الرسل، فهذه كنائس اليعاقبة بأرض مصر، ولهم بغزة كنيسة مريم، ولهم بالقدس القمامة وكنيسة صهيون.

وأما الملكية فلهم بالقاهرة كنيسة ماري نقولا بالبندقانيين، وبمصر كنيسة غبريال الملاك بخط قصر الشمع، وبها قلاية لبطركهم، وكنيسة السيدة بقصر الشمع أيضا، وكنيسة الملاك ميخائيل بجوار بربارة بمصر، وكنيسة مار يوحنا بخط دير الطين[1].

1) المواعظ والاعتبار ج 4 ص 447-452

كنيسة يوحنا المعمدان للملكانيين

عندما قصد الشيخ خضر الأسكندرية أيام الملك الظاهر قصد كنيسة للروم كانت كرسياً من كراسيهم التي يعتقدون فيها البطركية ويزعمون أن رأس يحيى ابن زكريا فيها وهو عندهم يحنى المعمدانى وصيرها مسجد وبنى فيها المحاريب وسماها المدرسة الخضرا[1]

كنيسة النحريرية

فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وفيه كائنة هدم الكنيسة للنصارى بناحية النحريرية، وكانت كاينة فظيعة ثار بها العامة بسبب إنسان من النصارى شهد عند القاضي أن جده كان مسلما، فحكم القاضي بإسلامه وحبسه ليسلم، فأخرجه والي المحلة ليلا بقيام بعض النصارى، فثار العامة لرجم الوالي، وثار بهم الوالي، فهزم العامة الوالي، وخرج فارا، فقصدوا كنيس النصارى وهدموه وأحرقوا ما به من صلبان ونحوها، وعمروها مسجدا، ونبشوا قبور النصارى وأحرقوا رممهم وهموا بأخذ النصارى كذلك فهربوا. وبلغ الخبر السلطان، وشنع الحسام أستادار العلاء على القاضي وسعى في إلزامه بإعادة الكنيسة من ماله، فبعث السلطان فطلب القاضي والوالي، وعقد مجلس بجامع القلعة بالقضاة الأربع والوزير، وغيره من أهل الدولة، وطال فيه الكلام، وانفض على غير طائل. ثم أعيد ثانيا عند شيخو بداره، وحضر العلامة أكمل الدين، فحنق شيخو من القاضي وأغلظ عليه القول، فقام الأكمل في ذلك. وبلغه شيخو بكلمات منها تخويفه من عواقب ذلك، وصدع الحسام بالإنكار، بل وسبه ونسبه إلى الخروج عن الإسلام. وآل الأمر إلى سكون شيخو ورجوعه إلى كلام الأكمل، والبعض بكشف القضية. ثم آل الأمر إلى عزل القاضي والوالي[2]

هدم دير بالوجه البحرى

سنة أربعين وثمانمائة هـ وفيها قام إنسان يقال له الشيخ ناصر الدين محمد بن على الطنتداوي فى هدم الدير الذى فى الوجه البحرى فحضر الشيخ ناصر الدين هذا مولد

---

1) تاريخ الملك الظاهر لابن شداد ص 274

2) نيل الأمل فى ذيل الدول لابن شاهين الملطي ص 258

السلطان وأخرج محضراً من يده يتضمن أن النصارى يقصدون هذا الدير فى كل عام ويحجونه ويجتمع فيه من النصارى والمسلمين جمعاً وافراً للفرجة والتجارة حتى صاروا بذلك يضاهون أهل الموقف بعرفة ويقع منه من المفاسد مالا يعبر عنه وأن العلماء أفتوا بهدم هذا الدير وإزالة تلك العادة ففوصض السلطان الأمر فى ذلك للقاضى المالكي فأقام المالكي فى ذلك حق القيام وفتر العزم عن هذه فى هذا العام حتى كان العام الآتي فهدم[1]، ورسم السلطان لجانى بك الأستادار بأن يتوجه لهدمه فخرج وصحبته جماعة من البنائين وهدم ذلك الدير وأحرق عظام من كان مدفوناً به من النصارى[2]

دير المغطس البرلس

وفى سنة احدى وأربعين وثمانمائة هـ وفيه خرج جكم خال العزيز يوسف إلى الوجه البحري لهدم دير المغطس عند الملاحات بقرب بحيرة البرلس وكانت النصارى تحج إليه في عيد الغطاس ويسمونه عيد الطهور، وتحدث فيه عن المنكرات مالا يعبر عنه وهو الذى قام الشيخ محمد الطنباوي فى هدمه وأمر السلطان القاضى المالكي فى النظر فى ذلك فما فعل شيئاً حتى قام هذا الجركسي وهو جكم وأستأذن السلطان وخرج بنفسه فهدمه وأبطلت تلك الشناعة التى كانت تحدث فيه[3].

وعن هذا الدير أيضاً يذكر ابن حجر العسقلانى: في سنة احدى وأربعين وثمانمائة هـ هدم دير المغطس وهو دير روماني من قبل الإسلام لكنهم يبالغون في تعظيمه ويخصون له يوماً معيناً كالعيد، يجتمع فيه من جميع أقطار الإقليم مشاة وركباناً، ويتشبهون بالحجاج، ويجتمع حوله من الباعة ما جرت به العادة في المواسم الكبار، ويعلنون فيه بسب أكابر المسلمين كالصحابة خصوصاً خالد بن الوليد[4].

1) نيل الأمل في ذيل الدول لابن شاهين الملطي ج 4 ص 416

2) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ج 2 ص 175

3) نيل الأمل في ذيل الدول لابن شاهين الملطي جـ 5 ص 25 ، وأيضاً أنظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس جـ 2 ص 183

4) إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 71

ويذكر ابن داود الصيرفى: أنه فى شهر رمضان هُدم للنصارى ببحيرة البرلس دير المغطس عند الملاحات، وأن هذا الدير كانت تحج إليه نصارى الإقليم القبلى والبحرى كما يحجون إلى كنيسة القمامة بالقدس وذلك فى عيدهم من شهر بشنس ويسمونه بعيد الظهور[1].

دير الشيخ عماد

ورد خبر هذا الدير فى خبر عابر عند ذكر وفاة الشيخ الصالح أبى الحسن على يوم الأحد السابع عشر من محرم سنة أربعين وسبعمائة هـ فذكر أنه بعد وفاته صلى عليه بالجامع المظفري ودفت بتربتهم على كَتِف الوادى تحت دير الشيخ العماد بقاسيون[2].

كنيسة الأسقف

يذكر أبي الفتح الصوفي: كانت منف ثلاثون ميلاً فى عشرين ميلاً بيوتاً متصلة وبها كنيسة الأسقف لا يعرف طولها من عرضها مسقفة بحجر واحد ولو أجتمع أهل الدنيا لم يصنعوا مثل ذلك[3]

دير شعوانة

فى يوم الأحد تاسع عشر جمادى الآخرة فى سنة سبعة عشر وسبعمائة هـ توفى رصوما النصراني مقيماً بدير شعوانة فى آخر مصر المحروسة ويتردد إليه جماعة من أهل ملته وجماعة من المسلمين[4]

---

1) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، للخطيب الجوهرى على بن داود الصيرفى جـ 3 ص 407

2) الوفيات لابن رافع السلامي ج1 ص293

3) الصفوة فى وصف المملكة المصرية لابن أبي الفتح الصوفي ص57

4) الوفيات للبرزالى ص 343

دير الطين

دير الطين بأرض مصر على شاطئ النيل في الطريق إلى الصعيد قرب الفسطاط متصل ببركة الحبش عند العدوية وأهل الدير والعدوية من غنيم ورأيت أنا الدير والبركة وهو في مكان نزه من حوله البساتين وكثير منها أنشأها تميم بن المعز[1]، وتاج العروس يذكر: دير الطين: هو دير مرجنا: قرية قرب مصر شرقيها على النيل المبارك، وبها الآثار الشريفة وموضع آخر قبالة سملوط مطل على النيل، وله سلالم منحوتة في الجبل[2]، وأبى دقماق يذكر: كنيسة أبى جرج هذه الكنيسة بظاهر مصر بدير الطين بالجانب الشرقى[3]، ثم يذكر ابن دقماق عن كنائس الملكيين: كنيسة تعرف بمرِحنا هذه الكنيسة بدير الطين بجوار بستان الصاحب تاج الدين بن حنا ذو الحوض[4].

أما عن تخريب الدير، ففى سنة ست وثمانين وماية وألف هـ/١٧٧٢م، فيها في المحرم خرج علي بك إلى جهة البساتين كما تقدم في أواخر العام الماضي، وعمل متاريس ونصب عليها المدافع من البحر إلى الجبل، واجتهد في تشهيل تجريدة وأميرها علي بك الطنطاوي وصحبته باقي الأمراء الذين قلدهم والعسكر، فعدوا في منتصفه لمحاربة محمد بك أبي الدهب وإسماعيل بك ومن معهما وكانوا سايرين يريدون مصر، فتلاقوا معهم عند بياضه قرب المعادي ووقعت بيهم معركة قوية ظهر فيها فضل القاسمية، وخصوصًا أتباع صالح بك وعلي أغا المعمار، ووقعت الهزيمة على عسكر علي بك وساق خلفهم القبالى مسافة، فمانعوا عن أنفسهم وعدوا على دير الطين، وكان علي بك مقيمًا به، فلما حصل ما حصل اشتد القهر بالمذكور وتحير في أمره، وأظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام إلى آخر النهار، وتفرق عنه غالب عساكره من المغاربة وغيرهم، وحضر محمد بك إلى البر المقابل لعلي بك ونصب صيوانه وخيامه تجاهه، فتفكر علي بك في أمره، وركب عند الغروب وسار إلى جهة مصر، ودخل من باب القرافة وطلع إلى باب العزب فأقام به حصة من الليل،

---

1) الخزل والدال لياقوت الحموى ج2 ص115-116

2) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدى ج 35 ص 362

3) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج1 ص107-108

4) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج1 ص108

وأشيع بالمدينة أن مراده المحاصرة بالقلعة ثم إنه ركب إلى داره وحمل حموله وأمواله، وخرج من مصر وذهب إلى جهة الشام، وذلك ليلة الخامس والعشرين من شهر المحرم، وصحبته علي بك الطنطاوي وباقي صناجقة ومماليكه وأتباعه وطوايفه، فلما أصبح يوم الخميس سادس عشرينه عدى محمد بك إلى بر مصر، وأقدوا النار في ذلك اليوم في الدير بعدما نهبوه، ودخل محمد بك إلى مصر وصار أميرها، ونادى أصحاب الشرطة على أتباعه أي: أتباع علي بك بأن لا أحد يؤويهم ولا يتاويهم. فكانت مدة غيبته سبعين يومًا، وأرسل عبد الرحمن أغا مستحفظان إلى عبد الله كتخدا الباشا، فذهب إليه بداره وقبض عليه وقطع رأسه ونادى بإبطال المعاملة التي ضربها المذكور بيد رزق النصراني، وهي قروش مفرد ومجوز، وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف قرش، وكان أكثر ما نحاسا وعليها علامة علي بك[1].

و يذكر فنسلبيو عن دير العدوية: أنه فى كتاب معجزات السيدة العذراء المكتوب باللغة الحبشية، أنه فى دير العدوية كانت هناك عادة بالاحتفال كل عام يوم 10 أأغسطس بعيد السيدة العذراء، وفى أيام رئيس الدير رزق الله المولود فى القاهرة، كان هناك ذات سنة حضور كبير من الرجال والنساء للإحتفال بذلك العيد، وكان كل واحد يرتدى أحسن ما لديه، فلما تنبه العرب فى القرى المجاورة قرروا مهاجمة هؤلاء الناس فى الليل، وسرقة جميع ملابسهم بعد تلاوة صلاة الغروب والقيام بطواف إحتفالى بصورة العذراء بتلك الكنيسة، وبعد ترتيل صلاة نصف الليل والتسابيح، ذهب الجميع للنوم فوق سطح الكنيسة فى الهواء الطلق، جاء العرب وصعدوا إلى سطح الكنيسة وسرقوا جميع متعلقات وملابس هؤلاء الناس، أثناء ذلك سمع رئيس الدير رزق الله، عويل الشعب وصراخه، ولما عرف سبب ذلك نزل مع جميع الرهبان، وتوجه إلى صورة السيدة العذراء المذكورة، وركعوا وصلوا بأنَّات إلى العذراء الكلية القداسة، أن تتكرم وتثأر للإهانةالتى إقترفها العرب المذكورون، وإلا لن يعود أى أحد للإحتفال بعيدها، وبينما يصلى الرهبان سمعوا طرقاً على باب الكنيسة، فأعاد العرب جميع المتعلقات وسط ذهول وتعجب الرهبان، وعندما سألوا العرب عن السبب،

1) عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، جـ 2 ص 285-286

كانت الإجابة أنهم أصيبوا جميعاً بالعمى واالعرج ولم يستطيعوا التحرك بالمرة، وأنهم سمعوا صوتاً قال لهم: إن لم تعيدوا أمتتعة الناس الذين أتوا لحضور عيدي، لن تظلوا عمياناً وعرجاً فحسب، بل وعند إنبلاج الصباح مباشرة سيشنقكم حاكم الأرض كلصوص، وأنهم عندما سمعوا هذه الكلمات أعادوا كل ما كانوا قد سرقوه، بعد ذلك ذهبوا جميعاً ووقفوا أمام صورة السيدة العذراء المذكورة لكى يشكروها، ولكى يتوسلوا إليها معاً لخلاص هؤلاء العرب، الذين ذهبوا هم أيضاً ووقفوا أمامها وشكروها على استعادة صحتهم، وقاموا بخدمة هؤلاء الرهبان مدى حياتهم[1].

دير القديسين الأربعين

أثناء رحلة برنار الحكيم سنة 867م، عندما وصل إلى الأسكندرية، رأى خارج البوابة الغربية دير يدعى دير القديسين الأربعين، ويوجد فيه كما هو معتاد عدد من الرهبان.[2]

1) تقرير الحالة الحاضرة لمصر 1671م، جوفنى ميكيله فنسلبيو، ص 144-145

2) رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحرى فى عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، ص 143

المشاهدات التى رآها كل من ليوناردو فريسكوبالدى وسيمونه سيغولى، فى وصفهم لرحلتهم إلى الأراضى المقدسة فى القرن الرابع عشر الميلادى 1384م

فى جبل سيناء كنيسة القديسة كاترينا وفى الكنيسة رأس وعظمتان من القديسة، وفى الكنيسة نفسها جثمان القديس يوحنا Olimaco والقديس Chimento والقديس نوفريو، وبالقرب منها توجد كنيسة القديسة ماريا Piaggeria

وبالقرب توجد كنيسة القديس إيليا، وهنا تاب وتلكم مع الرب.

وقرب كنيسة القديسة كاترينا جبل عال فى قمته أعطى الله النبى موسى كتاب العهد، وهنا بدأنا الصعود إلى الجبل، وأما رهبان الكنيسة فسهلوا الصعود للحجاج فوضعوا عدد كبير من الدرجات الحجرية ويبلغ عددها 144 ألف درجة، ما عدا المناطق التى تستطيع أن تسير فيها دون حاجة إلى التسلق، وفى قمة الجبل أعطى الله النبى موسى كتاب العهد وطلب منه أن يقف ويكلمه أربع ساعات، ثم أعطاه الكتاب ليحكم شعب الله.

وفى هذا المكان بنيت كنيسة صغيرة على شرف القديسة مريم العذراء، وفيها عدد من أجساد القديسين.

وعند نزول الجبل من الجهة الأخرى منحدرات صعبة وخطرة وهناك كنيسة صغيرة تسمى كنيسة مريم الرحمة، وهناك رهبان فى خدمة الكنيسة، ولاستضافة الحجاج أقاموا حديقة تحيط بالكنيسة يقال أن موسى النبى صنعها بيده ووضع فيها بركة ماء، والحديقة مظللة بأشجار الزيتون والخوخ والتين وفاكهة أخرى وهى كبيرة وجميلة.

وعلى جانب الجبل المكان الذى تاب فيه القديس نوفريو على صخرة كبيرة وشيد فيه مكان للصلاة كبير، وعند وصولنا للكنيسة طلب منا الرهبان أن نتخلى عن كل ما هو ثقيل قبل صعودالجبل لأن الطريق طويل وصعب، فوضعنا أحملنا وانطلقنا بمعونة الله إلى موضع القديسة كاترين البتول، ومن لم يجرب صعود ذلك الجبل لا يمكنه تخيل المشقة التى عانيناها، فهناك مواضع كثيرة يجب أن تتسلق فيها بيديك وأرجلك، وإذا لم تضعها فى المكان المناسب يمكنك اعتبار الرحلة إنتهت، وللوصول إلى أقصى القمة علينا أن ندور بشكل دائرى، وهناك صخور ناتئة وكبيرة وعليك عندما تصل الواحدة أن تنتقل إلى الأخرى مباشرة، وبين الواحدة والأخرى هاوية، وهنا على صخرة من الصخور وضعت الملائكة جسد

القديسة كاترين بعد قطع رأسها فى الأسكندرية، وما زال موضع جسدها محفوراً على الصخر، وظلت الملائكة تحرس جسدها مدة 500 سنة، وهنا بنيت كنيسة القديسة كاترين حيث رُفع جثمانها ليوضع فى الكنيسة، وما زال يعرض أمام الحجاج حتى اليوم، ويوجد رأس وعظمتان، والحقييقة أن رأس القديسة كاترين مبارك، فهو من العنق إلى الرأس يخلو من أى زينة، فترى جلد الوجه وكأنها قضت منذ فترة وجيزة، وهذا الرأس ينضح بإستمرار، ونحن فى المكان الصخرى وقفنا جميعاً وأخذنا قطعاً من الأحجار حيث كان الجسد فى هذا المكان الذى وضعته فيه الملائكة، وهذا المكان خال من السكن وهو قاحل.

ومن هذا المكان المرتفع 8 آلاف ميل شاهدنا بلداً كبيراً وكذلك رأينا البحر الأحمر، وعلى بعد 15 ميل مرَّ موسى النبى وشعب إسرائيل عند هروبهم من فرعون الذى لحق بهم، وعند نزولنا من على الجبل كان النزول أصعب من الصعود بسبب المنحدرات الصعبة والخطرة، وعندنا إلى كنيسة سيدة الرحمة العذراء، حيث تركنا أمتعتنا، فوجدنا الرهبان وقد هيأوا لنا المائدة دون أن نطلب منهم ذلك، وهذه هى عادتهم مع جميع الحجاج، فهم يعرفون مشقة الصعود والنزول.

وبعد أن ذهبنا إلى صحراء بابليون، أخذنا الرحلة فى 12 يوماً، وخارج بابل مكان يدعى المطرية وتبعد عنها 4 أميال، وفى هذا المكان المدعو المطرية توقفت السيدة العذراء مع ابنها المسيح، فطلب ماء للشرب ولم يكن معها فبدأ يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين فنبع ماء عذب هو الأطيب على هذه الأرض.

وهناك سقف يحمى الماء وجدران من الرخام المحفور، وعلى بعد 100 قدم نبع عذب آخر كانت السيدة العذراء تغسل ملابس طفلها عنده ثم تنشرها على حقل مجاور فيه أشجار يُأخذ منها بلسم لا مثيل له، وهنا فى هذا الحقل شجرة تين لجأ إليها السيد المسيح هرباً من اليهود، وكل من دخل وأكل من هذه الشجرة ذهب وجع صدره وكليته، وكذلك يفعل المسلمون فهم يؤمنون بهذه المعجزة.

وعند وصولنا إلى بابليون زرنا 5 خمسة كنائس ما زالت قائمة تمجد الله، فى الكنيسة الأولى ذهبت أدعو القديس توما تلميذ السيد المسيح، حيث حقق معجزات كثيرة فى هذا المكان،

وهناك الكثير ممن إعتنق المسيحية فى هذا المكان ويسمونهم ميسحيو الحزام لأن السيدة العذراء عندما صعدت السماء تركت حزامها عند القديس توما، إن مسيحيو الحزام كثيرون جداً وينتمون إلى بلاد كثيرة وأغلبهم من الهند وهم أعداء المسلمين، والكنيسة جميلة ومزينة، والمسيحيون التابعون لتلك الكنيسة لا يتناولون على طريقتنا بل يأكلون الخبز المطهو، ثم ذهبنا لزيارة كنيسة القديسة بربارة وهى تبعد عن الكنيسة الأولى نصف ميل وفيها جسد القديسة وتحققت بها معجزات عديدة وهى تابعة لمسيحيي الحزام.

على مسافة ميل ونصف دخلنا كنيسة القديسة مريم ذات الدرج Sanata Maria della Scala وصعدنا درجاً حجرياً مؤلفاً من 20 درجة، وداخل الكنيسة عمود من الحجر عليه صندوق فيه صورة السيدة العذراء محفورة، وهنا تحصل معجزة فبعد كل قداس يصدر برق من السماء لا ينقطع إلا عندما ينتهى القداس، وهناك أيضاً تظهر حاملة كتاباً فى يدها.

وعلى بعد نصف ميل دخلنا كنيسة الكهف وتنبعث من هذا المكان رائحة ذكية، وفى هذا المكان إلتجأت السيدة العذراء مع إبنها المسيح هرباً من هيرودس الذى أرسل لقتله، وإذا أردت دخول المكان الذى مكثت فيه السيدة العذراء عليك أن تنزل سلماً من الحجر فيه 9 درجات، وهنا مكثت السييدة العذراء مع إبنها فترة من الزمن، وتنبعث رائحة ذكية، وفى الغرفة نافذة كانت تضع السيدة العذراء إبنها عليها، وفى هذا المكان تتحقق التوبة ويغفر الذنب، وكل تلك الأمكنة جميلة جداً وهناك رخام على الأرض وتزيينات جميلة ومباركة.

وعلى بعد ميل تقريباً كنيسة القديس مارتينو وفيها جسده، ولقد عانقناه جميعاً تيمناً وبركة، والكنيسة تخضع للرهبان اليونان وللكنيسة قبة.

وفى الأسكندرية زرنا الأعمدة التى كبلت عليها القديسة كاترينا بسلاسل حديدية، وزرنا المكان الذى سجنت فيه، والمكان الذى قطعت فيه رأسها بين العمودين[1].

ويذكر أيضاً ليوناردو فريسكوبالدى وسيمونه سيغولى ما رأوه فى الأسكندرية فى رحلتهم بالقرن الرابع عشر الميلادى: وفى الأسكندرية السجن الذى سجنت فيه القديسة كاترينا وفيه عمودان وعجلات ربطت عليها لأجل تعذيبها وبين هذين العمودين قطع رأس القديسة،

1) رحلات إلى الأراضى المقدسة، ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى، ص 148-152

وفى هذا المكان تاب فيه القديس يوحنا فم الذهب Boccadoro، وهناك الحجر الذى قطع عليه رأس القديس يوحنا المعمدان فى سجن هيرودس، وعلى بعد نصف ميل من الأسكندرية كنيسة القديس أثناس الذى قال: [1]..."Qui cunque vult salvus est".

ثم يذكروا ما شاهدوه فى المطرية: المطرية هو المكان الذى إستراحت فيه السيدة العذراء عند قدومها القاهرة، ولما شعروا بالعطش ضرب السيد المسيح الأرض بقدمه، فخرجت ماء عذبة وغزيرة، وبعد أن إستراحت السيدة العذراء غسلت ملابس إبنها ووضعتها على شجيرات صغيرة لتجف.

وما زالت تلك الشجيرات إلى وقتنا هذا، ويخرج منها بلسم يشفى، ولقد فطن السلطان لهذا فجعل المكان من خاصة حدائقه وسوره واقفل عليه بالمفتاح، ولقد قال لنا المترجم ويدعى إلياس: بأننا نستطيع رؤية الزرع وأخذ البلسم الذى يجمع بتلك الطريقة، تنزع الوريقات التى تشبه ورق الريحان، وعند نزعها يخرج سائل أبيض يشبه السائل الذى يخرج من التين عند قطعه، ثم يجمع فى وعاء من الخشب ويُضغط عليه بالإصبع لملئه فى قوارير، ويحتاج الأمر لوقت وجهد وكمية كبيرة من الأوراق لجمع قارورة صغيرة، لذلك فلقد مكثنا النهار بأكمله، وللسيمونيا Simonia ملأنا كل ما إستطعنا وهكذا فعل أصحابى.

وفى هذه الحديقة تين الفرعون وساقه فيها إنخفاض، وهو المكان الذى وضعت فيه السيدة العذراء إبنها بغرض نشر الملابس لتجف، ومن الملاحظ أنه لا يوجد فى القاهرة مكان آخر فيه ماء، فمن هذا المكان تسقى الأراضى وتحرث بمحراث يعلق فى الثيران، وهم يتوقفون عن العمل السبت وقت الغروب وحتى الإثنين صباحاً[2].

وصف الرحلة إلى جبل سيناء :

يوم 29 أكتوبر وصلنا سهل جبل سيناء حيث أستوطن بنو إسرائيل أيام موسى النبى، وفى هذا المكان طلب الرب من موسى أن يخلع حذائيه عندما يدنو لأن المكان مقدس، وفى ذلك الموضع بنيت الكنيسة للقديسة كاترين حيث دخلنا، وطلبوا منا ترك أمتعتنا فى الداخل،

1) رحلات إلى الأراضى المقدسة، ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى، ص 73

2) رحلات إلى الأراضى المقدسة، ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى، ص 87

ولقد صلينا فى كل زاوية من الكنيسة، ثم أعطوا كل واحد منا كأس نبيذ وخبزاً وسمكاً مملحاً من صيد البحر الأحمر، وكدليل حضر راهب اسمه جوفانى دي كانديا، يدلنا فى جبل سيناء، ولقد ساعدنا على تسلق الجبل والمناطق حوله.

فى المذبح الرئيسى لهذه الكنيسة جسد القديسة كاترين، وفى طرفه العلوى صندوق من الرخام مغطى بقماش ذهبى، ويحتوى هذا الصندوق على رأس القديسة وقطعتين من ذراعها، وخلف المذبح كنيسة صغيرة فيها جثمان القديس يوحنا Crimaco ومنه يخرج سائل أبيض عبر ثقب، وهنا كان علينا أن نخلع أحذيتنا كما فعل موسى النبى، ومن أذنى القديسة كاترين أيضاً يخرج سائل أبيض تروى عنه الأعاجيب، ولقد أعطانا الأسقف قارورة تحتوى على السائل ثم أعطانى قارورة أخرى لى.

ولا يزين رأس القديس شيء، وعلى العكس فهى بسيطة، ولقد جعلنى الأسقف ألمسها وأقبلها وأنا أصلى، وأما الكنيسة الأخرى فللقديس يوحنا المعمدان، وهناك عدد آخر من القديسين منهم القديس كلمنت Clemente والقديس نوفريو ولكننا لم نستطع رؤيتهما، والثالثة للقديس يعقوب تلميذ السيد المسيح، وهناك عدد من الكنائس الصغيرة المحيطة، والكنيسة مزينة وليس فيها أجراس، ويحيط بها جدار كبير وعالٍ كالجدار المحيط بفلورنسا ولكنه أجمل وأدق صنعاً، وبين الحائط والكنيسة عدد من الكنائس الصغيرة، منها كنيسة القديس اسطفانوس الشهيد.

يرأس الكنيسة الإغريق، وتخضع لرعاية أسقف نصبه بطريرك القاهرة والإسكندرية، وثبته سلطان القاهرة، ويساعد الأسقف 200 شخص فيهم 150 فى تلك الكنيسة يقومون على خدمتها، ولكل منهم مسكن وهم أتقياء جداً يضعون على صدورهم صليباً من الخشب الأسود، ولقد حصلت من أحدهم على صليبه.

ومن عاداتهم بعد صلواتهم أن يقوموا بالأعمال اليدوية كزراعة الحقل وخياطة الملابس، وهى من النسيج الغليظ، أما الخمسون 50 الآخرون فيمكثون بأعلى الجبل حيث تسلم موسى النبى لوحى العهد، وهناك توجد كنيسة سيدة الرحمة مريم، وهم يعيشون بنفس الطريقة لا يأكلون اللحم أو يشربون الخمر، وهناك مسجد للمسلمين فى هذا المكان أيضاً

وفى هذا المكان عدد من الأعراب البدو يعيشون ككل مناطق الصحراء بلا مأوى أو عمل، ولهم كهوف وماشية هزيلة تقتات على أشجار الخوخ الصغيرة، لكن عندهم كثير من الماء وعددهم 1000نفس، وكل يوم يوزع الأسقف عليهم رغيفاً من الخبز لكل شخص.

يكتظ هذا المكان بكثير من المسيحيين والمسلمين والحجاج الأغنياء الذين يتبرعون ومنهم من يأتى من كريت، وعندهم الماء الكثير وهناك طاحون وفرن ويساعدون الحجاج فى رعاية حيواناتهم بقوة سواعدهم ويساعدوهم على تسلق جبل سيناء، وهناك نبع ماء خارج الكنيسة فى الطرف الأعلى قد تفرعت عنه ينابيع عديدة استخدمها العرب وجعلوا قربها حدائق.

بعد تسلق صخور عديدة توجد كنيسة القديسة مريم Maria della Piaggeria ولقد سميت بهذا الاسم عقب حدث حصل فى الزمن البعيد تعرض فيه الرهبان إلى غزو الحشرات والزوتحف مما جعل إمكانية بقائهم فى المكان مستحيلة، لذلك قرروا ترك المكان وتسلقوا الجبال فارين، وعند منتصف الطريق استوقفتهم سيدة جميلة سألتهم وجهتهم فرووا لها ما حدث، فوعدتهم إن هم رجعوا أن يُنظف المكان على أن يتعهدوا بالتوبة من خطاياهم لكى يطهر المكان، وهذه السيدة كانت السيدة العذراء مريم، وعند رجوعهم وجد الرهبان عدداً من الجمال المحملة بالبضائع وظهر شاب فسألوه عن مالك البضاعة فقال لهم: أن سيداً إشتراها وأوصاه أن يحملها إلى هذا المكان، وعند وصوله وجد صورة تمثل موسى النبى، فصاح قائلاً ذلك هو السيد الذى أوصانى بنقلها وفوراً إعتنق المسيحية.

بعد ذلك صعوداً يوجد قوس لا يمكننا عبوره، قالوا لنا بأنه المكان الذى عبره موسى النبى، وفوق ذلك بقليل يوجد قوس آخر تحته طلب إيليا التوبة، وهناك كنيسة صغيرة كنيسة السيدة مريم Uziaca.

وصعوداً على قمة الجبل يوجد مقعد عالٍ منه كلم موسى النبى الرب، وهناك على جانب المقعد كنيسة صغيرة فيها أجساد قديسين كثيرين منهم أليشع النبى، وهناك أدراج يبلغ عددها 14 ألف درجة قبل أن تصل إلى جسد القديسة كاترين، والدرجات شديدة الإنحدار.

وبعد الوصول إلى أسفل الجبل توجد كنيسة سيدة الرحمة مريم، وفى الكنيسة عدد كبير من الأجساد المدفونة، وهناك فى الخارج بستان نضر فيه مزارع زيتون وتمر وتين الفرعون وبرتقال وعنب، وفيه 3 ثلاث ينابيع ماء تجرى مياه تسقى الأشجار والعشب، ولولا هذا الماء لجفت الأرض لعدم هطول الأمطار لفترة طويلة.

وفى خارج الكنيسة رواق ومكان للصلاة، وهناك تاب القديس نوفريو ومكث 40 يوماً وليلة صائماً عن الأكل والشرب وجاء القديسان بولا وأنطونيوس عدة مرات لزيارته وهنا أيضاً تنيح، ولقد إستقبلنا رهبان الكنيسة بفرح وجاء معنا إثنان منهم مع الراهب جوفانى دى كانديا وراهب سانت كاترين لوعظنا، كما نصحونا بترك أمتعتنا الثقيلة عندهم لنصعد الجبل.

بعد الرجوع إلى كنيسة القديسة كاترين فى ذلك المساء 30 أكتوبر، وفى الصباح وهو اليوم الذى يسبق ذكرى جميع القديسين أعطينا الرهبان بعض الخبز والأرز ومأكولات أخرى مما تمونا به من القاهرة، وبعد ذلك صلينا مع أسقف الكنيسة والرهبان وكانوا يكررون كيرىإليسون، وهم لا يتناولون الخبز والنبيذ مجتمعين ولكن يستخدمون الخبز المختمر، ويقيمون القداس فى كنيسة ويقدسون الخبز فى مكان آخر ثم يحضروه إلى الكنيسة فيتناولها الأسقف ثم الرهبان[1].

1) رحلات إلى الأراضى المقدسة، ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى، ص 91-96

الكنائس والأديرة التى شاهدها جوفنى ميكيله فنسلبيو، فى رحلته إلى مصر عام 1664م[1]

الكنائس القائمة فى وسط القاهرة هى التالية:

فى الشارع المدعو حارة زويلة حيث يسكن البطريرك، كنيسة كبيرة تدعى كنيسة السيدة العذراء، وهى مقر البطريرك، هناك فوق الكنيسة ذاتها كنيستان أخريتان، أى كنيسة الأحباش وكنيسة الأرمن، وللثلاث سور واحد.

فى حارة الروم أى شارع اليونانيين كنيسة السيدة العذراء وهى مخصصة لسكن البطاركة.

فى مصر القديمة كنيسة الطوباوى الشهيد مارمينا الذى ندعوه القديس مِنَا.

فى حارة البطريرك كنيستان متجاورتان، واحدة اسمها كنيسة الطوباوى مركوريوس حيث يسكن البطريرك، والثانية كنيسة الطوباوى أنبا شنودة أى الطوباوى آبا سنوتيوس كما ندعوه نحن، وكان واحد من القديس الأربعة الكبار فى مصر.

فى قصر الشمع: كنيسة السيدة العذراء.

فى المعلقة: كنيسة قديمة جداً للسيدة العذراء.

فى قصرية الريحان، كنيسة القديس جرجس (سرجيوس)، تحت هذه الكنيسة مغارة إختبأ فيها لوقت طويل سيدنا يسوع المسيح مع أمه الكلية القداسة، عندما كان هارباً من مطاردة هيرودس، وقد زرتها بتقوى خاصة، ثم هناك أيضاً كنيسة القديسة بربارة.

بقرب هذه الكنيسة فى الشارع المسمى درب الثقة، دير راهبات وكنيسة على اسم القديس جرجس، حيث صورته العجائبية.

خارج مصر القديمة وبين خرائب هذه المدينة، والتى تكون جبلاً من الشقف والأحجار، ثلاث كنائس فى صف واحد، الأولى اسمها بابلون الدرج للسيدة العذراء، والثانية للطوباوى يوحنا وأبوقير، والثالثة للطوباوى تادرس، وقد قضيت فى هذه الكنيسة ليلة وحضرت فيها عماد.

لاحظ أنه فى بابيلون كنيسة قديمة جداً تحت الأرض من عصر الرسل، وقد ذكر لى الأقباط عدة قصص تحتاج إلى فحص جيد، وهم يؤمنون أنها هى الكنيسة التى يذكرها بطرس فى رسالته الأولى فى الأصحاح الخامس الآية الثالثة عشر، وهنا بالقرب منها أيضاً كنيسة القديس ميخائيل رئيس الملائكة.

الكنائس خارج القاهرة على طول البلد هى التالية:

فى طرة كنيسة القديس جرجس

---

1) تقرير الحالة الحاضرة لمصر، جوفنى ميكيله فنسلبيو، ص 151-163

فى دير العدوية الواقع بالقرب من النيل من جهة الشرق كنيسة السيدة العذراء ببصورة عجائبية لها.

فى الجنوب وعلى الشاطئ الشرقى دير الطوباوى آبا برسوم العريانن أى الطوباوى برسوميوس الذى كان يتجول دائماً عرياناً وهناك دفن.

فى أطفيح ناحية الشرق كنيسة القديسين بطرس وبولس.

فى الميمون نحو الشرق دير القديس أنطونيوس.

فى بياض نحو الشرق كنيسة السيدة العذراء.

فى أبو النمرس نحو الغرب دير القديس كزما ودميان، حيث كنت أنا وفى هذه الكنيسة ذرا' أحد هذين القديسين.

فى طموه نحو الغرب دير الطوباوى مركوريوس

فى منيا المير نحو الغرب كنيسة القديس تادرس

فى اللاهون بالحمام نحو الغرب دير السيدة العذراء

فى دير الخشبة نحو الغرب كنيسة الملاك غبريال

فى دير السَّب (الصف) على الجبل كنيسة رئيس الملائكة غبريال، يقع الدير على الشاطئ الغربى للنيل

فى سدمنت دير القديس، جرجس

فى سنورس كنيسة سيدنا

فى دسيا بقرب الفيوم كنيسة الطوباوى تادرس

بعيداً عن ذلك على الشاطئ نفسه دير الطوباوى آبا صموئيل على جبل القلمون، حيث صورة عجائبية للسيدة العذراء

فى دير السنقورية نحو الغرب كنيسة الطوباوى تادرس الشهيد

فى شِنَرا نحو الغرب بالقرب من نهر يوسف ابن أبى الآباء يعقوب كنيسة الطوباوى آبا مكسي بالقرب من البهنسا نحو الغرب فى دير الجرنوس كنيسة السيدة العذراء، من هنا مرّ السيد المسيح مع أمه الكلية القداسة، وهو فى طريقه إلى قسقام، هناك كذلك مقياس للنيل، كمقياس جزيرة المقياس

فى بِبا نحو الغرب دير القديس جرجس

فى الفَنْنت نحو الغرب كنيسة القديس جرجس

فى الكفور كنيسة السيدة العذراء

فى البها أو البهو نحو الغرب كنيسة آبا بسخريون

فى دير الكَرة نحو الشرق على جبل الطير ودعى كذلك بسبب وجود بكرة بئر قريبة لرفع المياه، كنيسة السيدة العذراء، الدير، الدير المذكور قائم فى مكان منعزل على جبل الطير وهو جبل صعب التسلق، ولقد رأيته وأنا مسافر على النيل نحو الشمال من منفلوط

فى المنيا مدينة كبيرة جداً على جانب النيل من الجهة الغربية كنيستان، الأولى على اسم القديس جرجس، والثانية على اسم القديس تادرس، وقد زرت هذه المدينة مرتين

فى طوبا أو طوه كنيسة السيدة العذراء

فى بيوها دير آبا هور الشهيد

فى القصر نحو الغرب كنيسة السيدة العذراء

بعد القصر على الجانب ذاته دير الطوباوى ابيفانيوس أبوفانا على نهر يوسف

فى مِنْهَرى نحو الغرب كنيسة الطوباوى يوحنا أبوقير الشهيد

فى أبوقرقاص نحو الغرب كنيسة الطوباوى تادرس

فى البياضية دير السيدة العذراء

فى مدينة أنصنا نحو الشرق ديران، الأول للقديس يوحنا الصغير ويدعونه هم أبو حِنَّس القصير، والثانى للطوباوى آبا بيشوى

فى ملوى وهى مدينة كبيرة على النيل نحو الغرب كنيسة القديس ميخائيل رئيس الملائكة وقد زرتها مرتين

فى ديروط الشريف نحو الغرب دير الطوباوى سراباmون الأسقف والشهيد

فى بِبلاو نحو الغرب كنيسة الطوباوى تادرس الشهيد

فى صَنَبو ديران، الأول للطوباوى مارى مينا، والثانى للطوباوى تادرس المشرقى، وكذلك كنيسة القديس جرجس

فى مِير كنيستان، الأولى للقديس جرجس، والثانية للطوباوى كلاوديوس الشهيد

فى القوصية نحو الغرب كنيستان، الأولى للقديس يوحنا المعمدان، والثانية للطوباوى كلاوديوس الشهيد، وقد زرتهما

فى بُوق نحو الغرب كنيسة للقديس ميخائيل رئيس الملائكة، هنا مرَّ السيد المسيح وهو فى طريقه إلى المحرق، هناك كذلك شجرة الزيتون التى نمت عصا القديس يوسف وقد غرسها السيد المسيح فى الأرض وتزهر إلى يومنا هذا، وثمة نبؤة قديمة عنها أنها يجب أن تزهر إلى يوم الدينونة، وقد حملت معى فرعين من أغصانها

فى التِمْسلحية نحو الغرب كنيسة الطوباوى تادرس

فى بلّوط نحو الغرب كنيسة القديس جرجس

فى أم القصور كنيسة القديس يوحنا الهرقلى

فى التتالية كنيسة الملاك روفائيل

فى بنى غالب كنيسة الملاك غبريال

فى برية قسقام دير المحرق الشهير، حيث أقام السيد المسيح فترة مع أمه الكلية القداسة والقديس يوسف ومريم وسالومى

بعيداً عن هذا الدير بمقدار رمية حجر دير القديس بطرس وبولس للأحباش، وهناك كما فى منفلوط وهى مدينة غير بعيدة، توقفت نحو شهرين وقرأت ونسخت كثيراً من الكتب الحبشية، وقد حصلت على رخصة نسخ هذه الكتب من بطريرك الأقباط، الذى أعطاني رسائل توصية لقمص المحرق، وإلى كبار رجال منفلوط، الذين لم يستقبلوني بحفاوة كبيرة جداً فى بيوتهم فحسب بل كذلك استضافونى على نفقتهم طوال ذلك الوقت الذى قضيته هناك، بل أكثر من ذلك كانوا يفرون الدابة لى للتنقل، وكان يرافقنى دائماً احداً منهم، كلما أردت الإنتقال إلى مكان آخر قريب، لكى أشاهد أو أستعلم عن شيء ما، ثم عندما مرضت كان يرعانى دائماً واحد منهم ليل نهار، وعندما رأوا أن مرضى كان خطيراً استأجروا مركب على حسابهم أعطونى رفيقاً، وسلمونى فى يد بطريرك القاهرة، وعن هذا الأمر أخبر لكى يعرف العالم عِظم محبة هؤلاء المسيحيين، هم يبادرون الفرنج الآتين إليهم بذات الإحترام الكبير، الذى يكنونه لبطريركهم، يقبلون رسائل التوصية ويقربونها من جبهتهم والبعض الآخر يحملونها إلى المرضى، معتقدين أنهم يجون فيها شفاء من أمراضهم بسبب البركة المكتوبة فيها

حول هذين الديرين هناك كذلك مقبرة لمسيحي منفلوط والقرى المحيطة الذى لا يرغبون إلا الدفن فى هذا المكان المقدس، لأنه تقدس من سيدنا برجليه المقدستين

فى الجاولى نحو الغرب دير القديس آبا مركوريوس أبى سيفين

على الشاطئ الشرقى دير الطوباوى مارمينا المعلق، ويدعى معلق لأنه منحوت فى صخرة ويلزم لدخوله والخروج منه رفع المرء وإنزاله بحبل

فى المعابدة كنيسة السيدة العذراء

فى شقلقيل نحو الغرب كنيسة السيدة العذراء

فى بنى محمد الخصوص نحو الشرق كنيسة السيدة العذراء

فى أبنوب الحمام ديران، الأول للطوباوى بقطر المدعو سابقاً الشرير لأنه كان يضطهد المسيحيين، وكان ابن الوزير رومانوس، والثانى للسيدة العذراء، هناك كذلك ثلاث كنائس أيضاً، الأولى للطوباوى بيفام وكان فى السابق جندياً، والثانية للقديس يوحنا المعمدان، والثالثة للطوباوى مركوريوس

فى بني مُرّ كنيسة القديس جرجس

فى بِصرة دير القديس تادرس

فى أسيوط كنيسة الطوباوى أبادير، مدينة أسيوط هذه حسنة جداً وتقع نحو الغرب

فى شطب كنيسة الطوباوى مركوريوس أبو سيفين

فى باقور نحو الشرق كنيسة الطوباوى كلاوديوس

فى قاطْية نحو الغرب كنيسة السيدة العذراء

فى الزاوية نحو الغرب دير القديس أثناسيوس

فى بلاد الداناجلة (دير الجنادلة) نحو الغرب دير على جبل وكنيسته على اسم السيدة العذراء وفى أسفلها كنيسة القديس ميخائيل رئيس الملائكة

فى أبو تيج نحو الغرب لكون كنيسة القديس مكاريوس متهدمة يضربون الخيام على التل ويحتفلون بشعائرهم المقدسة

فى بويت (بويط) فى الشرق دير القديس جرجس

فى صِدْفا فى الغرب كنيسة الطوباوى آبا بيشوى والقديس بطرس

فى طهطا كنيسة القديس كرياكس ولكونها متهدمة يصلون فى الخيام

الدير الأحمر للطوباوى آبا بيشوى

الدير الأبيض للطوباوى آبا سينوتيوس الذى يدعونه الأنبا شنودة واالديران فى الغرب وقد أسستهما الملكة هيلانة، وهما جميلن جداً وعلى الأخص الأبيض

فى بَرْسا (البرشا) فى الغرب كنيسة السيدة العذراء

فى المنشية (المنشاه) فى الغرب دير الطوباوى آبا بِساده

فى طوخ العسيرات دير السيدة العذراء

فى جرجا نحو الغرب عاصمة مصر العليا ومقر حاكمها هناك دير االقديس ميخائيل وقد قضيت بعض الوقت فى هذه المدينة

فى البلينا كنيسة السيدة العذراء

فى بهجورة فى الغرب دير القديس بضابا الأسقف

فى نقادة فى الغرب دير السيدة العذراء
فى وادى نقادة دير الصليب المقدس
فى قوص كنيسة الطوباوى تادرس
فى مدينة إسنا التى تسميها العامة أسوان والتى تقع تحت مدار السرطان، مكان القديسين الشهداء، وكانوا يحكون لى أن هناك تسعين قصبة من المدينة ملطخة كلها بدم الشهداء
بعد إسنا دير آبا هرمينا فى الشرق
على جبل أخميم فى الشرق دير آبا باخوميوس
فى أخميم دير الطوباوى مركوريوس أبى سيفين
ثم هناك دير القديس أنطونيوس الكبير على جبل القلزم بالقرب من البحر الأحمر نحو الشرق كان هناك دير القديس بولس (بولا) أول السواح ولكنه الآن متهدم
وما بعد ذلك لا كنائس ولا أديرة للمسيحيين

كنائس الأقباط وأديرتهم فى مصر من القاهرة إلى الأسكندرية عند الخروج من الباب المسحي (باب النصر)
فعند الخروج من هذا الباب غير بعيد من دير الطوباوى آبا رويس، مقبرة أقباط القاهرة، بالقرب منه دير آخر بحديقة كبيرة وجميلة جداً وكنيسته على اسم القديس ميخائيل رئيس الملائكة، هذه واحدة من أجمل الكنائس التى يمتلكها الأقباط حول القاهرة، هنا أشتركت ايضاً فى مأدبة يدعوها أغابى أو محبة، كانت فوق سطح الكنيسة يوم عيد القديس ميخائيل بعد القداس وقد حضرها أكثر من 200 شخص
خارج القاهرة ومن هذا الجانب ذاته، على بعد نحو أربعة أميال هناك منية صُرد (مسطرد) وهى كذلك قرية حيث نجد كنيسة على اسم السيدة العذراء، وهناك يحتفلون ببعض تذكارات السيد المسيح وأمه الكلية القداسة، وقد مروا بهذا المكان وهما هاربان من هيرودس، وكانت الكنيسة قبل مجيء السيد المسيح هيكلاً للأوثان، التى سقطت على الأرض لدى وصوله، رأيت فى الكنيسة نفسها فى الحائط حجرين عليهما أشكال هيروغليفية، وهناك كذلك صورة عجائبية للسيدة العذراء، يتحدث عنها كتابا الحبشى لعجائب السيدة العذراء. يوم 15 نوفمبر 1664م، عيد رئيس الملائكة ميخائيل قضيت ليلة فى الكنيسة المذكورة بهدف حضور القداس، ولكن بما أنه حدث إنزال ليلى فى تلك الليلة للكاهن، الذى

كان يجب أن يقوم بخدمة القداس، لم يقم القداس ووجب العودة إلى القاهرة فى اليوم التالى بدون أن أكون قد حضرت القداس

وإلى الشمال من ذلك فى مصر نحو الأسكندرية الكنائس التالية :

فى سندبيس كنيسة القديس جرجس

فى صهرجت كنيسة أخرى للطوباوى ذاته

فى ميت غمر كنيسة أخرى مماثلة

فى دقادوس كنيسة السيدة العذراء

فى ميت دمسيس كنيسة القديس جرجس

فى الريدانية كنيسة السيدة العذراء

فى بساط النصارى كنيسة لها

فى برية جميانة كنيسة سيدتنا وفيها ذلك المولد الشهير الذى يبدأ يوم 21 مايو ويستمر إلى يوم 25 منه

فى مدينة سمنود كنيسة الطوباوى آبانوب

فى سنباط كنيسة القديس يوحنا أبوقير

فى زفتى كنيسة الطوباوى مركوريوس أبي سيفين

فى ميت بِره كنيسة الطوباوى سرابامون الشهيد

فى الأمنيتين كنيسة القديس جرجس

فى البتانون كنيسة الطوباوى سرابامون الشهيد

فى طوخ النصارى كنيسة القديس جرجس

فى شبريه (سبرباى) كنيسة الملاك ميخائيل

فى بِرما كنيسة القديس جرجس

فى إبيار دير الطوباوى مينا

فى دمنهور كنيسة الملاك ميخائيل

فى سُبك كنيسة السيدة العذراء

فى برية شهيت أى فى برية الشهداء القديسسين التى تسميها العامة برية القديس مكاريوس، أربعة أديرة الواحد غير بعيد عن الآخر: الأول دير القديس مكاريوس، والثانى دير آبا بيشوى، والثالث دير السيدة العذراء، والرابع دير السيدة العذراء البرموس، يقال أنه كان

فى الأزمنة الماضية ثلاثمائة دير بقيت منها هذه الأربعة فقط، فى الدير القبل الأخير من هذه كتب سريانية كثيرة منسوخة باليد وعصا القديس أفرآم
فى الأسكندرية كنيسة القديس مرقس الإنجيلي أول كارز لمصر، وهذه الأخيرة من قائتنا.

يذكر فنسلبيو عن دير القلمون: أنه فى كتاب عجائب السيدة العذراء المكتوب باللغة الحبشية، يحكى أنه فى أيام البابا غبريال 84 الرابع والثمانون، فى دير القلمون فى مصر كان هناك رئيس دير اسمه سليمان وهو رجل قديس جداً، وكان فى تلك الكنيسة صورة للسيدة العذراء معروفة بالمعجزات والنعم، التى كانت تجريها فى مصر كلها، وذات يوم ذهب بعض العرب لتجارتهم فى مصر العليا، وساروا بتدبير من الله فى طريب قريب من ذلك الدير، فقام الأنبا سليمان بإستقبال العرب بحفاوة كبيرة، وقادهم إلى تلك الصورة ورجاهم أولاً أن يقوموا أمام الصورة بكل ما يقوم به، فوعدوه بذلك، عندما وصلوا أمام الصورة قام رئيس الدير المذكور بكشف الستر عن الصورة، وركع أمامها ثلاث مرات، وفعل ثلاثة منهم بالمثل، ولكن الرابع رفض ذلك، بل إنفجر بشتائم شيطانية ضد الصورة المذكورة، وضد السيدة العذراء الكلية القداسة، وأدار لها ظهره كعلامة إحتقار، وما أن فعل ذلك حتى بدأ لسانه يخرج من فمه بمقدار شبر وكان يصر بأسنانه ويصرخ كممسوس، وأصفر وأوشوك على الموت، عندما رأى رفاقه ذلك توسلوا إلى القديس بدموع أن يشفع فى رفيقهم، فأخذ من زيت القنديل ودهن لسانه، فعاد للتو إلى مكانه وسمع الجميع صوتاً كأنه خارج من الصورة، وقال لرئيس الدير أنه لا يجب أن ينتظر مضايقة أخرى من هذا المجدف، لأن ابنها المبارك قرر موته موتاً سريعاً لدى وصوله إلى بلده، وهذا ما حدث مباشرة طبقاً لهذه النبوءة.

وفى الكتاب ذاته أنه أيضاً فى عهد البابا غبريال الرابع والثمانون، كان هناك راهب قديس جداً فى الدير المذكور، ومكرم للسيدة العذراء، وكان بواب الكنيسة هذا بعد أن كان الرهبان الآخرون يؤدون صلاة المساء، ويهجعون إلى قلاياتهم، كان الراهب يذهب سراً إلى الكنيسة وكان يصلى أمام صورة السيدة العذراء، ويضرب لها ثلاثمائة مطانوة، وفى كل مرة يسجد كان يقول: ياربى يسوع المسيح أرنى وجهك ووجه أمك الكلية القداسة، وإستمر على هذا الإكرام بضع سنوات، بدون أن يعلم أى إنسان بذلك، وفى نهاية السنة السابعة، فى الليلة السابقة لأحد أعياد السيدة العذراءوالتى يُحتفل بها يوم 21 ديسمبر، وبينما كان الراهب المذكور مشتعلاً بحرارة التقوى، رأى السيدة العذراء الكلية القداسة، وهى تتلألأمن

الصورة، وقاالت له: حيث أنك أتعبت نفسك كثيراًورجوت إبنى الحبيب أن يظهر لك أمه، هأنذا إذن، أنظر إلىّ أنا أم الحياة، قد أمرنى إبنى أن آتى إليك، وأن أصنع لك ما تريده، فأجاب هو: يا سيدتى العذراء الكلية القداسة، لا طلب لى إلا أن تتكرمى وتتشفعى لى عند إبنك الحبيبأن يكون رؤوفاً بي، فأجابته العذراء: لقد قبل السيد طلبك، وبعد ثلاث أيام تكون معى فى المكان ذاته حيث أنا، وعندما رأى الراهب الضوء الباهر وسمع الصوت وقع على الأرض كميت، فمدت السيدة العذراء فى تلك الساعة يدها وأنهضته، ثم إختفت، بعد هذا ذهب الراهب إلى قلايته واصابته حمى شديدة، فأسرع بإستدعاء الأسقف الذى كان فى الدير فى تلك الساعة، وإعترف وقصّ عليه كل ما حدث له، وفى نهاية اليوم الثالث مات بقداسة[1].

1) تقرير الحالة الحاضرة لمصر 1671م، جوفنى ميكيله فنسلبيو، ص 143-144

المراجع

1- تاريخ الأنطاكى المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، تأليف يحى بن سعيد بن يحى الأنطاكى المتوفى سنة 458 هـ ، حققه أستاذ دكتور عمر عبد السلام تدمرى ، جروس برس طرابلس لبنان 1990

2- الديارات لأبى الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى المتوفى سنة 388هـ الموافقة 998م، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربى بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 1986م

3- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى في جمادى الأول 911هـ الموافق أكتوبر 1505م ، بتحقيق من محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثانى، دار احياء الكتب العربية، الطبعة الأولى 1967م

4- المُغْرِبِ في حُلَى المَغْرِبِ لابن سعيد، عنى بطبعه لأول مرة عن نسخة الكتبخانة الخديوية الشيخ المعلم في المدرسة الهلسنفرسية كنوت تلكوست، طبع في مطبعة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة 1898م

5- الخزل والدال بين الدور والدارات والديرة، ياقوت الحموى الرومى المتوفى سنة 626هـ الموافقة 1229م، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية السورية دمشق 1998م، تحقيق يحى زكريا عبارة و محمد أديب جمران

6- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك تأليف أبى عبيد البكرى المتوفى سنة 487هـ، الناشر دار الكتاب الإسلامي القاهرة

7- تاريخ الحكماء لابن القفطى 1908م

8- فتوح الشام تأليف أبى عبدالله بن عمر الواقدى، دار الجيل للنشر والتورزيع بيروت

9- فضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق، مكتبة الأسرة 1999م

10- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمرى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1924م

11- نزهة الأمم في العجائب والحكم لابن إياس، مكتبة مدبولى 1995م

12- نصوص من أخبار مصر لابن المأمون الأمير جمال الدين أيوب على موسى بن المأمون البطائحى المتوفى سنة 588 هـ ، المعهد العلمى الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1983

13- وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الأفريقى، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ترجمه عن الفرنسية د محمد حجى ، د محمد الأخضر، دار الغرب الاسلامى بيروت لبنان 1983 م

14- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا لتقىّ الدين أحمد بن على المقريزى تحقيق الدكتور جال الدين الشيال عميد كلية الآداب جامعة الأسكندرية 1996 م

15- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة لابن عبد الظاهر ، محيى الدين أبو الفضل عبدالله بن عبد الظاهر المصرى (620-692 هـ ، 1223-1293 م) حققه الدكتور أيمن فؤاد سيد ، أوراق شرقية للطباعة والنشر 1996 م

16- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية تأليف تقى الدين أحمد بن على المقريزى تحقيق د محمد زينهم - مديحة لشرقاوى، مكتبة مدبولى

17- تاريخ مارميخائيل السريانى الكبير بطريرك أنطاكية، عربه عن السريانية مارغريغوريوس صليبا شمعون رئيس أساقفة الموصل وتوابعها، أعده مارغريغوريوس يوحنا إبراهيم متروبوليت حلب، الناشر دار ماردين-حلب 1996 م

18- فتوح البهنسا الغراء وما وقع فيها من عجائب الأخبار وغرائب الأنباء على أيدى الصحابة والشهداء، الطبعة الأولى بالمطبعة العلمية بمصر المحروسة بشارع الحلوجى سنة 1311هـ

19- أنباء الأمراء بأنباء الوزراء، تأليف شمس الدين محمد بن على بن طولون المتوفى سنة 952 هـ، تحقيق مهنا حمد المهنا، دار البشائر الإسلامية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1998م

20- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب لكاتب مراكشى من القرن السادس الهجرى 12م، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد كلية الآداب جامعة الأسكندرية، دار النشر المغربية الدار البيضاء 1985م

21- الإشارات إلى معرفة الزيارات، تأليف أبى الحسن على بن أبى بكر الهروى ت 611هـ، تحقيق الدكتور على عمر جامعة المنيا، الناشر مكتبة الثقافة الدينية 2002م

22- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، رحلة عبد اللطيف البغدادى في مصر، راجعه د عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الطبعة الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998م

23- الروض المعطار في خبر الأقطار، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة 900 هـ، حققه د احسان عباس مكتبة لبنان الطبعة الثانية 1984م

24- المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى القرن الخامس الهجرى، حققه أدريان فان ليوفن، الدار العربية للكتاب 1992م

25- كتاب المسالك والممالك تأليف أبى القاسم ابن حوقل، طبع في مدينة ليدن المحروسة سنة 1873م

26- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصنيف أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى المتوفى سنة 346هـ / 957م، راجعه كمال حسن مرعى الجزء الأول المكتبة العصرية بيروت 2005م

27- خريدة العجائب وفريدة الغرائب. لسراج الدين بن الوردى 691 هـ = 1291م/ . تحقيق د أنور محمد زناتى جامعة عين شمس. الناشر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 2008 م

28- أنيس الجليس في أخبار تنيس. تأليف محمد بن أحمد بن بسام المحتسب التنيسى. نشر وتحقيق د جمال الدين الشيال 1966م

29- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. تأليف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى872هـ/1467م. اعتنى بتصحيحه بولس راوي. الطبعة الثانية القاهرة 1998م

30-نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. تأليف الشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى (654-727هـ/ 1256-1327م) . طبعه العبد المفتقر إلى رحمة الله أغنسطس بن يحيى المدعو مهرن مدرس الأسنة الشرقية في المدرسة العظمى الملكية بمدينة كوبنهاغ المحروسة. طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية 1865م

31-فتوح الشام. تأليف أبى عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدى المتوفى سنة 207 هـ. ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمن. منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان. الطبعة الأولى 1997 م

32-الأعلاق النفيسة. تصنيف أبى على أحمد بن عمر ابن رستة. طبع بمطبعة ليدن المحروسة 1891 م

33-الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة لابن ظهيرة. تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس. مركز تحقيق التراث القومى ونشره 1969م

34-آثار البلاد وأخبار العباد. تصنيف الإمام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزوينى. دار صادر بيروت

35-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. للمقدسى المعروف بالبشارى. الطبعة الثالثة مكتبة مدبولى القاهرة 1991م

36-قوانين الدواوين. الأسعد بن مماتى الوزير الأيوبى المتوفى 606هـ-1209م. طبع على نفقة الجمعية الزراعية الملكية باشارة حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون. جمعه وحققه عزيز سوريال عطية جامعة فاروق الأول. الناشر مكتبة مدبولى القاهرة 1991م

37-الإشارة إلى من نال الوزارة. تأليف أمين الدين تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفى المصرى. عنى بتحقيقه والتعليق عليه عبد الله مخلص عن النسخة الوحيدة المحفوظة بحزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس. مقتطف من مجلة المعهد العلمى الفرنسي للآثار الشرقية المجلد الخامس والعشرون. طبع بمطبعة المعهد العلمى الفرنسي بالقاهرة 1933م

38-الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها. إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي الشهير بابن دقماق 750-809 هـ/1349-1407م. منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر بيروت

39-البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان. تأليف القاضي الأجل عماد الدين الأصفهانى 519-597هـ/1125-1200م. دراسة وتحقيق محمد على الطعانى, الناشر مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع الأردن2003م

40-البلدان. تأليف أبى عبدالله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذانى المعروف بابن الفقيه المتوفى سنة 340هـ/951م. تحقيق يوسف الهادى. عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان الطبعة الأولى 1996م

41-الروضتين في أخبار الدولتين. تأليف الشيخ امام العالم الفاضل الصدر الكامل الأوحد فريد عصره وحيد دهره مجموع الفضائل شهاب الدين أبى محمد عبد الرخمن بن اسمعيل ابن إبراهيم المقدسى الشافعى, رواية الشيخ الإمام الإمام مجد الدين أبى المظفر يوسف بن محمد بن عبدالله الشافعى. مطبعة وادى النيل بمصر القاهرة 1287هـ

42-الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد. لكمال الدين أبى الفضل جعفر بن تعلب ابن جعفر الادفوى الشامى المتوفى سنة 748هـ. طبع على نفقة عبد الرحمن على قريط. طبع بالمطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر ستة 1914م

43-مسالك الممالك لأبى إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى وهو معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبى زيد أحمد بن سهل البلخى. طبع بمطبعة ليدن المحروسة بمطبعة بريل 1927م

44-النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب. تحقيق الدكتور حسين نصار. مطبعة دار الكتب 1970م. وزارة الثقافة مركز تحقيق التراث

45-النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية. تأليف القاضي الفقيه الأرشد نجم الدين أبى محمد عمارة بن الحسن الحكمى ثم اليمنى، اعتنى بتصحيحه العبد المفتقر إلى رحمة ربه هرتويغ درنبرغ. طبع في مدينة شالون على نهر سون بمطبعة مرسو 1897م

46-أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك. تأليف محمد بن على البرسوى الشهير بابن سباهى زادة 997هـ/1589م. تحقيق المهدى عبد الرواضية. دار الغرب الاسلامى بيروت لبنان الطبعة الأولى 2006م

47-تاريخ الفيوم وبلاده لأبى عثمان النابلسى الصفدى الشافعى المتوفى سنة 641هـ/1243م. المطبعة الأهلية القاهرة 1898م

48-نشق الأزهار في عجائب الأقطار. تأليف العلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن اياس الحنفى الجركسى

49-المقفى الكبير. تقى الدين المقريزى المتوفى سنة 845هـ/1441م. تحقيق محمد البعلاوى. دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان الطبعة الأولى 1991م

50-الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية. محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى المتوفى سنة 775هـ/1372م. تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية. طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية تحت إدارة محمد على العباسى مدير دائرة المعارف العثمانية 1970م

51-نزهة المقلتين في أخبار الدولتين لابن الطويز. أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسرانى 617هـ/1220م. حققه أيمن فؤاد سيد. المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1992م

52-الخزل والدال بين الدور والدارات والديرة. لياقوت الحموى الرومى المتوفى سنة 626هـ. تحقيق يحيى زكريا عبادة ومحمد ديب جمران. منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية دمشق 1998م

53-تاريخ الملك الظاهر. تأليف عز الدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد المتوفى في 684هـ/1285م. بإعناء أحمد حطيط. المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت لبنان 1983م

54-معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تأليف ياقوت الحموى. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1993م

55-معجم البلدان. للشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى. دار صادر بيروت لبنان

56-طبقات الأطباء والحكماء. تأليف أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى المعروف بابن جلجل. ألفه سنة 377هـ تحقيق فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية. مؤسسة الرسالة بيروت 1985م

57-أخبار مصر في سنتين 414-415هـ. تصنيف محمد بن عبيد الله المسبحى. تحقيق وليم ج ميلورد. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980م

58-تاريخ الزمان. لأبى الفرج جمال الدين ابن العبرى. نقله إلى العربية الأب اسحق أرملة. دار المشرق 1986م بيروت لبنان

59-أخبار الأيوبيين، للمكين جرجس بن العميد، الناشر مكتبة الثقافة الدينية الظاهر القاهرة

60-درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تأليف تقى الدين أحمد بن على المقريزى 766-845هـ ، 1365-1442م، حققه الدكتور محمود الجبيلى، دار الغرب الإسلامي 2002م

61- تاريخ المسلمين، تأليف الشيخ المكين جرجس ين العميد أبي الياسر بن أبى المكارم بن أبي الطيب

62-تاريخ أبى شاكر بطرس بن أبى الكرم بن المهذب المعروف بابن الراهب، اعتنى بنشره الأب لويس شيخو اليسوعي، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين 1903م

63- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1939م

64- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

65- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد الهند الطبعة الثانية 1392هـ/ 1972م، المحقق: محمد عبد المعيد ضان

66-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ،محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى 1250هـ) دار المعرفة - بيروت

67-السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المقريزي، المحقق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1997 م

68-مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، المتوفى سنة 768 هـ، وضع حواشى الكتاب خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1997 م

69-إنباء الغمر بأبناء العمر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852 هـ، المحقق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي مصر 1969 م

70-حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف بن عبد الله المتوفى في سنة 874 هـ، تحقيق د محمد كمال الدين عز الدين

71-العبر في خبر من غبر، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي المتوفى سنة 748 هـ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت

72-آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، إسحاق بن الحسين المنجم المتوفى في القرن الرابع الهجرى، عالم الكتب بيروت 1408 هـ

73-مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين المتوفى سنة 749 هـ، الناشر المجمع الثقافي أبو ظبي 1423 هـ

74-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي المتوفى سنة 681 هـ، المحقق احسان عباس، الناشر دار صار بيروت

75-أخبار العلماء بأخيار الحكماء، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة 646 هـ، تحقيق إبراهيم شمس الدين، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان 2005 م

76-عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668 هـ، تحقيق د نزار رضا، الناشر دار مكتتبة الحياه بيروت

77-أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة 764 هـ، تحقيق الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد، الناشر دار الفكر المعاصر بيروت لبنان 1998 م

78-الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي المتوفى سنة 764 هجرية، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر دار إحياء التراث بيروت 2000 م

79-رفع الإصر عن قضاة مصر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852 هـ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي القاهرة 1998 م

80-صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي المتوفى سنة 821 هـ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

81-رسائل المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي المتوفى سنة 845 هـ، الناشر دار الحديث القاهرة 1419 هـ

82-فوات الوفيات، تأليف محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى المتوفى سنة 764 هـ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1951 م

83-تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزى للعلامة المقريزى لتقي الدين المقريزى، تحقيق د عبد المجيد دياب، دار الفضيلة 1898 م

84-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبى عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودى الحسنى المعروف بالشريف الإدريسى القرن السادس الهجرى، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد

85-سيرة أحمد بن طولون، أبى محمد عبدالله بن محمد المدينى البلوى، حققها محمد كرد على، مكتبة الثقافة الدينية

86-الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، لأبي طالب علي بن انجب تاج الدين المعروف بابن الساعى الخازن المتوفى سنة 674 هـ 1275 م، عنى بنسخه ونشره مصطفى جواد بنفقة الأستاذ أنستاس مارى الكرملى، المطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد 1934 م

87-الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المعروف بابن دقماق 750-809 هـ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة الدكتور أحمد السيد دراج، جامعة أم القرى السعودية 1982 م

88- فتوح مصر والمغرب المؤلف: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (المتوفى: 257هـ) الناشر: مكتبة الثقافة الدينية 1415 هـ

89-التنبيه والإشراف المؤلف: أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (المتوفى: 346هـ) تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي الناشر: دار الصاوي - القاهرة

90-تاريخ دمشق لابن القلانسي المؤلف : حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي (المتوفى : 555هـ) المحقق : د سهيل زكار الناشر : دار حسان للطباعة والنشر، دمشق الطبعة الأولى 1403 هـ 1983 م

91-تجارب الأمم وتعاقب الهمم، المؤلف أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه المتوفى: 421هـ، المحقق أبو القاسم إمامي، الناشر سروش طهران 2000 م

92-كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى، المؤلف: أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري المتوفى بعد 355هـ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2003 م

93-فضائل مصر المحروسة لابن الكندى

94-مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين المتوفى 874 هـ، المحقق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية القاهرة

95-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي المتوفى 748 هـ، المحقق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية 1993 م

96-ذيل مرآة الزمان، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني المتوفى 726 هـ، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، الناشر دار الكتاب الإسلامي القاهرة، الطبعة الثانية 1992 م

97-نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري المتوفى 733 هـ، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، الطبعة الأولى 1423 هـ

98-كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء الثاني، الدرة اليتيمة فى أخبار الأمم القديمة، تحقيق: إدوارد بدين، المعهد الأماني للآثار، أصدار: هانس روبرت رويمر ؛ واولريش هارمان، بيروت لبنان 1994 م

99-كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء الرابع، الدرة السمية فى أخبار الدولة الأموية، تحقيق: جونهيلد جراف واريكا جلاسن، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان 1994 م

100- كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء الخامس، الدرة السنية فى أخبار الدولة العباسية، تحقيق: دوروتيا كرافولكى، المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة، بيروت لبنان 1992 م

101- كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء السادس، الدرة المضنية فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1961 م

102- كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء السابع، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1972 م

103- كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء الثامن، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة، القاهرة 1971 م

104- كنز الدرر وجامع الغرر، المؤلف: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري،الجزء التاسع، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة

105-نيل الأمل في ذيل الدول، المؤلف: زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهريّ الملطيّ ثم القاهري الحنفيّ المتوفى: 920 هـ، المحقق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت لبنان الطبعة الأولى 2002 م

106-الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي أبو اليمن مجير الدين المتوفى: 928هـ، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، الناشر: مكتبة دنديس عمان

107-سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المؤلف: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي المتوفى: 1111هـ، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى 1998 م

108-حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري أبو البقاء كمال الدين الشافعي المتوفى: 808هـ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية 1424 هـ

109-درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، تأليف أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة 845 هـ ، حققه الدكتور عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية السورية، احياء التراث العربي، دمشق 1995 م

110-تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، تأليف: أبى الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوى الحنفى، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، الطبعة الثانية 1986 م

111-البلدانيات، تأليف الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى، المتوفى سنة 902 هـ، تحقيق: حسام محمد القطان، دار العطاء للنشر والتوزيع

112-أخبار نيل مصر، تأليف: شهاب الدين بن العماد الأقفهسى، المتوفى سنة 808 هـ، حققه دكتورة لبيبة إبراهيم مصطفى والأستاذة نعمات عباس محمد، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية مركز تحقيق التراث 2006 م

113-أوضح المسالك إلى معرفة البلدات والممالك، تأأليف: محمد بن على البرسوي الشهير بابن سباهي زادة، المتوفي سنة 997 هـ/ 1589 م، تحقيق: المهدي عبدالله الرواضية، الناشر دار الغرب الإسلامي

114-التبر المسبوك فى ذيل الملوك، تأليف: محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفي سنة 902 هـ، مراجعة: أ.د. سعيد عبد االفتاح عاشور، تحقيق أ. نجوى مصطفى كامل و د. لبيبة إبراهيم مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية مركز تحقيق التراث، القاهرة 2002 م

115-تهذيب سير أعلام النبلاء، تصنيف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفي سنة 748 هـ / 1374 م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى 1991 م

116-نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، للخطيب الجوهرى على بن داود الصيرفى، المتوفى سنة 900 هـ، تحقيق: الدكتور حسن حبشى، وزارة الثقافة مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب 1970 م

117-الدليل الشافي على المنهل الصافى، تأليف جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة الطبعة الثانية 1998م، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

118-نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، تأليف: موسى بن محمد بن يحى اليوسفي، المتوفى سنة 759 هـ، تحقيق: الدكتور أحمد حطيط، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى 1986 م

119-الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، تأليف: أحمد بن عبد القادر ابن محمد المقريزى، طبع بمطبعة التأليف بمصر سنة 1895 م

120-تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، المتوفى: 1205هـ، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية

121-بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تأليف محمد بن أحمد إياس الحنفى، تحقيق: محمد مصطفى،الناشر: دار النشر فرانز شتاينز فيسبادن،طبع بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، الطبعة الأولى 1975 م

122-مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفىّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى، المتوفى: سنة 739 هـ، تحقيق: على محمد البخارى، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان

123-الوفيات، تأليف: تقي الدين أبى المعالي محمد بن رافع السلامي، المتوفى سنة 774 هـ، حققه: صالح مهدى عباس، أشرف عليه الدكتور بشار عواد معروف، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1982 م

124-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى، الناشر: دار الجيل بيروت لبنان

125-الوفيات للبرزالى، تصنيف: علم الدين أبو محمد القاسم بن يوسف البرزالى، المتوفى سنة 739هـ، ضبط النص: أبو يحى عبدالله الكندرى، الناشر: غراس للنشر والتوزيع الكويت، الطبعة الأولى 2005 م

126-الدر الثمين فى أسماء المصنفين، على بن أنجب المعروف بابن الساعى، المتوفى سنة 674 هـ، حققه: أحمد شوقى بنين ؛ محمد سعيد حنشى، الناشر: دار الغرب الإسلامي تونس الطبعة الأولى 2009 م

127-عيون الأخبار، تأليف: أبى محمد عبدالله بن مسلم قتيبة الدينوري، المتوفى سنة 276 هـ، دار الكتب المصرية 1996 م

128- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، لابن القطان المراكشى ؛ أبى محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي، منتصف القرن السابع الهجرى، حققه وقدم له: الدكتور محمد علي مكي، كلية الآداب جامعة القاهرة، الناشر: دار االغرب الإسلامي

129-المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب، المتوفى سنة 677 هـ، انتقاه: تقي الدين أحمد بن على المقريزي سنة 814 هـ، حققه: أيمن فؤدا سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة

130-المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تأليف: علم الدين أبي أحمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الدمشقي، المتوفي سنة 739 هـ، تحقيق: أستاذ دكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا بيروت، الطبعة الأولى 2006 م

131-مآثر الأنافة فى معالم الخلافة، للقلقشندي، المتوفي سنة 820 هـ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: عالم الكتب بيروت لبنان

132-الصفوة فى وصف المملكة المصرية، تأليف: محمد بن أبي الفتح الصوفي الشافعى، المتوفي سنة 950 هـ/1543 م، دراسة وتحقيق: هبة محمد ياسين حجة، إشراف الدكتور: عدنان محمد ملحم، رسالة ماجستير نوقشت فى جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين 2014 م

133-تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تأليف: محيي الدين بن عبد الظاهر ؛ رئيس ديوان الإنشاء، حققه: الدكتور مراد كامل، راجعه: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الشركة العربية للطباعة والنشر، الجمهورية العربية المتحدة 1961 م

134-ذكر تملك جمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية: تأليف المعلم نقولا التركي، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة 2014 م

135-تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تأليف: شمس الدين أبى عبدالله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزرى القرشى، المتوفى سنة 738 هـ، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية صيدا بيروت

136-تاريخ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، 779-851 هـ/1377-1448 م، اختصره من تاريخه الكبير الذي ذيل به على كتب من تقدموه من مؤرخي الشام: الذهبي والبرزالي وابن كثير وغيرهم، حققه: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، الجفان والجابي للطباعة والنشر 1994 م

137-رحلة التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني، قدم لها: حسن حسني عبد االوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس 1981 م

138-كتاب الجغرافيا وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما فى كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما فى الأرض من الأميال والفراسخ، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري، المتوفي فى أواسط القرن السادس الهجري، حققه: محمد حاج صادق، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة

139-كتاب صورة الأرض، تأليف: أبي القسم ابن حوقل النصيبي، الطبعة الثانية دار صادر بيروت

140-مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702 هـ، تأليف: بيبرس المنصورى نائب السلطنة فى مصر المتوفي سنة 725 هـ، حققه: دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الناشر: الدار المصرية اللبنانية القاهرة 1993 م

141-مرآة الزمان فى تأريخ الأعيان الحقبة 345-447 هـ، تأليف: شمس الدين أبي المظفر يوسف علي بن عبدالله البغدادي سبط ابن الجوزي، المتوفي سنة 654 هـ، دراسة وتحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، الدار الوطنية بغداد 1990 م

142-الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار، تأليف: الحسين بن محمد الورثيلاني، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى القاهرة 2008 م

143-تالي كتاب وفيات الأعيان، جمع وتأليف: فضل الله بن أبي الفخر الصُقاعي الكاتب النصراني، المؤلف من عشر سني الستين وستمائة إلى آخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة هـ، تحقيق: جاكلين سوبلة، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق 1974 م

144-النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، تأليف: محمد بن السرور البكري الصديقي، دراسة وتعليق: عبد الرازق عبد الرازق عيسى، الناشر: العربي للنشر والتوزيع، مطبعة النيل الطبعة الأولى 1998 م

145-تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، يوسف الملواني الشهير بابن الوكيل المتوفي سنة 1131هـ/1719م، تحقيق: محمد الشناوى، الناشر: دار الآفاق العربية الطبعة الأولى 1999م

146-كتاب الدرة المصانة، تأليف: الأمير أحمد الدمرداشي كتخدا عزبان، تحقيق: الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1989م

147-روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر، تأليف: محب الدين أبي الوليد محمد بن أحمد ابن الشحنة، المتوفي سنة 815 هـ، تحقيق: سيد محمد مهنى، منشورات محمد علي بيضوب دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1997م

148-نزهة الآنام فى تاريخ الإسلام 628هـ/1230م-659هـ/1261، تأليف: صارم الدين إبراهيم بن محمد يدمر العلائي الملقب بابن دقماق المتوفي سنة 809هـ، دراسة وتحقيق: الدكتور سمير طبارة، المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الأولى 1999م

149-البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تأليف: حضرة الذكى الألمعى ذى القول السديد محمد بك فريد وكيل قلم قضايا الدائرة السنية، الطبعة الأولى 1890م المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية

150-دليل مصر: تاريخ أشهر رجال العصر بمصر، تأليف يوسف آصاف أفوكاتو وصاحب ومحرر جريدة المحاكم، طبع بالمطبعة العمومية بمصر سنة 1890م

151-صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، تأليف ذكى فهمى، مطبعة الاعتماد مصر 1926م

152-مفاكهة الخلان في حوادث الزمان المؤلف: شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الحنفي (المتوفى: 953هـ) وضع حواشيه: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م

153-شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: 1089هـ) حققه: محمود الأرناؤوط خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م

154-مرآة الزمان في تواريخ الأعيان المؤلف: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» (581 - 654 هـ) تحقيق وتعليق: محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزيبق الناشر: دار الرسالة العالمية، دمشق - سوريا الطبعة: الأولى، 1434 هـ - 2013 م

155-الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المؤلف: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني المعروف بابن الفوطي (المتوفى: 723هـ)

156-عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: 855هـ)

157-هذا الرجل من مصر، تأليف: لمعى المطيعى، الطبعة الثانية 1997م دار الشروق القاهرة

158-الرحلة العياشية، ابو سالم عبد الله بن محمد العياشى، حققها: د سعيد الفاضلى ؛ د سليمان القرشى، الطبعة الأولى 2006م دار السويدى للنشر والتوزيع أبو ظبى

159-عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي (المتوفى 1237هـ)، الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

160-النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ابن العسال مفضل بن ابى الفضائل، تحقيق د محمد كمال الدين عز الدين على السيد، الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر دمشق، الطبعة الأولى 2017م سوريا

161-الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى، د زبيدة محمد عطا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

162-مجالس السلطان الغوري، صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري، تأليف: عبد الوهاب عزام، الناشر: مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة

163-رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحرى فى عهد الخليفتين المأمون والمعتصم، جمعها وحققها: تيسير خلف، الطبعة الأولى 204م بيروت لبنان، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر

164-مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى - د.علي إبراهيم حسن -مدرس التريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول ، الناشر: مكتبة النهضة المصرية 1947م

165-نظرة عامة على مصر فى زمن بونابرت، جان جاك لوتى، ترجمة: ناجى رمضان عطية، المشروع القومى للترجمة الطبعة الأولى 2008م القاهرة

166-الروزنامة: الحولية المصرية للوثائق, الناشر: دار الكتب والوثائق القومية مصر

167-أهل الذمة فى الإسلام، تأليف: أ.س ترتون، ترجمة: الدكتور حسن حبشى، الناشر: الهيئة العامة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة 1994م

168-تقرير الحالة الحاضرة لمصر 1671م، جوفنى ميكيله فنسلبيو، ترجمة: وديع عوض، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة الطبعة الأولى 2006م

169-رحلات إلى الأراضى المقدسة، ليوناردو فريسكوبالدى ؛ سيمونه سيغولى، ترجمة: شيرين إيبش، الناشر: مكتبة قريش، هيئة أبو ظبى للثقافة والتراث دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى 2010م أبوظبى الإمارات العربية المتحدة

170-أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، د سلام شافعى محمود، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1995م

171-تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية، من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، د فاطمة مصطفى عامر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 2000م

172-الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة، الرحالة العثمانى أوليا جلبى (المتوفى سنة 1684م)، دار الآفاق العربية، نقلها إلى العربية: د حسين مجيب المصرى وآخرون

173-إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تاريخ البقاعى، إبراهيم بن عمر البقاعى (1406-1480م)، تحقيق: د محمد سالم بن شديد العوفى، جامعة محمد بن سعود الرياض الطبعة الأولى 1992م

174- نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد (366-420 ه)، نشرها: أيمن فؤاد سيد

175-الصعيد الأعلى فى العصر الفاطمى، دراسة للحية الإقتصادية والإجتماعية، دكتور عبد الحميد حسين حمودة كلية الآداب جامعة الفيوم، الدار الثقافية للنشر الطبعة الأولى 2011م القاهرة

176-تاريخ الأزمنة، البطريرك اسطفان الدويهي، حققها الآباتي بطرس فهد، المكتبة الفاتيكانية مخطوطة رقم 215، منشورات دار لحد خاطر بيروت لبنان، الطبعة الثالثة

177-لمحة عامة إلى مصر أ. ب. كلوت بك (أنتونى برتلمى 1793-1868م)، ترجمة: محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الأولى 2011م القاهرة

178-تاريخ الرهاوى المجهول، عربه عن السريانية ووضع حواشيه: الأب ألبير أبونا، مطبعة شفيق بغداد 1986م ، توزيع مكتبة النور كاتدرائية القديس يوسف العلوية بغداد

179-وثائق أهل الذمة فى العصر العثمانى وأهميتها التاريخية، د سلوى على ميلاد كلية الآداب جامعة القاهرة، الناشر: دار الثقافة للنشر والتوزيع 1983م القاهرة

180-التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، البطريرك أفتيشيوس المكنى بسعيد ابن بطريق، كتبه إلى أخيه عيسى فى معرفة التواريخ الكلية، طبع فى بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة 1905م

181-تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، للحسن بن عمر الحسن بن عمر بن حبيب المتوفى سنة 799 للهجرة 1377م، مركز تحقيق التراث وزارة الثقافة، حققه: د محمد محمد أمين أستاذ العصور الوسطى جامعة القاهرة، الناشر: مطبعة دار الكتب 1976م

182-تاريخ ما أهمله التاريخ على ضفاف النيل، حبيب جاماتى، الناشر: دار الكتاب العربى، الطبعة 2012م القاهرة

183-تاريخ ابن الوردي، المؤلف: عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (المتوفى: 749هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى 1996م

184-تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، المؤلف: حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري (المتوفى: 966هـ)، الناشر: دار صادر بيروت لبنان

185-قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان، المؤلف: كمال الدين أبو البركات المبارك بن الشعار الموصلي (المتوفى: 654 هـ)، المحقق: كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة: الأولى 2005 م

186-الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى، د محمد عفيفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م

187-مفاخر الأجيال فى سير أعاظم الرجال، إبراهيم مصطفى الوليلى معاون إدارة بمديرية الغربية، الناشر، مطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، الطبعة الثانية 1934م مصر

188-رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة د حسن حبشى، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى 2002م القاهرة

189-مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702 هـ، بيبرس المنصورى نائب السلطنة فى مصر المتوفى سنة 725 هجرية، حققه: د عبد الحميد صالح حمدان، الناشر: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 1993م